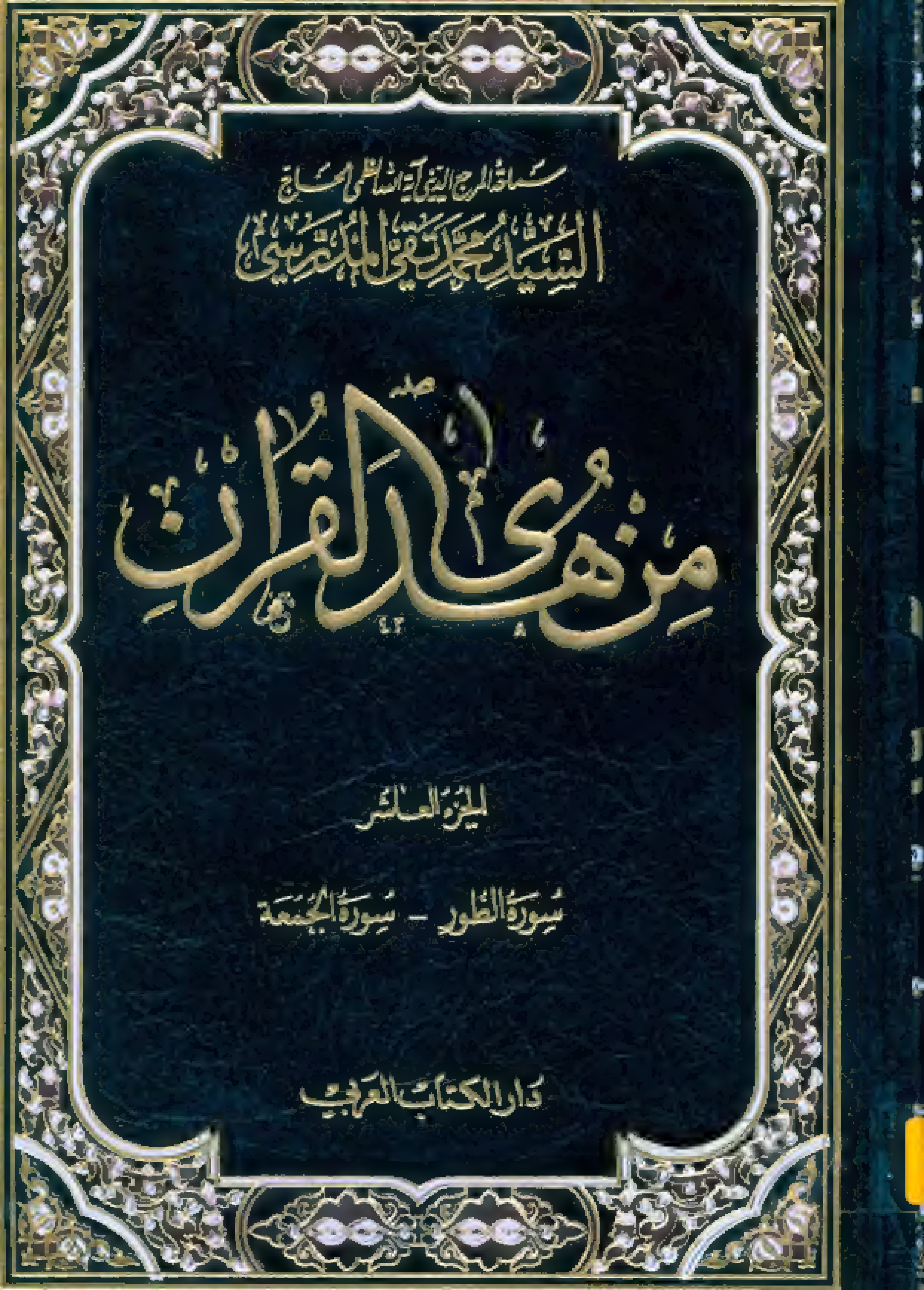

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء العاشر
سورة الطور - سورة الجمعة
دار الكتاب العربي




من هدى القرآن
١٠



سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء العاشر

سورة الطور - سورة الجمعة

دار القارئ

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.
■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).
■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد
■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع
تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/٩٠٢٩٤٤
Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين



سُورَةُ الطُّور

* مكية.

* عدد آياتها: ٤٥.

* ترتيبها النزولي: ٧٦.

* ترتيبها في المصحف: ٥٢.

* نزلت بعد سورة السجدة.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام قالا: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الطُّورِ جَمَعَ اللهُ لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٦)

الإطار العام

متى يؤمن الإنسان بربه

قَسَماً بالطور، والكتاب المسطور. قَسَماً بالبيت المعمور، وبالسقف المرفوع. قَسَماً بالبحر المسجور، إن عذاب الله حق، وإنه واقع بالتأكيد (الآيات: ١-٨).

بهذه الكلمات الصاعقة تفتتح السورة التي جاءت لشفاء الإنسان من مرض الجدل، وما أكثره جدلاً.. متى يصدِّق بهذه الحقائق؟ أفي يوم تمور السماء موراً، وتسير الجبال سيراً، وهل ينفعه التصديق يومئذ حيث يصب الويل للمكذبين؟ (الآيات: ٩-١١).

إنهم لم يكونوا يأبهون بالنُّذُر، بل كانوا سادرين في لعبهم، فهل لهم أن يستمروا كذلك يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعّاً،وهل لهم أن يكذبوا بنارها التي تتقد أمامهم، أم يقولون يومئذ: إنها خيال وسحر زائف؟!.

ليس المهم ما يقولون، ولا أنهم يصبرون يومئذ على النار أم لا يصبرون، لأنهم مواقعو النار، يصلون لهيبها بما كانوايعملون (الآيات: ١٢-١٦).

هكذا تتواصل الآيات تستزيح من نفس الإنسان حالات الجدل واللعب والتهرب من الحقائق بالأعذار التافهة، ولكيلا يستريح الإنسان إلى الرخاء الظاهر والأمن المؤقت الذي يعيشه اليوم، لابد أن يتحسس ذلك اليوم الذي عتر فيه كل شيء؛ من السماء التي كانت سقفاً محفوظاً، إلى الجبال التي كانت ركناً شديداً.

ثم يرسم السياق لوحة بارعة الجمال تتجلى فيها صورة أهل الجنة، وهم يتنعمون في جنات واسعة، بعيدين عن عذاب الجحيم، يأكلون ويشربون بما عملوا من الصالحات في حياتهم الدنيا، وقد استراحوا على سرر مصفوفة، وزوَّجهم الله بحور عين، وحولهم الصالحون من ذريتهم، ووفَّر الله لهم النعم من الفاكهة واللحم والكأس الكريم، ويتذاكرون نعم الله عليهم، أولم يكونوا مشفقين في

أهلهم، وجلين من عذاب جهنم، فقد وقاهم ربهم -بمنه- عذاب السموم (الآيات: ١٧-٢٧).

وبعد أن نشاهد هذه اللوحة التي تثير اشتياق النفوس الكريمة، يتناول السياق ما يبدو أنه الموضوع الرئيسي للسورة، وهو معالجة حالة الجدل في الحقائق الواضحة، وذلك بتسفيه الأعذار التي يتشبث بها الإنسان للتهرب من قبول الحق، وهي مظاهر مرض الجدل الخطير. لقد قالوا: إن الرسول كاهن أو مجنون، وقالوا: بل هو شاعر فإذا مات انتهت دعوته، وقالوا: إنه افتراه.

كل تلك الدعايات تتلاشى حينما يضعها الإنسان في إطار الحقائق الكبرى، ويتصور نعم الله التي يسبغها عليه (من الطور وكتاب مسطور والسقف المرفوع و.. و..) وعندما يتحسس يوم القيامة عندما تمور السماء موراً، وتسير الجبال سيراً، كذلك تتلاشى أفكار مشابهة مثل التفكير في عدم الحاجة إلى البارئ (الآيات: ٢٧-٣٤).

ويتساءل السياق: إذن هل هم خلقوا أنفسهم؟ أم أنهم خُلِقوا من غير شيء؟ ومن الذي خلق السماوات والأرض؟ كلا؛ بل لا يوقنون، وهذه هي مشكلتهم الأولى، ومن يريد الفرار من الحقيقة الواضحة لا يجد أمامه سوى هذه الخرافات (الآيات: ٣٥-٣٦).

ويمضي الذكر الحكيم في بيان ضلالاتهم وتفنيدها، فمن يا ترى يسيطر على خزائن السماوات والأرض؟ ثم يقولون: إن لله البنات، فهل لهم البنون، ولله ما يعتبرونه الأدنى أي البنات، ما لهم كيف يحكمون؟ (الآيات: ٣٧-٣٩).

أم تراهم يخشون من دفع غرامة إن هم آمنوا، أو يُطالبوا بأجر، أم أنهم يعلمون الغيب بوضوح فيعتمدون عليه في تخرصاتهم؟.

و بهذه التساؤلات الحادة المتتالية يستثير القرآن عقولهم ووجدان ضمائرهم حتى يروا بطلان تلك الأفكار بأنفسهم (الآيات: ٤٠-٤١).

ثم يقول: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾، ويبدو أن هذا هو جواب التساؤلات، ولكن ليعلموا أنهم هم المكيدون، وأنه لا إله إلا الله الواحد لا شريك له، وأنه لا علاج لمثل هؤلاء عندما يرون العذاب، فيقولون: سحاب مركوم. فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون، ذلك اليوم الذي لا تنفعهم فيه مكائدهم، وليس هناك من ينصرهم وينجيهم من صعقة العذاب (الآيات: ٤٢-٤٦).

وبعد أن يذّكر القرآن أولئك الكفار بأن عذاب الدنيا نذير لعذاب الآخرة، يأمر الرسول والمؤمنين بالصبر لحكم الله، فإنه وإياهم في رعاية رب العزة، ويأمره وإياهم بالتسبيح ليلاً وعند الأسحار (الآيات: ٤٧-٤٩).

إن عذاب ربك لواقع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ[1] (١) وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ[2] مَّنشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ[3] (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ[4] (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ (٧) مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْرًا[5] (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ[6] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم[7] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ

---

(١) والطور: الطور هو جبل سيناء، وقيل: هو جبلٌ بمدين.
(٢) رق: الرق هو الجلد الرقيق المدبوغ.
(٣) البيت المعمور: قيل: إنه بيت الله الحرام، وقيل: إنه الضراح في السماء الرابعة، وقيل السابعة، وهو بيت يلي البيت الحرام فوقه.
(٤) السقف المرفوع: السماء.
(٥) تمور موراً: المور الاضطراب: وهو تردد الشيء جيئةً وذهاباً.
(٦) يُدعّون: الدّع الدفع بعنف وقوة.
(٧) وما ألتناهم: ما أنقصناهم.

﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ(١) فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ(٢) (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ(٣) (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾.

هدى من الآيات:

قسماً بنعم الله التي تعمر الأرض مثل الطور وكتاب مسطور في رق منشور (فالطور يؤمن الناس من الخطر والدستور الصائب ينظم علاقات الناس ببعضهم) والبيت المعمور والسقف المرفوع (حيث الأمن والأعمار) والبحر (حيث تمخر سفن البشر) المسجور (إن نزل عذاب الله).. إن كل هذه النعم ليست دائمة للبشر؛ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع (لأن الأدوات الحضارية لم تكفِ لمواجهة عذاب الله) يوم تضطرب السماء و تسير الجبال (ولا يشمل العذاب إلا من يستحقه) فويل يومئذ للمكذبين (وهم يتصورون إن التكذيب ينفعهم، كلا، إنه يزيدهم عذاباً والمكذبين يخوضون في أفكار خاطئة يلعبون بها دون إن يكونوا جديين في طرحها). إنما هؤلاء الذين كانوا في خوض يلعبون يوم و يدفعون إلى نار جهنم هنالك تكشف لهم الحقائق؛ فهذه النار التي كانوا يكذبون بها، ويقولون للرسالة التي أنذروا بها إنها سحر سواء صبروا أم لم يصبروا فهم يحترقون بها، بينما المتقون ينعمون في الجنة مسرورين بما رزقهم الله وبما وقاهم من النار، يأكلون و يشربون و يرتاحون على السرر المصفوفة ويتلذذون بزوجاتهم من الحور العين كما يستأنسون بذريتهم الذين يلحقهم الله بهم.

وكانت تلك ثواباً لأعمالهم، فكل امرئ بما كسب رهين.

ويزيدهم الله من فضله بفاكهة ولحم مما يشتهون ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون.

ومن نعم الله عليهم مؤانستهم مع إخواتهم حيث قالوا (لبعضهم البعض) إنا كنا قبل في أهلنا خائفين من عذاب الله فاتقينا ما يسخطه، فمنّ الله علينا ووقينا عذاب السموم. (وهكذا

(١) يتنازعون: يتعاطون، وقيل: على سبيل المزاح والمفاكهة.
(٢) مشفقين: خائفين من العذاب، إذ من لا خوف له لا يعمل صالحاً إلا في الأندر النادر.
(٣) عذاب السموم: أي النار النافذة في المسام وثقب الجسد.

أعتقهم الله من نار جهنم بفضله وتقواهم و بدعائهم) إنا كنا من قبل ندعوه (فاستجاب دعاءنا) إنه هو البر الرحيم.

بينات من الآيات:

[١-٦] للقسم الذي يرد في القرآن، ويتركز في السور المكية التي تعالج أكثر ما تعالج عقائد الإنسان، عدة أهداف، أبرزها:

١- الربط بين العقيدة التي يدعو الله الناس إليها وبين حقائق العالم، وأصل القسم هو إبداء الصلة بين شيئين، فالحلف بالله على فعل أمر أو عدم فعله، صدقه أو كذبه، هدفه الربط بين عقيدة الإنسان بالرب وبين ذلك الأمر لإقناعه به. أما القرآن ففيه نوع من التجاوز لهذه القاعدة، لأن كلام الله لا يحتاج إلى إثبات من خارجه، وإنما الهدف من القسم فيه هو بيان الصلة بين الغيب والشهود، بين ما يجهله البشر من حقائق الخلق وبين ما هو ظاهر منها.

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ١-٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ١-٤]. وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ١-٥].

ففي المثال الأول: يربط القرآن بين الليل حين يلف الدنيا بظلامه، والنهار عندما يظهر ظهورا تاما بأنواره، وما بينهما من اختلاف نجده بصورة أخرى عند الذكر والأنثى، وبين اختلاف السعي والمذاهب عند الناس.

وفي المثال الثاني: يربط بين عظمة الشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، والنفس وطبيعتها، وبين فلاح من يزكيها وخيبة الذي يغمسها في رواسب الذنوب والانحراف.

وفي المثال الثالث: نجد ربطا بين الضحى بإشراقه الذي هو وقت الحركة والنشاط، والليل الذي هو وقت الراحة والسبات، وبين الحقائق التالية: أن الوحي لم ينقطع عن النبي، وأن الآخرة أفضل من الدنيا، وأن عطاء الله يعوّض للإنسان متاعبه وتضحياته وأكثر من ذلك حتى يرضى به.

وعند التدقيق في الأمثلة المتقدمة نجد أن المقسم به يمثل الشهود (الجانب الظاهر من

الحقائق) في حين أن المقسم عليه يمثل الغيب (الحقائق الخافية أو المعنوية)، والصلة بين الاثنين قائمة في عالم التحقيق، ولكننا ربما جهلناها أو غفلنا عنها، فتأتي الآيات لتوضحها وتذكرنا بها، وهذا ما نجده في سائر آيات القرآن.

٢- وفي القَسَم القرآني علاج لغرور البشر، ليخرج من كبره وقوقعة ذاته إلى رحاب الحقائق، ذلك أن القَسَم ينطوي على تذكيره بما حوله من مخلوقات عظيمة، كالبحار التي هي أعمق منه، والسماء التي هي أوسع منه، والجبال التي هي أطول وأضخم من جسمه، وهذا التوجيه والإلفات إلى الحقائق التي تلتقي كلها عند التذكير بالله، لا شك أنه سوف يُحدث في نفسه انبهاراً إيجابياً بعظمة الخالق مما يقوده إلى التسليم إليه.. والقرآن يصرح بهدف تحطيم كبرياء الإنسان من وراء ذلك عندما يقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

٣- كما تبين الآيات من خلال القسم في كثير من موارده حسن التدبير وسلامة الصنع في الخلق، وبالتالي دلالة ذلك على هدفية الحياة، هذه الحقيقة التي ينبغي للإنسان إدراكها، وتكييف تفكيره وسلوكه وفقها، فهل يعقل أن تكون مفردات الحياة (الجبل، والكتاب، والجلد الذي يسطر عليه، وبيت العبادة، والسماء، والبحر) كلها ذات حكمة وهدف إلا الإنسان حتى يخوض ويلعب؟! كلا.. إنه الآخر خُلِق لهدف فلا بد أن يتعرف عليه، ويسعى لتحقيقه، وإلا راح طعمة لنار جهنم تقع عليه ألوان من العذاب لا يدفعها عنه شيء.

﴿وَٱلطُّورِ﴾ قَسَماً بالجبل وما يمثله من مظاهر قدرة الله وحكمته، وأي جبل هو طور في اللغة، ولكن أبرز الجبال وأعظمها التي يتوجه لها هذا القسم بصورة خاصة هو طور سيناء الذي تلقى النبي موسى عليه السلام عنده الوحي، والذي نتقه الله ورفعه على رؤوس بني إسرائيل حينما عصوا الرسول، وكذلك جبال مكة التي تلقّى فيها نبينا محمد صلى الله عليه وآله الوحي عند غار حراء، فذكر الطور إذن يذكر المؤمنين بآيات وجوانب كثيرة من قصة رسالة إلهية عظيمة.. لهذا نجد ذكره يقترن بذكر الكتاب الذي أنزل على جنباته، لذلك يقسم الرب مباشرة بالكتاب فيقول: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ وهذا التلازم نجده في دعاء لفاطمة عليها السلام عن أبيها صلى الله عليه وآله فيه: «الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ النُّورَ مِنَ النُّورِ، وَ أَنْزَلَ النُّورَ عَلَى الطُّورِ، فِي كِتابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، بِقَدَرٍ مَقْدُورٍ، عَلَى نَبِيٍّ مَحْبُورٍ»[1].

ولأن الكتاب بذاته لا يتم به النفع مهما بلغ من الكمال إذا كان معطلاً ومطوياً جاء القسم به حال كونه منشورا يُرى ما فيه من الآيات.

(١) بحار الأنوار: ج٤٣، ص٦٦.

﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ والرق هو الجلد الرقيق اللامع، يقال ترقرق الشيء إذا لمع، وهو أفضل ما يكتب عليه من الجلد.

ثم يقسم الله بالبيت الذي يعمر بالعبادة كما يريدها أو بالبناء فيقول: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ ومن أبرز تجليات هذه الآية بيت العصمة والنبوة الذي قال عنه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، والذي قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وهكذا بيوت العلم والعبادة، وأبرزها الكعبة المطهرة، وقيل إنه بيت في السماء، ولا تناقض بين القولين، فالكعبة هي تجلٍّ دنيوي ظاهر لذلك البيت، وانعكاس له في الأرض.

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللهَ وَضَعَ تَحْتَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةَ أَسَاطِينَ وَسَمَّاهُ الضُّرَاحَ وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، وَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ طُوفُوا بِهِ، ثُمَّ بَعَثَ مَلَائِكَةً فَقَالَ لَهُمْ: ابْنُوا فِي الْأَرْضِ بَيْتاً بِمِثَالِهِ وَقَدْرِهِ وَأَمَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ»[1]. وفي رواية أخرى عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «الْبَيْتُ [الْمَعْمُورُ] الَّذِي فِي السَّمَاءِ يُقَالُ لَهُ الضُّرَاحُ، وَهُوَ بِفِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ لَوْ سَقَطَ سَقَطَ عَلَيْهِ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفُ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَداً»[2]. وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث المعراج قال: «فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ رُدَّ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَ هُوَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بِحِذَاءِ الْكَعْبَةِ»[3].

ويضيف القرآن قسما آخر فيقول: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ فما هو السقف، وما هي دلالته؟.

قد تصدق هذه الكلمة على سقف البيت أو المسجد، إلا أن أظهر المصاديق الذي وردت فيه الأدلة هو السماء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: ٣٢] وعن الصادق عليه السلام: «خَلَقَ اللهُ السَّمَاءَ سَقْفاً مَرْفُوعاً وَلَوْلَا ذَلِكَ اغْتَمَّ خَلْقُهُ بِقُرْبِهَا، وَأَحْرَقَتْهُمُ الشَّمْسُ بِدُنُوِّهَا»[4].

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص١١٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٥٥-٥٦.
(٣) تفسير العياشي: ج١، ص١٥٧، بحار الأنوار: ج٨١، ص١١٩.
(٤) بحار الأنوار: ج٣، ص ١٩٠-١٩١.

وقد أيد صاحب المجمع ﴿رحمه الله﴾ ذلك عن علي عليه السلام [1]، وفي السقف دلالة على السلام والأمن.

وقد يكون من المصاديق الظاهرة والقريبة للكلمة طبقة الغلاف الجوي المحيطة بالأرض، حيث تصد النيازك والشهب عن الوصول إلى الأرض، كما تمتص وتحجب كميات من الوحدات الحرارية والضوئية الساقطة على الأرض من الشمس وغيرها، التي من شأنها لو سقطت بكلها أن تضر بالحياة عليها.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قيل: «يسجر يوم القيامة»[2]، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، أي صُيِّرت محمية كالنار والتنور، ويبدو لي أن المسجور الممتلئ والمتلاطم الموج، وهكذا في المنجد قال: «سجر التنور: ملأه وقودا وأحماه، والماء النهر ملأه، والبحر فاض، وسجر البحر هاج وارتفعت أمواجه»[3].

والعلاقة بين هذه الأشياء التي أقسم بها الرب قد تكون علاقة المعنى بالمادة، والمدنية المادية بحضارة القيم، فلو أخذنا ريشة، وحاولنا رسم صورة أو تصور عن مجموع ما ذكر لكان التالي: جبال + عمران مدني + السماء + البحار (ذات الأثر الكبير في تحضر الشعوب) + ذلك المجتمع الذي تحكمه رسالة الله (الكتاب)، وهذه هي معالم الحضارة الأساسية.

[٧-٨] ومن الغلط أن يعتمد الإنسان على نعم الله، ويسخرها دون أن يحسب حسابا للعذاب فيضل أو يتعاطاها بعيدا عن بصيرة الإيمان، إنما ينبغي أن يكون من العقلاء، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، وهكذا من التعرف على هدفية كل شيء حوله يهتدي الإنسان إلى هدفه في الحياة فيسعى له، ومن الشهود الذي يراه ويتحسسه ينفذ ببصيرته إلى الإيمان بالغيب.. ومن هنا تكون العلاقة واضحة ووثيقة بين ما تقدم من الآيات وهذا التأكيد على العذاب.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ويبدو أن المقصود بالعذاب هو المعنى الشامل كما في الدنيا وما في الآخرة يدل عليه قوله في آخر هذه السورة: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧]، ذلك أن عذاب الدنيا نفحة من عذاب الآخرة، ودليل عليه، ونذير

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٢٠٩.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٣٣١.
(٣) المنجد: باب سجر.

ملموس من نذره.

والوقوع هنا ليس بمعنى الحدوث، بل بمعنى التحقق والواقعية، فكما أن الجبال والكتب والبيت والسماء والبحار كلها حقائق لا يشك الإنسان في وجودها، فإن عذاب الله هو الآخر واقع حق، يراه المخلصون باليقين وبالآيات والإشارات الدالة عليه في الدنيا، فيعملون على تجنبه، ويقيهم الله منه ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الطور:١٨]، في الوقت الذي يعمى عنه الآخرون، فيتخذون الحياة خوضا ولعبا، فيقعون في العذاب دنيا وآخرة، ولا يكتشفون هذه الحقيقة التي ذهلوا عنها إلا عند الموت ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢].

إن السعي من قبل الإنسان لتصحيح مسيرته والعمل الصالح يكون مجديا قبل تورطه في النتائج العملية لأخطائه، أما إذا حل به العذاب فلن يجد وسيلة للوقاية عنه، وبالذات إذا كان عذابا من الله ﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾.

[٩-١٠] وماذا عسى أن تبلغ قدرة هذا الإنسان الضعيف والمحدود حتى يقدر على تحدي الله ودفع عذابه؟ أم يحسب أنه عذاب وغضب يصدر عن إنسان مثله حتى يكون رده ممكنا؟ كلا.. إنه من الرهبة والعظمة بمكان تمور به السماء مورا على سعتها وسمكها الذي لا تصل إليه عقولنا، وتسير الجبال المتأصلة في الأرض عن مواقعها ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ أي تتحرك بسرعة هائلة، ويتداخل بعضها في بعض، كما يتداخل ماء البحر الهائج في بعضه، إلا إن المور هو الحركة السريعة من دون ضوضاء.

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ وبالتدبر في القرآن نخلص إلى أن للجبال يوم القيامة ثلاث حالات عبر مراحل ثلاث متتاليات أيضا وهي:

الأولى: الحركة من مكانها والسير، كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير:٣].

الثانية: تحولها إلى جزيئات وذرات صغيرة يقول تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

الثالثة: وأخيرا تتلاشى، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥]، وقال حاكيا التتالي في هذه المراحل: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، ويبدو أن الجاذبية تنعدم يوم القيامة فتفقد الأجسام وزنها، وحيث تقع في الفراغ من الجاذبية تتفكك جزيئاتها فتصير أجساما وذرات صغيرة ثم تتلاشى وتضحى كالسراب.

[١١] وحين تواجه النفس البشرية حقائق عظيمة تثقل عليها تتهرب منها بالتكذيب بها زاعمة أن ذلك يجديها نفعا. ويوقفها القرآن أن التكذيب ليس لا يغني عنها شيئا، بل هو بذاته يستدرج عذابا عظيما، فلا فرار إلا إلى الله والتسليم للحقائق ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وبما أن المكذبين يعتمدون على قيم وعلاقات مادية، يزعمون أنها تنفعهم شيئا عندما يكذبون بالحقائق، فقد نسفها نسفا، وبيّن أن النظام الكوني على عظمته لا يستقر يوم القيامة فكيف بهذه العلاقات والقيم؟.

[١٢] ويسقط المكذبون من حسابهم حقيقة الجزاء، فلا يشعرون بالمسؤولية، مما يجعل حياتهم عبثية، بعيدة عن الضوابط والكوابح، هائجة في غمرات اللهو واللعب ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾.

وهذا التعريف لشخصية المكذبين يهدينا إلى حقيقتين هامتين:

الأولى: أن المكذب ليس الذي يقول ببطلان الرسالة الإسلامية وحسب، بل هو كل إنسان لا يتحمل المسؤولية في الحياة.

الثانية: أن المكذبين بالرسالة من أجل التهرب من تحمل المسؤولية، أوَليست الرسالة تدعو إلى الجد والجهاد والإنفاق و.. ، إذن فليكفروا بها لكيلا يتحملوا شيئا من ذلك! ولكن أين المفر من عذاب الله؟

[١٣] ولأن الحديث عن هذا الفريق من الناس فإن جرس الخطاب يأتي عنيفا وغليظا.

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ والدَّعُ ربما يكون الدفع بعنف وجفوة وتكرار، وقد يؤيده قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الماعون: ١-٢]، ولعل احتمال شمول كلمة (الدع) لمعنى التكرار يأتي نصًا من وجود المفعول المطلق الجنس لا المفرد، فلم يقل الله: ويدعون دعة، إنما قال: ﴿دَعًّا ﴾، ولعل المكذبين يحاولون يومئذ الخلاص من جهنم لعظيم عذابها، فلا يتقدمون إليها فيُدفعون نحوها مكرهين المرة بعد الأخرى.

[١٤] وعندما يوقفون عليها يأتيهم الخطاب: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ وهي جزء من تكذيبهم العام للحقائق التي جاءت بها الرسالة.

[١٥] وهناك حيث يرون جهنم ويصلون بنارها يُسألون: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ إن الحقائق الغيبية التي يتحدث عنها الوحي الإلهي ظاهرة كظهور الحقائق

الشاخصة أمام الإنسان، بل هي في بعضها أشد تجلّياً ووضوحاً، ولكن بصيرة البشر محجوبة بالغفلة والشهوة، وقلبه محاط بالجحود والكبر، فتراه لا يصدق بها، ويفسر آياتها وعلائمها بما لها من قوة التأثير عليه بأنها ضرب من السحر. عجباً لهذا الإنسان الخصم اللدود كيف يتعالى على الحقائق وينكرها، ويزعم أن آثارها على نفسه ليست سوى الخيال المركّز الذي يسمى بالسحر، فهل يستطيع أن يفسر نار جهنم أيضا بأنها سحر؟.

[١٦] إن النار حق جلي يراه المتقون في كل إثم ومعصية، فالكذب والغش والنفاق والخيانة و. . . كل ذلك في بصيرتهم قطعات من نار جهنم، لهذا تجدهم يتجنبون الموبقات اتقاء جهنم، أما المكذبون فهم محجوبون عن هذه الحقيقة، لذلك تجدهم يتخبطون في النار من حيث لا يشعرون، باقترافهم الذنوب التي تتجسد غدا نارا حامية، وتتوضح لهم هذه الحقيقة في الآخرة عندما تتحول جرائمهم إلى تلال من الأفاعي والعقارب.

﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الآخرة بعكس الدنيا تماما، فلا الصبر والاحتمال ينفع ثمة ولا التحدي والمواجهة، قد يتألم المرء في الدنيا فيتحمل الألم بالصبر فيجديه سكينة، كما يستمطر بذلك رحمة الله، وقد يتحدى الألم بعمل مضاد فيرتفع ويُخفَّف عنه، أما الآخرة فإن الاستسلام للعذاب لا يخفف عنه، كما أن مواجهته لا تجديه نفعا، ذلك أن العذاب الذي يصلاه المكذبون في الآخرة هو بالضبط أعمالهم الدنيوية، وهناك حساب ولا عمل.

بلى؛ يستطيع الإنسان أن يتقي النار في الدنيا باجتناب السيئات وبالتوبة منها، ومتى ما عرف الإنسان أنه هو الذي يحدد مستقبله بنفسه ترك الاسترسال مع الظروف والخوض في اللعب، ونظر إلى الحياة نظرة جادة، وانطلق نحو تحمل المسؤولية بثبات.

[١٧] وهذا الإيمان نجده عند المتقين ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾.

إن الحياة الدنيا (دار الابتلاء) تشبه إلى حد بعيد حقلا مزروعا بالألغام، والفرق بين المتقين فيها وغيرهم أنهم آمنوا بهذه الواقعية فاتبعوا هدى ربهم، وساروا ضمن الخط المرسوم لهم، فوقاهم الله شر ذلك اليوم، ولقّاهم نظرة وسرورا، في حين كذب الآخرون بذلك فصاروا طعمة للعذاب، ووقودا لجهنم.

[١٨] إن الله خلق الناس ليرحمهم، كما صرح بذلك في قوله: ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٩]، وما على الإنسان لكي ينال الرحمة إلا أن يتقي ما يسخط الله فهنالك تشمله رحمات الله.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ مهما بلغ الإنسان في الدنيا من الملك والغنى فإنه لا يحس بتمام الراحة، إما لنقص في النعم أو لنقص فيه، فلذته محدودة، وهي تتعب صاحبها مهما أوتي من ثراء عريض، وآخر ما قرأناه في ذلك أن واحدا من أصحاب البلايين دفع أخيرا مبلغ ربع مليون دولار وسيارة ثمنا لقتله بعد فشله في عدة محاولات انتحار، ففعل الأجير ذلك مأثوم. هكذا لا تتم نعم الدنيا لأحد.

وفي الجنة يبلغ المؤمن غاية اللذة، فهو لا يعاني من نقص ينغص عليه، كما أن الله يرزقه حالة الرضا بنعمته، فلا يحس بالشبع، إنما يستلذ ويستلذ بالنعيم أبدا وبلا ملل.

قال الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله مُبيناً ثواب المؤمن: «فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَإِذَا هُوَ بِزَوْجَةٍ قَدْ كَادَتْ يَذْهَبُ نُورُهَا نُورَ عَيْنَيْهِ، قَالَ: فَتُنَادِيهِ قَدْ آنَ لَنَا أَنْ تَكُونَ لَنَا مِنْكَ دَوْلَةٌ. قَالَ: فَيَقُولُ لَهَا: وَمَنْ أَنْتِ؟. قَالَ: فَتَقُولُ: أَنَا مِمَّنْ ذَكَرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ فَيُجَامِعُهَا فِي قُوَّةِ مِائَةِ شَابٍّ، وَيُعَانِقُهَا سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ أَعْمَارِ الْأَوَّلِينَ، وَمَا يَدْرِي أَيَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا أَمْ إِلَى خَلْفِهَا، أَمْ إِلَى سَاقِهَا»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الرَّجُلَ فِي الْجَنَّةِ يَبْقَى عَلَى مَائِدَتِهِ أَيَّامَ الدُّنْيَا وَيَأْكُلُ فِي أَكْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِمِقْدَارِ أَكْلِهِ فِي الدُّنْيَا»[2].

ومن أعظم النعم التي يبلغها المتقون هي نعمة الشكر لله التي تزيدهم نعيما إلى نعيمهم ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، ويكون الإحساس بالنعيم وبالتالي الشكر أعمق عند الاطلاع على أهل الجحيم بين ألوان من العذاب مما يذكّرهم بلذة النجاة منها، وهذا يوضح العلاقة الوثيقة بين ذكر الله للتفكه بالنعيم، وذكر نجاة المتقين من النار ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

[١٩] كما تتميز الجنة من الدنيا بإباحة نعيمها جميعا لأصحابها، فلا حرام فيها، ولا مكروه، ولا تكليف، ولا مسؤولية، إنما يأكلون ويشربون ما يشاؤون.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ ولا يكون الأكل أو الشرب هنيئا إلا إذا كان ذاته طيبا، ومذاقه لذيذا، وكان نافعا لا يعقبه ضرر، ولا يتصل به ما يسلب صاحبه الراحة أو الاطمئنان أو المتعة، ولكن لا طريق إلى تلك النعم إلا بالعمل الصالح، لذلك يترافق مع دعوة المتقين إلى النعيم ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ بيان لهذه الحقيقة:

---

(١) بحار الأنوار: ج ٨، ص٢١٤.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢٢٨، بحار الأنوار: ج٨، ص١٨٢.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا هو السبب الوحيد إلى الجنة، فمن يتقي الله يقيه عذاب الجحيم. وعند المقارنة بين جزاء أهل النار وبين هذه الآية نرى القرآن يعبِّر هناك عن سبب العذاب بقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، في حين يعبر عن سبب الرحمة هنا بقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بإضافة كلمة الباء الدالة على البعضية، مما يدل على أن الجزاء هناك هو أعمالهم ومساوٍ لها نوعاً وكمًّا، في حين أن ثواب الله عز وجل لأصحاب الجنة مضاعف، وإنما عملهم سبب ووسيلة له فقط.

[٢٠] ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال الراغب في مفرداته: «والسرير الذي يُجلس عليه من السرور، إذ كان ذلك لأولي النعمة، وجمعه أَسِرَّة وسُرُر». وقال: «وسرير الميت تشبيها به في الصورة، وللتفاؤل بالسرور الذي يلحق الميت برجوعه إلى جوار الله تعالى وخلاصه من سجنه المشار إليه بقوله ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ»[1]، وسرر المتقين في الجنة تكون مرتبة في نظام بحيث يتقابلون فيها لا يستدبر أحدهم الآخر، ويعمّق ذلك النظام حالة السرور، لأن النفس تهوى الترتيب.

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ عند التعمق في هذه الآية والتي سبقتها نجد علاقة بين النعم الثلاث التي يذكرها القرآن جزاءً للمتقين، فأولا ذكر الإباحة في الأكل والشرب جزاء لالتزامهم بالحلال والحرام في الدنيا، وكبحهم لشهوات البطن، ثم ذكر الاتكاء على السرر مما يرمز إلى الراحة جزاء تركهم الراحة وتحملهم أعباء المسؤولية في الدنيا، وأخيرا يذكر نعمة الحور العين جزاءً وفاقا لتجنبهم الحرام من الجنس، وهذا التدبر يتصل بعمق مع كلمة المتقين.

[٢١] ولأن المتقي كأي إنسان آخر يتطلع إلى خير أُسرته، يعرِّج القرآن ليعالج هذه المسألة علاجاً مبدئيًّا، وذلك بإعطاء المؤمنين وعدا بإلحاق ذريتهم بهم في الجنة ليتم لهم السرور، ولكن بشرط أن يتبعوهم بإيمان.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وهكذا الإسلام لا يرى وسيلة إلى الجنة سوى العمل الصالح، فلا يتم التحاق الذرية لمجرد الانتساب، بل بالاتباع الواعي لمسيرة الجيل المتقدم (بإيمان)، أما مجرد الانتماء النسبي أو حتى الاتباع الأعمى لا يغني شيئا حسب منهج القرآن بغض النظر عن كون العمل صالحا أو فاسدا.

إن المنطلق في ممارسة العمل الصالح ينبغي أن يكون منطلقا سليما. أترى لو مارس أحد الطقوس الدينية بغير نية التقرب، بل لأنه ولد في أسرة مسلمة أو يعيش في مجتمع مسلم ويتماشى

---

(١) مفردات غريب القرآن: ص ٢٢٩.

مع المحيط، أو خوفا من سلطان، أو لأهداف مصلحية، فهل يكون عمله مقبولا عند الله؟.

إن الانتماء الحقيقي للصالحين ليس بالنسب والحسب، ولا بالانضمام إلى تجمعهم، إنما بالعمل الخالص لوجه الله.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]، والقرآن يضرب أمثلة هذه الحقيقة من تاريخ أقرب العباد إليه وهم الأنبياء، يقول تعالى: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١٠-١١].

بلى؛ إن الانتماء النسبي إلى المقربين والصالحين يزيد ذريتهم شرفا، ويضاعف لهم الجزاء، إكراما لآبائهم، وإكمالا للنعم عليهم، فلعل واحدا من الذرية لا ينهض به عمله ليبلغ درجة آبائه هنالك قد تدركه شفاعتهم فيلتحق بهم بدعائهم ليجتمع شمل الأسرة في مقام أمين، ولعل تتمة الآية تدل على ذلك حين يقول ربنا: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ فما ينقص الله من أعمال الأولين شيئا حين يلحق الآخرين بهم إكراما لهم.

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ وكون الإنسان مرهونا بما كسب دليل على أن شفاعة الصالحين لذراريهم التي تهدي إليها هذه الآية ليست بعيدة عن سنة الجزاء، فهم إن لم يتبعوا آباءهم لم يدخلوا معهم الجنة. ولعلنا نجد انعكاسا وتفسيرا لهذه الآية في الحديث المروي عن الرسول ﷺ إذ قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ»[1] فالآباء يضاعف لهم الجزاء لأنهم ساهموا في هدايتهم إلى ربهم.

ومن هذه الآية نهتدي إلى أن القرآن يعارض صراع الأجيال، بل ويسعى لامتصاص هذا الصراع وتحويله إلى صلة الحب والتعاون والتكامل، فهو يرسم للجيل السابق شعارا تجاه اللاحقين هو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، كما يرسم شعارًا للجيل الصاعد تجاه السابقين فيقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ

---

(١) الكافي: ج٥، ص٩.

سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

والآن دعنا نقرأ شيئا من الأخبار الواردة في تفسير هذه الآية الكريمة.

عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال: «قَصَرَتِ الأَبْنَاءُ عَنْ عَمَلِ الآبَاءِ فَأَلْحَقُوا الأَبْنَاءَ بِالآبَاءِ لِتَقَرَّ بِذَلِكَ أَعْيُنُهُمْ»[1]. وعن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إِذَا مَاتَ طِفْلٌ مِنْ أَطْفَالِ المُؤْمِنِينَ نَادَى مُنَادٍ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ: أَلَا إِنَّ فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ قَدْ مَاتَ فَإِنْ كَانَ مَاتَ وَالِدَاهُ أَوْ أَحَدُهُمَا أَوْ بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ دُفِعَ إِلَيْهِ يَغْذُوهُ وإِلَّا دُفِعَ إِلَى فَاطِمَةَ عليها السلام تَغْذُوهُ حَتَّى يَقْدَمَ أَبَوَاهُ أَوْ أَحَدُهُمَا أَوْ بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِهِ فَتَدْفَعَهُ إِلَيْهِ»[2].

[٢٢-٢٣] ويعود السياق يحدثنا عن نعيم الجنة ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وهما معا غذاء متكامل، وهذه النعمة لا تنفذ ولا تنقطع عن المتقين، بل وتصلهم بالشكل والحجم والنوع الذي تهواه نفوسهم، فالعنان هناك مطلق للشهوة يبلغ الشخص ما يريد وما يتخيل، وفي الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «فَإِذَا اشْتَهَوُا الطَّعَامَ جَاءَهُمْ طُيُورٌ بِيضٌ يَرْفَعْنَ أَجْنِحَتَهُنَّ فَيَأْكُلُونَ مِنْ أَيِّ الأَلْوَانِ اشْتَهَوْا جُلُوساً إِنْ شَاؤُوا أَوْ مُتَّكِئِينَ، وَإِنِ اشْتَهَوُا الفَاكِهَةَ تَسَعَّبَتْ[3] إِلَيْهِمُ الأَغْصَانُ فَأَكَلُوا مِنْ أَيِّهَا اشْتَهَوْا»[4].

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ قال الراغب: «والتنازع والنازعة المجاذبة، ويعبر بهما عن المخاصمة والمجادلة، قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ ... ﴾ [النساء ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ [طه ٦٢]»[5]، أما المؤمنون فلا مخاصمة بينهم. إنهم يمرحون مع بعضهم، ويتبادلون كؤوس المحبة.

والكأس التي يشربونها ليست مسكرة تسلب عقولهم فيلغون، ولا هي حرام عند الله ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾.

[٢٤] وفي الأثناء ترى الغلمان الذين ملّكهم الله إياهم في طواف دائم عليهم، يخدمونهم ويسرُّون ناظرهم، جزاءً لاجتهادهم في طاعة الله وخدمة الناس في دار الدنيا.

---

(١) الكافي: ج٣، ص٢٤٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص٢٩٣.

(٣) تدلت واقتربت.

(٤) بحار الأنوار: ج ٨، ص ٢١٤.

(٥) مفردات غريب القرآن: ص ٧٩٨.

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ ويشير القرآن هنا إلى صفتين مهمتين (يريدهما المخدوم) في الغلام، إحداهما الطاعة، وغلمان الجنة للمتقين يطيعونهم في كل شيء، ولا يكونون عليهم فهم (لهم) دائما، والأخرى الشمائل الحسنة (الجمال) وذلك مما تميل إليه فطرة الإنسان، ويُرتجى به الخير عند صاحبه، قال رسول الله ﷺ: «اطْلُبُوا الخَيْرَ عِنْدَ حِسَانِ الوُجُوهِ فَإِنَّ فِعَالَهُمْ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ حَسَناً»[1]، ولا ريب في أن الجمال وحده ليس ذا اعتبار في الإسلام، إنما إذا اجتمع مع طهارة القلب وحسن السيرة، قال الإمام علي عليه السلام: «لَا يَنْفَعُ الحُسْنُ بِغَيْرِ نَجابَةٍ [نَجاحَةٍ]»[2]، وقد جمع الله الاثنين في غلمان المتقين.

[٢٥-٢٦] ويتعمق إحساس أهل الجنة بنعيمها ولذته عند تذكر نعمة النجاة من النار.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عن حالهم في الدنيا، وصفة التشاور والتفاعل بين أفراد المجتمع المؤمن من الصفات الحضارية، وهي في الآخرة امتداد لما كانوا عليه في الدنيا، فهم مقبلون على بعضهم، وعلى العكس من ذلك فإن التمزق والتدابر من معالم التخلف عند الأمم والمجتمعات.

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ إن خشية الله هي التي تبعد الإنسان عن حياة الهزل واللعب إلى حياة الجد والسعي والنَّصَب، وتزرع في قلبه التقوى، ومن ثم تدفعه نحو تنفيذ الحق بعزم راسخ. إنها القوة المحركة التي تدفعه نحو التطبيق المستمر والمتقن لمناهج الوحي، وبما أن الخوف من القوى الأخرى، والغرور بالذات وبالعمل، وحب الراحة، وضغط الشهوة، وما أشبه، كلها قيود تُكبِّل الإنسان عن السعي والتسليم لله، فإن خشية الله تحرر الإنسان من كل تلك القيود. وربما تقابل كلمة المشفقين في هذه الآية كلمة المسرور التي جاءت في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ١٠-١٣]. والتي تعني الفرح والاختيال، والله لا يحب المختال ولا الفَرِح، ذلك أن هذا النوع من السرور (عدم الجد والمبالاة) يُضِلّ سعي الإنسان أو يعطله تماما عن الكدح إلى ربه، بل ويدفعه نحو أهداف تافهة أو فاسدة.

[٢٧] وإشفاق المتقين ليس لأنهم لا يعملون بطاعة الله، وإنما لإيمانهم الراسخ بأن العمل وحده لا يدخلهم الجنة، ولا يخلصهم من العذاب، إلا بفضل الله، وتتأكد لهم هذه الحقيقة عند الحساب، وحينما يصيرون إلى النعيم.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٣٩.

(٢) غرر الحكم: حكمة ٩٣٩٦.

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾ فأدخلنا الجنة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ وهو الحر الشديد الذي يلفح الوجوه في النار.

[٢٨] وما كان المتقون يُغفلون دور الدعاء الذي يزكّي نفوسهم، ويرفع أعمالهم، ويستنزل فضل الله ورحمته ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ ﴾ ولم نكن نعتمد على عملنا وحده، إنما نتوكل على الله، ونسأله القبول والرحمة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ والبر: فاعل الخير والإحسان.

سبحان الله عما يشركون

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ[1] بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ[2] ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ[3] مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ[4] ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) نتربص: ننتظر.

(٢) تقوّله: اختلقه.

(٣) مغرم: التزام غُرْم.

(٤) يصعقون: يموتون.

هدى من الآيات:

يعالج هذا الدرس الحجب التي منعت الكفار من الإيمان بالرسالة. إنهم لم يعرفوا كيف يمكنهم أن يبرروا موقفهم من الوحي، فقالوا عن الرسول: إنه كاهن، ثم اتهموه بالجنون، بل وسمَّوه شاعرا، ثم أكدوا ضلالتهم بعدما تبين لهم بطلان التهم السابقة وقالوا: إنه ساحر، ولكن الأمر ليس كذلك، إنما هم طاغون لا يريدون الإيمان بالحق تهربا من المسؤولية فبحثوا لموقفهم عن تبرير فلجؤوا إلى تلك التهم الرخيصة، فموقفهم -كما تبريراتهم- إذن ليس بمعقول، والجدال معهم لا ينبغي أن يكون جدلاً عقلياً، إنما ينبغي أن يهز ضمائرهم، لذلك نجد في الآيات تهديدا مبطنا بالعذاب: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ كما نجد في الآيات من جهة أخرى إثارة للكفار نحو التفكر في الخلق من حولهم، ليكبحوا جماح الغرور في أنفسهم، ويخرجوا من قوقعة الذات إلى الآفاق الواسعة.

إن استثارة عقل الإنسان نحو التدبر في الآفاق (الطبيعة والقوانين التي تحكمها) ركيزة أساسية للتربية والتوجيه في نهج القرآن، ولكن ربط هذا التدبر بما يجري داخل النفس البشرية هو المهم في المنهج، لذلك يبدو واضحا في كثير من الآيات أن القرآن يريد بناء جسر بين الآفاق حتى أبعد مدى فيها وبين النفس حتى أعمق غور منها.

بينات من الآيات:

[٢٩] تزدحم التهم والإشاعات ضد كل مصلح رسالي بمجرد أن يرفع راية الإصلاح، فإذا به يدعى كاهنا أو مجنونا أو عميلا يتصل بجهات خارجية، من أجل تحطيمه أو الضغط عليه في اتجاه التخلي عن رسالته، فيجب إذن ألّا يُفاجأ أي عامل إذا ما تعرض لذلك في مسيرته، بل يعتبره أمراً طبيعياً، ويستمر في حركته حتى يبلغ إحدى الحسنيين، متوكلا على ربه، ومهتديا بوحيه، واثقا بنفسه.

ورسولنا الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ وهو الأسوة العظمى لنا، كان عرضة لمختلف الدعايات والتهم ولأنواع شتى من الأذى، وإذا لم تكن ثقته بربه وبرسالته وبنفسه ثقة عميقة لم يستمر، ومع ذلك أمره الله بالاستمرار في دعوته قائلا: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهذه الآية تنفي عن النبي ﷺ جميع التهم التي وُجِّهت إليه بالتالي:

١ - إن رسالته تثير دفائن العقول البشرية بالتذكرة.

٢ - إن التذكرة التي جاء بها الرسول ليست من عنده ولا من أحد، إنما هي نعمة من الله

تصله عبر الوحي، ومن دونها لا يكون رسولا ولا مذكِّرا.

وبهذين الدليلين نهتدي إلى أن الرسول ليس بكاهن لأن الكاهن هو الذي يتنبأ بالمستقبل دون أن يستثير العقل، فتراه يصيب مرة ويخطئ مرات، في حين لا نجد خطأً واحدا في آيات الله. وليس بمجنون لأن ما يصدر عن المجنون لا يلتقي مع العقل، في حين تلتقي الرسالة معه بكل مفرداته دون استثناء، وهو يعتمد خطة واضحة في تحركه هي رسالته، وليس بمجنون -حاشا لله- لأنه ينبعث من منطلقات إيمانية وعقلية، وحسابات علمية بالغة الدقة نافذة الحكمة.

كما يتميز النبي بالشجاعة والتوكل والثقة، في حين أن المجنون لا يعتمد على شيء، وليس الرسول بشاعر لأنه يستثير العقل، في حين يعتمد الشاعر على إثارة مشاعر الإنسان، وأداته الخيال والمبالغة. وأخيرا ليس بساحر لأن الساحر إنما يلعب بخيال البشر، ويسحر عيونهم، ولا يفلح الساحر حيث أتى، فهل رأيت ساحرا يقود أمة أو يصنع تاريخا أو حتى يجمع ثروة طائلة أو يكتسب جاها عريضا؟ كلا.. لأن الساحر لا يعيش حقائق الحياة حتى يسخِّرها لمصلحته أو لقضيته بل يتقلب في سحره مع التمنيات والظنون، هذا أولا، وثانيا تلتقي التهم الموجهة إلى النبي ﷺ في كون المذكورين يعتمدون على قوى ليست مشروعة في نظر العرب أنفسهم، فالكاهن يعتمد على اتصاله بالشياطين أو على مجرد الحدس، والمجنون هو الذي سحرته الجن فهي توحي له بتصرفاته وأقواله، والذي اعترته الآلهة بسوء كما قالوا من قبل لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]، والشاعر هو الذي يحس بما لا يحس به الآخرون، ويتلقَّى الإلهام من الآلهة أو قوى أخرى كالجن، والساحر هو الذي يستغني بالشياطين والعفاريت أو يسخِّرهما، أما الرسول ﷺ فهو يتصل عبر الوحي بالله خالق الخلق ويعتمد عليه.

والقرآن إنما يثبت هذه التهم ليعكس للرساليين عبر التاريخ طبيعة المسيرة التي ينتمون إليها من جانب، ومن جانب آخر لبيان اعتراف الأعداء بجوانب من شخصية الرسول ﷺ، فهم بهذه الاتهامات يعترفون ضمنيًّا بقوته وتأثيره في الناس، فتهمة الكهانة تعكس صدقه، وتهمة الجنون تعكس شجاعته، وتهمة الشعر تعكس بلاغته وقوته على الإقناع، وتهمة السحر تعكس تأثيره العملي في المجتمع، إلا أنهم يسعون بهذه التسميات إلى النيل من شخصيته، وتحوير الحقيقة لكيلا يتأثر أحد.

[٣٠-٣١] إن الحيرة التي وقع فيها المشركون والكفار وعدم ثباتهم على تهمة معينة دليل واضح على اتباعهم الظنون لا العقل في تقييم رسالته وشخصيته، مما يدل على أنه جاء بحركة جديدة لم يستطيعوا لها تفسيرا ولا تأويلا، وقد يدلل اتهامهم له بالشعر بعد الكهانة والجنون

-مع كون الشاعر في نظر العرب أعلى ثقافة من الآخرين- على تنازلهم عن التهمتين الأخريين الماضيتين ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ ولكن الرسول يختلف عن الشاعر، ورسالته ليست شعرا للأسباب الأساسية التالية:

١- إن الشاعر -وفي ذلك العصر بالذات- يعتبر تعبيرا بليغا عن الثقافة القائمة، في حين أن الرسالة خارجة عن إطار الثقافة الفاسدة الواقعية الشائعة في المجتمع، والذي يقرأ أشعار العرب يلاحظ فيها وبوضوح تعبيرا صريحا عن الروح القبلية، وعن الأضغان والفرقة وسائر مفردات الثقافة القائمة على الواقع، كقول الفرزدق:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

أو كقول جرير:

فغض الطرف إنك من نُمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

٢- إن الشعر يعبّر في كثير من الأحيان عن المصالح والأهواء الشخصية، والرسالة كلها قيم، وربما تعارضت مع شهوات الإنسان.

٣- إن الشعراء عندهم ثقافة ولكنها لا تستمر مع الزمن وعبر الأجيال، أما الرسول فخطه يبقى أبدا، والمستقبل لرسالته التي لا تبلى، ولا يتجاوزها تقدم البشرية، ولعل السبب في ذلك أن الشاعر ثقافته مربوطة به تموت عند موته أو بعده بقليل، والرسالة يرعاها الله، وليست متصلة بشخص الرسول حتى تذهب بذهابه، ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتحدي الكفار والمراهنة على أن المستقبل في صالحه ولرسالته.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ والتربص هو الانتظار، ولكن مع توقع شيء ما يحدث، ومنه قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، الكفار ينتظرون نهاية للرسالة بموت النبي ﷺ في أي لحظة، ويعلم النبي أن الرسالة تزداد على الزمن بهاء وإشراقا.

[٣٢] ثم يأتي القرآن على بيان المنطلقات الحقيقية للكفر بالرسالة مؤكدا أن التهم التي وجهوها للرسالة لا أساس لها حتى عند أصحابها، بل جاؤوا بها رغبة عن الحق، وتهربا من المسؤولية ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ والحِلْم هو الجانب العملي من العقل، والحليم الذي يستخدم عقله في مواقفه وأفكاره فلا ينطلق في أي موقف أو حكم من ردات الفعل وإثارة المواقف المضادة، والكفار -بوصفهم بشراً- لديهم مناهج عقلانية ولكنهم خرجوا عن دائرتها

فصاروا يعارضون الرسول ويتهمونه بالكهانة والجنون أو بالشعر والسحر، ليس لأنهم وجدوا ما عنده باطلا، وإنما نتيجة اتباع الهوى والطغيان وردود الفعل.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ و ﴿أَمْ﴾ هنا ليست بمعنى التخيير وعدم التأكد، بل هي تأكيد لما بعدها، ولعل السبب أن الاحتمالات السابقة واضحة البطلان مما يبعث السامع إلى البحث عن الاحتمال الصحيح، ويتساءل: إذن لماذا يعارض هؤلاء الرسالة؟ ويأتي الجواب بصيغة احتمال، ولكن السامع يتقبله رأسا، فيكون كما لو أنه هو الذي اكتشف الحقيقة.

ومن عموم هذه الآية نستفيد فكرة كثيرا ما يشير القرآن إليها، وهي أن الاحتياط من العقل، فينبغي للمؤمن ألَّا يستعجل في رفض فكرة يسمعها، بل يفترض إمكان صحتها، ثم يفكر فيها مَلِيًّا، ويتخذ موقفه منها على ضوء تفكير موضوعي دقيق.

وإن الذين رفضوا الرسالة لم يعتمدوا في رفضهم على العقل بل على الطغيان، لأن العقل يقيد الشهوة ويقننها، في حين أن الطغيان يسيِّرها، بل ويجعلها هي القانون، ولو أنهم اتبعوا هدى عقولهم لآمنوا بها، لأنها تهدي إلى العقل كما يهدي العقل إليها.

[٣٣] ومن نتائج اتباعهم الهوى في تقييم الرسالة والنبي ﷺ اتهامهم له بأنه لا ينطق عن الله، وأن ما عنده ليس رسالة من الرب، إنما هي من صنيع فكرة. إن عقولهم تهدي إلى صحة ما جاء به، ولكنهم لا يريدون إلزام أنفسهم بالمسؤولية، لذلك تراهم يبحثون عن تبرير لعدم إيمانهم، فقالوا: نحن نؤمن بعظمة الرسول وبعظمة ما جاء به ولكنه من عبقريته، ولسنا ملزمين باتباع ما تفتقت عنه عبقريات البشر، إنما نحن ملزمون باتباع وحي الله وحسب، وهذا هو منهج المستشرقين وكثير من المسيحيين في تقييم الإسلام والرسول الأعظم ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

[٣٤] ويتحداهم القرآن بأنه إذا كان القرآن من عبقرية الرسول الأعظم ﷺ فهو بشر مثلهم فهل يستطيعون صناعة كلام يشبه القرآن؟ ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ وتنكير كلمة ﴿حَدِيثٍ﴾ يدل على التبعيض، فالتحدي إذن واقع على جزء من القرآن كالسورة أو الآية، وتبقى هذه المعجزة الإلهية الخالدة تتحدى ضُلَّال البشر عبر الزمن وفي كل جيل من الإنس والجن، يقول تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

[٣٥-٣٦] ومن الحديث المنطلق من واقع التشريع ينتقل السياق إلى الحديث من واقع الخلق، فبعد أن أثبت أن الرسالة ليست من صنيع البشر فلا هي كهانة ولا جنون ولا شعر ولا

مخالفة للعقل، وأن الدليل على كونها من الله عدم قدرة البشر على المجيء ولو بحديث واحد يشبهها، نجد السياق هنا ينعطف لإثبات وجود الخالق عز وجل عبر تساؤلات ثلاث:

الأول: أن يكونوا (الكفار وعموم الخلق) قد خُلقوا من غير خالق.

الثانية: أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم.

الثالثة: أن يكونوا هم الذين خلقوا السماوات والأرض.

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ والتعبير هنا عن الخالق بالشيء ليس من باب أنه سبحانه يشبه الخلق، وإنما لإثبات أنه حق فالشيء في مقابل العدم مع نفي لوازم الشيئية المعهودة المساوقة للمخلوقية[1]، ففي مقام الربوبية ليس لنا سبيل إلا بقدر الخروج عن حد النفي والتعطيل، أو بتعبير آخر: نفي النفي وإعدام العدم، أما أن نثبت -وراء ذلك- لربنا القدوس ذاتية معلومة أو موهومة أو متخيلة فلا، فهو شيء أي أنه حق قائم قيوم ولكن لا كالأشياء الكائنة التي يحيط بها العلم ويتصورها القلب.

وليس أحد يعتقد في نفسه ولا يعتقد فيه الآخرون العقلاء بأنه مصداق لأحد هذه الفروض الثلاثة ولا التي ستأتي بعدها، ذلك أن المخلوق لا يأتي من الفراغ ما دامت شواهد الصنع ظاهرة فيه، بل لا بد له من خالق، وواضح أنه لا يمكن للشيء أن يخلق نفسه إنما يحتاج إلى صانع غيره، ويكفي الإنسان شاهدا على نفسه بأنه ليس الخالق أن ينظر حوله إلى السماوات والأرض هل يعقل أن يكون قد خلقها هو أو بشر مثله؟.

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ إن المشكلة مشكلة نفسية ولو كانت عقلية لانحلت بشيء من التفكير في مثل هذه الفرضيات إنهم لا يريدون الإيمان لكيلا يلزموا أنفسهم بمسؤولياته، إذن فالنقص موجود فيهم لا في حجج الحق التي تقوى عليهم!.

[٣٧] ثم دعنا من حديث الخلق ولنسأل: ماذا لدى الكفار من الملك والسيطرة حتى يتكبروا على الحق اعتمادا عليهما؟ إن أكثر من ٩٩٪ من ثروات البشر وقدراته هي رزق مباشر

---

(١) «... قَالَ السَّائِلُ: فَقَدْ حَدَّدْتَهُ إِذْ أَثْبَتَّ وُجُودَهُ؟!. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: لَمْ أُحَدِّدْهُ وَلَكِنْ أَثْبَتُّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ مَنْزِلَةٌ. قَالَ السَّائِلُ: فَلَهُ إِنِّيَّةٌ (التحقق) وَمَائِيَّةٌ (صفة الشيء)!. قَالَ عليه السلام: نَعَمْ لَا يُثْبَتُ الشَّيْءُ إِلَّا بِإِنِّيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ. قَالَ السَّائِلُ: فَلَهُ كَيْفِيَّةٌ!. قَالَ عليه السلام: لَا لِأَنَّ الْكَيْفِيَّةَ جِهَةُ الصِّفَةِ وَالْإِحَاطَةِ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْ جِهَةِ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ لِأَنَّ مَنْ نَفَاهُ أَنْكَرَهُ وَدَفَعَ رُبُوبِيَّتَهُ وَأَبْطَلَهُ وَمَنْ شَبَّهَهُ بِغَيْرِهِ، فَقَدْ أَثْبَتَهُ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ الْمَصْنُوعِينَ الَّذِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ الرُّبُوبِيَّةَ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ ذَاتٍ بِلَا كَيْفِيَّةٍ لَا يَسْتَحِقُّهَا غَيْرُهُ لَا يُشَارِكُ فِيهَا وَلَا يُحَاطُ بِهَا وَلَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ». (بحار الأنوار ج: ١٠، ص: ١٩٧-١٩٨).

من عند الله. والذي يحتاج الحصول عليه من الثروة مع السعي أقل من ١٪، وما هي نسبة ما يقع في أيدي الناس حتى يتفاخروا به ويكون سببا لكفرهم.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ والخزائن هي أماكن حفظ الثروات ومقاليدها، ومن مصاديق الخزائن المنابع الأولية للثروة في الحياة، كمناجم المعادن، وينابيع الغيث، ومصادر الطاقة، ومواد الحياة في الأرض، وهي جزء بسيط جدًّا من خزائن الله التي خلقها ووزعها في الكون.

وإذا نظرنا إلى جانب التدبير في الحياة فلن نجد سلطة فعلية تحكمها غير سلطان الله، فالإنسان لا سلطان له حتى على حياته الشخصية إلا قليلا، فطالما تصور نفسه متمكنا وقادرا فوجد العكس، وطالما قرر شيئا فاكتشف عجزه عن المضي فيه.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ بالطبع لا سيطرة لهم على الحياة فليحاولوا دفع الموت عن أنفسهم إن استطاعوا.

[٣٨] ويسترسل الوحي في طرح السؤال تلو السؤال، وهذا جزء من منهج القرآن في علاج الانحرافات النفسية والعقائدية لدى البشر، أن يضعه أمام الحقيقة من خلال أسئلة تسوق الإجابة الموضوعية عليها إلى الحقيقة ذاتها، كما يحاول بها ضرب الفلسفات والاعتقادات المنحرفة عنده.

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ إن الذي ينبغي الطاعة له والتسليم لقيادته ليس الذي يملك ظاهرا من الثروة والسيطرة قدرا ضئيلا لا يقاس إلى ما عند الله، وهم معترفون بأنهم لا يملكون أداة لالتقاط الغيب، فماذا في أعماق الأرض وأغوار الفضاء، وما الذي تخبئه الأقدار، وماذا يحدث غدا، وما هي الأرواح والملائكة والجن وعالمهم؟.

وإنما القيادة والفضل لمن يتصل بالله عبر الوحي وهو الرسول الأكرم ﷺ، ولعل اختيار كلمة ﴿فِيهِ﴾ في الآية وتجنب التعبير بكلمة (به) لأن الاستماع لا يكون بسبب السلم بل في السلم الذي يعرجون فيه.

وإذا كانوا يزعمون أنهم مطلعون على الغيب إذن دعهم يأتوا عليه بحجة داحضة ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ كالقرآن بشموليته، وكماله، وروعة أسلوبه، وهيمنته على عقل الإنسان ونفسه، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا.

[٣٩] وكيف يأتي هؤلاء ببرهان قاطع وهم لا يتبعون إلا الظن، ولا يعتقدون إلا

بالباطل، وإلا فكيف قالوا بأن البنات لله ولهم البنون؟! ما هو دليلهم على ذلك؟.

﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ وفي سورة الزخرف نجد علاجا أشمل لهذه العقيدة المنحرفة لدى المشركين، يقول تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ١٦-٢٠].

وهنا يشير السياق بمجرد إشارة إلى سفاهة هذا القول ويسوقه مثلا لضلالاتهم الدالة على بعدهم عن الغيب.

[٤٠] والرسل لا يطالبون الناس بالأجر بإزاء تعبهم ونصبهم من أجلهم حتى يمكن الكفار تفسير رفضهم الرسالة بأنهم لا يقدرون على إعطاء الأجر.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ إن الرسول لا يتطلع إلى أهداف مادية مصلحية من وراء قيادته للناس. إنه ليس كالذين يتسلطون على المجتمع من أجل فرض الضرائب وامتصاص خيرات البلاد والعباد، إنما يريد أن يعطيهم شيئا هو الغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، والوحدة بعد الفرقة، وبعبارة أخرى يريد أن يتقدم بهم نحو الحضارة الربانية التي فيها خيرهم، وهذا ما تتميز به رسالات الله عن الدعوات البشرية المادية حيث لا يجد فيها المجتمع إلا الكلفة والغرم الثقيل.

[٤١-٤٢] ثم يشير القرآن إلى حاجة فطرية عند الإنسان تدعوه إلى معرفة الغيب والاتصال به، وكل إنسان يخشى من الغيب، ويعلم أنه لا سبيل له إليه، لأن الاختيار في هذا الأمر ليس مرتبطا به، إنما يختار الله عز وجل من يشاء من عباده: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، والبعض يدعي الاتصال بالغيب ولكن دون أن يدعي أنه قادر على معرفة أبعاد الغيب بحيث تمكنه من كتابته بوضوح كما كتب الرسول أبعاد الوحي، أي أنهم ليست عندهم معرفة شاملة واعية بالغيب، إنما يتبعون الظنون وجانبا من أخبار الشياطين ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ بلى؛ إنهم لا يعتمدون على الغيب، إنما يعتمدون على الكيد، وكلمة ﴿ أَمْ ﴾ التي تأتي في الآية للتأكيد لا الاحتمال والتردد.

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ﴾ والكيد هو القوة المخططة والمقننة كالاستراتيجية، وإنما نكّر الله الكيد ليجعله دالا على أنه لا ينفع أي نوع أو أية درجة منه.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ لأنهم مهما بلغوا من المكر والحيلة فلن يستطيعوا الغلبة على الحق (سنن الله في الخلق ومشيئته القاهرة) ومنهجه المتكامل إذا اتبعه المؤمنون، والتاريخ شاهد على هذه الحقيقة.

[٤٣] ويعود القرآن إلى بيان الانحرافات النفسية العميقة عند الإنسان فيقول: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إن الله مُنزَّه عن الشركاء، والإنسان يشرك به غيره للتهرب من المسؤولية، وليس اعتمادا على عقيدة راسخة بيِّنة، إنه إذا لم يدع شريكا مع الله فهو ملزم بالتسليم لرسالته عقلا وضميرا، لذلك نجده يسعى لتخليص نفسه من هذا الالتزام بالشرك.

[٤٤] ولأن العقائد المنحرفة عند الكفار والمشركين، التي استعرضتها الآيات الماضية، تنتهي كلها إلى غاية واحدة هي محاولة التملص من المسؤولية، فإن القرآن لا يني يؤكد المسؤولية من خلال بيان سنة الجزاء الحاكمة في الحياة، ففي الدنيا تجليات عديدة لهذه السنة مما يؤكد وجود حياة أخرى للجزاء أيضا، ولكن الإنسان حينما يكفر أو يشرك لا تهديه العلاقات إلى الحقيقة، بل يفسرها تفسيراً مادياً منحرفاً، بل حتى لو رأى آية ظاهرة فسرها تفسيرا بعيدا ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، وفي سورة الأحقاف يضرب القرآن لنا مثلا على هذا النوع من التفسير عند الكفار فيقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

[٤٥] وحينما يصل الإنسان إلى هذه الحالة النفسية من الضلال والجحود تصعب هدايته إلى الحق، لأنه لن ينظر إلى الآيات نظرة عقلانية مجردة، إنما سينظر إليها من خلال أفكاره، ويسعى جاهدا لاستلابها دلالاتها الواقعية الحقة، لذا لا ينبغي للداعية أن يصر ويبخع نفسه لهدايته، وإنما يبين إليه الحق ثم يتركه يواجه مصيره بنفسه، لأن الإصرار الزائد عن حده قد يسبب حالات وصفات خاطئة كالديكتاتورية والغضب أو أن يغيِّر هو من الدين ليدخلهم فيه ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ إشارة إلى العذاب الذي ينتظر الكفار يوم القيامة، فلأنهم كفروا بالآخرة وغفلوا عنها في حياتهم فإنهم يفاجؤون بذلك.

[٤٦] وإذا كان مكرهم وكيدهم في الدنيا نفعهم ببعض الشيء وخدم مصالحهم، فربما انتصروا عسكريًّا على المؤمنين، أو ظهروا على البلاد وأضلوا الناس عن الحق، فإنهم في الآخرة لا ينفعهم المكر شيئا، ولا يدفع عنهم خطرا ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ كما أن القوى الأخرى التي اعتمدوا عليها في كفرهم وكيدهم للحق والمؤمنين لا تعينهم، وإن أعانتهم فهي لا تبلغ بهم سبيلا إلى الغلبة والنصر ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

[٤٧] ولكن دعوة الله لرسوله (وللمؤمنين من خلاله) إلى ترك الظَّلَمَة والكفار يلاقون عذاب الآخرة لا يعني أن الدنيا لهم، يلعبون فيها كيفما شاءت أهواؤهم ومصالحهم، كلا.. إنما يلقون فيها نصيبا من العذاب متمثلا في غضب الله المباشر أو على أيدي أوليائه، ولكنه مهما بلغ لا يكون كعذاب الآخرة ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غيره، وأقل منه ألما، وهو دليل على عذاب الآخرة، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولكنهم لا ينظرون إلى الآيات ببصيرة الإيمان ومن ثم لا يصلون إلى الحق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وبالتالي فإن جهلهم يوقعهم في العذاب الدنيوي والأخروي معا.

[٤٨-٤٩] وبعد أن عالج القرآن مشكلة التكذيب بالعذاب والكفر بالله من الناحية النفسية والعقلية، أكد ضرورة الاستمرار والاستقامة على الحق في سبيل الله ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وحيث حذف متعلق الصبر دَلَّ ذلك على كل معانيه (الصبر عند البلاء، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية)، فيجب إذن على المؤمن أن يتنازل عن جميع تطلعاته ومصالحه وآرائه في سبيل رسالته، مهما كان الصبر على ذلك صعبا، وأن يترك العجلة في الأمور، بل يصبر حتى يأتي أمر الله متمسكا بمنهج الوحي، وهذا يوحي بأن على المؤمن تطبيق أحكام الله أثناء الصبر، وليطمئن أن عين الله تحرسه وتسدد خطاه ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ وعيون الله تتجسد في سننه وملائكته وإرادته المباشرة التي تؤيد المؤمنين.

وكما يقاوم المؤمن الضغوط، ويستمر في الطريق، ويلتزم بحدود الله وأوامره بعامل الصبر، فإنه يستمد إرادته من الاتصال بالله في الصلاة، ولو تدبرنا في القرآن فإننا لا نكاد نجد دعوة إلى الصبر إلا وقد اقترنت بها دعوة إلى الصلاة أيضا، إذ بهما نستعين على الأمور.

بلى؛ قد تختلف التعابير من موضع إلى آخر، فتأتي تارة صريحة كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وأخرى دون ذلك بالدعوة إلى التسبيح أو الركوع والسجود بوصفه مظهراً أو جوهراً للصلاة، أو بإضافة أمر آخر مثل ضرورة الإحساس بالرعاية الإلهية كما في هذه السورة، ولكن الحقيقة واحدة وهي اقتران الصبر بالتبتل، وفي هذه الآية نجد شاهدا على ذلك فبعد أن دعا الله عز وجل رسوله للصبر والاطمئنان لرعايته أمره بالتسبيح ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال علي بن إبراهيم: «لِصَلَاةِ اللَّيْلِ»[1].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ قال الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام: «إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَيَنْظُرُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَيَقْرَأُ خَمْسَ آيَاتٍ مِنْ آلِ عِمْرَانَ: ﴿إِنَّ فِي

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٣٢، بحار الأنوار: ج٩، ص٢٣٩.

خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ثُمَّ يَفْتَتِحُ صَلَاةَ اللَّيْلِ»[1].

والتسبيح هو تعظيم الله عز وجل وتنزيهه، وما أحوج الإنسان وهو يقاوم مختلف الضغوط في مسيرته حتى لا ينهزم أمامها إلى ذلك. ولماذا يستسلم الإنسان إلى الضغوط؟ أليس لأنه يجدها أكبر من إرادته؟ إذن فهو بحاجة إلى تذكر الله ليقاوم الهزيمة والانبهار في داخله.

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني نافلة الصبح، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قُلْتُ لَهُ: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ قَالَ: رَكْعَتَانِ قَبْلَ الصُّبْحِ»[2].

وقد يكون القيام عموم الصلاة، ولكن القرآن يخص بالذكر صلاة الليل ونافلة الصبح لغرض ما.

(١) بحار الأنوار: ج٧٩، ص٣٢٩.

(٢) الكافي: ج٣ ص٤٤٤.

سُورَةُ النَّجْمِ

* مكية.
* عدد آياتها: ٦١.
* ترتيبها النزولي: ٢٣.
* ترتيبها في المصحف: ٥٣.
* نزلت بعد سورة التوحيد.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ كَانَ يُدْمِنُ قِرَاءَةَ والنَّجْمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَوْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ عَاشَ مَحْمُوداً بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ وكَانَ مَغْفُوراً لَهُ وكَانَ مَحْبُوباً بَيْنَ النَّاسِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٦).

الإطار العام

ليس للإنسان إلا ما سعى

تهدينا (الآيات: ١-٨) إلى علاقة الرسول الأكرم ﷺ بربه من خلال الوحي، هذه الميزة التي تميّزه عن دعاة النظريات البشرية، وعما تتفتق به عقول النوابغ من أفكار. إنه لا ينطق إلا بإذن الله، مما يجعله حجة وقدوة للبشرية في كل مكان وزمان، وهو على يقين تام بنبوته..

وبالرغم من أن كثيراً من آيات هذه السورة تحدثنا عن الوحي مما يدع القارئ يظن لأول الأمر أنها تعالج هذاالموضوع، إلا أن المتدبر يرى أن السياق يهدف معالجة المسؤولية البشرية، وتزداد هذه الفكرة وضوحاً عند التأكيد على المسؤولية المباشرة للإنسان عن أفعاله، وأن ليس له إلا سعيه، وأنه سوف يراه إن عاجلاً في الدنيا أو آجلاً في الآخرة.

والعلاقة بين هاتين الفكرتين؛ (فكرة المسؤولية وفكرة الوحي) علاقة عضوية واضحة، ذلك أن إحساس الإنسان بمسؤوليته نتيجة مباشرة لإيمانه العميق بالوحي، وهل تنزل الوحي برسالات الله للأمم على الأنبياء عبر التاريخ إلا لإتمام الحجة على الناس، و تقرير مسؤوليتهم أمام الله؟.

كما نجد في السورة خطًّا موازياً لهذا السياق يهدف تصحيح منهجية التفكير عند الإنسان، إضافة إلى علاجه العقائدالمنحرفة معالجة مباشرة.

كما تشير آيات السورة (الآيات: ١٩-٣٠) إلى أن المسافة بين الهدى والهوى هي بالذات المسافة بين الحق والتمنيات، وبين السعي والأحلام. وبالتالي فإن القرآن الكريم يهدف إلى نسف معتقدات المشركين نسفاً، باعتبارها غير ذات رصيد من الحق أبداً، وهي ليست سوى أسماء لا مسميات لها.

وبصراحة الحقيقة وبقوة اليقين، يتقدم بنا السياق القرآني شيئاً فشيئاً إلى الفكرة المركزية

في هذه السورة، وهي فكرةالمسؤولية التي نجدها في تضاعيف أغلب آياتها وكأنها خافية لكل فكرة فيها وشاهد، إلا أنها تتجلى كصراحة الشمس عند قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (الآية: ٣٩).

ولكن الله جل اسمه قبل أن يقذف بهذا الحق على باطل ثقافة التبرير واتباع الهوى، يذكّرنا بلون من ألوان الشفاعة المقبولة عنده، وهي شفاعة الأعمال الحسنة للإنسان عن اللمم من السيئات.

ولعل تقديم هذه الفكرة (الشفاعة) المشحونة بالرجاء واللطف الإلهي على فكرة المسؤولية وما فيها من الشدة والصرامة، يهدف إعطاء الأمل في رحمة الله لكيلا ييأس ابن آدم فيوغل في الجريمة والذنب، أو يقعد عن عمل الصالحات.

إن هو إلا وحي يوحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ[1] ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ[2] فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ[3] ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ[4] ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

تهدينا آيات الدرس الأولى إلى علاقة الرسول ﷺ بربه من خلال الوحي، هذه الميزة التي تميزه عن دعاة النظريات البشرية، وعما تتفتق به عقول النوابغ من أفكار. إنه لا ينطق إلا بإذن الله، مما يجعله حجة وقدوة للبشرية في كل مكان وزمان، وهو على يقين تام بنبوته، لا يشك في ذلك طرفة عين أبدا.

ولا شك أن هذه منزلة رفيعة بلغها النبي الأعظم ﷺ دون سائر البشر وأعلى من

---

(١) شديد القوى: هو الله، وقيل: جبرئيل عليه السلام.

(٢) مرة: قوة، وأصل المِرة خلط في العروق كالصفراء والسوداء، وسمي مِرة لقوة البدن به، أو المراد بـ(ذي مرّة): الحصافة في العقل والرأي.

(٣) فتدلى: أصل التدلّي استرسال مع تعلّق وهو مثل تدلّي الدلو في البئر.

(٤) سدرة المنتهى: سدرة في الأفق الأعلى بلغها الرسول ﷺ.

سائر الأنبياء، ولكن ذلك لم يُصيِّره إلهاً، بل تدلى، وذلك يعني أنه أرفع من الخلق، وأدنى من الخالق.

بينات من الآيات:

[١] ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قد يكون القرآن يقصد هنا نجماً معيناً أخبر المسلمين بسقوطه في المستقبل، كما تشير الروايات إلى ذلك، ولكننا بالنظر إلى الظاهر وإلى الهدف من وراء هذا القَسَم نستطيع اعتباره شاملا لكل نجم، وإنما عرف الله المقسم به بـ (أل) لأنه أبلغ من التنكير في القسم كما قيل، ولكن لماذا يُقسم القرآن بالنجم حين يهوي؟.

أولاً: ربما لأن الكثير من الناس كانوا يعتقدون بأن النجوم ثابتة لا تتغير، وقد اتخذها بعضهم آلهة من دون الله، وسقوطها أبطل هذا الاعتقاد الضال.

ثانياً: قد لا يكون المقصود من الهوي السقوط والانتشار، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، بوصفها علامة ليوم القيامة، وإنما الميل إلى طرف من الأفق، الأمر الذي يجعله أفضل هداية وتعريفا للإنسان بالطريق.

[٢] وكما أن النجم رمز للهداية فإن الرسول ﷺ هو عَلَم رفيع لهداية البشرية، كما قال الإمام علي عليه السلام: «**أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ**»[(١)]، ولكن الرسول ﷺ يختلف عن النجم في أن دلالته وهدايته للناس تبقى قائمة في رسالته وسيرته حتى بعد موته، أما النجم فإن دلالته تنتهي بهويه، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ**»[(٢)]، وأولى بالعقل أن يتبع هدى الرسول الذي يتبع الحق، ولا يكذب أهله، لا أن يتبع ظنون نفسه، ولا تخرصات الكهنة والمنجمين.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ الضلالة هي الانحراف عن أصل الطريق، في حين أن الغواية -حسب ما يبدو- هي الانحراف عن سواء الطريق، فقد يضل الواحد طريقه إلى مدينة شرقية فيتجه غربا، وقد يغوي عنها فلا يتجه إليها عبر خط مستقيم.. ولم يضل النبي طريقه نحو الله فيختار -حاشاه- طريقا آخر، كما لم يتنكب عن الخط المستقيم ولا شيئا قليلا، فلم يكن كأبينا آدم عليه السلام الذي قال عنه ربنا: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٤٤.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ٨٧.

[٣-٤] بلى؛ لقد زعم البعض أن عصمة النبي ﷺ محدودة في الشؤون المتصلة بالرسالة نفسها وحسب، ولكن السؤال: إذن كيف نعرف أن ما يقوله الرسول هل هو جزء من الرسالة، أو هو شأن من الشؤون التي يخطئ فيها؟ كلا.. إن الله قد عصم الأنبياء جميعا، وأيدهم بروح القدس، حتى تتم حجته على خلقه، ولا يبرروا مخالفتهم لهم بعدم الثقة بأن كلامهم من عند الله، وقد قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

إن الإنسان تنازعه من داخله قوتان: نور العقل الذي يهديه إلى الحق، وشهوات الهوى التي تدفعه باتجاه الباطل، ولقد أدّب الله نبيه ﷺ إلى أن اعتصم من آثار الهوى، وجسّد الحق لا يزيغ عنه لحظة ولا قيد شعرة.

إن العقل المحض لا يخطئ أبدا، ولذلك اعتبره الإسلام رسولا باطنا كما أن الأنبياء كانوا رسلا ظاهرين، وحجة خفية كما الرسالات حجة ظاهرة.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ومن عمق الأدب القرآني وبلاغته أنه لم يكتف بكلمة ﴿وَحْيٌ﴾ بل أضاف إليها كلمة ﴿يُوحَىٰ﴾ الفعل المبني للمجهول، وذلك لأن الوحي قد يكون من فعل نفس الإنسان، أما إذا بني للمجهول فإنه يكون من طرف آخر، والآية التالية تبين الموحي وهو الله شديد القوى، نفيا لاحتمال أن يكون الرسول يتلقى رسالته من قوى يتصل بها كالجن أو بعض الكهنة، كما ادعى عليه الجاهلون ﴿وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، كلا.. إنه يتلقى رسالته عبر الوحي من الله، وهذا الاتصال هو الذي يمده بالعصمة، وحديث عصمة الرسول حديث طويل بحثه الدارسون، وقد اختلفوا فيه كثيرا، وأنا أترك الخوض في هذا الموضوع بالصورة التي بيَّنها الكثير، وأقتصر هنا على الحديث عنه من زاوية هامة جدًّا، وهي دراسة حياة الرسول ﷺ، لأن ذلك كما أعتقد سوف يكشف لنا شخصيته الفذة، وكيف أنها لم تتأثر بأي عاملِ هوىً، إنما كانت دائما وأبدا صنيعة العقل والوحي.

لقد عاش ﷺ في مكة المكرمة -قبل أن يظهره الله على المشركين فيها- تلاحقه عصابات الضلالة والبغي من قريش، يحاولون أن يخدعوه عن دينه، ويصرفوه عن رسالته بالإرهاب تارة وبالترغيب أخرى، حتى بلغ الأمر بهم أن عرضوا عليه السلطة المطلقة عليهم وعلى أموالهم، ولكنه لم يخش إرهابهم، ولم تحرفه عروضهم المغرية، إنما تسامى على ذلك كله،

وأجابهم: «وَاللهِ لَوْ وُضِعَتِ الشَّمْسُ فِي يَمِينِي، وَالقَمَرُ فِي شِمَالِي مَا تَرَكْتُ هَذَا القَوْلَ حَتَّى أُنْفِذَهُ أَوْ أُقْتَلَ دُونَهُ»[(١)]، واضطر من شدة ضغوطهم وأذاهم إلى الهجرة عن مكة، وكانت القبائل جميعها ترفض إيواءه عداوة له أو خوفا من قريش، وسار نحو الطائف لعله يجد مفزعا فيها، ولكنه اصطدم بحقدهم الدفين ضده وضد رسالته، حيث طردوه وأدموا ساقيه الشريفتين بالحجارة، لكنه مع ذلك كان يتحدى الواقع المر، ويسمو بروحه الطاهرة إلى آفاق الإيمان بالله، فقد جاء في الخبر أنه رفع يديه إلى السماء وقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ...»[(٢)].

وحينما هاجر إلى المدينة المنورة انطلق منها يقهر القوى العسكرية المضادة، فحطم كبرياء قريش، ودمَّر حصون اليهود من أعداء الرسالة وغيرهم، وإلى حين رفعه الله إليه كان قد جهَّز جيشا ليقاتل الروم القوة العظمى يومذاك، وبين هذا وذاك بنى أمة وحضارة لا زالت البشرية ولن تزال كلما تقدم بها الزمن والتطور تجد نفسها دون عظمتها. وهو مع ذلك لم تتغير أخلاقه ولا سيرته في العيش، إنما بقي وهو الحاكم العظيم يربط حجر المجاعة على بطنه، ويتواضع للصغير والكبير، أترى من هذه حياته، ومن جعله الله أسوة مطلقة وصفها بالحسن إلا أن يكون معصوما؟؟ ثم أليست العصمة ألَّا يتأثر الإنسان بالعوامل السلبية، ولا يخرج من خطه ولا قيد شعرة؟ بلى؛ إذن فلندرس حياة الرسول الأعظم ﷺ هل نجد فيها ولو كلمة أو تصرفا يخالف الحق؟؟.

إن من السهل على العاقل أن يميِّز الذي ينطق عن الهوى ممن ينطق عن العقل، فالذي ينطق عن الهوى لا يَصْدُقُ دائما، ولا يكون حديثه موافقا للعقل، إنما يكون تعبيرا عن شهوات صاحبه، ومتناقضا متقلبا حسب الظروف والمصالح.

ثم لننظر إلى الرسالة التي جاء بها النبي هل تخالف العقل والحق؟ وهل فيها شيء من التناقض؟ كلا.. إذن فهي معصومة، ومن عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ثم إنه كان ينقل ما ينزل عليه من الله بأمانة تامة إلى المجتمع لا يغيِّر شيئا أبدا، وحتى الآيات التي تشتمل على لومه كان يثبتها في الرسالة، ويبلِّغها للناس، ولو كان يتبع أهواءه لكان يخفيها عليهم، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص١٤٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٠، ص٢٠.

نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]، وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]، والآية الكريمة: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. وأشد من ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وأخيرا: لم يكن النبي يبلِّغ الرسالة للآخرين فقط، بل كان هو يطبقها أيضا، وقبل غيره، بما فيها من واجبات تقتضي أن يخالف الإنسان أقوى منعطفات الهوى، فهو يتقدم المؤمنين في أمر حاسم وخطير كالقتال، أترى لو كان يتبع أهواءه يصنع كل ذلك؟!.

[٥-٦] وكيف يتبع الرسول هواه، فيُخفي بعض الذي أُنزل عليه، أو يتقول على الله بدافع الشهوة والمصلحة، وهو يعلم ما عنده من البطش والشدة؟

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ ذو الإرادة المطلقة النافذة في الحياة، وهذه ضمانة لتنفيذ الحق الذي جاء به القرآن وتطبيقه على الحياة.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي مطلق العلم والحكمة، مما يجعل الرسالة (الوحي) كاملة دقيقة لا يلحقها نقص ولا عيب، ولأن الرسول كان يتلقى رسالته وعلمه من صاحب هاتين الصفتين فقد تكامل بالتأكيد والعلم الإلهيين..

﴿فَٱسْتَوَىٰ ﴾ وفي الآية أقوال شتى: فقال الكثير من المفسرين: أن من عَلَّم رسول الله هو جبرائيل الذي هو شديد القوى، وهو أيضا ذو مرة وقد استوى.

وفي كلمة ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قال البعض: إن معناها صاحب قوة، وقال آخرون: ذو عقل، وقيل: صاحب خلق حسن. أما عن الاستواء فقال البعض: إن معناه أن جبرائيل استوى هو والرسول، وقال البعض: إن الرسول قد استوى، وقال البعض: بل الله هو الذي استوى على عرش القدرة.

ولعل التفسير الذي اخترناه آنفا هو الأقرب، لأن السياق لا يحدثنا شيئا عن جبرائيل، ثم إن الاستواء الذي يهتم به سياق السورة متصل بالرسول، لأنه يحدثنا عن الرسول وليس عمن علَّمه.

[٧] وبهذا الاتصال أيضا سما النبي محمد ﷺ بروحه طهرا وعرفانا وزلفى إلى أفق الحق الأعلى، فصار سيدا لأفضل خلق الله وهم النبيون عليهم السلام، ولقد كان عروجه إلى الله في تلك الرحلة المشهودة تجسيدا لذلك السمو.

لقد كان ﷺ يتلقى الوحي عبر جبرائيل حينا، وبصورة مباشرة حينا، ولعل أعظم ساعات التلقي كانت حينما رفعه الله إلى مقام قال عنه رفيقه جبرائيل: «مَكَانَكَ يَا مُحَمَّدُ، فَلَقَدْ وَقَفْتَ مَوْقِفاً مَا وَقَفَهُ مَلَكٌ قَطُّ وَلَا نَبِيٌّ» حتى لم يبق بينه وبين ربه واسطة، ودنا من الله قربا فكان كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «بَيْنَهُمَا حِجَابٌ يَتَلَأْلَأُ يَخْفِقُ، وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا وَقَدْ قَالَ زَبَرْجَدٌ فَنَظَرَ فِي مِثْلِ سَمِّ الإِبْرَةِ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ مِنْ نُورِ العَظَمَةِ»[١] وكلَّمه تكليما، كما كلَّم موسى بن عمران عليه السلام.

﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴾ يطوف معه جبرائيل وهو على البراق، يصعد من سماء إلى أخرى ينظر إلى آيات الله، ويزداد برؤيتها يقينا وصعودا في آفاق الإيمان حتى بلغ السماء السابعة.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ حتى بلغ حجب النور، يقول النبي ﷺ: «قَالَ لِي جَبْرَئِيلُ: تَقَدَّمْ يَا مُحَمَّدُ وَ تَخَلَّفَ عَنِّي، فَقُلْتُ: يَا جَبْرَئِيلُ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْضِعِ تُفَارِقُنِي؟ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ انْتِهَاءَ حَدِّيَ الَّذِي وَضَعَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ إِلَى هَذَا المَكَانِ فَإِنْ تَجَاوَزْتُهُ احْتَرَقَتْ أَجْنِحَتِي بِتَعَدِّي حُدُودِ رَبِّي جَلَّ جَلَالُهُ، فَزَخَّ بِي فِي النُّورِ زَخَّةً حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى حَيْثُ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ عُلُوِّ مُلْكِهِ»[٢].

ويخالف الفكر الإسلامي الأصيل النظرة الفلسفية، أو ما يسميها البعض بالعرفانية في علاقة الخالق بالمخلوق، فبينما ترى هذه وحدة الوجود وإمكانية الحلول، تعالى الله عما يصفون، تفصل النظرية الإسلامية بين الاثنين، وترى أن الخالق غير المخلوق، وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصل الإنسان إلى مقام الربوبية، مهما بلغ من الفضل والعلم والإيمان، بل المجال مفتوح أمام البشر للتكامل في معارج القرب من ربه، أفقا أفقا، ودرجة درجة، دون أن ينتهي ذلك أبدا، لأن: «اللهُ خِلْوٌ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلْقُهُ خِلْوٌ مِنْهُ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَا خَلَا اللهُ»[٣].

إن القرآن يُقِرُّ رحلة المعراج ودنو النبي ﷺ من ربه، ولكنه يعتبره دنوا معنويًا لا ماديًا، ويقول إنه ﷺ تدلى في علوه، كما الدلو حينما يتأرجح في البئر فلا هو إلى قعره حيث الماء، ولا هو إلى أعلاه حيث الأرض، إنما بين الاثنين، وهكذا سما الرسول الأكرم ﷺ حتى ارتفع عن سائر الخلق بقربه من الله، ولكنه لم يصل إلى مقام الربوبية، فهو فوق الخلق ودون الخالق، وفي الخبر عن ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال عليه السلام: تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ. قلت: فلما أَسْرِيَ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ إلى السَّماءِ؟ قال عليه السلام: لِيُرِيَهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ

---

(١) بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٣٠٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٨، ص ٣٤٥.

(٣) الكافي: ج١، ص٨٢.

صُنْعِهِ وَبَدَائِعِ خَلْقِهِ، قلت: فقول الله عز وجل ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ قال عليه السلام: «ذَاكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله دَنَا مِنْ حُجُبِ النُّورِ، فَرَأَى مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ تَدَلَّى صلى الله عليه وآله فَنَظَرَ مِنْ تَحْتِهِ إِلَى مَلَكُوتِ الأَرْضِ»[(١)].

وفي حديث آخر عن يونس بن عبد الرحمن قال: «قُلْتُ لِأَبِي الحَسَنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عليه السلام لِأَيِّ عِلَّةٍ عَرَجَ اللهُ بِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله إِلَى السَّمَاءِ وَمِنْهَا إِلَى سِدْرَةِ المُنْتَهَى، وَمِنْهَا إِلَى حُجُبِ النُّورِ وَخَاطَبَهُ وَنَاجَاهُ هُنَاكَ وَاللهُ لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ؟ فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَ بِهِ مَلَائِكَتَهُ وَسُكَّانَ سَمَاوَاتِهِ، وَيُكْرِمَهُمْ بِمُشَاهَدَتِهِ، وَيُرِيَهُ مِنْ عَجَائِبِ عَظَمَتِهِ، مَا يُخْبِرُ بِهِ بَعْدَ هُبُوطِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يَقُولُهُ المُشَبِّهُونَ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ»[(٢)].

وقد يكون التدلي الأخذ من المعرفة والعلم، كقولنا: تدلَّى فلان إذا أرسل دلوه في البئر، واغترف منه ماء، فإن الرسول كان يتدلى معرفة من بحار العلم والنور التي مر بها في ملكوت السماوات السبع أثناء رحلة المعراج، قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في جواب له عن سؤال رجل عن هذه الآية ومعنى ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ : «إِنَّ هَٰذِهِ لُغَةٌ فِي قُرَيْشٍ إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ: قَدْ سَمِعْتُ، يَقُولُ: قَدْ تَدَلَّيْتُ، وَإِنَّمَا التَّدَلِّي الفَهْمُ»[(٣)] وكلما فهم الإنسان الحقائق، ازداد معرفة بربه، وتقرب إليه ودنا منه، ولعل مرور الرسول في عروجه بملكوت السماوات، ومشاهدته لما فيها من الآيات التي كانت تعرفه بربه أكثر فأكثر كلما صعد في الأفق نحو الحد الذي وصل إليه وتجلى له فيه نور ربه، كان تهيئة له ليرى التجلي الأعظم لله في نوره الذي قرب منه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أبدا ليس الله بعيدا عن خلقه. أولم تقرأ في الدعاء: «وَأَنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبُ المَسَافَةِ، وَأَنَّكَ لَا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ، وَلَكِنْ تَحْجُبُهُمُ الأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ دُونَكَ»[(٤)]. ولكن الإنسان هو البعيد عن ربه. أوليس قد تراكمت على نفسه حجب الغفلة والجهل والمعاصي، فكيف يتلقى نور ربه؟!.

وهب أنه طهَّر قلبه من كل ذلك فكيف تستقبل هذه النفس المحدودة العاجزة أنوار عظمة الخالق دون أن يتصدع قلبه؟ أوَليست قدرة الاحتمال عند النفس البشرية محدودة؟ وهل تصبر العين على التركيز في قرص الشمس طويلا؟ كلا..

---

(١) بحار الأنوار: ج ١٨، ص٣٤٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص٣١٥.
(٣) بحار الأنوار: ج٣، ص٣١٣.
(٤) البلد الأمين: ص٥٨٨.

لقد تجلى الرب لحظة للجبل فجعله دكًّا، ولم يصبر قلب موسى ذلك النبي العظيم لرؤية الجبل الذي تدكدك بتجلي الرب فَخَرَّ صعقا، فيا ترى كيف صمد قلب محمد ﷺ لنور ربه، وأي مقام سامٍ تعالى إليه نبينا الأكرم حتى كان قاب قوسين من ربه أو أدنى؟!.

ولم يحدد القرآن المسافة بالضبط، لعله لبيان حالة التصاعد والتنازل التي يتعرض لها الإنسان في القرب والبعد من ربه، كما قال عن قوم يونس: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، ولكنه قال: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ في مقام الرسول لأنه في حالة تصاعدية من الإيمان لا تنازلية.

وكلمة أخيرة: قال تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ معبرا بهذه الوحدة القياسية العرفية عن قرب الرسول للدلالة على شدة القرب المعنوي من الله، ولتأكيد الفاصلة بين الخالق والمخلوق، وقد قالوا في قاب قوسين: أن القاب هو المسافة بين المقبض والسِّيَة.

[١٠] وهنالك حيث اقترب الرسول من ربه، وتهيّأ من الجانبين، أوحى الله إليه أمرا أبهمه في النص بـ ﴿مَآ﴾ دلالة على العظمة ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ قال علي بن إبراهيم رحمه الله: «وحي مشافهة»[1]، وقال الإمام الصادق عليه السلام لأبي بصير: «يَا أَبَا مُحَمَّدٍ واللهِ مَا جَاءَتْ وَلَايَةُ عَلِيٍّ عليه السلام مِنَ الأَرْضِ ولكِنْ جَاءَتْ مِنَ السَّمَاءِ مُشَافَهَةً»[2].

[١١-١٢] وإذا كان الرسول رأى نور ربه بعينه لما دنا منه، فإنه رأى ربه ببصيرة الإيمان في وحيه المنزل عليه، ورؤية القلب أجلى وأصدق من رؤية البصر، بل إن هذه الرؤية القلبية كانت تأكيدا وتصديقا لما رآه بعينه من النور.

ولا يمكن أن يرى الإنسان ربه بعينه مشافهة، ولا بعقله لأنه هو الآخر نعمة محدودة من الله، إنما يرى ربه بربه من خلال تجليه في آيات الخلق والوحي، وفي الدعاء نقرأ إشارة إلى هذه الحقيقة عند قول الإمام عليه السلام: «يَا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ، وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَجَلَّ عَنْ مُلَائَمَةِ كَيْفِيَّاتِهِ، يَا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَرَاتِ الظُّنُونِ، وَبَعُدَ عَنْ لَحَظَاتِ الْعُيُونِ»[3].

وقلب الإنسان حينما يرى شيئا فإنه لا يخطئ في رؤيته، ذلك أن وجدان الإنسان يصدِّق الحق.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ من الحق النازل عليه من عند الله، بل هو على يقين وقناعة راسخة،

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٣٤.

(٢) الكافي: ج١ ص٤٤٢.

(٣) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٣٣٩، من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام، كان يدعو به بعد ركعتي الفجر.

لا يمكن أن تزلزله الشبهات وجدليات الجاهلين، وأقوال الرسول ﷺ وسلوكياته الشخصية والاجتماعية كلها تدل على أنه لم يكن يتكلف في إيمانه، وإنما كان ينطلق من قناعة صادقة.

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ إنكم لا يمكن أن تحرفوا مسيرته، أو تدخلوا إلى نفسه الشك في رسالته، لأنه على اليقين.

قال محمد بن الفضيل سألت أبا الحسن عليه السلام: «هَلْ رَأَى رَسُولُ الله ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟. فَقَالَ عليه السلام: نَعَمْ بِقَلْبِهِ رَآهُ، أَمَا سَمِعْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ لَمْ يَرَهُ بِالْبَصَرِ وَلَكِنْ رَآهُ بِالْفُؤَادِ»[1]. و «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، قَالَ ﷺ: رَأَيْتُ نُوراً»[2].

[١٣-١٥] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ وذلك يحتمل معاني، منها أن الرسول ﷺ كان يرى الله متجليا في كتابه (الوحي)، ثم رأى تجليا آخر لربه عندما عرج به جبرائيل عليه السلام إلى الأفق الأعلى، ودنا من ربه فخاطبه مشافهة، وقد يكون المعنى: أن جبرائيل عرج بالنبي إلى حيث أوحى له الله ما أوحى، وهناك رأى ببصره نور الله، وبقلبه رأى ربه، ثم عرج به إلى مقام آخر رأى فيه تجلّياً ثانياً لله عز وجل، وهو قوله تعالى:

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ وهي شجرة في السماء السابعة (عن علي بن إبراهيم)[3]، وعن الإمام أبي جعفر عليه السلام: «إِنَّ غِلَظَ السِّدْرَةِ بِمَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا»[4]، وربما سُمّيت بهذا الاسم: «لأنها الموضع الذي ينتهي الملائكة إليه بأعمال العباد»[5]، «ولأنها منتهى ما يمكن أن يبلغ إليه مخلوق قرباً ودنوّاً من ربه»[6].

وقيل: هي «شَجَرَةَ طُوبَى»[7]، وقال علي بن إبراهيم رحمه الله هي الشجرة: «الَّتِي يَتَحَدَّثُ تَحْتَهَا الشِّيعَةُ فِي الجِنَانِ»[8]، ولعلها البرزخ بين عالمي الدنيا والآخرة.

والآية الكريمة تشير إلى هذا التفسير، قال تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾

---

(١) بحار الأنوار: ج٤ ص٤٣.
(٢) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٨٨.
(٣) تفسير القمي: ج١، ص٢١.
(٤) بحار الأنوار: ج١٨، ص٣٦٤.
(٥) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٨٩.
(٦) راجع تفسير نور الثقلين: ص١٥٥، حديث رقم: ٤١، وص١٥٦، حديث رقم: ٤٤.
(٧) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٨٨.
(٨) تفسير القمي: ج٢، ص٣٣٥.

[١٦-١٧] وهناك تجلى نور الرب لنبيه الأعظم ﷺ فغشي السدرة، كما تجلى من قبل لموسى بن عمران عليه السلام ففاض نور الوحي على تلك الشجرة التي أوحى الله إليه عندها.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ من نور ربها، وعندها ثبّت الله فؤاد نبيه ليرى ذلك النور، ويبصر به آياته، قال الإمام أبو جعفر عليه السلام: «فَتَجَلَّى لِمُحَمَّدٍ نُورُ الْجَبَّارِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَمَّا غَشِيَ مُحَمَّداً ﷺ النُّورُ شَخَصَ بِبَصَرِهِ وَ ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ. قَالَ: فَشَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُحَمَّدٍ قَلْبَهُ وَ قَوَّى لَهُ بَصَرَهُ حَتَّى رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ مَا رَأَى»[1] فلأن الله ثبّته استطاع أن يستوعب الحقائق.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ والزيغ هو الانحراف، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، يعني لما انحرفوا عن الحق، وقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨]، أي لا تحرفها عن الحق، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ -أي انحراف- فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، ولكن زيغ البصر هنا يعني انحرافه بعامل الخوف، ويشبهه قول الله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠].

أما الطغيان فهو الزيادة السلبية في الشيء، ومنه طغيان الحاكم إذا بالغ في الظلم، وطغيان النهر إذا فاض ماؤه، وطغيان البصر أن يرى الإنسان الشيء أضخم من حجمه، والرسول لم يزغ بصره، بل كان مطمئنا ركّز نظره في الحقيقة لم ينحرف عنها بما ثبته الله تعالى، ولم تطغ عينه حتى نقول إن ما رآه صغيرا ولكنه صوّره لنا أكبر من حجمه عندما رجع من عروجه.

[١٨] إن الآيات التي رآها كانت كبيرة بالفعل: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ كسدرة المنتهى التي تُظِلُّ الورقة منها الدنيا بأجمعها، ويقف عليها ملك يسبح الله لا يفتر عن ذلك، وكنور الله الذي تجلى للنبي ﷺ عندها، وهكذا الكثير من الآيات التي تعرضت إليها أحاديث الإسراء والمعراج، إلا أن الكبر في الآيات لا ينصرف إلى حجمها وحسب، إنما هي قبل ذلك كبيرة في دلالتها على الحق.

وكلمة أخيرة: إن الآيات التي رآها الرسول ﷺ لا يلمُّ بها الكلام مهما كان طويلا وواضحا، وقد لا تستوعبها أذهاننا، لأن الكثير منها حقائق غيبية مجردة، لذلك يأتي ذكرها في القرآن كما في الأخبار ذكرًا إجماليًا.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٣٦٤.

أم للإنسان ما تمنى

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ[1] ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

المسافة بين الحق والباطل وبين الهدى والهوى هي بالذات المسافة بين الحق والتمنيات، وبين السعي والأحلام، وإذا عرفنا الفارق بين واحدة من هذه المفارقات فإنها ستكون مقياسا لنا نعرف بها مثيلاتها.

فالذين يعيشون على التمنيات هم الذين يعبدون الأصنام، زاعمين أن عبادتهم لها سوف تغنيهم عن الحق الواقع، وهم الذين يدَّعون أنوثة الملائكة وبنوتهم لله، وأنهم يشفعون لهم من دون إذنه تعالى، وهم كذلك الذين يتبعون الظن طلبا للتخلص من مسؤولية الحق والعلم.

---

(١) ضيزى: جائرة، من ضاز يضيز إذا جار.

ففي الدرس السابق بيّن القرآن وبوضوح كاف أن الوحي رؤية مباشرة وحضور النبي ﷺ عند الله بديء كل حق وبديع كل واقع سبحانه، وكذلك شهوده الواعي للمَلَك المنزل من عنده وهو جبرائيل عليه السلام ووعيه وعرفانه لآيات الله، وبالتالي فإن مسافة لا متناهية تفصل بين واقع الحضور والشهود والعلم عند الرسول وبين الأهواء والظنون عند أولئك الكفار.

وهنا يلج السياق في الحديث المفصل ببيان الضلالات التي وقع فيها المشركون بابتعادهم عن الهدى، واعتقادهم بالأصنام ليس عن قناعة، بل لأنهم أرادوا منها الشفاعة، والفرار من المسؤولية، والآيات تنسف هذا الضلال بالتأكيد على أن الملائكة مع كرامتهم عند الله لا يملكون الشفاعة إلا من بعد إذنه ورضاه، فكيف بهذه الأصنام الحجرية التي لا تبصر ولا تسمع، ولا تنفع ولا تضر، بل يستوجب الاعتقاد بها الغضب والعذاب؟!. إنهم يتمنون ذلك ويزعمون، والظن لا يغني من الحق شيئا، إذ ليس في هذا العالم إلا الحق، وإنما الحق أن يبلغ الإنسان ما يسعى إليه.

بينات من الآيات:

[١٩-٢٠] الجهل أرضية أكثر العقائد الفاسدة، فلأن المشركين لم يعرفوا عظمة الله وآياته طفقوا يعبدون الأصنام، ولذلك نجد القرآن بعد تأكيد علم النبي ﷺ بربه من خلال الوحي يأتي على بيان فساد عقائد المشركين بالآلهة المزيفة التي عبدوها من دون الله، بتوجيههم إلى العلم وتبصر الحقائق دون الاسترسال مع الأهواء، ويقول مستنكرا هذا الضلال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي من أهم وأشهر الأصنام التي عبدها المشركون في الجاهلية، فأما ﴿ٱللَّٰتَ﴾ فقيل إنه صنم لأهل الطائف جعلوا له سدنة وكهنة وحجابا، وزعموا أنه تأنيث لله سبحانه وتعالى، وقالوا: إن كان لأهل مكة بيتٌ يزورونه ويطوفون حوله كل عام فنحن لنا هذا الإله، وكانت قبيلة ثقيف التي تسكن الطائف تقدسه وتحترمه، وأما «العزى» فقيل إنه تأنيث عزيز، وهو شجرة بين الطائف ومكة يقدسونها ويعبدونها، وقيل عن «مناة» إنه بين مكة والمدينة (ولعل التعبير مستوحى من الأمنية). وكانت قبيلتي الأوس والخزرج وأخرى غيرهما يزورونه ويطوفون حوله، وربما كانوا يحرمون عنده في طريقهم إلى مكة المكرمة.

والمشركون عبدوا هذه الأصنام ولم يروا عليها برهانا قاطعا، إنما نطقوا عن الهوى، واتبعوا الظن، أما الرسول فهو على بصيرة من أمره، وهدى من ربه، إنه آمن بالله من خلال وحيه الذي تنزل عليه، الذي كان من الدلالة والحجية أن رآه متجليا فيه، كما رآه متجليا في مشاهدات المعراج.

[٢١-٢٢] وربما كان المشركون يعتقدون بأن هذه الأصنام هي رموز لملائكة في السماء، فهم يقدسونها لكي تقربهم إلى تلك الملائكة، وهي بدورها تشفع لهم عند الله، كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وحيث يعتقد الجاهلون بأن الملائكة إناث فقد سموا هذه الأصنام تسمية الأنثى وتسبوها إليه عز وجل، والقرآن يستنكر هذه النسبة التي لا تقوم على أساس من العلم والحق.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ وحيث يعتقد المشركون بأن الذكر أفضل من الأنثى فكان ينبغي على ضوء عقيدتهم أن يتقربوا إلى الله بالأحسن لا الأسوأ، ومن هذا المنطلق تكون قسمتهم ظالمة حتى حسب معتقداتهم الضالة.

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ بعيدة عن الحق، وهم لم يروا الملائكة ولم يشهدوا خلقهم حتى يزعموا أنهم كانوا إناثا!، وهنا تتضح منهجية القرآن، فهو يحطم العقائد المنحرفة من بُناها الأساسية، وذلك يزيل القدسية التي يعتقدونها في أصنامهم، ببيان أظهر الأدلة على زيفهم وانحرافهم، مع أن الأظهر قد لا يكون هو أهم الأدلة، وقد لا يعبر عن كل الحقيقة، ولكنه يحطم القدسية التي أضفوها على معتقداتهم ورموزها من الأصنام والطغاة، وبعد أن تزول عقبة القدسية الموهومة عن طريق النفس يتحرر الفكر، وينطلق للبحث عن الحقيقة، فيطرح القرآن الحقائق الأعمق للنظر فيها.

[٢٣] وبعد التمهيد المتقدم الذي استهدف إزالة قدسية معتقدات المشركين ينسف القرآن أفكارهم من أساسها نسفا، وذلك ببيان أنها لا رصيد لها أبدا من الواقع والحق، وأنها لا تقوم إلا على الأوهام والظنون.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ فهي لا واقعية لها، بل هي مجرد أسماء ورموز لا مسميات لها، ولعل معنى ذلك أن قوة هذه الأصنام نابعة من ظنونكم وأوهامكم، لا من واقع حق وراء ذلك. أَوَليس ما يتصوره البشر من صور خيالية قائمة بنفسه، ويكفي لإزالتها مجرد توقف الخيال عن تصورها؟.

تصور الآن نهرا من لجين مذاب، واختر له اسما مثلا (نهلجين)، ثم أوقف عملية التصور، ماذا يبقى من هذا الذي سميته (نهلجين)؟ لا شيء، كذلك حين يوقف المشرك توهمه لقدسية الأصنام لا يبقى منها شيء، وكذلك الطغاة (وهي الأصنام البشرية) تزول قوتهم وهيبتهم بمجرد إحساس المستضعفين بواقع أمرهم وانتزاع وهم القدسية عنهم. أليس كذلك؟.

ثم إن هذه الأسماء لا شرعية لها، لأن الشرعية تأتي من عند الله وحده، وليس هناك دليل

على أن الله أمر بعبادتها أو التوسل بها إليه.

ومجرد عدم وجود دليل (وسلطان مبين) من عند الله يسمح للإنسان بالتسليم لقوة سياسية (صنم حجري أم بشري) يكفي دليلا على حرمة هذا الأمر. أوليس الله قد خلقنا، ونحن عبيده. أفينبغي للعبد أن يطيع غير مولاه؟!.

وإنما قال تعالى: ﴿أَنتُمْ﴾ وأضاف إليها ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾ لكي يؤكد مسؤوليتهم هم عن انحرافهم، وأنه لا يجوز إلقاء مسؤولية الانحراف على آبائهم وحدهم، ونستوحي من هذه الآية أن منهج المشركين الخاطئ خليط من أمور ثلاثة:

الأول: وراثة الضلالة من الآباء، في حين أن الشرعية الحقيقية يأخذها الإنسان من ربه لا من آبائه.

الثاني: الظنون، وهي الإفرازات السلبية للذهن البشري حينما تعمل فيه المؤثرات الخاطئة.

الثالث: أهواء النفس، ودورها:

ألف: التمهيد للظنون.

بـاء: ترسيخها كما ترسيخ ذلك التقديس الخاطئ للآباء، لأنها تلتقي معه.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وبالتدبر في هذه الآية وما سبقها يتضح لنا أن حركة الإنسان نحو الزيغ تبدأ من أهواء النفس، التي تتحول إلى تمنٍّ، والتمني إلى ظن (خيال)، ثم تتحول التمنيات إلى عقيدة وفكرة، ثم يؤطر البشر ذلك برموز وأسماء يزعمها، فالأصنام إذن ليست رموزا للملائكة ولا للقوى الطبيعية، إنما هي تجليات للأهواء النفسية والمصالح المادية، فحينما يحب الإنسان الثروة يحب الثري، ويتخيل لهذا الحب رمزا ومذهبا، ثم حينما يعبده فهو لا يعبد الصنم ولا الثري أو الثروة، إنما يعبد أهواءه وشهواته، وهكذا الذي يعشق الجمال أو الجنس، ولو قمنا بدراسة تحليلية عن الأوثان والأصنام التي عبدها الجاهلون في شبه الجزيرة العربية، أو تلك التي علقوها في الكعبة، أو الأخرى التي تقدس وتعبد هنا وهناك، لخلصنا إلى نتيجة واحدة وهي أنها ترمز إلى قوى اجتماعية واقتصادية وسياسية أو ثقافات وتقاليد وأساطير عند أصحابها، وأن عبادتها ليست إلا عبادة للأوهام والأهواء المتجذرة في نفوسهم.

وهذا الضلال ليس نتيجة انعدام الهدى أو غموضه، فقد جاءهم الهدى من ربهم، وعلى

لسان أفضل خلقه وأبلغهم وهم الأنبياء، ولكنهم تركوا العقل إلى الجهل، والعلم إلى الظن، والهدى إلى الهوى.

[٢٤] ولو تساءلنا عن سبب هذا الاختيار الضال لوجدناه محاولتهم التهرب من ثقل المسؤولية بالأعذار المختلفة التي جاءت السورة لعلاجها، ويبدو أن السياق يمهد لذلك ويقربنا شيئا فشيئا منه، فمن أهداف الرسالات الإلهية جميعا ترسيخ المسؤولية، وتعرية الإنسان من حجب التبرير والأهواء التي يحاول أن يتخلص من المسؤولية باسمها.

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ التمني هو خداع الإنسان لنفسه بشيء جميل من خلال الظنون والأوهام التي يصنعها بتخيلاته، فالجائع يتمنى الشبع فيتخيل القرص، والعطشان يتمنى الارتواء فيتوهم الأنهار الرقراقة، والشبق يتخيل نفسه يلصق بمعشوقته، وهذه حالة طبيعية في الإنسان، تعطيه التوازن في الحياة، وكلما كانت الحقائق والتطلعات التي يصبو إليها كبيرة وهامة كانت تمنياته تأخذ أشكالا وأبعادا جديدة، إلا أن المبالغة في التمني تضر به لأنه يخرجه من التعايش الواقعي مع الحياة إلى الأوهام والأساطير، ومن السعي الجاد نحو الهدف إلى مجرد الظن والهوى. أترى لو جلس أحد في بيته وتمنى وصول الرزق إليه هل يتحقق ذلك له؟ وهكذا لو مشى في الدنيا خبط عشواء، فإن مجرد تمنياته -المنطلقة من أهوائه والظنون والمبنية على اعتقاده بالأصنام- لن تدفع عنه المشاكل والويلات، ولن تنقذه من العذاب، بل؛ للإنسان سعيه وعمله خيرا أو شرا، وهذا ما سنجد الآيات تنتهي إليه بوصفه محصلةً نهائية لعلاج فكرة التمني، قال الإمام الصادق عليه السلام: «تَجَنَّبُوا الْمُنَى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ بَهْجَةَ مَا خُوِّلْتُمْ وتَسْتَصْغِرُونَ بِهَا مَوَاهِبَ الله تَعَالَى عِنْدَكُمْ وتُعْقِبُكُمُ الْحَسَرَاتِ فِيمَا وَهَّمْتُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ»[1].

[٢٥-٢٦] وبطلان فكرة التمني ليس مختصا بالآخرة وحسب، بل يشمل الدنيا أيضا، ذلك أن الله الذي خلقها رسم خريطتها، وأركز فيها سبلا وسننا واقعية تجريان على أساسها، وليس على أساس الأحلام والتمنيات، يقول تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ الله هو الحق، وهو الآمر به، وسلطانه الدائم، وتدبيره المهيمن، وقضاؤه النافذ، كل أولئك ضمانة لتنفيذ الحق رغم تمنيات البشر المعاكسة له، وليس في ظل حكومة الله مجال لظنون الإنسان وتمنياته، ومن يزعم أنه يتخلص من سنن الله وحاكميته بالاعتماد على أمانيه فهو يخطئ، لأنه ينازع الله في سلطانه سبحانه، ولكي يعمل أمنياته لا بد أن

(١) الكافي: ج٥، ص٨٥.

يخرج من سلطان الله، ويبحث له عن حياة تغني فيها الأمنيات، ولن يحصل ذلك لأن الحياة كلها له عز وجل، أو يبحث له عن حكومة يمكنها أن تواجه سلطانه وإرادته، ولن يجد إلى ذلك سبيلا، وحتى الملائكة الموكلين بالطبيعة لا تغني شفاعتهم شيئا، لأن قوتهم من الله وليست ذاتية، وهم لا يشفعون إلا لمن شاء وارتضى.

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا ﴾ لو افترض أنهم بادروا للشفاعة، فكيف بتلك الأصنام؟! بلى؛ إن شفاعتهم والأولياء تنفع بإذنه تعالى، ولأفراد مخصوصين يرضى لهم الله الشفاعة.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ وإذنه لا يحصل بسبب ضغط قوى أخرى، تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيراً، إنما يأذن بإرادته العليا، كما أنه لم يجعل الشفاعة بعيدة عن القوانين والسنن التي خلق الحياة وفقها، ومن هذه القوانين أن يكون الشفيع مرضيا عنده.

وهكذا يحدد القرآن الشفاعة بحدين:

ألف: حد للشافع الذي لا يكون إلا من يرتضيه الله، فلا تجوز الشفاعة أساسا إلا للأنبياء والأولياء والملائكة المقربين، أما الأصنام الحجرية والبشرية فليست أهلا للشفاعة أبدا.

جاء في الحديث عن الرسول الأعظم ﷺ: «وَالشَّفَاعَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ»[1]. وعنه ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يَشْفَعُونَ إِلَى الله عَزَّ وجَلَّ فَيُشَفَّعُهُمْ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ»[2].

بـاء: حد لمن يشفعون له، فلا يشفع من وصل إلى درجة الشفاعة إلا لبعض الناس ممن يأذن الله له بأن تشملة الشفاعة وممن رضي الله عنه. قال عز وجل: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «اعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ شَيْئاً لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ولَا مَنْ دُونَ ذَلِكَ، فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ تَنْفَعَهُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ عِنْدَ الله فَلْيَطْلُبْ إِلَى الله أَنْ يَرْضَى عَنْهُ»[3]. وعن الرسول الأعظم ﷺ: «وَالشَّفَاعَةُ لَا تَكُونُ لِأَهْلِ الشَّكِّ وَالشِّرْكِ وَلَا لِأَهْلِ الكُفْرِ وَالْجُحُودِ، بَلْ يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ»[4].

---

(١) بحار الأنوار: ج ٨، ص ٥٨.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٣٠.
(٣) الكافي: ج٨، ص١١.
(٤) بحار الأنوار: ج٨، ص ٥٨.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «وَلَوْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُقَرَّبِينَ وَالأَنْبِيَاءَ الْمُرْسَلِينَ شَفَعُوا فِي نَاصِبٍ مَا شُفِّعُوا»[1].

ولا تنفي الآية بقوله تعالى: ﴿لَا تُغْنِى﴾ الشفاعة كليًّا، وإنما تنفي حتميتها، كما تؤكد على ضرورة ألَّا تكون علاقة الإنسان بالغير حتى العباد المكرمين كالملائكة والأولياء من الناس مضادة لعلاقته بربه، ولا بديلا عنها، بل امتدادا لها، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ يهدينا إلى أن الشفاعة قضية شخصية تتوجه إلى الإنسان الفرد بذاته بعيدا عن النظر إلى انتمائه، فقد ينتمي اجتماعيًّا إلى فريق الضالين ولكنها تناله، وقد تفوته بالرغم من انتمائه إلى فريق المؤمنين، والذي يحدد الشفاعة هو علم الله النافذ إلى حقيقة الإنسان.

[٢٧] ثم يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾.

والسؤال: لماذا يسمي المشركون الملائكة إناثا، وما هي علاقة ذلك بالكفر بالآخرة؟.

لعلنا نجد الجواب في أن الأنثى رمز العطف والحنان، وهم يسمون الملائكة بذلك رجاء عطفهم وشفاعتهم لهم عند الله، وبهذا الاعتقاد يحاول المشركون تبرير ممارستهم للذنوب في الدنيا، وإقناع أنفسهم بإمكانية التخلص من مسؤولياتها في الآخرة بالتوسل بمن يعطف عليهم وهم الإناث من خلق الله وهم الملائكة حسب زعمهم، وهذا كفر صريح بالآخرة بوصفها داراً للجزاء العادل.

[٢٨] ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ﴾ وهو الإفرازات (التصورات والأفكار) الناتجة من إعمال الإنسان لخياله بعيدا عن البراهين الواقعية.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ ونفي البعض ينفي الكل، وليس العكس، وهو أبلغ في النفي، فلا شيء من الحق يغنيه الظن أبدا، والقرآن هنا يستثير قضية وجدانية هي قبح كلام الإنسان فيما لا يعلم، وقد تحدث هؤلاء عن طبيعة الملائكة وذلك جزء من الغيب المحجوب عن علم البشر بشهادة وجدانه. أوليس عقل الإنسان ينفذ إلى معرفة الأشياء عبر حواسه؟ أوليس لكل علم أداته ووسيلته، فما هي الحاسة التي نعلم بها غيب السماوات والأرض، وما هي الأداة التي تعرف بها طبيعة الملائكة، وأنهم إناث لا ذكور؟!.

إنها مشكلة البشر. إنه يهوى شيئا فيتمناه، ثم يظن أنه واقع فيسعى وراء ظنه خادعا نفسه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٤٢، تفسير القمي: ج١، ص٤٦.

[٢٩] وإنما اتبع هؤلاء الظن لأنهم اختاروا الدنيا على الآخرة، فاكتفوا بالظن بدل العلم والحق، وبالتمني بدل السعي، وكل ذلك لأنهم لم يعترفوا بالمسؤولية ولم يبتغوا مرضاة الرب، ولو آمنوا بالآخرة، وظنوا أنهم ماثلون أمام ربهم للحساب غدا عن كل صغيرة وكبيرة، لعرفوا أن الطريق إلى الحق هو العلم وليس الظن، ولكنهم آمنوا بالدنيا فقط، والدنيا هي حياة اللامسؤولية، وعلى الداعية الرسالي ألّا يبخع نفسه عليهم، بل يتركهم وشأنهم ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ لأن مشكلة هذا النوع من البشر ليس عدم قناعته بالحق، فهو يعلم أنه الهدى والصواب، ولكنه يتولى عنه ابتغاء الدنيا، وإنما أمر الله بالإعراض عنهم لكيلا يتأثر المؤمن بهم سلبيًّا، فيغير من رسالته صوب الدنيا، تنازلا عن بعض أهدافها، أو من أجل إقناعهم باتباعها، ثم إنه لا ينبغي للمؤمن أن يبدد جهوده الغالية فيما لا يرجو نفعا منه، بل في ما يخدم الرسالة، ويقدم المؤمنين خطوة إلى الانتصار.

وقد قال تعالى: ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ وهي للتعظيم، ولم يقل عن ذكري، لأن الضمير المفرد يستخدمه الله في موضع إثبات التوحيد وتأكيده، أو في مجال الرحمة والعطف، والحال أن هؤلاء تكبروا عن الحق، وتولوا معرضين عنه، فالمقام مقام التعالي والتكبر عليهم مما يتناسب واستعمال ضمير التعظيم (أو ما يسمى بضمير الجمع)، ذلك لأن إعراضهم لا ينال شيئا من عظمة الله، كما أن إيمان المؤمنين لا يزيده سبحانه شيئا. وسمى القرآن هنا بالذكر لأنه في مقام علاج العقائد، وهي قضايا وجدانية، ولفظ الذكر بما يحويه من إيحاءات وإشارات لعلاقة القرآن بالفطرة البشرية أخدم للمعنى من غيره في هذا الموضع.

كما تنطوي نهاية الآية: ﴿إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ على فكرتين مهمتين:

الأولى: أن المؤمن يفترق عن الكافر والمشرك في قضية أساسية هي أن الأول يريد الدنيا والآخرة، ويسعى لهما معا، موفقاً بين الحق الذي يجب عليه الالتزام به، وبين نصيبه الذي أحل الله له من الدنيا.

الثانية: أن على المؤمن ألّا يضعف أمام أعداء الله أو يتملق إليهم لأنهم ظفروا بشيء من حطام الدنيا، فذلك حظهم، بل يجب عليه أن يستمسك برسالته، ويتصلب في ولائه للحق، ويعرض عنهم، لأنهم لا يملكون إلا هذه الدنيا الزائلة.

[٣٠] وإن عدم إرادة المعرضين عن الذكر للحياة الآخرة ليس ناشئا من حسن اختيارهم، وإنما لجهلهم بتلك الحياة وما فيها من الثواب، ولو علموا يقينا ما فيها من الفوز لأرادوها واشتدت فاقتهم إليها، وعظمت رغبتهم فيها، ولكنهم حصروا أنفسهم وحبسوا

عقولهم في سجن الدنيا، وهذه من معضلات الإنسان أنه يصنع لنفسه سقفا من العلم، ويُكَبِّل عقله بأغلال الهوى وإصر الشهوات عن الانطلاق في رحاب العلم والحق، وصدق الإمام علي عليه السلام حيث قال: «وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ»[1].

﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ وهذه الآية تؤكد أن الإيمان بالآخرة حجر الزاوية في تفكير الإنسان المؤمن. ولكي يتم إعراض المؤمن عن الجاهلين يحتاج إلى أمور أهمها:

١- العلم بأنهم على باطل، وقد بيّن القرآن ذلك حينما أكد أنهم لا يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ثم ضرب أمثلة على ذلك كموقفهم من الملائكة، وكفرهم بالآخرة، وتوليهم عن الذكر.

٢- اليقين بأنهم ضعفاء في المحصلة النهائية بخسرانهم الآخرة.

٣- المعرفة بأن حساب الناس ليس من مسؤوليات المؤمنين، إنما الله يفصل بينهم، ويعلم المهتدين والضالين.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إذن فغلبة الضالين على المؤمنين عند الجدال أو عدم غلبة المؤمنين عليهم لا يغيّر من الواقع شيئاً، فأهل الباطل هم أهل الباطل وأهل الحق هم أهله، ذلك أن كلام الناس ليس مقياسا، إنما الحق والباطل هما المقياس بذاتهما.

ثم إن الخلافات -حسبما نستوحي من الآية الكريمة- لا تحسم في الدنيا لأنها لم تخلق لذلك، وكما قال الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، والدار الآخرة هي محل الحسم والجزاء، فلا ينبغي للمؤمن أن يكون جبارا على الناس يحاول إكراههم على الهدى إن أوتي السلطة عليهم، كما لا ينبغي عند ضعفه أن يهلك نفسه إذا ما تولوّا عن دعوته.

كما نستوحي من كلمة ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ في الآية أن في الحياة سننا وقوانين، وهي السبيل إلى الحق، وهذه يعلمها الله ويحاسب عليها، يضل عنها جماعة فيصيرون إلى الباطل والعذاب، ويهتدي إليها آخرون يصيرون إلى الحق والسعادة، والسبب أن الفريق الأول ينكر هذه الحقيقة، في حين يؤمن بها فريق المهتدين فيبحثون عنها، فإذا وجدوها طبّقوها، وكيّفوا حياتهم وفقها، وتجاوزوا الأخطاء والضلال.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢١١.

وأن ليس للإنسان إلا ما سعى

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ[1] إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ[2] فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى[3] (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى[4] (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ[5] أَهْوَى

---

(١) إلا اللمم: أي الذي يلم بالإنسان، ويرد عليه مما لا علاج من وروده غالباً، وهي الصغائر مثل: كلمة نابية، أو ضحكة غير جائزة، أو نظرة محرمة، أو ما أشبه ذلك.

(٢) أجنة: جمع جنين، الإنسان حينما يكون في رحم أمه.

(٣) وأكدى: أي قطع العطاء، واشتقاقه من كدية الركية، وهي صلابة تمنع الماء إذا بلغ الحافر إليها ييئس من الماء، فيقال: أكدى إذا بلغ الكدية.

(٤) الشعرى: هو نجم في السماء يطلع آخر الليل، كان جماعة من العرب يعبدونه.

(٥) المؤتفكة: هي قرى قوم لوط عليه السلام التي ائتفكت بأهلها أي انقلبت، وقيل للكذب إفكاً لأنه قلبٌ للمعنى من جهته.

﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ[1] ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ[2] ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

بصراحة الحقيقة، وبقوة اليقين، يتقدم بنا السياق القرآني شيئا فشيئا إلى الفكرة المركزية في هذه السورة، وهي فكرة المسؤولية التي نجدها في تضاعيف أغلب آياتها وكأنها خافية؛ لكل فكرة فيها وشاهد، إلا أنها تتجلى كصراحة الشمس عند قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (الآية: ٣٩).

ولكن الله قبل أن يقذف بهذا الحق على باطل التبرير واتّباع الهوى والظن، يذكّرنا بلون من ألوان الشفاعة المقبولة عنده وهي شفاعة الأعمال الحسنة للإنسان عن اللمم من السيئات كما نجد تصريحا به في الآية الكريمة: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]، إن تقوى الإنسان التي تجنّبه كبائر الإثم تشفع له في الصغائر (اللمم)، ولعل تقديم هذه الفكرة (الشفاعة) المشحونة بالرجاء واللطف الإلهي، على فكرة المسؤولية وما فيها من الشدة والصرامة، يهدف إعطاءنا الأمل في رحمة الله، لكيلا نيأس فنتوغل في الجريمة والذنب، أو نقعد من عمل الصالحات، بناء على تصوراتنا البشرية المرتكزة في القنوط والجزع. كلا إن الله رحيم ويحاسبنا بفضله لا بعدله، وإلا لما دخل الجنة أحد كما قال الرسول الأعظم ﷺ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ»[3].

ثم يؤكد القرآن بخطاب فصل مسؤولية الإنسان عن سعيه، أنه يُجازى عليه إن خيرا فخير وإن شرًا فشر، وهي تتعلق بنفي الشرك وبرفض الأنداد ومدى عمق حقيقة التوحيد في النفس فكلما زاد يقين الإنسان بالله وأنه المالك الحاكم الأحد لكل شيء، كان أقرب من المسؤولية إيمانا وعملا، وأبعد عن الحجب والتبريرات التي تمنعه من حملها.

إن التوحيد يجعله لا يتوسل بوشائج الشرك، التي هي بذاتها نوع من التبريرات التي

---

(١) أزفت الآزفة: أي قربت القيامة ودنت.

(٢) سامدون: لاهون، والسمود اللهو، والسامد اللاهي.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧، ص١١.

يلجأ إليها الإنسان تهرّباً من المسؤولية. إنك تراه يقبل كل شيء، يقبل أن يكون عبدا للشجر وللحجر وللبقر لا فرق لكي يفر من ثقل المسؤولية. إذن فمتى ما طهرت نفسه من درن تلك الأصنام، القائمة على أساس الثقافة الجاهلية الضالة، القائمة بدورها على الظن وهوى النفس، فإنه يومئذ مجرد أن يقف أمام المسؤولية بلا تبريرات يجد نفسه أمام حجة بالغة تضطره إلى التسليم لها عمليا.

بينات من الآيات:

[٣١-٣٢] لقد دعا الله المؤمنين إلى الإعراض عمن تولى، ولأن البعض لا يعرض عن الكيان الجاهلي خشية الضعف والفقر، أكد القرآن أن الله هو الغني الذي يملك خزائن الكون، والقوي الذي يهيمن على الحياة. فلماذا الخشية إذن من مقاومة الانحراف؟ ورفض هيمنة المنحرفين؟.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فهو وحده الذي وضع سنن الكائنات ويهيمن عليها ويجريها بقدرته وعدالته ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ عدلا السيئة بمثلها، ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾ فضلا، فالحسنة بعشر أمثالها، وتتضاعف ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وبالتدبر في شطري الآية الكريمة الشطر الأول الذي ينطوي على فكرة التوحيد ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، والشطر الثاني الذي ينطوي على فكرة المسؤولية المنبثقة من حقيقة الجزاء ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ﴾ فإننا نعرف العلاقة الوثيقة بينهما، وذلك أن الذين ينحرفون يحاولون التملص من مسؤولياتهم بالشرك. والحق أن التوحيد يعني نفي الشريك، وهذا بدوره ينفي التبرير، إذن فالموحد الحق هو الذي يتهيأ لحمل المسؤولية. إن هذه الآية تنسف ثقافة التبرير المتجسدة في عبادة الأنداد كالملائكة والأصنام وحتى العباد الصالحين تمنّياً للشفاعة، وذلك ببيان أن الله يُجري عدالته في الحياة، ولا أحد يستطيع فرض إرادته عليه، لأن الحياة تكوينيًا وتشريعيًا له وحده لا يشاركه فيها أحد، وإذا كانت ثمة هيمنة ظاهرية للملائكة فهي تنفيذية وبإذن الله، وتبقى الهيمنة الحقيقية المطلقة لله وحده، فلا مهرب منه إلا إليه ولا شفاعة إلا من بعد إذنه، ولا أنداد قادرين على تغيير سنن الله في الخليقة حسب أهوائهم وبالذات سنة الجزاء العادل.

ثم إن تأكيد القرآن على بيان العدالة الإلهية في الجزاء في أكثر سور القرآن إنما هو ليزرع الاطمئنان العميق في قلب البشر إلى وقوع الجزاء. الأمر الذي يبعثه نحو عمل الخير ويزجره عن الشر إلا أن العدالة وبالتالي المسؤولية فكرة قاسية لا يتحملها القلب البشري الذي من

طبيعته الانحراف. لذلك تأتي الآية اللاحقة لتخفف وطأتها ببيان مدى رحمة الله وغفرانه.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ الإثم هو عموم الذنب (بين العبد وربه أو بينه وبين نفسه أو بينه وبين الناس) والفواحش هي الذنوب الاجتماعية. قال الإمام الصادق عليه السلام: «الفَوَاحِشُ الزِّنَا والسَّرِقَةُ»[1] وهما ذنبان اجتماعيان.

وذكر الفواحش من دون إضافة كلمة الكبائر بخلاف الإثم أضيف إليه لفظ الكبائر، لأن الفواحش كلها كبائر، في حين أن في الإثم الصغائر ﴿ٱللَّمَمَ﴾ وفيه الكبار. وفيما يلي نذكر حديثا في كتاب الإثم مرويا عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «سَمِعْتُ أَبِي مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ: دَخَلَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَلَمَّا سَلَّمَ وجَلَسَ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ ثُمَّ أَمْسَكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: مَا أَسْكَتَكَ؟. قَالَ: أُحِبُّ أَنْ أَعْرِفَ الكَبَائِرَ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

فَقَالَ عليه السلام: نَعَمْ يَا عَمْرُو أَكْبَرُ الكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللهِ، يَقُولُ اللهُ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ، وبَعْدَهُ الإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ثُمَّ الأَمْنُ لِمَكْرِ اللهِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ ومِنْهَا عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ العَاقَّ ﴿جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وقَتْلُ النَّفْسِ: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ..﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، وقَذْفُ المُحْصَنَةِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾، والفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وأَكْلُ الرِّبَا لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ والسِّحْرُ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾، والزِّنَا لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾، واليَمِينُ الغَمُوسُ الفَاجِرَةُ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، والغُلُولُ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ومَنْعُ الزَّكَاةِ المَفْرُوضَةِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡ﴾، وشَهَادَةُ الزُّورِ وكِتْمَانُ الشَّهَادَةِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٢٣.

فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، وشُرْبُ الخَمْرِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ نَهَى عَنْهَا كَمَا نَهَى عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وتَرْكُ الصَّلَاةِ مُتَعَمِّداً أَوْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضَ اللهُ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّداً فَقَدْ بَرِئَ مِنْ ذِمَّةِ اللهِ وذِمَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ونَقْضُ العَهْدِ وقَطِيعَةُ الرَّحِمِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

قَالَ: فَخَرَجَ عَمْرٌو ولَهُ صُرَاخٌ مِنْ بُكَائِهِ، وهُوَ يَقُولُ: هَلَكَ مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ ونَازَعَكُمْ فِي الفَضْلِ والعِلْمِ»[1].

وفي حديث آخر: «واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، والقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، ومَعُونَةُ الظَّالِمِينَ والرُّكُونُ إِلَيْهِمْ، واليَمِينُ الغَمُوسُ، وحَبْسُ الحُقُوقِ مِنْ غَيْرِ عُسْرٍ، والكَذِبُ، والكِبْرُ، والإِسْرَافُ، والتَّبْذِيرُ، والخِيَانَةُ، والاِسْتِخْفَافُ بِالحَجِّ، والمُحَارَبَةُ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ، والاِشْتِغَالُ بِالمَلَاهِي، والإِصْرَارُ عَلَى الذُّنُوبِ»[2].

وإلى جانب هذه الكبائر هناك الذنوب الصغيرة التي يقترفها الإنسان -بطبيعته الضعيفة- عن قصور أو من دون قصد مبارزة الله، فإن حسناته وتجنبه للكبائر، الذي يدل على سلامة مجمل مسيرته يشفعانها له، وهذا من رحمة الله وسعة غفرانه، أما لو مارس الصغائر عن عناد وإصرار فإنها تصير كبائر أيضا.

﴿إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام: «اللَّمَّامُ العَبْدُ الَّذِي يُلِمُّ الذَّنْبَ بَعْدَ الذَّنْبِ لَيْسَ مِنْ سَلِيقَتِهِ أَيْ مِنْ طَبِيعَتِهِ»[3]. وكما أن الإصرار يصيرٌ الإثم الصغير من الكبائر، فإن التوبة والاستغفار يصيّران الكبائر صغائر، أو يمحوانها من كتاب السيئات. لذلك نجد تفسيرا لكلمة اللمم غير صغائر الإثم، إنما عموم الإلمام بالذنب بصورة طارئة وغير متعمدة. ويؤكد الإمام عليه السلام أن غفران الله يسع كل ذنب بشرط الاستغفار، قال الإمام الصادق عليه السلام: «وَاللَّمَمُ الرَّجُلُ يُلِمُّ بِالذَّنْبِ فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْهُ. قُلْتُ -الرواي-: بَيْنَ الضَّلَالِ والكُفْرِ مَنْزِلَةٌ!. فَقَالَ عليه السلام: مَا أَكْثَرَ عُرَى الإِيمَانِ»[4].

إن السبب الحقيقي للذنب بالإضافة إلى هوى الإنسان هو الشيطان الرجيم، وهو قد يمر مرورا على قلبه فيجعله يُلِمُّ بالمعصية، وقد يسكن فيه ويفرّخ فيجعله يقترف الخطيئة تلو الخطيئة، وبالنسبة للمؤمنين فإنه لايطيق السكون في قلوبهم لأنهم يستعيذون بالله منه، ويلعنونه

(١) الكافي: ج٢، ص٢٨٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٢٩.
(٣) الكافي: ج٢، ص٤٤٢.
(٤) الكافي: ج٢، ص٢٧٨.

قبل كل شيء وبعده، ولو افترض أن أصابهم بسهم منه فإنهم سرعان ما يرجعون إلى الصواب ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وكلمة أخيرة: إن في الإسلام نوعين من الذنوب: الصغائر والكبائر، ولكن المعيار الحقيقي في تحديد نوع الذنب هو مدى وعي الإنسان به وموقفه من ممارسته له، فقد يندفع الإنسان نحو ذنب صغير، ولكن تحدّياً لسلطان الله، وعنادا واستكبارا عليه، فيكون كبيرا. فقد جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «مَنْ هَمَّ بِخَيْرٍ فَلْيُعَجِّلْهُ ولَا يُؤَخِّرْهُ فَإِنَّ العَبْدَ رُبَّمَا عَمِلَ العَمَلَ فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: قَدْ غَفَرْتُ لَكَ ولَا أَكْتُبُ عَلَيْكَ شَيْئاً أَبَداً. ومَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَا يَعْمَلْهَا فَإِنَّهُ رُبَّمَا عَمِلَ العَبْدُ السَّيِّئَةَ فَيَرَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ فَيَقُولُ: لَا وعِزَّتِي وجَلَالِي لَا أَغْفِرُ لَكَ بَعْدَهَا أَبَداً»[1]

وقد يأتي الإنسان بذنب كبير استرسالا واستجابة لضغوط هائلة، ولكن سرعان ما يندم ويتراجع فإن الله سبحانه يغفر له.. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

ولكن من الذي يحدد الذنب الذي يقترفه الإنسان، هل هو من الصغائر أم من الكبائر على ضوء هذه القاعدة؟.

إنه الله الذي يحيط علما بدقائق حياة الإنسان، وفي جميع مراحل نشأته. ولا يُخدع الله عن جنته. نعم فهو الذي خلقنا وربانا من يوم كنا في بطون أمهاتنا حتى نموت. فحتى العوامل الوراثية والتربوية التي تؤثر في شخصية الإنسان التي تُنقل إليه وهو جنين يعلمها الله.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ويبدو - بالإضافة للإشارة لخلق آدم عليه السلام - أن كلمة الأرض هنا تشير إلى القوى والعوامل السلبية المؤثرة في شخصية الإنسان، كالهوى وحب المال والظهور و... وتشير الآية الكريمة إلى بصيرتين هما:

البصيرة الأولى: سبق رحمة الله إلى الإنسان إذ والى نعمه عليه قبل أن يصير إلى رحم أمه فأنشأه من دون شيء سبق منه إليه تعالى، ثم لما صار جنينا أنشأه وأسبغ عليه من نعمه حتى

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣١٣.

استوى، وهذه الآية تؤكد سعة رحمة الله ومغفرته.

وقد تجلت هذه البصيرة القرآنية أيضا في دعاء الإمام الحسين في يوم عرفة، حيث جاء فيه: «ابْتَدَأْتَنِي بِنِعْمَتِكَ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ شَيْئاً مَذْكُوراً، وَخَلَقْتَنِي مِنَ التُّرَابِ، ثُمَّ أَسْكَنْتَنِي الأَصْلاَبَ أَمْناً لِرَيْبِ الْمَنُونِ وَاخْتِلاَفِ الدُّهُورِ، فَلَمْ أَزَلْ ظَاعِناً مِنْ صُلْبٍ إِلَى رَحِمٍ فِي تَقَادُمِ الأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، لَمْ تُخْرِجْنِي لِرَأْفَتِكَ بِي وَلُطْفِكَ لِي وَإِحْسَانِكَ إِلَيَّ فِي دَوْلَةِ أَيَّامِ الْكَفَرَةِ الَّذِينَ نَقَضُوا عَهْدَكَ وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ، لَكِنَّكَ أَخْرَجْتَنِي رَأْفَةً مِنْكَ وَتَحَنُّناً عَلَيَّ لِلَّذِي سَبَقَ لِي مِنَ الْهُدَى الَّذِي يَسَّرْتَنِي وَفِيهِ أَنْشَأْتَنِي، وَمِنْ قَبْلِ ذَلِكَ رَؤُفْتَ بِي بِجَمِيلِ صُنْعِكَ وَسَوَابِغِ نِعَمِكَ فَابْتَدَعْتَ خَلْقِي مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ أَسْكَنْتَنِي فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ بَيْنَ لَحْمٍ وَجِلْدٍ وَدَمٍ، لَمْ تُشَهِّرْنِي بِخَلْقِي وَلَمْ تَجْعَلْ إِلَيَّ شَيْئاً مِنْ أَمْرِي.

ثُمَّ أَخْرَجْتَنِي إِلَى الدُّنْيَا تَامّاً سَوِيّاً، وَحَفِظْتَنِي فِي الْمَهْدِ طِفْلاً صَبِيّاً، وَ رَزَقْتَنِي مِنَ الْغِذَاءِ لَبَناً مَرِيئاً، وَعَطَفْتَ عَلَيَّ قُلُوبَ الْحَوَاضِنِ، وَكَفَّلْتَنِي الأُمَّهَاتِ الرَّحَائِمَ وَكَلأْتَنِي مِنْ طَوَارِقِ الْجَانِّ، وَسَلَّمْتَنِي مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، فَتَعَالَيْتَ يَا رَحِيمُ يَا رَحْمَنُ، حَتَّى إِذَا اسْتَهْلَلْتُ نَاطِقاً بِالْكَلاَمِ أَتْمَمْتَ عَلَيَّ سَوَابِغَ الإِنْعَامِ فَرَبَّيْتَنِي زَائِداً فِي كُلِّ عَامٍ، حَتَّى إِذَا كَمَلَتْ فِطْرَتِي وَاعْتَدَلَتْ سَرِيرَتِي أَوْجَبْتَ عَلَيَّ حُجَّتَكَ بِأَنْ أَلْهَمْتَنِي مَعْرِفَتَكَ، وَرَوَّعْتَنِي بِعَجَائِبِ فِطْرَتِكَ، وَأَنْطَقْتَنِي لِمَا ذَرَأْتَ لِي فِي سَمَائِكَ وَأَرْضِكَ مِنْ بَدَائِعِ خَلْقِكَ، وَنَبَّهْتَنِي لِذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَوَاجِبِ طَاعَتِكَ وَعِبَادَتِكَ»[1].

البصيرة الثانية: نفوذ علم الله إلى جميع جوانب حياة الإنسان ودقائقها، إذن لا يفوته شيء عنه.

وفائدة بيان هذه الحقيقة هي أن الإنسان قد يُبتلى بالغرور والتبرير فيزكِّي نفسه، ويسمي كل ما يقترفه من الذنوب حتى الكبائر والفواحش لماً، أو يصل إلى حالة ذلك الإنسان الذي يشرب الخمر ويقول: إنه يتحول خلاً بمجرد بلوغ فاه، ويبرر ذلك بأنه وصل إلى درجة من الإيمان حيث يتحول في جسمه الخمر خلاً، أو الآخر الذي أمر أتباعه بالصلاة وقعد عنها لأنه عند نفسه بلغ مقاما فوق الصلاة.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ لأنه إذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة، بدأ رحلة الانتكاس ثم لا يتوقف بل ينحدر إلى أسفل سافلين.

[٣٣-٣٤] إن عبادة الأصنام (الشرك بالله) وتزكية النفس تبريرات يتشبث بها الإنسان،

(١) بحار الأنوار: ج٥٧، ص٣٧٢.

وهناك تبرير آخر يتمثل في محاولة الاعتماد على البدائل فمثلا أصحاب المال يظنون أنهم حينما يعطون مالا في سبيل الله، فسوف يحررون أنفسهم من تطبيق القيم والالتزام بالمسؤولية، أو يرفعون عنها مسؤولية ممارسة الكبائر والفواحش. كلا، ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾ عن ذكر الله، وعن تطبيق الحق وتحمُّل الأمانة، ثم أعطى بعض المال ليتهرب من المسؤولية؟ ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ أي أعطى شيئا قليلا ثم توقف كليًا عن العطاء.

[٣٥-٣٨] بل إن أصحاب المال يظنون أنهم على حق ومن أهل الجنة لمجرد كونهم من المترفين، وهذا التمني عميق لديهم بدليل آيات سورة الكهف: ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

والقرآن يستنكر على المترفين هذا الظن قائلا: متى عرف هؤلاء ما في الغيب حتى يحكموا بأنهم أفضل الناس عند ربهم؟!.

﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ كلا.. إنه لا يعرف شيئا عن الغيب، وهذه قضية وجدانية. فلا يملك أحد أن يدعي علما بالغيب. إذن فكيف يطّلع على الحقيقة ويتمنى خلاصه من النار بقياس حاله في الآخرة بحاله في الدنيا، والإعتقاد بأن الله لم يسبغ عليه نعمه في الدنيا إلا لأنه يحبه فينبغي أن يكون محبوبا عند الله في الآخرة أيضا. بل يمكنه ذلك لو اتبع هدى الأنبياء ورسالاتهم التي تكشف عن جوانب منه.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ لا يعلم الغيب ولا يتبع الرسالات الإلهية ولقد جاءت الرسالات كلها بالمسؤولية، ولكن الإنسان وهو أكثر شيء جدلا، ويحاول التهرب منها بطبعه الضعيف، وبحنينه الدائم نحو التراب. ويبرر ذلك بأنه ينتمي إلى أنبياء الله، كما زعم اليهود أن انتماءهم إلى موسى عليه السلام يرفع عنهم المسؤولية. فقالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨].

وكما زعمت قريش أن انحدارها من صلب إبراهيم عليه السلام يعطيها الشرف ويمنع عنها العذاب الإلهي.. كلا: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٦٨]، إن إبراهيم عليه السلام كان وفيًا لله تعالى، ضحّى بماله ونفسه وقدم ابنه لله قربانا، وأودع زوجته هاجر وابنه الرضيع إسماعيل في الصحراء. والذي يريد أن يكون في شيعته لا بد أن يتحمل من المسؤولية كما تحمل عليه السلام، ولم يكن في صحف موسى وإبراهيم عليهما السلام التي

أُنزلت عليها من عند الله عز وجل أي كلمة تسمح للإنسان بالتحلل من مسؤولياته بتبرير الانتهاء إليها، وقد قرؤوا تلك الصحف وعرفوا ما فيها.

إن أبرز ما جاءت به صحف موسى وإبراهيم هو المسؤولية، فكل إنسان مسؤول عن نفسه، ولا يمكنه بحال من الأحوال أن يُلقي بتبعة أعماله على الآخرين ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ والوزر هو الحمل الثقيل. والوازرة هي النفس التي تحمله. ولا تزر أي لا تحمل فكل نفس مثقله بحملها ولا تحمل حمل غيرها أبدا، ولو عرف الإنسان ماذا تعني المسؤولية وكيف تقف كل نفس أمام ربها في يوم القيامة ضعيفة متهاوية القوى لا تملك عذرا ولا قوة، لعرف مدى بطلان فكرة إلقاء المسؤولية على الآخرين بزعم أنهم يتحملونها عنه. كلا إنه موقف رهيب ترى فيه كل نفس تجادل عن نفسها، ولها من شأنها ما يغنيها عن الاهتمام بغيرها.

وهذا السياق من الآيات يضرب فكرة الفداء التي ألصقها النصارى في عيسى عليه السلام حيث قالوا: إنه قُتل ففداهم بنفسه بالرغم من أنه جاء ليقاوم مثل هذا الانحراف عند أتباع موسى.

[٣٩-٤١] وكما أن أوزار الإنسان لا يتحملها أحد سواه، فإن حسنات الآخرين لا تصير إليه، إنما «قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِنُ»(١) كما قال الإمام علي عليه السلام.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ والسعي هو ما يقوم به الإنسان بإرادته ووعيه، من قول وفعل وغيرهما. فالتحرك جزء من السعي، والوعي والهدف والنية أجزاء منه أيضا. والإنسان هو الذي يصنع واقعه ومصيره الحقيقي بنفسه، ومهما كان السعي صغيرا أو كبيرا، وفي أي مكان قام به الإنسان فإنه لا بد أن يعود عليه في الدنيا أو في الآخرة. لأن هناك سنة إلهية تحكم الحياة، وهي أن كل شيء يرجع إلى أصله ضمن دورة حياتية قد تطول وقد تقصر. لا بد أن تعود المياه التي تبخرت من البحار إليها بعد رحلة متطاولة من ساعة تحولها إلى البخار حتى نزولها أمطاراً ثم جريانها فوق الأرض ينتفع بها الإنسان.

هكذا عملك الذي ينبعث من جوانح قلبك أو جوارح بدنك لا يفنى. إنه يتقلب في صور شتى قد يتحول مالا فيعود إليك، أو تصبح حالة اجتماعية تتأثر بها، أو يحفظ عند ربك يجازيك غدا به، وهكذا مهما هرب المجرمون من جزاء جرائمهم فإنه ملاقيهم.

ومن طريف ما قرأته في هذا الحقل أن أحد الخلفاء أقام مأدبة وحضر عليها أحد كبار قادته العسكريين فرأى فيما رأى من صنوف الطعام طير القطا مشويًّا، فضحك مقهقها، فسأله الخليفة عن السبب. فحاول أن يكتم. فأصر عليه. فأخذ يقص واقعة حدثت له قبل عشر

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٦٥.

سنوات مسترسلا قال: كنت في رحلة صيد في الصحراء، فلقيت رجلا معه بعض المال فسلبته قهرا، ثم أردت قتله فتوسل بي أن أتركه ولكن عزمت على سفك دمه. فلما رفعت عليه السيف نظر حوله فلم يجد أحدا إلا سربا من القطا صادف مرورها في اللحظة ذاتها. فقال: اشهدي بأنني اقتل غريبا مظلوما في هذه المفازة. فضحكت من قوله ثم قتلته. والآن لما رأيت القطا في السماط تذكرت ما قاله وسيفي يهوي عليه فلم أتمالك من الضحك على ذلك الرجل المسكين الذي أشهد القطا على قتله. فقال الخليفة: بلى، لقد أدت القطا شهادتها وأمر بجمع السماط، وقال للجلادين أحضروا النطع والسيف فأحضروهما وضرب عنقه.

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ وهناك فكرة نجدها في هذه الآية وهي أن كل سعي يقوم به الإنسان يتحول إلى كيان مادي، وأن الكلمة الطيبة، والموقف الشجاع، والنشاط السليم، كل ذلك يتحول إلى شيء ملموس يراه الإنسان. كذلك الكلمة الخبيثة، والموقف الجبان، والفساد.

أرأيت هذه الحركات المباركة، التي تُشيع الفضيلة وتزرع السلام وتبني الحضارات، إنها كانت في الأصل دعوات صالحة ومساعي حميدة. أرأيت هذه الويلات التي تصيب البشرية هنا وهناك، إنما كانت في الأصل كلمات خبيثة أو مساعي فاسدة.

وما معنى المسؤولية في الدنيا إلا ارتداد صدى سعي البشر إليه، فمن قاوم الظالم، عاش في ظل العدالة دهرا، ومن جبن عن مقاومته ساعة شمله خسفه وضيمه. وأمة تنشط في بناء حضارة تنعم في ظلها طويلا وأختها التي تتكاسل تعيش أبدا في بؤر التخلف والفساد.

وإن مرور الزمان على سعي الإنسان لا ينقصه إنما يزيده نماء أو لا أقل يبقيه كاملا وافيا ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾.

[٤٢-٤٨] وإن هناك تسلسلا في السنن والمسببات في الحياة، ومنها سنة الجزاء، ولكنها لا تتحرك في الفراغ أو ما يسميه الفلاسفة بالدور، بل لها بداية ونهاية، وهناك من يشرف عليها وهو الله، فالعالم إذن ليس بعيدا عن العقلانية، ولا مجرد قوانين، وإنما هناك تدبير الهي حكيم يهيمن عليه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ومادام الأمر بيد الله وينتهي إليه فلتطمئن النفس إلى الجزاء وتثق بنتائج سعيها، وفي القرآن تذكرة بهذه البصيرة في مواضع شتى وبصيغ مختلفة.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ بلى إن الظاهر من الحياة هي النظم الدقيق والسنن الحاكمة. ولكن الجانب الخفي منها ولُبَّها هو هيمنة الله عليها. والمؤمنون مطمئنون إلى هذه الحقيقة وموقنون بها، في حين أن الآخرين لا يعلمون إلا الظاهر من الحياة. والقرآن هنا يؤكد هذه الهيمنة ويمثل لها بلطائف الأمور.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ إن الإنسان يضحك للجزاء الحسن، ويبكي من الجزاء السيئ. سواء في الدنيا أو الآخرة. والله سبحانه يقدرهما للإنسان، فيمنح له من السعادة النفسية والمادية ما يضحكه (جزاء لما قدمه من عمل صالح)، أو ينتقم (لسوء عمله) فيسلب منه نعمه ويعصر قلبه بالهم حتى يبكيه. والقرآن لم يقل: افرحْ واحزنْ لأن الضحك والبكاء هما غايتا الفرح والحزن، وأجلى مصاديقهما؛ ولأن بينهما مسافة شاسعة لا بد من بيانها لنعرف عمق الهوة الفاصلة بين الخير والشر، وبين الجزاء الحسن والعقاب، ولعلنا نفقه بعض أبعاد مسؤوليتنا تجاه أفعالنا.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ربما يكون معنى الحياة هنا استمرارها والمحافظة عليها كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]، وأمر الموت والحياة بيده تعالى، مهما كانت أسبابها الظاهرة، لأن الله يجْري الأمور بأسبابها، فقد يحفظ الحياة لأحد على يد الطبيب، أو يقدِّر له الموت بيد جلاد.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ وإنما يؤكد ربنا هذه الحقيقة ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]، ثم يضرب الأمثلة من أهم ما يتحكم في كياننا لأن الإنسان قد يكتشف القوانين التي تسير الحياة وفقها، فيفسر الظواهر والحوادث تفسيراً ماديًّا مبنيًّا على أساس أن القانون هو كل شيء، فيرى أن الولادة تبدأ من الجماع حيث يقذف الرجل بالحيامن في رحم المرأة، ثم إن الرحم المهيأ لتكوين الجنين يبدأ بدوره ضمن قوانين ومعادلات معينة فتصير (البويضة + الحويمن) جنينا ذكرا إذا غلب ماء الرجل، وأنثى إذا غلب ماء المرأة[1]. ثم يقف عند هذا الحد دون البحث عن منتهى هذه الظواهر. وإذا أمعنا النظر لبصرنا بالحلقات

(١) تحوي البيضة الملقحة التي سيتشكل منها الجنين ٢٢ زوجاً من الصبغيات الجسمية مع زوج من الصبغيات الجنسية، وتأتي هذه الصبغيات من اجتماع بويضة الأنثى التي تحوي دائماً (٢٢ صبغيًّا جسميًّا + صبغي الجنسي X) ومن نطفة الرجل التي تحتوي (٢٢ صبغيًّا جسميًّا + صبغيًّا جنسيًّا إما X أو Y) لأن نصف نطاف الرجل تحوي الصبغي X ونصفها تحوي الصبغي Y، أما بويضة المرأة فدائماً تحمل الصبغي الجنسي X. فإذا اتّحدت البيضة مع نطفة حاوية على الصبغي الجنسي X كان الجنين انثى. وإذا اتّحدت مع نطفة حاوية على الصبغي الجنسي Y كان الجنين ذكراً، أي حسب المعادلة:

نطفة (Y) + بويضة (X) = (XY) ذكر.

نطفة (X) + بويضة (X) = (XX) أنثى.

مع الطب في القرآن الكريم، تأليف: د. عبدالحميد دياب، د. أحمد قرقوز، ص: ٢٧.

الفارغة الموجودة في سلسلة العلل التي تفصل بين مشيئة الإنسان وتحقق العمل، فأنت تريد إنجاب أولاد، ولكن هل تملك في صلبك القدرة على ذلك؟ وهل توفق لزوجة مناسبة؟ وهل تضمن ألَّا تكون عقيمة، أو تجهض حملها بسبب طارئ؟ وعشرات الأسئلة التي ترتسم في ذهن أي واحد منا حين يريد أن يحقق إنجازا. وإذا فتشنا عن جذر هذه الأسئلة لعرفنا أن الأهداف التي شئنا بلوغها وخابت مساعينا إليها بما لم نحسب لها حسابا خلفت في عقولنا هذا الخوف الرهيب ألَّا نوفق -مرة أخرى- إلى ما نبتغيه. وصدق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إذ يقول: «عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ العَزَائِمِ وحَلِّ العُقُودِ ونَقْضِ الهِمَمِ»[1]. تعال وجرب للمرة الألف، اعقد عزم قلبك على خطة بعيداً عن التوكل على الله ثم انظر كيف تقفز أمامك العقبات غير المحسوبة.

من هنا أُركزت في فطرة الناس هذه الحقيقة، أن أَزِمَّة الأمور ليست بأيديهم وأن هناك قدرا من الغيب في كل عمل يساهم في نجاحه أو فشله. وقدرة الله على النشأة الأولى من حين النطفة حتى الموت تؤكد على بعثه إياه مرة أخرى للجزاء.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ وكلمة ﴿عَلَيْهِ﴾ تشير إلى أن البعث للحساب حق وعهد قطعه الله على نفسه. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ قد يتصور الإنسان بالنظر إلى الأسباب الظاهرة للغنى أنه هو الذي يغني نفسه، ولكنه حينما يتعمق يجد أن غناه من عند الله وبتوفيقه. إذن فلماذا يغتر بماله ويتكبر على الحق اعتمادا عليه؟!.

ويتساءل البعض: إذا كانت الأمور بيد الله وأن إليه منتهاها فلماذا السعي إذن؟ وكيف أن ربنا بيَّن آنفا أن ليس للإنسان إلا ما سعى؟ وربما اتخذ البعض من آيات كهذه تبريرا لتقاعسهم أو دليلا على مذهب الجبر المرفوض عقلا وشرعا. بيد أن النظر الشامل في الآيات يجيب عن هذه التساؤلات، كيف؟.

إن الأمور بيد الله، ولكن الله يأمر بالحق ويجريه، فهو الذي يضمن العدالة الجارية في الخلق، وهو الذي يعيد سعي الإنسان إليه، ويجازيه عليه الجزاء الأوفى. ولولا العقيدة بأن الله يضمن تنفيذ العدالة لزعم البعض أنه يستطيع أن يتهرب من مسؤولية سعيه. أو كان يخشى من ضياع سعيه.

إذن السعي هو محور الجزاء، ولكن الجزاء بيد الله فليس سعيك يوصلك إلى ما تريد مباشرة، بل عبر إرادة الله وجزائه، فتكون المعادلة على النحو التالي:

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٥٠.

سعي البشر أو عمله + توفيق الله أو إرادته = الجزاء.

[٤٩] ثم وفي سياق تأكيد انتهاء الأمور إلى الله، ينسف القرآن الاعتقاد بألوهية غيره تعالى، ويضرب مثلا من واقع الذين يعبدون النجوم اعتقادا بأن حركتها تؤثر في حياة الناس، فتجلب لهم الخير أو الشر، وعبادة النجوم كانت منتشرة عند قدماء المصريين كما في بلاد الرافدين كما أن القرآن يلمح في حديثه عن إبراهيم عليه السلام إلى أن قومه كانوا يعبدونها.

ولعل من أشهر النجوم التي بقيت عبادتها رائجة حتى زمن الرسول صلى الله عليه وآله كانت نجمة الشعرى. قال علي بن إبراهيم: «نجم في السماء يسمى الشعرى كانت قريش وقوم من العرب يعبدونه، وهو نجم يطلع في آخر الليل»[1]. والقرآن هنا ينسف الاعتقاد بألوهية هذا النجم، مبيّنا أنه ليس إلا خلقا من خلق الله، لا حول له ولا قوة ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾.

[٥٠] بعد ذلك تعرج بنا الآيات إلى الحديث عن تاريخ الأمم السالفة، بما يؤكد هيمنة الله على الخلق وأنه يُقدِّر الجزاء حسب أعمال العباد، أترى أن هلاك الأمم حينما خالفت الحق وعصت الرسل، وعتت عن أمر ربها كان صدفة؟ إذن لماذا تتكرر التجربة لأكثر من قوم وللسبب نفسه؟.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهم القوم الذين أرسل الله إليهم هودا عليه السلام. وقال الله ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ ربما لواحد من الأسباب التالية:

ألف: لأنهم أول الأقوام بعد هلاك البشرية بسبب الطوفان الذي ابتلع الأرض في عهد نوح عليه السلام.

باء: لأنهم جيلان ولم يهلك إلا الجيل الأول.

جيم: أن الله أراد أن يسفّه فكرة التقديس للأولين، الذي سار عليه الجاهلون ومن بينهم قريش.

[٥١] وبعد عاد كانت ثمود، قوم صالح عليه السلام الذين كذبوه وعقروا الناقة وقد كانت آية مبصرة فأهلكهم الله.

﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ هناك قال: ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ وهنا يقول: ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ وذلك لأن ثمود أهلكوا عن بكرة أبيهم بريح صرصر جعلتهم كأعجاز نخل منقعر، فلم تبق ولم تذر، على خلاف عاد الذين

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٣٩.

أهلك الله الأولين منهم فقط، كما تكشف لنا هذه الكلمة مدى تشبث ثمود بالحياة، حيث سعوا للبقاء بكل ما أوتوا من القوة ولكنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا حينما حل بهم غضب الرب.

[٥٢] وقبل هؤلاء وأولئك كان قوم نوح عليه السلام طعمة للهلاك ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ لأنهم أول الأقوام كفرا بالله وعصيانا للأنبياء، ولأنهم أصروا على ضلالهم واستكبروا على الحق جيلا بعد جيل بالرغم من (٩٥٠) عاما من التبليغ المبين والمستمر للرسالة من قبل نوح عليه السلام.

وقد سبقوا الأقوام ظلما لأنهم تحرروا من كل القيم الدينية والإنسانية، وطغيانا لأنهم ملكوا من الإمكانات الشيء الكثير واستخدموا كل ذلك ضد الرسالة والرسول. وبالرغم من ذلك أهلكهم الله ولم يحجز العذاب عنهم شيء أبدا.

[٥٣-٥٤] وهناك قوم لوط عليه السلام الذين أسرفوا في الشذوذ الجنسي، فحل بهم غضب الله، وذلك بأن حمل قراهم جبرائيل بطرف جناحه ورفعهم ثم أهوى بهم.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ قال العلامة الطبرسي في مجمع البيان: «والمؤتفكة المنقلبة وهي التي صار أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، ومنه: أهوى بيده ليأخذ كذا وهوى يهوي نزل في الهواء، فأما إذا نزل في سلم أو درج فلا يقال أهوى ولا هوى»[1]، وحيث حل أجلهم عمَّهم العذاب المهول من كل صوب.

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أصحيح أن الله يعذبنا بنار جهنم تلك النقمة الكبرى التي لا تحتملها السماوات والأرض والجبال. أوليس ربنا الرحمن الذي تجلت في كل شيء آيات رحمته الواسعة. يتساءل البعض ويقول: لا.. أنا لا أصدق أن الله يعذبني ولم أعهد منه في الدنيا إلا كل نعمة؟. بلى وهذه شواهد تعذيبه في الدنيا للأمم التي ناهضت الحق وتحدت رسله. إن الله واسع الرحمة ولكنه أيضا شديد العذاب.

ولعله لذلك يذكرنا الرب، بين الفينة والأخرى بعذابه العظيم الذي حل بالأمم السابقة حتى ينقض الشك باليقين أن وعيد الله العاصين بالعذاب ليس ضربا من الوهم والتخويف المجرد بل هو واقع وقد حدث فعلا يشهد بذلك التاريخ البشري وما تقدم بعض شواهده.

[٥٥] إن عِبَر التاريخ المرعبة هي من الآيات الإلهية الجديرة بأن ترفع حجب الشك والمراء عن قلب الإنسان الذي يتفكر فيها ويتبع هداها.

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٢٣٢.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ الآلاء هي الآيات. يدل على ذلك قوله في سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]. والتماري هو الشك المتوالي أو ترامي الشك من البعض إلى الآخر، ذلك لأن الشاك في مثل هذه القضايا المصيرية والعامة لا يدع شكه في قلبه بل يلقيه على من هو مثله ويتلقى منه الشك أيضا، وينبغي مواجهة كل ذلك بتلك الآيات المتوالية.

[٥٦] إن من أعمق مشاكل الإنسان أنه يستبعد عن نفسه العذاب الإلهي وهو يمارس الضلال، إما لشكه في قدرة الله كاليهود الذين قالوا يد الله مغلولة، أو لرجائه غير المنطقي في رحمته، والقرآن يذكر عواقب الأمم الذين ضلوا وكذبوا بالحق ويضعها بين أيدينا نذرا لعلها تردعنا عن الباطل.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ وقيل: إن المعني بالنذير هنا هو الرسول الأعظم ﷺ الذي يمثل امتدادا للأنبياء، فكما أن هودا وصالحا ونوحا ولوطا عليهم السلام أنذروا أقوامهم، فإن محمدا ﷺ هو الآخر نذير مثلهم، قال الصادق عليه السلام وقد سئل عن معنى الآية: «يَعْنِي بِهِ مُحَمَّداً ﷺ حَيْثُ دَعَاهُمْ إِلَى الإِقْرَارِ بِاللهِ فِي الذَّرِّ الأَوَّلِ»[1].

ولقد أهلك الله الأقوام السابقة لأنهم كذبوا أنبياءهم والحق الذي جاؤوا به، وكفى بذلك نذيرا لنا مادامت سنن الله في الأولين هي سننه فينا وفي اللاحقين إلى يوم القيامة.

[٥٧-٥٨] وتبقى القيامة أبلغ النذر وآخرها وأعظمها، والقرآن يؤكد حدوث القيامة في المستقبل القريب جدا فحتى إذا بقيت من القيامة الكبرى ٥٠٠ مليون عام فإنه يمثل واحدا من ثلاثين أو حوالي ٣٪ من دورة واحدة لهذا الكون التي تبلغ حسب بعض التقديرات العلمية ١٥ ألف مليون عام، كيف ولعله لم يبق حتى قيام الساعة ذلك اليوم الرهيب الذي أشفقت منه السماوات والأرض إلا بضعة ألوف من السنين وربما أقل ومن يدري؟ أوليس علمها عند ربي لا يُجلّيها لوقتها إلا هو؟.

فيقول: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ أي اقتربت، والتأكيد على اقتراب هذه الحقيقة الكبرى يجعلنا نعيش الساعة بوعينا فنستعد كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ وبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ... واسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظَلَّكُمْ، وكُونُوا قَوْماً صِيحَ بِهِمْ فَانْتَبَهُوا وعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبْدَلُوا، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً ولَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، ومَا بَيْنَ أَحَدِكُمْ وبَيْنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إِلَّا الْمَوْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ»[2] وإذا مات ابن آدم قامت قيامته، ولا يستطيع أحد

---

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص٢٥٠.
(٢) نهج البلاغة: خطبة: ٦٤.

أن يدفع الموت عن نفسه.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ بل قد يظن الإنسان أو يتمنى أن الأصنام التي يشرك بها تستطيع أن تصنع له شيئا، كلا.. الله وحده القادر على جلب الخير ورفع الضر، وإذا اقترب العذاب وبانت أمارته فلا مفزع إلا إليه: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠-٥١].

[٥٩-٦١] وهذا الحديث ليس ضربا من الوهم أو الظنون، بل هو حق يقين يجب على الإنسان أن يصدق به ويستعد له: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤].

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ إنهم لم يصدقوا ولم يستعدوا للساعة: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٢-٣]، هكذا يكون موقف الكفار من الحقائق الجادة، والقرآن يستنكر عليهم هذا الموقف الهازل.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ إن حديث القيامة بما يتضمنه من حقائق حاسمة، وعظيمة، ينبغي أن يبعث العاقل على البكاء والخوف من غضب الله، ويثير فيه طاقاته الكامنة ليفكر في النجاة، ويستعد للقيامة، والسامد هو الغافل، وكما أن الغفلة نتيجة للضحك والتعجب، فإن الجد والسعي نتيجة طبيعية للتصديق والبكاء من أهوال الساعة.

[٦٢] وفي مقابل هذا الموقف الخاطئ من حديث الساعة يهدينا القرآن إلى الموقف السليم الذي يجب علينا اتخاذه تفاعلا مع النذر الإلهية وهو الفرار إلى الله عز وجل، والتقرب إلى مقام عظمته بالسجود.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩﴾ والسجود وهو مظهر الاتصال بالله، والعبادة جوهره ومحتواه، فلا قيمة للسجود الذي لا يقربنا إلى الله، وإلى العمل بمناهجه في الحياة، إن ممارسة الطقوس والشعائر الإسلامية ممارسة بعيدة عن أهدافها لا تنفع صاحبها شيئا، فما هو نفع الصلاة التي لا تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ وما هي فائدة الصوم الذي لا يزكي النفس؟

وكلمة أخيرة: إننا نجد السياق القرآني يختم هذه السورة المباركة، بدعوة إلى السجود حيث يجب شرعا على من يقرأ هذه الآية أو يستمع لها أن يسجد فورا مهما كانت الظروف، وذلك لأنها تعرضت إلى ذكر الأصنام التي أشرك بها الناس كاللات والعزى ومناة والشعرى فهدف الآية إذن تنزيه الناس عن عبادتها وتوجيههم إلى عبادة الله وحده والسجود له.



سورة القمر

* مكية.

* عدد آياتها: ٥٥.

* ترتيبها النزولي: ٥٤.

* ترتيبها في المصحف: ٣٧.

* نزلت بعد سورة الطارق.

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ قَبْرِهِ عَلَى نَاقَةٍ مِنْ نُوقِ الجَنَّةِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٦)

الإطار العام

منهجية القرآن في التذكير بالآخرة

تحيط آيات هذه السورة المباركة بثلاثة محاور رئيسية، هي:

١- إعراض الكفار عن الآيات الإلهية، سواء تمثلت في الرسالات النازلة، أو المعاجز التي تظهر على أيدي الأنبياء، أو ما تتجلى في الكائنات أو السنن التي تتجلى في تاريخ الأمم الغابرة، ونجد مرتكزا لهذا المحور في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ (الآية: ٢).

٢- التكذيب بالحق، ويبرز هذا المحور عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُواْ أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (الآية: ٣)، وهكذا شبيهاتها (الآيات: ٩، ١٨، ٢٣، ٣٣، ٤٢).

٣- التذكرة، ويظهر ذلك من تكرار قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ في أربعة مواضع، بالإضافة إلى (الآيتين: ١٥، ٥١).

وبالتدبر العميق في السورة نجد ارتباطاً وثيقاً بين المحاور الثلاث فيها، فالإعراض بالإضافة إلى كونه مظهرا للتكذيب هو أيضاً سبب له، وهذا يبين لنا أن تكذيب الرسالات ليس منطلقا من قناعة المكذبين بها، وإنما من انحراف حقيقي في أنفسهم، لأنك تجدهم يعرضون عنها وبالتالي يكذبونها قبل دراستها والتفكر فيها.

ولكن ما هو علاج الإعراض والتكذيب عند البشر؟ إنه التذكرة. والقرآن إنما جاء ليحقق هذا الهدف الهام والكبير، لذلك نجده من حيث المحتوى والأداء الأدبي والنفسي والفكري حكمة بالغة، تنفذ إلى أعمق أغوار نفس الإنسان، وأبعد آفاق عقله، ولكن ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فهو ميسر من قبل الله، وهذا التيسير هو الذي جعل كلام الخالق الذي لا يتناهى عظمةً وجلالاً وعلوًّا بيِّناً وواضحاً

عند خلقه.. قال الإمام الصادق عليه السلام: **«لَوْلاَ تَيْسِيرُهُ لَمَا قَدِرَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَتَلَفَّظَ بِحَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ وَهُوَ كَلاَمُ مَنْ لَمْ يَزَلْ وَلاَ يَزَالُ»**[1]، ولكن المعنى الذي يرتبط بعلاج الإعراض والتكذيب عند البشر هو أن القرآن يصور لنا الحقائق الكبرى، كحقائق الغيب التي ينحسر عنها -لولا تيسير القرآن- وعي الإنسان، ومنها الآخرة، تصويرا بليغا بحيث تصبح يسيرة الفهم والاستيعاب، الأمر الذي يُحدث تعادلا في عقل الإنسان بين ما غاب مما يحدث في المستقبل وما هو حاضر يحسه ويعايشه. إنه يدعوه إلى التعايش مع الحاضر الذي تشتهيه نفسه على أساس المستقبل، أو ينهاه عن استهلاك شيء حاضر لأنه يوقعه في مهالك المستقبل.

(١) تفسير روح البيان: ج ٨، ص ٤٣٣.

ولقد يسرنا القرآن للذكر

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ[1] ٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ[2] كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ[3] إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨ ۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ[4] ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ[5] ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ[6] ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا[7] فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ

(١) مزدجر: متَّعِظ، وهو بمعنى المصدر: أي ازدجار عن الكفر، وتكذيب الرسل.

(٢) الأجداث: جمع جدث، بمعنى القبور.

(٣) مهطعين: الإهطاع هو الإسراع في المشي.

(٤) وازدجر: أي زُجِر بأنواع الأذية عن تبليغ الرسالة.

(٥) منهمر: الهمر: هو صب الدمع والماء بشدة، والانهمار: الانصباب، وانهمر: تساقط بكثرة كأنه أفواه القِرَب.

(٦) ودُسُر: الدسر هي المسامير، وهو جمع دِسار.

(٧) ريحاً صرصراً: باردةً، شديدة البرد.

النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ[1] نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ[2] (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢)﴾.

هدى من الآيات:

إذا كانت هداية البشر هدف رسالات الله فإن الوسيلة المثلى التي تتبعها هي تذكرته وإنذاره، لكي تتساقط حجب الغفلة والكبر عن قلبه. إن في ضمير الإنسان خوفا دفينا من مستقبل مجهول، ويستثير القرآن هذا الخوف بتذكرته بالساعة، وما الساعة؟ إنها أدهى وأمرُّ.

وهذا النهج نجده أكثر تجليا في السورة المكية ذات المقاطع القصيرة، وبالذات سورة القمر التي تتجلى فيها هذه الوسيلة بأظهر مصاديقها، وقد سُمِّيت بذلك بسبب إشارتها إلى آية انشقاق القمر، الظاهرة التي حدثت في عصر الرسول ﷺ بمكة المكرمة، حسب ما يقول أغلب المفسرين.

ويصل القرآن بين هذه الظاهرة المعجزة واقتراب يوم القيامة لأنه قريب من بعثته ﷺ، وهو القائل: «**بُعِثْتُ وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**، وأشار بالسبابة والوسطى التي تلي الإبهام»[3] دلالة على قربها الزمني، أي لا يلبث العالم بعده أن يشهد الساعة، وقال علي بن إبراهيم ؒ: «**قَرُبَتِ الْقِيَامَةُ فَلَا يَكُونُ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا الْقِيَامَةُ وَقَدِ انْقَضَتِ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ**»[4].

وسواء كانت الساعة بعد آلاف أو ملايين السنين من بعثته ﷺ فإنها قريبة إذ كل آت قريب، ولأن البعد والقرب لا يقاسان بحياة الإنسان المحدودة في الدنيا، بل يقاسان بها في الكون من أرقام وأبعاد زمانية كبيرة، فقد يكون عمر الشمس عشرة ملايين سنة ولكنها انقضى أكثرها، وأصبحت نهايتها قريبة جدًّا، ثم ما هي نسبة هذه المدة إلى الزمن اللامتناهي الذي يلي الحياة الدنيا؟!.

إن الكفار كذبوا هذه الآية المعجزة مع وضوحها، وأعرضوا عن دلالاتها، ولكنهم لم يكونوا أول ولا آخر المكذبين، فقد سبقهم إلى هذا الضلال قوم نوح وعاد، وكانت عاقبة أولئك الخزي والعذاب، فلا ينبغي للرسالي أن يصاب بهزيمة نفسية إذا رفض البعض الاستجابة إلى

---

(١) أعجاز: أصول.

(٢) منقعر: منقلع عن مغارسه؛ لأن قعر الشيء قراره، وتقعّر في كلامه إذا تعمّق.

(٣) بحار الأنوار: ج٦، ص٣١٥.

(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٠، بحار الأنوار: ج١٧، ص٣٥١.

دعوته، فإن دعوته منصورة، وإن المكذبين في ضلال بعيد.

بينات من الآيات:

[١] يعيش الإنسان في وجدانه خوفاً عميقاً من شيء مجهول، والقرآن يبين أنه الساعة، فالموت الذي يعقبه مصير مجهول بالنسبة إليه أمر رهيب جدًا، والآيات تؤكد أن خوف الإنسان الحقيقي ليس من الموت، وإنما من البعث بعد الموت، وإنما يخشى الموت لأنه بوابة الحساب.

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قال ابن عباس: «اجْتَمَعَ الْمُشْرِكُونَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: إِنْ كُنْتَ صَادِقاً فَشُقَّ لَنَا الْقَمَرَ فِلْقَتَيْنِ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: إِنْ فَعَلْتُ تُؤْمِنُونَ. قَالُوا: نَعَمْ. وَكَانَتْ لَيْلَةُ بَدْرٍ فَسَأَلَ رَسُولُ الله ﷺ رَبَّهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا قَالُوا فَانْشَقَّ الْقَمَرُ فِلْقَتَيْنِ وَرَسُولُ الله ﷺ يُنَادِي: يَافُلَانُ يَافُلَانُ اشْهَدُوا»[1] وَرُوِيَ أَيْضاً عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الْحَرَاءَ بَيْنَ فِلْقَيِ الْقَمَرِ».

وانشقاقه الذي حدث في عصر رسول الله ﷺ أو الذي يحدث فيما بعد، من الظواهر الكونية الدالة على قرب الساعة، ولكن القرآن يقدم الحديث عن الساعة على ظاهرة انشقاق القمر، لأنه محور الكلام والغاية منه.

وكم هي رهيبة ساعة القيامة، وكيف لا تكون كذلك وفيها تسير الجبال الشاهقة فتصير سرابا، وتنتشر الكواكب كخرزات العقد المنفرط، وتزلزل الأرض زلزالا عنيفا! إن زلزلة الساعة شيء عظيم! إنها مهولة جدًّا! وتترك أثراً جذريًّا لا نعرف نحن مداه، ولا يقتصر ذلك الأثر على تاريخ البشرية وحدها، كلا.. بل هو تغيير كوني حاسم، لأنه اليوم الذي ينتهي فيه دور الإنسان على وجه الأرض، وقد خلق الله ما في الأرض لأجله، إذن فذهابه منها يقتضي تغيرا حاسما فيها. وربنا لم يقل (قربت) بل قال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ وهذه الزيادة التي لحقت الفعل سببها دخوله في باب الافتعال الدال على بذل المزيد من القوة والجهد، كما يدل قولنا: اكتسب على استعمال القوة في الحصول على الرزق، فالساعة تمر بمخاض عسير، لأن حدوثها يقترن بتغييرات هائلة.

[٢] وانشقاق القمر ليس الآية الوحيدة التي تهدينا إلى الساعة والبعث، فهناك من الآيات الأخرى الكثير مما يكفي سلطانا مبينا، وحجة بالغة لنا على واقعية الساعة، ولكن المشكلة في الإنسان نفسه حينما يضل، ويتبع هواه. إنه يرى الآيات ويعقلها، ولكنه يعرض

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص٣٤٧.

عن دلالاتها، ويصر على باطله، ولكي يتخلص من وخز الضمير ونداء العقل يبحث لضلاله عن تبرير، وللآيات عن تأويل، مهما كانا سخيفين ومتناقضين مع أبْدَهِ المسلمات الوجدانية والعقلية، كل ذلك تهرُّباً من مسؤولية الاعتراف بالحق.

﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ لقد اعتذر المشركون عن الإيمان بالرسالة بأنهم لا يؤمنون بشيء غيبي لا آية محسوسة عليه، فألحُّوا على الرسول ﷺ بنظرتهم الشيئية أن يريهم من الآيات المادية ما يُصدِّق نبوته ورسالته، فسأل ربه ذلك ليقيم الحجة عليهم وأعطاه، إلا أنهم أعرضوا عن الإيمان، قال علي بن إبراهيم ؒ: «فإن قريشاً سألت رسول الله ﷺ أن يريهم آية فدعا الله فانشق القمر بنصفين حتى نظروا إليه ثم التأم فقالوا: هذا سحر مستمر»[1]، أي دائم، والسحر لا يدوم، إنما هو لحظات يخدع فيها الساحر أعين الناس ثم ينتهي، والمشركون يدركون هذه الحقيقة، ولكنهم قبلوا أن يضيفوا إلى السحر نوعا جديدا لا عهد لهم ولا للتاريخ به، ولم يقبلوا أن يكون القرآن رسالة من الله، لأنه يجعل من الإيمان به وتطبيقه مسؤولية واجبة عليهم، فهو حينئذ رسالة الله إلى أنفسهم أيضا، والحال أنهم يسعون بكل ما أوتوا من حيلة ومكر إلى التهرب من المسؤولية، ويحتمل أن تنطوي كلمة ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ على معنى القوي أيضا، والسحر لا قوة له لأنه خيال لا واقع، وسواء هذا أو ذاك فإن القرآن يثبت أفكارهم وأقوالهم ومواقفهم المتناقضة في ذاتها لبيان بطلانها وضلالة أصحابها.

وقد سبق أن قلنا: أن في قولهم: أن الرسالة وآياتها سحر اعترافا بتأثيرها البالغ فيهم، وبالعجز عن الإتيان بمثله، وبسلطانه على أفئدة الناس كما السحر، فيؤخذون بهذا الاعتراف، وينبذ تفسيرهم لذلك بأنه يشبه السحر، إذ مستحيل أن يستمر السحر الذي حقيقته التأثير المؤقت في خيال الإنسان.

[٣] والآية التالية تؤكد أن التبرير الباطل يساوي عند الله الكذب المحض، بل هو أشد، لأن أهداف التكذيب هي ذاتها أهداف التبرير، وأهمها اتباع الأهواء والشهوات، إذن فتبرير الإنسان لا يغير من واقعه شيئا، ولا من جزائه عند ربه، لأنه تعالى لا ينظر إلى المظاهر ولا يحاسب عليها، إنما ينظر إلى الحقائق الواقعية، ويجعلها ميزانا للجزاء، إنه ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ واتباع الهوى هو سبب التكذيب، كما أنه الهدف منه، وهذه الآية دليل صريح على بطلان عذرهم، ورفض الله له مبرراً مشروعاً لإعراضهم عن الحق، حيث اعتبرهم والمكذبين سواء.

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٠.

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ إن سنن الحياة الدنيا والآخرة ومقاييسهما حقائق قائمة وثابتة لا تتغير (مستقرة)، فلا يمكن تغييرها بهوى النفس أو بتمنيات البشر، وتشير هذه الآية إلى ما بينته الآيات الأخرى كقوله سبحانه:

- ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

- ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

- ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

- ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

كما أن قول الرسول الأعظم ﷺ: «الأُمُورُ مَرْهُونَةٌ بِأَوْقَاتِهَا»(١) مستوحاة من هذه الآية الكريمة، وهذا التفسير يجمع بين آراء المفسرين القائلة بأن الأمر المستقر هو العواقب، أي أن عاقبة الأمور مستقرة على قيم وسنن ثابتة، كما ترسو السفينة بالتالي عند الشاطئ، أو مَنْ قالوا: بأن عاقبة الخير الحسنى والشر السوأى، وقال بعضهم: إنها القيامة حيث تستقر عندها سفينة الدنيا، لأنها تبرز بوصفها أمراً واقعيًّا محسوساً، ويتميز الحق من الباطل.

بل؛ إن كل أمر واقعي حق سوف يستقر مكانه، ويتكرس أكثر فأكثر رغم الظروف والعوامل المضادة، واستقراره أعظم دلالة من ملايين الكلمات، فلو اجتمع الإنس والجن على إنكار وجود الجبال، وجاؤوا بملايين الأدلة، هل يتغير الواقع؟ كلا.. ذلك أن المحور الحقيقي هو الواقعيات الخارجية الحقة، وليست الأهواء والتمنيات والظنون، ولعل معنى ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ التي تأتي لاحقاً هو هذا الأمر، إذ إن الحكمة هي وضع الشيء موضعه، ولا يقدر على ذلك إلا من عرف السنن الإلهية النافذة في الخلق، والنظام العادل الحاكم في كل شيء، وإنما كانت رسالات الله حكمة بالغة لأنها تهدي الإنسان إلى المستقرات من الحقائق الواقعية، ومن ثم إلى منهج الحياة الأقوم والقائم على أساسها.

[٤] وإذا كانت القيم والسنن هي المستقرة (لا الأهواء) فإن أعذار أولئك الكفار تذهب باطلا. أوليس قد توافرت الشواهد على صدق الرسالة، فَلِمَ كفروا بها؟ أوَليس قد تواترت الأنباء على أن من كفر بها هلك، وكفى بذلك زاجرا؟.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ومن تلك الأنباء آية انشقاق القمر، والمزدجر هو التخويف والترهيب، وربنا لم يكتف بإرسال الآيات، وبيان القوانين للإنسان،

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٦٦.

بل وأقام عليه الحجة البالغة حينما حذره من مخالفتها: «وَلِئَلَّا يَقُولَ أَحَدٌ: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ مُنْذِراً وَأَقَمْتَ لَنَا عَلَماً هَادِياً ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾»[1].

[٥] وليس في آيات الله تعالى نقص أبدا، بل فيها الحجة القاطعة، إذ جعلها الله من الوضوح والكمال درجة لا عذر لأحد في الإعراض عنها وعن دلالاتها، فهي كما يصفها تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ والبلوغ هنا بمعنى التمام والكمال، ومنه بلغ الرجل إذا اكتمل نفسيًّا وعقليًّا وعضويًّا، وبلغت الثمرة إذا نضجت وحان قطافها. وهناك معنى آخر تنطوي عليه الكلمة وهو الوصول. والحكمة الإلهية كاملة عمقا وشمولا، لا يعتريها نقص في المحتوى ولا الأسلوب. ثم إن الله أوصلها إلى الناس عبر أنبيائه المبلغين، فلا عذر لهم بأنه لم يرسل رسولا، وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

إذن فالحياة ليست فوضى، بل ولها قوانينها وسننها المستقرة الثابتة، والإنسان يحتاج إلى الحكمة البالغة المنطلقة من تلك الواقعيات الحق، لكي يعيش فيها كما ينبغي، وهذه نجدها مبثوثة في كتاب الله، الحكمة البالغة العظمى، والنعمة الكبرى، والهدية الإلهية إلى الإنسان، وقد بلغها رسوله ﷺ. فلماذا إذن هذا الضلال الذي تعيشه البشرية؟.

والجواب: لأنها لم تؤمن به، ولم تطبق آياته. إنها وضعت بينها وبين تلك الحكمة حجب الإعراض والتبرير والتكذيب والهوى.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ كان يفترض أن تزجرهم عن الضلال والباطل فإذا بها تزيدهم طغيانا وكفرا، وكان ينبغي أن تبكيهم فإذا بهم يضحكون ويهزؤون، وجاءت لتذكرهم فإذا بهم يتوغلون في الغفلة. والقرآن يبين هذه الحقيقة في أواخر سورة النجم، ويستنكر على المكذبين واقعهم: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩-٦١].

[٦] وإذا وصل الإنسان إلى حد الإعراض عن الحكمة البالغة أوكله الله إلى نفسه، فلا تُرتجى له هداية بعد ذلك، وصرف عنه أولياءه، ليزداد إثما على إثم، ويتسافل دركا بعد درك، فيلقى جزاءه المريع الذي يقصر عنه خيال البشر.

ويأمر ربنا مكرراً أصحاب الرسالة بترك المعرضين عنها، ونتساءل: لماذا؟. إنها لحكمة بالغة تتمثل في أن الاستمرار في إنذارهم ومحاولة هدايتهم سوف يتسبب في ضياع وقت كثير

(١) بحار الأنوار: ج٩٩، ص١٠٤.

منهم لا بد أن يوفروه لما هو أنفع، فعليهم إذن أن يبلغوا الرسالة إلى الحد الذي تقوم فيه الحجة على الآخرين، ويسقط عنهم الواجب، فإذا تبين لهم عدم نفعه وجب أن يتوجهوا إلى هداية غيرهم، وإلى تطبيق الرسالة على أنفسهم، وتكوين الكيان الرسالي المتكامل، أما متى يتولى الرسالي عن دعوة الآخرين؟ فإن تحديد ذلك يكون على ضوء البصائر الإلهية، والقيادة الرسالية تعرف ذلك.

وهناك حكمة أخرى لواجب الإعراض عمن يجحد آيات الله هي أنهم هم المحتاجون إلى الرسالة، والرسالة غنية عنهم، فلا داعي للإلحاح الزائد عليهم، أو تغيير بعض القيم وتطويعها وفق أهوائهم ليقبلوها، كما فعل بعض علماء النصارى حيث أدخلوا في دين الله ما ليس فيه مجاراة للسلطان أو للعوام من الناس حتى يستهويهم الدين، وكذلك فعل بعض الجهلة من الدعاة عند المسلمين حيث أضافوا إلى الدين ما يستهوي الطغاة أو رعاع الناس ابتغاء كسبهم، والله غني عنهم وعمن يدعونه بهذه السبل إلى دينه.

ولا ريب أن المؤمن حريص على هداية الناس، ويريد الخير لهم، فمن الصعب عليه أن يتركهم حصبا لجهنم، من أجل كل ذلك توالى الأمر بترك المعرضين في القرآن.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ اتركهم وشأنهم، وانتظر، وتقدير هذا الفعل أقرب إلى السياق من قول بعض المفسرين بأنه: واذكر يوم القيامة حيث يُدعى الداعي إلى شيء مكروه، ذلك لأن انتظار يوم البعث لفض الخلافات مسألة معروفة في آيات القرآن الكريم.

وقد لا يقتصر الأمر بالتولي على الدنيا وحدها بل يشمل الآخرة، حيث يأمر الرب نبيه بالإعراض عنهم وتركهم وهو صاحب الشفاعة الكبرى يوم القيامة، وحيث يلتمس الناس بأجمعهم حتى الرسل والأنبياء الشفاعة منه ﷺ لأنها الصراط الأقرب إلى الجنة. جاء في الحديث عن سماعة بن مهران قال: قال أبو الحسن عليه السلام: «إِذَا كَانَ لَكَ يَا سَمَاعَةُ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ حَاجَةٌ فَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ فَإِنَّ لَهُمَا عِنْدَكَ شَأْناً مِنَ الشَّأْنِ، وَقَدْراً مِنَ القَدْرِ، فَبِحَقِّ ذَلِكَ الشَّأْنِ وَبِحَقِّ ذَلِكَ القَدْرِ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَأَنْ تَفْعَلَ بِي كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ لَمْ يَبْقَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مُؤْمِنٌ مُمْتَحَنٌ إِلَّا وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ اليَوْمِ»[1] وعن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا أَحَدٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ إِلَّا وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2]، وكم تكون حاجة هؤلاء إلى الرسول في ذلك اليوم عظيمة! ولكن الله يأمره بالتولي عنهم جزاء لتوليهم وإعراضهم في الدنيا.

(١) الكافي: ج٢، ص٥٦٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص٤٢.

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وعدم ذكر الداعي هنا -هل هو الله، أم إسرافيل، أم جبرائيل، أم الروح؟- يدل على أن المهم الدعوة وما تنطوي عليه، وليس شخص الداعي، لذلك أبهم، وفي ذلك من الترهيب الشيء العظيم، ثم إنه تعالى زاد الأمر رهبة حينما جعل المدعو إليه مجهولا، فقال: ﴿شَيْءٍ﴾ والشيء نكرة، والإنسان مجبول على الخوف من المجهول، وأخيرا جاءت صفة الشيء تفيض رهبة وزجرا وتخويفا بتأكيدها على أن الشيء منكر، وأصله أن يرد على الإنسان ما لا يتصوره ويستسيغه، وقيل للذنوب والخطايا منكرات لأنها يمجها عقل البشر ووجدانه ولا يستسيغانها.

[٧-٨] وإذا كان الإنسان في دار الامتحان قادرا على الإعراض عن دعوة الله وعدم إجابة داعيه، فليس لأنه يغلب الله بمعصية أو يعجزه هربا من عقابه، كلا.. ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢]، أما في يوم القيامة فإنه تسلب حريته، ويخلص الملك والحكم لله الواحد القهار، فلا مجال لأحد أن يتمرد على أمره أو يرفض دعوته: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، هنالك يُبدَّل تكبر المعرضين والمكذبين ذلة وهوانا ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ خشوع صغار وندامة يعكس عمق المذلة في نفوسهم.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ والأجداث هي القبور، وحيث تُبعث البشرية بجميع أجيالها التي تعاقبت على الأرض يصير العدد عظيما، بحيث يركب بعضهم على بعض: «فَأَحْسَنُهُمْ حَالًا مَنْ وَجَدَ لِقَدَمَيْهِ مَوْضِعاً وَلِنَفْسِهِ مُتَّسَعاً»[1] كما يقول الإمام علي عليه السلام، والقرآن يشبِّه الناس في حشرهم بالجراد حينما ينتشر، أي يتكاثر بأعداد هائلة في مثل حالات البلاء، فهو حينئذ كثير متراكم، والقرآن هنا يقدم الحديث عن حالتهم ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ على خروجهم من القبور، لأن بيانها هو هدف السياق من ذكر القيامة، وهو يمضي يحدثنا عن حال الذين أعرضوا وكذبوا واتبعوا أهواءهم بدل أن يتبعوا الدعاة إلى الله عز وجل ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ قال صاحب التبيان: «والاهطاع الاسراع في المشي،... يهطعون إلى الداعي بالإلجاء والإكراه والإذلال»[2]، وقال الزمخشري: «مسرعين مادي أعناقهم إليه، وقيل ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم»[3]، قال الراغب: «هطع الرجل ببصره إذا صوَّبه، وبعير مهطع إذا صوب عنقه»[4]، والذي يبدو أن الله قطع الكلمة عن الإضافة، فلم يقل مهطعي رؤوسهم مثلًا، وذلك

---

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص١١٣.
(٢) تفسير التبيان للطوسي: ج٩، ص٤٤٦.
(٣) الزمخشري، الكشاف: ج٤، شرح ص٣٧.
(٤) مفردات غريب القرآن: ص٥٤٣.

ليتسع معناها إلى مضمون أشمل هو تجميع كل جوارح البدن وجوانح القلب في اتجاه الداعي، وهذا يدل على عمق طاعتهم لداعي الله.

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ لأنه يوم الدين والحق، وقد أعرضوا عن الدين، واتبعوا الأهواء والظنون، أما المؤمنون الذين آمنوا بالآيات الربانية، وصدقوا بالحسنى، واتبعوا داعي الله في الدنيا، فذلك يوم سعادتهم، وأي سعادة أسمى من لقاء العبد بربه، وبلوغه الوعد الذي طالما تاقت إليه نفسه؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣]، ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

قال الإمام علي عليه السلام وهو يحدث الناس عن أحداث المحشر: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ مِنْ حُفَرِهِمْ عُزْلاً بُهْماً جُرْداً مُرْداً فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَسُوقُهُمُ النُّورُ وَتَجْمَعُهُمُ الظُّلْمَةُ حَتَّى يَقِفُوا عَلَى عَقَبَةِ الْمَحْشَرِ فَيَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَيَزْدَحِمُونَ دُونَهَا فَيُمْنَعُونَ مِنَ الْمُضِيِّ، فَتَشْتَدُّ أَنْفَاسُهُمْ وَيَكْثُرُ عَرَقُهُمْ وَتَضِيقُ بِهِمْ أُمُورُهُمْ وَيَشْتَدُّ ضَجِيجُهُمْ وَتَرْتَفِعُ أَصْوَاتُهُمْ قَالَ: وَهُوَ أَوَّلُ هَوْلٍ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَالَ: فَيُشْرِفُ الْجَبَّارُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِ عَرْشِهِ فِي ظِلَالٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَيَأْمُرُ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَيُنَادِي فِيهِمْ: يَا مَعْشَرَ الْخَلَائِقِ أَنْصِتُوا وَاسْتَمِعُوا مُنَادِيَ الْجَبَّارِ، قَالَ: فَيَسْمَعُ آخِرُهُمْ كَمَا يَسْمَعُ أَوَّلُهُمْ، قَالَ: فَتَنْكَسِرُ أَصْوَاتُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَخْشَعُ أَبْصَارُهُمْ وَتَضْطَرِبُ فَرَائِصُهُمْ وَتَفْزَعُ قُلُوبُهُمْ وَيَرْفَعُونَ رُؤُوسَهُمْ إِلَى نَاحِيَةِ الصَّوْتِ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ الْكَافِرُ ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾»[1].

[٩-١٢] ثم إن التكذيب بالرسالة أمر طبيعي واجهه كل الأنبياء السابقين ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ التكذيب الأول بالآيات والرسالة، والتكذيب الثاني بنبوته عليه السلام، ولم يقفوا عند حد التكذيب وحسب بل سعوا إلى النيل من سمعته ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ لإصراره على الحق، واستبساله في الدعوة، بالرغم من تكذيبهم، فهو في نظرهم يطلب المستحيل اللامعقول، وحيث وجدوا فيه الشجاعة التي تحدى بها ثقافاتهم وعاداتهم ولم يريدوا الاعتراف له بهذه الإيجابية، حوّروها إلى الجنون حتى يصنعوا بينه وبين الناس حجابا يمنعهم من التأثر به، وهذه من طبيعة الطغاة، فهم اليوم يسمون الأصالة تطرفا، والجهاد في سبيل الله إرهابا، وعلى المؤمنين ألّا يهزمهم الإعلام المضاد فهم امتداد لخط الأنبياء، وهم على حق، وعليهم أن

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٢٦٨.

يتحملوا ما تحمل الرسل من أذى في سبيله، فهذا شيخ الأنبياء نوح عليه السلام يزجره قومه قصد ثنيه عن رسالته والإساءة إليه.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ وهذه الكلمة هي تلخيص لمجمل ما تعرض له نوح عليه السلام من البلاء والإيذاء، وهي ليست معطوفة على ﴿مَجْنُونٌ﴾ مما يجعلها داخلة في جملة القول، بل معطوفة على ﴿فَكَذَّبُوا﴾ كما يبدو، فهم كذبوه نفسيًّا، وسعوا في تشويه سمعته بألسنتهم وما أمكنهم من وسائل الإعلام، وآذوه فعلا، وإنما استفتح السياق بذكر نوح بين الأنبياء لأنه أشدهم ابتلاء بسبب الإعراض عنه، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم فيعرضون عنه.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ وهذه الآية تدل على المعنى المتقدم لكلمة ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾، إذ لولا دعاؤه لتأثر بزجرهم نفسيًّا، أو صار ضحية له، كما تدل على أن نوحا عليه السلام وصل إلى حد اليأس من قومه، قال الرازي: «إن النبي لا يدعو على قومه -هذا الدعاء- مادام فيه نَفَس احتمال، ومادام الإيمان منهم محتملا، واستجاب ربنا دعاء نبيه، ففتح السماء ماء منهمرا، وفجَّر الأرض عيونا، فنصره وأهلك الكافرين»[1]. وبنظرة شاملة ودقيقة إلى القصة التي يعرضها القرآن في ثلاثة فصول، يحدثنا في الأول عن معاناة نوح مع قومه، وفي الثاني عن دعائه الذي يلخص موقفه منها، وفي الثالث عن عذاب الله لقومه الكافرين، نكتشف حقيقة هامة هي أن دعاء المؤمنين بالنصر لا يستجاب إلا إذا تحركوا في سبيل الله، وإلى تحقيق النصر بأقصى ما يمكنهم معنويًّا وماديًّا، إن الله كان قادرا على نصر نوح من أول لحظة كذبوه فيها، ولكنه تركه يدعوهم جيلا بعد جيل (٩٥٠ عاما) حملت في أحشائها ألوان الأذى والابتلاء، فكان يعده ثم يؤخر عنه النصر مرة بعد أخرى إتماما للحجة على الناس.

وفي سورة نوح استشهاد مفصل بدعاء نوح عليه السلام يكشف عن عمق المعاناة التي واجهها، ويسلط الضوء على كثير من الأفكار المتقدمة، ولكنه هنا يختصر الحديث اعتمادا على تفصيله في مواضع أخرى، ويقول: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام: «لَمَّا أَرَادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَلَاكَ قَوْمِ نُوحٍ.. -إلى أن يقول عليه السلام- فَصَاحَتِ امْرَأَتُهُ لَمَّا فَارَ التَّنُّورُ فَجَاءَ نُوحٌ إِلَى التَّنُّورِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا طِيناً وَخَتَمَهُ حَتَّى أَدْخَلَ جَمِيعَ الحَيَوَانِ السَّفِينَةَ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى التَّنُّورِ فَفَضَّ الخَاتَمَ وَرَفَعَ الطِّينَ وَانْكَسَفَتِ الشَّمْسُ وَجَاءَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ مُنْهَمِرٌ صَبٌّ بِلَا قَطْرٍ وَتَفَجَّرَتِ الأَرْضُ عُيُوناً»[2] والتاريخ يؤكد أن الأرض قد غطاها الماء في يوم من الأيام، ويستدل الباحثون على ذلك بآثار الحيوانات البحرية، كالأصداف

(١) الرازي، تفسير الرازي: ج ٢٩، ص ٣٦ نقلًا بتصرف يسير.
(٢) تفسير القمي: ج١، ص٣٢٦، بحار الأنوار: ج١١، ص٣١٢.

وهياكل السمك الموجودة في كل مكان حتى على الجبال، إلا أن التحليل التاريخي يختلف عن القرآن بأنه يبقى تحليلاً ماديًا بحتًا، وبغض النظر عن عدم مطابقته للواقع في اعتقادنا فإنه يُبقي القضية علما مجردا عن الموعظة والعبرة، فأصحاب النظريات في هذا المجال يفسرون الطوفان - مثلا - بأنه نتج صدفة، حيث مرت بالأرض عواصف باردة تسببت في تكون جبال جليدية ضخمة، ثم حدث انفجار في الشمس أخذت الثلوج على أثرها بالذوبان، فتكونت السيول التي أغرقت اليابسة، والقرآن يقول: كلا.. إنه لم يكن صدفة، بل بتقدير إلهي حكيم نقرأ لمساته على هذه الظاهرة الكونية الخارقة للعادة، حيث سبق إخبار نوح به، وحيث لم يغرق فيه ولا مؤمن واحد، ولم ينج منه ولا كافر واحد، فهل هذا مجرد صدفة؟!.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ المنهمر من السماء، والمنفجر من الأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ ونجد إشارة إلى هذا الأمر الإلهي في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]، وكان الأمر حكيما في جميع دقائقه، فهو مقدر من حيث الزمن بدءاً ونهاية، ومن حيث العوامل وطريقة تنفيذه، فلو تقدم مثلا عن زمنه المحدود لربما كان يغرق نوح عليه السلام ومن معه لعدم الاستعداد، ولو تأخر أمر الله بإنهائه ربما لم تكن الأرض بعدها صالحة للحياة عليها.

[١٣-١٦] ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ وهي السفينة التي تتكون من الجذوع المقطعة شرائح، ولا يقال لوح إلا للصفائح، أما الدسر فهو ما يشد الألواح إلى بعضها، سواء كان ذلك المسمار أو الحبل أو غيرها، وإذا يتعرض القرآن إلى المواد الأولية التي تتألف منها سفينة نوح فلكي يؤكد أن الأمر لم يكن صدفة، بل هو مقدر تقديرا حكيما من قبل الله، وإلا كيف ينجو راكب سفينة هذه طبيعتها من الغرق بطوفان هائل أمواجه كالجبال؟!.

ويؤكد القرآن هذه الحقيقة مرة أخرى، حينما يبين بأن سير الفلك في غضب الطوفان وبالتالي نجاة ركابها كان برعاية مباشرة من الله، وفي ظل رحمته.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ وعين الله لطفه ورحمته ورعايته لنبيه عليه السلام إذ نجّاه ومَنْ معه جزاء معاناته وإيمانهم، فقد لبث في قومه مدة طويلة يدعوهم إلى الله بإلحاح رغم كفرهم به وأذاهم له، ولم تكن نجاته صدفة، ولا لعنصره، ولا لركوبه في السفينة وحسب، بل لعمله وسعيه، إذ أكد ربنا أنه كان جزاء لنوح الذي كان قد كُفِر برسالته من لدن أولئك الكافرين، وهذا رأي في التفسير، وهناك آراء أخرى لا أراها تنسجم مع ظاهر السياق.

وفي الوقت الذي دمر الله أولئك ونجّى هؤلاء، أبقى قصصهم -وربما السفينة أيضاً- علامة تهدينا إلى الحق، ولكن لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنها واقع مر لفريق، ونعمة لفريق آخر في وقتها، ولكن دورها لا ينتهي عند هذا الحد، بل تبقى موعظة للاحقين، لذلك يسجلها الله في كتابه لكيلا تنساها البشرية ويفوتها نفعها، وأن يتذكر الإنسان بغيره خير من أن تدور رحى التجارب عليه فيصير عبرة للآخرين، وكما قال الإمام علي عليه السلام: «العَاقِلُ مَنْ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ»[1]، من هنا ينبغي أن ندرك مدى أهمية القرآن للبشرية، ودوره في حفظ تاريخها وتجاربها التي تطاولت عليها السنون، وكانت لولاه تبيد وتُنسى أو تُنتزع منها عبرتها ولبابها، وتُضحي قشرة بالية لا تكسب الناس حكمة، ولا تهديهم سبيلا، كما نجد في التواريخ التي تمجد قصص الغابرين لا تحكي سوى ظواهرها، أما ما ينفع الأجيال المتلاحقة فإنه ينسى. حقا: أنها سمة مميزة لمنهج الرسالة في بيان قصص الأولين، حيث تحوّلها إلى حقائق معاشة بيننا، وذلك بالتركيز على بيان عبرها الدائمة والخطوط المشتركة بيننا وبينهم. وهكذا أشار ربنا سبحانه في آيات أخرى إلى جانب من ذلك بعد بيان قصة نوح فقال: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٨-٤٩]. أترى كيف وُصِلَ الحدث الموغل في التاريخ بالحدث الراهن المتمثل في الصراع المستمر بين المتقين وغيرهم وأن العاقبة لهم؟ وهذه من أبرز العبر في قصة نوح عليه السلام.

ولكن السفينة ذاتها آية أيضا، ذلك أنها حافظت على النوع البشري من الانقراض، ومن الآيات التي تجلت في القصة آية العذاب الإلهي المهول الذي تشير إليه الآية الكريمة التالية بهدف إصلاح النفسية البشرية القائمة على الظنون والتمنيات، حيث يستبعد البعض العذاب من قبل الله بناء على تصور خاطئ، بأنه رحيم ورؤوف وقد خلق الخلق ليرحمهم لا ليعذبهم، ويتخذ البعض من هذا التصور مبررا للذنوب التي يمارسها، كلا.. يقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ بلى؛ إن الغضب الإلهي عذاب للأقوام التي يحل بها، ولكنه في الوقت ذاته نذير للاحقين، فلا يعتمدوا إذن على التمنيات، ليتفكروا في التاريخ، وليذكروا آياته الواعظة المنذرة.

والاستفهام الوارد في الآية يفيد التعظيم، ويستهدف استثارة العقل نحو الموعظة بوقعه الخاص، ذلك أن الاستفهام بحاجة إلى وقفة تفكر وتدبر.

[١٧] وتلك الآية وآية العذاب، وما تنطوي عليه قصة نوح مع قومه من نذر، تلتقي مع القرآن في هدف واحد هو التذكرة، إذن فهي الهدف الأسمى للقرآن، وإليها تهدي كل سوره

---

(١) غرر الحكم: حكمة: ٤٥٧٠.

وآياته ومفرداته، ولكن كيف يحقق القرآن هذا الهدف؟ وكيف ينفذ إلى أعماق ضمير الإنسان وعقله، ويخترق حجب الهوى والغفلة والجهل التي تلوّث فطرته، وتستر عقله عن الحق؟ لا بد أن يكون مُيسّرا بعيدا عن العسر والتعقيد للأسباب التالية:

أولاً: لأنه كلام الخالق العليم القدير إلى المخلوق الجاهل الضعيف، وليست ثمة نسبة بينهما في علم ولا منطق.

ثانياً: لأنه يحدث الإنسان عن حقائق كبرى في الحياة وفوق الحياة، بعضها يحسها ويراها والبعض الآخر يغيب عنه.

ثالثاً: لأن الله أراد لهذا الكتاب الصغير في حجمه الكبير في محتواه أن يكون تبيانا لكل شيء يهم الإنسان في حاضره ومستقبله، وفي دنياه وآخرته، ويرسم له مناهج الحياة في أبعادها المختلفة، في الشؤون الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية.. ولقد يسر ربنا القرآن إذ جعله عربيا مبينا، وأنزله في أرفع الأساليب البلاغية والنفسية والعقلية فإذا به الحكمة البالغة، والقصص القرآني التي تبلغ (٤٠٪) من عموم آياته تقريبا هي من أبرز معالم منهجه في تيسير التذكرة، لذلك تجد الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تتكرر في هذه السورة بعد كل قصة مباشرة، وهي قصص واقعية بتفاصيلها التي تعرّض لها القرآن.

إذن لا نقص في كتاب ربنا سبحانه، ولا غموض، ولا يكلّف الإنسان أكثر من وسعه، بل هو ميسر، وإذا كان ثمة تزمت أو تعقيد عند بعض المؤمنين به فهو من عند أنفسهم، ولأن قلوبهم قد مُلئت بثقافات دخيلة؛ بأساطير الشعوب البدائية، بأفكار الجاهلية الوافدة، بالإسرائيليات المتلصصة إلى كتبهم، وبالعقد المتراكمة من جراء التخلف، وإذا لم يتذكر البشر به فلا حجة لهم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ والسعيد من صدَّق بالقرآن وتذكَّر به فتجنب العذاب.

[١٨-٢٠] إن الله ضرب للبشر مثلاً من واقع المكذبين وعاقبتهم بقوم نوح عليه السلام، ولكن الأهم بيانه مصير أولئك الذين لم ينتفعوا بتجارب السابقين من الأقوام، تحذيراً للناس من تكذيب القرآن وعصيان الرسول صلى الله عليه وآله. إن الله ترك قصص قوم نوح آية للاحقين، وكان بإمكان من بعدهم أن يتجنبوا غضب الله لو اعتبروا بها، ولكنهم كذبوا فحل بهم العذاب ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ وعاد هم القوم الذين أرسل إليهم النبي هود عليه السلام فلما

كذبوه أهلكهم الله بالريح، وهذا نذير آخر لنا يسوقنا إلى التصديق بالرسالة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وهي الريح شديدة البرد، وذات الصوت الرهيب، عن علي بن إبراهيم[1]، وأصله الصرير، وعن أبي بصير قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «فَإِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُعَذِّبَ قَوْماً بِنَوْعٍ مِنَ الْعَذَابِ أَوْحَى إِلَى الْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِذَلِكَ النَّوْعِ مِنَ الرِّيحِ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا قَالَ فَيَأْمُرُهَا الْمَلَكُ فَيَهِيجُ كَمَا يَهِيجُ الأَسَدُ الْمُغْضَبُ، قَالَ: وَلِكُلِّ رِيحٍ مِنْهُنَّ اسْمٌ»[2]، والذي يجعل الريح ذات أثر أعمق أنها أرسلت في يوم رفع الله عنه الرحمة ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ دائم، بدأ في الدنيا بثمانية أيام حسوما، ولكنه يمتد إلى الآخرة حيث العذاب المقيم، وإنما أرسل الله عليهم الريح تقتلعهم من الأرض لأنهم تكبروا على الحق، وتحدوا هودا وربه، وجحدوا بالآيات، فكانوا يتصورون أنهم باقون وأنه لا غالب لهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦]، ويشير هذا النص القرآني إلى الفكرتين المتقدمتين وبالربط مع قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٧]، نفهم أن ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ صفة للنحس وليس لليوم، لأن اليوم ينقضي ويأتي آخر غيره، في حين بقي النحس عاملاً مشتركاً مستمراً.

أما ما قيل من أن النحس مختص ببعض الأيام كالأربعاء أو الثالث عشر من كل شهر فإنه بعيد لأن الأقدار ليست مرهونة بالأيام، بل بعمل الإنسان فردا ومجتمعا، فاليوم الذي يطيع الله فيه ويعمل صالحا هو يوم خير وبركة ويمن، سواء في الدنيا حيث الشعور بلذة فراغ الذمة وأداء الواجب، وجلب التوفيق، أو في الآخرة حيث يرقى به درجة من الرضا والجنة، وهكذا اليوم الذي تتنزل فيه رحمة الله وآلاؤه مبارك وسعيد، كيوم أنزل المائدة على بني إسرائيل وحواري عيسى عليه السلام، وليلة أنزل القرآن على نبيه التي هي خير من ألف شهر، وفي المقابل يكون يوم المعصية يوم نحس، يقطع عن صاحبه التوفيق، ويجعله عرضة لسخط ربه في الدنيا والآخرة.

أترى كيف صار عقر الناقة سبباً لدمار أمة برمتها؟.

قال سويد بن غفلة: «دَخَلْتُ عَلَيْهِ (يعني الإمام علي عليه السلام) يَوْمَ عِيدٍ فَإِذَا عِنْدَهُ فَاثُورٌ[3]

---

(١) نور الثقلين: ج ٥ ص٤٠١.

(٢) الكافي: ج٨ ص٩١.

(٣) يقال هم على فاثور واحد أي على مائدة واحدة، ومنزلة واحدة. الصحاح للجواهري: ج٢، ص٧٧٧.

عَلَيْهِ خُبْزُ السَّمْرَاءِ[١] وصَحْفَةٌ فِيهَا خَطِيفَةٌ ومِلْبَنَةٌ[٢] فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمُ عِيدٍ وخَطِيفَةٌ؟!. فَقَالَ عليه السلام: إِنَّمَا هَذَا عِيدُ مَنْ غُفِرَ لَهُ»[٣]. وعنه عليه السلام أيضا: «إِنَّمَا هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ اللهُ صِيَامَهُ وشَكَرَ قِيَامَهُ، وكُلُّ يَوْمٍ لَا تَعْصِي اللهَ فِيهِ فَهُوَ يَوْمُ عِيدٍ»[٤].

وتتصل الآيات تحدثنا عن عاقبة المكذبين من قوم هود عليه السلام لتضع أمام أعيننا لقطات رهيبة من العذاب، وما فعلته الريح بهم، إنها من الشدة بحيث تنتزع الإنسان من الأرض، كما تنتزع أعجاز النخل المسنة اليابسة المنخورة من جذوعها لتلقي بها أرضا من أساسها!.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ وكلمة ﴿تَنزِعُ﴾ تدل بوضوح على مدى تشبثهم بالحياة، واعتمادهم على أسباب القوة والبقاء الظاهرية، بالرغم من أنهم يعيشون في داخلهم الضعف والانهيار، كسائر الأنظمة الطاغوتية التي يشبهها الله ببيت العنكبوت مع أن ظاهرها القوة والمتانة، وهذا الضعف ناتج من اتباعهم الباطل، ومخالفتهم سنن الحياة، ذلك أن أسباب القوة الحقيقية تكمن في اتباع الحق والتسليم لله، وقد اعتمد قوم عاد على ذاتهم كما بينا ذلك في الآيتين (١٥، ١٦) من سورة فصلت.

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وهنا يشبههم بشيء آخر فيقول عز من قائل: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ اهترأ وتجوَّف بمرور الزمن وتعرضه للعوامل الطبيعية المتلفة، وتقطعت عروقه، فهو لا يحتاج حتى يهوي إلى الأرض من أصوله فيتحطم إلا لأدنى دفع، وقد شبههم الله بالنخل الذي اجتث من قعره: «وإنما أراد تعالى أن هؤلاء اجتثوا كما اجتث النخل الذاهب في قعر الأرض فلم يبق لهم رسم ولا أثر»[٥]، ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، تهاوت على بعضها ومتفرقة هنا وهناك.

[٢١-٢٢] ومع ما تحمل هذه الآيات الكريمة من بلاغة وأسلوب أدبي رفيع، إلا أنها ما جاءت لكي يظهر ربنا إعجازه البلاغي والأدبي للناس وحسب، أو لتكون ميدانا للصراع بين علماء البلاغة واللغة أو بين المفسرين، بل جاءت موعظة ونذيرا للبشرية.

---

(١) الحنطة.

(٢) الخَطِيفَةُ: لبن يطبخ بدقيق ويخطف بالملاعق بسرعة، والمِلْبَنَةُ: الملعقة، لسان العرب: ج ٩، ص ٧٨

(٣) بحار الأنوار: ج٤، ص٣٢٥.

(٤) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٠٨.

(٥) مفردات غريب القرآن: ص ٤٠٩.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ أترى هيّناً أن يحل غضب الله القوي العزيز على الإنسان الضعيف الذي خلقه أساساً للرحمة؟! لنتفكر في تضاعيف الآيات الماضية، ونقف على آثار الماضين وقصصهم لنتعظ من قبل أن نذل ونخزى، فهذه الآيات إنما جاءت لتحملنا إلى التذكرة، وتيسّر علينا حقائق القرآن.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ نحن لا نرى جهنم بأعيننا لأنها من الغيب الذي حُجب عنا علمه، ولكن لننظر إليها بقلوبنا ومن خلال بصائر القرآن الحكيم، ليهدينا عذاب الله في الأقوام السالفة إلى شديد عذابه في الآخرة، وليزجرنا قبل ذلك عن التكذيب بالحق.. فهل يكون ذلك منا، أم نكون أنفسنا عبرة لمن بعدنا؟ إن الحجة بليغة وبالغة، والسبل مشرعة، والأعلام واضحة، والآيات ميسرة، وبأيدينا القرار، وبه نرسم مصيرنا ومستقبلنا، بتوفيق الله سبحانه.

فهل من مُدّكرٍ

۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى
ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ[1] ﴿٢٥﴾
سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ
فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ[2] ﴿٢٨﴾
فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ[3] ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَاصِبًا[4] إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟[5] بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
رَٰوَدُوهُ[6] عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ[7] أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ

---

(١) أشر: أي بطر متكبر، يريد أن يترفّع ويتعظّم.

(٢) محتضرَ: يحضره صاحبه، ولا حق لأحدهما في الماء في اليوم الآخر.

(٣) كهشيم المحتظر: الهشيم هو حطام الشجر المنقطع بالكسر والرض، الذي يجمعه صاحب الحظيرة، يتخذ لغنمه حظيرة، تمنعها من برد الريح، والمعنى: أنهم بادوا وهلكوا فصاروا كيبس الشجر المفتت إذا تحطم، وقيل: معناه صاروا كالتراب الذي يتناثر من الحائط فتصيبه الرياح فيتحظر مستديراً.

(٤) حاصباً: ريحاً ترميهم بالحجارة، يقال: حصبه أي رماه بالحجارة.

(٥) فتماروا: أي تدافعوا بالإنذار على وجه الجدال بالباطل، وقيل: معناه فشكّوا فيه، ولم يصدّقوه، وقالوا: كيف يهلكنا وهو واحدٌ منا؟!.

(٦) راودوه: المراودة: الرواح والمجيء، فقد جاء لوط عليه السلام ضيوف فأراد قومه أن يلوطوا بهم، فكانوا يراودونه من أجل ذلك.

(٧) فطمسنا أعينهم: أي محوناها، ومسحناها، وسوّيناها بسائر الوجه حتى عميت عيونهم، وشوّهت خلقتهم.

صَبَّحَهُم بُكْرَةً[1] عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

إنه لأسلوب جديد في القرآن الكريم في هذه السورة والتي تليها: أن تتكرر الآية الواحدة مرة بعد الأخرى، مما يهدي المتدبر -ومن أول وهلة- إلى كونها محوراً أساسيًّا بين أخواتها في السورة الواحدة، ففي سورة الرحمن تتكرر الآية الكريمة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وهنا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، ويطرح الذكر الحكيم هذا الاستفهام مدويًّا في أفق الزمان والمكان وفي قلب كل بشر: هل هناك من يتذكر بالقرآن الذي يُسّر الذكر بقصص الماضين؟.

الإنسان من جهته لا يعلم عواقب الأمور، وسنن الحياة الفردية والاجتماعية من حوله، إلا عبر منهجين:

الأول: تجارب الآخرين. علما بأن الإنسان لا يعاد إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت حتى يجرب في الأولى ويتعظ في الثانية.

الثاني: الوحي الإلهي.

وقد يكشف القرآن السنن الإلهية في الخليقة بصورة مباشرة، وقد يبينها عبر قصص الغابرين، فهو إذن يجمع بين المنهجين ومن أراد أن يتذكر (ينبه ضميره وعقله) فعليه بالقرآن، مكمّلاً وهادياً لفطرته وعقله، فإن لم ينتفع به فليس ينفعه شيء أبدا.

بينات من الآيات:

[٢٣] قصة ثمود (قوم صالح عليه السلام) من النذر التي تكشف لنا عن عاقبة التكذيب بالحق، ولكن ربنا لا يقول إنهم كذبوا بالحق، بل قال: كذبوا بآياته ونذره، وذلك ليكشف لنا عمق الضلال والانحراف في نفوسهم، فالإنسان يكذب بالحق تارة ثم يزعم أنه لا يجد آية تدله عليه، وتارة يكذب به بالرغم من الآيات الهادية إليه. قوم صالح دعاهم نبيهم إلى الله، وحذرهم من التكذيب، وأظهر لهم أكثر من آية منذرة بينه، ولكنهم أصروا على باطلهم،

---

(١) بكرة: البكرة أول الصبح.

وكذبوا بكل شيء.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ قال بعض المفسرين: إنها نذر العذاب المباشرة حيث اصفرَّت وجوههم في اليوم الأول، واحمرَّت في الثاني، واسودَّت في الثالث.. والذي يظهر من سياق القرآن أن النذر هو كل ما يحذر الإنسان ويخوفه من غضب الله وعذابه، وقد كذبت ثمود بالرسول، ورسالته، وبآيات العذاب، وبالناقة، وكلها من نذر الله.

[٢٤] وحيث يحتاج الإنسان إلى تبرير مواقفه وتصرفاته مهما كانت، فقد لجؤوا بعد رفض الحق إلى الأفكار والضلالات الجاهلية، التي تناقض أبسط المعايير المنطقية عند البشر إنهم حاولوا تقييم الرسالة وقيادة الرسول ﷺ من خلال مصلحتهم وواقعهم المادي المنحرف، فما داما لا يلتقيان معهما فليسا بحق. هم أرادوا الرسالة رسالة هوى وتبرير فجاءت بالحق والمسؤولية، وأرادوا الرسول مثلهم في قيادته ومظهره فوجدوه قدوة الخير والصلاح.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ ويبدو أن القائلين هم الملأ المستكبرون الذين كانت قيادة صالح عليه السلام مناقضة لمصالحهم، لذلك سعوا جهدهم إلى محاربته، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٧٥]، وأرادوا بذلك تشكيكهم في شرعية قيادته، وهنا أرادوا الغاية نفسها، وحيث لم يجدوا سبيلا لمواجهة الرسالة نفسها سعوا إلى النيل من شخصية الرسول، فقالوا: إنه ليس مرسلا من قبل الله لأن الله لا يرسل بشرا، وبالتالي فاتباعه ليس واجبا، وهذه الفكرة تشبه إلى حد بعيد قول البعض عن الرسول ﷺ أنه عبقري وحسب ليثبتوا عدم لزوم طاعته، وقد أضاف قوم صالح إلى ذلك أنه مثلنا ومن محيطنا ولا شيء يميزه عنا يدعونا إلى اتباعه، ثم إنه واحد لا مال له ولا أعوان، فهو مجرد عن عوامل القوة التي تبعثنا إلى طاعته والخضوع له، وقد يكون معنى ﴿وَٰحِدًا﴾ أنه جاء بنظام سياسي يدعو إلى قيادة موحدة، ونبذ النظم القبلية والعشائرية القائمة على أساس تعدد القيادات، والتي تفسح المجال لكل مترف ومستكبر لممارسة شهوة الرئاسة، وهذا لا يتفق مع أهوائهم، كما قال كفار قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ واعتبروا اتباعه مع هذه الصفات ضربا من التيه، بل الجنون، واعترافا صريحا منهم بخطأ سيرتهم الماضية، إضافة إلى كونه يجردهم من الرئاسة، ولذلك رفضوا قيادته واتباعه.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ السُّعُر هو الجنون الشامل المستمر. والحق أن هذه كلها

مقاييس باطلة لا تصلح لتشخيص القيادة الحقيقية في المجتمع، إنما الكفاءة الإدارية والعملية والسياسية، ومدى الالتزام بالحق (التقوى)، والتصدي الفعلي للقيادة، ثم إذن الله وإعطاؤه الشرعية هي المقاييس الصادقة للرئاسة.

[٢٥] بل، إنهم اعتبروا الوجاهة الاجتماعية، وكثرة المال والأتباع، هي المقاييس، ولو تجرد صاحبها عن الكفاءة والتقوى، وهذه متوفرة لديهم، وهذا منطق المترفين والمستكبرين على مر التاريخ ومع كل الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ﴿وَقَالُواْ -لرسولنا الأعظم- لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وهكذا قال مترفو بني إسرائيل من قبل، قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٤٧].

وهذه بالضبط كانت مقاييس قوم صالح، لذلك استنكروا أن يصطفيه الله من بينهم وهو لا يضاهيهم مالا ولا أتباعا، بل اتهموه بأرذل أنواع الكذب.

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ قال البعض: الأشر الذي يتجاوز الحد في الكذب، ويبدو أنه الطمع في الرئاسة بلا استحقاق لها، ولعل معنى كلام سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام: «وَأَنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشِراً وَلَا بَطِراً وَلَا مُفْسِداً وَلَا ظَالِماً»[١] إنني حيث نهضت وطالبت بالإمامة فهي من حقي، ولست أدّعي ما هو للغير، وظاهر كلمة ﴿مِنۢ بَيْنِنَا﴾ في هذه الآية يؤيد هذه الفكرة، لأن المعنى بها يكون: أنه طَلَبَ يَصْلُحُ وَيَحِقُّ لنا دونه، وربما دلت هذه التهمة الباطلة على أن خشية أولئك الكافرين من تحويل الرئاسة عنهم كانت وراء تكذيبهم برسالة صالح، حيث إنهم اتهموه بأنه طالب رئاسة بالباطل قياسا على أنفسهم حيث تسلطوا على الناس بغير حق.

[٢٦] وأمام هذا المنطق المتوغل في الكبر على الحق، والاستهزاء بولي الله ورسوله

---

(١) بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ٣٢٩.

صالح، والإعراض عن الآيات والنذر، ومن ثم مبارزة الحق تعالى، يتوعدهم ربنا بالعذاب ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾ في المستقبل الدنيوي والأخروي إذا نزل بساحتهم العذاب ﴿مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ وحينئذ سيكتشفون مدى ضلالتهم وهواتهم على الله، كما يوقنون عين اليقين بصدق النذر، ولكن دون جدوى، لأن العلم والإيمان ينفعان ما بقيت فرصة للتغير والعمل، والآية تهدينا إلى أن حبل الكذب قصير ينقطع بصاحبه سريعا، وعاقبته الخسران، لأنه يخالف سنن الله في الحياة.

[٢٧-٢٩] ومنذ أوحى الله إلى نبيه بذلك الوعيد كان عالما بعاقبتهم، قادرا على إبادتهم، ولكنه -وقد كتب على نفسه الرحمة- لا يأخذهم بالعذاب قبل النذر، لأن حكمته اقتضت أن يجعل لنفسه الحجة البالغة، لئلا يقول الناس: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، لذلك شاء وقضى أن يظهر لهم آيات العذاب أولاً.

﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ نبتليهم ونمتحنهم بها، وحينما يتعرض المجتمع للفتنة فإن مسؤولية القيادة الرسالية وكذلك المؤمنين أن يكونوا شهداء لله عليه، بالدعوة إلى الحق، وبيان البصائر والمواقف المطلوبة أثناءها، والتصدي لقيادته، وأن يستعدوا لهذه المسؤولية الحساسة، ويتحملوا من أجلها الضغوط المختلفة، ويستقيموا صامدين حتى يحكم الله تعالى ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ۝٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ وبين الناقة التي أخرجها الله من الجبل ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وكانت القسمة واضحة مقبولة لأنها تمت بحضورهم ورضاهم، فكل صاحب يوم يحضر شربه في يومه ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾.

وحينما يرسل الله الآيات المادية الواضحة إلى قوم أو أمة من الأمم فإن ذلك دليل على أنه يريد حسم الموقف بعذاب الاستئصال إذا كذبوا بها، ولقد كانت الناقة آية مبصرة إلا أنها في الوقت نفسه كانت صعبة على نفوسهم المنحرفة، ومن طبيعة الإنسان أنه حينما يواجه أمرا صعبا يفرز حالة نفسية يُضخّم بسببها ذاته ويستهين بذلك الأمر، فإذا بالقيم السامية والدين يستحيلان إلى شيء حقير عنده، بلى؛ قد يكون الأمر ذاته ليس عظيما إلا أن عظمته الحقيقية تكمن في القيم التي يتصل بها، جاء رجل إلى الإمام الباقر عليه السلام فَقَالَ لَهُ: «وَقَعَتْ فَأْرَةٌ فِي خَابِيَةٍ فِيهَا سَمْنٌ أَوْ زَيْتٌ فَمَا تَرَى فِي أَكْلِهِ؟. قَالَ -الراوي-: فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: لَا تَأْكُلْهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: الفَأْرَةُ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أَتْرُكَ طَعَامِي مِنْ أَجْلِهَا!. قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنَّكَ لَمْ تَسْتَخِفَّ بِالفَأْرَةِ وَإِنَّمَا اسْتَخْفَفْتَ بِدِينِكَ، إِنَّ اللهَ حَرَّمَ المَيْتَةَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[1]، وفي الواقع الاجتماعي أيضا نجد شواهد لهذا الانحراف الخطر عند الإنسان، فإذا بك تراه لا يحترم العالم

(١) وسائل الشيعة: ج١، ص٢٠٦.

ولا يقدره لا لقلة علمه، أو ضعف شخصيته، وإنما لأن شكله لا يدعوه للاحترام، ولا يعلم أنه بذلك يستهين بقيمه العلم لا بالعالم نفسه، وعلاج هذه الحالة بإيجاد توازن داخل الإنسان بين نفسه القيم، وذلك بتصور العاقبة التي ينتهي إليها هذا الانحراف.

إن قوم صالح احتقروا الناقة، وظنوا أنهم أكبر من أن يقدّروها، ويلتزموا بعهدهم مع النبي عليه السلام لشأنها، وبالرغم من تحذيره لهم تآمروا ورضوا بعقرها ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ قدار أو أحيمر، بعد تخطيطهم للمؤامرات، وكان أشقى القوم وأجرأهم على الحق، ولعل معنى المناداة ليس التنادي بالكلام فقط، وإنما أيضا بالرضا وعدم تحمل مسؤولية الدفاع عن الحق، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة أهل البغي والطغيان. قال الإمام علي عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا والسَّخَطُ، وإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ المُحْمَاةِ فِي الأَرْضِ الخَوَّارَةِ»[1].

وكان هذا الفرد يعكس الشخصية الحقيقية لذلك المجتمع، إذ كان يعبر -بعمله- عن ضميرهم الفاسد، وعزمهم الخائر، وإرادتهم المشلولة، وفكرهم الضال، وغياب المؤسسات الإصلاحية بينهم، وهكذا حينما تحكم أي مجتمع أفكار سلبية فإنها تتجسد في قيادة ضالة طاغية، ونظام سياسي منحرف، وعاقبة سوأى لا تخص الظالمين أنفسهم بل تطال كل أبنائه، وربما أقدم الشقي على عقر الناقة للوصول إلى حاجة في نفسه هي الرئاسة، وقد دخل بعمله هذا في صفقة مع المترفين والمستكبرين مباشرة، ومع المجتمع بصورة غير مباشرة حيث رضوا عنه ولم يمنعوه.

﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ لعل معناه أنه استعد للقيام بجريمته، وأخذ يتعاطى وسائلها، ويهيئ الأجواء لها، ونستوحي من هذه الكلمة أن الجريمة لم تمر بسرعة، وإنما احتاجت إلى التآمر، وهذه طبيعة أكثر الجرائم، أنها تسبقها إرهاصات تمهيدية تعطي الفرصة لأهل الحق بالتصدي لها، ولقد كان مجتمع ثمود قادرا على مقاومة قدار بعد أن شاهدوا إرهاصات الجريمة عنده، ولكنهم تركوه، فبدأ عدهم التنازلي نحو النهاية والعذاب، ووجد هو الفرصة سانحة لتنفيذ جريمته، والقرآن في موضع آخر يصور طبيعة المجرم وموقف المجتمع فيقول: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]، ولا ينبعث الإنسان إلا إذا كان نفسه متحفزا نحو ما ينبعث إليه، ولا يجد ما يمنعه من نفسه ولا من خارجها، وهذا حال الأشقى الذي ضرب عرقوب الناقة وقتلها ﴿فَعَقَرَ﴾.

[٣٠-٣١] ولم ينتبه هو ولا من حوله بأنه يبارز الله بعمله، فنزل العذاب بساحتهم،

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص١٠٨.

والإنسان لا يتصور أنه ينتهي إلى عاقبة كهذه لسبب يبدو تافها في نظره، إذ قدرة الإنسان على استيعاب كل ظواهر الخليقة وعواملها قدرة محدودة، لذلك جاء القرآن ليرفع الإنسان من حالة الشيئية واللهو إلى القيمة والجد.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ بقدر ما كانت النذر مبينة بالغة كان العذاب مهولا ورهيبا. ويبين الوحي واقع ذلك العذاب فيقول: إنه لم يكن صدفة، بل كان مرسلا من عند الله، بلى؛ قد يأتي العذاب ضمن سنن الحياة الطبيعية والاجتماعية، ولكن السنن لا يمكن أن تتحرك في الفراغ، وبعيدا عن تدبير الخالق وهيمنته، وهذا البلاغ الإلهي يضع حدًّا لمشكلة عميقة هي تفسير ظواهر الخلق تفسيراً ماديًّا محضاً دون التوغل إلى خلفياتها المتصلة بسلوك البشر، الأمر الذي يصرفه عن العبرة والتذكرة.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صوتاً هائلاً صاعقاً، ربما يشبه انفجار القنبلة الذرية في العصر الحاضر أو أعظم فعن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «فَلَمَّا كَانَ نِصْفُ اللَّيْلِ أَتَاهُمْ جَبْرَئِيلُ عليه السلام فَصَرَخَ بِهِمْ صَرْخَةً خَرَقَتْ تِلْكَ الصَّرْخَةُ أَسْمَاعَهُمْ وَفَلَقَتْ قُلُوبَهُمْ وَصَدَعَتْ أَكْبَادَهُمْ، وَقَدْ كَانُوا فِي تِلْكَ الثَّلاثَةِ الأَيَّامِ قَدْ تَحَنَّطُوا وَتَكَفَّنُوا وَعَلِمُوا أَنَّ العَذَابَ نَازِلٌ بِهِمْ، فَمَاتُوا أَجْمَعُونَ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ نَاعِقَةٌ وَلا رَاغِيَةٌ وَلا شَيْءٌ إِلَّا أَهْلَكَهُ اللهُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ وَمَضَاجِعِهِمْ مَوْتَى أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَعَ الصَّيْحَةِ النَّارَ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُمْ أَجْمَعِينَ»[1] لكيلا يبقى لهم أثر في الحياة، وتحدث الله بضمير الجمع ﴿إِنَّا﴾ الدال على التعظيم والتكبر لأن المقام مقام عزة الله وسلطانه.

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ وهو بقايا العلف والحشائش والأعواد اليابسة التي تتراكم في حظيرة الماشية، وتبقى وتهشمها بأظلافها وحوافرها، وحيث لا تجد طريقا للخروج منها تظل تدوسها بكثافة. وقد ذكرت معاني أخر للهشيم إلا أن ما ذكرنا يبدو أقرب منها.

[٣٢] هكذا كان مصيرهم وعذابهم، وما تصوره الآيات لنا عنه مجرد لقطات يحفظها القرآن لإنذار البشرية وتذكيرها عبر الزمن، ونحن لا نستطيع تصور الصيحة التي عبَّر بها الرب يومئذ عن غضبه بعقولنا المحدودة، ولا نستطيع أن نتخيل ثمود وقد تعرضوا لها، بالذات لو كنا في مجتمع القرآن الأول أيام الرسول صلى الله عليه وآله حيث لم يصنع الإنسان الأسلحة التدميرية المعاصرة، لذلك نجد القرآن يقرِّب لنا الصورة بتشبيه واقعي تستوعبه عقولنا، ويفهمه حتى ذلك البدوي الذي يقطن الصحراء، وهذا من منهج الله في تيسير كتابه المجيد.

---

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٣٨٨.

قال الإمام الصادق عليه السلام يحكي قصتهم: «هَذَا كَانَ بِمَا كَذَّبُوا صَالِحاً، وَمَا أَهْلَكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَوْماً حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ الرُّسُلَ فَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ صَالِحاً فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ فَلَمْ يُجِيبُوهُ، وَعَتَوْا عَلَيْهِ عُتُوّاً، وَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُخْرِجَ إِلَيْنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً عُشَرَاءَ[1]، وَكَانَتِ الصَّخْرَةُ يُعَظِّمُونَهَا وَيَعْبُدُونَهَا وَيُذَبِّحُونَ عِنْدَهَا فِي رَأْسِ كُلِّ سَنَةٍ، وَيَجْتَمِعُونَ عِنْدَهَا، فَقَالُوا لَهُ: إِنْ كُنْتَ كَمَا تَزْعُمُ نَبِيّاً رَسُولاً فَادْعُ لَنَا إِلَهَكَ حَتَّى يُخْرِجَ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَأَخْرَجَهَا اللهُ كَمَا طَلَبُوا مِنْهُ.

ثُمَّ أَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ أَنْ يَا صَالِحُ قُلْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ جَعَلَ لِهَذِهِ النَّاقَةِ شِرْبَ يَوْمٍ، وَلَكُمْ شِرْبَ يَوْمٍ، فَكَانَتِ النَّاقَةُ إِذَا كَانَ يَوْمُ شِرْبِهَا شَرِبَتِ الْمَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَيَحْلُبُونَهَا فَلَا يَبْقَى صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ إِلَّا شَرِبَ مِنْ لَبَنِهَا يَوْمَهُمْ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ وَأَصْبَحُوا غَدَوْا إِلَى مَائِهِمْ فَشَرِبُوا مِنْهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَمْ تَشْرَبِ النَّاقَةُ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَمَكَثُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ عَتَوْا عَلَى اللهِ وَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَقَالُوا: اعْقِرُوا هَذِهِ النَّاقَةَ وَاسْتَرِيحُوا مِنْهَا لَا نَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَنَا شِرْبُ يَوْمٍ وَلَهَا شِرْبُ يَوْمٍ، ثُمَّ قَالُوا: مَنِ الَّذِي يَلِي قَتْلَهَا وَنَجْعَلُ لَهُ جُعْلاً مَا أَحَبَّ؟، فَجَاءَهُمْ رَجُلٌ أَحْمَرُ أَشْقَرُ أَزْرَقُ وَلَدُ زِنًا لَا يُعْرَفُ لَهُ أَبٌ يُقَالُ لَهُ: قُدَارٌ، شَقِيٌّ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ مَشْؤُومٌ عَلَيْهِمْ فَجَعَلُوا لَهُ جُعْلاً، فَلَمَّا تَوَجَّهَتِ النَّاقَةُ إِلَى الْمَاءِ الَّذِي كَانَتْ تَرِدُهُ تَرَكَهَا حَتَّى شَرِبَتِ الْمَاءَ وَأَقْبَلَتْ رَاجِعَةً فَقَعَدَ لَهَا فِي طَرِيقِهَا فَضَرَبَهَا بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً، فَلَمْ تَعْمَلْ شَيْئاً فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَتَلَهَا وَخَرَّتْ إِلَى الْأَرْضِ عَلَى جَنْبِهَا، وَهَرَبَ فَصِيلُهَا حَتَّى صَعِدَ عَلَى الْجَبَلِ فَرَغَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ إِلَى السَّمَاءِ.

وَأَقْبَلَ قَوْمُ صَالِحٍ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا شَرِكَهُ فِي ضَرْبَتِهِ وَاقْتَسَمُوا لَحْمَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ إِلَّا أَكَلَ مِنْهَا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ صَالِحٌ أَقْبَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: يَا قَوْمِ مَا دَعَاكُمْ إِلَى مَا صَنَعْتُمْ أَعَصَيْتُمْ رَبَّكُمْ، فَأَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى صَالِحٍ عليه السلام: أَنَّ قَوْمَكَ قَدْ طَغَوْا وَبَغَوْا وَقَتَلُوا نَاقَةً بَعَثْتُهَا إِلَيْهِمْ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ فِيهَا ضَرَرٌ، وَكَانَ لَهُمْ أَعْظَمُ الْمَنْفَعَةِ، فَقُلْ لَهُمْ: إِنِّي مُرْسِلٌ عَلَيْكُمْ، عَذَابِي إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَإِنْ هُمْ تَابُوا وَرَجَعُوا قَبِلْتُ تَوْبَتَهُمْ وَصَدَدْتُ عَنْهُمْ، وَإِنْ هُمْ لَمْ يَتُوبُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا بَعَثْتُ عَلَيْهِمْ عَذَابِي فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ.

فَأَتَاهُمْ صَالِحٌ عليه السلام فَقَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمِ إِنِّي رَسُولُ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ، وَهُوَ يَقُولُ لَكُمْ: إِنْ أَنْتُمْ تُبْتُمْ وَرَجَعْتُمْ وَاسْتَغْفَرْتُمْ، غَفَرْتُ لَكُمْ وَتُبْتُ عَلَيْكُمْ. فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ: ذَلِكَ كَانُوا أَعْتَى مَا كَانُوا وَأَخْبَثَ.

وَقَالُوا: يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ؟. قَالَ عليه السلام: يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ تُصْبِحُونَ

---

(١) العشراء من النوق: التي مضى لحملها عشرة أشهر، أو ثمانية، أو هي كالنفساء من النساء، عشراوات وعشار، أو العشار: اسم يقع على النوق حتى ينتج بعضها، وبعضها ينتظر نتاجها. القاموس المحيط: ج٢، ص٩٠.

غداً وَوُجُوهُكُمْ مُصْفَرَّةٌ، وَالْيَوْمَ الثَّانِي وُجُوهُكُمْ مُحْمَرَّةٌ، وَالْيَوْمَ الثَّالِثَ وُجُوهُكُمْ مُسْوَدَّةٌ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ أَصْبَحُوا وَوُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةٌ، فَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَقَالُوا: قَدْ جَاءَكُمْ مَا قَالَ لَكُمْ صَالِحٌ، فَقَالَ الْعُتَاةُ مِنْهُمْ: لَا نَسْمَعُ قَوْلَ صَالِحٍ وَلَا نَقْبَلُ قَوْلَهُ، وَإِنْ كَانَ عَظِيماً، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي أَصْبَحَتْ وُجُوهُهُمْ مُحْمَرَّةً فَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالُوا: يَا قَوْمِ قَدْ جَاءَكُمْ مَا قَالَ لَكُمْ صَالِحٌ، فَقَالَ الْعُتَاةُ مِنْهُمْ: لَوْ أُهْلِكْنَا جَمِيعاً مَا سَمِعْنَا قَوْلَ صَالِحٍ وَلَا تَرَكْنَا آلِهَتَنَا الَّتِي كَانَ آبَاؤُنَا يَعْبُدُونَهَا، وَلَمْ يَتُوبُوا، وَلَمْ يَرْجِعُوا.

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ أَصْبَحُوا وَوُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ فَمَشَى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالُوا: يَا قَوْمِ أَتَاكُمْ مَا قَالَ لَكُمْ صَالِحٌ. فَقَالَ الْعُتَاةُ مِنْهُمْ: قَدْ أَتَانَا مَا قَالَ لَنَا صَالِحٌ، فَلَمَّا كَانَ نِصْفُ اللَّيْلِ أَتَاهُمْ جَبْرَئِيلُ عليه السلام فَصَرَخَ بِهِمْ صَرْخَةً خَرَقَتْ تِلْكَ الصَّرْخَةُ أَسْمَاعَهُمْ، وَفَلَقَتْ قُلُوبَهُمْ وَصَدَعَتْ أَكْبَادَهُمْ.

وَقَدْ كَانُوا فِي تِلْكَ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ قَدْ تَحَنَّطُوا وَ تَكَفَّنُوا وَ عَلِمُوا أَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِهِمْ فَمَاتُوا أَجْمَعِينَ [أَجْمَعُونَ] فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ صَغِيرُهُمْ وَ كَبِيرُهُمْ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ نَاعِيَةٌ وَلَا رَاغِيَةٌ وَلَا شَيْءٌ إِلَّا أَهْلَكَهُ اللهُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ وَمَضَاجِعِهِمْ مَوْتَى أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَعَ الصَّيْحَةِ النَّارَ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُمْ أَجْمَعِينَ وَكَانَتْ هَذِهِ قِصَّتَهُمْ»(١).

وهي وسابقاتها وما يليها من القصص وإن تضمنت الكثير من الأفكار إلا أنها تدور حول فكرة محورية بهدف تيسيرها وتقريبنا منها.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هكذا يكرر الذكر الحكيم آياته وعبره، ولعلنا نتنبه من الجهل والضلال والغفلة، ولكنه بالرغم من ذلك لا زال غريبا مهجورا في واقعنا بجميع أبعاده، فنحن لا زلنا بعيدين عن دعوته للوحدة والعمل، والاستقامة على الحق، ومحاربة الجبت والطاغوت، والاتعاظ بالنذر السالفة.

[٣٣] ومع ذلك ما يبرح يتابع إلينا سورة فسورة، وآية فآية، ومثلا فمثلا، فهذه آياته وقد انتهت من عرض قصة ثمود، تضرب لنا مثلا آخر عن عاقبة التكذيب بقصة قوم لوط، الذين تورطوا أخلاقيًّا في الشذوذ الجنسي، وصاروا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فحذرهم نبيهم عليه السلام من هذا الانحراف عن طاعة الله وسنن الحياة، ولكنهم لم يعتبروا بمصير الماضين ولا بنصح لوط عليه السلام، بل راحوا يكذّبونه، ويريدون به الشر والأذى، رغم النذر الظاهرة.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ قيل: أنهم من النذر الذين أرادوا الفاحشة بضيف لوط من

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٣٩٢.

الملائكة «فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ جَبْرَئِيلُ بِيَدِهِ فَرَجَعُوا عُمْيَاناً يَلْتَمِسُونَ الجِدَارَ بِأَيْدِيهِم»(١). إلا أن القوم لم يتعظوا بهم، بل أصروا على فسادهم، وتمادوا في التكذيب، ولعل بعضهم راح يؤول عماهم إلى أسباب أخرى، فهم كما وصفهم في أول السورة: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢].

[٣٤-٣٥] بلى؛ إنهم كذبوا فما أمهلهم الله، بل أرسل عليهم ريحا محشوة بالحجارة الصغيرة في بادئ الأمر، لتكون آخر النذر وعلامة إلى لوط والمؤمنين معه بقرب العذاب، وربما كان ذلك أواخر الليل، أما العذاب الحقيقي فقد أخَّره إلى الصباح ريثما يخرجون.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ولكن بقيت العناية الإلهية تحفظ المؤمنين وترعاهم، حيث أمر الله لوطا عليه السلام والمؤمنين بالخروج من القرية الظالم أهلها ليكونوا في مأمن من العذاب: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١]، فارتحلوا منها، وهذا يدل على أن العملية كانت تجري بإشراف إلهي مباشر لا صدفة، فحتى خروجهم لم يكن بسبب الإرهاصات الطبيعية للعذاب، بل كان بأمر نزل من الله، ولولاه لربما كانوا يبقون، لذلك يؤكد القرآن أن الله هو الذي أنجاهم وأنقذهم ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ يعني نهايات الليل وبدايات الصباح، ولا يكتفي الوحي بذلك بل يضيف أن النجاة كانت نعمة إلهية، وليست نتيجة حالة بشرية أو صدفة ﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ولكنها مرتبطة بواقع بشري هو الشكر. إنها مرت بدورة متكاملة: إيمان + عمل وشكر صاعد من قبل الإنسان + الإرادة الإلهية بالتوفيق = النعمة النازلة من الله للإنسان، وربنا لا يخصص هذه الدورة بشخص لوط عليه السلام بل يخلص من ذكر الخاص إلى العام ومن الشاهد إلى السنة ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ أيا كان، وفي أي مكان وزمان.

[٣٦-٣٧] ويعود القرآن إلى التأكيد على أن العذاب مر بدورة متكاملة: انحراف بشري + نذر إلهية + تكذيب بشري وإصرار على الانحراف = العذاب من عند الله (النقمة في مقابل النعمة)، إن لوطا شخَّص الانحراف الاجتماعي، وسعى جاهدا إلى التغيير والإصلاح، فأنذر قومه من عواقب ضلالهم وأنه يؤدي بهم إلى الانتقام الشديد الذي لا قِبَلَ لهم به من عند ربهم ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ وبدل أن يفكروا في النذر ويتعظوا بها صاروا يتمارون، والتماري كما يبدو هو الشك الذي يتحول إلى تشكيك اجتماعي، وقوم لوط لم يكتفوا بتكذيبهم، بل صار الواحد يُدخل الشك إلى الآخر لكي يمعنه من الإيمان بالنذر البالغة، وسُمّي الجدال مراء لأن أطرافه يُشْكِلُ الواحد على الآخر بقصد رد حجته وإبطالها.

(١) بحار الأنوار: ج ١٢، ص١٦٠.

﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ فكانوا يدافعون عن ضلالهم وباطلهم في مقابل الحق، استهزاء وجحودا، ويسعون إلى تغلب أفكارهم وباطلهم عن الحق المبين في أذهان بعضهم، وذلك بصرف الآيات وتأويلها إلى غير مضامينها، وهذا منهج المكذبين عبر التاريخ، فهاهم قوم عاد يدعوهم هود إلى الإيمان، فإذا بهم يصرون على باطلهم إلى آخر لحظة: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥]، وإلى مثل هذا انتهى انحراف قوم لوط وتكذيبهم ومراؤهم، فلقد أرسل الله إلى نبيه الملائكة ومن بينهم جبرائيل عليه السلام، ولكنه أنزلهم في صورة جميلة لتبدأ البطشة من محاولة الاعتداء عليهم فيتأكد للقوم أن هلاكهم كان نتيجة لذلك الانحراف الذي حذرهم من عواقبه لوط عليه السلام، وأنهم يأخذون بالجرم المشهود.

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ يريدون بهم الفاحشة: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۝٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ [هود: ٧٨-٨٠]، إنه حاول إصلاحهم في بادئ الأمر بتوجيههم إلى الجنس الآخر علاجا لانحرافهم، ورفعا للحرج مع الضيوف، ثم هددهم باستخدام القوة «**فَصَاحَ بِهِ جَبْرَئِيلُ فَقَالَ يَا لُوطُ دَعْهُمْ يَدْخُلُوا فَلَمَّا دَخَلُوا أَهْوَى جَبْرَئِيلُ عليه السلام بِإِصْبَعِهِ نَحْوَهُمْ فَذَهَبَتْ أَعْيُنُهُمْ**»[1].

﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ قيل: إن الطمس هو حجب البصر مع وجود العين على طبيعتها، وقيل: إنه القلع والمسح، والذي يبدو أنه ذهاب الرؤية مع ضمور المعالم الظاهرية للعين، وعندما أنزل الله بهم العذاب ربما رفع قدرتهم على الإحساس إلى أقصاها تفاعلاً ووعيًا زيادة في العذاب، إذ لا قيمة لعذاب لا يتذوقه صاحبه.

[٣٨-٤٠] كان ذلك (طمس الأعين) عذاباً مؤقتاً، أما العذاب الأدهى والمستمر، الذي يتصل بالعذاب المقيم في الآخرة، فقد ابتدرهم أول الصباح ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ لقد كان عذاباً مستقراً لا يجدون منه فكاكاً لا في دنياهم ولا في الآخرة.

ويبدو أن كلمة ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ تفسير لقوله سبحانه في فاتحة السورة: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾، ومعناها أن عذاب أولئك القوم كان من السنن الثابتة والمستقرة في الحياة، ونجد

---

(١) الكافي: ج٥، ص٥٤٦٠، تفسير العياشي: ج٢، ص١٥٥.

تفصيلا للعذاب، وبيانا لهذه الفكرة، في موضع آخر من القرآن، إذ يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]، لأن العذاب لم يكن خارقا لسنن الحياة، ولا عرضا طرأ عليها، بل هو جزء منها ومظهر لها، وهي مستقرة لا تحويل لها ولا تبديل إلى يوم القيامة، وقد أذاقهم الله هذا العذاب كما أذاقهم عذاب الطمس.

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هكذا يصرخ فينا القرآن يدعونا إلى مأدبة الله، ويعيد هذه الدعوة بصيغة أخرى فيقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. إن القرآن ذاته مُيسَّر للذكر والتدبر، ولكن قلوبنا هي المعقدة، إنه يفتح لنا أبواب العلم والإيمان، وتغلق قلوبنا عنه بالذنوب والأفكار المتخلفة. أرأيت كيف يرفع البعض دعوة تضاد دعوة الله، وتصد عن كتابه؟! إنهم يقولون: لا يجوز لأحد أن يتدبر في القرآن، ولا يفسره، ويبررون ذلك بالحساسيات المفرطة المتزمتة، وبأنه معقد لا يفهمه إلا المجتهدون والفقهاء، ولكن القرآن جاء ليرد هذه الفكرة ويهدينا للتي هي أقوم بنص قرآني ظاهر لا يقبل التأويل ولا الاجتهاد.

إنَّا كل شيء خلقناهُ بقدرٍ

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ(١) فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ(٢) وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ(٣) (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ(٤) (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ(٥) (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير يذكرنا الوحي بأهم عبرة فيها، والتي يسّرها الله بقصص واقعية من تاريخ البشرية، ابتداء من قوم نوح وانتهاء بآل فرعون، وهي عاقبة السوء للذين يعرضون عن آيات الله ونذره، ويكذبون برسالته ورسله، لأنهم حينئذ يسيرون بعكس آلاف القوانين والسنن في الحياة، ولأنهم -وهو الأهم- يخالفون الحق، ويعصون رب العزة سبحانه، مؤكدا أن ما لحق

(١) براءة: أي براءة من العذاب.

(٢) أدهى: الأدهى الأعظم في الدهاء، والدهاء عظم سبب الضرر مع شدة إنزعاج النفس، وهو من الداهية أي البلية التي ليس في إزالتها حيلة.

(٣) سقر. جهنم، وقيل: عَلَم على جهنم، وأصل السقر التلويح، يقال: سقرته الشمس وصقرته إذا لوّحته.

(٤) الزبر: أي الكتب التي كتبها الحفظة.

(٥) مستطر: مسطور مكتوب.

أولئك من شديد العذاب في الدنيا بتكذيبهم ليس إلا شمَّة وضغثا بالنسبة إلى العذاب الأدهى والأمر الذي ينتظرهم في الآخرة، حيث تدق أجراس بدئه ساعة البعث والحساب.

وبعد أن يضع الذكر الحكيم لوحة من مشاهد الآخرة والعذاب أمام قلوبنا وأعيننا يؤكد لنا حقيقة هامة، هي أن الدنيا بُنيت بكل مفرداتها من الذرة حتى المجرَّة وأصغر من ذلك وأكبر على أساس من السنن والمقاييس والقوانين الحكيمة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ الآية (٤٩)، وبالتالي يجب على الإنسان أن يكيِّف نفسه وحياته وعلاقاته بكل شيء فيها على هذا الأساس، أما إذا انتظر أو سعى لتسيير الحياة من حوله بسنتها ومقاديرها وخلقها وفق هواه فلن يستطيع إلى ذلك سبيلا، لأنها ثابتة وأقوى منه، بل وسيخسر إلى الأبد.

فلا يظن الإنسان إذن أنه يتحرك في الفراغ، كلا.. إن حوله ملايين الأنظمة التي تُحصي عليه أخطاءه وأفعاله وأقواله، وحتى نياته مسجلة عليه تسجيلا دقيقا، ولهذا يقول الله عز وجل مبيِّناً حال المجرمين حين يرون كتبهم في يوم القيامة: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَنهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وبعد الحساب يلقون جزاءهم إذ يسحبون في النار على الوجوه، أما المتقون فيعطون كتابهم بيمينهم، أما جزاؤهم فجنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

بينات من الآيات:

[٤١-٤٢] كما جعل الله للساعة علامات ونُذُراً تُؤذِنُ باقترابها كانشقاق القمر، فإنه تعالى أخذ على نفسه ألَّا يعذب أمة ولا شخصا قبل إقامة الحجة البالغة عليه، وقبل أن يُقدِّم له من الأنبياء ونُذُر البطش ما فيه مزدجر له وهداية لمن أراد ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ويضع القرآن شاهدا لهذه الحقيقة أمام ضمائرنا وعقولنا هذه المرة من واقع فرعون وقومه الذين أُغرقوا في اليم، إنهم ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا، إذ اعتمدوا نظاماً سياسياً ينطلق من عبادة شخص فرعون، وينتهج الإفساد والإرهاب والقتل والتضليل، وكانت هذه الأسباب كافية لأن يمحقهم الله، أترى أعظم جرما عند الله من بشر يقول: أنا ربكم الأعلى؟! كلا.. ولكنه أمهلهم، وأراد لهم الرحمة التي خلقهم من أجلها، فتابع عليهم الآيات والنذر بلسان موسى وعلى يديه ومن خلال الطبيعة، بما أبطل به سحرهم ومعتقداتهم الواهية، وأقام عليهم الحجة البالغة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ إن الله لم يتركهم حتى يؤمنوا بأنفسهم، بل ابتدرهم بالهدى الذي بلغ فرداً فرداً منهم يوم الزينة، ولم يكتف الله بنذير واحد وهو يكفي حجة عليهم، إنما جاءهم بنذر كثيرة بيِّنة، كان من بينها تسع آيات إلى فرعون وقومه، ولكنهم كما يصفهم القرآن: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ لا لغموض فيها فقد كانت مبصرة، بل لمرض في قلوبهم، ولو أنك بحثت في أعماق نفوسهم لرأيت سلطان الآيات مهيمنا عليها، ويعلم الله كم تجرعوا من وخز الضمير الذي يدعوهم للإيمان وهم يصدون عن الحق المبين. إنهم ما كانوا يقدرون على التكذيب مجردا أمام ذلك الوخز لذلك لجؤوا إلى التبرير، وهذه من طبيعة الإنسان حينما يخالف الحق بالرغم من استيقانه به: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣-١٤]، فكانوا عند الله يستحقون أشد العذاب، وكذلك فعل بهم ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يقبل الجور على الحق ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يشكو ضعفاً ولا قصوراً، وهذا ما جعل عذابهم قاسياً، فمرة يكون العزيز غير مقتدر فهو لا يستطيع أن يحيل عزته فعلا، ومرة يكون المقتدر غير عزيز فهو لا يغضب لحرمة قيمه، وإذا أخذ المخالف له فإن أخذه يكون محدودا.

هكذا وبهاتين الآيتين القصيرتين في كلماتهما العميقتين في معناهما يوجز ربنا قصة قوم لا زالت آثارهم ظاهرة ومثيرة للعجب، في وقتٍ يحتاج الحديث فيها إلى مئات أو آلاف الصفحات، بل القرآن أراد نفسه تناولها في صفحات وآيات عديدة في مواضع أخرى، والسبب أن القرآن أراد من ذلك التأكيد على السنة الواحدة التي أجراها على كل الأمم وفي مختلف الأمصار بصور شتى، لكي نعتبر بها، ونبصر عواقب التكذيب بالحق أنى كان، وقد اكتفى السياق بإيجاز قصة فرعون التي فصَّلها في مختلف السور، والتي من المفروض أن يعرفها من يتلو الذكر، وذلك عبر آيتين تعكسان إعجاز القرآن البلاغي.

[٤٣-٤٥] ومن شواهد عاقبة المكذبين في أغوار التاريخ، ينتقل بنا السياق إلى الحديث عن المجتمع المعاصر للرسالة الإسلامية وموقفهم من الرسالة، بما هو تأويل لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وقوله بلسان رسوله شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]؟ إن القصة القرآنية لا تأت للتسلية، إنما لتكشف للإنسان عن سنن الحياة من حوله، فتعطيه تارة إشارة خضراء ترغِّبه وتشوِّقه، وتضع بين يديه إشارة حمراء تنذره وترهبه تارة أخرى، وهو بين هذه وتلك يجب أن يشق طريقه نحو الحق والسعادة، أما إذا تفرج على وقائع التاريخ ومواعظه، أو استبعد عن نفسه الجزاء بفكرة تبريرية كالعنصرية والفداء، أو بالاعتماد على غرور النفس وظنونها وأهوائها، فسوف يجد نفسه وجها لوجه أمام

مصير الماضين ممن سبقوه بالتكذيب في الدنيا والآخرة، ولن تغيّر تمنياته وظنونه من الواقع شيئا: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

كيف يكذّب الآخرون بالرسالة وهم يبصرون ما نزل بالغابرين عندما كذبوا بها؟! إنهم يستبعدون حلول العذاب بهم اعتمادا على واحد من أمرين:

أولاً: الثقافة التبريرية، وأبرز مفرداتها على صعيد التكذيب بالرسالات العنصرية ونظرية الفداء، ذلك أن الإنسان حينما يكذّب حقًّا ما ويرفضه يبحث داخليًّا أمام ضميره، وخارجيًّا أمام الآخرين، عن عذر يبرر له موقفه، ويستمد منه الشرعية لممارسة الخطأ أو الإصرار عليه.

وربنا ينسف هذه الثقافة فيقول -مخاطبا المعاصرين للإسلام-: لماذا تستثنون أنفسكم من العذاب الذي حل بتلك الأقوام؟.

﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ بعنصرهم وأعمالهم حتى لا ينالهم العذاب؟!.

﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أم هم يملكون كتابا من عند الله يبرّئهم من سوء أعمالهم؟!.

كلا.. فالتكذيب هو التكذيب سواء صدر من أولئك أم منكم، والسنن الإلهية واحدة على مر الزمن لا تتحول ولا تتبدل، وليس عند الله قرابة مع خلقه، ولو كان نبيًّا مرسلاً أو مَلَكاً مقرَّباً، ولا ينفع إلا العمل الصالح، كما لم تسبق منه كلمة على لسان نبي ولا رسول وفي كتاب من كتبه المنزلة بزكاة أحد أبدا، حتى يتحصن بها ضد العذاب، والضلال الذي عليه كفار المجتمع أيام رسول الله ﷺ ليس بأقل من ضلال أولئك، بل هو أسوأ وأبعد.

وإذا كانت ثمة براءة لأحد من كتب الله فهو ورسوله أعلم بها، والحال أنها ينفيانها.

بلى؛ حاول النصارى تبرير انحرافهم بفكرة الفداء، ولكنهم أضافوا انحرافا جديدا إلى مسيرتهم الضالة إذ أصبحوا بها كفارا عند الله، وهكذا زعموا هم واليهود أنهم لا يعذبون مهما مارسوا من الذنوب، لأن عنصرهم يتصل بالله وينتمي إليه، ولكن القرآن رد عليهم هذه المزاعم ردا عنيفا وحازما، فقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٧-١٨]، وانطلاقا

من هذه الثقافة الضالة صاروا يبررون لأنفسهم الخيانة والغدر ومختلف الذنوب، فإذا بهم لا يقيمون وزنا لعهودهم وإيمانهم مع الشعوب الأخرى على أساس أنهم أميون، ولا حرج عليهم إذا نكثوا بهم أو خانوهم: ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولكن الله أبطل هذا التبرير فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

ثانياً: الاغترار بالقوة.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ هل يُعرضون عن الآيات، ويكذبون الحق، ويتبعون أهواءهم، ثم يتحدون سنن الحياة، اعتمادا على جمعهم وقوتهم؟! وما عسى أن تكون قوتهم وجمعهم بالنسبة إلى الأمم السابقة؟!.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ -كل واحد منهم- أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦]، ثم ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

ويؤكد الله لأولئك الذين اعتمدوا على عدتهم وعددهم أن المستقبل كفيل بالكشف عن مدى ضلالتهم في الاعتماد عليها، حيث يُهزمون، وتبطل تبريراتهم ومزاعمهم أن العذاب لا يطالهم ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وقد رأينا كيف أنزل الله عذابه بهم على أيدي المؤمنين في مواطن كثيرة، وأظهر رسوله ودينه عليهم بالرغم منهم، وبالرغم من أنهم كانوا في موقعة كبدر أكثر جمعا وعدة من المسلمين بثلاثة أضعاف أو أكثر!.

[٤٦] ومع ذلك فإن الأدهى من هزيمتهم وعذابهم في الدنيا ما ينالهم من العذاب في الآخرة ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ إنها أكثر رُعْباً في مظهر عذابها وأساليبه، وأعمق ألما ومرارة على أبدانهم ونفوسهم.

ونستلهم من هذه الآية أنه حتى إذا كان عذاب الاستئصال مرفوعا عن أمة محمد ﷺ ببركته ودعائه، فإنه لا ينبغي أن نجعل هذه الفكرة مبررا لنا لاقتحام الذنوب، فإن من ورائنا الساعة في الآخرة، وتهددنا في الدنيا ألوان من العذاب التي لا تقل ألما عن الاستئصال، كالتخلف، والتفرقة، وتسلط الظلمة، والصراعات الداخلية، و.. و.. أترى هزيمة الأمة أمام أعدائها في الدنيا أمراً هيّناً؟! كلا.. لأنها تفقد بذلك الكثير الكثير.

[٤٧-٤٨] ويعود القرآن مؤكداً أن تلك المزاعم: الأفضلية على الآخرين، والبراءة من

العذاب، والاغترار بالنفس، باطل، وإنما تدل على مدى ضلال أصحابها وعذابهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ وقد سماهم الله بالمجرمين لأن تلك المزاعم لاشك سوف تقودهم إلى التوغل في الجريمة، والسُّعُر قد يكون الجنون أو النار، وهما من ألوان العذاب التي يؤدي إليها الضلال في الدنيا والآخرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ وهنا إشارة إلى نوعين من العذاب: أحدهما المادي حيث يسحبون نكاية بهم، والسحب وحده يعتبر عذابا للإنسان، فكيف إذا كان على الوجوه أكرم مناطق الجسم، وأكثرها حساسية، وفي أعظم أودية جهنم عذابا وهو سقر؟! الذي قال الإمام الصادق عليه السلام عنه:

- «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادِياً لِلْمُتَكَبِّرِينَ يُقَالُ لَهُ سَقَرُ شَكَا إِلَى الله عَزَّ وجَلَّ شِدَّةَ حَرِّهِ وسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ فَتَنَفَّسَ فَأَحْرَقَ جَهَنَّمَ»(١).

- «إِنَّ فِي سَقَرَ لَجُبّاً يُقَالُ لَهُ هَبْهَبُ كُلَّمَا كُشِفَ غِطَاءُ ذَلِكَ الْجُبِّ ضَجَّ أَهْلُ النَّارِ مِنْ حَرِّهِ، ذَلِكَ مَنَازِلُ الْجَبَّارِينَ»(٢).

والآخر العذاب المعنوي الذي يفوق في بعض حالاته عذاب الجسم، فهناك تتلقاهم زبانية جهنم قائلة: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٩-٥٠].

ولعلنا نفهم من المس أن النار لا تحرق كل أبدانهم، بل تحرق جلودهم التي فيها تتركز أعصاب الإحساس عند الإنسان، مما يجعل العذاب أكثر ألما، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

[٤٩] وهذا العذاب لا شك ليس اعتباطيًا وبلا حكمة، كلا.. فهو كسائر مفردات الوجود مقنن مقدر من قبل الله، فلو أننا كُشف لنا الغطاء لرأينا أن العمل السيئ الذي نقوم به هو نفسه الجزاء الذي نلقاه.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ عن يونس بن عبدالرحمن قال؛ قال لي أبوالحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: «يَا يُونُسُ لَا تَقُلْ بِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ فَإِنَّ الْقَدَرِيَّةَ لَمْ يَقُولُوا بِقَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَا بِقَوْلِ أَهْلِ النَّارِ، وَلَا بِقَوْلِ إِبْلِيسَ، فَإِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ قَالُوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا

(١) الكافي: ج٢ ص٣١٠.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٥ ص٣٨١.

كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ ﴾، وَقَالَ أَهْلُ النَّارِ: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾. وَقَالَ إِبْلِيسُ ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾. فَقُلْتُ وَاللهِ مَا أَقُولُ بِقَوْلِهِمْ، وَلَكِنِّي أَقُولُ: لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَا شَاءَ اللهُ وَأَرَادَ وَقَدَّرَ وَقَضَى. فَقَالَ عليه السلام: يَا يُونُسُ لَيْسَ هَكَذَا، لَا يَكُونُ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَأَرَادَ وَقَدَّرَ وَقَضَى، يَا يُونُسُ تَعْلَمُ مَا المَشِيئَةُ؟. قُلْتُ: لَا. قَالَ عليه السلام: هِيَ الذِّكْرُ الأَوَّلُ. فَتَعْلَمُ مَا الإِرَادَةُ؟. قُلْتُ: لَا. قَالَ عليه السلام: هِيَ العَزِيمَةُ عَلَى مَا يَشَاءُ. فَتَعْلَمُ مَا القَدَرُ؟. قُلْتُ: لَا. قَالَ عليه السلام: هِيَ الهَنْدَسَةُ وَوَضْعُ الحُدُودِ مِنَ البَقَاءِ وَالفَنَاءِ. قَالَ ثُمَّ قَالَ عليه السلام: وَالقَضَاءُ هُوَ الإِبْرَامُ وَإِقَامَةُ العَيْنِ. قَالَ فَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أُقَبِّلَ رَأْسَهُ وَقُلْتُ: فَتَحْتَ لِي شَيْئاً كُنْتُ عَنْهُ فِي غَفْلَةٍ»[1].

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام: أنه قال «مَسَاكِينُ القَدَرِيَّةِ أَرَادُوا أَنْ يَصِفُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِعَدْلِهِ فَأَخْرَجُوهُ مِنْ قُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ»[2]. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي القَدَرِيَّةِ...»[3]. يبدو من عدة روايات إنها تتضمن ردًّا على القدرية الذين نفوا تقديرات الله، وفيهم نزلت هذه الآية، وقد استدل البعض بهذه الآية على أن أعمال الإنسان هي الأخرى مقدرة فزعم أنها تدل على الجبر، والصحيح أن كل شيء مقدَّر من قبل الله، ومن تقديراته الاختيار الذي وهبه للإنسان.

والذي يظهر أن الآية تثبت أكثر من أية فكرة أخرى حكمة الله في الحياة، التي تهدينا معرفتها إلى الإيمان بالمسؤولية، والدار الآخرة أعظم تجلياتها، حيث يحاسب الناس على سعيهم، ويلقون جزاءهم الأوفى خيراً أو شراً، جنةً أو ناراً.

وفي كتاب (الله والعلم الحديث) يضرب المؤلف[4] أمثلة للحكمة الإلهية فيقول: «إن الجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد، لأنها قليلة البيض، قليلة التفريخ، فضلا على أنها لا تعيش إلا في مواطن خاصة محدودة، وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار، ولو كانت مع عمرها الطويل كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة في كل موطن لقضت على صغار الطيور، وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها، أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بني الإنسان، وللقيام بأدوارها الأخرى ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض.

بغاث الطير أكثرها فراخا … وأم الصقر مُقلّات نزور

(١) أصول الكافي: ج١، ١٥٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص٥٤.
(٣) بحار الأنوار: ج٥، ص١١٨.
(٤) عبد الرزاق التوفل.

وذلك للحكمة التي قدرها الله كما رأينا، كي تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث!».

ويستطرد قائلا: «والذبابة تبيض ملايين البويضات، ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين، ولو كانت تعيش بضعة أعوام تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه، ولغدت حياة كثير من الأجناس وأولها الإنسان مستحيلة على وجه هذه الأرض، ولكن عجلة التوازن التي لا تختل في يد القدرة التي تدبر هذا الكون أوزنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذي نراه!.

والميكروبات -وهي أكثر الأحياء عدداً، وأسرعها تكاثراً، وأشدها فتكاً- هي كذلك أضعف الأحياء مقاومة، وأقصرها عمرا، تموت بملايين الملايين من البرد ومن الحر، ومن الضوء، ومن أحماض المعدات، ومن أمصال الدم، ومن عوامل أخرى كثيرة، ولا تتغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان، ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء!».

ويستعرض مثلاً من واقع الإنسان فيقول: «والثدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلا أبيض مائلا إلى الاصفرار، ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيميائية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض، وفي اليوم الثاني للميلاد يبدأ اللبن في التكوين، ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوما بعد يوم، حتى يصل إلى حوالي لتر ونصف في اليوم بعد سنة، بينما لا تزيد كميته في الأيام الأولى على بضع أوقيات، ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التي تزيد حسب زيادة الطفل، بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوناته، وتتركز مواده، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات في أول الأمر، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى، بل يوما بعد يوم، بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو».

هكذا قدَّر الله شؤون الحياة والخلق، وهكذا تتجلى حكمته في كل شيء، ونحن يجب أن نهتدي إلى ما غاب عنا بما نراه ونشاهده، كما نستدل على وجود التيار الكهربائي بالمصباح والمروحة، ينبغي أن نهتدي إلى الآخرة بالحكمة الربانية الظاهرة في الدنيا، وحتى في الدنيا نفسها يجب أن نؤمن بالسنن الحاكمة فيها، ونكيِّف أنفسنا وفقها، فالذي يصلي من دون خشوع وإخلاص لا تقبل صلاته، والذي يتصدق من دون تقوى تبطل صدقته، وهكذا الذي يُعرض عن آيات الله ويكذِّب برسالاته ويتبع الهوى فإنه يلقى العذاب في الدنيا والآخرة، مهما زعم وتمنى بأنه لا يعذَّب أو أنه قادر على الانتصار على سنن الله في الحياة.

[٥٠-٥١] وفوق تلك الأقدار والسنن تبقى لله المشيئة العليا والإرادة المطلقة يهيمن بها على كل شيء، ويخرق بها القدر أو ينفذه متى شاء في أسرع من طرفة العين ولمح البصر، فلا يجوز للإنسان إذن أن يعبد السنن، إنما يجب عليه عبادة ربها.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ سواء كان هذا الأمر مما يختص بشؤون الدنيا أو الآخرة، والأشياء كلها تستجيب لأمر الله بمجرد نزوله من عنده دون تردد أو إقناع، فلا يحتاج تعالى إلى تكرار الأمر أبدا، ولعل ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ إشارة إلى وحدة زمنية، كما نقول نحن لحظة أو جزء من الثانية، بل فوق الزمن إذا نسب الأمر إلى الله، وحيث لا نستوعب نحن المسافة بين أمر الله ونفاذه، ولا حتى أحدث الوسائل العلمية الحاسوبية، فإنه تعالى قرب لنا المعنى مشبها بقوله: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي كما لو أغمض بشر عينه ثم فتحها ليلمح شيئا ما، واللمح هو النظرة السريعة الخاطفة، ولعل تقدير الزمن إنما هو من جانب المخلوق، فهو بحاجة إلى زمن حتى يتحقق فيه أمر الله، أما جانب الخالق فلا يُتصور زمن مديد أو قصير تعالى ربنا عن أوصاف المخلوقين.

نعم في مثل هذا الزمن المحدود ينفذ أمر الله لو أراد إهلاككم أيها الكافرون المكذبون، دون أن يمنعه مانع، والتاريخ شاهد على هذه الحقيقة، وقد قدَّم القرآن في آياته السابقة قوم نوح وعاد وثمود ولوط مثلا لها، ولا زال يؤكد ذلك للكافرين فيقول:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾ نظائركم وأشباهكم، وربما أراد القرآن بذلك الذين عاصروهم ممن أهلكوا لا الذين من قبلهم وحسب، وربنا قادر على أن يفعل بهم ذلك، ولكنه برحمته ولطفه يقدم النذر على العذاب والتذكرة على الجزاء، ويدعوهم إلى الإيمان، لأنه خلق البشر ليرحمهم وليربحوا عليه لا للشقاء والنقمة، لذلك يهتف بهم كتابه الكريم: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقد كرر ربنا هذا المقطع بعد قوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾، فكما يجب على الإنسان أن يتعظ بالقرآن ويتذكر بآياته كذلك يجب عليه أن يستنصح التاريخ، ويعتبر بأمثاله وقصصه، فإذا وجد نظائره وقد أُهلكوا فلا يمنّي نفسه بالنجاة. أترى لو ذهب شخص إلى الطبيب، وشخَّص فيه مرضا مات به آخرون قبله، أيمنّي نفسه بالحياة؟!.

[٥٢-٥٣] وحينما أهلك أولئك لم ينته حسابهم وجزاؤهم، بل سُجّلت أعمالهم ليلاقوا جزاءهم الأوفى في الآخرة ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي الكتب، ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]، وقد فسَّر البعض هذه الآية بما يخدم مذهبه الجبري زاعما أن كل أفعال الإنسان مكتوبة سلفا عليه في الزبر، وهذا التفسير لا يتناسب والسياق، كما

لا يتناسب وما نعرفه من حرية الإنسان في حدود قدر الله وقضائه.

ويؤكد القرآن أنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ يجدونه في سطور ذلك الكتاب.

وهاتان الآيتان تهديانا إلى فكرة المسؤولية، وأن الإنسان هو الذي يرسم مستقبله بنفسه من خلال أفعاله صغيرها وكبيرها، وما دامت الأعمال لا تذهب إلى الفراغ، بل تكتب له أو عليه عند الله، ومادام مستقبله الأخروي الأبدي مرتكز على حياته هنا، فحري به إذن أن يتحمل الأمانة بصدق وقوة.

[٥٤-٥٥] ويختم الله هذه السورة التي تلاحقت فيها النذر المخوفة بالترغيب، لكيلا ينتهي التخويف إلى اليأس، بل يبقى الإنسان متوازنا يتحرك باتجاه الحق بين الخوف من العذاب ورجاء الرضا والإثابة، فيحدثنا عن عاقبة المتقين في مقابل عاقبة المكذبين فيقول:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أي الأنهار، وقال بعض المفسرين: إنه المكان الواسع، وهو بعيد، وقوله ﴿فِي﴾ يدل على دوام النعيم وخلودهم فيه، وذلك مما يميز نعيم الآخرة من الدنيا المحدودة.

وإلى جانب النعم المادية هناك النعم المعنوية، وأعظمها وأهمها رضا الله عز وجل الذي يناله المتقون ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ ويدل المقعد على الدوام والثبات، فهم لا يزحزحون عن النعيم، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٩]، كما تدل كلمة ﴿صِدْقٍ﴾ على أنهم استحقوا الجلوس في ذلك المقعد بعملهم وإيمانهم بعد توفيق الله، فلأن عملهم كان صادقا مخلصا استحقوا مقعد الصدق، ولكن عند مَنْ؟.

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ حيث النظر إلى نور الرب، وهذا بدوره يكمل النعيم، بل هو النعمة الكبرى! وما الجنان والنَّهَر وسائر النعم الأخرى إلا مظهر لمقعد الصدق، وهذان النوعان من النعم (الجنات والنهر، وحب الله وجواره) يلبيان تطلعات المؤمن المادية والمعنوية إلى أقصاهما.

والمليك هو مالك الأشياء المهيمن عليها، ولكن قد يوجد من هو أقوى منه، إلا أن ذلك ينتفي بإضافة ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾، وفي هاتين الصفتين ضمان للمؤمنين بأن ما يوعدون واقع حاصل، لأن الذي يعدهم يملك ما وعدهم، ويقدر على تحقيقه فهو لا يمنعه مانع، كقدرته على إنزال العذاب بالمكذبين، بلى؛ إن المؤمنين يتطلعون إلى نعيم الآخرة، ولكن طموحهم الأكبر يبقى هو

جوار الله ورضاه، فهذا زين العابدين وسيد الساجدين يناجي ربه: «فَقَدِ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتِي وَانْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتِي، فَأَنْتَ لَا غَيْرُكَ مُرَادِي وَلَكَ لَا لِسِوَاكَ سَهَرِي وَسُهَادِي، وَلِقَاؤُكَ قُرَّةُ عَيْنِي وَوَصْلُكَ مُنَى نَفْسِي وَإِلَيْكَ شَوْقِي وَفِي مَحَبَّتِكَ وَلَهِي، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي وَرِضَاكَ بُغْيَتِي وَرُؤْيَتُكَ حَاجَتِي وَجِوَارُكَ طَلِبَتِي وَقُرْبُكَ غَايَةُ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ أُنْسِي وَرَاحَتِي وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عِلَّتِي وَشِفَاءُ غُلَّتِي وَبَرْدُ لَوْعَتِي وَكَشْفُ كُرْبَتِي، فَكُنْ أَنِيسِي فِي وَحْشَتِي وَمُقِيلَ عَثْرَتِي وَغَافِرَ زَلَّتِي وَقَابِلَ تَوْبَتِي وَمُجِيبَ دَعْوَتِي وَوَلِيَّ عِصْمَتِي وَمُغْنِيَ فَاقَتِي، وَلَا تَقْطَعْنِي عَنْكَ وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْكَ يَا نَعِيمِي وَجَنَّتِي وَيَا دُنْيَايَ وَآخِرَتِي»[1].

ونقرأ في دعاء كميل: «يا وَلِيَّ المُؤْمِنِينَ، يا غايَةَ آمالِ العارِفِينَ، يا غِياثَ المُسْتَغِيثِينَ، يا حَبِيبَ قُلُوبِ الصّادِقِينَ»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٩١، ص١٤٧.

(٢) مصباح الكفعمي: ص٥٥٧، من دعاء الإمام علي يقرؤه وهو ساجد وهو المعروف بدعاء كميل.



* مدنية.

* عدد آياتها: ٧٨.

* ترتيبها النزولي: ٩٧.

* ترتيبها في المصحف: ٥٥.

* نزلت بعد سورة الرعد.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «لَمَّا قَرَأَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله الرَّحْمَنَ عَلَى النَّاسِ سَكَتُوا فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئاً، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله الجِنُّ كَانُوا أَحْسَنَ جَوَاباً مِنكُمْ لَمَّا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قَالُوا: لَا وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ».

(بحار الأنوار: ج١٨، ص٧٨)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لَا تَدَعُوا قِرَاءَةَ سُورَةِ الرَّحْمَنِ والقِيَامَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَقِرُّ فِي قُلُوبِ المُنَافِقِينَ، (وَ تَأْتِي بِهَا) يَوْمَ القِيَامَةِ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وأَطْيَبِ رِيحٍ، حَتَّى تَقِفَ مِنَ الله مَوْقِفاً لَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الله مِنْهَا، فَيَقُولُ لَهَا: مَنِ الَّذِي كَانَ يَقُومُ بِكِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُدْمِنُ قِرَاءَتَكِ؟ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ فُلَانٌ وفُلَانٌ، فَتَبْيَضُّ وُجُوهُهُمْ، فَيَقُولُ لَهُمْ: اشْفَعُوا فِيمَنْ أَحْبَبْتُمْ فَيَشْفَعُونَ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ غَايَةٌ وَلَا أَحَدٌ يَشْفَعُونَ لَهُ، فَيَقُولُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الجَنَّةَ واسْكُنُوا فِيهَا حَيْثُ شِئْتُمْ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٦)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ فَقَالَ عِنْدَ كُلِّ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ لَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبِّ أُكَذِّبُ، فَإِنْ قَرَأَهَا لَيْلاً ثُمَّ مَاتَ مَاتَ شَهِيداً، وإِنْ قَرَأَهَا نَهَاراً ثُمَّ مَاتَ مَاتَ شَهِيداً».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٧٢)

***

عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الرَّحْمَنِ ليلا، يقول عند كل ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾: لَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبِّ أُكَذِّبُ، وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً إِنْ قَرَأَهَا مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ يَحْفَظُهُ حَتَّى يُصْبِحَ، وإن قرأها حِينَ يُصْبِحُ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً يَحْفَظُهُ حَتَّى يُمْسِيَ».

(تفسير نور الثقلين، ص١٨٧)

الإطار العام

بالرحمة؛ خلق الله الإنسان

لماذا خلق ربنا الغني العزيز هذه الكائنات؟ أليس لأنه سبحانه الرحمن؟ آيات رحمته الواسعة تجلت في كل شيء؛ في هذاالكتاب الذي يهدينا إلى نوره ولولاه لما عرفناه، وفي هذا الإنسان الذي أحسن خلقه وأكرمه وعلمه البيان ليفضله على كثير ممن خلق، وفي الشمس المضيئة، والقمر المنير، وفي النجم المسخر برحمته، وفي الشجر الساجد لعظمته، وفي السماءالتي رفع سمكها وجعلها سقفاً محفوظاً، وفي النظام المحسوب الذي قَدَّره، وفي الميزان الذي وضعه للناس حتى يحكمواالعدل بينهم ولا يطغون.(الآيات: ١-٩).

بلى؛ سبحات وجهه الكريم تتجلى في آياته، أفلا تتجلى في قلوب عباده ليعرفوه وليسكنوا إلى رحمته فلا يبتغوا عنه بدلاً؟ ما أعظم خيبة من عاش على شاطىء رحمة الله ظامئاً، لأنه لم يهتد إليها؟

هكذا تتواصل آيات سورة الرحمن مذكرة بهذا الاسم المبارك الذي لو انعكس نوره في أفئدتنا غمرها بالسكينةوالأمل، بالتطلع والتوكل، بالعطاء والكرامة.

لماذا اليأس وربنا الرحمن؟.

لماذا الانغلاق وخالقنا الرحمن؟.

أفلم يجعل الأرض للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، فلماذا التكذيب بآلاء ربنا والكفر بنعمه؟ (ومن التكذيب؛ تحريم الطيبات على أنفسنا بعد أن خلقها الله لنا. ومن الكفر؛ القنوط من روحه، والانطواء على أنفسنايائسين).(الآيات: ١٠-١٣).

ولقد خلق الله الإنسان، هذا العالَم الكبير، ابتداءً من صلصال كالفخار (أوليس بقادر

على أن يبعثه مقاماً محموداًليكون أكرم من خلقه) فلماذا اليأس والتكذيب؟

وخلق الجان من مارج من نار فبأي آلاء الرب يكذب الجن والإنس؟ (الآيات: ١٤-١٦).

ويبصرنا السياق بتجليات رحمة الله في اختلاف الفصول بحساب دقيق، وبحركة المياه عبر نظام قاهر يفصل بين الفرات والأجاج، وإذا باللؤلؤ والمرجان يستخرجان منهما، وأجرى فيهما السفن الكبيرة بتقدير حكيم، فأنى يكذبون بآياته؟ (الآيات: ١٧-٢٥).

وبعد أن يشير إلى أن الثقة ليست بنظام الخليقة لأنها فانية، بل بخالقها، لأن وجهه الكريم باق لا يفنى، يعود ويذكّرنا بأن خزائن رحمته لا تنفذ، ومنها يسأل من في السماوات والأرض فلنسأله أيضاً، لماذا نكذب ونخسر عطاءه؟ (الآيات: ٢٦-٣٠).

إن التكذيب بآيات الله ونعمائه ليس فقط خيبة أمل في الدنيا، بل خسارة عظمى في الآخرة. وهكذا تنذرنا الآيات من عاقبة التكذيب يوم الحساب العظيم، فأنى يمكن أن نهرب من حكومته؟ هب أننا نفذنا من أقطار السماوات والأرض،فهل ننفذ إلا بسلطان منه؟ أفلا نحسب حساب شواظ النار والنحاس، فهل نقدر على مقاومتها؟ فلماذا إذن التكذيب بآلاء ربنا الغني العزيز؟ فيوم تنشق السماء وتتحول حمراء كأنها وردة، أنى يمكن التكذيب بآلاء الرحمن؟ (الآيات: ٣١-٣٨).

يومئذٍ لا داعي للسؤال عن المجرمين، أو ليسوا معروفين بسيماهم؟ فيؤخذون بالنواصي والأقدام، ويلقى بهم في نار جهنم التي كذبوا بها (حينما كذبوا بالحساب وكذبوا بآلاء الله).(الآيات: ٣٩-٤٥).

تعالوا نؤمن بربنا المقتدر الجبار ونخشاه حتى يرزقنا الجنة، فلمن خاف مقام ربه جنتان، ذواتا ظلال وارفة، وعيون جارية، وفواكه متنوعة، وأسرّة موضونة عليها الحرير والاستبرق. هنالك تجد قاصرات الطرف من الحور الطاهرات كأنهن الياقوت والمرجان. بلى؛ ذلك جزاء إحسانهم (الآيات: ٤٦-٦١)، وأقل منهم بدرجة جنتان ملتفتاالأغصان، تتفجر فيهما عينان، فيهما من أنواع الثمار، كما فيهما الخيرات الحسان من النساء، حور محفوظات في الخيام، لم تصل إليهن يد إنس ولا جان، هنالك يستريح الصالحون على رفرف خضر وعبقري حسان.. كل هذه النعم التي يبشربها القرآن، لماذا التكذيب بها بعدم السعي إليها؟ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام. (الآيات: ٦٢-٧٨).

الرحمن علم القرآن

﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[1] (٥) وَالنَّجْمُ[2] وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ[3] (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ[4] (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ[5] كَالْفَخَّارِ[6] (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ[7] مِّن نَّارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨)﴾.

هدى من الآيات:

إن أهم حكمة وراء خلق الإنسان والكائنات أن يتعرف الرب لخلقه في كل شيء حتى لا يجهلوه في شيء فيعبدوه حق عبادته، ولا ينظرون إلى شيء إلا ويرونه قبله ومعه وبعده، لقد

---

(١) بحسبان: يجريان بحساب معلوم مقدر، بلا زيادة ولا نقصان.

(٢) النجم: هو نبت الأرض الذي ليس له ساق، وقيل: أراد بالنجم نجم السماء، فهو ينجم أي يظهر من الأفق.

(٣) للأنام: للناس.

(٤) الأكمام: الأوعية والغلف، وثمر النخل يكون في غلف ما لم ينشق.

(٥) صلصال: هو الطين اليابس، الذي له صلصلة أي صوت.

(٦) كالفخار: الفخار هو الطين الذي طبخ بالنار حتى صار خزفاً.

(٧) مارج: اللهب الذي يتداخل بعضه في بعض.

كان سبحانه وتعالى فرداً صمداً ولا شيء معه، وشاءت حكمته أن يخلق الخلق فخلق الخلق، لا لحاجة منه إليهم، بل لحاجة منهم إليه، ولا ليربح عليهم، بل ليربحوا عليه.

وهكذا فإن السمة البارزة في الخليقة هي رحمة الله، وإن طبيعة الخلق الأولى للإنسان قبل أن تُدنَّس من المخلوقين أنفسهم لهي طبيعة إيجابية حميدة، وإن فطرته ليست نابية ولا معادية. إنه يتفكر في نفسه فيراها غارقة في محيط من النعم والآلاء، خلقه رحمة، وتعليمه وبيانه نعمة أيضا، ثم يجول بفكره في العالم من حوله فيرى الشمس والقمر، والنجوم والشجر، والسماء، والميزان، وهكذا الأرض وما تحتويه كلها نعم، وكلها خلقت ولا زالت تؤدي دورها ضمن نظام محكم في صالحه.. لذلك تجد سلوكه تجاه الخلق سلوكا وديعا نابعا من حبه له، فهو يأبى أن يسلب نملة جلب شعيرة، وإذا مشى على الأرض وطأها برفق وهون.

بينات من الآيات:

[١] ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هكذا تأتي هذه الكلمة وحدها آية قرآنية، ولعلها أقصر آية بعد الحروف المقطعة، ولكنها من حيث المعنى تشكل محوراً في السورة بتمامها، يتصل بآية آية فيها، ويعكس ظله على كلماتها، وحينما تنطلق من هذه السورة المباركة إلى العالم الواسع تجد هذا الاسم الإلهي منبسطاً على كل مفردة فيه، لأنه تعالى كتب الحياة بلغة الرحمة واللطف، ولك أن تتصور كم ينبغي أن يكون الإنسان ضالاً ومجرداً عن أي إحساس حتى يكون جاهلاً بربه وبرحمته، بل جاحداً بآلائه، حتى يتساءل بصلافة: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟! [الفرقان: ٦٠]. إنه لا شك أقل قدراً ووعياً من البهيمة، لأنها تعي رحمة ربها، وتؤمن به بقدر شعورها، والإنسان أعطاه الله العقل ولكنه لا ينتفع به! وصدق عز وجل حين قال عنهم: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

واسم الرحمن بحسب ما ورد في الذكر الحكيم ارتبط بمظاهر الهيمنة الإلهية وإحاطة التدبير بالخليقة. ويبدو أنه لم يقترن بموارد العفو والمغفرة وهكذا. بل يمكن ملاحظته في موارد العذاب والوعيد وتنزيل الوحي والتهديد والاستواء على العرش والإذن الإلهي. وفي موارد الاستعانة والاستعاذة والخشية.. مما يلفتنا إلى أمرين:

الأول: اختلافه عن اسم الرحيم ليس في الناحية اللغوية فحسب، بل من حيث الاقتران في الذكر الحكيم. فالرحيم ورد في موارد العفو والرحمة المعهودة. بخلاف الرحمن.

الثاني: إن اقتران الرحمن بمظاهر الهيمنة الإلهية يدل على أن صبغة التدبير والهيمنة هي صبغة الرحمة. فحتى مظاهر العذاب والابتلاء، بل وتشريع العقوبات كل أولئك في إطار

الرحمة وتحقيقها. فالابتلاء في نهاية المطاف غايته تزكية الإنسان. ونظام العقوبات يحافظ على أمن المجتمع وهكذا.

[٢] إذن تعال نستمع معاً إلى الوحي وهو يعرفنا جانبا من رحمة الله، ويهدينا إلى تجليات اسم الرحمن في الخلق وفي أنفسنا قبل ذلك.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إن للرحمة الإلهية درجات، ولكن أعظمها بالنسبة للإنسان الهدى المتمثل في القرآن، فالخلق بحد ذاته رحمة وهي تسبق تعليم القرآن، إلا أن ذكره يأتي متأخرا، ذلك أن الهدى هو الهدف من الخلق، ولو لم يهد الله عباده إليه لانعدمت الحكمة من وجودهم وإيجادهم. أو لم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟ [الذاريات: ٥٦].

والقرآن يهدي البشر إلى معرفة ربه، ولأنه لا يمكنه ذلك إذا كانت بينه وبين الله حجب الغفلة والجهل والذنوب، فإن القرآن يزكيه حتى يتجاوز تلك الحجب، وحتى شرائع الدين تهدف في النهاية تمهيد السبيل إلى معرفة الرب. كيف؟ لأن الإنسان لا يقدر على معرفة الرب ما دام يعيش في مجتمع فاسد منحرف عن سنن الحق لا يني يعتصره حتى يكون متوافقا معه، فكيف يتخلص من ضغوطه، ويتحدى فساده؟ هذا ما تضمنه تعاليم الدين، وكيف يبني مجتمعا فاضلا بديلا عنه؟ هذا ما تفصّله أحكامه القيّمة، وبالتالي كيف يتجنب عوامل الخطيئة حتى يعرف الله؟ هذا ما يتكفل به القرآن بهداه وبيناته، ببصائره ومفصلاته، بأحكامه وشرائعه؟ إنه يحقق بكل ذلك الحكمة من خلق الإنسان ألا وهي معرفة الله، التي هي بدورها تجلٍّ لرحمانيته تعالى؟ أليست معرفته عين الكمال، ومحض النعمة، ووسيلة الزلفى، وسبب تسخير الخليقة؟.

والسؤال: كيف علَّم الله القرآن للإنسان؟.

أولاً: بأن علمه رسوله ﷺ وهو علمه للبشرية تبليغا وبيانا.

ثانياً: بأن القرآن تعبير صريح عن الحقائق التي أودعها الله في فطرة كل بشر، مما يجعل إيداعها بمثابة تعليم القرآن نفسه، مما يجعل دوره بالنسبة للحقائق دور المذكر بما ينطوي عليه وجدان الإنسان.

ويبدو أن حذف: مفعول التعليم الثاني فلم يفصح عمن علم القرآن كان لحكمة بالغة هي: أن جعل القرآن علما بحيث ينتفع به كل من شاء هو المناسب لرحمانية الله، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

[٣-٤] وحينما نوجه نظرنا صوب الإنسان نفسه نراه بكله مظهراً لرحمة الله. إنه لم يكن

شيئا، فأوجده الله من غير استحقاق منه، ومن دون أي جبر أو اضطرار، إلا رحمة منه عز وجل ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ وكفى بخلق الإنسان دليلا على رحمته. ألا تراه عالما كبيرا بذاته، تماوجت في كيانه بلايين النعم التي لو فُقدت واحدة منها انتقصت الرحمة؟.

بيد أن أعظم ما في الإنسان قلبه (مخه وعقله)، ذلك أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفضَّله على كثير من خلقه، ثم أكمل خلقه بالعقل، وأكمل العقل بالقرآن، وأكمل كل ذلك بنعمة البيان، الذي يقوم بدور تواصل المعلومات وتناقل الخبرات من إنسان لآخر، ومن أمة لأخرى، ومن جيل إلى جيل، ولولا هذه الميزة لما كانت حضارة، وكان البشر وسائر الأحياء سواءً، فحياة الهرة قبل مليون سنة هي حياتها الآن، لأن كل فرد من هذا الجنس يعيش في حدود غرائزه أو تجاربه الذاتية، في حين تنمو حضارة البشر بتواصل التجارب والمعلومات وتراكمها، وهذا كله مرتكز على البيان، وما كان قادرا عليه لولا فضل الله ورحمته إذ تلطف عليه به ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، وهذه النعمة هي الأخرى مظهر لاسم الرحمن، وآية هادية إليه، وما يجب على الإنسان هو الاعتراف بهذه الآلاء، وأداء شكرها، ولكنك تراه بدل ذلك يمارس الخطيئة بتلك النعم، فإذا به يُسخِّر البيان من أجل الباطل.

[٥-٦] ومن الحديث عن آثار رحمة الله في كيان الإنسان تنقلنا الآيات إلى آفاق العالم لعلنا نرى فيها تجليات اسم الرحمن، هكذا يوصل القرآن الحديث عن الإنسان والكون لكي يخرجنا من قوقعة الذات إلى الآفاق الواسعة، لكي يؤكد لنا أن الكائنات جميعا خاضعة لله، حيث يؤدي كل شيء دوره وهدفه من الخلق بالتزامه بالنظام الذي رسمه الله له. انظر إلى الشمس تجدها تتحرك بدقة متناهية جدًّا، وبتناسق رائع مع حركة القمر، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. إذن فأي خروج من قبل الإنسان عن حدود الله هو شذوذ وشقاق وضلال وتيه.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ لقد خلق الله الخلق متناسقا يكمل بعضه بعضا، فلولا الإنسان ما خلق الله الشمس والقمر والنجوم، والشجر، والسماء والأرض وما فيهما، ولولا هذه الأشياء ما كان للإنسان أن يجد سبيلا للحياة.. والشمس والقمر لهما آثار مباشرة في حياة الإنسان، بل في الحياة على كوكبنا كله، فالشمس توفر لنا الضوء، ولها صلة ماسة بالنباتات على الأرض، وهكذا يؤثر القمر في بحار الأرض ومحيطاتها، وفوائد أخرى لها لا يزال العلم الحديث يحث الخطا لاكتشافها، ولكن تبقى أعظم فائدة لهما ولكل شيء أنهما آيتان تهديانا إلى الله، ونلمس هذا الهدى بصورة أجلى وأفضل بالاطلاع على دقة النظام الذي يتحكم فيهما.

فلو أن الشمس اقتربت إلى الأرض أو ابتعدت عنها أكثر، أو تبدل نظامها في الغروب

والشروق، أو تصاعدت حرارتها أو انخفضت، لأصبحت الحياة صعبة أو مستحيلة.. وكذلك القمر فإذا رأيناه يحمل ملايين الأطنان من مياه البحر فإنه لاشك يؤثر في مخ الإنسان الذي يشكل الماء حوالي ٧٠٪ منه.

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ قال بعض المفسرين: إن النجم هو النباتات الصغيرة، والشجر هي النباتات الكبيرة ذات الساق، وذلك لاقترانها في الآية في مقابل اقتران الشمس والقمر، وكلمة النجم لفظ مشترك. وقال آخرون: إن النجم هو الذي في السماء، والشجر هو الشجر الذي نعرفه. وربما الهدف من ذكرهما معا على التفسير الثاني هو بيان العلاقة بين أبعد الأشياء عنا وأقربها إلينا في الطبيعة، فهي وإن كانت في نظرنا جوامد إلا أنها تملك قدرا من الوعي والإحساس يدعوها لعبادة ربها ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وحيث يدل السجود على غاية الخضوع والعبودية، فإن سجود النجوم والشجر يتجلى في خضوعها لسنن الله المرتبطة بها، فإنك لا تجد نجمة تنحرف عن مسارها، ولا شجرة تنبت غير ثمرها.

ولا ريب أنها مظهر لرحمة الله بالإنسان، فللنجوم علاقة وثيقة بتنظيم هيكلية الجاذبية في هذا الفضاء الرحب، ثم إنها تؤثر بأشعتها على الأرض وعلى الكائنات فيها، حتى قيل: أن كل مادة في جسم الإنسان تستمد قدرا من وجودها وكيانها -بلطف الله- من الأشعة المبثوثة في الفضاء، والعلاقة بين النجوم والشجر ليست علاقة علمية وحسب، بل إن الزُّراع والفلاحين يستدلون بها على ميعاد زراعة الأنواع المختلفة من النبات، وأوقات اللقاح والتشذيب وما إلى ذلك. إذن فلا ينبغي أن نتصور أن تلك النجوم التي تفصلنا عنها ملايين السنين الضوئية لا علاقة لها بنا، كلا.. وهذا يفسر الحديث القدسي: «خَلَقْتُ الأَشْيَاءَ لِأَجْلِكَ وَخَلَقْتُكَ لِأَجْلِي»[1] الذي يشير إلى العلاقة بين كل شيء وبين الإنسان، وقد قدَّم ربنا الإشارة إلى خلق الإنسان على الحديث عن الكون لأنه الهدف.

[٧-٩] ثم إن السورة المباركة تذكّرنا بتجلٍّ آخر لاسم الرحمن في نعمة السلام والأمن، سواء كان أمن وجود الإنسان أو أمن حقوقه، فالسماء رفعت كي تحافظ بطبقاتها على وجوده، فهي تمنع عنا النيازك والشهب الساقطة، كما يمتص الغلاف الجوي الأشعة الضارة أن تصل إلينا، ويخفف من الأشعة الأخرى التي من شأنها لو وصلت إلينا بصورة مركزة الإضرار بنا أيضا، وهكذا.. وكما ضمن الله حياتنا بالسماء ضمن برحمته الحقوق للإنسان عندما وضع الميزان.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ الحياة كلها من النبتة الصغيرة حتى الشجرة الكبيرة،

---

(١) كلمة الله: الشهيد السيد الشيرازي: ص١٦٩، حديث رقم: ٢٠١.

ومن الذرة المتناهية في الصغر حتى المجرة المتناهية في السعة والضخامة، وفيما بينهما الإنسان والشمس والقمر، كل ذلك يتجلى فيه التدبير اللطيف والنظام الدقيق، حتى قالوا: إن الحياة كتبت بلغة رياضية، ولذلك فإنها تنعكس في ضمير الإنسان وفي رسالات الله بصورة موازين وقيم. أليس الفكر مرآة صافية؟ أولا تعكس هذه المرآة ذلك النظم الدقيق، والتدبير الحسن؟ بلى؛ وكذلك الوحي يذكرنا بالعقل، ويفصح عن تلك الموازين الحق التي انبثت في الخليقة.

فالإنسان يعرف الخير من الشر، والحسن من القبيح، بل ويزن أيضا أي الشرين أهون وأي الحسنيين أفضل، كما أنه يتمتع بحس جمالي. ألا تراه كيف يميز بين لوحة وأخرى، ووجه وآخر، كما أنه بحواسه يفرِّق بين الأحجام، والألوان، والمسافات، والأصوات. هل فكرت كيف يميز الإنسان بأذنه بين الأصوات المختلفة، يقيس -مثلاً- صوتين متقاربين لأخوين، بل صوت الإنسان الواحد في حالتين أو مرحلتين، حينما يستيقظ من نومه، وحينما يكون مريضا.. ولو أنك قارنت بين أكثر المسجلات تطورا وبين الأذن، أو بين المصورات المتقدمة وبين العين، لوجدت حواس الإنسان تتميز بدقة الموازين، وهذه الموازين عكسها الإنسان في صور محسوسة، فصنع للثقل ما يسمى بالميزان، وللمسافات المتر والذراع وما إلى ذلك، وللزمن الساعة، وللحرارة والرطوبة مقياسا آخر، كما وضع قوانين وأنظمة تجسد موازين العدل والأخلاق والقيم والأعراف. إذن ربنا هو الذي خلق الموازين في الطبيعة، إذ خلق كل شيء بحسبان وقدر، ضمن زمن، وحجم، ولون، وشدة، وضعف، وعدد من الموازين الأخرى، وعكس ذلك في ضمير الإنسان وحواسه وعقله.

وهناك علاقة بين رفع السماء ووضع الميزان في الآية الكريمة، فالسماء رفعت بالميزان ومن أجل الميزان (القوانين والأنظمة الخاصة بها)، ولولاها لكانت تقع على الأرض، وهكذا كل شيء في الحياة، فحياة الإنسان تستحيل عذابا لو لم يلتزم بالميزان، لذلك يؤكد ربنا مباشرة بعد هذه الآية وبآية أخرى ضرورة احترامه وإقامته.

إن الله وضع الميزان في الطبيعة، ولكن رحمته لا تتجلى فيها فقط بل على يد الإنسان أيضا، فهو بحكم حريته قد ينغص صفو الأمن على نفسه ويفسد السلام، كما أنه يستطيع أن يساهم في جلب السلام والسعادة إليها لتتجلى رحمانية الله على يديه، وذلك إذا لم يطغ في الميزان وأقامه بحق، فلم يُسرف في الأكل والشرب، ولم يُبذِّر في الصرف، ولم يستهلك أكثر مما ينتج، ولم ينم أكثر من حاجته، بل أقام الوزن في جوانب حياته الشخصية والاجتماعية ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ والطغيان هو إخسار الميزان بصورة قطيعة ظاهرة، وربنا ينهانا عن ذلك، ويلحق بالنهي دعوة إلى إقامة الوزن باحترامه والالتزام الدقيق به، وبأفضل صور العدل وهو القسط

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ وهو أقرب إلى التقوى حتى من العدل، ذلك أن القسط ليس مجرد العدل، بل العدل بإضافة الاحتياط الذي يضمن حصوله بالفعل، فمثلا إذا كنت صاحب محل تزن للناس تعادل ما تبيع بالوزن المطلوب ثم تضيف إليه شيئا، وإذا كنت تشتري تنقص ما تشتريه عن الوزن المتفق بينك وبين البائع، وذلك للتأكيد من فراغ الذمة في الحالتين. هذا هو القسط، وكم تكون البشرية سعيدة لو عملت بهذه القاعدة.

والإقامة هي الالتزام بالشيء وأداؤه على أحسن وجه، وإقامة الوزن تكون في أفضل صورها عند العمل بالقسط.

وربنا لا ينهى عن إخسار الميزان بصورة ظاهرة وفظيعة، بل وينهى حتى عن مخالفته بصورة بسيطة، أو خفية باستغلال غفلة الناس وثقتهم، أو بالاحتيال على القانون، فيقول: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ والعمل بالقسط يضمن من جانب تحقق العدالة، ومن جانب آخر يجنب الإنسان مخالفة الحق والنظام، والسؤال: كيف يخسر الإنسان الميزان؟.

من المفاهيم الحضارية بل من الإنجازات الهامة في عالمنا اليوم وحدة الموازين، (الكيلو غرام، الكيلو متر مثلاً، وكذلك المقاييس والوزان الأخرى) وهذه يتفق عليها الناس، ويعتمدونها في معاملاتهم، ولعل هذا من أبرز معاني إقامة الميزان واحترامه وعدم التلاعب به، بأن يعتبر البعض الكيلو ٩٠٠ غرام، والبعض الآخر ١٠٠٠ غرام، فذلك يفقد البشرية إنجازاً حضاريًّا، ويفسح المجال للمزيد من الظلم والتلاعب بالحقوق، بل إن إقامة الوزن (الهدف) لا يتحقق إلا بالميزان، وإخساره تضييع لهذا الهدف.

وكلمة ﴿الْمِيزَانَ﴾ واسعة تشتمل على كثير من المضامين، فالعقل ميزان، والقرآن ميزان، والعهد ميزان، وما تتفق عليه الجماعات الإيمانية في اجتماعها إلى بعضها ميزان، ولا يصح لأحد أن يخرج عليه مهما كان مخالفا لمصالحه الشخصية، ولكن أظهر معاني الميزان هو القيادة الرسالية، بأقوالها وأفعالها وآرائها باعتبار قربها من القيم فهما وتطبيقا، قال الإمام الرضا: «... وَالْمِيزَانُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام نَصَبَهُ لِخَلْقِهِ، قُلْتُ -الراوي-: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ قَالَ عليه السلام: لَا تَعْصُوا الإِمَامَ، قُلْتُ: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾، قَالَ عليه السلام: أَقِيمُوا الإِمَامَ الْعَدْلَ، قُلْتُ: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ قَالَ عليه السلام: وَلَا تَبْخَسُوا الإِمَامَ حَقَّهُ وَ لَا تَظْلِمُوهُ...»[1].

والقرآن يضرب لنا مثلا لإخسار الميزان في الحقل الاجتماعي والاقتصادي فيقول متوعدا: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص٦٧.

﴿يُخۡسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣]، والتطفيف كما يظهر من الآية يناقض بالضبط إقامة الوزن بالقسط.

[١٠] والأرض هي الأخرى تجلٍّ لرحمة الله الشاملة، حيث خلقها ووفر فيها عوامل الحياة التي من شأنها أن تجعل عيش الإنسان عليها ممكنا بل طيبا، كالجاذبية والأكسجين والماء ومختلف أنواع الأكل، وكذلك وفر فيها الضوء والحرارة بقدر حاجة البشر.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ والقرآن يشير إلى معنى الوضع هنا في آية أخرى إذ يقول: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠]، ولولا رحمة الله وتمهيده الأرض لنا لاستحال عيشنا على هذا الكوكب كما هو مستحيل على الأجرام الأخرى كالشمس والزهرة وغيرهما، وفي الآية فكرتان حضارية وشرعية نستفيدهما من كلمة ﴿وَضَعَهَا﴾:

الأولى: أن الله سخَّر الأرض عمليًا للإنسان، وأعطاه الوسائل والقدرات العلمية والمادية يسميها القرآن ﴿سُبُلٗا﴾ [النحل: ٥٣]، للانتفاع بها والهيمنة عليها من قمم الجبال الشاهقة إلى قعر المحيطات، فعليه أن يسعى لتسخيرها في مصلحته، وأي بقعة لم يسخرها الإنسان من الأرض، أو أي فرصة أو طاقة فإنما ظلم نفسه، وألحق بها خسارة وغراما، والتبصر بهذه الحقيقة يزيل عن البشر الانطواء والتردد والخشية من التقدم، وهكذا تحرِّض هذه الحقيقة الإنسان نحو المزيد من التقدم، وتفتح له آفاقا واسعة.

الثانية: ثم إن الآية تهدينا شرعاً إلى أن الإباحة هي الأصل في النعم حتى يدل الدليل على الحرمة، كما قال الله عز وجل: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولعل النصوص الشرعية لا تدل فقط على إباحة كل شيء للإنسان (إلا ما أقيمت الحجة على حرمته)، بل وأيضا على ضرورة الانتفاع بها في الأرض، مما يدل على أن تحريم الطيبات والجمود والانغلاق نوع من السَّفَه بل من الظلم للنفس.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وقال الإمام علي عليه السلام: «اتَّقُوا اللهَ فِي عِبَادِهِ وبِلَادِهِ فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ البِقَاعِ والبَهَائِمِ»[١]. وفي احْتِجَاجِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَلَى عَاصِمِ بْنِ زِيَادٍ حِينَ لَبِسَ العَبَاءَ وتَرَكَ المُلَاءَ (أي تصوَّف فتخلى عن الدنيا واعتزل الناس) وشَكَاهُ أَخُوهُ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ قَدْ غَمَّ أَهْلَهُ وأَحْزَنَ وُلْدَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: عَلَيَّ بِعَاصِمِ بْنِ زِيَادٍ. فَجِيءَ بِهِ فَلَمَّا رَآهُ عَبَسَ فِي وَجْهِهِ

(١) بحار الأنوار: ج٣٢، ص٧.

فَقَالَ عليه السلام لَهُ: أَمَا اسْتَحْيَيْتَ مِنْ أَهْلِكَ أَمَا رَحِمْتَ وُلْدَكَ أَتَرَى اللهَ أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وهُوَ يَكْرَهُ أَخْذَكَ مِنْهَا، أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ ذَلِكَ، أَوَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أَوَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ فَبِاللهِ لَابْتِذَالُ نِعَمِ اللهِ بِالفَعَالِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنِ ابْتِذَالِهَا بِالمَقَالِ، وقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

فَقَالَ عَاصِمٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فَعَلَى مَا اقْتَصَرْتَ فِي مَطْعَمِكَ عَلَى الجُشُوبَةِ وفِي مَلْبَسِكَ عَلَى الخُشُونَةِ؟!. فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ العَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالفَقِيرِ فَقْرُهُ»[1]. إذن ليست النعم والإمكانات في الأرض مباحة للإنسان فقط، بل ينبغي له أن يسعى لتسخيرها والانتفاع بها أيضا.

[١١-١٢] ثم إن القرآن يذكّرنا ببعض النعم التي مَهّد الله بها العيش على الأرض، والتي هي مظهر لاسم الرحمن أيضا، ويبدؤها بالفاكهة وهي ذات فائدة ونفع للجسم بما تحتويه من فيتامينات ومواد أخرى.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ويبدو أن تقديم ذكرها على النخل النعمة الوسط، وعلى الحَبِّ المأكول الرئيسي للإنسان، لأنها كمال نعمة الخلق وكمال نعم المائدة، وهذا يتناسب مع سياق هذه السورة التي جاءت لبيان تجليات رحمة الله أن تشير إلى النعمة ابتداء من أكمل النعم، ولا شك أن رحمة الله أكثر تجليا في المائدة ذات الفاكهة من الأخرى التي لا فاكهة فيها.

﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ وهي كذلك مظهر لرحمة الله، ولعلنا نقترب أكثر إلى مهم هذه الحقيقة إذا رجعنا إلى الوراء في التاريخ بذاكرتنا، وتعرفنا على أهمية النخل ودورها بالنسبة للإنسان آنذاك، إنه يستفيد منها حتى النخاع، من النواة التي يقدمها مع العلف للحيوان، إلى جذعها وخوصها وكل شيء فيها، فبكربها يوقد النار للطبخ والتدفئة، وبسعفها وجذوعها يبني بيته، ومن ثمرها يأكل طيلة السنة.

ولكن القرآن يلفت انتباهنا إلى أكمام النخل، لأن ما تحتويه من الثمر هو أهم النعم بالنسبة للإنسان. إنه يستطيع العيش من دون بيت السعف، ومن دون التدفئة بالنار أيضا، ولكنه لا يعيش من دون الأكل، والأكمام هي التي تحفظ الثمر من الآفات والسموم، بل وتقوم بدور أساسي جدًّا في تكوينه، لأنها تشبه الرحم الذي يتكون فيها الجنين، والقرآن في آية منه يوجهنا إلى هذا الدور عندما يلحق ذكر الأكمام التي تحمل بالثمر ثم تلده بانشقاقها بذكر المرأة

(١) الكافي: ج١، ص٤١٠.

حينما تحمل وتلد، قال تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧]، ولولاها لانعدم الثمر، وانقرض النخل بمرور الزمن حين تتوقف دورته الحياتية. إذا فهي أظهر لرحمة الله من كل شيء في النخل.

وكما النخل كذلك مختلف الحبوب كالحنطة والأرز والشعير حيث يتجلى فيها اسم الرحمن، فهي ذاتها ينتفع بها الإنسان غذاء يحتوي على ما يحتاجه، كما يستفيد من حطامها كالأعواد والقشرة والورق بعد الحصاد وقبله في أغراض عديدة كالبناء، كما يقدمها علفا للحيوان، وهو عصف الحب.

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ قال الراغب: «العصف والعصيفة الذي يعصف من الزرع، ويقال لحطام النبت المتكسر عصف، قال تعالى: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾، ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾»[1].

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الرائحة الطيبة الزكية، وسمي به نوع من الورد، ويقال لكل نبات طيب الرائحة، فتلك نعمة تلبّي الحاجات المادية للإنسان، وهذه تلبي حاجة معنوية بشمها، وإضافة طيبها إلى الأكل والشراب ليضفي عليهما نكهة خاصة.

[١٣] هكذا تحيط نعم الله وآياته بنا، وأخرى كثيرة يتعرض السياق لذكرها فيما بعد، ولكنه قبل ذلك يستوقفنا بآية محورية في السورة ليطرح علينا من خلالها أهم سؤال يجب أن نطرحه على أنفسنا ونحن نرى آلاء الله.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنها من الكثرة والوضوح بها لا يجد أحد سبيلاً لإنكارها، لنقف ساعة تفكُّر. كم هي نعم الله علينا؟ كل ذرة في كياننا وفي المحيط من حولنا هي نعمة من الله، وكل لحظة نمارس فيها الحياة هي الأخرى نعمة. ولو أننا صيَّرنا أغصان الشجر أقلاماً والورق كُتباً، والبحار مداداً، فإننا لا نزال عاجزين عن إحصائها، وربنا إذ يكرر هذه الآية الكريمة بعد كل مقطع يشتمل على ذكر لشيء من آلائه، فإنما ليؤكد لنا أن ما ذُكِرَ هو شيء بسيط من النعم الكثيرة، كما في قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

---

(١) مفردات غريب القرآن: ص٣٣٦ مادة: (عصف).

بلى؛ إن نعم الله جاءت لكي تلبي حاجات الإنسان المادية والمعنوية، ولكن هدفها الأعظم أن يهتدي بها إلى المزيد من المعرفة بربه، وربنا في سورة النحل يقول وقد تعرض لذكر جانب من نعمه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٥-١٨].

إذن فالأهم من الاهتداء بالسبل في الأرض وبالنجوم إلى معرفة الطرق والوصول إلى الأهداف المحدودة، والأهم من معرفة عدد النعم، أن يهتدي الإنسان بذلك كله إلى ربه عز وجل. وكم يكون البشر ظلوماً وجهولاً إذا أشرك بربه أو كفر به وهو في هذه البحبوحة من النعم؟! ولك أن تدرك مدى ضلال أولئك الذين أنكروا على الله أظهر أسمائه إذ ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟!، وأنا وأنت قد لا نقول ذلك، ولا نُكذِّب بآلاء الله بألسنتنا، ولكننا كثيراً ما نكذب بها بأعمالنا وسلوكنا، وبغفلتنا عن الشكر.

الخليقة كلها تجليات لرحمة الله، فهي وجهه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، ولكن الإنسان حينما يضل ليس فقط لا يهتدي بالآثار إلى معرفة رحمة ربه وشكره، بل ويتخذ النعم مطية للمزيد من التكذيب، فإذا أصبح غنيا ووجب عليه الشكر تراه يبطر معيشته، ويزداد ترفا وفسادا في الأرض، أو حين يَمُنُّ عليه بالملك تراه يستعلي على الناس ويطغى ويستبد، ولعلنا نجد إشارة إلى ذلك عند قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ إذا اعتبرنا الباء سببية.

إن الحياة وهي وجه الله بكل مفرداتها السلبية والإيجابية تدعونا إلى الإيمان بالله، والتصديق بآياته، والتسليم بالطاعة لأوامره، فما هو تبريرنا ونحن نكذب بآلائه؟! لماذا ندخل في سجن ذواتنا أكثر فأكثر عند كل نعمة، بدل أن ننطلق منها إلى آفاق الإيمان بربنا وربها عز وجل؟! إننا عوض ذلك يجب أن نقول كلما تذكرنا النعمة، وكلما انتفعنا بها، بل وكلما قرأنا آية تذكرنا بآلاء ربنا، ومن بينها وأهمها الآية الكريمة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، يجب أن نقول: لا بشيء من آلائك ربنا نكذب، وذلك زيادة في الهدى والشكر والفضل من الله، ولا ريب في أن هدف الإمام الصادق عليه السلام من هذه العبارة ليس مجرد الكلام، فالأهم من تصديق اللسان بالنعمة هو تصديق القلب والجوارح، فالذي يُصدِّق بآلاء الله هو الذي يؤدي واجب الشكر له عز وجل، «لَا يَعْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَّا الشَّاكِرُ وَلَا يَشْكُرُ النِّعْمَةَ إِلَّا العَارِفُ»[1] كما قال الإمام العسكري عليه السلام. والشاكر كما يقول الإمام الهادي عليه السلام: «الشَّاكِرُ أَسْعَدُ بِالشُّكْرِ مِنْهُ بِالنِّعْمَةِ

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٣٧٨.

الَّتِي أَوْجَبَتِ الشُّكْرَ لِأَنَّ النِّعَمَ مَتَاعٌ وَالشُّكْرَ نِعَمٌ وَعُقْبَى»[١]، «شُكْرُ الْمُؤْمِنِ يَظْهَرُ فِي عَمَلِهِ»[٢]، و«شُكْرُ الْمُنَافِقِ لا يَتَجَاوَزُ لِسَانَهُ»[٣]. وجاء في الصحيفة السجادية: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِهِ عَلَى مَا أَبْلاهُمْ مِنْ مِنَنِهِ الْمُتَتَابِعَةِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ الْمُتَظَاهِرَةِ، لَتَصَرَّفُوا فِي مِنَنِهِ فَلَمْ يَحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ، وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدُودِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى حَدِّ الْبَهِيمِيَّةِ فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾»[٤].

والذي يلاحظ سورة الرحمن يجد آياتها تنصب في منهج محدد، فمقاطعها ترتكز على اسم الرحمن الذي جاءت السورة لتعرفنا به من خلال تجلياته في جوانب الحياة المختلفة، ومن هذا المنطلق يذكرنا كل مقطع فيها ببعض آلاء الله ثم يضع أمامنا التساؤل الذي تكرر (٣١) مرة، وهكذا تتوالى المقاطع الصيغة نفسها حتى الأخير. إذن فالسورة تستهدف تعريفنا بربنا، كخطوة أولى تنقلنا بها إلى الهدف الأسمى من المعرفة إلا وهو العبادة بتمام المعنى. أترى هذه النعم كلها جاءت لهدف ودور محدد هو مصلحة الإنسان، فما هو هدف الإنسان نفسه، وما هو الدور الذي يقوم به لتحقيق ذلك الهدف؟ إنه معرفة الله من خلال آياته ونعمه، والقيام بها كما يريدها عز وجل خلال عبادته.

[١٤-١٦] وهنا يوجه القرآن أنظارنا وعقولنا إلى تجلٍّ آخر لرحمة الله متمثلا في خلقه الإنس والجن.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ قال الراغب الأصفهاني: «قيل: إن الصلصال هو المُنْتِنُ من الطين، من قولهم: صل اللحم»[٥] إذا تعفَّن وتغيرَّ، وقال علي بن إبراهيم: هو «الماء المتصلصل بالطين»[٦]. إذن خلق الله الإنسان من هذه المادة الوضيعة في نظرنا ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، ولكنه بقدرته صيَّره خلقا محكما، فيه الأذن التي تلتقط بمثلثاتها أدق الأصوات وتميِّز بينها، والكبد التي تقوم بأكثر من (٧٠٠) عملية، والمخ الذي هو أكثر الأشياء إعجازا في الإنسان، والنخاع الذي هو امتداد لخلايا المخ، والذي لو حاولنا استبدال سنتيمتر مربع منه لاحتجنا إلى حاسوب آلي ضخم بحجم الغرفة الكبيرة، يستطيع أن يستوعب حسابات الدنيا كلها!.

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٣٦٥.
(٢) غرر الحكم: حكمة: ٦١٦٤.
(٣) غرر الحكم: حكمة: ١٠٥٠١.
(٤) الصحيفة السجادية: الدعاء الأول.
(٥) مفردات غريب القرآن: ص٢٨٤.
(٦) نور الثقلين: ج ٢، ص ٧.

إننا لا نستطيع أن نتصور العدم المحض حيث خلقنا الله ولم نك شيئا، ولكننا قد نستطيع تصور المسافة الهائلة بين صلصال من طين وبين إنسان سوي لنعرف جانبا من عظمة الخلق. هذا في الجانب المادي، أما إذا تجاوزناه إلى عالم الروح حيث نفخ الله في آدم من روحه فهنالك التجلي الأعظم، وسبحان الله أحسن الخالقين.

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ أي النار المختلطة فهي إذا قويت التهبت، ودخل بعضها في بعض، كما يتداخل ماء البحر في بعضه، وأساس الخلق نعمة ينبغي على الجن شكرها، فكيف وقد مَنَّ الله عليه من القوة ما يستطيع بها نقل عرش عظيم كعرش بلقيس من اليمن حتى فلسطين قبل أن يقوم سليمان عليه السلام من مقامه! وإذا نظر كل منهما إلى أصله وإلى نعم الله المسبغة عليه، علم أنه ما نال من الشرف إلا بفضل الله تعالى، فكيف يكذبان بآلائه؟!(1).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومن آلاء الله عليهما أن خلقهما من مادة تتناسب مع تطلعات ودور كل منهما في الحياة، فخلق الإنسان من صلصال نتن ضعيف، ولكنه قوَّمه وقوَّاه بالعقل والعلم، بحيث يستطيع أن يُسخِّر حتى الجن، وخلق الجن من النار، وجعل تفوقه في بعض جوانب القدرة والقوة المادية، ولكن هذا الاختلاف في الخلقة لا يعني تمايزا لعنصر على عنصر، لأن القيمة للعمل الصالح، سواء صدر من الصلصال أو من مارج النار، ولا يعني أن أحدهما رب والآخر مربوب حتى يعبده ويشرك به، بل هما مخلوقان وربهما واحد وهو الله.

[١٧-١٨] وجانب آخر من الرحمة الإلهية يطالعنا كل يوم في حركة الشمس والأرض.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ الآية الكريمة تلفت انتباهنا إلى حركة الأرض حول الشمس والتي تكتمل في كل عام مرة، وتتسبب في تغيُّر الفصول الأربعة وخلالها تتبدل يوميًّا منازل الشمس بالنسبة إلى الأرض شروقا وغروبا، فهي تشرق في أول يوم من أول منزلة لتبلغ الأقصى في اليوم الأخير، وفي المقابل تجد الحركة ذاتها وبالنسبة بذاتها غروبا، وفي الاحتجاج للطبرسي رحمه الله، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ فَإِنَّ مَشْرِقَ الشِّتَاءِ عَلَى حِدَةٍ، وَمَشْرِقَ الصَّيْفِ عَلَى حِدَةٍ، أَمَا تَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ قُرْبِ الشَّمْسِ وَبُعْدِهَا. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ فَإِنَّ لَهَا ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ بُرْجاً تَطْلُعُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ بُرْجٍ وَتَغِيبُ فِي آخَرَ وَلَا تَعُودُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ قَابِلٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ»(2). ولا شك أن الفصول الأربعة نعمة إلهية تدخل رقما أساسيًّا في تكامل الحياة ونموها. ولولاها لكانت تنتفي الكثير من صفات التنوع والتكامل عند

(1) التفسير الكبير للفخر الرازي (بتصرف): ج٢٩، ص٩٨.
(2) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٢١.

الإنسان وفي الطبيعة والأحياء ومن حوله، وقد قال بعض العلماء أن أكثر الحضارات نشأت في البلاد ذات الفصول القاسية، فمن أجل مواجهة الحر الشديد دأب الإنسان على اكتشاف وسائل التكيف في لباسه ومنزله والوسائل التي يستخدمها، وبتلك الروح تحدّي قسوة البرد، ولا شك أيضا في أن تنوع الفصول يكمل الوجود النفسي والروحي والجسمي للإنسان ويخدم مصلحته، ويفسح المجال أكثر فأكثر لتفجير طاقاته واستغلال الطبيعة وتسخيرها.

وتذكرنا الآية أيضاً بحركة الأرض حول نفسها مرة واحدة في كل يوم، وما ينتج من تعاقب الليل والنهار، الذي يكمل هو الآخر مسيرة الإنسان ويخدم مصالحه وتطلعاته في الحياة، فسباته في الليل ونشاطه وسعيه في النهار.

وقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ لا يحتاج إلى تفصيل وبيان، لأنه وقد تقدم بنا العلم أصبح الكل يعي هذه الحقيقة وهي انقسام الأرض إلى شطرين، فإذا كان النصف الأول يستقبل الشمس بالشروق فإنها لا ريب تودع الآخرين غروبا، والعكس صحيح، إذا فهناك مشرقان ومغربان يتعاقبان على الكرة الأرضية.

وكلتا الحركتين نعمة تعكس لنا اسم الرحمن، ولكنك ترانا ونحن نعيش بكل ذرة في وجودنا محاطين بآلاء الله نكذّب بها. أفلا يحق لربنا إذن أن يكرِّر معاتبتنا وتذكيرنا؟!.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الإنسان حينما يكون عارفا برحمانية ربه، وأنه تعالى سخَّر الوجود لمصلحته، فإنه يعيش متفائلا ونشيطا لأنه سيكون مطمئنا إلى سعيه، انطلاقا من إحساسه بأنه خُلِقَ ليُرحم لا ليُعذَّب، ومن جانب آخر إنه سوف يتعايش مع الحياة من حوله تعايشاً ايجابيًّا. يعتمد السعي من أجل الاستفادة القصوى مما خلق من أجله. وهذا لا يتحقق إلا إذا صدَّق بأنه فعلا من نعم ربه وآلائه عليه، أما إذا كذب بذلك شلَّ سعيه، وخارت إرادته، وقنطت نفسه من إمكانية تسخير الحياة، وكم عاش الإنسان على هذا الكوكب دون أن يسعى للتعرف على حركة الشمس، والاستفادة من ذلك في حياته، وتحقيق أهدافه الشخصية والحضارية، لأنه لا يؤمن بعلاقته بها، أو كان يعتقد بسبب بعدها أنها لا يمكن تسخيرها بل لم تخلق من أجله؟! والآن جاء العلم الحديث ليؤكد أنها نعمة إلهية عظيمة، وإنما خلقت لصالح الإنسان، وانطلاقا من ذلك عكس حركتها على حساباته الزمنية، ولا يزال العلماء يقومون بمختلف الدراسات التي من شانها تسخير الشمس إلى أقصى حد ممكن في خدمة الأهداف والتطلعات الحضارية للبشر.

كل يوم هو في شأن

﴿مَرَجَ[1] ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ[2] لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ[3] فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ[4] ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ[5] ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ[6] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ[7] مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) مرج: خلط.

(٢) برزخ: حاجز.

(٣) الجوار المنشآت: جمع جارية أي السفينة، والمنشآت المرفوعات، وهي التي رُفِعَ خشبها بعضها على بعض، وركّب حتى ارتفعت وطالت.

(٤) كالأعلام: جمع علم وهو الجبل العالي.

(٥) الثقلان: أصله من الثقل، وكل شيء له وزن وقدر فهو ثقل، وإنما سميت الإنس والجن ثقلين لعظم خطرهما وجلالة شأنهما.

(٦) أقطار: جمع القطر، وهو الناحية والجانب.

(٧) شواظ: اللهب الخالص أو القطع النارية المتطايرة.

هدى من الآيات:

«لَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبِّ أُكَذِّبُ» إنها العبارة التي ينبغي أن نكررها كلما تساءل السياق القرآني ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، ولكن هل يكفي أن نكرر ذلك شعاراً دون معرفة وتطبيق؟ كلا.. فماذا يعني إذن التكذيب بآلاء الله، وكيف نصدّق بها؟.

هناك فريقان من الناس يكذبون بآلاء الله. الأول الذين لا يعتقدون بالنعمة، لأنهم ينظرون إلى الحياة من خلال رؤية مشؤومة، ونفسية معقدة فإذا بكل شيء عندهم نقمة، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾ [الفرقان: ٦٠]، والفريق الآخر هم الذين يعترفون بالنعمة، ولكنهم ينكرون عمليًّا أنها من الله فتراهم يتوجهون بالشكر إلى غيره ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وهذا نوع من التكذيب أيضا فالذي لا يؤمن برب النعمة أو يشرك به لا يشكره عليها، ومن لا يشكر النعمة لا يعمل على ضمان استمرارها ونموها؟، والاستفادة منها في مواردها السليمة، أليس ذلك كله مرهونا بالشكر على وجهه الصحيح؟ جهاز الهضم عند الإنسان مثلاً (الفم، المريء، المعدة، الأمعاء) ينبغي أن نستفيد من هذه النعمة، فالذي يعلم أنها من الله، سوف يبحث عن برنامج الرسالة في الأكل والشرب، نوع الطعام والشراب المطلوب، ومقداره، وطريقة استهلاكه (آداب الأكل والشرب) أما الآخر المكذّب بالله فلن يلتزم بحد في ذلك، سيسرف فيها ولن يمتنع عما يضره كالخمر ولحم الخنزير، وهذا نوع من التكذيب أيضا، وكذلك يكذب بالنعمة الذي يستخدم الثروة من أجل استغلال الآخرين والسيطرة عليهم، والإسراف والتبذير على النفس، كما أن الذي يتخذ السلطة وسيلة للقهر والاستعلاء هو الآخر يكذب بآلاء ربه.

والذي لا يستخدم النعمة في الخير لنفسه وللبشرية، وبالتالي لا يعمل على ضمان استمرارها باستمرار عواملها، فإنه ليس فقط يُحرم من نموها، بل ويجعلها عرضة للزوال ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، إذن فتطبيق قولنا: «لَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبِّ أُكَذِّبُ» يكون بالتزام شكر النعمة دائما، وذلك يعني أن نعترف بأنها نعمة فعلا، وثانياً أن نعرف أنها من الله فنشكره قولا، ونطبق منهجه عملا، وهذا هو التصديق بآلاء الله.

بينات من الآيات:

[١٩-٢١] ومن حركة الشروق والغروب في آفاق السماء، يأخذنا القرآن إلى مياه البحار التي تلتقي مختلفة مع بعضها دون أن تبغي أو تطغى.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ وفي الآية إشارة إلى عدة ظواهر طبيعية، الأولى التقاء مياه البحار المالحة بالمياه الأخرى العذبة، كمياه الشط والأنهار، فإنها وإن كانت تلتقي مع بعضها ولكنها تبقى على طبيعتها لا تتغير لفترة من الوقت. وصورة أخرى من حكمة الرب أنه جعل الأنهار في كل العالم مرتفعة عن البحار، قال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]. والظاهرة الثانية هي التقاء البحار حتى المالحة مع بعضها. إن ثلاثة أرباع كوكبنا يتكون من ماء البحار والمحيطات، وهي متصلة مع بعضها، والأرض في حركة دائمة حول نفسها وحول الشمس إلا أن منسوب المياه فيها كلها يبقى ثابتاً، ولم نجد يوما أنها انسكبت في بحر واحد ليطغى ماؤه مثلاً.

وحينما نبحث في الطبيعة من حولنا نجد شواهد أخرى لهذه الآية الكريمة، فإن شطري البيضة (الصفار والبياض) مهما رججتها لا يمتزجان، وكذلك بحار النور والظلمة في حركة الليل والنهار فإنهما يتحركان حركة ذاتية وبينهما نقطة التقاء دائمة ولكنهما لا يختلطان ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣]، وحينما نعود من رحلة التفكر في الآفاق إلى شوط آخر من التفكر في أنفسنا نجد مظهرا لهذه الحقيقة في حياة الإنسان، حيث يلتقي ماء الرجل بماء المرأة ويكوّنان النطفة التي تنمو حتى تصير خلقاً سويًا ذكراً أو أنثى، وتظل خصائص المرأة وخصائص الرجل هي هي لا تتغير، بل إن المياه العذبة التي نستخرجها من باطن الأرض لشربنا تلتقي أحواضها مع مياه البحر التي تتشبع بها الأرض حتى الأعماق ولكن ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، وفي الواقع الاجتماعي يلتقي المؤمنون بالكافرين وتبقى بينهما الفواصل.

أما البرزخ الذي يقف حائلا بين البحرين فقد يكون جسماً ماديًا كاليابسة تفصل بين بحر وآخر، ولو طغت البحار عليها لانعدمت حياة الإنسان فوقها، أو الغشاء الذي يمنع صفار البيض من الاختلاط ببياضها لو كانا يختلطان لما صلحت البيضة أن تكون فرخا ولانقرضت الطيور بأنواعها. وقد يكون البرزخ هو السنن والقوانين الطبيعية كالجاذبية والكثافة والخصائص المختلفة للخليطين، وقد يكون القيم والثقافة التي يؤمن بها كلا التجمعين الكافر

والمؤمن، وكلها لا شك من صنع الله، ومظهر لهيمنته على الحياة، ورحمته بالإنسان إذ جعل التنوع والحدود قائمين في الوقت ذاته، أليس ذلك يدل على حسن النظم، ودقة التدبير، ومتانة الصنع، وعزة الخالق وحكمته؟.

وحينما ندقق النظر ونركز الفكر في هاتين الآيتين نجدهما بكل كلمة وردت فيهما تعبيراً عن رحمة الله وإشارة إليها، أترى لو طغت البحار على اليابسة أو على بعضها وانعدمت الفوارق هل ذلك في صلاح الإنسان؟ كلا.. ثم إن القرآن يقول: ﴿مَرَجَ﴾ وهو الحركة الذاتية في كلا البحرين بفعل التموجات، كما يقول: ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ إشارة إلى الحركة الثنائية، وهما معا رحمة إلهية ظاهرة، فلو جعل الله البحار راكدة لأسن ماؤها وتعفن وبالتالي استحال عيش الأسماك والكثير من الأحياء الأخرى فيها، وما كان الإنسان يستخرج منها حلية ولا لحماً طريًّا. ثم إنه جعل البحار متصلة تلتقي ببعضها ليسهل على الأحياء البحرية الانتقال مهاجرة عبرها، ويسهل السفر إلى أكثر نقاط العالم. ولو لم تكن الأنهار -وبالذات الكبيرة منها- تلتقي بالبحار لتصب فيها فائض مياهها لكانت تطغى وتُهلك الحرث والنسل ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٢٢] ويذكرنا السياق بنعمة الزينة التي أودعها الله في البحار، وهي من الحاجات الكمالية لا الأساسية عند الإنسان، انسجاما مع سياق السورة الذي يهدف بيان تجليات رحمة الله (اسم الرحمن) في الحياة، لأن الزينة أقصى النعمة وأرفعها.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ إن الله لم يودع في البحار حاجاتنا الضرورية وحسب، بل الكمالية أيضا: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]، والقرآن بهذه الآية من سورة الرحمن يُفنِّد المزاعم القديمة بأن الأنهار لا تربّي اللؤلؤ والمرجان، وقد جاء العلم الحديث فأثبت خلاف ذلك، وهكذا يبقى كتاب الله سابقا للحضارة.

ولعل الآية تشير إلى إباحة استخراج الزينة والتحلي بها أوَلم يقل ربنا سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ [الأعراف: ٣٢]، كما قال: ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

[٢٣-٢٥] تلك كانت مظهرا من آلاء الله التي تتجلى للإنسان كلما ركب البحر، وكلما غاص في أعماقه، وهكذا كلما دار البصر في آفاق الخليقة ونظر إلى الشمس والقمر والنجوم والأرض والبحار والأنهار، ثم غار في أعماق النفس وما فيها من أبعاد وآماد، كلما وجد آلاء

ربه تنهمر عليه من كل حدب وصوب أوَلا تكفيه دليلاً إلى ربه، وهاديا إلى معرفته، وباعثا له إلى شكره؟ لكنك ترى أكثر الناس يكذِّبون بالنعم ويقصِّرون في الشكر بل لا يشكرون أبداً، وحتى أولئك الذين يقضون سحابة أعمارهم في خوض لجج العلم أو متابعة قوانين الطبيعة عبر البحوث الميدانية، والاكتشافات الجديدة، لا ينطلقون من اكتشافاتهم إلى خلفياتها، حيث الإيمان برب العزة والرحمة، بل تراهم ينظرون إلى الحياة نظرة سطحية فلا يزدادون إلا ضلالا وتكذيبا بالحق، إنهم يقفون عند ذلك الحد ويظنون أنها التي تحرك الحياة ولا يتساءلون من الذي وضع القوانين والأنظمة والسنن؟! ومن الذي يُسيِّرها ويهيمن عليها؟!.

بلى؛ إن العلم الذي لا يتأسس بالإيمان والمعرفة بالله، قد يضر الإنسان أكثر مما ينفعه، لأنه قد يصبح وسيلة للكفر والتكذيب بالرب وإرادته ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ومن آلائه السفن التي تحملنا إلى الأقطار المتباعدة في أسفارنا وتجارتنا ومظان الصيد، أترى لولاها هل استطعنا أن نركب البحر، أو وصلت أيدينا إلى كنوزه لحما وزينة؟؟ كلا.. ولهذا كان من البداهة في هذه السورة الرحمانية أن يحدثنا القرآن عن السفينة فور حديثه عن البحر.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ والجري هو المشي السريع ولا يقال للسفينة سارت، قال تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

والمنشآت من الإنشاء والصناعة، وشبَّهها الله بالأعلام (الجبال) لارتفاعها كالعَلَم في البحر. وهذا المعنى يكون أكثر ظهورا في السفن الشراعية.

والسؤال لماذا لم يقل ربنا عند حديثه عن النعم الأخرى كالشمس والقمر، والنجم والشجر: إنها له، في حين قال هنا: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾؟.

والجواب: لأن الإنسان لا يستطيع أن يدَّعي ملكية تلك النعم، ولم تصل يده إليها في شيء، ولكنه قد يظن أنه مالك السفينة وخالقها، لأنه الذي خطط لصناعتها ونشر ألواحها وجمعها إلى بعضها بالدُّسُر والمسامير فهنا يحتاج إلى من يذكره أن صانع السفينة ذاته مخلوق الرب، وأنه لم ينشئها إلا بحوله وقوته وبما أودع الله فيه من عقل، وحكمة، وأعطاه من علم ومعرفة، وهَيَّأ له من فرص العمل.. فالسفينة لله، وهو الذي يجريها بقدرته في البحار. والبحَّارة يعرفون كم هي الأخطار العظيمة التي تحيط بهم، وهم يعتركون الأمواج المادرة في أعالي البحار.

ثم إن ربنا هو الذي علَّم نبيه نوحا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ صناعة السفن وهو بدوره علمها للبشرية،

كما علم عباده الكثير من الشؤون والأمور عبر أنبيائه ورسله كالميزان، وقد روى الطبرسي في جوامع الجامع: «أَنَّ جَبْرَائِيلَ عليه السلام نَزَلَ بِالمِيزَانِ فَدَفَعَهُ إِلَى نُوحٍ وَقَالَ: مُرْ قَوْمَكَ يَزِنُوا بِهِ»[1] والسفينة إلى الآن أفضل وسائل النقل التي اكتشفها البشر، فهي إذن نعمة إلهية، والقرآن يطرح بعد التذكرة بها هذا السؤال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أَوَيكفي العقل دليلا على ضرورة شكر من أسبغ علينا هذه النعم الجسيمة؟ بلى؛ ولكن ربنا الرحمن يزيد بلطفه على هدى العقل التذكرة بالوحي بالرغم من أن العقل حجته علينا بالغة، بل يُبَصِّرنا بنعمه من خلال الوحي ويستثير عقولنا ويشد أسرها في مواجهة هوى النفس وطباعها، فلا يقول أحد وقد كذَّب بآلاء الله إنها مجهولة لديه. وبعد هذا البيان والتأكيد لن يكون قصور الإنسان عن الشكر، ومعرفته ربه، بغفلة وقد سبق إليه منه الذكر بفضله، ولا بجهل وقد تقدم منه إليه العلم برحمته.

[٢٦-٢٨] وبعد مخاطبة العقل بلغة الحقائق العلمية التي يراها البشر بعينه فتنفذ إلى ضميره يخاطب الوحي وجدان الإنسان مباشرة، ويهزه بأعظم الحقائق وطأة في نفسه. إنها حقيقة الموت والفناء التي يحاول دائما الفرار منها، فيعطي ماله أو يضحِّي بأعز الناس إليه وأقربهم منه لعله يفتدي نفسه منه أو يؤخره عنها ولو لسنة إضافية أو حتى بضعة أيام. وكما فناء الإنسان كذلك فناء الأشياء من حوله دليل وحدانية الله. وربنا يذكِّرنا بذلك بوصفه أعظم آية تهدينا إلى معرفته وتوحيده.

بلى؛ لقد دعانا الله إلى النظر في ظواهر الطبيعة، والتفكر فيها، ولكن من دون الانبهار بها، لأنها مجرد نعم وآيات يجب أن نؤدي شكرها ونهتدي بها إلى دلالاتها. إنها مُحْدَثَة فلا بد لها من خالق، وهي تفنى أو تموت فهي ليست إلهاً، لأن الإله لا يموت.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي كل ما في الأرض بكُله لا بعضه، ولكن الله لا يقول: ميت، لأن الموت يجري في الأحياء فقط، بل يقول: فانٍ، لأن الفناء يشمل كل شيء مخلوق. وفي دعاء إدريس النبي عليه السلام: «يَا بَدِيعَ البَدَائِعِ وَمُعِيدَهَا بَعْدَ فَنَائِهَا بِقُدْرَتِه»[2].

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فما هو وجه الله الذي يبقى في حين يفنى كل شيء؟ إن الألفاظ تفقد ظواهرها التجسيدية لتبقى حقائقها عند الحديث عن ربنا القدوس سبحانه فليست يده سوى قدرته، وعينه إلا إحاطته علما وشهادته على كل شيء وهكذا وجهه، فإنه ما يتجلى به في الخليقة، حتى يعرفه بها من أراده، ويرى نوره من خلالها من أحبه، أَوَلسنا نحن البشر نرى نظراءنا من خلال أوجههم الظاهرة، وتعالى الله عن الأمثال، كذلك الوجه الظاهر لربنا دينه

(١) نور الثقلين: ج٥، ص٢٥٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٩٨.

المشتمل على سننه وشرائعه والحقائق التي تدل عليه، كذلك قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فَالمُرَادُ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا دِينَهُ؛ لِأَنَّ مِنَ المَحَالِ أَنْ يَهْلِكَ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَبْقَى الوَجْهُ هُوَ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَهْلِكُ مَنْ لَيْسَ مِنْهُ أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ فَفَصَلَ بَيْنَ خَلْقِهِ وَوَجْهِهِ»[1].

ويتجلى الدين بدوره فيمن يمثله كالأنبياء والأئمة عليهم السلام الهداة إلى الله، وهكذا يفسّر الإمام الرضا عليه السلام الوجه حينما يسأله أبو الصلت قال: «يَا بْنَ رَسُولِ الله فَمَا مَعْنَى الخَبَرِ الَّذِي رَوَوْهُ: أَنَّ ثَوَابَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الله، فَقَالَ عليه السلام: يَا أَبَا الصَّلْتِ مَنْ وَصَفَ اللهَ بِوَجْهٍ كَالوُجُوهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَكِنَّ وَجْهَ الله أَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ وَحُجَجُهُ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ، هُمُ الَّذِينَ بِهِمْ يُتَوَجَّهُ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى دِينِهِ وَمَعْرِفَتِهِ»[2]. وقال الصادق عليه السلام: «وَنَحْنُ وَجْهُ الله..»[3].

إذن وجه الله هو الحق المتمثل في سننه وشرائعه ودينه وأوليائه، ويفنى كل شيء دونها، فعلينا التمسك بها دون أن تؤثر فينا المتغيرات فإذا كان أحدنا يعمل الصالحات فليعملها لوجهه، إذا كان يبحث عن الجزاء، أترى لو عمل صالحا رياء أو شركا هل ينفعه شيء؟.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فلا يمكن مع آية الفناء أن يَدَّعي أحد الألوهية أو تُدَّعى له، أو يدعي بأنه جاهل بربه، وإذا كان لا بد له من ذلك فليدفع أولا الموت عن نفسه، أو يدفعه الآخرون عنه.

[٢٩-٣٠] ثم يذكرنا القرآن بصفة أخرى لربنا عز وجل تجعلنا أكثر طاعة له وتبتلا إليه، وتلك هي صفة البداء التي تعني الهيمنة الشاملة والدائمة له على الوجود، فليس الكون شعلة أبدية كانت ولا تزال كما يدعي الماديون.

إن الطبيعة ليست هي التي تُميت وتُحيي، والسنن والأنظمة والقوانين ليست بذلك الثبات المطلق، إنما الذي يتصرف في الخلق هو الله، وكل شيء يستمد ثباته واستقراره منه، فهو يغيِّره متى شاء وكيف أراد.

ولو أننا أمعنا النظر في الحياة لوجدنا هذه الحقيقة بوضوح فإلى جانب الثوابت هناك متغيرات غير معروفة عند الإنسان.

الطبيب يقدم وصفته للمريض بعد الفحص، ولكنه يعترف بأنه لا يعرف كل الأمراض

(١) بحار الأنوار: ج٢٤، ص١٩٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٤، ص٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٤، ص٦.

(١٠٠٪) ولا يعطي ضمانة للعلاج مئة بالمئة لماذا؟ لأن هناك هامشا مجهولا في المرض والعلاج، فالأمراض تتداخل أعراضها، كما أنه قد لا يستقبل الجسم الدواء، لذا يقول: هذا مرضك حسب الظاهر، وهذا دواؤك إن شاء الله.

ومن الطب إلى كل جانب وميدان في الحياة هناك دائما فراغ في القوانين الطبيعية لا يقدر علم الإنسان وقدرته أن يملآنه إنما هو خاص بمشيئة الله سبحانه.

من هنا لا يثق أحد كل الثقة بما أوتي من علم وقوة، بل يظل في ريب من أن المستقبل قد يحمل إليه ما لم يحتسبه. بلى، لقد علمته تجارب لا تحصى أنه ليس مليك الكائنات، بل ولا يملك نفسه، فكم قد خطط لمستقبله فقلبت المتغيرات خططه، وكم قد عقد عزائم قلبه على شيء ففسخت المفاجآت عزائمه.

وهكذا ينطوي ضمير كل إنسان على أن يد الغيب تهيمن على الخليقة لا يده، ويمثل هذا حجة بالغة تهدينا إلى ربنا سبحانه. وصدق أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ العَزَائِمِ وحَلِّ العُقُودِ ونَقْضِ الهِمَمِ»[1].

فالإنسان يصنع المكوك الفضائي[2]، ويصرف عليه المال الكثير، صناعة ودعاية، وقبل إطلاقه يقوم العلماء بالحسابات الدقيقة عبر العقول الإلكترونية، وإذا به ينفجر في الفضاء ويتحول تحديًا مضادًا، ونكسة لا زالت آثارها قائمة في نفوسهم وحيرة في عقولهم، وهكذا تتجلى الإرادة الإلهية المطلقة في بعض الظواهر لكي تعيد الإنسان إلى رشده وتثنيه عن أن (يتحدى) خالق الكون.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه وحده الإله والقادر على قضاء حوائجهم وتحقيق طموحاتهم. والسؤال ليس مقتصرا على الإنس والجن والملائكة، بل يشمل كل الخلق العاقل والبهيم، والجامد والمتحرك، لأنه ما من شيء إلا ويفتقر إلى الله، وما من شيء إلا وله لغة مع الله ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وليس من طريق للإنسان لكي يبلغ طموحاته بفضل الله، ويرفع عن نفسه كل عقبة وأذى بتوفيقه، قبل العمل وبعده إلا الدعاء، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال أمير

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ٢٥٠.

(٢) تشالنجر أي التحدي أطلقته الولايات المتحدة وانفجر في عام ١٩٨٦م.

المؤمنين عليه السلام: «مَنْ قَرَعَ بابَ اللهِ فُتِحَ لَهُ»[1] وقال الإمام الصادق عليه السلام: «فَأَكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ رَحْمَةٍ وَنَجَاحُ كُلِّ حَاجَةٍ، ولَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ إِلَّا بِالدُّعَاءِ، وإِنَّهُ لَيْسَ بَابٌ يُكْثَرُ قَرْعُهُ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لِصَاحِبِهِ»[2]. ولكن ينبغي للعبد أن يرعى آداب الدعاء، و«كُلُّ دُعَاءٍ لَا يَكُونُ قَبْلَهُ تَمْجِيدٌ فَهُوَ أَبْتَرُ»[3]، وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «صَلاتُكُمْ عَلَيَّ إِجَابَةٌ لِدُعَائِكُمْ وزَكَاةٌ لِأَعْمَالِكُمْ»[4]، «لاَ يَزَالُ الدُّعَاءُ مَحْجُوباً حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ»[5]، وقال الصادق عليه السلام: «إِنَّمَا هِيَ الْمِدْحَةُ ثُمَّ الثَّنَاءُ ثُمَّ الإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ الْمَسْأَلَةُ»[6] والخلق كله في وجوده وتوفيقاته يحتاج إلى السؤال من الله لحظة بلحظة، وحيث لا يستطيع العبد أن يعرف ربه ولا يتصل به مباشرة لذلك جعل أسماءه، وعرّفنا عليها رحمة بنا، فنحن نسأله بأسمائه وفي الدعاء: «أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي أَشْرَقَ بِهِ كُلُّ شَيْءٍ، وبِاسْمِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ، وبِاسْمِكَ الَّذِي صَلَحَ بِهِ الأَوَّلُونَ وبِهِ يَصْلَحُ الآخِرُونَ»[7].

بلى؛ قد يضل الإنسان ويكفر بالله فلا يسأله أو يدعوه بلسانه، ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن ينكر ربه في نفسه، بل ويظهر فيه الاعتراف به تعالى، والاستكانة والحاجة ساعة الضيق والحرج: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢].

لقد تسربت بعض الفلسفات الجاهلية القديمة إلى الأديان فزعموا أن السؤال لا ينفع شيئا، وحكى الله عنهم ذلك في كتابه إذ قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهكذا تسربت هذه الفلسفة الموغلة في الضلال إلى أذهان البعض من المسلمين تحت عناوين مختلفة، كالجبرية والقدرية، فاعتقدوا أن الله كتب أقدار الخلق، وأنه لا يقع إلا ما كتب عليهم، وقد جف القلم وطُوي الكتاب، وانطلاقا من هذه النظرة السلبية أنكروا أثر الاستغفار والدعاء. وكم تقف هذه الفلسفة حجابا بين العبد وربه، أتراه سوف ينطلق نحوه، أو يسأله حوائجه، أو يتوسل إليه وقد غَلَّ يديه ولسانه وقلبه بالقنوط واليأس؟ ولماذا يُتعب نفسه بالسؤال من رب لا إرادة عنده؟ فالأقدار هي هي لا تتغير، وما عسى أن يكون ينفع الدعاء إذن؟ وبهذا نعرف الفرق الكبير بين المعارف الإلهية والفلسفات البشرية، فبينما تزرع الفلسفات البشرية اليأس في نفس الإنسان، وتقلل فاعلياته

(١) غرر الحكم: حكمة ٣٧٥١.
(٢) الكافي: ج٢، ص٤٧٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٣٢١.
(٤) وسائل الشيعة: ج٧ ص٩٦.
(٥) الكافي: ج٢، ص٤٩١.
(٦) الكافي: ج٢، ص٤٨٤.
(٧) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٣٦٠.

وتجمد طاقته بالحتميات التي تزعم أنها تحيط بالقدرة البشرية كما جدران السجن بالمجرم، نجد أن النهج الإلهي الحنيف يفتح آفاق الرجاء أمامه، ويعطيه الثقة بربه القادر على إنجاح طلباته، وتغيير المعادلات والواقع إلى صالحه، ويفند الأفكار الجبرية والقدرية بفكرة الدعاء الذي ينطلق من العبد إلى ربه (السؤال) وأنه فوق الحتميات والأقدار وفوق القضاء، قال الإمام الباقر عليه السلام يخاطب زرارة رضي الله عنه: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَسْتَثْنِ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله؟، قُلْتُ: بَلَى. قَالَ عليه السلام: الدُّعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ وَقَدْ أُبْرِمَ إِبْرَاماً، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ»[1]، وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «عَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ فَإِنَّ الدُّعَاءَ للهِ وَالطَّلَبَ إِلَى اللهِ يَرُدُّ الْبَلَاءَ وَقَدْ قُدِّرَ وَقُضِيَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِمْضَاؤُهُ، فَإِذَا دُعِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَسُئِلَ صَرْفَ الْبَلَاءِ صَرَفَهُ»[2].

ولعل الآية التالية تدل على صفة البداء التي هي مفتاح بصيرة الدعاء فلولا أن الله قادر على تغيير الخليقة ودفع البلاء ورفع القضاء إذن لم يبق أثر للدعاء، ومن لا يعتقد بالبداء ولا يؤمن بسلطة الله المطلقة التي لا يقيدها أي شيء مما سواه، ومن نفسه سبحانه فإنه لا يعتقد بألوهية، كيف وأنه يجعله تعالى أقل قدرا وقدرة حتى من الملوك إذ تجرّد عنه أهم صفاته وهي السلطة ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤]، سبحانه وتعالى عما يصفون علوًّا كبيراً.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ قال النبي صلى الله عليه وآله: «فَإِنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْباً وَيُفَرِّجَ كَرْباً وَيَرْفَعَ قَوْماً وَيَضَعَ آخَرِينَ»[3]. وقال علي بن إبراهيم رحمه الله: «يُحْيِي وَيُمِيتُ وَيَرْزُقُ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ»[4]، فلا ثبات بعد الدعاء واستجابة الله، أو بعد بدائه عز وجل، حتى في ليلة القدر التي تكتب فيها أقدار الخلائق إلى مثلها من قابل فإن الكتاب ليس أبديًّا إذ اشترط ربنا لنفسه البداء فيما كتب سبحانه فيها -كما جاء في الحديث-، وكما قال ربنا سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

ولعلنا نفهم من هذه الآية أن الله يخلق كل يوم خلقا جديدا لا نعلمه، ونجد إشارة إلى هذه الحقيقة في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ لِأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ مِنْ إِحْدَاثِ بَدِيعٍ لَمْ يَكُنْ»[5].

(١) أصول الكافي: ج ٢، ص ٤٧٠.
(٢) الكافي: ج٢، ص٤٧٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٤، ص٧١.
(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٥.
(٥) الكافي: ج١، ص١٤١.

وقد أشارت البحوث الفضائية إلى وجود أدلة على أن هناك حالة تكوُّن لمجرات جديدة في أعماق الفضاء الرحيب. إذن فلندع اليأس ولنطلق العنان لطموحاتنا تصل إلى أقصاها انطلاقا من توكلنا على رب واسع الرحمة مطلق الإرادة يجيب المضطر إذا دعاه وهو منتهى الآمال، ثم نسعى لتحقيقها نستمد منه العون والتوفيق، ونسأله الإجابة. لا نضع سقفاً ولا حدًّا لطموحاتنا، فهذا نبينا الأكرم ﷺ وهو أعلم الخلق يدعو ربه ﴿رِّدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وهو أرفع الناس درجة وأقربهم منزلة إلى الله، ولكن الوحي يأمره بأن يتطلع إلى المزيد من الشأن والرفعة ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، ويأمرنا بأن نصلي عليه في كل شارق وغارب حتى يزيده الله من فضله فنقول: اللهم آت محمدا أفضل ما سأل وأفضل ما سُئل له، وأفضل ما أنت مسؤول له إلى يوم القيامة. لماذا؟ لأن نعمة الله لا تنتهي، وهكذا لا بد أن يكون طموح المخلوق، وإنها دعوة إلى التفكير في طموح أكبر، والعروج إلى منزلة أرفع عند الله، ومن وصايا الإمام علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: «اعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ مَلَكُوتِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ قَدْ أَذِنَ لِدُعَائِكَ وَتَكَفَّلَ لِإِجَابَتِكَ وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَهُوَ رَحِيمٌ كَرِيمٌ لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ ... ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدِكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ خَزَائِنِهِ..»[1].

والذي أعطي السؤال لا يُحرم الإجابة، فالسؤال والبداء مظهران جليّان لاسم الرحمن، ونعمتان عظيمتان للخلق من الله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنها من الظهور والكثرة بها لا يمكن إنكارها، ولكن الخلق يكذبون، ومن أبرز عوامل التكذيب لدى البشر الشرك بالله، فإذا به يعبد البقر لأنها تدر عليه الحليب، ويعبد النار لأنها تدفئه وينتفع بها في الطهي، في حين أن الله هو ربه وربها، وإليه ينبغي الاعتراف بالفضل، وصرف الشكر. والسؤال كيف يكذب الإنسان بنعمتي الدعاء، والبداء؟ إن ذلك يكون حينها ينكر حقيقة البداء، أو نعمة الدعاء فيحرم نفسه من معطياتها.

[٣١-٣٢] وإذا ما كذب المخلوق بنعم الله وآياته (آلائه) فإنه سيعرض نفسه لسخط الله وعذابه، بالذات عندما يحين موعد الحساب.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ يعني الإنس والجن. ذهب المفسرون مذاهب شتى عند بيان معنى الفراغ، بيد أن إبهام المعنى يتضح جليًا إذا عرفنا منهج القرآن فيما يتصل بأفعال ربنا القدوس حيث تؤخذ الغايات وتترك المبادئ، وترمز الكلمات إلى نتائج المعاني ونهايات

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٣١.

الحقائق.. لا إلى كيفية وقوعها وطريقة تحققها، فمثلا إذا قال ربنا سبحانه: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]، فإن غاية المجيء وهو الحضور والشهادة قد تحققت أما الكيفية التي نعرفها من مجيء البشر بالانتقال من مكان لمكان، فإنها لا تتصور في الله الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو الشاهد على كل شيء.

كذلك إذا قال سبحانه: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة: ١١٩]، فإن نتيجة الرضا تتحقق، وهي الرحمة والعطاء لا ما يحدث عندنا من مقدماته كالانفعال الإيجابي في النفس، وهكذا الغضب الإلهي معناه ما ينتهي إليه الغضب من الانتقام لا مقدماته ومبادئه من جيشان الدم وتوتر الأعصاب، ومثل ذلك الحب والعطف والحنان والكره والبغض و.. و.. فربنا سبحانه متعالٍ عن الكيف والأين والتحول و.. .

وفي الآية لا يعني ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ أن ربنا كان مشغولا عنهم بحيث لم يتسع لهم وقته، ولم تحتمل قدرته بما عنده من الشؤون، كلا.. سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، إنما الغاية من الفراغ تمام التدبير والقدرة والجزاء، ومنه قولنا: تفرَّغ فلان للعمل أي انصب عليه بكامل قدرته ووعيه وإرادته، والآية تشير إلى أن الله أعطى الثقلين حرية نسبية في الدنيا، أما في الآخرة فالأمر لله وحده ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]. ولك أن تتصور شيئا من الرهبة التي تحملها إلينا كلمة ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾، إذا علمت أنه تهديد من رب العزة والقدرة المطلقة، إلى مخلوق ضعيف محدود كالإنسان الذي «تُؤْلِمُهُ البَقَّةُ وَتَقْتُلُهُ الشَّرقَةُ وَتُنْتِنُهُ العَرْقَةُ»، كما يصفه الإمام علي بن أبي طالب[1]، ويكفي هذا الوعيد العاقل الذي يُلقي سمعه شهيدا أن يتورع عن التكذيب بآيات ربه ونعمه، لأن ذلك مما يوجب عذابه، وإن الله يوم القيامة يوقف عباده للسؤال عن النعيم ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ومن صور التكذيب بَذْلُ النعمة في غير موقعها، أو أخذها من الحرام، والاستعانة بها في مخالفة الحق، كالعين ينظر بها إلى أعراض الناس، والأذن يستمع بها الغيبة والنميمة والغناء واللغو، والرجل يمشي بها إلى المعصية، قال رسول الله ﷺ: «أَنَّهُ لَا يُجَاوِزُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ جَمَعَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ البَيْتِ»[2].

[٣٣-٣٦] ويفتح الله آفاق الطموح أمام الإنسان بعيدا عن الأساطير البشرية ليسجل

(١) نهج البلاغة: الحكمة: ٤١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٢.

سبقا على العلم الحديث بأكثر من (١٣) قرنا من الزمن، ولا غرابة فهو كتاب الله.

إن الفلسفات البشرية كانت دائما تُكبِّل عقل الإنسان، وتُقيِّد طموحاته، وتضع إصراً على نفسه تمنعه من الثقة بها والتوكل على ربه، وذلك عندما كرَّست الجهل ووضعت مجموعة نظريات بدائية عن الإنسان والعالم واعتبرتها غاية العلم ونهاية المعرفة، فتحولت إلى سقف للفكر وسجن للعقل، وعقبة اجتماعية كأداء أمام التقدم.

وكانت من أهداف رسالات الله كسر هذه الحدود الوهمية، وبعث الإنسان نحو آفاق العلم وإثارة تطلعاته الكامنة. هكذا يقول ربنا سبحانه عن رسالة النبي محمد ﷺ ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

لقد كانت السيارة وسيلة المواصلات في ذلك العصر أمرا مستحيلا لا يداعب مجرد خيال الناس، فإذا بالقرآن يأخذهم بعيداً جداً ليحدثهم بما يتضمن التشجيع على الوصول إلى أقطار الأرض وآفاق السماء. وكم يُنمّي مثل هذا الحديث من الله المقتدر الثقة في الإنسان بنفسه، ويوسع من حدود طموحاته حينما يسمعه مصدِّقاً به مؤمناً بقوله.

لقد اختلف المفسرون وهم يبحثون عن مضمون الآية (٣٣) التي تقول: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ مع أنها واضحة.

لماذا؟ لأن فكر الإنسان يتحدد بالجو العلمي المحيط، فبعد أن اتصل فكر المسلمين بالفكر الإغريقي وبالذات في مجال الهيئة البطليموسية التي كانت تتصور السماء من الجواهر غير القابلة للرتق والفتق؛ ظهرت عند المفسرين آراء بعيدة، فقالوا بما أنه يستحيل على الإنس والجن أن يصعد إلى الآفاق فإن ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ في الآية ظاهر في التحدي، أي إنكم لا تستطيعون أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض في حين أن الآية ظاهرة في خلاف ذلك حيث نقرأ في نهايتها ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾، فهم ينفذون ولكن بسلطان. وهكذا القرآن لم تنعكس على آياته النظريات العلمية الشائعة في عهد نزوله، ولو كان من صنع البشر لكان يستحيل أن يبقى معتصما عن آثارها عليه أليس الإنسان يكوِّن أفكاره من الجو العلمي المحيط به؟ ألا ترى كيف أن تفاسير الناس للقرآن تأثرت بالأجواء العلمية لعصر كتابتها، مع أنها كانت تحوم حول الكتاب المتعالي عن النقص، ولا نجد كتابا ألَّفه البشر عبر التاريخ إلا وكان مرآة للمستوى العلمي الذي بلغه الناس يومئذ إلا القرآن، أَوَلا يهدينا ذلك إلى أنه كتاب ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

وهكذا القرآن لا يزال هو المقياس للحضارة، وإذا عارض نظرية علمية ما فإننا لا ريب سنجد قوله هو الثابت، وأما تلك النظرية فتذهب هباء.

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ هكذا يستثير القرآن التطلع الكامن داخل نفس الإنسان نحو العلم والمعرفة والتقدم، فهو يحدِّثه عن بساط الريح الذي كان لدى سليمان عليه السلام، وكيف أنه سخَّر الحياة من حوله (الجبال والجن والطير و..) وجعلها في خدمة الحضارة البشرية، ليؤكد له أن الطريق سالك أمامه للوصول إلى هذه القمة السامقة من التحضر.

وبالطبع إنه لا يرسم خريطة عن المركبة الفضائية حينما يستثيرنا في هذه الآية عن إمكانية اختراق الفضاء، ولم تتنزل فيه سورة تحدثنا عن لغة الطير لماذا؟ لأنه ليس كتاباً تكنولوجيًّا وإن كان يشير إلى بعض الحقائق إشارة مباشرة، إنما هو كتاب حياة يستثيرنا نحو العلم، ويعطينا الثقة بأنفسنا، ويوجه عقولنا وقدراتنا في قنواتها الاستراتيجية الصحيحة، أما التقدم العلمي أو تحول التطلعات والحقائق التي يبينها إلى واقع فذلك من وظائف العقل البشري، ولو فعل ذلك لكان يشكل سقفاً للفكر وحدًّا للعقل وعقبة أمام التطور، والمطلوب أن يكون منهجا للفكر ومحرِّضا للعقل وباعثا نحو التطور.

والقرآن هنا وهو يريد أن يستثيرنا نحو تطلع حضاري كبير، هو اختراق الآفاق وتسخير رقعة أوسع في هذا الكون الرحيب الذي خُلق من أجلنا، في خدمة الحضارة البشرية، فإنه يدخل إلى ذلك بكلمة عميقة تحتمل من الأفكار الحضارية الشيء الكثير إذ يخاطبنا ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ﴾ والمعشر هو من العِشْرة والتعاشر، وهو التجمع الذي تربطه ببعضه وشائج محددة، بل إن الكلمة تفيض بأوسع معاني التعاون الاجتماعي بين الأفراد، وبذلك يضع القرآن فكرة هامة أمام أبصارنا وبصائرنا، وهي أن المنجزات الحضارية الكبيرة كالنفاذ من الآفاق لا يمكن أن تنتقل من التطلع إلى الواقع العلمي والعملي، إلا بجهد جمعي تتعاون فيه القدرات، وتتلاقح فيه الأفكار، وتتكامل فيه المعارف، وتتضافر فيه الإرادات، ولم يكتف بذكر الإنس وحدهم، بل قال الجن والإنس وقد قدم القرآن الإنس على الجن حينما تحدث عن الخلق في الآيتين (١٤-١٥) وهنا حدث العكس، وذلك لأن السياق في تلكما الآيتين يتناول الأفضلية فتقدم الإنسان لأنه الأفضل، والحديث في هذه الآية عن الأكثرية ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ﴾ لذلك تقدم الجن وهم الأكثر، ويبدو أن سبب ذكر الجن في هذا السياق هو:

١ - أن القرآن رسالة كونية شاملة، وهي موجهة للجن كما هي موجهة إلى الإنس، فهما قد خلقا لهدف واحد هو العبادة ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]،

كما خلقت النار لمن عصى منهما، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، كذلك نزل القرآن لهما معا. وهناك إشارات واضحة وظاهرة إلى هذه الحقيقة قال تعالى:

- ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

- ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣]. ونداء كوني كهذا الذي يوجهه القرآن لا يليق إلا برب العزة، وحتى الإنسان مهما بلغ من التطلع العالمي لا يجد طريقا لمخاطبة الجن ولعل البشر يتقدم يوما حتى يصل إلى مستوى التعاون مع الجن كما حدث للنبي سليمان عليه السلام حسب القرآن: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩].

٢- وأراد الوحي من ذلك أن ينسف إحدى النظريات الخاطئة التي تقف عقبة في طريق خوض الإنسان لعلم الفضاء واكتشافه كنوز الأرض ومساحاتها، وهي أن الإنسان عاجز عن النفوذ من أقطار السماء وأن ما بعد البحر والصحراء ليس إلا بحار الظلمات وعوالم غريبة مخيفة لا سبيل للبشر إليها، وأن الجن وحدهم يستطيعون ذلك، فجاءت هذه الآية لتعيد للإنسان الثقة بنفسه، وتؤكد له قدرة متساوية لا أقل مع قدرات الجن بالرغم من أن الجن خُلق من مارج من نار فهو بطبعه -حسب نظرة البشر- ضعيف قابل للنفاذ والإنسان خُلق من صلصال من طين فهو بطبعه -حسب رؤية البشر- ليس قابلاً للنفاذ.

٣- ولعل في الآية معنى حضاريًا يستهدف إثارتنا والجن نحو التسابق إلى تحقيق التطلع الحضاري الذي تطرحه الآية بالنفاذ في أقطار السماوات والأرض. ثم إن الآية تقول: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ولا تقول: لو استطعتم؛ لأنها للامتناع، في حين إنْ للشرط، وربنا يعبر عن هذا الشرط بالاستطاعة أي القدرة بتمام المعنى وشموله وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولكن الاستطاعة في النفاذ من أقطار السماء والأرض لا تتحقق إلا بدراسة التحديات الموجودة في الطريق إلى ذلك التطلع وتجاوزها، وأهمها اثنان:

الأول: الأخطار المحتملة كالأجرام السماوية الحارقة وهذا ما سيأتي الحديث عنه عند الآية (٣٥).

الثاني: تحدي طبقات السماء والأرض، وهو التحدي الأساسي والثابت، فإذا ما أراد الإنسان أن يصل إلى كنوز الأرض عمقا فلا بد أن يتحدى وهو يقطع المسافة من السطح إلى المعدن الطبقات المختلفة.

وهكذا إذا أراد اختراق الآفاق باتجاه القمر أو أي هدف آخر في السماء، فإنه سوف يواجه تحديات أكبر إذ لا بد أن يصل إليه بالعلم أولا من قبل وصوله المادي إليه فربما يتحطم كما حدث في التجارب الأولية للإنسان في هذا الحقل، فهناك تحدي الجاذبيات، والطبقات التي يختلف بعضها عن بعض، حيث تنعدم الجاذبية في بعضها، ويرتفع الضغط في أخرى، وينعدم الأوكسجين في أكثرها، بل يحتوي بعضها على غازات مضرة بالإنسان، ولعل معنى النفاذ وهو لا يكون إلا من المانع يدل على هذه التحديات، وقد كشف العلم الحديث ولا يزال عن جانب من تلك التحديات، وخبراء المحطات الفضائية الآن لا يرسلون الأقمار والخبراء إلا بعد الدراسات المفصلة لطبقات الجو، لكي يختاروا المكان الأضعف والمناسب للنفاذ منه.

وإذا ما استطاع الإنس والجن الانتصار على تلك التحديات فإنهم ينفذون من الأقطار حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿فَانفُذُوا﴾ وهذا الفعل ليس فقط يفيد الإمكان، بل ينطوي حسب الظاهر على الدعوة والتحريض إلى النفاذ، فهي كقوله سبحانه: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وهكذا ينبغي للإنسان أن يستفيد من قدراته في تسخير أكبر مساحة من هذه الكائنات التي خلقت من أجله، فربما وجد بالإضافة إلى المعرفة شفاء لكثير من أمراضه وحلاً لمشاكله وأزماته في الآفاق.

هكذا يسعى الإسلام من أجل رفع الأغلال التي تضعها الفلسفات البشرية على النفس والعقل عن الإنسان لينطلق نحو تطلعاته وأهدافه الكبرى. ولكن الإسلام إلى جانب ذلك لا يطلق الثقة هكذا بلا حد لكيلا تصبح تمنيات وأحلاما، إنما يؤكد أن الثقة وحدها لا تصل بالإنسان إلى طموحاته، ولا تحقق أهدافه، بلى؛ هي الوقود الدافع له من داخله، وحتى ينطلق في الواقع العملي، لا بد أن يحصل على سلطان، وهو العلم الذي يتحول إلى برنامج، فقدرة فعلية.

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ الـ ﴿لَا﴾ هنا ليست للنهي وإلا جاء الفعل بعدها مجزوما بحذف النون، إنما هي للنفي، وهذا يعارض قول من قال: إن ظاهر الآية هو التحدي. نعم ربنا يتحدى الجن والإنس إذا حاولوا النفاذ من دون سلطان، لأن في الطبيعة قوانين وواقعيات، والهيمنة عليها وتسخيرها ممكنان ولكن بما هو فوق ذلك كله من السلطان.

إن الإنسان البسيط الذي يعيش على ساحل البحر، ويأكل ويسترزق من صيده نهارا ثم يعود إلى بيته ليلا كل يوم، يطبق من القوانين والسنن الحياتية الشيء القليل، أما الذي يعيش الحياة العلمية المعقدة، كرائد الفضاء الذي يريد الصعود إلى القمر، أو إلى كوكب آخر أرفع منه، فإنه لا ريب سيواجه عشرات الآلاف من القوانين، فهو بحاجة إلى معرفتها بدقة ليتسنى له القدرة على تسخيرها؛ لأن أعظم وسيلة لتسلط الإنسان على الطبيعة هي العلم، وقد أنعم الله علينا بذلك كما أودع الطبيعة حالة الاستجابة لنا.

ثم إن التكذيب بواحد من القوانين أو الحقائق الواقعية من قبلنا كفيل بأن يقطع الطريق علينا فلا نصل إلى ما نريد.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إن من نعم الله علينا أن جعل نفاذنا من أقطار السماوات والأرض ممكناً، وجعل في ذلك خيراً كثيراً للبشرية، ولكننا قد نُكذِّب بهذه النعمة إذا كفرنا بهذه المقدرة رأساً كما فعل آباؤنا أو حققنا ذلك ثم سخّرناه في الأمور الضارة كالتكبر في الأرض، أو إذا عصينا ربنا بدل شكره على هذه النعمة الكبرى، وهو حينئذ سوف يعذبنا ولن نجد لنا وليًا ولا نصيراً، حيث تجبهنا نار بلا دخان شديدة اللهب عظيمة الحر ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾، ولعل الآية هذه تشير هنا إضافة إلى الفكرة الآنفة إلى حقيقة علمية، وهي الأخطار التي تعترض طريق الإنسان في القضاء، وتمنعه من الوصول إلى النقطة التي يريد كالقمر، ومنها كما يصرح القرآن ويؤكده العلم الحديث الغازات المشتعلة. والكتل المعدنية الملتهبة التي تسمى بالنيازك والشهب، وهذه هي الأخرى بالإضافة إلى القوانين والموانع الأخرى التي تمنع النفاذ ينبغي للإنسان أن يتسلط عليها، فيقاومها وينتصر عليها أو يتجنبها.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإذا كفرنا بهذه السنة وحاولنا النفاذ بلا سلطان اعترضتنا هذه العقبة.. كذلك حين يكفر الإنسان بواحدة من سنن الله في المجتمع والنفس فإنه يكتوي بنار لاهبة. أجارنا الله من نقماته في الدنيا وعذابه في الآخرة.

ولمن خاف مقام ربه جنتان

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ[1] (٣٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي[2] وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ[3] (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ذَوَاتَا أَفْنَانٍ[4] (٤٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ[5] وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ[6] (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[7] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ

---

(١) كالدهان: كالدهن، أي عذاب سيّال كالدهن، أحمر كالنار.

(٢) بالنواصي: الناصية شعر مقدم الرأس، وأصله الاتصال، فالناصية متصلة بالرأس.

(٣) آن: في شدة الحرارة قد انتهى حرّه إلى آخر درجة، والآني الذي بلغ نهاية حرّه، وقيل: الآني الحاضر.

(٤) ذواتا أفنان: الأفنان جمع فنن وهو الغصن الغضّ الورق، ومنه قولهم: هذا فنّ آخر أي نوع آخر. ويجوز أن يكون جمع فنّ.

(٥) استبرق: ديباج ثخين وغليظ بسبب الراحة.

(٦) وجنا الجنتين دان: أي الذي يجْنى منها وهو الثمر متهدّل على رؤوسهم يتمكن القاعد والنائم أن يناله بسهولة.

(٧) لم يطمثهنّ: أي لم يفتضهن أحد، والافتضاض: النكاح بالتدمية، والمعنى لم يطأهن ولم يغشهن أحد، وفي قول آخر: لم يمسّنّ لا بالجماع ولا بغير الجماع.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ (٦٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) مُدْهَآمَّتَانِ[1] (٦٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ[2] (٦٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ[3] فِى ٱلْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ[4] وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ[5] (٧٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٧٨)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن يذكّرنا القرآن بانشقاق السماء يوم القيامة، ويعرض لنا في بضع آيات منه حال المجرمين وعذابهم (٣٥-٤٧) (ربما لأن الإسهاب في ذلك لا ينسجم مع سياق السورة التي تكشف لنا عن تجليات اسم الرحمن في الخليقة) بعدئذ يستعرض بشيء من التفصيل التجليات الأعظم لرحمة الله، وذلك من خلال الحديث عن ثواب أهل الجنة والذي يقع في (٣٣) آية كريمة تمتد إلى آخر السورة.

إن ربنا رحيم وآلاء رحمته ظاهرة في الدنيا والآخرة، ولكن النظرة السلبية الناتجة من أمراض النفس وعقدها ومن الفلسفات هي التي تعمينا عن هذه الحقيقة الجلية، فإذا بنا ندس بناتنا في التراب خوف العيلة، ونقتل أولادنا ونغل أيدينا عن العطاء، ولا نوفي الكيل والميزان، وإنما نبخس الناس أشياءهم كل ذلك خشية الفقر ونأكل أموال اليتامى ظلماً، كل ذلك لأننا لا نطمئن إلى رحمة الله الذي يبسط الرزق لمن يشاء، والذين نعمه لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ويعلم الله كم

(١) مدهامتان: من الدهمة بمعنى السواد أي أن الجنتين خضراوتان، تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، فلا يبس لهما.

(٢) نضاختان: فوّارتان، والنضاخة: الفوارة، التي ترمي بالماء صعوداً.

(٣) مقصورات: محفوظات مخدّرات.

(٤) رفرفٍ خضر: هي الفرش المرتفعة، وقيل: الوسائد.

(٥) وعبقري حسان: كل ثوب موشّى يقال له عبقري، ولعل الثوب الموشى هو الثوب المطرز والمزخرف.

تُسبِّبُ هذه النظرة الموغلة في السلبية في العقد والانحرافات النفسية والاجتماعية عند الإنسان، فهي التي تغل فاعلياته وتمنعه من السعي، ولماذا يسعى وهو يائس من التوفيق والنجاح؟.

والنظرة الإيجابية إلى أسماء الله، بالتعرف عليها والإيمان بها، تملأ القلب أملا ورجاء وتبعث بالإنسان نحو السعي والنشاط، وتفجر الطاقات الكامنة في شخصيته، إنه حينئذ ينفق ويضحِّي في سبيل الله ومن أجل مبادئه، راضيا بما يفعل، مطمئنا إلى رحمة ربه، وفي الخبر «مَنْ أَيْقَنَ بِالخَلَفِ جَادَ بِالعَطِيَّةِ»[1]. وكيف يوقن أحد بالخلف فيعطي أو يقلع من ذنوبه وأخطائه وهو لا يعرف ربه بالرحمة والغفران؟! لا ريب أنه لن ينفق ولن يتوب.

ولذلك يسعى القرآن بمنهجيته الحكيمة التي يلمسها المتدبر في آياته لمواجهة هذه النظرة السلبية المقيتة، وَبَثِّ البصيرة الإيجابية في روع البشر تجاه ربه.

وحيث تدعونا هذه السورة إلى التعرف على اسم (الرحمن)، وتذكرنا بمظاهر هذا الاسم في الخليقة، والآيات الهادية إليه فإنها تحذرنا من التكذيب بها، بذكر جانب من عذاب المجرمين الذين صاروا إلى الجريمة بسبب تكذيبهم، كما ترغِّبنا في التصديق بها، من خلال التفصيل في بيان جزاء الذين عرفوا الرحمن حق معرفته، وقدروه حق قدره فخافوا مقامه.

بينات من الآيات:

[٣٧-٣٨] يمكن للإنسان في الدنيا أن يكذب بآلاء ربه (نعمه وآياته) أو يتملص من تطبيق الحق، ويبرر ذلك بمختلف الحجج الواهية، لأن الله أمهله فيها وسمح له أن يفعل ما يشاء، أما في الآخرة حيث يخلص الحكم لله، فلا يملك إلا التسليم للحق، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦]، فمنظر القيامة بما فيه من تحولات كونية هائلة يعري الإنسان من كل لبس في شخصيته الفقيرة المحتاجة.

إن السماء هذا السقف العظيم الذي يحفظ الناس ويظلهم تفقد تماسكها يوم القيامة، ويتبدل لونها من الزرقة إلى الحمرة تشبه في ذلك الوردة الحمراء، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٦] ثم تذوب وتسيل ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ [المعارج: ٨]، حتى تُضحى دهانا، وهو ما يستخرج من الورد بعد غليه وعصره.

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ لعل سبب تشبيهها بالوردة لأنها

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٤١٦.

ليست قطعة واحدة، بل عدة قطع منشقة عن بعضها، ذات صبغة حمراء أو لون آخر، يجمعها الأصل، ولأن السماء (السقف المرفوع) هي رمز الأمن والسلام، فإن انشقاقها يؤذن بالأخطار والخوف، ولهذه الآية اتصال وثيق بالآية [٣٥: الرحمن]: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ ذلك أن الغلاف الجوي -أحد طبقات السماء- هو الذي يمنع عنا النيازك والغازات الحارقة، ولو حدث -لا سمح الله- أن انشق فإن الأرض ستكون عرضة لتلك الأخطار، ويقول العلماء: لو فتحت ثغرة في الغلاف الواقي -لنفترض مثلا بمساحة كيلو متر مربع واحد- فإن الأرض تحته لا تصلح للحياة أبدا.. لما ينهال عليها من خلال تلك الثغرة من أشعة ضارة أو نيازك حارقة مدمرة.

وهل لنا أن نفهم من هذه الحقيقة العلمية شيئا بسيطا عن طبيعة الحياة حينما تنفطر السماوات السبع وتستحيل لهبا ومهلا؟!.

إن أحدا لا يملك يومئذ أن يكذب بهذه الآية من آيات الله، والتي تُظهر هيمنته، وضرورة التسليم له -وهو لو شاء لجعلنا نصدق بآلائه وآياته بالقوة- وهو القائل: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ١-٤].

ولكن رحمته تأبى ذلك كما أن حكمته من خلقنا في الحياة الدنيا والتي صرح بها بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، لا تتفق مع هذا النهج ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٣٩-٤٠] بلى؛ إن أحدا لن يجرؤ حينها على التكذيب أبدا، بل يخضع الجميع خضوعا مطلقا للحق ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨]، ولا يجرأ أحد حتى على الكلام، إلا بعد إذن سبق من الله ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، فكيف يستطيع أحد أن يكذب ربه ذلك اليوم؟! بلى؛ قد يؤخر العذاب عنهم في الدنيا فيجدون فرصة للتكذيب، والتبرير، وإخفاء ذنوبهم. أما يوم القيامة فهو -سبحانه- محيط بهم من كل جانب ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ ويكفي بهذا رادعا لنا عن المعاصي، والتكذيب بالنعم والآيات، الذي هو من أكبر الذنوب ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٤١-٤٢] إن المحاكم في الدنيا تقام من أجل معرفة المجرم، أما في الآخرة فهي تقام

لغرض آخر، وهو إثبات العدالة الإلهية إثباتاً عملياً للخلق، فليس معنى ﴿لَا يُسْئَلُ﴾ أنهم لا يحاكمون البتة، لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وقال: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٤] عن الذنوب هل هي من قِبَلِهم أم لا.. فهم معروفون عند الله. ولكن هذا الإيقاف ليس لسؤالهم وإنما السؤال للتبكيت والتقريع. إذن لا ينبغي أن نختفي وراء جدر التبرير والأعذار لأننا لن نجد مجالا يومئذ لبيانها حتى تُقبل أو تُرد.

وقيل: إن فريقا من المجرمين وهم أئمة الإجرام والكفر والموغلين في الانحراف لا يُسألون حتى مجرد السؤال وإنما يُؤمر بهم إلى جهنم مباشرة حيث العذاب، ولا يُعطون فرصة لسؤالهم إمعانا في تحقيرهم وإهانتهم وعذابهم، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحَاسِبُ كُلَّ خَلْقٍ إِلَّا مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ فَإِنَّهُ لَا يُحَاسَبُ وَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»[1]، وقال ﷺ: «سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الحِسَابِ بِسِتَّةٍ، قِيلَ: مَنْ هُمْ يَارَسُولَ اللهِ؟، قَالَ ﷺ: الأُمَرَاءُ بِالجَوْرِ، وَالعَرَبُ بِالعَصَبِيَّةِ، وَالدَّهَاقِينَ بِالكِبْرِ، وَالتُّجَّارُ بِالخِيَانَةِ، وَأَهْلُ الرَّسَاتِيقِ بِالجَهَالَةِ، وَالعُلَمَاءُ بِالحَسَدِ»[2].

وقال الصادق عليه السلام: «ثَلَاثَةٌ يُدْخِلُهُمُ اللهُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَثَلَاثَةٌ يُدْخِلُهُمُ اللهُ النَّارَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَأَمَّا الَّذِينَ يُدْخِلُهُمُ اللهُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: فَإِمَامٌ عَادِلٌ، وَتَاجِرٌ صَدُوقٌ، وَشَيْخٌ أَفْنَى عُمُرَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُدْخِلُهُمُ النَّارَ بِغَيْرِ حِسَابٍ: فَإِمَامٌ جَائِرٌ، وَتَاجِرٌ كَذُوبٌ، وَشَيْخٌ زَانٍ»[3].

والسؤال كيف يُعرف المجرمون يوم القيامة؟!.

إن الله يعرفهم بعلمه الذي أحاط بكل شيء، ومن خلال كتب أعمالهم، ثم إن يوم القيامة هو التجلي الأعظم للحقائق، فالذي يأكل أموال اليتيم بالباطل إنما يأكل في بطنه نارا وهذه الحقيقة تتجلى يومئذ لكل الناس، حيث يشاهده العالمون والنار تشتعل في بطنه اشتعالا.

كما أن الذي يمارس الجريمة -أية جريمة- فإنها تترك أثرا في شخصيته، بيد أن الحقيقة خافية على الناس في الدنيا، أما في الآخرة حيث تُبلى السرائر فإنها تظهر على الملأ لا تخفى منه

(١) بحار الأنوار: ج ٧، ص ١١٠.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٣، ص ١٥٦.
(٣) بحار الأنوار: ج ٧٢، ص ٣٣٧.

خافية، فإذا به يأتي مُسْودًا وجهه كقطعة من ليل دامس الظلام، وفي المقابل ترى المؤمنين والمؤمنات مبيضة وجوههم: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، هذه عاقبة الكفر. وقد ثبت علميًا أن الجريمة تترك أثرها على فاعلها، كالارتباك، والتلعثم في الكلام أثناء الاستجواب مما يعكس حالة نفسية معينة تخلقها الجريمة عنده، ولعل العلم إذا تطور وتقدم يلحظ آثارا مادية على شخصية الإنسان كألوان لا تلحظ بالعين المجردة تعلو الوجه..

إن ذلك حقيقة واقعية في الدنيا والآخرة، ولكن الفرق بينهما أننا في الدنيا محجوبون عن رؤية تلك الآثار بوضوح كاف، أما في الآخرة فيكشف عنا الغطاء فإذا ببصرنا حديد، وحتى في الدنيا لو تطور علمنا باتجاه اليقين لتكشف لنا الكثير من الحقائق المغيبة.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ويجرون إلى النار حيث يعذبهم ملائكة شداد غلاظ. والناصية هي مقدمة الرأس. وهذا العذاب جزاء تكذيبهم بالحقائق الربانية والآيات الدالة عليها ومن بينها النار، فلم يحتسبوا أنهم مواقعوها فيستعدون، ويعملون للخلاص من حرها، فوقعوا فيها، وربنا يحذرنا من التكذيب بها ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[٤٣-٤٥] والآيات السابقة تشير إلى إمكانية تعاون الجن والإنس في المعصية والتكذيب، وهذا أمر واقعي؛ لأن أبالسة الجن من المكذبين بالله هم الذين يوسوسون في صدور الناس، ويثيرون في البشر عوامل المعصية والانحراف، لذلك أمرنا الله بالاستعاذة ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤-٥]، بل قد يصل التعاضد بينهما على التكذيب إلى الحد المادي، قال تعالى حاكيا عن الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ٥-٧]، والشعوذة والسحر القائمان على التكذيب بالله وبآياته هما من صور التعاون بين الاثنين.

ولكن مهما كذب الفريقان بالحقائق الواقعية كالنار وتعاونا على ذلك، فإنها لن تتبدل ولن تنتفي أبدا، فالنار موجودة وإن كذَّبا بها، كما أن تكذيب بعض السوفسطائيين بواقعية الخلق لا يحيله خيالا، بل إن التكذيب بالنار يجعلها أقرب وأشد على المكذبين بها، ويوم القيامة يؤتى بالمجرمين مأخوذين من نواصيهم وأقدامهم إلى جهنم، ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فيرونها عين اليقين، ويصدقون بها بعد طول تكذيب، ولكن ماذا ينفعهم الاعتراف حينئذ، بلى؛ إذا عرف الإنسان بالخطر قبل وقوعه فيه، وكانت ثمة فرصة يستغلها

للنجاة ينفعه علمه. بيد أن هؤلاء كذبوا فعلا بآيات الله الدالة إلى هذا الحق، فصاروا من حطب جهنم ووقودها، فتراهم يتنقلون بين النار والحميم ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي بالغ الحدة: حرارة وغليانا، ومنه آنت الثمرة: إذا نضجت وأينعت، والمجرمون في طواف دائم، تسوقهم الملائكة بين جهنم النيران (أشدها حرارة) وبين السوائل المغلية إلى درجات عالية من الحرارة، وإن المجرم يحترق بالنار، ويفقد سوائل جسمه، فيسعى لشرب الماء فيجده حميا، وهذا هو حال النعمة حينما يفرِّط فيها الإنسان، فيكذب بها، وينسبها إلى غيره شركا، أو يستخدمها في المعصية ولا يؤدي حق شكرها، وحري بنا أن نصدق بآلاء الرحمن، ونؤدي واجبنا تجاهها. إنها رحمة من الله فإما أن نُصيِّرها نقمة أو نجعلها رحمة أكبر وأوسع، تنمو في الدنيا ونتلقاها أضعافا مضاعفة في الآخرة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

[٤٦-٤٧] وينتهي السياق يحدثنا عن جزاء أولئك الذين عرفوا ربهم حق معرفته، عرفوه بأنه الرحمن فصدقوا بآلائه، ورغبوا في رحمته قلبا، وسعوا إليها عملا ففتحت لهم أبوابها في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض.

وهكذا يطبع السياق صفة ثنائية على آيات هذه السورة (الشمس والقمر والنجم والشجر، والسماء والميزان، والفاكهة والنخل، والحب والريحان، والإنس والجان، والصلصال والنار والبحرين، واللؤلؤ والمرجان) إلى أن يحدثنا عن صنفين من الناس في سلوكهم وجزاء الله لهم، وهم المجرمون الذين انتزعوا من قلوبهم خشية الخالق، فصاروا لا يتناهون عن منكر، ويحدثنا في مقابلهم عن الخائفين، الذين براهم خوف الله بري القداح.

وهذا منهج سائد في كتاب ربنا حيث يذكرنا بالفارق بين المتقين والفجار عبر بيان الفوارق بين الأشياء المختلفة لنزداد وعيا بهذه المفارقة، وتصديقا بآثارها في الآخرة.

وللثنائية التي صبغت بها آي سورة الرحمن فائدة أخرى تلك هي العلم بالفوارق الممتدة بين الأشياء، فعندما يكون المرء جاهلا يرى الأشياء المختلفة بلون واحد، ولكنه كلما تقرَّب إلى العلم بدت له الفوارق أكثر وضوحا وعددا، فالغازات كلها عند الإنسان تنضوي تحت اسم عريض هو الهواء، وإذا به الآن وقد تقدم به العلم تزيد على مئات الأنواع، كما أن هذه الثنائية تدلنا على الحاجة أيضا، حيث يحتاج كل اثنين إلى من يدير أمرهما. إذن فهذه الثنائية بين المخلوقين تهدينا إلى الثنائية المطلقة بين المخلوق والخالق.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ هؤلاء لا يعبدون الله خوفا من النار فقط ولا طمعا في الجنة فحسب -وإن كان ذلك بعض تطلعاتهم- ولكن دافعهم الأساس للعبادة هي المعرفة

اليقينية العميقة بربهم -عز وجل- إذ إنهم وجدوه أهلا للعبادة فعبدوه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فَتِلْكَ عِبادَةُ الأَحْرارِ وهِيَ أَفْضَلُ العِبادَةِ»[1]، وقال زين العابدين عليه السلام: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ لِأَغْراضٍ لِي ولِثَوابِهِ فَأَكُونَ كالعَبْدِ الطَّمِعِ المُطَمَّعِ إِنْ طُمِّعَ عَمِلَ وإِلّا لَمْ يَعْمَلْ، وأَكْرَهُ أَنْ أَعْبُدَهُ لِخَوْفِ عَذابِهِ فَأَكُونَ كالعَبْدِ السَّوْءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ. قِيلَ: فَلِمَ تَعْبُدُهُ؟ قالَ: لِما هُوَ أَهْلُهُ بِأَيادِيهِ عَلَيَّ وإِنْعامِهِ»[2]. ويبين الإمام الرضا خلفية هذا النهج في العبادة إذ يقول عليه السلام: «..وَلَوْ لَمْ يُخَوِّفِ اللهُ النَّاسَ بِجَنَّةٍ وَنَارٍ لَكَانَ الوَاجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ وَلَا يَعْصُوهُ لِتَفَضُّلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَمَا بَدَأَهُمْ بِهِ مِنْ إِنْعَامِهِ الَّذِي مَا اسْتَحَقُّوهُ»[3].

والإمام الصادق عليه السلام يشير إلى الدوافع الحقيقية لسلوك هذا الفريق ألا وهو العلم والمعرفة، فيقول: «مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ يَراهُ ويَسْمَعُ ما يَقُولُ ويَعْلَمُ ما يَعْمَلُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَيَحْجُزُهُ ذَلِكَ عَنِ القَبِيحِ مِنَ الأَعْمالِ فَذَلِكَ الَّذِي خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى»[4].

وحتى لو خشي هؤلاء النار، أو طمعوا في الجنة فليس لذاتيهما، بل لأن الأولى تبعدهم عن الله، والثانية تقربهم إلى مقامه تعالى في مقعد صدق عند مليك مقتدر. ولأن هذا الفريق من العباد خافوا ربهم في الدنيا استحقوا أمنه وجناته في الآخرة. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قالَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى وعِزَّتِي وجَلالِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ ولا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ، فَإِذا آمَنَنِي فِي الدُّنْيا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ، وإِذا خافَنِي فِي الدُّنْيا آمَنْتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ»[5].

وهؤلاء يستحون من ربهم، ويخافون شهوده في السر والعلانية، والجنتان اللتان يعطيهما الله لهم هي في مقابل العذابين (جهنم والحميم) اللذين يطوف بينهما المجرمون.

قال البعض: إن هؤلاء هم أرفع المؤمنين درجة ومقاما، حيث لا يرقى الأدنى إلى منزلة الأرفع فإن الله أعطاهم جنتين، جنة تخصهم وأزواجهم، وجنة يستقبلون فيها المؤمنين داراً للضيافة، وقال قائل: الجنة الأولى داخل بيته والثانية خارجه، وقال آخرون: إن الأولى جزاء أعمالهم والأخرى زيادة وفضل من عند الله، وقيل: إن الأولى جزاء أعمالهم وسلوكياتهم، والثانية جزاء ما انطوت عليه قلوبهم من العلم والمعرفة، ونفوسهم من الإيمان والتصديق، والذي يظهر من عموم القرآن أن للمؤمنين أكثر من جنتين قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ

---

(١) الكافي: ج٢، ص٨٤.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١، ص١٠٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٣٥٣.
(٤) الكافي: ج٢، ص٧٠.
(٥) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٢٢.

﴿وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النساء: ١٣]. وقوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾ يخص بالذكر اثنتين تتميزان عن سائر الجنات، وهما جنة عدن وجنة الفردوس، أو جنة عدن والنعيم، أو هي الخلد والمأوى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

بعد بيان مقام الخائفين من مقام ربهم يطرح القرآن هذا التساؤل، ربما ليقول لنا: أن السبل مشرعة للجميع لو أرادوا الوصول إلى هذه المنزلة الرفيعة، لأن الله لم يجعلها حكرا على أحد، ولكن يشترط ألّا يُكذّب بآلاء ربه، فذلك يحرمه منها.

[٤٨-٤٩] ويشوقنا الوحي إلى تلكما الجنتين، إذ يرينا صوراً رائعة عنهما ويكتسب التشويق أهميته من كونه إذا تفاعل معه السامع، وصدق به، يتحول إلى ما يشبه الوقوف في داخل الإنسان، يدفعه بفاعلية قوية وعميقة إلى العمل على تحقيق الغاية المطلوبة منه.

والبشر يخشى الإجرام ويتجنبه مرة لأنه يؤدي إلى جهنم، ومرة لأنه يخسر الإنسان قربه من ربه وثوابه الجزيل.

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ إشارة إلى صفتين لتينك الجنتين، إحداهما: كثرة الأغصان، والعرب تقول للغصن: فنن وجمعه أفنان، وهي لا شك تدخل على النفس البهجة والسرور، بالنظر إلى خضرتها وكثافتها، وكثرة الأغصان تدل على نوع معين من الأشجار غير ذات السوق كالنخل، والشجر تلك تكون أكثر استيعابا للثمر، كما أنها تُلقي بظلها على الأرض ليجد المؤمنون لذة الجلوس في الظلال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٢-١٤]، ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦]، والصفة الثانية: التنوع، قال صاحب المنجد: «أفنان، وفنون، وأفانين: الضرب من الشيء أو النوع»[1].

ويعود السياق هنا -وبعد ذكر كل نعمة في الجنة- ليُشفي قلوبنا من داء التكذيب بآلاء الله، وهذا هو طبيعة منهج القرآن: أنه لا يجعل الحديث عن المستقبل الغائب مجردا وبعيدا عن واقعنا، بل يصله بنا، ويسعى من خلال ذكره إلى علاج مشاكلنا، ودفعنا باتجاه إيمان ومعرفة أكثر وأعمق، وهو في هذا المورد يريد القول: أن ذلك النعيم نتيجة شكر نعيم الدنيا ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ويصرح القرآن بهذه الحقيقة بعد حديث مفصل عن الجنة في سورة الإنسان قائلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، بل هي التجلي الأعظم لقول الله:

---

(١) راجع معنى (فنن) المنجد.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، إذن لِنَدعْ التكذيب بآلاء الله.

[٥٠-٥١] وتطمع نفوسنا المجبولة على حب الاستطلاع في معرفة المزيد عن الجنتين، فيقول ربنا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ العين في الدنيا تتصل بمخازن الماء في الأرض وكلما استُنزفت ملأتها المخازن، ولكن الله لا يقول ﴿عَيْنَانِ﴾ وحسب، بل يضيف ﴿تَجْرِيَانِ﴾ وتوحي هذه الجملة بأن الماء هناك في حركة دائمة مما يزيد المنظر روعة وجمالا.

ولا يذكر القرآن ما في العينين: هل هو الماء، أم اللبن، أم الخمر، أم العسل، أم هو شيء آخر؟ والإبهام يزيد النفس شوقا، والله يبهم قاصدا وهو القائل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

فيا حسرة على العباد يتحبب لهم ربهم فيتبغضون إليه، ويتقرب منهم فيبتعدون عنه، ويفتح لهم أبواب رحمته ثم يدعوهم إليها فيعرضون، ويكذبون، وهو لا يزال يتلطف بهم، لا يسخط من تكذيبهم، ولا يعرض عنهم بانحرافهم عن آلائه بل يكرر عتابه ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وله العتبى حتى يرضى، إنه لا يحتاج إلى تصديقنا به، وشكرنا لآلائه فذلك لا يزيده شيئا، كما لا ينقص كفرنا وتكذيبنا من مقامه تعالى شيئا، إنما نحن المحتاجون إليه.

[٥٢-٥٣] وجانب آخر من نعيم الجنتين الأكل، والقرآن لا يحدثنا عن أوليات النعمة (الأشياء الضرورية) إنما يحدثنا عن تمامها (الكماليات) وهي الفواكه، مؤكدا أنها هي الأخرى موجودة وفي غاية الكمال، كثرة وتنوعا.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ فليس ثمة فاكهة إلا وهي موجودة، والفاكهة بالإضافة إلى فائدتها المادية للجسم، فهي لها نكهة ولذة خاصة يجدها الإنسان في منظرها على المائدة أو في الشجرة، حيث الأشكال والألوان البديعة، وفي روائحها الطيبة ومذاقها اللذيذ، ولعل اسمها مشتق من الفاكهة والتفكه وهو حديث ذوي الأنس والسرور.

والسؤال: ما معنى ﴿زَوْجَانِ ﴾؟.

قيل: من كل نوع صنفان، أحدهما يشبه الذي في الدنيا، والآخر يختلف عنه في حجمه ومذاقه وألوانه، مما يختص بالآخرة وهو الأفضل، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقد يكون المعنى من الزوجين: أي أن

ما في الجنة الأولى موجود في الثانية، فيكون المقصود المقابلة، أو يكون المعنى: نوعين من الفاكهة الواحدة، ويحتمل معنى التكامل، بحيث تجد لكل فاكهة أخرى تكملها شكلا وفائدة، وكما نعيم الجنة يكمل بعضه بعضا، كذلك عذاب النار، فجهنم يكملها الحميم الآني.

وهذا النعيم لا يحصل عليه إلا من عرف الرحمن، وقدره حق قدره، فصدق آلاءه، وخاف مقامه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهذه الآيات تؤكد أن الحديث عن الجنة والنار حق وليس مجرد إثارة لحالة الطمع والخوف عند البشر -كما يزعم البعض- ذلك أن ربنا غني عن مخالفة وعده، أو بيان ما ليس بحق، وأن قدرته في موضع الرحمة، أو في موضع النكال والنقمة مطلقة لا يحدها شيء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ولكن مشكلة الإنسان أنه يقيس الأمور على قدره، وحسب قدراته وفهمه المحدودين، فلأنه لا يستطيع إحياء الموتى يشكك في البعث، ولأنه محجوب عن علم المستقبل وما لا يراه، تراه يرتاب في الغيب أو يكفر به، وهذا نوع من الشرك الفكري، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. وحتى يتجاوز الإنسان هذا الشرك الذي يقوده إلى التكذيب بآيات الله، يجب أن ينظر إلى الأمور، وبالذات الحقائق الكبيرة من خلال الإيمان بقدرة الله المطلقة: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤].

[٥٤-٥٥] بلى؛ إن الجنة حق، كما الوجود حق، وكما الموت حق، والذين يدركون هذه الحقيقة ببصائرهم، وينفذ نور الإيمان بالله إلى كل أبعاد قلوبهم، فإنهم لا يعرفون وقفة عن العمل الصالح، والكلم الطيب حتى الرمق الأخير، إنهم صيح بهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، وما تركوا لحظة تمر عليهم من ليل ولا نهار، إلا ازدادوا فيها إيمانا وعملا في سبيل الله، لأنهم أدركوا أن الحياة الدنيا فرصة محدودة يخسرها من يغفل عنها.

وإليك برنامجهم في الحياة عن لسان أميرهم وسيدهم الإمام علي عليه السلام: «أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وأَمَّا النَّهارَ فَحُلَماءُ عُلَماءُ أَبرارٌ أَتقِياءُ، قَدْ بَراهُمُ الخَوْفُ بَرْيَ القِداحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ومَا بِالقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، ويَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا، ولَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ. لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ القَلِيلَ ولَا يَسْتَكْثِرُونَ الكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ، فَمِنْ عَلَامَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وحَزْماً فِي لِينٍ، وإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وعِلْماً فِي حِلْمٍ، وقَصْداً فِي غِنًى، وخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وطَلَباً فِي حَلَالٍ، ونَشَاطاً فِي هُدًى، وتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وهُوَ عَلَى وَجَلٍ يُمْسِي وهَمُّهُ الشُّكْرُ، ويُصْبِحُ وهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، ويُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لِمَا حُذِّرَ مِنَ الغَفْلَةِ، وفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ الفَضْلِ والرَّحْمَةِ، إِنِ اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ، قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لَا يَزُولُ، وزَهَادَتُهُ فِيمَا لَا يَبْقَى، يَمْزُجُ الحِلْمَ بِالعِلْمِ، والقَوْلَ بِالعَمَلِ، تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ، الخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، والشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي الغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وإِنْ كَانَ فِي الذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، ويَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ مُدْبِراً شَرُّهُ، فِي الزَّلَازِلِ وَقُورٌ، وفِي المَكَارِهِ صَبُورٌ، وفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، ولَا يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ، يَعْتَرِفُ بِالحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لَا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، ولَا يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، ولَا يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، ولَا يُضَارُّ بِالجَارِ، ولَا يَشْمَتُ بِالمَصَائِبِ، ولَا يَدْخُلُ فِي البَاطِلِ، ولَا يَخْرُجُ مِنَ الحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، والنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ، بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ ونَزَاهَةٌ، ودُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ ورَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وعَظَمَةٍ، ولَا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وخَدِيعَةٍ...»[1].

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم ينوون مواصلة التعب شكرا لله، ولكنهم فور ما يسجدون يخاطبهم الجليل الأعلى ليس هذا يوم تعب وعبادة، إنها دار الراحة والحصاد بعد تعب الدنيا وعملها.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي داخل المتكأ وحشوه من الديباج الغليظ، والإستبرق كما قالوا: «كلمة معربة من قولهم: (ستبرك) وهو مصغر (ستبر) بمعنى الثخين

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٩٣.

الغليظ»[1]، وقالوا: «إن ما كان حشوه حريرا خالصا فظاهره يكون كذلك بالأحرى».

والآية بكل مفرداتها وإيحاءاتها تعبير بليغ عن أقصى غايات الراحة، فهم متكئون وعلى فرش الحرير الناعم البارد والمريح، ومن حولهم كل صنوف الفواكه، ومن تحتهم الأنهار بأنواعها، وتظلهم الأغصان النضرة الخضراء الندية.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الإنسان في الدنيا لا يحصل على شيء إلا بالتعب وبذل الجهد، والفلاح لا شك في أنه يلقى تعبا في الحصاد وقطف الثمار، لأن بعضها بعيد عن متناول يده، فلا بد أن يتمطى لقطفها أو يركب الشجرة أو يستخدم وسيلة لذلك، أي أنه لا بد أن يبذل جهدا إما في الآخرة فإن ثمر الجنة متدلٍّ قريب متى ما اشتهى المؤمن شيئا منه تناوله بيده عن قرب ودنو، أو يتدلى إليه الغصن بقدرة الله، فهو لا يتعب من أجل ذلك، وفي الكلمة إيحاء بأن الثمر في غاية النضج، وعلى الدوام ولا يتلف، يقال: دنت الثمرة إذا نضجت واقترب قطافها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا حدثنا ربنا بصيغة المضارعة عن الاتكاء، والحال كما نفهم أن الصيغة يجب أن تكون للمستقبل (سيتكئون)؟.

الجواب: لأن المتكلم هو الله، وما يريده الله ويعد به يحدث لا محالة، وسواء عنده تحدث بصيغة الماضي أو الحاضر أو المستقبل، لأنه قادر فعلا على تحقيقه، مثل قوله على صيغة الماضي: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦]، أو بصيغة المستقبل كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [النساء: ٥٧]، أو بكليهما: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، فقد أكد وقوع أمره بصيغة الماضي ﴿أَتَىٰٓ﴾ حتى لكأن أمره وقع فعلا، ولكنه استدرك قائلا: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ دلالة عدم تحقق وقوعه.

نعم. بالنسبة للمخلوق لا يصح منه القول: فعلت أو سأفعل إذا كان يريد شيئا في المستقبل، لأن إرادته محدودة بإطار مشيئة الله، وقد تعجزها الظروف والعقبات ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]. وبعد أن يشير القرآن إلى اتكاء المتقين الخائفين مقام ربهم على فرش الحرير، بين صنوف الفواكه الدانية يوجه خطابه إلى الثقلين: بماذا تكذبان من هذه الآلاء الربانية؟.

هكذا بعد ذكر كل نعمة من نعيم الآخرة يأتي هذا التساؤل ليهدينا إلى ضرورة حمد الله وشكره على آلائه في الدنيا عند كل خير ونعمة ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) تفسير الرازي: ج ٢٩، ص١٢٦.

[٥٦-٥٧] ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ جاء في المنجد: «الطمث: الدنس والفساد»[1]، وسمي دم الحيض طمثا لفساده، وحيث إن البكارة عنوان الطهر والعفة عند المرأة، فإن افتضاض بكارتها، وخروج الدم دليل فساد المرأة أو فساد بكارتها التي تذهب بذلك، ولا ريب أن الواحد يأنس بالبكر ويرغب إليها أكثر من الثيب، وحور كل جنة إنما خلقن لصاحبها لا يسبقه إليهن أحد من الخلق، وحيث يأتيهن يرى علامة ذلك فهن طاهرات.

ولكن لماذا يقول الله ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾؟ ربما لأن الجنة للمؤمنين من الإنس والجن، فأراد التأكيد على عدم سبق أحد إليهن، والتأكيد على الطهارة الشاملة؛ ذلك أن الشيطان يوسوس للمرأة، ويثير غلمتها عبر الخيال، وبالذات حين بلوغها، وقد تنتهي بها تلك الوساوس حتى تفض بكارتها بصورة أو بأخرى، ولذلك جاء في القرآن الأمر بالتعوذ منه.

ويسبق تأكيده تعالى على طهارتهن (المادية) بعدم الطمث، بيان لطهارتهن المعنوية، فهن قد قصرن طرفهن (العيني والنفسي) من غير أزواجهن، قال أبو ذر: «أَنَّهَا تَقُولُ لِزَوْجِهَا: وَعِزَّةِ رَبِّي مَا أَرَى فِي الجَنَّةِ أَخيرَ مِنْكَ، فَالحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَنِي زَوْجَكَ وَجَعَلَكَ زَوْجِي»[2].

وهكذا حال الطاهرات العفيفات من النساء، وحال الأزكياء من الرجال أنهم يمنعهم خوف مقام ربهم أن يمدوا عيونهم إلى ما حرم الله عليهم، وإذا كان الأمن في الآخرة جزاء خوفهم في الدنيا، والراحة (اتكاؤهم على الفرش) جزاء تعبهم وعملهم الدؤوب فيها، فإن تلكم الحور جزاء لطهارتهم في الدنيا، بغضّهم من أبصارهم، وترفعهم عما حرم الله، استجابة لدعوته، والتزاما برسالته ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، ولعلنا نهتدي من علاقة قصر الطرف بالطمث، أن النظرة المحرمة قد تنتهي إلى الزنا، وذلك مضمون روايات كثيرة، منها قول نبي الله عيسى: «لَا تَكُونَنَّ حَدِيدَ النَّظَرِ إِلَى مَا لَيْسَ لَكَ، فَإِنَّهُ لَا يَزْنِي فَرْجُكَ مَا حَفِظْتَ عَيْنَيْك، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا تَنْظُرَ إِلَى ثَوْبِ المَرْأَةِ الَّتِي لَا تَحِلُّ لَكَ فَافْعَل»[3]. وربما نهتدي بذلك إلى أن الجنتين ليستا منزلا لمن خاف ربه من الرجال فحسب، بل حتى للمؤمنات العفيفات، اللواتي منعهن خوف الله حتى من مجرد النظر الحرام فهن من السابقات الطاهرات، وربنا يجعلهن يوم القيامة سيدات نسائها، وأعظم جمالا، جزاء تقواهن وطهارتهن، حيث يجعلهن كالياقوت والمرجان، ولا ريب

---

(١) راجع مادة طمث.

(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص١٠٤.

(٣) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورام): ج١، ص٦٢، شرح نهج البلاغة: ج٢٠، ص٢٣٦.

أن ذلك مما تتطلع إليه كل أنثى. قال الإمام الصادق عليه السلام: «الخَيْرَاتُ الحِسَانُ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا وهُنَّ أَجْمَلُ مِنَ الحُورِ العِينِ»[1].

ومعنى قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أنهن في الجنة يرجعن أبكارا على الدوام، بحيث إذا جاءهن أترابهن من المتقين وجدوهن أبكارا، لم يسبقهم أحد إليهن، أو أن المعنى، بالطمث المحرم، فهن بعيدات عن ذلك، ولم يتورطن فيه ماديًّا ولا معنويًّا، فهن من الزوجات التي وُعِدَ المتقون: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٥]، كما تشمل الآية قاصرات الطرف من الحور اللواتي يخلقهن الله للمتقين خصوصا، ولكن المعنى قد يكون: أنهن قصرن أنظارهن عن غير أزواجهن، وأن عدم الطمث يكون مطلقا، فهن أبكار في الجنة ولم يقضَّ بكارتهن أحد قبلهم.

وبالعودة إلى أول الآية، ومقارنتها بالآيات السابقة (٤٨-٥٠-٥٢) نجد الخطاب بالتثنية ﴿ذَوَاتَا﴾، ﴿فِيهِمَا﴾ عطفا على الجنتين، ولكنه هنا جاء بصيغة الجمع ﴿فِيهِنَّ﴾ وذلك إما وصلا بالحديث عن الفرش وهو قريب، حيث يجلس المؤمنون معهن عليها، قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠]، وقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٦-٥٧]، وهذا العطف يشبه وصله الآية (٥٨) بالآية (٥٦)، وأما يكون المعنى: أن في الجنتين المذكورتين -وهما الأساس- جنات كثيرة في كل واحدة قصورها وحورها الخاصة بها، وقال بعض المفسرين: إن ذلك متصل بالآية السابقة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ باعتبار الحور شيئا من تلك الآلاء، وإن رحمة الله تحيط بالإنسان من كل جانب، وهي تمتد إلى الآخرة وتتسع هناك -في الجنة- للمؤمنين، بما لا يقاس بالدنيا، ففي الجنة التجلي الأعظم لاسم الرحمن، حيث النعم المتميزة كمًّا ونوعاً، وإذا كانت رحمته تعالى تشمل المحسن والمسيء في الدنيا فهي هناك للمؤمنين وحدهم، لأن الآخرة دار الفصل.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بلى؛ أنتم يا معشر الجن والإنس قد تكذبون بآيات الله، وتكفرون بنعمه، ولكنها تظل تتوالى عليكم، وربما زادها الله ليزداد المكذب إثما، فلا يبقى ثمة حظ له في الآخرة، ولا نصيب من رحمة الله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۝ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٢-٣٥]، وما قيمة حطام

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٤٦٩.

الدنيا حتى يغتر به الإنسان، فيعتبره خيرا كلما زاده الله منه، ويتخذه وسيلة للتمادي في الكفر، والتكذيب بالرحمن -عز وجل- إنه سوف يحرم نفسه من رحمته العظمى في الآخرة من العيون، والأنهار، والفواكه، وفرش الإستبرق، والحور العين، فلماذا يحيل رحمة ربه له في الدنيا خسارة لذلك النعيم، وغضبا عليه بسبب التكذيب؟!.

ولأننا لا نستوعب حقيقة نعيم الآخرة، فإنه تعالى يشير إليه إشارة تقريبية، من خلال التشبيه، ففي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولعلنا نهتدي إلى هذا المعنى من الآية الكريمة: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، إذ ينفي ظاهرها إمكانية العلم أصلا.

ولكي نقترب من هذه الفكرة دعنا نتصور قاصرات الطرف: هل هن يشبهن نساء الدنيا؟ وما مدى جمالهن؟.

قد نجيب تلك الأسئلة، ولكن بأي دليل، وعلى أي مقياس؟! لعل عقولنا بل خيالاتنا تتمكن من استيعاب أقصى حد للجمال، بأجمل امرأة في العالم، ولكن هل يمكنها أن تتصور جمالا يفوق ذلك مليون مرة؟! كلا.. لذلك يقول ربنا وهو يحدثنا عن قاصرات الطرف مشبها: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ قيل يشبهن الياقوت صفاءً، فبشرتهن لا يشوبها عيب، وتشبه المرجان حمرة، أو هي ناصعة البياض مشربة بحمرة الياقوت، وربما نستوحي من الآية معنى آخر فكما أن الياقوت ليس كأي حجر يحصل عليه الإنسان بسهولة، بل لا بد له من البحث عنه والاجتهاد، وكما أن اليد لا تصل إلى المرجان إلا بالغوص إلى أعماق البحار وتحمل المشقة، فإن للجنة ثمنا لا يحصل عليها صاحبها إلا به، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ولعل شكر نعم الله المادية والمعنوية من أهم مفاتيح الجنة، فإن شكر الآلاء بارك له وزاده؛ ليس في الدنيا وحسب، بل في الآخرة أيضا، لأنها امتداد للأولى، ومصيره فيها يحدده موقفه من نعم الله ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وللعبد أن يعرف حجم تكذيبه بآلاء ربه، من خلال العذاب الذي سوف يلقاه في الآخرة، ومن الحسرة والندامة التي تحل به جزاء خسارته الأبدية الكبرى لنعيم الجنة وثوابها.

[٦٠] كل أبعاد الخليقة نعمة وهي -بالتالي- من آلاء ربنا الرحمن، وأصحاب الجنة هم الذين تحسسوا شهود ربهم عبر آلائه، وعرفوه فآمنوا برسالاته، واتبعوا رسله، واتقوه حق

تقاته، فأحسنوا بذلك في الدنيا.. لقد أحسنوا التصرف في نعم الله وآلائه كلها، فكان من إحسانهم بذلهم إياها للآخرين. إنهم أدركوا بعمق معنى الخوف من مقام ربهم، فلم يجعلوه محدودا بقلوبهم، بل جعلوه برنامجا متكاملا لحياتهم، وإذا بهم يفيضون فاعلية وعطاء وتضحية، فتراهم يبذلون كل ما يملكون، اتقاء غضب الله، وطمعا في رضاه وثوابه، ولن تذهب أعمالهم سدى، ولو كان بمقدار حبة من خردل خيرا يأتي به الله ليجزي عليه صاحبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، إنما يحفظه وينميه ويتمي به خير فاعله، ويرده عليه في الدنيا والآخرة: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ولقد فطر الله الحياة بهذه السُّنة، أن الإنسان يحصد ما يزرع، فإن زرع خيراً حصد الخير، وإن زرع الشر لا يحصد إلا الشر ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ إنها حقيقة فطرية يشهد بها الجميع: أن الإحسان لا يكافأ إلا بالإحسان وتتجلى هذه الحقيقة في أبهى صورها في الجنة، وهكذا القرآن يستثير في البشر ركائز فطرتهم ليستشهد بها على أنفسهم بما جبلوا عليه، وتعارفوا فيما بينهم به.

يروى عن علي بن سالم أنه قال: **سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام يَقُولُ: «آيَةٌ فِي كِتَابِ الله مُسَجَّلَةٌ، قُلْتُ: مَا هِيَ؟. قَالَ عليه السلام: قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ جَرَتْ فِي الكَافِرِ وَالمُؤْمِنِ وَالبَرِّ وَالفَاجِرِ، وَمَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَعَلَيْهِ أَنْ يُكَافِئَ بِهِ، وَلَيْسَ المُكَافَاةُ أَنْ تَصْنَعَ كَمَا صُنِعَ حَتَّى تُرْبِيَ، فَإِنْ صَنَعْتَ كَمَا صُنِعَ كَانَ لَهُ الفَضْلُ بِالِابْتِدَاءِ»**[1].

وجاء في حديث مأثور عن النبي صلى الله عليه وآله -في تأويل الآية- **«مَا جَزَاءُ مَنْ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا الجَنَّةُ»**[2].

[٦١] وتنعكس هذه الآية على سلوك المؤمن فيتخذ آلاء ربه المسبغة عليه سُلّماً إلى الكمال الروحي، وبناء المجتمع، وسببا إلى نيل رضوان الله، وليست وسيلة إلى التكذيب به تعالى كما يفعل الكثير من الجن والإنس.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أوليس قد أحسن الله إليهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فكذبوا بآلائه؟! ولماذا نبخل على الآخرين؟! وما يدريك لعل الله يقطع إحسانه عنا إذا تركنا الإحسان إلى الناس، أوليس لله ملكان يناديان كل ليلة جمعة: **«اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلَفاً وَأَعْطِ كُلَّ مُمْسِكٍ تَلَفاً»**[3] فعلام البخل إذن؟! كما أن في داخلهم إحساسا عميقا بأنهم لا

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص١٠٥.

(٢) التوحيد للصدوق: ص٢٢.

(٣) الكافي: ج٤، ص٦٧.

يملكون النعم، وإنما هي أمانات الله استخلفهم فيها، فلماذا يخرجون عن أمره بإنفاقها؟! يقول سبحانه:

- ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

- ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وكما أن الإحسان يجلب الإحسان والزيادة في النعم، فإن الإساءة والفساد في الأرض يسلبان النعمة، بل ويجعلناها نقمة، قال ربنا سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾؟ [الإسراء: ٧].

[٦٢] ثم يمضي السياق يحدثنا عن جنتين أخريين، تختلفان في نعيمها عن الأوليين: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ يبدو من المقارنة بين الجنان الأربع وسائر النصوص أن درجات الجنة عديدة والناس فيها متفاضلون، فبالرغم من أن أهل الجنة جميعهم منعمون وراضون بما قسم الله لهم من الفضل، ولكنهم كما تفاوتوا في الإيمان والعمل في الدنيا فإنهم يتفاوتون ويتفاضلون في درجات الجنة، قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وحتى الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم، قال الله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهذا التفاضل الذي يقره الله ليس اعتباطيًّا، إنما يعتمد الحكمة والعلم قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٨٣].

وقال النبي ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ أَبْنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أَبْنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا»[1]، وقال الإمام الصادق عليه السلام يخاطب أحدا: «لَا تَقُولَنَّ إِنَّ الجَنَّةَ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ وَلَا تَقُولَنَّ دَرَجَةٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللهَ يَقُولُ: «دَرَجَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ»[2] إِنَّمَا تَفَاضَلَ القَوْمُ بِالأَعْمَالِ»[3].

ولكن اختلاف الدرجات والتفاضل لا يُخلِّف أثرا من حسد أو بغضاء بين المؤمنين هناك بعكس حال أهل الدنيا حيث يتعالى الغني على الفقير، أو العالم على الجاهل، أو الحاكم على المحكوم، قال ربنا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، فهم راضون قانعون بما قسم الله لهم، إذن يعلمون بحكمته وأنهم الذين وضعوا أنفسهم

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص١٠٥.

(٢) قوله عليه السلام: «دَرَجَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ» اقتباس من القرآن ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وليس بنص.

(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١٠٥.

حيث هم، قال رسول الله ﷺ في وصيته لأبي ذر رضي الله عنه: «.. يَا أَبَا ذَرٍّ الدَّرَجَةُ فِي الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَرْفَعُ بَصَرَهُ فَيَلْمَعُ لَهُ نُورٌ يَكَادُ يَخْطَفُ بَصَرَهُ فَيَفْزَعُ لِذَلِكَ فَيَقُولُ: مَا هَذَا؟. فَيُقَالُ: هَذَا نُورُ أَخِيكَ، فَيَقُولُ: أَخِي فُلَانٌ كُنَّا نَعْمَلُ جَمِيعاً فِي الدُّنْيَا وَقَدْ فُضِّلَ عَلَيَّ هَكَذَا!. فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْكَ عَمَلًا، ثُمَّ يُجْعَلُ فِي قَلْبِهِ الرِّضَا حَتَّى يَرْضَى..»[1].

ولعل أعظم مقاييس التفاضل: التطوع في سبيل الله فهناك فريق من المؤمنين ينذرون أنفسهم في سبيل الله، وهم مفضَّلون على من سواهم، وسواء كان هؤلاء ربانيين أو أحبارا أو مجاهدين فإنهم السابقون بالخيرات على عامة المؤمنين، الذين يلتزمون بالواجبات، ويتجنبون المحرمات، ويعملون الحسنات، ولكنهم لا يتطوعون كليًّا لله، بل تراهم يمارسون حياتهم العادية ضمن ما شرع لهم ربهم، وهم القاعدون الذين وعدهم الله الحسنى أيضا، ولكن فضَّل عليهم المجاهدين أجرا عظيما.

والقاعدون من المؤمنين هم أمثال العمال والفلاحين والحرفيين والتجار والموظفين، وسائر أبناء الأمة، والمجاهدون هم المتصدون لقضايا الأمة، كالعلماء العاملين والمجاهدين في سبيل الله، إن هؤلاء يسهرون على مصالح الأمة، ويبادرون للدفاع عنها، ويتصدون لقيادتها نحو الخير والحق، متحملين في ذلك الصعاب، إنهم يستقرون في منازلهم ودرجاتهم الرفيعة في الجنة، يقول من دونهم إذا نظروا إليهم: «رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كُنَّا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَبِمَ فَضَّلْتَهُمْ عَلَيْنَا فَيُقَالُ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِنَّهُمْ كَانُوا يَجُوعُونَ حِينَ تَشْبَعُونَ، وَيَظْمَؤُونَ حِينَ تَرْوَوْنَ، وَيَقُومُونَ حِينَ تَنَامُونَ، وَيَشْخَصُونَ حِينَ تَحْفَظُونَ»[2]. هكذا قال رسول الله ﷺ، ولعلنا نلمس في النصوص المأثورة عن النبي والأئمة عليهم السلام أبعاد هذا التمايز، فمثلا أكثر وصاياهم وكلماتهم موجهة إلى عامة الناس، في حين نجد في كلماتهم وصايا تخص الطلائع والقادة من أمثال: (كميل ابن زياد، وأبي ذر الغفاري، وسلمان المحمدي، وابن مسعود، وابن جندب).

وإنما يؤكد الله هذا التفاضل، كما هو الحال في حديثه هنا عن الجنات الأربع لكي يتسابق الناس إلى الخير، وقد صرح القرآن بهذا الهدف إذ قال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١]، بل اعتبر القرآن التسابق في إتقان العمل هدفا للخلق: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢].

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٨٠.

(٢) بحار الأنوار: ج٧٤، ص٧٨.

ونخلص إلى القول بأن الدونية في الآية بمعنى الأقل في الفضل، كقولنا: فلان دون فلان في العلم، فهو أقل منه علما، وعليه فإن الجنتين الأخريين إما تكونان لصاحب الجنتين الأوليين المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٥] يستقبل فيهما من هو أقل منه فضلا ودرجة عند الله، وهما بذلك دار ضيافته لإخوانه من المؤمنين، الذين يتزاورون في الجنة، أما الأوليان فتخصانه ويستقبل فيهما أو في إحداهما أنداده، أو تكونان (الأخريان) منزلا لمن هم أقل درجة ممن يخافون مقام ربهم.

وقد تكون الجنتان الدانيتان هما في الدنيا معدتين لمن خاف مقام ربه قبل دخول جنة الخلد، وبذلك جاءت رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، قال عنهما: «خَضْرَاوَتَانِ فِي الدُّنْيَا يَأْكُلُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْهَا حَتَّى يَفْرَغُوا مِنَ الحِسَابِ»[1].

[٦٣] ومما يحدد درجة العبد ابتداء من أعلى درجة في الجنة وانتهاء بأسفل درك في النار موقفه من آلاء ربه، وذلك بمدى تصديقه أو تكذيبه بها، ومدى انتفاعه منها، ومدى حسن تصرفه فيها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ما هو مدى التكذيب بها، فقد يكون مستوى التكذيب هو الكفر والجحود، وقد يكون عدم استغلال النعمة كما ينبغي، فهو الآخر نوع من التكذيب بالنعمة قد لا يقصده الإنسان، ولكنه ينعكس على مستقبله في الآخرة، وربما يؤدي أحدنا شكر نعمة دون أخرى، فيؤدي شكر نعمة العلم، ويقصر في نعمة المال، أو يطبق آية من القرآن ويترك أخرى، أو يعصي بعينه من خلال النظر إلى ما حرم الله، في حين لا يستمع إلى الغيبة والنميمة، فيكون قد أدى شكر نعمة الأذن دون نعمة العين.

[٦٤-٦٥] ويضع الوحي أمامنا صورا عن النعم ذاتها التي ذكرها فيما يتعلق بالجنتين الأولين للمقارنة بينهما، لنختار الأفضل بينهما ونجعلهما هدفا نسعى نحو تحقيقه، بأقصى ما يمكن من السعي.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ و «الدهمة سواد الليل، وقولنا: ليل أدهم يعني شديد الظلام، ويعبر بها عن سواد الفرس»[2]، والخضرة الشديدة الغليظة المتواصلة لأنها تضرب إلى السواد، ويُقرِّب الإمام الصادق عليه السلام صورتها حين يقول: «يَتَّصِلُ مَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ نَخْلاً»[3] وحينما نعقد

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٤٥.
(٢) مفردات غريب القرآن: ص٣٢٠ مادة (دهم).
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص٣٤٥.

مقارنة بين كلمة ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ وما يقابلها في وصف الجنتين الأولين ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ نعرف أن الأولين خضراوتان أيضا ولكن أشجارها ذوات أغصان كأشجار الفاكهة، ولعل أغلبها منها، والجنتان اللتان دونهما ليستا كذلك، وهذه الأشجار إذا انضمت بعضها إلى بعض واتصلت تضرب إلى الخضرة، وتكون جميلة ذات السوق الطويلة، ولكن جمال ذوات الأفنان وفوائدها أكثر، ولعل أحد أبرز أسباب التفاضل بين النوعين من الجنان هو مدى الشكر لآلاء الله أو التقصير فيها. جاء في الأثر عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام قلت له: «إِنَّ النَّاسَ يَتَعَجَّبُونَ مِنَّا إِذَا قُلْنَا: يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ جَهَنَّمَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ!، فَيَقُولُونَ لَنَا: فَيَكُونُونَ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللهِ فِي الْجَنَّةِ؟!. فَقَالَ عليه السلام: يَا عَلاءُ إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ لَا وَاللهِ لَا يَكُونُونَ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللهِ..»[1]. فإذا كنا نرغب في درجات الأولياء، يجب أن نستجيب لنداء القرآن المتكرر: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قائلين كما قال المؤمنون من الجن، وكما أمر الرسول الأعظم: «لَا، وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ»[2].

[٦٦-٦٧] ويأخذنا القرآن إلى داخل الجنتين، ويقف بنا هذه المرة على مقربة من عينين تنبعان بالماء وحيث نقارن بينهما وبين العينين اللتين مر ذكرهما نجدهما أقل منهما لأنهما لا تجريان.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ جاء في المنجد: «نضخ الماء اشتد فورانه من ينبوعه، وعين نضاخة فوارة غزيرة»[3]، وفي تفسير الدر المنثور: «أخرج عبد الحميد وابن المنذر وابن حاتم، عن البراء بن عازب قال: العينان اللتان تجريان خير من النضاختين، ولفظ عبد قال: ما النضاختان بأفضل من اللتين تجريان»[4]. وهذا لا يعني أن ليس في هاتين الجنتين أنهار تجري من تحتها، ولكن الله يضيف إلى أصحاب الجنتين الأولين سواقي وأنهارا تجري من العيون حيث لا توجد هذه الميزة في اللتين دونهما.

وهذا بالطبع لا يقلل من شأنهما أبدا، ذلك أن مجرد النجاة من النار فوز عظيم. قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وهذه الآية يجب أن تكون لنا شعارا، فأي نعمة من

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص١٠٦.
(٢) بحار الأنوار: ج١٨، ص٧٨.
(٣) المنجد: مادة نضخ.
(٤) تفسير الدر المنثور: ج٦، ص١٥٠.

نعم ربنا التي لا تعد ولا تحصى -والتي هي آية على رحمانيته- يمكننا أن ننكرها ونكذب بها؟! ثم لماذا نكذب بآلاء الرحمن؟! وإنه يكشف لنا عن غيب رحمته، ويفتح لنا أبوابها، ثم يدعونا بلطفه لكيلا تفوتنا، بلى، قد تفوتنا الجنتان الأوليان ولكن دعنا نتقيه ما استطعنا لندخل الجنتين الأخريين، أوليست هذه نعمة وآية تدلنا إلى رحمته؟.

[٦٨-٦٩] ثم لننظر إلى آياته ونعمه في الطبيعة من حولنا، ولنستمع إلى كتابه وهو يحدثنا عن جنتين هما دون الدرجات العلى، ولكنهما مظهر لرحمته تفوقان خير الدنيا ونعيمها.

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ وقد اختلف المفسرون في تحديد العلاقة بين الثلاثة (الفاكهة والنخل والرمان) فقال بعضهم: إن الفاكهة اسم الجنس العام وما يليها تفريع وتخصيص، واعتبر البعض الثلاثة أجناسا مختلفة، وليس ثمر النخل أو الرمان من الفاكهة، وقال آخرون: إنه ذكر الجنس (الفاكهة) وأشار إلى أفضلها وأحسنها (ثمر النخل، والرمان) لقول الإمام الصادق: «الْفَاكِهَةُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ لَوْناً سَيِّدُهَا الرُّمَّانُ»[1]، ولقوله عليه السلام: «خَمْسٌ مِنْ فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ: -منها- الرُّمَّانُ... وَالرُّطَبُ»[2]. والذي يهمنا أن الله ذكر الاثنين مثلا مما في الجنتين للإشارة لا للحصر. ومع ذلك تبقيان (أي الجنتين) دون الأوليين علوًّا وسعةً ونعيماً، فهناك قال الله فيهما ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ﴾ ليس واحدة، بل ﴿زَوۡجَانِ﴾، وهنا قال ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ﴾ فقط، وربما قصرت الكلمة عن استيعاب الجنس بكل مفرداته وأنواعه، وهذه المفارقة تشبه إلى حد بعيد قوله في سورة الواقعة يصف ما في جنات السابقين المقربين: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٩]، وقوله يصف جنات أصحاب اليمين الأقل منهم درجة: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢]. فلأولئك ما يتخيرون ويشتهون حتى ولو لم يكن موجودا قبل التخير والشهوة، ودون ذلك هؤلاء، ولا غرابة فربنا يقول وهو الصادق: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠].

إن الجنتين إذا نظرنا إلى نعيمهما وإن كانتا دون الأوليين فهما حقًّا مظهر لاسم الرحمن، إنه غني أن يخلقنا ولكنه بلطفه وحكمته خلقنا، ثم لم يدعنا هكذا إنما فطرنا على الحق والمعرفة به، فهدانا إلى النجدين، وعلمنا، ثم أعطانا العقل، وأمرنا بالطاعة له، وفتح لنا باب التوبة حتى تبلغ النفس التراقي، وهو قادر بعد الموت ألَّا يبعثنا، وإن بعثنا عذبنا، ولكنه خلق الجنة ليكرمنا

---

(١) الكافي: ج٦ ص٣٥٢.

(٢) الكافي: ج٦، ص٣٤٩ وفيه: «خَمْسٌ مِنْ فَوَاكِهِ الْجَنَّةِ فِي الدُّنْيَا: الرُّمَّانُ الْإِمْلِيسِيُّ وَالتُّفَّاحُ الشِّيسَقَانُ وَالسَّفَرْجَلُ وَالْعِنَبُ الرَّازِقِيُّ وَالرُّطَبُ الْمُشَانُ».

لا بعملنا، فنحن لا نستطيع أن نؤدي شكر نعمة واحدة من نعمه، بل بفضله الذي لولاه ما دخل أحد الجنة حتى رسوله الأكرم ﷺ وهو القائل: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ. قَالُوا: وَ لَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَوْقِ رَأْسِهِ وَطَوَّلَ بِهَا صَوْتَهُ»[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وليس لنا أمام هذه النعمة إلا القول: «لَا، وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ».

[٧٠-٧١] ثم يقول وصفا لنعيم الجنتين: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ فلماذا خرج عن التثنية إلى الجمع فلم يقل فيهما؟! هناك وجوه:

الأول: أن ذلك يدل على تعظيم شأن هاتين الجنتين بالرغم من أنهما دون ما سبق الحديث عنه في وصف الجنتين الأوليين.

الثاني: أن الكلام متصل بالآلاء في الآية السابقة، باعتبار الخيرات الحسان من الآلاء.

الثالث: أن الحديث هنا ليس فقط عن الجنتين الأخريين بل عن كل الجنان بما فيها الجنتان الأوليان. وهذا أقرب إلى السياق، بالذات حينما نقول: أن معنى الخيرات الحسان هن النساء المؤمنات باعتبارهن الأفضل والأجمل، وهكذا قال الإمام الصادق عليه السلام: «الْخَيْرَاتُ الْحِسَانُ مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وهُنَّ أَجْمَلُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ»[2]، وبقوله عليه السلام: «هُنَّ صَوَالِحُ الْمُؤْمِنَاتِ الْعَارِفَاتِ»[3].

وفي الخبر حدّث الرسول ﷺ عن نعيم الجنة، ثم ذكر الحور العين فقالت أم سلمة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أما لنا فضل عليهن؟ قال: «بَلَى بِصَلَاتِكُنَّ وَصِيَامِكُنَّ وَعِبَادَتِكُنَّ لله بِمَنْزِلَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْبَاطِنَةِ»[4].

ومن معاني الآية ما قاله رسول الله ﷺ: «يَعْنِي خَيْرَاتُ الْأَخْلَاقِ حِسَانُ الْوُجُوهِ»[5]. وإنما تسمى ذوات الأخلاق بالخيرات، لأن صلاح المرأة يعود على زوجها وعلى المجتمع بالخير الكثير، كما أن فسادها يؤدي إلى شر كبير.

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧، ص١١.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٤٦٩.
(٣) الكافي: ج٨، ص١٥٦.
(٤) بحار الأنوار: ج٨، ص ٢١٣.
(٥) بحار الأنوار: ج٨، ص٢١٣.

وتتجلى هذه النعمة أكثر فأكثر في الجنة فقد جاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ وهو الصادق يصف لنا جانبا من نعمة الخيرات الحسان في الجنة: «وَإِنَّ فِي الجَنَّةِ لَنَهراً حَافَتَاهُ الجَوَارِي، قَالَ: فَيُوحِي إِلَيهِنَّ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَسْمِعْنَ عِبَادِي تَمْجِيدِي وَتَسْبِيحِي وَتَحْمِيدِي فَيَرْفَعْنَ أَصْوَاتَهُنَّ بِأَلْحَانٍ وَ تَرْجِيعٍ لَمْ يَسْمَعِ الخَلَائِقُ مِثْلَهَا قَطُّ فَتَطْرَبُ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَ إِنَّهُ لَتُشْرِفُ عَلَى وَلِيِّ اللهِ المَرْأَةُ لَيْسَتْ مِنْ نِسَائِهِ مِنَ السَّجَفِ فَمَلَأَتْ قُصُورَهُ وَمَنَازِلَهُ ضَوْءاً وَنُوراً فَيَظُنُّ وَلِيُّ اللهِ أَنَّ رَبَّهُ أَشْرَفَ عَلَيْهِ أَوْ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَإِذَا هُوَ بِزَوْجَةٍ قَدْ كَادَتْ يَذْهَبُ نُورُهَا نُورَ عَيْنَيْهِ، قَالَ: فَتُنَادِيهِ قَدْ آنَ لَنَا أَنْ تَكُونَ لَنَا مِنْكَ دَوْلَةٌ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهَا: وَمَنْ أَنْتِ؟.

قَالَ: فَتَقُولُ: أَنَا مِمَّنْ ذَكَرَ اللهُ فِي القُرْآنِ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ فَيُجَامِعُهَا فِي قُوَّةِ مِائَةِ شَابٍّ، وَيُعَانِقُهَا سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ أَعْمَارِ الأَوَّلِينَ، وَ مَا يَدْرِي أَيَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهَا أَمْ إِلَى خَلْفِهَا أَمْ إِلَى سَاقِهَا، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْهَا إِلَّا رَأَى وَجْهَهُ مِنْ ذَلِكَ المَكَانِ مِنْ شِدَّةِ نُورِهَا وَصَفَائِهَا، ثُمَّ تُشْرِفُ عَلَيْهَا أُخْرَى أَحْسَنُ وَجْهاً وَأَطْيَبُ رِيحاً مِنَ الأُولَى، فَتُنَادِيهِ فَتَقُولُ: قَدْ آنَ لَنَا أَنْ يَكُونَ لَنَا مِنْكَ دَوْلَةٌ، قَالَ: فَيَقُولُ لَهَا: وَمَنْ أَنْتِ؟.فَتَقُولُ: أَنَا مَنْ ذَكَرَ اللهُ فِي القُرْآنِ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، قَالَ: وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ الأَزْوَاجِ خَمْسُمِائَةِ حَوْرَاءَ مَعَ كُلِّ حَوْرَاءَ سَبْعُونَ غُلَاماً وَسَبْعُونَ جَارِيَةً كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ المَنْثُورُ وكَأَنَّهُنَّ اللُّؤْلُؤُ المَكْنُونُ...»[1]. هذا نزر قليل من آلاء الله ورحمته، التي تنتظرنا لو آمنا وخفنا مقامه تعالى فلم نعصه ولم نتجاوز حدوده.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الإنس والجن.

[٧٢-٧٥] إنهن يقلن -الحور-: «نَحْنُ الخَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ أَزْوَاجُ رِجَالٍ كِرَامٍ..»[2]، لو أشرفت إحداهن على أهل الدنيا لماتوا رغبة فيها.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قال علي بن إبراهيم: «يُقْصَرُ الطَّرْفُ عَنْهَا»[3]، وتابعه صاحب المجمع، وقيل: «قُصِر طرفهن على أزواجهن»[4]، فهو شُبّه بقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، واستلطف الفخر الرازي التعبير فقال: «إن المؤمن في الجنة لا يحتاج إلى التحرك لشيء، وإنما الأشياء تتحرك إليه، فال مأكول والمشروب يصل إليه من غير حركة منه، ويطاف عليهم ما يشتهون، فالحور يكن في بيوت، وعند الانتقال إلى المؤمنين في وقت إرادتهم، تسير بهم للارتحال

---

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٢١٤.
(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٨١.
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢٢٢.
(٤) بحار الأنوار: ج٨، ص٩٦.

إلى المؤمنين خيام، وللمؤمنين قصور تنزل الحور من الخيام إلى القصور»[1] فيهن يقصرن.

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام يشير إلى هذا المعنى قال: «الْحُورُ هُنَّ الْبِيضُ الْمَضْمُومَاتُ الْمُخَدَّرَاتُ فِي خِيَامِ الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ لِكُلِّ خَيْمَةٍ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ سَبْعُونَ كَاعِباً (الجارية حين يبدو ثديها) حُجَّاباً لَهُنَّ وَيَأْتِيهِنَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرَامَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ ذِكْرُهُ لِيُبَشِّرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِنَّ الْمُؤْمِنِينَ»[2]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «الْخَيْمَةُ دُرَّةٌ وَاحِدَةٌ طُولُهَا فِي الْهَوَاءِ سِتُّونَ مِيلاً»[3] فهن ملكات الجنة وحولهن الوصائف وهذا مما يعد الله الخائفين مقامه، ولا ريب في أن الوعد الإلهي يلتقي بعمق وشمول مع تطلعات الإنسان، وإن الجنة هي الصورة الفضلى التي يصوغها الإنسان بعمله في الدنيا، وإن المؤمن لا يتطلع إلى أي زوجة، وإنما يبحث في شريكة حياته عن صفات معينة، وأهمها العفة والطهر، لأنها عنوان الأسرة الصالحة، وما هي قيمة العيش مع شريكة يمتد طرفها، وتبيع طهرها؟! أم كيف تكون الأسرة مصنعا للأجيال الفاضلة، وتأخذ موقعها ودورها في بناء المجتمع إذا كانت الأم لا تعرف العفاف؟!.

إن وعد الله للمؤمنين أن ينعم عليهم بالحور الباكرات، ليس فقط إرضاء للتطلعات الجنسية عند الإنسان، بل وقبل ذلك يحقق تطلعاته المعنوية إذ إن الفتاة العذراء أشد حبًّا لزوجها وإخلاصًا من المرأة التي تزوجت قبله.

وكلمة أخيرة: لعلنا نستفيد من ذكر القرآن لصفات الحور هنا وهي الأخلاق الطيبة ﴿خَيْرَٰتٌ﴾، والجمال ﴿حِسَانٌ﴾، والعفة والطهر ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ و ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، إن هذه الصفات هي غاية ما ينبغي للمؤمن التطلع إليه في زوجته، لتكون حياته معها سعيدة فاضلة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ نعم.. هذا وعد الله، وإن المؤمن لتواجهه مختلف الضغوط باتجاه الانحراف عن الحق، استجابة لشهواته، وربما لعبت شهوة البطن، والجنس، وحب الراحة دورا في تخلفه عن مقام الخائفين من مقام ربهم، ولكنه إذا ما تذكر الآخرة وما وعد الله المطيعين له الخائفين منه من النعيم، فسوف يقاوم الضغوط ويُميت فيه الشهوة الحرام، ويستجيب لنداء ربه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يقول: «لَا، وَلَا بِشَيْءٍ مِنْ آلَائِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ»، ويعمل على تحقيق ذلك في حياته، ثم لماذا يكذب بها وهو يعلم أن ذلك النعيم لا ينال إلا بالتصديق؟!.

---

(١) التفسير الكبير: ج٢٩، ص١٣٥.
(٢) الكافي: ج٨، ص١٥٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١٠٧.

[٧٦] لأن المؤمن يشتري راحة الآخرة بتعب الدنيا لعلمه بأن الذي يتخلف عن الحق هنا للراحة لا يجدها في الآخرة، أما المؤمنون وقد رهنوا أنفسهم للحق، وأجهدوها من أجله فإنهم يجلسون في غاية الراحة ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ جاء في المنجد: الرف: ما تهدل من الشجر والنبات، وكل ما فضل فثني، والرقيق من ثياب الديباج، وهي خرقة تخاط في أسفل الفسطاط (والخيمة) والعرب تقول: ضربت الريح رفرف الفسطاط أي ذيله، وهو ما تدلى من الدرع، ورفرف الدرع زرد يشد بالبيضة يطرحه الرجل على ظهره[1]. وقالت العرب لكل ثوب عريض رفوف، والذي يجمع هذه المسميات أنها ترف بفعل الريح أو الحركة، ولعل الرفوف المعني في الآية هي الوسائد والمساند المصنوعة من الديباج، وغير المحشوة كثيرا، فهي ترف كلما اتكئ عليها، بل الحرير يرف لرقته، ونعومته كلما حرك أو ضربته الريح، أما العبقري فهي: البسط الموشاة بالحرير، وتقول العرب للثياب الحرير المصنوعة بدقة وإبداع عبقريات، مبالغة في حسنها، ويقال للإنسان: عبقري إذا تفتق عقله، وتفجرت مواهبه بما هو فوق المألوف، وربنا لم يقل: ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ﴾ وحسب بل أضاف إليها صفة ﴿حِسَانٖ﴾ مبالغة في حسنها، كما وصف الرفرف باللون الأخضر لأنه أجمل ما يمكن أن تكون عليه الوسائد لونا.

[٧٧] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وإن نعم الله التي تحيط بالإنسان والخليقة في الدنيا، ونعيمه الذي ينتظر المؤمنين به في الآخرة، لدليل على أنه الرحمن.

[٧٨] ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ وتبارك من الأسماء الأربعة[2] الرئيسية لله وهي (سبحان، تعالى، وتبارك، والله)، وقال العلامة المجلسي رحمه الله: «وَأَمَّا تَبَارَكَ فَهُوَ مِنَ الْبَرَكَةِ وَهُوَ

---

(١) المنجد مادة (رف) بتصرف.

(٢) روى المحدث الشيخ الكليني في أصول الكافي: ج١، ص١١٣، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ اسْماً بِالْحُرُوفِ غَيْرَ مُتَصَوَّتٍ، وَبِاللَّفْظِ غَيْرَ مُنْطَقٍ، وَبِالشَّخْصِ غَيْرَ مُجَسَّدٍ، وَبِالتَّشْبِيهِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ، وَبِاللَّوْنِ غَيْرَ مَصْبُوغٍ مَنْفِيٌّ عَنْهُ الْأَقْطَارُ مُبَعَّدٌ عَنْهُ الْحُدُودُ مَحْجُوبٌ عَنْهُ حِسُّ كُلِّ مُتَوَهِّمٍ، مُسْتَتِرٌ غَيْرُ مَسْتُورٍ فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَّةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعاً لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ الْآخَرِ فَأَظْهَرَ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ لِفَاقَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهَا وَحَجَبَ مِنْهَا وَاحِداً وَهُوَ الِاسْمُ الْمَكْنُونُ الْمَخْزُونُ. فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي ظَهَرَتْ فَالظَّاهِرُ هُوَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَسَخَّرَ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ أَرْبَعَةَ أَرْكَانٍ فَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ رُكْناً ثُمَّ خَلَقَ لِكُلِّ رُكْنٍ مِنْهَا ثَلَاثِينَ اسْماً فِعْلاً مَنْسُوباً إِلَيْهَا فَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمُقْتَدِرُ الْقَادِرُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْبَارِئُ الْمُنْشِئُ الْبَدِيعُ الرَّفِيعُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّازِقُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْبَاعِثُ الْوَارِثُ فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَمَا كَانَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى حَتَّى تَتِمَّ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَسِتِّينَ اسْماً فَهِيَ نِسْبَةٌ لِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ أَرْكَانٌ وَحَجَبَ الِاسْمَ الْوَاحِدَ الْمَكْنُونَ الْمَخْزُونَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾».

عَزَّ وَجَلَّ ذُو بَرَكَةٍ وَهُوَ فَاعِلُ البَرَكَةِ وَخَالِقُهَا وَجَاعِلُهَا فِي خَلْقِهِ، وَتَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ الوَلَدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالشَّرِيكِ وَعَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوّاً كَبِيراً»[١]، ولعله الاسم الذي يتصل بجانب الفعل الإلهي في الخلق، فهو مستمر ومتكامل ويزداد بركة، فهو إذن قريب من اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ ولعلنا نستطيع القول بأن السورة ابتدأت بالجانب المعنوي لتبارك ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وانتهت بالجانب الظاهر منه ﴿تَبَٰرَكَ﴾.

كما يبدو أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، و ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ من الأسماء الفرعية لتبارك، ومظهر له، وحينما نجاور الآية ٢٧ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ بهذه الآية، نهتدي إلى حقيقتين:

الأولى: أن وجه الله هي أسماؤه، كالرحمن، والباقي، وذو الجلال والإكرام.

الثانية: أن أسماء الله منزهة كما ذاته تعالى. فهناك قال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني وجه الرب، وهنا قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني ذات الرب، ولكن تنزيه الأسماء ليس ذاتيًّا إنما هو بالله، كما لا نعني بذلك أن أسماء الله هي ذاته.. كلا.. فقد قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: «اللهُ غَايَةُ مَنْ غَيَّاهُ فَالمُغَيَّا غَيْرُ الغَايَةِ، تَوَحَّدَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ مَحْدُودِيَّةٍ، فَالذَّاكِرُ الله غَيْرُ الله، وَاللهُ غَيْرُ أَسْمَائِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ سِوَاهُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ، أَلَا تَرَى قَوْلَهُ: العِزَّةُ للهِ العَظَمَةُ للهِ، وَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ وَقَالَ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فَالأَسْمَاءُ مُضَافَةٌ إِلَيْهِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ الخَالِصُ»[٢].

والجلال اسم يحتوي على كل معاني العظمة والكبرياء، والإكرام يدل على كل معاني الجمال، فهو رحيم، حنان، غفور، منان، عطوف، عالم، قادر، وأسماء الرب أساسا تنقسم إلى نوعين: الأول: تُبيِّن أنه منزه عن النقص، والثاني: تبيِّن جوانب الكمال.

وكلمة أخيرة: هناك علاقة بين سورة الرحمن التي تحدثنا عن ثلاث فئات من الناس (المجرمين أصحاب الجنتين الأولين - وأصحاب الجنتين التاليتين) وبين سورة الواقعة التي تحدثنا أيضا عن ثلاث فئات هي (السابقون - أصحاب اليمين - أصحاب المشأمة)، وبالتدبر نكتشف أن المجرمين هم أصحاب المشأمة، والسابقون هم أصحاب الجنتين الأولين، وأصحاب اليمين هم أصحاب الآخرين.

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٠٧.
(٢) التوحيد للصدوق: ص٥٨.



سورة الواقعة

* مكية.
* عدد آياتها: ٧٨.
* ترتيبها النزولي: ٤٦.
* ترتيبها في المصحف: ٥٦.
* نزلت بعد سورة طه.

فضلُ السُّورة

عن الإمام أبي جعفر عليه السلام: «مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الجَنَّةِ وصِفَتِهَا فَلْيَقْرَأْ الوَاقِعَةَ ومَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى صِفَةِ النَّارِ فَلْيَقْرَأْ سَجْدَةَ لُقْمَانَ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١١٢)

***

وعنه عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ الوَاقِعَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ لَقِيَ اللهَ ووَجْهُهُ كَالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١١٣)

***

إِنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَخَلَ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَقَالَ لَهُ: مَا تَشْتَكِي؟، قَالَ: ذُنُوبِي، قَالَ: مَا تَشْتَهِي؟، قَالَ: رَحْمَةَ رَبِّي، قَالَ: أَفَلَا نَدْعُو الطَّبِيبَ؟. قَالَ: الطَّبِيبُ أَمْرَضَنِي، قَالَ: أَفَلَا نَأْمُرُ بِعَطَائِكَ؟. قَالَ: مَنَعْتَنِيهِ وأَنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ وتُعْطِينِيهِ وأَنَا مُسْتَغْنٍ عَنْهُ -حبسته عني في حياتي، وتدفعه لي عند مماتي؟!-، قَالَ: يَكُونُ لِبَنَاتِكَ، قَالَ: لَا حَاجَةَ لَهُنَّ فِيهِ فَقَدْ أَمَرْتُهُنَّ أَنْ يَقْرَأْنَ سُورَةَ الوَاقِعَةِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الوَاقِعَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ لَمْ تُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَداً».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٠٤)

الإطار العام

إن فلاح الإنسان في الحياة ينطلق من وعيه بحقائقها ومعيشتها، وأخذها بعين الاعتبار عمليًا بأخلاقه وسعيه، ومع أنه مطالب بوعي مُختَلِف الحقائق، إلا أن الأمر يكون أشد ضرورة وأهمية بالنسبة للحقائق الكبرى ذات الأثر الحاسم في حياته ومصيره.

و (الواقعة) هذه السورة المكيّة التي نستقبل آياتها تذكرنا بواحدة من أعظم الحقائق وأخطرها بالنسبة للإنسان وهي الساعة التي إذا وقعت تطبع آثارها على كل ذرة في الدنيا، فالأرض والجبال تستحيل هباءً منبثاً، وتنطوي صفحة هذه الحياة التي خلقت لابن آدم، لتفتح صفحات الحياة الآخرة في فصول أولها هلاك هذا الوجود بما فيه من البشر، وآخرها الجزاء الذي يمتازون فيه، وبينهما البعث والحساب.

فبقدر حضور الواقعة في وعي الإنسان ومعايشتها عمليًا تكون منزلته هناك، فإما مع السابقين من الأبرار في أعلى عليين، وأما مع أصحاب الشؤم والفجور في أسفل سافلين، وإما بينهما حيث أصحاب الميمنة، ولكن من أين له الوعي بالواقعة وهي جزء من الغيب الذي حُجب عنه؟!.

بلى؛ إنها غيب كما الملائكة والجن والمستقبل، ولكنْ تعالى الله أن يلزمنا الإيمان بحقيقة حاضرة أو غائبة إلا والآيات الهادية إليها قائمة وكافية أن تكون حجة بالغة لمن ألقى السمع وأعمل النظر والفكر وهو شهيد. فما هي آيات الواقعة؟.

أولاً: وقبل كل شيء ليس هنالك دليل ولا آية تكذب هذه الحقيقة ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾، وهذه من طبيعة الحق أنه لا دليل منطقي على خلافه، والذي يكذّب به هو الذي يحتاج إلى تبرير موقفه.

ثانياً: إن الإنسان يبرر غالباً ريبه في هذه الواقعة بالشك في إمكانيتها، لأنه ينظر إلى هذه الحقيقة العظمى من خلال قدراته المحدودة فيكفر بها. أما إذا تفكر فيها من خلال قدرة الله التي

لا تحد، وسننه الحكيمة التي لا تتبدل، فإنه سيراها (حق اليقين). والإيمان بإرادة الله يأتي من التفكر في آيات قدرته المتجلية في النفس وفي الآفاق، فإن ذلك يهديه إلى عظمة ربه وتنزيهه عن العجز، والآيات (٥٧/ ٧٣) تثير العقل البشري بالحقائق وتجعل الشهود جسرا إلى الغيب.

ثالثاً: والقرآن الكريم هو الآية العظمى التي تهدي إلى كل حقيقة، بشرط أن يكون الإنسان عندما يتدبره ويؤول آياته طاهرا من كل دنس مادي (خبثا وحدثا)، ونفسي (مرضاً ونفاقاً)، وعقلي (ضلالةً وكفراً) وذلك لتجاوز الحجب التي تمنعه من لمس معانيه وتأويلاته العميقة الحقة، فإنه يرى بالفطرة السليمة، والعقل المتقد الحقيقة مكشوفا عنه غطاؤها، وبما أن مشكلة البشر ليست عقلية وحسب، بل هي نفسية أيضا فقد يسَّر الله هذه الحقيقة العظمى بالشواهد العقلية والوجدانية والواقعية، بأسلوب أدبي بليغ، ومنهج نفسي مؤثر تضمن الترغيب والترهيب، بما يقود كله إلى التسليم لها، تسليما واعيا وعميقا، يحمل صاحبه على المعادلة بين الحاضر والمستقبل، والسعي بجد وفاعلية للفوز في الآخرة، فإذا به وقد وقعت الواقعة مستعد للقاء ربه والفوز بالجنة مع المؤمنين السابقين، أو لا أقل مع أصحاب اليمين.

ولأن الموت هو الواقعة الصغرى لكل إنسان فرد، والحق الذي يحدد به مصيره، يتعرض له السياق في نهاية السورة بوصفه آية على الجزاء، ومعبراً إلى المصير والعلم اليقين بذلك الغيب الذي يُكذِّب به الضالون المكذبون.

والسابقون السابقون أولئك المقربون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ (١) لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ[1] ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا (٤) وَبُسَّتِ[2] ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا (٥) فَكَانَتۡ هَبَآءٗ[3] مُّنۢبَثّٗا (٦) وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ (٧) فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (٨) وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ[4] (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا[5] وَلَا يُنزِفُونَ[6] (١٩) وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٞ (٢٢) كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ (٢٣) جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (٢٤) لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا (٢٦)﴾.

هدى من الآيات:

تكاد فاتحة السورة تهز القلب حتى تقلعه من مراسيه حينما تُصوِّر واقعة القيامة الرهيبة

(١) رُجَّت: أي حُرِّكت حركة شديدة بالزلازل التي هي من علائم الساعة.
(٢) وبست: فتتت، والبسيس هو السويق أو الدقيق يتخذ زاداً.
(٣) هباءً: الهباء الذي يرى من الذرات في شعاع الشمس إذا دخل الشعاع في كوّة في غرفة مظلمة.
(٤) موضونة: محكمة ومضاعفة النسج.
(٥) لا يصدعون عنها: أي لا يأخذهم الصداع وهو وجع الرأس.
(٦) ولا ينزفون: لا تذهب عقولهم بالسكر، ومعناها لا يسكرون فإن السكر يذهب بالعقل.

التي لا تكذيب لها، هنالك عندما تخفض فريقا إلى النار، وترفع آخر إلى الجنة، عندما تهتز الأرض، وتتفتت الجبال، وتنتشر هباء في الفضاء.

ولكن لماذا هذه الكلمات في فواتح تلك السور، التي تُذكِّر العباد بيوم المعاد الرهيب؟ ربما لأن الناس في غفلة شاملة، لا ينتفعون شيئا بالعبر والعظات، فهم بحاجة إلى هزة عنيفة لعلهم يستمعون إلى النذير.

ثم تمضي السورة تحدثنا عن الفرق الثلاث التي تفرزها عن بعضها الواقعة: المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. المقربون الذين هم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين في نعيم مقيم، يتكئون على سرر منسوجة بالذهب، مشبكة بالدر يتقابلون مع بعضهم براحة وسكينة، وزوجاتهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، يعيشون في صفاء وهناء بعيدا عن اللغو والتأثيم، في حياة كلها سلام ووئام.

بينات من الآيات:

[١] حينما تقوم القيامة، وينهار نظام الأفلاك، وتنعدم الجاذبية، وتتلاقى الكرات، هنالك هل يمكن تكذيبها؟ كلا.. أم ينفع التصديق بها من كذب بها من قبل؟ أبدا.

دعنا إذن نصدق بها اليوم قبل ضياع الفرصة الوحيدة.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قال بعضهم: ﴿إِذَا﴾ هنا صلة، ومعنى الآية: وقعت الواقعة، ولنا أن نقول: إنها ظرف زمان معناه: حينما تقع الواقعة لا تكذيب لها.

والقرآن الكريم يجعلنا نعيش بآياته الكريمة المستقبل كما نعيش الحاضر، ذلك أنه كلما كان وعي البشر للحقائق القادمة أشد وأنمى كَيَّفَ حياته وفقها، وهكذا يتفاضل الناس بينهم بما يستوعبون من حقائق المستقبل في حاضرهم فيزدادون اجتهادا إليها وسعيا، ويحذرون من الانحراف عنها، والغفلة عنها.

[٢] ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ إنها وقعة صادقة وليست كاذبة، وقال بعضهم: لا نفس تكذب بها، والمعنى الأول أشد وقعا في الفؤاد؛ فليس شيء في الطبيعة قادرا على تكذيبها لأنها تفرض نفسها على كل ذرة من الكائنات. في حين أن المعنى الثاني يخص البشر؛ فإنه لا أحد يقدر على التكذيب بها، ليس فقط حين وقوعها، وإنما الآن أيضا لا يمكن التكذيب بها لمن أوتي عقلا وإحساسا. أوليست الحياة كلها تهدينا إلى أنها ذات هدف وحكمة، أوَيمكن تصور حكمة لها من دون الإيمان بالساعة كما قال ربنا: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧].

[٣] يومئذ تتموج الكائنات كماء البحر الهائج، فتنخفض الأرض المرتفعة، وترتفع الأرض المنخفضة، وهكذا الناس.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾، المستكبرون الذين علوا في الأرض بغير حق تخفضهم إلى حضيض جهنم، والمستضعفون الذين حُرِموا حقوقهم ترفعهم الواقعة إلى الدرجات العلا في الجنة. جاء في الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «﴿خَافِضَةٌ﴾: خَفَضَتْ وَاللهِ بِأَعْدَاءِ اللهِ إِلَى النَّارِ، ﴿رَّافِعَةٌ﴾: رَفَعَتْ وَاللهِ أَوْلِيَاءَ اللهِ إِلَى الْجَنَّةِ»[1].

[٤] أرأيت كيف يتحرك المهد بالصبي، كذلك الأرض ترتج يومئذ بما عليها، حتى ينهدم كل ما بني، ويتهاوى كل قائم.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ قال ابن عباس: «الرجة: الحركة الشديدة، يسمع لها صوت»[2]، ويبدو أن الرجة أعظم من الزلزال، لذلك روي: «مَنْ رَكِبَ الْبَحْرَ حِينَ يُرْتَجُ فَلَا ذِمَّةَ لَهُ»[3] أي إذا اضطربت أمواجه، ولا ريب أن تموُّج البحر حالة دائمة، وإنما المراد بالارتجاج: اضطراب البحر وهيجانه. و لنا أن نتصور رهبة الناس عندما تضطرب الأرض من تحتهم، فهل يبقى ما يعتمدون عليه؟!.

[٥] وإذا كانت الأرض أعظم ركائز السكينة والطمأنينة تتزلزل من تحتنا، فإن الجبال وهي أكبر ركائز الثقة والثبات تتفرق وتتبدد، فهل تبقى قائمة للماديين الذين خالفوا القيم، وكذبوا بالحق اعتماداً على الكائنات الموجودة، على التراب استخرج منه، أو نبت فيه، أو بني عليه، وعلى الجبال وما شابهه من الصخر والحديد؟. ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أرأيت الحية كيف تذهب في الأرض، كأنها تذوب فيها، أرأيت الماء كيف يتفرق في الرمال العطشى؟ أرأيت كيف يتفتت الثوب حينما يصبح خَلِقاً بالياً؟ هكذا الجبال الراسيات تتفرق في كل اتجاه، كما يتفرق العهن المنفوش إذا تواصلت عليه الأعاصير الموج.

[٦] فإذا بُسَّت الجبال انتشرت في الفضاء كما الرهج الذي يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب حسب ما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام. ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ وقال البعض: «الهباء: هو الشعاع الذي يكون في الكوة كهيئة الغبار»[4]، ولعل الجاذبية تنعدم مما تجعل الصخور تفقد تماسكها الداخلي، فتتفتت إلى ذرات متناهية في الصغر، ولعلها تتلاشى كما الشرر المتطاير من

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٩٢.
(٢) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص ١٩٦.
(٣) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص ١٩٦.
(٤) تفسير القرطبي: ج١٧، ص١٩٧.

النار، فإذا وقع على شيء لا تجده شيئا حسب تفسير آخر لكلمة الهباء.

وقالوا: المنبث المتفرق كما قال ربنا: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وحال الجبال في الواقعة بعكس واقع أعمال الكفار، وما يعتمدون عليه في الدنيا، من سلطة وثروة وجاه. إن كل ذلك ليس في الحقيقة إلا ضلال كما ضلال الجبال، تحسبها شامخة فإذا اتكأت عليها ما أغنت عنك شيئا.

[٧] وإذا كانت الماديات بكل ضلالها وغرورها كما الجبال يوم القيامة، فإن أسباب التفاخر في الدنيا، وعوامل التمايز بين طوائف الناس ما هي إلا باطل. بلى؛ يتفاضل الناس بإيمانهم وأعمالهم، لا بألوانهم وألسنتهم وثرواتهم، ومناطق توالدهم وتواجدهم، كما يزعم أهل الدنيا.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ كنتم في يوم القيامة ثلاثة أصناف، كما أنتم في الدنيا ثلاثة أصناف، إلا إنكم اليوم محجوبون عن حقيقة أنفسكم وحقيقة ما به تتفاضلون. قالوا: «إنما سموا ﴿أَزْوَٰجًا﴾ لأن كل صنف يشاكل أبناؤه كما يشاكل الزوج زوجته»[1]. وقال البعض: «لفظ (الزوج) لا يقال دائماً لجنس المؤنث والمذكر، بل تطلق هذه اللفظة على الأمور المتقارنة مع بعض، ولكون أصناف الناس في القيامة والحشر والنشر تكون متقارنة مع بعضها، لذا يطلق عليها لفظ أزواج»[2]، ويبدو أن هذا المعنى أقرب.

[٨] ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ تفاءلت العرب بالجانب الأيمن، وانتزعوا له اسما من اليُمن، وانتظار الخير، وربما سموا التقدم يمينا، والتخلف شمالا، فقالوا: «اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، أي اجعلني من المتقدمين»[3]. ولأن أصحاب الجنة يُؤْتَون كتبهم بأيمانهم فإن اليمين يصبح يومئذ رمزا لدخول الجنة، وقال بعضهم: «إن الكلمة هنا تعني أصحاب اليُمن في مقابل أولي الشؤم في الآية الآتية»، ولكن يبدو أن التفسير الأول أظهر، بالنظر إلى استخدام اليمين في أهل الجنة في النصوص الإسلامية. فيبدو أن اليُمن مأخوذ من اليمين بينما تشاءم العرب من الشمال لتعسّر استعمال الشمال. فإذن (اليمين - الشمال) وهو إشارة إلى كلا الطبقتين من الدلالة اليمين واليُمن والشمال والشؤم، نعم ورد في الآية التاسعة ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تركيزا على العاقبة السيئة بينما ذكرهم في الآية (٤١) بـ ﴿ٱلشِّمَالِ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص ١٩٨، نقلًا بتصرف.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٧، ص٤٤٧.
(٣) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص ١٩٩.

﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ جاء هذا التعبير إشارة إلى التفخيم، والمراد بيان ما يتميزون به من أصحاب الشمال من الثواب العظيم.

[٩] ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ قالوا: «العرب تسمي الشمال شؤما، لأنهم يعتبرونه نحساً»، ويقولون: «قعد فلان شأمه (شمالا)، ويا فلان شائم بأصحابك (تياسر بهم) كما يسمون اليد اليسرى الشؤمى». فالمراد إذن بأصحاب المشأمة أولئك الذين يؤتون كتابهم بشمالهم، ليكون ذلك علامة على أنهم من أصحاب النار، وقيل: إن المعنى أصحاب الشؤم والنحس.

﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ وهذا التهويل يدل على ما أُعد لهم من عذاب شديد، ولعل الحكمة من التهويل هنا وهناك هو الفصل بين الفريقين فصلاً نهائيًا بالرغم من اختلاطهم في الدنيا، فقد يكون الولد من هؤلاء، والوالد من أولئك، ولكنهما لن يشتركا في مصير الآخرة، وإنما بينهما مسافة أبعد مما بين الأرض والسماء.

ويبدو من آيات قرآنية عديدة أنها تهدف تعميق الفصل بين أهل الصلاح والفساد؛ لأنه إذا لم يعرف الفصل كان من الطبيعي سقوط الإنسان في وهدة الفساد؛ لما فيه من جاذبية مادية، ولأن ذلك السقوط لا يحتاج إلى قرار؛ وإنما يتم عادة في غيبة من صاحبه، وبسبب انعدام الحذر عنده.

[١٠] ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الذين يسارعون في الخيرات، ويبادرون للاستجابة للحق أنى دُعُوا إليه، متجاوزين عقبة التوافق الاجتماعي بقوة الإرادة، وبصيرة الإيمان. لقد كان حبيب النجار سابقا، كما كان حزقيل من السابقين، أما سيد السابقين فقد كان الإمام علي عليه السلام الذي سبق الرجال في الإيمان بالإسلام.

ولنا أن نتصور ملامح السابقين الشخصية، وتحديهم لظروفهم وتعرضهم للآلام والضغوط الهائلة، كل ذلك من خلال نظرة إلى سيرة هذه القدوات الثلاث، لقد تجاوزوا أولاً: عقبة التردد والشك بقوة العقل، ومضاء التفكير، فلم يرتابوا في الحقيقة بمجرد غفلة الناس عنها، ولم يأبهوا بالرأي العام الذي خالف الحق وناهضه، ولم تساورهم الظنون في الداعي إلى الحق بسبب الإعلام المضلل، أو الدعايات الكاذبة. كانوا كما الجبل الأشم، يتحدون أعاصير التهم والافتراءات. إن ثقة الإنسان بعقله واعتداده بشخصيته الداخلية، ويقينه بالحق، وعزيمته في الانتماء إليه والدفاع عنه، وإيمانه بحتمية انتصاره، إن كل ذلك مكونات شخصية السابق.

وبعد تجاوز شكوك النفس، ووساوس الشيطان، والالتحاق بالحق يواجه السابق عناد المجتمع، وتصلبه في الباطل، مما يجعله وجها لوجه مع ضغوط هائلة، ابتداءً من الافتراء

والسخرية، وانتهاءً بالتجويع، والتعذيب، والنفي، والقتل، ومرورا بالمقاطعة الاجتماعية، فإذا تحداها، وانتصرت الرسالة، برزت صعوبات جديدة حيث تقبل الدنيا عليه بكل ما لها من إغراء النساء، وزينة المال والأولاد، وشهوة الرئاسة والسلطة، فإذا تحداها واجه تياراً اجتماعياً جديداً من الذين التحقوا بالركب طمعا في الدنيا، وانبهروا بزخارفها، وأخذوا يفرّغون الدين من محتوياته، ويبدّلون الكلم عن مواضعه.

وبكلمة: إن حياة السابقين سلسلة من الصراعات التي لا تنتهي... فهو إذن بحاجة إلى جهاد متواصل، كما أنه بحاجة إلى مبادرات مستمرة، وقرارات حاسمة وتاريخية، لا ينفك عنها حتى يأتيه اليقين، وذلك عندما يلقى ربه راضياً مرضيًّا.

والسابقون هم الأولون قدما نحو الخير؛ وإيمانا ومعرفة ببصيرتهم ووعيهم، وعملا بتوكلهم على الله، وثقتهم بأنفسهم، وشجاعتهم حيث يكسرون بذلك طوق العادة، ويخرجون من جاذبية المحيط، ويتجاوزون السقوف المصطنعة بالريادة والمبادرة والإبداع، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. وهم الأسبق كمًّا ونوعاً في الخير، ولا يرون النوع من زاوية التقوى والإخلاص فقط؛ إنما من زاوية الإتقان أيضا لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. أما فاعلية السبق فهي ترتكز عند هذا الفريق على الأمور التالية:

١- طموح الإمامة والقيادة. وهو طموح مشروع في الإسلام، قال تعالى يحكي صفات عباده المقربين: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ولكنهم لا يبحثون عن هذا الطموح من خلال الحسب والنسب، أو المقاييس المادية الأخرى، إنما يسعون إليه عمليًّا بالحق ومن خلال الكفاءة، والسبق أهم شروطها، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

٢- التنافس في الخير مما يفرض عليهم الأخذ بكل أسباب التفوق، ولكن بعيدا عن حالات الصراع النفسية والعملية، كقوله سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

٣- الرغبة في ثواب السابقين، والخشية من التقصير. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١].

ويبدو أن السابقين في كل أمة هم طليعة تلك الأمة وشهداؤها، وهم الحواريون الذين يلتفون حول القيادة الإلهية الرشيدة، وقد جاء في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«السُّبَّاقُ خَمْسَةٌ: فَأَنَا سَابِقُ العَرَبِ، وَسَلْمَانُ سَابِقُ فَارِسَ، وَصُهَيْبٌ سَابِقُ الرُّومِ، وَبِلَالٌ سَابِقُ الحَبَشِ، وَخَبَّابٌ سَابِقُ النَّبَطِ»[1]. وجاء في حديث مأثور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَتَدْرُونَ مَنِ السَّابِقُونَ إِلَى ظِلِّ الله يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الحَقَّ قَبِلُوهُ، وإِذَا سُئِلُوهُ بَذَلُوهُ، وحَكَمُوا للنَّاسِ كَحُكْمِهِم لِأَنْفُسِهِم»[2]. وبالرغم من أن تطبيق الحديث على هذه الآية غير واضح إلا أنه يهدينا إلى ميزات السابقين بصفة عامة.

[١١-١٢] ﴿أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إن أعظم جزاء السابقين القربى من رب العزة، ويتجلى في الكرامة العظيمة التي أُعِدَّت لهم في جنات النعيم.

[١٣-١٤] ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ قالوا في معنى الثلة: أنها من ثللت الشيء، أي قطعته، ومعناها: فرقة.

لكن من هُم الأولون والآخرون؟.

قال بعضهم: من مضى من السابقين في الأمم السابقة أكثر لأن الأنبياء كانوا أكثر، في حين أن السابقين في هذه الأمة قليلون لأن النبي واحد، وكأنهم زعموا أن السابقين لا يكونون إلا من أصحاب النبي الذين سبقوا الآخرين في الإيمان به.

وقال آخرون: الأولون والآخرون هم من هذه الأمة، وإنما كان الأولون أكثر لأنهم نهضوا بأعباء الدعوة أيام غربته، بيد أن ظاهر الآية ينسجم مع التفسير الأول أي أن شامل للأمم السابقة وهذه الأمة، وقد روي عن رسول الله ﷺ: «أنه لما نزل هذا شق على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ فقال النبي: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الجَنَّةِ، بَلْ ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ، بَلْ نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَتُقَاسِمُونَهُم فِي النِّصْفِ الثَّانِي»[3].

وقد استوحى بعض المفسرين من هذه الآية الكريمة اعتماداً على أن السبق مأخوذا فيه السبق الزمني: أن القرون الأولى خير من التي تلتها، في حين أن العكس هو المفهوم من الآية، إذ كلما كثر عدد المؤمنين قل عدد السابقين لأن أهمية السابق تحركه في الاتجاه المخالف للناس، ولذلك كان الإيمان والإنفاق قبل الفتح أعظم درجة من الإيمان والإنفاق بعده.

لكن يستلهم من بعض النصوص الآتية: أن السابقين هم بعض المقربين، فقد يكون في

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٢٥.
(٢) نقلا عن تفسير المراغي: ج ٢٧، ص١٣٤.
(٣) تفسير القرطبي: ج١٧، ص٢٠٠.

الآخرين من ليس بسابق، ولكنه يتساوى في الفضل معهم، بما أوتي من درجة الإيمان، وقوة اليقين، وبما وُفِّق له من مسارعة في الخيرات.

نقرأ في نص مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام يقول لبعض أتباعه: «وَأَنْتُمُ السَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ والسَّابِقُونَ الآخِرُونَ والسَّابِقُونَ فِي الدُّنْيَا والسَّابِقُونَ فِي الآخِرَةِ إِلَى الجَنَّةِ»[1].

ويبين نص آخر مروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «فَالسَّابِقُونَ هُمْ رُسُلُ الله عليهم السلام وخَاصَّةُ الله مِنْ خَلْقِهِ، جَعَلَ فِيهِمْ خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ أَيَّدَهُمْ بِرُوحِ القُدُسِ فَبِهِ عَرَفُوا الأَشْيَاءَ، وأَيَّدَهُمْ بِرُوحِ الإِيمَانِ فَبِهِ خَافُوا اللهَ عَزَّ وجَلَّ، وأَيَّدَهُمْ بِرُوحِ القُوَّةِ فَبِهِ قَدَرُوا عَلَى طَاعَةِ الله، وأَيَّدَهُمْ بِرُوحِ الشَّهْوَةِ فَبِهِ اشْتَهَوْا طَاعَةَ الله عَزَّ وجَلَّ وكَرِهُوا مَعْصِيَتَهُ، وجَعَلَ فِيهِمْ رُوحَ المَدْرَجِ الَّذِي بِهِ يَذْهَبُ النَّاسُ ويَجِيئُونَ»[2].

ويعدد حديث آخر مأثور عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام حواري الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ويعتبرهم السابقين[3].

ويبدو من حديث آخر أن التفاضل في الإيمان يتساوى فيه الأولون والآخرون، فقد روي عن الإمام الصادق أنه سئل: «قُلْتُ لَهُ عليه السلام: إِنَّ لِلإِيمَانِ دَرَجَاتٍ ومَنَازِلَ يَتَفَاضَلُ المُؤْمِنُونَ فِيهَا عِنْدَ الله؟!. قَالَ عليه السلام: نَعَمْ. قُلْتُ -السائل-: صِفْهُ لِي رَحِمَكَ اللهُ حَتَّى أَفْهَمَهُ، قَالَ عليه السلام: إِنَّ اللهَ سَبَّقَ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ كَمَا يُسَبَّقُ بَيْنَ الخَيْلِ يَوْمَ الرِّهَانِ ثُمَّ فَضَّلَهُمْ عَلَى دَرَجَاتِهِمْ فِي السَّبْقِ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ كُلَّ امْرِئٍ مِنْهُمْ عَلَى دَرَجَةِ سَبْقِهِ لَا يَنْقُصُهُ فِيهَا مِنْ حَقِّهِ، ولَا يَتَقَدَّمُ مَسْبُوقٌ سَابِقاً ولَا مَفْضُولٌ فَاضِلًا، تَفَاضَلَ بِذَلِكَ أَوَائِلُ هَذِهِ الأُمَّةِ وأَوَاخِرُهَا»[4].

ومن ذلك كله نستوحي أن مفهوم السبق أشمل من مجرد التقدم الزمني إلى الإيمان، إذ يتسع للتسارع في الخيرات، والمبادرة إلى درجات الإيمان، وقد سأل الراوي الإمام الصادق عليه السلام في النص السابق آنفا ذاته عن درجات الاستباق فقال: «أَخْبِرْنِي عَمَّا نَدَبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ المُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ مِنَ الاسْتِبَاقِ إِلَى الإِيمَانِ فَقَالَ: قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾، وقَالَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾»[5].

---

(١) الأمالي للصدوق: ٦٢٦.

(٢) الكافي: ج١، ص٢٧١.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٤٢.

(٤) الكافي: ج٢ ص٤٠.

(٥) الكافي: ج٢، ص٤٠، تفسير العياشي: ج٢ ص١٠٥.

فلا يجوز أن يقنط لاحق من روح الله، وما أعده الله للمقربين إليه من الدرجات الرفيعة، ويبرر قنوطه بأنه قد تأخر زمنيًا عن الأولين. كلا.. إن معارج التكامل إلى الله معدة لكل من شاء أن يُحلّق في أجواء القرب من رب العباد.

[١٥] ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ مصفوفة، قالوا: الوضن النسج المضاعف والنضد، ودرع موضونة: محكمة في النسج، والسرير الموضون: الذي سطحه بمنزلة المنسوج. وقال بعضهم: إن أسِرَّة الجنة منسوجة بخيوط الذهب، مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد.

[١٦] ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ الاتكاء علامة الارتخاء، وعدم وجود ما يشغلهم غير التلذذ بألوان النعم الإلهية، والتقابل دليل المحبة والود المتبادل بينهم. أوَليست قلوبهم طاهرة من الغل، والحسد، والحقد؟ وراحتهم الخالدة يومئذ هي جزاء اجتهادهم الدائب في الدنيا، فكم أتعبوا أجسادهم في طاعة الله، وكم قاوموا ضغوط الحياة، وواجهوا الطغاة والمترفين، وكم تحملوا من الأذى النفسي والجسدي؟!.

[١٧] ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ إن أفضل خدمة بين الأحباب خدمة الغلمان، وبالذات حينما تكون نضارة شبابهم أبدية، فهم مخلدون لا تعتريهم خشونة الرجال، ولا تأتي على جمالهم وأناقتهم، ودماثة أخلاقهم طوارق الليل والنهار.

[١٨] ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ إنهم يصبون لذيذ الشراب من أكواب وأباريق في كؤوس جميلة، ويقدمونها لأهل الجنة. قالوا: يختلف الكوب عن الإبريق في العرى والخراطيم، أما الكأس فهي إناء الشرب، وقيل: لا يقال: كأس إلا إذا كان فيها شراب، وإلا فهي زجاجة، ولا يقال: كوز، إلا إذا كانت له عروة، وإلا فهو كوب[1]، وتساءل: ما هذا الترتيب؟ يبدو أن الأكواب هي الآنية الكبيرة المليئة بالخمر، وتغرف منها بالأباريق، ثم تصب الخمرة في الكأس للتناول، كل ذلك لإضفاء جو المرح واللذة والكرامة في جلسات المؤانسة. وقالوا: المعين الجاري، حيث إن خمرة الجنة تجري من عيون، ويبدو أن الوصف ليس فقط لما في الكأس، بل لما في الأكواب والأباريق أيضا. وقيل في جريان الماء: «فإذا كان ظاهرا جاريا على وجه الأرض فهو معين وسنم»[2].

[١٩] ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ فهي ليست كشراب الدنيا يصيب الإنسان بصداع ودوار، أو يذهب بعقولهم. قالوا: النزف: السُّكْر، وقيل: لا ينفد شرابهم، وتساءل الفخر

---

(١) فقه اللغة للثعالبي: ص ١٥.

(٢) فقه اللغة للثعالبي: ص ٢٨٥.

الرازي: لماذا قيل: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ ولم يقل (منها) فأجاب: لأن الصفة هنا صفة الشراب، ولو كان صفة الشخص لحسن القول: فلان لا يصدع من الشراب[1]. ولعل تقديم الشراب على الطعام لأن الإحساس بالعطش أشد، والشراب أول ما يُكرم به الضيف والله العالم.

[٢٠] وبعد بيان نعمة المؤانسة والشرب جاء دور الطعام، وربما قُدِّمت الفاكهة لأنها مقتضى عادة الضيافة، وربما لأمور تتعلق بملائمة طبع الجسم والصحة والله العالم. ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ فالفواكه موجودة بأنواعها، ومبذولة بلا نَصَب، ويبقى الاختيار بأيديهم، ويبدو أن نعمة الحرية تتجلى عند أهل الجنة في كل أبعادها. بلى؛ إنهم عاشوا في الدنيا أحرارا، ورفضوا التسليم للطغاة والمترفين وشهوات الذات، فأسبغ عليهم ربهم نعمة الحرية بأوسع معانيها.

[٢١] الآن وقد ارتووا، وفتحت الفواكه شهية الطعام عندهم، تطوف عليهم الموائد التي فيها أنواع من لحم الطير ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ويبدو أن لحوم الطير أشهى وأطهر، ولذلك خُصَّت بالذكر في الكتاب، وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «سَيِّدُ إِدَامِ الجَنَّةِ اللَّحْمُ»[2]. وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله: أنه قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ طَيْراً مِثْلَ أَعْنَاقِ البُخْتِ، تَصْطَفُّ عَلَى يَدَيْ وَلِيِّ الله، فَيَقُولُ أَحَدُهَا: يَا وَلِيَّ الله! رَعَيْتُ فِي مُرُوجٍ تَحْتَ العَرْشِ، وَشَرِبْتُ مِنْ عُيُونِ التَّسْنِيمِ، فَكُلْ مِنِّي، فَلَا يَزَلْنَ يَفْتَخِرْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى يَخْطُرَ عَلَى قَلْبِهِ أَكْلُ أَحَدِهَا، فَتَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى أَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ، فَيَأْكُلُ مِنْهَا مَا أَرَادَ فَإِذَا شَبِعَ تَجَمَّعُ عِظَامُ الطَّائِرِ، فَطَارَ يَرْعَى فِي الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَ»[3].

[٢٢ - ٢٣] وإذا فرغوا من جلسات المؤانسة، ومن الشراب، والفاكهة، والطعام، آووا إلى فرشهم فلقد أعدت لهم زوجاتهم من الحور العين ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ إن تلاقي روح الزوجين يتم عبر العين ولذلك فإن أروع الجمال جمالها، وحين تكون العين حوراء: سوادها شديد، وبياضها شفاف، ثم تكون واسعة؛ فإنها تكون جذابة ورائعة، أما سائر أجسادهن فهو أبيض، أرأيت اللؤلؤ حين ينفتح عنه الصدف كيف يشع بياضا؟.

[٢٤] إن هذه النعم العظيمة توافيهم بفضل الله، جزاء لأعمالهم، لكي يزدادوا تلذذا بها، وإحساسا بأهميتها. أرأيت الذي يحصل على نعمة بلا سعي لا يعتز بها كمن يتلقاها بسعيه فيحس أنه كان على حق، وأن اختياره كان حكيما رشيدا ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

(١) تفسير الرازي: ج ٢٩، ص١٥٢.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٥، ص٢٢.
(٣) تفسير القرطبي: ج١٧، ص ٢٠٤.

[٢٥-٢٦] بعد راحة الجسد يحدثنا السياق عما يريح القلب، فأوله: اعتزاز النفس بماضيها، وحسن انتخابها لسعيها، والثاني: طهارة الجو من الكلام البذيء، فلا يتنابزون بالألقاب، ولا يترامون التهم والغيبة، ولا يمشون بالنميمة. كلا.. ولا يقولون لبعضهم: أثمت، وفعلت كذا، وتركت كذا، كما يقول البعض للمؤمنين في الدنيا، وكما يتبادل غيرهم القول دائما.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ من الغيبة والتهمة والنميمة ﴿وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ فحشا، واستهزاءً وسخرية. لقد صبروا أياما قليلة على جراحة اللسان، ولم ينهزموا أمام الدعاية البذيئة التي نفثتها أبواق الشياطين، فأعقبتهم راحة طويلة من الحياة الهنيئة.

وإذا فكرنا في أسباب الشقاء في الدنيا لعلمنا أن أشدها أثرا، وأبلغها ألما هي سموم الألسنة البذيئة، ولا أثر لها في الجنة. لماذا؟ لأن هذه الألسنة تنطق عن قلوب مليئة بالأحقاد، والآلام، والعقد، والجنة نظيفة من كل ذلك، فقد نزع الله سبحانه عن قلوب أهلها كل غل، وتحاسد، وطمع، وحرص، كما رفع عنهم الآلام، وأسبغ عليهم النعم، فانعدمت عوامل اللغو والتأثيم ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾، إن الأخطار التي تحيق بأهل الدنيا، وتفرز الصراعات، والعداوات، والخوف، والقلق، والنفاق؛ إنها معدومة في الجنة، فكل ما فيها طمأنينة، وسكينة، وأمن، وراحة، ولا بد إذن أن تنعكس كل تلك النعم الظاهرة في الأفئدة وعلى الألسن في قول السلام، هذا يسلم عليك وأنت ترد عليه السلام.

بل؛ أهل الجنة صنعوا لأنفسهم في الدنيا مجتمع السلام، والحب، والتعاون، فلم يحسدوا أحدا على نعمة، ولم يحقدوا على أحد لمصلحة، ولم يحجبوها عن الله بالوساوس والظنون، ولم يُدَنِّسوا ألسنتهم بالفحش والسُّباب، فأعطاهم الله كل ذلك كاملا وافيا في الجنة. رزقنا الله جميعا توفيق طاعته في الدنيا، ونعيم جنته في الآخرة.

هذا نزلهم يوم الدين

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ[(١)] (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ[(٢)] (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً[(٣)] (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا[(٤)] أَتْرَابًا[(٥)] (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ[(٦)] وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ[(٧)] (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ

---

(١) سدرٍ مخضود: السدر شجر النبق، ومخضود أي خُضِد شوكه فلا شوك فيه.

(٢) وطلح منضود: قيل شجر الموز، ومنضود قد نُضِد ورتّب ثمره بعضه فوق بعض، والمنضود أيضاً ما نضد بعضه على بعض نضد بالحمل من أوله إلى آخره فليست له سوق بارزة فمن عروقه إلى أفنانه ثمر كله.

(٣) إنشاءً: دون ولادة ودون انتقال من حال إلى حال.

(٤) عرباً: أي متحننات على أزواجهن متحببات إليهم، وقيل: عاشقات لأزواجهن، وقيل: العَرُوب اللعوب مع زوجها إنساً به كإنس العرب بكلام العربي.

(٥) أتراباً: جمع تِرْب، وهو أي المثيل.

(٦) سموم: اليحموم الأسود الشديد السواد باحتراق النار، وهو يفعول من الحم وهو الشحم المسود باحتراق النار، يقال: حممت الرجل إذا سخمت وجهه بالفحم، وقيل: دخان أسود شديد السواد، فالكافرون في نارٍ ذات دخان لا يرون مكاناً.

(٧) الحنث العظيم: هو الشرك حيث لا يتوبون عنه.

﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ[1] ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يحدثنا ربنا عن مصير الفريقين الآخرين (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال)، «وشمائل ضد اليمين، يقال: فلان عندي بالشمال إذا خسّت منزلته، وهو عندي باليمين أي بمنزلة حسنة»[2].

وأصحاب اليمين يدخلون الجنة إلى نعيم مقيم، ولكنه دون نعيم السابقين كثرةً وتنوُّعاً وكيفاً، كما أنهم دونهم في الإيمان والعلم في الدنيا، وينتمي إلى هذا الفريق عامة المؤمنين والمسلمين من الناس، الذين عنوان مسيرتهم الصلاح، فهم وإن دخل بعضهم النار، أو تأخر في الحساب، إلا أنه لا يلبث أن ينقلب إلى نعيمه وأهله مسرورا برحمة من الله، وبسبب أعماله الصالحة، أو شفاعة السابقين. وهم ثلة من كل أمة وجيل، ولا يطيل القرآن الحديث عنهم، بل يختصره في أربع عشرة آية قصيرة، ثم ينتقل بنا إلى بيان مصير أصحاب الشمال، حيث أنواع العذاب المؤلم المهين (سموم الحميم، وظل اليحموم، وشجر الزقوم، وشراب الحميم)، وكل ذلك تذكره السورة في كلمات ترعب النفوس، وبلاغة تنفذ إلى أعماق من يلقي السمع شهيدا، بما يكفي زاجرا للإنسان وعلاجا للترف، والإصرار على الضلال والتكذيب بالآخرة.

وحين يُقَسِّم القرآن الناس إلى هذه الطوائف فلكي يكون التقسيم المشروع هو القائم على أساس الإيمان والعمل، أما الأسس الأخرى فهي لا تصلح سببا لتفريق الناس مثل اللغة واللون والعنصر.

بينات من الآيات:

[٢٧-٣٠] ما هي صفات أصحاب اليمين، وما هو جزاؤهم؟.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ الميمنة من اليمن أي النصيب الحسن، وقد جعل الله إعطاء الكتاب للإنسان بيده اليمنى يوم القيامة دليلا على العاقبة الحسنى، ولأن كاتب الحسنات على اليمين وكاتب السيئات على الشمال فإن أصحاب اليمين هم الذين زادت حسناتهم على السيئات، والصحبة من التلازم والمقارنة، فقد يكون هؤلاء ذوي الصلة المتينة

(١) الهيم: هو الإبل العطشان الذي لا يروى من الماء لداء يصيبه.
(٢) المنجد: مادة شمل.

بملائكة الحسنات لكثرة الصالحات عندهم، فهم لا يبرحون يصلونهم بها بين الحين والآخر، فيصحبهم أولئك الملائكة عند الحساب، يُبيِّنون حسناتهم، ويشفعون لهم عند الله. ومن كانت هذه صفته فإنه يصير إلى منزلة عظيمة من الجزاء والرضوان عند الله.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ يعني منزوع الشوك، مما يجعل قطف ثماره خاليا من الأذى والمشقة، والمخضود: مَثْني الأغصان من غير كسر (أيضا) إشارة إلى كثرة ثمارها وورقها اللذين يثقلان الغصن فيثنيانه، والسدر: شجر النبق (الكنار)[1]، وله فوائد جمة منها: ثمره، وظله، ومنظره الجميل. جاء في الحديث عن سليم بن عامر قال: «كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوما فقال: يا رسول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ قال رسول الله: وَمَا هِيَ؟ قال: السدر فإن له شوكا مؤذيا؟ فقال ﷺ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؟ خَضَدَ اللهُ شَوْكَهُ فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شَوْكَةٍ ثَمَرَةً، فَإِنَّهَا تُنْبِتُ ثَمَراً يَفْتُقُ الثَّمَرُ مِنْهَا عَنْ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ مَا فِيهِ لَوْنٌ يُشْبِهُ الآخَرَ»[2] وقال سعيد بن جبير: «ثمرها أعظم من التلال»[3]. والحرف ﴿فِي﴾ يفيد الإحاطة والدوام، فهم محاطون بما يذكر من النعم.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ أي: «متسق منظم مضموم بعضه إلى بعض، وتنضدت الأسنان تراصفت»[4]، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ»[5] وقال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]، متسق، واختُلف في الطلح على أقوال أشهرها وأقربها أنه الموز، وهو من ألذ الفواكه وأشهاها.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي دائم متصل واسع، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]. وفي حديث آخر عن الرسول ﷺ قال: «﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ فِي مِثْلِ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ»[6] وفي الخبر: «أَنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَقْطَعُهَا اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»[7] وكان الظل يعني شيئا كثيرا في محيط الجزيرة العربية حيث يتعرض الناس عادة لأشعة الشمس الحارقة.

(١) قال صاحب المنجد: الكنار النبق (بالعامية والفارسية).
(٢) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص٢٠٧.
(٣) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص٢٠٧.
(٤) المنجد: مادة نضد.
(٥) نور الثقلين: ج٥، ص ٢١٥.
(٦) الكافي: ج٨، ص٩٩.
(٧) بحار الأنوار: ج٨، ص١٠٩.

[٣١-٣٣] ونعمة أخرى لأصحاب اليمين هي الماء (قوام الحياة)، يشربونه ويتلذذون بمنظره الرائع، وهو ينحدر من علٍ مُنسكباً لا ينقطع. ﴿وَمَآءٍ مَّسۡكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ تنوعا وعددا، وهي لا تنفد مهما بالغ المؤمنون في التفكه بها، كما إنها ليست محدودة ثمرتها بموسم بل هي دانية قطوفها دائما، ومن جانب آخر لا يمنعهم عنها ولا يمنعها عنهم مانع أبدا، فهي مباحة شرعا، نافعة أبدا، لا شوك في أشجارها يمنعهم، ولا ارتفاع يصعب عليهم الانتفاع بها.

﴿لَّا مَقۡطُوعَةٍ وَلَا مَمۡنُوعَةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ يصف شجرة طوبى: «وَأَسْفَلُهَا ثِمَارُ أَهْلِ الجَنَّةِ وَطَعَامُهُمْ مُتَذَلِّلٌ فِي بُيُوتِهِم يَكُونُ فِي القَضِيبِ مِنْهَا مِائَةُ لَوْنٍ مِنَ الفَاكِهَةِ مِمَّا رَأَيْتُم فِي دَارِ [ثِمَارِ] الدُّنْيَا وَمَا لَمْ تَرَوْهُ وَمَا سَمِعْتُم بِهِ وَمَا لَمْ تَسْمَعُوا مِثْلَهَا وَكُلَّمَا يُجْتَنَى مِنْهَا شَيْءٌ نَبَتَتْ مَكَانَهَا أُخْرَى ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٍ وَلَا مَمۡنُوعَةٍ﴾»[1]. وقال ﷺ حاكياً حال أهل الجنة: «وَالثِّمَارُ دَانِيَةٌ مِنْهُمْ وهُوَ قَوْلُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ مِنْ قُرْبِهَا مِنْهُمْ يَتَنَاوَلُ المُؤْمِنُ مِنَ النَّوْعِ الَّذِي يَشْتَهِيهِ مِنَ الثِّمَارِ بِفِيهِ وهُوَ مُتَّكِئٌ، وإِنَّ الأَنْوَاعَ مِنَ الفَاكِهَةِ لَيَقُلْنَ لِوَلِيِّ الله: يَا وَلِيَّ الله كُلْنِي قَبْلَ أَنْ تَأْكُلَ هَذَا قَبْلِي»[2].

وللمتدبر أن يلاحظ مدى أثر الوعد بهذه النعم في مجتمع يحلم بالماء ويتقاتل عليه، ويتنقل عبر المفاوز الشاسعة بحثا عن الماء بل سعيا وراء السراب! كما لا يعرف الفاكهة التي لا تنبت في محيطه إلا كبراؤه، يجلبونها في تجاراتهم وبكميات قليلة محدودة، أو يزرعون شجرها طمعا في بضع وحيدات منها! وهي مع قلتها تقطعها الأسباب، وتمنعها الموانع المختلفة عنهم، فكيف بهم وهم يجدون أنفسهم أمام تلك النعم العظيمة الوافرة؟ إن العاقل منهم لا ريب يسعى لنيلها حينما تطمئن بها نفسه.

وهنا فكرة لطيفة تفسر اهتمام القرآن بالتركيز على التذكير بجوانب من نعيم الآخرة، والتفصيل فيه والتشويق إليه في كثير من المواضع، وهي: إن ذلك يأتي لمقاومة كثير من الانحرافات المعنوية والعملية في حياة الإنسان، والناتجة من الاغترار بنعم الدنيا، والخضوع لجاذبيتها، فقد جاء في كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ»[3].

[٣٤-٣٨] ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ افترش الشيءَ: وطئه، وعرضَه: استباحه بالوقيعة فيه، وحقيقتَه: جعله لنفسه فراشا يطؤه[4]، فالكلمة فيها دلالتان:

---

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص١٣٧، تفسير القمي: ج٢ ص٣٣٦.
(٢) الكافي: ج٨، ص٩٩.
(٣) الكافي: ج٢، ص١٣١.
(٤) المنجد: مادة فرش.

الأولى: الفراش الذي ينام عليه الإنسان.

الثانية: الزوجة التي يستبيحها ويطؤها، وهذا من بلاغة القرآن أن يشير إلى نعمتين بكلمة.

وقد ورد في النصوص الإسلامية استخدام للكلمة في المعنى الثاني. قال العلامة الطبرسي: ويقال لامرأة الرجل هي فراشه، ومنه قول النبي ﷺ: «الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الحَجَرُ»[1]، وقال الإمام الصادق عليه السلام يصف إناث الجنة: «نَعَمْ. مَا يَفْتَرِشُ مِنْهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ وَجَدَهَا كَذَلِكَ»[2] (يعني باكرا). و﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ يعني عالية المكان، وهي أصلح في الفراش من الآخر الذي على الأرض، كما تعني الكلمة ارتفاع الشأن حسنا وكمالا أيّا كان المقصود ظاهر الفرش أو الزوجة.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ والإنشاء هو الإبداع والصناعة، وقد خلق الله لكل مؤمن زوجات مخصوصات به، وهذا من عناية الله ولطفه بالمؤمن، وعلى هذا المعنى يكون المراد حور العين، وقال البعض: إنهن من نساء الدنيا أنشأهن الله من جديد فتيات جميلات وأبكارا، هكذا روي عن أم سلمة أنها سألت النبي ﷺ عن الآية فقال لها: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ هُنَّ اللَّوَاتِي قُبِضْنَ فِي الدُّنْيَا عَجَائِزَ شُمْطاً عُمْشاً رُمْصاً جَعَلَهُنَّ اللهُ بَعْدَ الكِبَرِ أَتْرَاباً عَلَى مِيلَادٍ وَاحِدٍ فِي الاسْتِوَاءِ»[3]. وهكذا قيل حور العين للسابقين، في حين أن العرب الأتراب لأصحاب اليمين.

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾ وكلمة الجعل تشير إلى أن بكارتهن دائمة، وهكذا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا يَأْتِيهِنَّ أَزْوَاجُهُنَّ إِلَّا وَجَدُوهُنَّ أَبْكَاراً»[4] ومن صفة الحور عروبتها وانسجامها.

﴿عُرُباً أَتْرَاباً﴾ في تفسير علي بن إبراهيم: «لا يَتَكَلَّمُونَ إِلا بِالعَرَبِيَّةِ»[5] وهي لغة أهل الجنة، والعروبة من النساء الضاحكة[6] فهي تعرب وتفصح عن ثناياها حين الابتسام، والبشاشة من جمال المرأة، وقال الراغب الأصفهاني: وامرأة عروبة: معربة بحالها عن عفتها ومحبة زوجها[7].

---

(١) الكافي: ج٥، ص٤٩١.

(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص١٢٠.

(٣) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص٢١٠.

(٤) بحار الأنوار: ج٨، ص١١٠.

(٥) تفسير القمي: ج٢، ص ٣٤٨.

(٦) المنجد: مادة عرب.

(٧) مفردات غريب القرآن: ص٥٥٦ مادة (عرب).

وقيل الغنج والدلال عن أمير المؤمنين عليه السلام في رواية هذا نصها: قال عليه السلام يصف غرف الفردوس: «فِي كُلِّ غُرْفَةٍ سَبْعُونَ خَيْمَةً، فِي كُلِّ خَيْمَةٍ سَبْعُونَ سَرِيراً مِنْ ذَهَبٍ، قَوَائِمُهَا الدُّرُّ وَالزَّبَرْجَدُ (فهي مرفوعة إذن) مَوْصُولَةٌ بِقُضْبَانٍ مِنْ زُمُرُّدٍ، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ أَرْبَعُونَ فَرْشاً، غِلَظُ كُلِّ فِرَاشٍ أَرْبَعُونَ ذِرَاعاً، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ زَوْجَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ عُرُباً أَتْرَاباً، فَقَالَ الشَّابُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنِي عَنِ الْعَرِبَةِ؟!. قَالَ عليه السلام: هِيَ الْغَنِجَةُ الرَّضِيَّةُ الْمَرْضِيَّةُ الشَّهِيَّةُ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ وَصِيفٍ وَ سَبْعُونَ أَلْفَ وَصِيفَةٍ صُفْرُ الْحُلِيِّ بِيضُ الْوُجُوهِ، عَلَيْهِمْ تِيجَانُ اللُّؤْلُؤِ عَلَى رِقَابِهِمُ الْمَنَادِيلُ بِأَيْدِيهِمُ الْأَكْوِبَةُ وَ الْأَبَارِيقُ»[1].

وفي الأتراب أقوال: فعن علي بن إبراهيم: يعني مستويات الأسنان، وقيل: إنهن متماثلات، يقول الرسول صلى الله عليه وآله لأم سلمة: «جَعَلَهُنَّ اللهُ أَتْرَاباً عَلَى مِيلَادٍ وَاحِدٍ فِي الاسْتِوَاءِ»[2]. وقيل وهو الأشهر والأظهر والأشمل: إنهن ينسجمن مع أزواجهن من المؤمنين في ظاهر أجسامهن وفي خلقهن وسلوكهن ونفسياتهن.

[٣٨] ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وللام في ﴿لِّأَصْحَٰبِ﴾ وجهان: أحدهما: أنها موصولة بما قبلها مباشرة فيكون المعنى المتقدم (متاربتهن لهم)، والآخر: أنها موصولة بكل ما تقدم فهو ملك لأصحاب اليمين ومن أجلهم، وهذا أظهر.

[٣٩-٤٠] أما عن نسبة هذا الفريق في البشرية وفي كل جيل من أجيال المسلمين فهي ثلة (أكثر من القليل) لأن المنتمي إليه هم عامة المؤمنين والمسلمين. ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ قال الإمام الصادق عليه السلام (يعني الأولين): «مِنَ الطَّبَقَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله»، (و يعني الآخرين): «بَعْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ»[3]، وهذه النظرة الواقعية المتوازية تنفي موقف المغالاة في الأولين من المسلمين بأنهم كلهم سابقون، وأن الهداية تتحقق باتباع أي منهم، على التفسير المطلق للحديث المنسوب للرسول صلى الله عليه وآله: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»[4]، فإن الجيل الأول وإن كانت الحضارة الإسلامية تأسست بجهودهم، وسطّروا الملاحم والمجد، إلا أن بعضهم السابقون وأقل من ذلك أصحاب اليمين، كما أن بعضهم المنافقون بصريح القرآن: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ [التوبة: ١٠١]، وهي تنفي موقف اليأس من حال المسلمين اليوم، كلا.. فقد يصبح الواحد منا من السابقين أو لا أقل من أصحاب اليمين كما الجيل الأول سواء بسواء.

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٧، ص١٢.

(٢) نور الثقلين، ج٥، ص٢١٩.

(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١٣٤.

(٤) الشرح الكبير لابن قدامة: ج٣ ص٣٥١.

ذلك لأن الأمة الإسلامية كانت ولا تزال خير أمة أخرجت للناس، وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ تَبِعَنِي رُبْعَ الْجَنَّةِ» قال: فَكَبَّرنا. ثم قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فكبرنا، ثم قال: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثم تلا ﷺ الآيتين»[1]. وفي الخصال للشيخ الصدوق رحمه الله قال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفّاً»[2].

ويكفي بالثلة هنا كثرةً إذا اعتبرنا الأولين هم الأمم السابقة حسب بعض الروايات، والآخرين هي أمة الإسلام، وقد عدلها الله بهم، فقال: ثلة من أولئك وثلة منها.

[٤١-٤٢] ويبدأ السياق شوطا جديدا من الحديث يتمحور حول الفريق الثالث من الناس وهم أصحاب المشأمة والذين يتسلمون كتابهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم، والذكر الحكيم لا يكتفي بذكر مصيرهم البئيس وحسب -كما هو الحال بالنسبة للسابقين وأصحاب اليمين- بل يبين أهم الأسباب التي تصير بالبشر إلى ذلك، هداية لنا إلى النجد الصحيح، وإنذارا من التورط فيها.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ والشمال كناية عن الشؤم[3]، وهذا المعنى واضح إذا فسرنا الكلمة هنا بالآية التاسعة، فهذا الفريق هم المعنيون بالمشأمة، ومع أنهم يُعطَون كتابهم بشمالهم ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥]، إلا أن القرآن لا يسميهم بأصحاب اليسار، لأنها مأخوذة من اليسر تفاؤلا كالمفازة للصحراء، ذلك أن قوة الإنسان في يمينه، ويستخدمها بيسر وسهولة، في حين يواجه حرجا وعُسرا في إعمال شماله، فقيل يسار رجاء اليسر. ونستوحي من ذلك أن سيرة المتقين والمؤمنين هي المسيرة الطبيعية التي تنسجم مع واقع الإنسان والحياة، وأن مسيرة أهل النار هي الشذوذ عن مسيرة الخليقة. أوليس كل شيء في العالم يسلم لله ويخضع لسنته ويسبح بحمده؟ وكيف لا يكونون كذلك ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾؟ [الإسراء: ٤٤]، في حين نجد هؤلاء يكفرون بالله، ويشركون به، وينكرون الحقائق الكبرى كالبعث، ويخالفون سنن الله وأوامره.

وإذا كان تجلي الشمال واليمين والمشأمة والميمنة في يوم الدين هو إعطاء الكتاب بإحدى اليدين فإن تجليهما في الواقع الاجتماعي والسياسي هو القيادة الصالحة بالنسبة لليمين، والفاسدة بالنسبة للشمال، وقد وردت بهذا التأويل روايات كثيرة من بينها قول أبي عبد الله عليه السلام:

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٢٧٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٧، ص١٣٠.
(٣) المنجد: مادة شمل، نقلا بتصرف.

«والكتابُ الإمامُ فَمَنْ نَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ كَانَ كَمَا قَالَ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وَ مَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشِّمَالِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ إلى آخر الآية»[1]،

وهنا نجد السياق القرآني يختلف عما سبق، فحين ذكر أصحاب اليمين من بعد السابقين لم يبين صفاتهم، وهنا يذكر صفات أصحاب الشمال مما يثير التساؤل: لماذا؟ ويبدو أن الإجابة تتوضح إذا عرفنا أن الإنسان خُلِقَ أساسا ليكون من أصحاب الجنة. أوليس خلقنا ليرحمنا؟ فدخول النار شذوذ عن هدف الخلقة لا بد أن نبحث عن سبب له، وهكذا يبين القرآن عوامل دخول النار التي من تجنبها تفضل الله عليه بالجنة، والأسلوب القرآني بديع في بيان موجبات النار حيث يجعل بيانها مسبوقا ببيان جانب من العذاب الشديد، ثم يلحقه بإشارة إلى ألوان أخرى منه أيضا، وذلك لكي يخوفنا من مصيرهم، فما هو مصيرهم؟ إنهم: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ والسموم الريح الحارة التي تدخل مسام الجسم، ولعله في الآخرة نوع من النيران يعذب به أصحاب المشأمة، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]. ولعل اللفح بريح السموم يوم القيامة متولدة من حركة ألسنة النار وتداخلها في بعضها (المرج)، وهو يصيب (أصحاب الشمال) بحره إضافة إلى كونهم في جهنم مباشرة تحيطهم من كل جانب وصوب. أما الحميم فهو السائل الفائر المغلي إلى درجة عالية، من حَمَّ الماء إذا وضعه على النار وسخّنه، قال تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤]، وقال: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، من شدة حرارته. والحرف ﴿فِى﴾ يفيد الإحاطة الشاملة.

والذي يظهر من تعبير القرآن بـ﴿فِى﴾ أنه يسقط الزمن من الحساب، بالرغم من أن ظاهر الآيات -الذي يلاحظه المتدبر- أنها تنصرف إلى المستقبل «يوم الدين»، وقد أراد ربنا بذلك هدايتنا إلى حقيقتين:

الأولى: أن العذاب والثواب حقائق واقعية يعيشها الإنسان في الدنيا فور مبادرته إلى عمل الخير والشر، لأن السيئات والحسنات ذاتها هي التي تصير نارا أو جنة في الآخرة، بيد أن الناس محجوبون عن هذه الحقيقة الحق. قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، و﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص١١.

الثانية: أن جزاء الإنسان ليس بعيدا عنه من الناحية الزمنية، فالدنيا وإن طال عمره فيها -إلى المئة عام مثلا- لا تكاد تبين في ميزان الخلود الأخروي، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، ولكن أكثر الناس لا يستوعبون هذه الحقيقة ولا يدركونها بعمق إلا في الآخرة ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

[٤٣-٤٤] فلا يظن أصحاب الشمال أن العذاب بعيد عنهم، فهم الآن وغدا محاطون به. ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ قال صاحب المنجد: «اليحموم الأسود من كل شيء (ويسمى بذلك الدخان)»[1]، وقال علي بن إبراهيم: «ظلمة شديدة الحر»[2]، وهذا النوع يقابله الظل الممدود في جنان المؤمنين، ولعله المشار إليه في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[الزمر: ١٦]. وهو إن صح فاليحموم نار سوداء تجعلهم في ظلام حالك.

﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كظلال الجنة، وظل الدنيا ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ فهم يلقون من جهة عذابا للجسم بسبب الحرارة في ذلك الظل، ومن جهة أخرى يتلقون الإهانات والإذلال والخزي، ويعيشون انعدام الكرامة على خلاف المؤمنين والسابقين الذين تتابع عليهم كرامات الله ونعمه، ولا يسمعون ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾. وقيل: الكريم: العذب، وقال بعضهم: حسن المنظر، وقال آخرون: كل ما لا خير فيه فليس بكريم.

[٤٥-٤٨] وهذه الألوان من العذاب التي تحيط بأصحاب المشأمة في الآخرة، لا شك أنها تجليات لما قدموه في الدنيا، وما كانوا عليه من الأعمال السيئة والأفكار الضالة، ونتيجة لمنهجهم فيها، فما هي العوامل التي جعلتهم من هذا الزوج المشؤوم لعلنا نتعرف عليها ونتجنبها؟.

أولاً: الترف. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ قالوا: تَرِفَ النبات كَثُرَ ماؤه ونَضُر، وإنما سمي صاحب النعمة بالمترَف لأنه كثرت لديه النعمة وظهرت عليه نضارتها، ولعله لا يسمى كل صاحب نعمة مترفا، إنما الذي جاوز الحد في الاهتمام بنفسه، وجعل النعم هدفه الأساسي، وقد توالت آيات الذكر في ذم هذا الفريق، وبيان صفاتهم الذميمة التي أبرزها كفرهم بكل رسالة جديدة.

قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾

(١) المنجد: مادة حم. وفي بحار الأنوار: ج٨ ص٢٦٧: دخان أسود شديد السواد.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص ٣٤٩.

[سبأ: ٣٤]، وإنهم يجعلون النعمة قبلتهم فيتبعونها أنى كانت، وهي - بالطبع - تجرهم إلى ألوان من الظلم والانحراف والجريمة، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، كما أنهم يعتمدون اعتماداً كلياً على ما أترفوا فيه فلا يسعون لعمل الصالحات، ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، بل ويزداد المترفون ضلالا وذنوبا، وبالتالي قربا من النار كلما ازدادت النعم عليهم، قال تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ولا يعلم هؤلاء أن اعتمادهم على المال والقوة وسائر صنوف النعمة كان خطأ إلا في الآخرة، حيث يغمرهم الندم ولا حيلة لهم يومئذ ولا هم ينصرون، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]، وفي صفة المترفين من أهل الدنيا قال الإمام علي عليه السلام: **«سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ العَمَى وأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، واتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ ولَعِبُوا بِهَا ونَسُوا مَا وَرَاءَهَا»**[1].

والسؤال: لماذا يقول ربنا ﴿مُتۡرَفِينَ﴾ بصيغة اسم المفعول، كأنما قد جرهم إلى الترف شخص آخر، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يعذبهم الله؟.

والجواب: أن الله هو الذي ينعم على العبد، ولكن الإنسان هو الذي يختار أن يجعلها وسيلة يتسابق بها إلى الخير والفضيلة والرضوان، أو يصيرُها سبيا للتسافل والعذاب، وبتعبير آخر: إنه قادر أن يبتغي بالنعم إن شاء الدار الآخرة، وإن شاء الدنيا فيتبع هو بنفسه ما يترف فيه.

وكلمة أخيرة: إن المفسرين اختلفوا في معنى هذه الآية، فقال بعضهم: المراد أنهم تنعموا بالحرام، وقال الآخرون: معنى المترفين المشركين، بيد أن كلمة المترف قد أصبحت علما لفئة معينة من الناس ذكر القرآن الكريم صفاتهم وأعمالهم، مما أخرج الكلمة عن وضعها اللغوي إلى وضع جديد فلا نحتاج فيها إلى تأويل.

ثانياً: الإصرار على الحنث. ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الحنث: هو الميل إلى الباطل، وفي اليمين: لم يفِ بموجبها[2]، وهو من الذنوب الكبيرة، لذلك فسر البعض الكلمة بأنها الكبائر، وقال آخرون منهم ابن عباس: إنها اليمين الغموس، وعليه كثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين، ولعل الحنث هو مخالفة الميثاق عموما، ولكن بما أن أعظم ميثاق هو الذي

---

(١) نهج البلاغة: من وصية له عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام.
(٢) المنجد: مادة حنث.

قطعه الإنسان على نفسه أمام الله في عالم الذر فإن أبرز مصاديق الحنث العظيم هو الشرك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]، وكيف لا يكون المشرك من أصحاب المشأمة وقد قال الله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، ولا ينحصر الشرك في قول النصارى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]، ولا في قولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢]، ولا في عبادة الأصنام والأوثان، بل في التسليم لأي منهج أو قيادة باطلة، فقد يكون الشرك سلوكاً اجتماعيًا وقولاً باطلاً، قال الله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣٠-٣١].

والآية تبين لنا حجم الذنب الذي يمارسه فريق المشأمة بثلاثة حدود: **الأول**: هو الإصرار الذي يجعل الذنب الصغير كبيرا، فكيف وهو واقع على ذنب كبير؟ **والثاني**: الحنث أي مخالفة ما تعهّد به الشخص، وألزم نفسه باتباعه. ولا ريب أن مخالفته لا تنعكس على ضياع حقوق المجتمع، بل على سحق كرامة الحانث نفسه، حيث يسقط اعتباره وشخصيته فلا يعود أحد يثق به، بل لا يعود يثق هو بنفسه، ذلك أن أساس الأخلاق احترام الإنسان لنفسه، وثقته بكرامته، فإذا فقد ذلك فلا يبقى لديه أي أساس للالتزام بالقيم، **والثالث**: الشرك الذي هو أعظم الحنث، وعموما كل حنث عظيم، والذي يهتك أعظم عهد ويمين في حياته هل تبقى عنده حرمة واعتبارات لأي يمين وعهد آخر؟!.

ثالثاً: الجحود بالآخرة، الذي كان يتناسب مع الترف الذي يحصر الإنسان في حدود الدنيا، ومع الشرك الذي يبرر للنفس انحرافاتها وتبريها من المسؤولية، وهم لا يكفرون بها وحسب بل ويُسفّهون فكرتها وقيمها عند الآخرين بالتشكيك فيها.. ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ للحساب والجزاء، وقولهم هذا يكشف عن شكهم في قدرة الله، وسعيهم لتشكيك الآخرين فيها، بأنه تعالى لا يقدر على بعث الخلق، وربما يرد هذه الشبهة في الآيات القادمة: (٥٧-٧٤).

وليس القول هنا مجرد الكلام، بل يشمل مجمل مواقفهم وسلوكهم، وكانوا يتساءلون تعميقا لشبهتهم: هل إن آباءنا الأولين الذين صاروا عظاما نخرة يبعثون ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾؟! وربما يستهدف تعرضهم لذكر الآباء الأولين بالذات إثارة ثقافة التخلف التي كانت تقدس الآباء في أعينهم، إثارتها في نفوس الناس لتكون حاجزا دون الإيمان بالبعث،

ذلك أن الرسالة كانت تخبرهم بأن الآباء سوف يبعثون من جديد، ويحاكمون عَلَناً، ويلقون الجزاء العادل إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر.. وكان من الصعب على من يقدس آباءه أنى كانوا قبول فكرة محاكمتهم ومجازاتهم، على أن بعث الآباء أبعد في ذهن السذج من بعث من هم لا يزالون أحياء. والشيء الآخر أنهم لا يرون حديثهم عن المستقبل كافيا لتدعيم فكرتهم ونظرتهم الشيئية المغرقة بواقع محسوس، والآباء الأولون هم تراب وعظام بالفعل، وهذا يتناسب مع ضلالهم وإضلالهم غيرهم عن فكرة الآخرة والتي هي جانب من الغيب المستقبل.

[٤٩-٥٠] ويرد ربنا على هذه الشبهة ردًّا موضوعيًّا صاعقاً على لسان رسوله ﷺ بالوحي: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴾، وربما كان في فعل الأمر ﴿قُلْ﴾ تحقير لهم بأنه تعالى لا يكلمهم مباشرة، ولعل أهم ما توحي به ظلال ﴿قُلْ﴾ أن هذه الحقيقة يجب أن تقال صراحة، وأنها من مفردات الدعوة إلى الله ورسالاته، كقوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الاخلاص:١].

وقال بعضهم: إن كلمة ﴿قُلْ﴾ تدل على أن هذه الحقيقة من القضايا العامة التي يشترك فيها العوام والخواص[1]، وقدم ربنا الأولين على الآخرين لأنهم استبعدوا بعثهم، ولكيلا يتوهم أحد أن بعث الأقدمين الذي تحللوا وتبعثروا ولم تبق منهم حتى الآثار أصعب عليه (سبحانه) كلا.. ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات: ١٩] جميعهم، لا فرق بين مالك ومملوك، وذكر وأنثى، ولا أول وأخير، وهذا هو القرآن يؤكد مرة أخرى بعد ﴿إِنَّ﴾ على البعث، وأن الناس: ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ عند الله، وكونه جزءا من العلم فهو واقع، وليس بظن أو تخرُّص أو كذب، وبالنظر إلى آيات قرآنية فإن علم الساعة اختص به الرب، ولعله سبحانه لم يحدد لها وقتا كما يستوحى من قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه: ١٥]، من هنا فإن اليوم معلوم الوقوع لا معلوم الوقت. وهنالك يقف الجميع أمام الله للحساب، لا فرق بين أحد وأحد، و ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [لقمان: ٣٣]، فلماذا الاعتماد إذن على الآباء بدل الحق؟! ولعل ﴿مِيقَٰتِ﴾ هنا اسم للمكان، و﴿يَوْمٍ﴾ يشير إلى الزمان، كما تقول: مواقيت الحج، وربما تتسع الآية لمعنى آخر: أن الناس يبقون مختلطين مع بعضهم وهكذا المجرمون إلى يوم القيامة حيث يصبح الناس أزواجا ثلاثة، حسب التعبير الوارد في هذه السورة، وتتقطع الوشائج كما قال ربنا سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: ١٤]. وتوحي كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ في هذه الآية بالسَّوق، وكأنهم يجمعون ثم يُساقون إلى ذلك الميقات، كما قال سبحانه: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ

---

(١) راجع الرازي في تفسير الآية.

يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، ومثل التعبير في آية الواقعة نجده في قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦].

[٥١-٥٥] ويوجه القرآن الخطاب إلى أصحاب المشأمة مشيرا إلى أهم صفتين تميزهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ فالأمر يومئذ لا ينتهي عند البعث، فهناك ما هو أعظم مما يليه وهو الجزاء، الذي يشكّل إنكاره العامل الحاسم والرئيس في كل انحرافات البشر. ويزعم البعض أن تكذيبه بالآخرة يخلصه مَنْ مسؤوليته، وكأن من يصدق بشيء هو وحده يتحمل مسؤوليته! كلا.. إن التكذيب ليس فقط لا ينجي صاحبه من عاقبة أفعاله، بل هو بذاته جريمة توجب عقابا شديدا، وكما التكذيب الضلالة فإنها لا تبرر الجرائم إذ إنها من فعل الإنسان نفسه، كما أن الهداية من مسؤولياته. أوَليس قد وفر الله لنا أسباب الهداية، فمن ضل فإنما يضل على نفسه.

ولعل تقديم التكذيب على الضلالة في آخر السورة (الآية ٩٢) خلافا لما عليه هذه الآية يهدينا إلى أن (الضلال والتكذيب) كلاهما سبب للآخر ومسبب له، فالمكذب بالحق يضل، والضال يكذب بالحق.

ولأن الضال ربما يهتدي بالحكمة البالغة والموعظة الحسنة إلى الحق، ويعود عن ضلاله، فقد وصف ربنا المعنيين بالمكذبين (صيغة تدل على الكثرة واستقرار الصفة) ليبين بأنهم من المتعمدين الضلال المصرّين عليه. أما عاقبة تكذيبهم وضلالهم فهي العذاب الشديد. إنهم: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ قالوا: إنها كريهة المنظر، وثمرتها سوداء مرة منتنة، وهي تنبت في قلب جهنم، ويمتد منها غصن إلى كل منزل وفرد فرد، وجاء في القرآن ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٥][1]، والذي يجعلهم ينجبرون على الأكل منها زجر الملائكة، وكونهم لا يجدون سواها، ولعلهم بسبب السموم والحميم وظل اليحموم قد بلغت حاجتهم إلى الأكل أقصى حدها، وقد جاء في الحديث: «إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ خَلَقَ ابْنَ آدَمَ أَجْوَفَ ولَا بُدَّ لَهُ مِنَ الطَّعَامِ والشَّرَابِ»[2].

ولعل هذا العذاب يأتي جزاء الترف الذي اتبعوه في الدنيا، على حساب حقوق الله وحقوق الناس، فلم يكونوا يحسون عندما كانوا يتلذذون بألوان النعم بمن حولهم من المستضعفين والمحرومين والفقراء، وكانوا يجمعون المال ويكنزون الذهب والفضة دون أن يتورعوا عن الحرام، فنظامهم الاقتصادي قائم على أساس الابتزاز، والظلم والربا والاحتكار

(١) وللمزيد راجع تفسيرنا هناك.
(٢) الكافي: ج٦، ص٢٨٦.

و...، والقرآن يصرح بهذه الحقيقة حينما يحدثنا في سورة الحاقة عمَّن يُؤتى كتابه بشماله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٣ - ٣٧] ولأنهم كانوا في الدنيا متخمين على حساب ملايين الجائعين من حولهم، دون أن يشبعوا من التهام الحرام، يسلط الله عليهم الجوع حتى أنهم ليملؤون بطونهم من الزقوم على ما فيه من العذاب، فلقد قال رسول الله ﷺ يصفه: «وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ وَالضَّرِيعِ قَطَرَتْ فِي شَرَابِ أَهْلِ الدُّنْيَا لَمَاتَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنْ نَتْنِهَا»[1]، وحينما يبلغ طعامها بطونهم يجدون الحاجة الملحة إلى الشراب بها لا يمكن التصبر عليها، فلا يجدون إلا الحميم فيشربون طمعا في ري ظمئهم، وإطفاء التهاب الزقوم واستعاره في أمعائهم.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ ولكنهم لا يشربون قليلا ويكتفون أو يتوقفون، إنما يشربون كالرمال التي لا تروى، أو كالإبل التي ضربت في الصحراء هائمة (لا تدري إلى أين)[2]. ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ قالوا: الهيم الإبل العطشى التي لا تروى لداء يصيبها، وقيل: الهيم الأرض السهلة ذات رمل (التي لا يستقر عليها الماء) ويقال لكل ما لا يروى من الإبل والرمل أهيم[3]. ومن هذه الآية عكس الإمام الصادق عليه السلام حكم الكراهة في الشرب بنفس واحد. قال أبو بصير رضي الله عنه: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ثَلَاثَةُ أَنْفَاسٍ أَفْضَلُ فِي الشُّرْبِ مِنْ نَفَسٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُتَشَبَّهَ بِالْهِيمِ»[4].

[٥٦] وإلى جانب هذا العذاب والسابق ذكره (الآيات ٤٢-٤٤) ألوان كثيرة ومريعة من العذاب المؤلم المهين تصب كلها على أصحاب المشأمة في النار. ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ قالوا: النزل القِرَى الذي يُقدَّم للضيف، وكأنهم ضيوف وقِراهم هذا النوع من الطعام والشراب، وقال بعضهم: النزل هو أول الطعام والشراب الذي يستقبل به الضيف.

أما المؤمنون فإنهم يفدون دار ضيافة الله ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]. ولك أن تقارن بين المنزلين: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢]؟.

---

(١) روضة الواعظين ج٢ ص٥٠٦، إرشاد القلوب: ج١ ص١٠٦.
(٢) المنجد: مادة هيم.
(٣) تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ٢١٥.
(٤) تهذيب الأحكام: ج٩، ص٩٤.

نحن خلقناكم فلولا تصدقون

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا[1] فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ[2] (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ[3] (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ[4] أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا[5] فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ[6] (٧١) ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ[7] (٧٣) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٧٤)﴾.

---

(١) حطاماً: الحطام هو الهشيم الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء، وأصل الحطم الكسر.

(٢) تفكّهون: تتكلمون في مجالسكم من جهة التعجُّب، والتندُّم على ما أنفقتم في الأرض لأجل الزرع، والمراد إنكم لا تقدرون أمام قدرة الله بجعله النبات هشيماً إلا التكلم فقط.

(٣) إنا لمغرمون: المغرم الذي ذهب ماله بغير عوض، والغرام العذاب اللازم.

(٤) المزن: السحاب.

(٥) أجاجاً: مالحاً يمجُّه الطبع، وقيل مُرّاً مرارة شديدة.

(٦) تورون: أي تستخرجونها وتقدمونها بزنادكم من الشجر.

(٧) للمقوين: يقال أقويتُ منذ أيام أي لم آكل طعاماً فالمقوون هم الذين يحتاجون إلى الطعام، وقيل: إن المقوي من الأضداد فيكون المقوي الذي صار ذا قوة من المال والنعمة والمقوي أيضاً الذاهب ماله النازل بالقواء من الأرض أي التي ليس فيها أحد.

هدى من الآيات:

بعد أن درس أعقد مضامين الفلسفة كنظرية الفيض والدور والتسلسل، وقانون العدم والوجود، مر أحدهم بعجوز تحرك المغزل، وسألها: كيف عرفتي مدبر الكون؟ فأجابته بفطرتها وإيمانها البسيط -بعد أن أوقفت النسج-: هكذا عرفت أن للكون مُدَبِّراً. لكنه ظل حائرا لم يدرك شيئا من قصدها، فبادرته: إن المغزل يقف حينما لا أعمل، فكيف لا يكون لهذه الأرض المدحية، والسماء المبنية على ما فيها من الحياة والحركة والتحول مدبر؟!.

هكذا الكثير من الحقائق التي نعيش معها كل لحظة نبقى ساهين عنها دون أن نهتدي إلى عِبرَها، فالخلق، والموت، والنشأة، والزرع، والماء، والنار كلها من أقرب الحقائق إلينا وأكبرها شهادة وهدى لو وعيناها، والإنسان قادر على أن يجعل الحياة كلها مدرسة، وما فيها من الظواهر والعبر دروسا يكمل بها إيمانه ومعرفته، فيهتدي بالشهود إلى الغيب، وبالحاضر إلى المستقبل، وبالمخلوق إلى الخالق، إلا أن المشكلة لا تكمن في قلة العبر وإنما هي في قلة الاعتبار والمعتبر، فالمواعظ على كثرتها ووضوحها كالشمس هل يراها من غض بصره أو استتر بحاجب؟!.

من هنا فإن أهم أهداف الرسالات الإلهية رفع الحجب التي بيننا وبين الحقائق (الإصر والأغلال) العلمية بالتعليم، والنفسية بالتزكية لنلمسها مباشرة، قال الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. أرأيت الذي ضل عن ابنه فَدُلَّ عليه؟ أرأيت كيف يعرفه؟ كذلك الذي عاش في ضلال مبين عن حقائق يعشو عنها وهي قريبة منه كيف يهتدي إليها لو كُشف عن بصره الستار؟ وقد لا تكون حاجة الإنسان لكي يستوعب الحقائق التي تهدي الآيات إليها، ويؤمن بها إلى المعلومات والمعارف، بقدر حاجته إلى يقظة الضمير وإثارة العقل.

وإنما يترف الإنسان، ويصر على الشرك، ويكفر بالآخرة بسبب ضلاله عن ربه، وقدره حق قدره. ولذلك يذكره القرآن بآيات معرفته الدالة إليه، وقد تكون تلك الآيات أقرب شيء إليه (كالخلق) ولكنه غافل عنها.

بينات من الآيات:

[٥٧] لأن الإنسان مخلوق فإن خلقه هو أقرب الأشياء.

هل حدث أن بحثت عن شيء ثم اكتشفت أنه كان في يدك أو جيبك وأنت ساهٍ عنه؟ أوتدري أين كان الخطأ؟ إنه في المنهج. لقد بحثت عنه طويلا في أمتعتك، أو عند أهلك

وأصدقائك، لقد حسبته بعيدا عنك فضللت عنه، وحين عدت إلى نفسك وفتشت عنه لديها وجدته، كذلك الحقائق الكبرى إنما ضل عنها البشر حين فتشوا عنها بعيدا، وهي أقرب إليهم من حبل الوريد، هل سمعت عن ذلك الفيلسوف الذي بحث عن الحقيقة في النظريات المعقدة فلما وقف على عجوز تغزل وسألها بم عرفت ربها أوقفت مغزلها وقالت بهذا، وأضافت: أنا حينما تركت المغزل وقف. فكيف لا تقف السماء عن الحركة. أليس لها محركا مدبرا؟ وكان درس العجوز أقرب إلى قلبه من كل نظريات الفلسفة. لماذا؟ لأنها تحدثت معه بلغة الوجدان.. بأقرب الأشياء إليه، كذلك نحن أمام حقيقة الخلق، من الذي خلقنا وأوجدنا؟ حيث إن الإنسان يجد نفسه أمام افتراضات ثلاث:

أولاً: فهل الإنسان هو الذي أوجد نفسه، فيكون ذاته الذي خلق ذاته؟ وهذا لا يُقرُّه عقل ولا علم، فقد بدأ نطفة لا علم له ولا إرادة، ثم نشأ حتى صار طفلاً سوياً لا حول ولا طول لديه، وكفى بجهله نفسه وعقله وبدنه دليلا على أنه ليس الخالق. أم أن والديه خلقاه مع أننا نعلم يقينا أن تقلبه في صلب أبيه، ثم تناميه في رحم أمه قد تم بعيدا عن علمهما وإرادتهما.

ثانيا: ويقول البعض أنه الدهر يميتنا ويحيينا في دورة أبدية، وقد يعبر عنه البعض بالطبيعة؛ هذه السماء والأرض والماء والطين هذا الكون برمته ومجموعه لا بجزئياته جزءاً جزءاً هو في صيرورة أزلية، وإنما الحوادث في الجزئيات وتطال الظاهر فقط.

فهل حقاً هذا الكون أزليٌّ؟.

«كلا.. إن جميع شواهده تدل على حدوثه (تطوره، تناميه، تناقصه، حاجة بعضه إلى بعضه، تركيب أجزائه بدقة وتناسق) إن هذه آيات الحدوث.. بل كل اكتشافات العلم تهدي إلى أن للوجود عمرا محدودا، فالحرارة المتاحة للحياة تتناقص، وعمر النجوم محسوب»[1].

أفلا يرجعون إلى أنفسهم ويسألون: من الذي خلق الطبيعة، وأركز فيها قوانينها، وفتقها بعد رتقها، وألفَّ بين أزواجها، ونظم شؤونها. أوليس الخالق العليم المدبر الحكيم؟.

ثالثاً: «ويقولون إن الكون جاء صدفة ويسير بغير دليل. ما هي الصدفة؟ أولا تعني الصدفة أن حادثتين وقعتا في حالة واحدة، وكان لكل واحدة منهما سببا، إلا أنه كانت في وقوعهما معا نتيجة جديدة؟ هذه هي الصدفة التي نعرفها، ولا نعرف الصدفة عملا بغير عامل، أو خلقا دون خالق، أو حادثا دون سبب»[2].

---

(١) الفكر الإسلامي: للمؤلف ص ١٥٩، ط٥، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٨م، عن دار البيان بيروت.
(٢) الفكر الإسلامي: ص١٥٩. للمزيد راجع الكتاب نفسه تجد بحوث مطولة بهذا الشأن.

ويسخر بعض الباحثين من هذا الزعم ويضرب مثلا ويقول: لو فسر أحد ظهور موسوعة كبيرة تحوي مجلدات ضخمة وعلوم متنوعة بأن انفجارا وقع في مطبعة، ففاض الحبر على الأوراق صدفة، وارتسمت عليها صور الكلمات صدفة، وخرجت مجلدات الموسوعة بما فيها من ثقافة العصر، لو فسر أحد نشوء أعظم موسوعة بهذه الصدفة كم يكون كلامه باعثا للسخرية؟! كذلك الذي يدعي وجود خلية واحدة صدفة.

و «إن شواهد العمد والتصميم السابق متوافرة في كل حركة في الكون، فبالرغم من وجود سنن كونية تجري عبرها الكواكب والمنظومات، فإنها ليست كآلة ميكانيكية، بل إنما هي كسيارة في عراء قد استوى عليها صاحبها، وسيَّرها بقدرة وخبرة بالغة»[1]. (وحتى الحركة الميكانيكية تحتاج إلى محرك).

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ كل شيء في الإنسان وفي الآفاق يهديه إلى تلك الحقيقة العظمى، وحتى أولئك الجاحدون لا ينكرونها بقناعة إنما كفروا ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤]. إذن فنحن نحتاج فقط إلى النظر والتفكر في آيات الله بعيدا عن الحجب والخلفيات الخاطئة، حتى نصدق بذلك.

[٥٨-٥٩] ويبدد القرآن الحجب التي تحول دون رؤية هذه الحقيقة والتصديق بها، فيقول: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾ هذه القطرات التي تتدفق منك والتي لا تعرف منها شيئا كثيرا، هل تزعم أنك الذي تصنعها من صلبك، أو تهيئ أدوات قذفها حتى تحسب أنك الذي تخلقها؟.

وكان يستطيع القرآن أن يلقي علينا الحجة البالغة لو ساءلنا عن خلقه آدم وحواء ولكنه يدع ذلك الغيب إلى شهود يراه ويعايشه كل بشر (الإمناء) ويطرح السؤال التالي: ﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ من الذي أنشأ المني وهل كان بإمكانك إيجاده قبل البلوغ؟ وحين بلغت هل تكون بتدخل منك وعلم وتخطيط وإرادة؟ ثم كيف تطور الحويمن ونما من مرحلة إلى أخرى حتى يصير إنساناً سويًّا، إنه لا ريب ليس من صُنْع الإنسان، ولا بعلمه. إنما يتطور ضمن القوانين والسنن الإلهية، وبإرادة إلهية. إذ لا تعمل القوانين إلا بإذنه ذلك بأن ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]. ثم إذا خرجنا من بطون أمهاتنا إلى الحياة، فإننا لا نملك أمام نمونا إلا التسليم بأنه ليس بفعلنا، إنما بفعل إرادة خارجة عن اختيارنا، هي إرادته عز وجل، فنحن لا نستطيع أن نمنع نمو شعرة واحدة في رأسنا، ولا ظفر واحد لأنهما ينموان بعيدا عن إرادتنا.

---

(١) الفكر الإسلامي: للمؤلف: ص١٦٠-١٦١.

[٦٠-٦١] ومن حقيقة الخلق تنطلق بنا الآيات إلى الموت، إنه أيضا مفروض علينا فرضا فلا نعلم أجلنا. ولا نقدر على دفعه إذا حل بساحتنا، ولو كنا الذين خلقنا أنفسنا فلماذا لا نخلقها بطريقة تتحدى الموت؟ إذن فربنا هو الذي خلق الموت والحياة، وهو الذي يحيي ويميت، متى يشاء وأين وكيف. ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ فهو يجري بحكمة إلهية دقيقة، فبالرغم من تعرض البشرية لألوان من الموت الجماعي، بسبب الوباء، والحروب الطاحنة، أو الفردي بالأسباب الطبيعية إلا أنها تزداد يوما بعد يوم وتبقى في توازن من الحفاظ على الجنس. ولو كان يجري الموت اعتباطا وبلا حكمة لربما انقرض النوع البشري منذ زمن بعيد في مثل طوفان نوح عليه السلام. إنما الله هو الذي يقدر الموت بين الناس، ويقهرهم به ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ والسبق هنا بمعنى الغلبة والعجز، فربنا القاهر فوق عباده، وليس سبحانه مقهورا بقوة أنى كان نوعها، فكما سبق الأشياء بالخلق لا من شيء فهو سبحانه يعلمهم متى ما شاء كيف شاء، لا يسبقه شيء، ولا يعجزه أو يغلبه. وتأتي كلمة مسبوقين لتوحي إلى حقيقة تظهر قدرة الله من زاوية أخرى، وهي أنه تعالى أوجد المخلوقات ابتداعا، من غير مثال يحتذي به سبقه به غيره.

والسؤال ماذا يعني تبديل الأمثال؟.

١- هلاك الإنسان أو جيل واستبداله بغيره، والبشر لا يقدرون على الوقوف أمام الإرادة الإلهية ومنع تبديلها قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٠ - ٤٢].

٢- تبديل مثل الإنسان بالنظر إلى صفاته المادية والمعنوية، فإن مثل الإنسان المحدود لا تستحيل عودته عند المقتدر القوي، فإنها ليست بأعظم من خلق السماوات والأرض، وتدبير شؤونهما، وتنظيم عمليات التغيير والتبديل التي تجري كل لحظة فيها ألا ترى كيف يدبر الرحمن أمر الحياة فيميت الأرض ثم يحييها بالغيث، أو يعجزه إعادة الإنسان بعد الممات في الحياة بمثل هذه الطريقة؟ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٨-٩٩]، وقال عز من قائل: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١-٨٣].

٣- وقد يكون المثل الآباء الذين ماتوا وتآكلت أجسامهم، حيث ضربوهم مثلا لإنكار البعث، وزعموا أنه يستحيل نشرهم كما قال الله يصف ذلك الخصيم: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨]. ويشير القرآن إشارة واضحة إلى هذا المعنى إذ يقول تعالى يخاطب نبيه: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٤٨ - ٥١].

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فكما يبدل الله جيلا مكان جيل ينشئ الجيل الغابر في صورة جديدة لا يعلم عنها شيئا وهي نشأة الآخرة. وهكذا توحي الآية بأن عملية تبديل الأجيال دليل على وجود تدبير حكيم في نظام الخلق يهدينا بدوره إلى أن ربنا سبحانه لا يذهب بالجيل الماضي إلى العدم، بل إلى نشأة أخرى لأنه حكيم كما لا يأتي بالجيل الجديد عبثا بل للامتحان وتكون الدنيا كقاعة امتحان يدخلها جماعة بعد جماعة والذين يخرجون منها يذهبون للحساب، كما أن الذين يدخلون فيها يتعرضون للامتحان.

ولعل المعنى أن حقيقة الإنسان لا تتغير بعد الموت، وإنما تتبدل صورته الظاهرية فقط، حيث ينتقل إلى حياة تتغير فيها المقاييس ونحن لا نعلم عنها شيئا.

[٦٢] وكفى بجهل الإنسان بمصيره بعد الموت دليلا على أنه مُدَبَّر مخلوق وأنه ليس القادر المتصرف في نفسه، وكفى بعلمه تعالى بالخلق الأول إثباتا للبعث. وأن الذي خلقه من نطفة من مني يمنى، قادر على بعثه للجزاء إذا وقعت الواقعة.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ إن الإنسان لا يستطيع أن ينكر قدرة الله على الإحياء في خلقه الأول، فلماذا يشك فيه تعالى وفي قدرته على البعث؟ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧-٤٠]؟! بلى إنه قادر وكفى بالنشأة الأولى مذكرا لنا بهذه الحقيقة المودعة في فطرتنا وعقولنا.

ودعوته إلى التذكر هنا بعد قوله: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ الآية ٥٧، يهدينا إلى أن المسافة بين الإنسان وبين التصديق بالله وباليوم الآخر قريبة جدًّا لا تحتاج إلا إلى التذكر وذلك بالتوجه إلى مقاييسه العقلية التي يمارس بها فعاليات حياته.

[٦٣-٦٤] ويلفتنا الذكر الحكيم إلى آية أخرى تهدينا لو تفكرنا فيها إلى الخالق اللطيف

عز وجل والذي يتجلى لخلقه في كل شيء حتى لا يجهلوه في شيء، إنها آية الزراعة، التي تعرفنا من جهة بربنا، وتضع أمامنا من جهة ثانية صورة واضحة وقريبة لواقع البعث والنشور، حيث نضع البذرة في التراب، فلا تلبث بعد أن نصب عليها الماء أن تصير نبتة، ثم تستوي على سوقها تحكي الحياة بكل روعتها وعنفوانها. ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إنه لا يحدثنا عما لا نزرعه من الأشجار والنباتات لأن عدم صنعنا فيها ثابت فهي إذن من عند الله، إنما يحدثنا عما نزرعه بأيدينا ونحرث له، والحرث هو قلب الأرض ووضع البذور فيها، والرؤية في الآية منصرفة إلى رؤية البصيرة كما هي في الآيات (٥٨، ٦٨، ٧١)، ونحن بعد أن نرى بهذا المعنى ينبغي لنا أن نجيب عن السؤال: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ فنحن حينما نُعمِل بصرنا وبصيرتنا ونطلع على الواقع الذي تتم فيه الزراعة حيث مئات الآلاف من العوامل والقوانين التي نجهل أكثرها، ولسنا نحن الذين أوجدناها، أو نسيِّرها فإنه حينئذ يتأكد لنا أنه تعالى الذي يزرع، أما دورنا في الحقيقة فليس إلا الحرث والسقي وما أشبه، وكل ذلك يكون بنعم الله وحوله وقوته.

وحين تصفو رؤية الإنسان وتجلو بصيرته يلامس قدرة الله وتدبيره ويؤمن بمدى سعة القدرة وحسن التدبير، خصوصا المزارع حيث تحيط به آيات الخليقة، ويتعامل مع الأنواء والتراب والماء ويُعايش نمو النبات وجماله وتجليات القدرة الإلهية فيه.

وترغّب النصوص الدينية المؤمنين في التعامل مع الزراعة بهذه البصيرة، قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: «إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَزْرَعَ زَرْعاً فَخُذْ قَبْضَةً مِنَ الْبَذْرِ وَاسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ وَقُلْ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ تَقُولُ: بَلِ اللهُ الزَّارِعُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَبّاً مُبَارَكاً وَارْزُقْنَا فِيهِ السَّلَامَةَ، ثُمَّ انْثُرِ الْقَبْضَةَ الَّتِي فِي يَدِكَ فِي الْقَرَاحِ (الأرض الخالية)»[1].

وقال عليه السلام: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَتَوْا مُوسَى عليه السلام فَسَأَلُوهُ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُمْطِرَ السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ إِذَا أَرَادُوا، وَيَحْبِسَهَا إِذَا أَرَادُوا، فَسَأَلَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ لَهُمْ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ذَلِكَ لَهُمْ يَا مُوسَى، فَأَخْبَرَهُمْ مُوسَى فَحَرَثُوا وَلَمْ يَتْرُكُوا شَيْئاً إِلَّا زَرَعُوهُ، ثُمَّ اسْتَنْزَلُوا الْمَطَرَ عَلَى إِرَادَتِهِمْ وَحَبَسُوهُ عَلَى إِرَادَتِهِمْ فَصَارَتْ زُرُوعُهُمْ كَأَنَّهَا الْجِبَالُ وَالْآجَامُ، ثُمَّ حَصَدُوا وَدَاسُوا وَذَرَّوْا فَلَمْ يَجِدُوا شَيْئاً، فَضَجُّوا إِلَى مُوسَى عليه السلام وَقَالُوا: إِنَّمَا سَأَلْنَاكَ أَنْ تَسْأَلَ اللهَ أَنْ يُمْطِرَ السَّمَاءَ عَلَيْنَا إِذَا أَرَدْنَا فَأَجَابَنَا ثُمَّ صَيَّرَهَا عَلَيْنَا ضَرَراً فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ضَجُّوا مِمَّا صَنَعْتَ بِهِمْ، فَقَالَ: وَمِمَّ ذَاكَ يَا مُوسَى؟ قَالَ: سَأَلُونِي أَنْ أَسْأَلَكَ أَنْ تُمْطِرَ السَّمَاءَ إِذَا أَرَادُوا وَتَحْبِسَهَا إِذَا

(١) الكافي: ج٥، ص٢٦٢.

أَرَادُوا فَأَجَبْتُهُمْ ثُمَّ صَيَّرْتُهَا عَلَيْهِمْ ضَرَراً، فَقَالَ: يَا مُوسَى أَنَا كُنْتُ الْمُقَدِّرَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمْ يَرْضَوْا بِتَقْدِيرِي فَأَجَبْتُهُمْ إِلَى إِرَادَتِهِمْ فَكَانَ مَا رَأَيْتَ»[1].

ومن دقيق عبارة القرآن أنه لم يقل: أأنتم تخلقونه؛ كما هو حال الحويمن والجنين لأنه ليس من عاقل يدعي ذلك، وعملية النمو من البذرة حتى الثمرة تتم خارج إرادتنا وبعيدا عن أيدينا، ولأن نفي مجرد الزراعة ينفي الخلق بالتأكيد.

[٦٥-٦٧] والدليل إلى أننا لسنا الزارعين، أن الله قادر على منع المطر، أو أن يسلط على حرثنا وباء فلا تقوم له قائمة، ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]. ولا أحد يمنع قدرته عز وجل.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ قالوا: «تتكلمون في مجالسكم، من جهة التعجب والتندم على ما أنفقتم في الأرض لأجل الزرع، والمراد أنكم لا تقدرون أمام قدرة الله بجعله النبات هشيما إلا (على) التكلم فقط»[2]. ولعل أصل الكلمة (فَكِهَ) يدل على الحديث غير الضروري وغير الجاد وغير الحق، ومنه سمي المزاح تَفَكُّهاً باعتباره لا يهدف بيان الحقيقة، كما سمي بالباطل. ومنه أيضا سميت (الثمرات) بالفاكهة باعتبارها غير ضرورية. ومن هنا قيل: التَّفَكُّه: التكلم فيما لا يعنيك ومنه قيل للمزاح فُكَاهة وهذا المعنى أقرب إلى الآية. حيث إن الإنسان يفقد الإرادة أمام المشاكل، ويتراكم عليه الهم والغم عند الخسارة وويلحقه الندم والشعور بالهوان ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦]، حتى ليصبح حديثه عن ذلك أكله وشربه ومحوره الذي يدور حوله في كل لحظة، لعله يروِّح بذلك عن نفسه بعض الشيء.

والآراء التي ذكرها المفسرون في هذه الآية قريبة من هذا المعنى إذ قالوا: «تعجبون»، وقالوا: «تندمون» وقال بعضهم: «تتلاومون نادمين على ما حل بكم»[3]. وربما كان المعنى الأخير أقرب والسياق التالي يدل عليه حيث إنهم كانوا يقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ وفي اللغة: «غَرِمَ أي خسر في التجارة، والغُرْم ما يعطى من المال على كره»[4]. فالله القادر على جعل المزارع حطاما، وفرض الغرم علينا، بأن يرسل السماء بماء متهمر يغرق الحقول، أو يرسل أسراب الجراد فلا تبقي زرعا ولا ضرعا، أو يبعث ملايين الفئران تقضم الأخضر واليابس فنجد أنفسنا مغرمين خاسرين لكننا إذا تفكرنا بمنهج سليم، نكتشف أن الخسارة (الغرامة) التي

---

(١) الكافي: ج٥، ص٢٦٢.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: المجلد٥، ج٢٧، ص٣١٩، ط١ - ١٤٢٤هـ عن دار العلوم.

(٣) تفسير القرطبي: ج١٧، ص٢١٦.

(٤) المنجد: مادة غرم.

فرضت علينا ليست بالصدفة، بل هي بإرادة متصرف في الحياة ويمضي في مصائرنا وأرزاقنا ما يشاء، فيرزقنا أو يمنعنا ويحرمنا متى شاء وكيف شاء.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ إذن فأرزاقنا يقسمها مُقَسِّم هو الخالق تعالى، ومادام هو الزارع، فبيده الحرمان، فلماذا نشرك به أو نكفر؟ ومادامت إرادته نافذة في الحياة لا يمنعها مانع فلماذا نشك في البعث ونصير في لبس من خلق جديد؟ أولا يكفي ذلك دافعا إلى التصديق به واليقين برسالته؟.

[٦٨-٧٠] ثم للنظر إلى الماء وبالذات ذلك الذي نشربه وترتكز عليه حياتنا وحياة كل كائن حي، إننا لم ننزله من السحاب. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ ولا ريب أننا لا نستطيع الادعاء بإنزاله من قبلنا، وأكبر دليل على ذلك أننا لا ندري متى ينزل. وإذا غطت السحب سماءنا لا نملك التصرف في إنزاله وبالكيفية والمقادير الطبيعية، وهذه الحقيقة يقبلها الجميع، ولكن أورد البعض هنا شبهة، فقالوا: إن المطر نتيجة عوامل وقوانين طبيعية، تبدأ من تبخر مياه البحار والمحيطات والأنهار بفعل الشمس، وتنتهي بالغيث مرورا بصعود الأبخرة في طبقات الجو العليا، وهي عملية يفعلها النظام المجرد، ولا نحتاج معها إلى افتراض وجود إرادة (الخالق) تجري العملية بسببها، وهذه من أعقد مشاكل الإنسان مع العلم.

يقول الدكتور بخنر الألماني: «بما أننا لم نجد ظاهرة واحدة في هذا الكون الرحيب من أبعد نقطة اكتشفناها في الفضاء وإلى أقرب جرم إلينا لم نجدها شاذة عن النظام الكوني. فليس لنا حاجة إلى افتراض وجود الله.

(ولكن الحقيقة) أن عدم وجود شذوذ في النظام، أو شمولية النظام في الكون لا يكون دليلا على عدم وجود الخالق، بل يكون دليلا قاطعا على وجود من خلق النظام وهو الله الخالق العظيم وإلا فمن جعل هذا النظام وقدَّره وأجراه. وبعد هذا فهل كله خاضع للنظام، أو هل أثبت العلم الحديث هذا النظام، لنسمع (هايزنبرغ) العالم الفيزيائي يقول -في نظام الذرة-: إن من المستحيل علينا أن نقيس بصورة دقيقة كمية الحركة التي يقوم بها جسيم بسيط وأن نحدد في الوقت عينه موضعه في الموجة المرتبطة به بحسب الميكانيكا الموجية التي نادى بها (لويس دوبروغلي) فكلما كان مقياس موضعه دقيقا كان هذا المقياس عاملا في تعديل كمية الحركة، ومن ثم في تعديل سرعة الجسيم بصورة لا يمكن التنبؤ بها، ومهما تعمقنا في تدقيق المقاييس العلمية ابتعدنا أكثر عن الواقع الموضوعي.

هذا في الذرة التي نادى فيها بعض بمبدأ النظام في اللانظام. وأما في المجرة أكبر وحدة وجودية فإن أحدث النظريات الفلكية أثبتت أنه بالرغم من وجود نظام متناسق فيها فإن فيها مجالا واسعا لما نسميه بالصدف؟»[1].

فالنظام إذن ليس كل شيء، حتى نتخذه ربًا -فهو بالإضافة إلى كونه دليلا إلى العليم العزيز الذي قدَّر -كما أن الأثر دليل على المؤثر- فإن هناك إرادة فوق النظام تمضيه أو تعطله متى ما شاءت وهي إرادة الله، ولقد أودع الله ثغرة في كل نظام وسنة تدل عليه، فهذا ماء المزن العذب يصيِّره ربنا أشد ملوحة من الملح إن شاء، فلا تقدر على شربه، أو يستحيل من سبب للحياة، إلى وسيلة للموت والدمار.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ يعني أشد ما تكون الملوحة، وربنا قادر على جعله كذلك حال كونه غيثا أو في مخازن الأرض، بحيث لا يؤثر قانون التبخر في فصل ماء البحر عن أملاحه، أو يجعل أساس تركيب الماء قائم بالملح فلا يمكن فصله عنه بالتحليل والتحلية كما يُفعل الآن لمياه البحار، أو أنه لا ينزله من السحاب فلا يجد الناس إلا ماء البحر الأجاج، ولكنه بلطفه جعل درجة تبخر الماء تختلف عن الأملاح، كما نظم دورة سقوط الغيث وجميع جوانب الحياة بالصورة التي تنسجم مع متطلبات حياتنا. وعدم جعله ماء شربنا أجاجا ليس لعجز في مشيئته، أو لأن القانون يفرض نفسه عليه بل لرحمته بنا، فلم يرد ذلك حيث وضع القوانين الأساسية للغيث وإذا شاء في المستقبل تغييرها فله البداء ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وإدراكنا لهذه الحقيقة يعرفنا بخالقنا ويسوقنا إلى التصديق به وبقدرته المطلقة، وما يجب هو أن يصير التصديق مسؤوليةً وبرنامجاً عمليًا في حياتنا، يفرض علينا التزامات يعبر عنها القرآن بالشكر ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ إذ لا فائدة من معرفة لا تقود إلى العمل، ولا معنى للتصديق إذا فُرِّغ من أهم مضامينه وأهدافه أي الشكر. والمهم هنا التذكير بأن الشكر لا ينحصر في تلك الأذكار المتعارف عليها، فهي جانب منها أو هي رمز لها أما الشكر الحقيقي فهو معرفة المنعم وتذكر نعمته عليه، والتصرف في النعمة حسب تعاليمه. وبالتالي التسليم الشامل له.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَعَرَفَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِلَّا غَفَرَ اللهُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ»[2] وقال: «شُكْرُ النِّعْمَةِ اجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ، وَتَمَامُ الشُّكْرِ قَوْلُ الرَّجُلِ

(١) الفكر الإسلامي: للمؤلف: ص ١٧٧ - ١٧٨.
(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٤٢٧.

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ»[1] وقال في تفسير الآية: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: «نِعَمَ مَنْ حَمَدَ اللهَ عَلَى نِعَمِهِ، وَشَكَرَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ لَا مِنْ غَيْرِهِ»[2]، وقال الإمام العسكري عليه السلام: «لا يعرف النعمة إلا الشاكر، ولا يشكرها إلا العارف»[3]، وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي لَوْ حَبَسَ عَنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَةَ حَمْدِهِ عَلَى مَا أَبْلَاهُمْ مِنْ مِنَنِهِ المُتَتَابِعَةِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ المُتَظَاهِرَةِ، لَتَصَرَّفُوا فِي مِنَنِهِ فَلَمْ يَحْمَدُوهُ، وَتَوَسَّعُوا فِي رِزْقِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوهُ. وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ لَخَرَجُوا مِنْ حُدُودِ الإِنْسَانِيَّةِ إِلَى حَدِّ البَهِيمِيَّةِ فَكَانُوا كَمَا وَصَفَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾»[4].

وما شكر الله من أسرف في نعمه، أو تقوّى بها على معصيته، ونستوحي من أمر الله بالشكر بعد الإنذار المبطن المتمثل في قدرة الله على تحويل الماء أجاجا؛ أن سلوك الإنسان فيما يتصل بربه أو بنعمه سبحانه ينعكس على الطبيعة من حوله. فلربما ضرب الجفاف بلدا، فقلّت المياه وانعدمت لعدم شكرهم ربهم.

[٧١-٧٢] والنار هي الأخرى نعمة هامة وأساسية تتدخل في كثير من مرافق حياتنا، فهي مصدر للطاقة، ووسيلة للتدفئة والطبخ والإضاءة، وعامل أساسي في الصناعة إلا أن القرآن في هذا السياق لا يريد إلفاتنا إلى هذه الجوانب على أهميتها، بقدر ما يريد الحديث عن النار باعتبارها آية من آياته ونعمة عظيمة لا بد من شكر الله عليها.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي توقدون وتشعلون، والملاحظ أن الله يوجهنا إلى أشياء متميزة (الحويمن والجنين، والموت، والحرث، والماء، والنار)، وتميزها ليس فقط في كونها من أبرز وأهم الأشياء، بالنسبة للإنسان أو لأنها من أعظم تجليات الله في الخليقة، بل لأنها قد أصبحت لا تثير اهتمامنا كثيرا ولا تدعونا إلى التذكرة والاتعاظ، إنما نتعامل عادة معها باعتبارها متوفرة قد تعودنا عليها، فمنذ أن بدأنا ندرك الحياة تعايشنا مع الماء والنار وما أشبه، ولكن ألا فكرنا في مدى حاجتنا إليها؟، وكيف أن الله وفرها لنا؟، وماذا لو انعدمت عنا؟، هنالك يتحول موقفنا منها تماما.. إنها سوف تنطق بأسرار الحياة وتسبح بحمد الرب الذي وفرها وتصبح جسرا بيننا وبين معرفة الخالق العظيم.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ قالوا: إنها المرخ والعقار الذين كانت العرب

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص ٤٠.

(٢) تفسير العياشي: ج٢، ص٢٢٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٣٧٨.

(٤) الصحيفة السجادية: الدعاء الأول.

توقد النار بضربها ببعضها، ويبدو أنها كل شجرة تتقد. فهل كنا نحن الخالقين لها أم الله؟. أفلا نؤمن بقدرة ربنا الذي خزن النار في هذه الأشجار الخضر: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠][1] أولا نصدق بأنه قادر على إحياء الموتى؟.

مشكلة البشر في قضية البعث أنه يقيس الأمور حسب قدراته، فحيث يجد في نفسه الضعف والعجز ينكر الآخرة، أما إذا نظر إلى القضية من خلال إرادة الله المتجلية في الكون فلن يرى البعث إلا أمراً هيناً، وربما تكشف هذه الفكرة سر التساؤل المتكرر ﴿ءَأَنتُمْ * أَمْ نَحْنُ﴾، فلو كانت الإجابة فرضا أننا نحن (البشر) نخلق ونزرع وننشئ ونتزل لأمكن الكفر بالبعث، في حين أن الإجابة المعروفة لدى كل بشر أن من يفعل ذلك غيرنا، هنالك نسعى لمعرفته، والإيمان به ومعرفة أسمائه وبالتالي نعرف واقع البعث والنشور.

[٧٣] وربنا لم يخلق النار وينشئ شجرتها وحسب، وإنما جعل لخلقها أهدافا محددة. ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ للناس بربهم من حيث هي نعمة إلهية عظيمة، كما أنها تذكرنا بنار جهنم الكبرى فهدفها الأول والأهم هو تزكية نفس الإنسان، ففي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَ قَدْ أُطْفِئَتْ سَبْعِينَ مَرَّةً بِالْمَاءِ ثُمَّ الْتَهَبَتْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ آدَمِيٌّ أَنْ يُطِيقَهَا، وَإِنَّهُ لَيُؤْتَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تُوضَعَ عَلَى النَّارِ فَتَصْرُخُ صَرْخَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَزَعاً مِنْ صَرْخَتِهَا»[2].

أما الهدف الآخر للنار فهو الانتفاع المادي بها في مختلف مرافق الحياة، والمجالات التي يكتشف الإنسان منافعها فيها وطرق استخدامها سواءً بصورتها المباشرة (اللهب والشعلة)، أو غير مباشرة (عموم الطاقة): ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ قالوا: المقوي الذي ينزل القواء وهو الصحراء القاحلة، وإنما جعلت متاعا لهم بالخصوص لمزيد حاجتهم إليها ليس للدفء والطبخ فقط وإنما لطرد الوحوش في الليل أيضا. وقال بعضهم: المقوي الجائع كما قال الشاعر[3]:

وإني لأختار القوي طاوي الحشى		محافظة من أن يقال لئيم

ويقال: «أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد»[4]. وهذا أقرب، ولعل القواء سمي كذلك لانعدام الطعام فيه. وفي حالة الجوع وفناء الزاد تكون النار متاعا عظيما خصوصا للمسافر.

---

(١) راجع تفسير سورة يس آية ٨٠.
(٢) تفسير القمي: ج١، ص٣٦٦.
(٣) هو: حاتم طي.
(٤) تفسير القرطبي: ج١٧، ص ٢٢٢.

[٧٤] ويختم ربنا هذا الدرس القرآني بدعوة إلى التسبيح باسمه للخلاص من النار ومصير أصحاب الشمال ووسيلة للتقرب إلى رضوانه ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهذه الدعوة هي محصلة طبيعية لحديث الآيات السابقة، ومتممة لها، فتلك دعتنا إلى التصديق وعرفتنا بربنا من خلال نعمه وآياته المتجلي فيها سبحانه، وحرضتنا على التذكر والشكر، وهذه الخاتمة أوضحت لنا البرنامج العملي لتلك المعرفة والتذكر والشكر المتمثل في تنزيه الله عن الشريك وعن أي نقص وعجز وحد.

ولأننا لا نعرف كُنْهَ ذاته سبحانه فليست لنا وسيلة إليه وإلى تسبيحه إلا أسماؤه الحسنى المتجلية في الطبيعة، والمذكورة في كتابه، وأسمى أذكار التسبيح قول العبد: «سُبْحَانَ الله وَالحَمْدُ لله وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ» وهو سبحانه عظيم واسمه كذلك عظيم، وتنكشف لنا عظمته وعظمة اسمه كلما تقدمت وتعمقت معرفتنا بآياته وآثار عظمته في الخليقة كلها.

والملاحظ في هذه الآيات (٥٨-٧٣) ذكرها لأهم النعم الفطرية والحضارية بالنسبة للإنسان، فأهم النعم الفطرية هي خلقة الإنسان التي تبدأ من المني وتستمر، وبنعمة المطر، وأهمها حضاريًّا مما يعتبر اكتشافها انعطافات كبرى في تاريخ الحضارة البشرية. اكتشاف الزراعة والنار، ولا ريب أن لنعمة الزراعة تأثيرا في سائر مرافق حياة الإنسان، فهي مرتكز لحاجاته الأساسية كالتغذية والبناء، والكمالية كالزينة والظل والتمتع، حتى قالوا: إنها أصل كل حضارة.

ومعرفة هذه الحقائق تهدينا إلى أن الحضارة التي بأيدينا الآن ظاهر الأمر أننا الذين صنعناها وأوجدناها، إلا أنها من صنع الله وفضله ولأن الحضارة المادية (الإنسان + الزراعة + الماء + الطاقة) هي من خلقه وتنشئته، ثم إنها لا تكتمل إلا بالإيمان مما يأتي التأكيد عليه في الدرس القادم.

إن هذا لهو حق اليقين

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ[1] ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ[2] ۝٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦ ﴾.

هدى من الآيات:

إن خلقنا وموتنا، والزراعة والغيث، وكذلك النار، من الآيات التكوينية الهادية إلى الإيمان بالله الخالق، وباليوم الآخر، أما الآية التشريعية فهي القرآن الذي هو انعكاس لسائر سنن الحياة وواقعياتها في صورة نهج شامل وكامل، وهو أعظم آية تجلى فيها الخالق لخلقه، إذ لا ينتفع البشر من سائر آيات الله في الخليقة من دون القرآن الذي ترتفع به حجب الغفلة والشهوات، وتتكامل به التذكرة والتبصرة، وتتنامى المعرفة والإيمان بتلاوة آياته المبصرات.

---

(١) مدهنون: متهاونون كمن يدهن في الأمر أي يُلَيِّنُ جانبه تهاوناً، وأصله استعمال الدهن للين الجسم.

(٢) مدينين: أي محاسبين ومبعوثين، وقيل: مربوبين من دان السلطان الرعية إذا ساسهم.

وفي أول هذا الدرس يطالعنا الذكر قَسَماً مُؤَكَّداً وعظيماً على كرامة القرآن، وأنه حُفِظَ في كتاب لا تناله إلا الأيدي الطاهرة، وأنه ليس إلا من عند خالق الوجود ومبدعه، الأمر الذي يجعل الإيمان به مفروضا على الإنسان المخلوق فرضا.

ثم تلخص الآيات الأخيرة حديث السورة عن البعث (الواقعة)، وتبدأ بالاستنكار على البشر استخفافهم بحديث الواقعة، وتتحداهم بالموت الذي قهر الله به عباده، والذي هو في الوقت نفسه دليل الجزاء والمسؤولية اللذين يزعم الإنسان القدرة على تحديهما. ثم تؤكد الآيات انقسام الناس إلى ثلاثة أزواج، وأن التحاق كل امرئ بأصحابه يتم عند الموت، فإما من المقربين، وإما من أصحاب اليمين، وإما من أهل الشؤم والنار. وهذه الحقيقة واقعية، وحق يقين لا يُغيِّر فيه تكذيب المكذبين وضلالهم شيئا، كأي واقع آخر لا ينتفي بمجرد إنكاره. وكفى بحتمية وقوعه أنه وعد من ربنا القادر العظيم.

وفي الأخير يأمرنا بالتسبيح لأنه السبيل إلى النجاة من النار، وإلى المزيد من القربى إليه والتي ينتمي بها الإنسان إلى المقربين أفضل الأزواج، أوليس هو النهج الأنجح لمقاومة دواعي الشرك به والتكذيب بوعده؟.

بينات من الآيات:

[٧٥-٧٦] إن عظمة الله وأسمائه تتأكد لدى الإنسان كلما لاحظ الوجود من حوله وتفكر فيه، لأنه بكله آيات هادية إلى تلك الحقيقة، وعرصة تتجلى فيها العظمة والأسماء، فبعظمة الخلق وروعته نهتدي إلى أسمائه الجمالية فهو الحي القوي المقتدر الجميل الرحمن.

وبما في الخلق من صفات التحول، والعجز، والضعف، والمحدودية، نهتدي إلى صفات الخالق الجلالية، وأنه القدوس السبحان المتعالي الواسع، ولعل هذا ما يفسر إشارته بالقسم إلى الكواكب والنجوم المتوزعة في الفضاء الرحب، فإنها بحسنها ونظامها الدقيق وعلاقتها بالحياة على الأرض تكشف جانبا من عظمة الخالق عز وجل وربنا يفتح أفق البشرية ويثيرها نحو التطلع إلى علم الفضاء، ولكن ليس في هذا العصر الذي تقدمت فيه معارف الإنسان بهذا الجانب من العلم، وتخصص فيه الباحثون والمراقبون، إنما قبل عدة قرون، وفي وقت كانت معلومات البشر بهذا العلم وتوجهاته ضئيلة ومحدودة، بل ومخلوطة بالخرافات والأساطير.

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ ولم يقل بذات النجوم، وذلك ليبين حقيقة علمية مهمة وهي أن الكواكب ليست منثورة في السماء اعتباطا، كما يظن الجاهل بنظرته الخاطفة إلى

ظاهرها، بل هي خاضعة لنظام دقيق ومحكم بحيث تأخذ كل نجمة موقعها فيه، بما يجعل النظام متكاملا، ويجعلها تؤدي دورها المطلوب والمناسب في الوجود. ولا ريب أن هذه الحقيقة حَرِيَّة بالدراسة والبحث من جانب المختصين لما فيها من فوائد علمية تهم الإنسان، ولكونها تجليات لعظمة خالقها ومدبرها تزيد إيمان الإنسان وتصديقه وتسبيحه.

ويقول الفلكيون: «إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم (تزداد كلما تقدم العلم بالإنسان) ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما يرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي، يسيران في اتجاه واحد، وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، جدًّا، إن لم يكن مستحيلاً»[1].

ويقول العلماء المختصون: إنهم اكتشفوا لحد الآن نصف مليار مجرة، ولا يزالون يكتشفون المجرة تلو الأخرى في هذا الفضاء الرحب، وإنما يدرك عظمة قسم الله بمواقع النجوم الذي يطّلع على مثل هذه الحقائق، أما الذي يجهلها فإن القسم بها عنده ليس ذا أهمية. ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ فكلما تقدم الإنسان خطوة في العلم ظهرت وتأكدت له عظمة هذا القسم، وكفى بذلك عظمة أنه قسم منه تعالى بمواقع النجوم. ونخلص إلى القول بأن عدم قسمه مباشرة بها يعود إلى أمرين رئيسيين:

الأول: أن القسم بشيء يحقق غرضه حينما تكون عظمته معروفة عند الطرف المقابل.

الثاني: لأن الناس في الجاهلية كانوا يعتقدون في النجوم ومواقعها بالخرافات والشرك فلم يقسم الله بها لكيلا تتعمق اعتقاداتهم الباطلة، أو يتخذونه مبررا لها. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ مَوَاقِعَ النُّجُومِ رُجُومُهَا لِلشَّيَاطِينِ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقْسِمُونَ بِهَا. فَقَالَ سُبْحَانَهُ: فَلَا أُقْسِمُ بِهَا**»[2]، وقال عليه السلام: «**كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْلِفُونَ بِهَا فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾**»[3].

ولعل في الآية إيحاء وإشارة من قبل الله إلى الناس بعدم جواز حلفهم هم بها، حيث لا يصح للمخلوق القسم إلا بالخالق، وفي الروايات تصريح بذلك، قال الإمام الصادق عليه السلام

---

(١) في ظلال القرآن: ج٧ ص٧٠٦، نقلًا عن كتاب الله والعلم الحديث: ص٣٣.

(٢) مجمع البيان: ج٩، ص٢٨٧.

(٣) الكافي: ج٧، ص٤٥٠.

بعد أن تلا الآية: «أُعَظِّمُ إِثْمَ مَنْ يَحْلِفُ بِهَا»[1]، وفي هاتين الآيتين دعوة إلى نبذ الظنون والأساطير في موقف الإنسان من النجوم، والتي تضر أكثر مما تنفع، إلى العلم، مما يظهر اهتمام الإسلام وموقفه من العلم، ودعوته الرائدة إليه، وأنه ليس كما يظن البعض أو يصورونه يعارض العلم والحضارة.

[٧٧-٧٨-٧٩] وبعد التمهيد الآنف بالقسم يصارحنا الوحي بتلك الحقيقة العظمى، والتي كانت الغرض من القسم العظيم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، أليس يتجلى فيه ربنا بكل جماله وجلاله، وأي كرامة أسمى من كتاب تتفتح آياته عن جمال الخالق، وروعة المخلوق، وعن جلال الخالق، وعظيم خلقه؟.

قالوا: «الكرم بجمل الصفات الحميدة»[2]. وكيف لا يكون القرآن كريما وقد رَغَّبَنَا إلى مكارم الأخلاق وحسان الآداب، إلى العدل والحرية والفضائل الإنسانية، كما نهانا عن الخبائث والرذائل والسيئات؟ وإذا عدنا إلى أنفسنا وما فطرت عليه من حب الخير والفضيلة لعرفنا أن القرآن كتاب ربنا أوليس يدعو إلى الصفات الحسنى ذاتها التي نحبها ونعتقد أن ربنا يحبها، فكيف يكفرون به وكل آية آية منه شاهد على أنه من عند الله؟.

والسؤال هنا: ما هو وجه ذكر السياق للقرآن وبهذه الصورة المؤكدة؟.

أولاً: لأن الدرس السابق ذكرنا بالآيات الهادية إلى التصديق بالخالق. فكان من البديهي أن يأتي ذكر القرآن، لأنه السبيل إلى معرفة الآيات، والبصيرة لرؤية تجليات الرب، ومن لا يهتدي بالقرآن كيف يتسنى له وعي حقائق الخليقة، وفك رموزها، ومشاهدة غيبها، والعروج منها إلى معرفة خالقها؟.

ثانياً: لأن التصديق بالخالق، والتذكر، والشكر، وبالتالي التسبيح باسم الرب العظيم الذي دعا إليه الدرس السابق، لا يتم بالوجه الأكمل إلا بالقرآن، فالقرآن معراج السابقين، ومنهج أصحاب اليمين. إنه شريعة سمحاء لمن أراد الذكر، وابتغى الشكر، ويبحث عن سبيل التقوى. إنك تسأل كيف أُصدِّق بالخالق؟ وكيف أتذكر وأشكر؟ وكيف أُسبِّح؟ كل ذلك بالقرآن ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] فالتسبيح الحقيقي الذي يأمر به الله بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] لا يتلخص في الذكر، إنما

---

(١) الكافي: ج٧ ص٤٥٠.

(٢) راجع مفردات غريب القرآن: ص٧٠٧.

يكون باسم الله العظيم وقرآنه أعظم أسمائه الظاهرة، بل وفيه الاسم الأعظم.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَعْطَاهُ اللهُ القُرْآنَ فَرَأَى أَنَّ أَحَداً أُعْطِيَ شَيْئاً أَفْضَلَ مِمَّا أُعْطِيَ فَقَدْ صَغَّرَ عَظِيماً وَعَظَّمَ صَغِيراً»[١].

وقال ﷺ: «فَضْلُ القُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الكَلَامِ كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ»[٢].

وقال ﷺ: «القُرْآنُ مَأْدُبَةُ الله فَتَعَلَّمُوا مَأْدُبَتَهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، إِنَّ هَذَا القُرْآنَ هُوَ حَبْلُ الله وهُوَ النُّورُ المُبِينُ والشِّفَاءُ النَّافِعُ فَاقْرَؤُوهُ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَأْجُرُكُمْ عَلَى تِلَاوَتِهِ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَاحِدٌ ولَكِنْ أَلِفٌ ولَامٌ ومِيمٌ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً»[٣].

وقال ﷺ: «القُرْآنُ أَفْضَلُ كُلِّ شَيْءٍ دُونَ الله، فَمَنْ وَقَّرَ القُرْآنَ فَقَدْ وَقَّرَ اللهَ، ومَنْ لَمْ يُوَقِّرِ القُرْآنَ فَقَدِ اسْتَخَفَّ بِحُرْمَةِ الله، حُرْمَةُ القُرْآنِ عَلَى الله كَحُرْمَةِ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ»[٤].

وقال ﷺ: «إِنْ أَرَدْتُمْ عَيْشَ السُّعَدَاءِ ومَوْتَ الشُّهَدَاءِ والنَّجَاةَ يَوْمَ الحَشْرِ والظِّلَّ يَوْمَ الحَرُورِ والهُدَى يَوْمَ الضَّلَالَةِ فَادْرُسُوا القُرْآنَ، فَإِنَّهُ كَلَامُ الرَّحْمَنِ وحِرْزٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ورُجْحَانٌ فِي المِيزَانِ»[٥].

وقال ﷺ: «مَنِ اسْتَظْهَرَ القُرْآنَ وحَفِظَهُ وأَحَلَّ حَلَالَهُ وحَرَّمَ حَرَامَهُ أَدْخَلَهُ اللهُ بِهِ الجَنَّةَ وشَفَّعَهُ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَ لَهُ النَّارُ»[٦].

وقال ﷺ يعظ سلمان المحمدي: «يَا سَلْمَانُ المُؤْمِنُ إِذَا قَرَأَ القُرْآنَ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ، وَخَلَقَ اللهُ بِكُلِّ حَرْفٍ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ مَلَكاً يُسَبِّحُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بَعْدَ تَعَلُّمِ العِلْمِ أَحَبَّ إِلَى الله مِنْ قِرَاءَةِ القُرْآنِ وَ إِنَّ أَكْرَمَ العِبَادِ إِلَى الله بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ العُلَمَاءُ ثُمَّ حَمَلَةُ القُرْآنِ، يَخْرُجُونَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَخْرُجُ الأَنْبِيَاءُ وَيُحْشَرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ مَعَ الأَنْبِيَاءِ، وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ مَعَ الأَنْبِيَاءِ، وَيَأْخُذُونَ ثَوَابَ الأَنْبِيَاءِ، فَطُوبَى لِطَالِبِ العِلْمِ وَحَامِلِ القُرْآنِ مِمَّا لَهُمْ عِنْدَ الله مِنَ الكَرَامَةِ وَ الشَّرَفِ»[٧].

---

(١) وسائل الشيعة: ج٥، ص٣٣١.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٣٧.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٥٨.
(٤) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٣٦.
(٥) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٣٢.
(٦) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٤٥.
(٧) مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٥٧.

ولكننا نحن المسلمين لا زلنا بعيدين عن القرآن، بالرغم من هذه التأكيدات، وبالرغم من تجربتنا معه، أوليس قد أنقذنا من ظلمات الجاهلية، وشيّد لنا حضارة كانت ولا زالت منارا للبشرية، فلماذا هجرناه حتى عاد بيننا غريبا؟ أفكارنا لا تشير إلى بصائره، وسلوكنا لا يستوحى من قيمه.

ويكلمة: خسرنا كرامة القرآن وعزه، ولا يزال يدعونا إلى مأدبته وكرامته، بيد أننا لن نبلغه إلا بسعي منا، ذلك لأنه كما يصفه الله عز وجل: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴾ فلا بد إذن أن نستظهره كما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله[1]، ونستنطقه كما يقول الإمام علي عليه السلام، حتى نطلع على مكنونه، فهو بالرغم من اشتماله على تبيان لكل شيء لن ينطق، «ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي وَدَوَاءَ دَائِكُمْ وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»[2]، وقد أراد الإمام عليه السلام من قوله: «وَلَنْ يَنْطِقَ» أننا لن نقرأ في ظاهر القرآن كل المناهج الحضارية للحياة، ولا مضامينه العلمية، إنما نجدها بالتفكير والتدبر في آياته، الذي يفتح لنا كُنْهَ الذكر الحكيم ويبصرنا محتوياته وتأويلاته الواقعية في جوانب الحياة المختلفة، والعقل إذا أُعْمِل على هدى الآيات والسنة والعلم الصحيح هو مفتاح القرآن. قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧]، وقال: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

ولأننا تعودنا على الأفكار الجاهزة، ولأن العملية الفكرية عملية مجهدة، ولأن مناهجنا في فهم القرآن وتفسيره متخلفة وخاطئة في أغلبها، فلازلنا بعيدين عن الثقافة القرآنية التي نحتاجها في حياتنا الفردية والاجتماعية، ولم ننتفع عمليًا بالرغم من الحاجة الملحة إليها. وما أشبه حالنا بظمآن يجري بقربه نهر فرات لم يكتشفه، أو فقير تحته كنز كبير!.

ولا يفوتنا القول بأن من معاني ﴿مَّكۡنُونٍ ﴾ محفوظ، لم ولن تصل إليه يد التحريف، ولن يطفئ نوره المشركون ولا الكافرون. وقال بعض المفسرين: إن معنى الآية أنه كتاب محفوظ عند الله، والكتاب هنا كتاب في السماء[3].. ولكن يبدو أن الآية التالية تفسر هذه الآية، فهو مكنون عن غير المطهرين.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٨، ص ١٣

(٢) بحار الأنوار: ج٣٢، ص٥٤٦.

(٣) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص ٢٢٤.

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ قال المفسرون والفقهاء تبعا للآيات: يعني لا يجوز أن يمس القرآن إلا من كان مسلما طاهرا. قال أبو الحسن عليه السلام: «الْمُصْحَفُ لَا تَمَسَّهُ عَلَى غَيْرِ طُهْرٍ وَلَا جُنُباً وَلَا تَمَسَّ خَيْطَهُ وَلَا تُعَلِّقْهُ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾»[1]، وعن الصادق عليه السلام، قال الراوي «سَأَلْتُهُ عَنِ التَّعْوِيذِ يُعَلَّقُ عَلَى الْحَائِضِ، قَالَ عليه السلام: لَا بَأْسَ، وقَالَ عليه السلام: تَقْرَؤُهُ وَتَكْتُبُهُ وَلَا تَمَسُّهُ»[2].

وهذا التفسير هو ظاهر الآية، وإذا تدبرنا في الآية أكثر لعرفنا أن الطهارة الحسية بُعْدٌ واحد من الطهارة، والبعد الآخر هو طهارة الروح التي هي الأهم. ولا يمس حقائق القرآن إلا المطهرون عن الإثم والفواحش، البعيدون عن العقد والأفكار الدخيلة والمسبقة، والأغلال والإصر، وسائر الأدران التي تحجب الإنسان عن كتاب الله. قال ربنا سبحانه: ﴿ وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ۝٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦] وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، كما جاء أمره تعالى بالاستعاذة من الشيطان في قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] لأنه لون من ألوان النجاسة المعنوية التي تحجب الإنسان عن الآيات. وأئمة الهدى الذين تنزل الوحي في بيوتهم هم الأعلم بمعاني القرآن، لأنهم أظهر مصاديق الطهر لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ومن الدقة في التعبير أنه تعالى لم يقل الطاهرين إنما قال ﴿ ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ مما يؤكد تأويل هذه الآية في أهل البيت العصمة عليهم السلام حيث طهّرهم الله، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي عِنْدِي لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ وَالْأَوْصِيَاءُ مِنْ وُلْدِي»[3]، ولعل المراد مما عنده القرآن بتفسيره وتأويله وما تلقّى من الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله فيه. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «وَإِنَّمَا الْقُرْآنُ أَمْثَالٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ دُونَ غَيْرِهِمْ وَلِقَوْمٍ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ وَهُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَعْرِفُونَهُ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَمَا أَشَدَّ إِشْكَالَهُ عَلَيْهِمْ وَأَبْعَدَهُ مِنْ مَذَاهِبِ قُلُوبِهِمْ، وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: (إِنَّهُ) لَيْسَ شَيْءٌ أَبْعَدَ مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ مِنْ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، وَفِي ذَلِكَ تَحَيَّرَ الْخَلَائِقُ أَجْمَعُونَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ».

---

(١) وسائل الشيعة: ج١، ص١١٣.

(٢) الكافي: ج٣، ص١٠٦.

(٣) بحار الأنوار: ج٨٩ ص٤٢.

وَإِنَّمَا أَرَادَ اللهُ بِتَعْمِيَتِهِ فِي ذَلِكَ أَنْ يَنْتَهُوا إِلَى بَابِهِ وَصِرَاطِهِ وَأَنْ يَعْبُدُوهُ وَيَنْتَهُوا فِي قَوْلِهِ إِلَى طَاعَةِ الْقُوَّامِ بِكِتَابِهِ وَالنَّاطِقِينَ عَنْ أَمْرِهِ وَأَنْ يَسْتَنْبِطُوا مَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ عَنْهُمْ لَا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَلَيْسَ يُعْلَمُ ذَلِكَ أَبَداً وَلَا يُوجَدُ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ وُلَاةَ الْأَمْرِ إِذاً لَا يَجِدُونَ مَنْ يَأْتَمِرُونَ عَلَيْهِ وَلَا مَنْ يُبَلِّغُونَهُ أَمْرَ اللهِ وَنَهْيَهُ فَجَعَلَ اللهُ الْوُلَاةَ خَوَاصَّ لِيَقْتَدِيَ بِهِمْ مَنْ لَمْ يَخْصُصْهُمْ بِذَلِكَ فَافْهَمْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَإِيَّاكَ وَتِلَاوَةَ الْقُرْآنِ بِرَأْيِكَ فَإِنَّ النَّاسَ غَيْرُ مُشْتَرِكِينَ فِي عِلْمِهِ كَاشْتِرَاكِهِمْ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْأُمُورِ وَلَا قَادِرِينَ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى تَأْوِيلِهِ إِلَّا مِنْ حَدِّهِ وَبَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لَهُ فَافْهَمْ إِنْ شَاءَ اللهُ وَاطْلُبِ الْأَمْرَ مِنْ مَكَانِهِ تَجِدْهُ إِنْ شَاءَ اللهُ»[1].

[٨٠-٨١-٨٢] وإنما يقصر غير المطهرين عن مسه ولا يجوز لهم ذلك لأنه كلام الله رب العالمين. ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد تجلى الرب فيه بأسمائه، وآياته، ورسالاته، وشرائعه، وكتاب هذا شأنه يحجب عنه من اتّبع هواه، وتمكّنت الشهوات من قلبه، لأن معرفة الله معراج القلب إليه، وحضور النفس في مقامه الأعلى، فكيف يسمح لمن تراكمت عقد الذنوب على قلبه بذلك؟!، حاشا بذي العرش أن يسمو إلى مقام كلامه الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم!.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ إنه حديث عظيم لا بد من أخذه بقوة وعزم، والاستقامة عليه في مواجهة الضغوط. أما اللين في أمره، والاستسلام للضغوط بالإعراض عنه، فهو لا يتناسب وعظمة القرآن. وهذا المعنى هو المفهوم من مختلف الآراء في تفسير المدهن، قالوا: «مكذبون»، وقالوا: «منافقون»، وقال بعضهم: «ممالقون الكفار على الكفر به»، وقال آخر: «المدهن الذي لا يعقل ما حقُّ الله عليه ويدفعه بالعلل»، وقال بعض اللغويين: «مدهنون تاركون للجزم في قبول القرآن»[2]. وقال آية الله العظمى الشيرازي ﷺ: «متهاونون، كمن يدهن في الأمر أي يلين جانبه تهاونا، وأصله استعمال الدهن للين الجسم»[3]، ومنه قول الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ٧-١٠].

ونستفيد من الآية أنه لا يجوز لأحد التهاون في أحكام القرآن في أي حال، ولأي سبب،

(١) بحار الأنوار: ج٨٩، ص ١٠٠-١٠١.
(٢) تفسير القرطبي: ج ١٧، ص ٢٢٨.
(٣) تقريب القرآن للأذهان: المجلد٥، ج٢٧، ص٣٢١.

لأنه حديث الله المفروض تطبيقه والالتزام به على الخلق، ولا يجوز أن يبرر ذلك بأنه قد تعرض للضغط لأن علامة الإيمان تحدي الضغوط، وتفضيل الآخرة على مصالح الدنيا وشهواتها. وإنما سقط الغابرون عندما خارت عزائمهم عند مواجهة التحديات فأخذوا يتهاونون في أمر الدين، ويلينون أمام الصعاب.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ كذب الذي يزعم أن رزقه من العباد فأخذ يداهنهم، أو من الأنواء فطفق يستدرها بدل أن يشكر بارئها، فقد يكون الناس سببا للرزق، ولكن ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، فلا يجوز مداهنتهم وتكذيب الحق للحصول على لقمة الخبز، بل الله يجب أن يخاف ويتقي، لأنه إذا منع الرزق لا يقدر أحد على منحه، وإذا منح فلا يقدر أحد على منعه. وبهذا نعرف أن تفاسير الآية المختلفة تعود بالتالي إلى تفسير واحد: أنهم قد زعموا خطأً أن رزقهم بالتكذيب مداهنةً للناس، ولعل هذا الزعم هو مورد استشهاد النصوص التي جعلت الرزق بمعنى الشكر حسب مورد النزول المروي، ذلك أن زعم أهل الجاهلية أن الأنواء هي التي تمطرهم هو كزعم هؤلاء أن التكذيب سبب لرزقهم.

وهذا التفسير ينسجم مع السياق الذي يستهدف تركيز الإيمان بالله وحده والتصديق بأنه الخالق الرازق (الآيات: ٥٧-٧٤) وبالأخص إذا لاحظنا قوله: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ في الآية (٧٠).

قال علي بن إبراهيم: «إِنَّ عَلِيًّا عليه السلام قَرَأَ بِهِمُ الْوَاقِعَةَ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَقُولُ قَائِلٌ لِمَ قَرَأَ هَكَذَا قَرَأْتُهَا لِأَنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقْرَؤُهَا كَذَلِكَ، وَكَانُوا (أي أهل الجاهلية) إِذَا أُمْطِرُوا قَالُوا: أُمْطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾»[1]، وجاء في تفسير القرطبي يعلل استبدال كلمة الرزق بالشكر في المعنى: «لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه، ويكون الشكر رزقا على هذا المعنى، فقيل ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكر رزقكم الذي لو وُجِدَ منكم لعاد رزقكم، إنكم تكذبون بالرزق، أي تضعون الكذب مكان الشكر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي لم يكونوا يصلون، ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة. ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط الذي جرت العادة بأن تكون أسبابا، بل ينبغي أن يروه من قبل الله تعالى ثم يقابلونه بشكر إن كان نعمة، أو صبر إن كان مكروها»[2].

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٩.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٧، ص٢٢٨.

وروي عن ابن عباس قال: مُطِرَ الناس على عهد النبي صلى الله عليه وآله فقال النبي صلى الله عليه وآله: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا: هَذِهِ رَحْمَةٌ وَضَعَهَا اللهُ، وَقَالَ بَعْضُهُم: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ حَتَّى يَبْلُغَ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾»[1] أي تجعلون رزقكم أنكم تكذبون بالله، وتصدقون بالأنواء.

[٨٣-٨٧] ويعالج القرآن الانحراف الذي يقع الإنسان فيه بالشرك، سواء الصريح منه كالاعتقاد بالأنواء، أو المبطن كالاسترزاق والمداهنة اللذين هما من ألوان الشرك، حيث يساوم الإنسان بالحق، ويتنازل عنه إلى الباطل، أو يكذب به استجابة لعوامل معينة داخلية أو خارجية، يعالج هذا وذاك بوضعه أمام الموت الواقعة الصغرى التي هي أخطر وأصعب وأحسم حوادث الدنيا، فهو حينئذ لا ينفعه شيء ولا شخص، ويأتي التأكيد على هذين الأمرين لأن مداهنة الإنسان بالحق وتكذيبه به وشركه ينطلق من كفره بالآخرة والحساب، واعتماده على الآخرين.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ يعني النفس عند الأجل، وبلوغها الحلقوم كناية عن قرب خروجها، بل هي حقيقة يعاينها كل من حل أجله. أما الجالسون حول المنازع للموت فإنهم لا يرون من الأمر إلا ظاهر صاحبهم، إذ يلف ساقا بساق، ويقبض يدا ويبسط أخرى ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ بأعينكم إليه لا تستطيعون إلا التسليم للواقع، في حين تستل رسل الله روحه على أقرب من حبل الوريد ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ كما أنهم إذا صاروا إلى مثل أمر من ماتوا سيدركون بيقين ويرون رسل الموت بأبصارهم وبصائرهم، وإنما يدعونا ربنا إلى الاتعاظ بمن يمضون قبل أن نكون بأنفسنا الموعظة، والإمام علي عليه السلام يؤكد لنا هذه الحقيقة إذ يقول: «فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ لَجَزِعْتُمْ وَوَهِلْتُمْ وَسَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الحِجَابُ، وَلَقَدْ بُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ وَأُسْمِعْتُمْ إِنْ سَمِعْتُمْ وَهُدِيتُمْ، إِنِ اهْتَدَيْتُمْ وَبِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَقَدْ جَاهَرَتْكُمُ العِبَرُ وَزُجِرْتُمْ بِمَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ وَمَا يُبَلِّغُ عَنِ اللهِ بَعْدَ رُسُلِ السَّمَاءِ إِلَّا البَشَرُ»[2].

ومن دقيق عبارة القرآن أنه لا يقول هنا: (ولكن لا تنظرون)، لأن ما يريد بيانه عمى البصيرة وليس البصر وحسب، فالمؤمنون الموقنون لا يرون الملائكة بأعينهم إذا قضى أحد نحبه على مقربة منهم، ولكنهم لا شك يدركون الموت، ويسلّمون لهذا الحق، كتسليمهم بكل الحقائق الأخرى، ويبصرون بقلوبهم حتى ملائكة الله.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٣٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٤٤.

وحيث تبلغ الروح الحلقوم يتيقن الإنسان بكثير من الحقائق التي طالما داهن بها وكذب واسترزق، فيذهل عن كل شيء، ويأسف على ما فرط، ويرى أن الواقع الذي يعانيه هو نفسه الذي جاء في حديث الله ورسالته للعالمين: «وإِنَّهُ لَبَيْنَ أَهْلِهِ يَنْظُرُ بِبَصَرِهِ ويَسْمَعُ بِأُذُنِهِ عَلَى صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ وبَقَاءٍ مِنْ لُبِّهِ، يُفَكِّرُ فِيمَ أَفْنَى عُمُرَهُ وفِيمَ أَذْهَبَ دَهْرَهُ، ويَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا أَغْمَضَ فِي مَطَالِبِهَا وأَخَذَهَا مِنْ مُصَرَّحَاتِهَا ومُشْتَبِهَاتِهَا، قَدْ لَزِمَتْهُ تَبِعَاتُ جَمْعِهَا وأَشْرَفَ عَلَى فِرَاقِهَا، تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يَنْعَمُونَ فِيهَا ويَتَمَتَّعُونَ بِهَا.... ثُمَّ ازْدَادَ المَوْتُ التِيَاطاً بِهِ فَقُبِضَ بَصَرُهُ كَمَا قُبِضَ سَمْعُهُ، وخَرَجَتِ الرُّوحُ مِنْ جَسَدِهِ فَصَارَ جِيفَةً بَيْنَ أَهْلِهِ قَدْ أَوْحَشُوا مِنْ جَانِبِهِ وتَبَاعَدُوا مِنْ قُرْبِهِ»[1].

هكذا قهر الله عباده بالموت، وبه يتحدى غرور البشر وضلالهم، ويعالج كفرهم بالجزاء فيقول: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي إن زعمتم أنكم غير مجزيين بأعمالكم، وقيل: إنكم غير مملوكين. ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولكن كيف يكون الموت دليل الجزاء؟ والجواب: إن هذا وذاك حق واقع مفروض، والموت كما الجزاء يخشاه الإنسان فيتهرب من الاعتراف به حتى يكذبه، حتى جاء في الحديث أنه الحق الذي يشبه الباطل حيث لا يكاد يصدق به أحد لعظيم شأنه في نفوس الناس، ولكن هل ينتفي الموت بتكذيبه، أو يمكن الفرار منه؟ كلا.. كذلك الجزاء. إن الله يأخذ الروح ويدفعها للجزاء. فإذا كان أحد يدعي قدرة على تحدي سنة الجزاء فليردها ممن أخذها؟.

[٨٨] وحينما يحلُّ الأجل يزهق كل باطل إلا الحق الذي بشَّرت به رسالة الله، فإنه يصير ماثلاً أمام ابن آدم، فما أخبر به الله من انقسام الناس إلى ثلاثة أزواج لا يعود كذبا ولا ظنا ولا حتى مجرد إيمان بل يجده واقعا ماثلا أمامه.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى الله بإيمانهم وأعمالهم ﴿فَرَوْحٌ﴾ أي راحة واطمئنان وسعادة، ﴿وَرَيْحَانٌ﴾، جاء في الأخبار أنه من أزهار الجنة وروائحها يُشِمُّهُ ملك الموت المؤمن فلا يحس بمنازعه الروح وخروجها. ويلقى المؤمن هذين الجزاءين عند موته، قال الإمام الصادق عليه السلام وقد تلا الآية: «﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ يَعْنِي فِي قَبْرِهِ ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ يَعْنِي فِي الآخِرَةِ»[2].

وقد تعرضت السورة في أولها إلى ذكر شيء من نعيم السابقين المقربين. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى قَبْضَ رُوحِ المُؤْمِنِ قَالَ: يَا مَلَكَ المَوْتِ انْطَلِقْ أَنْتَ وَأَعْوَانُكَ إِلَى عَبْدِي فَطَالَمَا نَصَبَ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي فَأْتِنِي بِرُوحِهِ لِأُرِيحَهُ عِنْدِي، فَيَأْتِيهِ مَلَكُ المَوْتِ بِوَجْهٍ

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٠٩.
(٢) نور الثقلين: ج٥، ص ٢٢٨.

حَسَنٍ وَثِيَابٍ طَاهِرَةٍ وَرِيحٍ طَيِّبَةٍ فَيَقُومُ بِالبَابِ فَلَا يَسْتَأْذِنُ بَوَّاباً وَلَا يَهْتِكُ حِجَاباً وَلَا يَكْسِرُ بَاباً، مَعَهُ خَمْسُمِائَةِ مَلَكٍ أَعْوَانٌ مَعَهُمْ طِنَانُ الرَّيْحَانِ وَالحَرِيرِ الأَبْيَضِ وَالمِسْكِ الأَذْفَرِ، فَيَقُولُونَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا وَلِيَّ اللهِ، أَبْشِرْ فَإِنَّ الرَّبَّ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ أَمَا إِنَّهُ عَنْكَ رَاضٍ غَيْرُ غَضْبَانَ وَأَبْشِرْ بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ، قَالَ: أَمَّا الرَّوْحُ فَرَاحَةٌ مِنَ الدُّنْيَا وَبَلَائِهَا وَ أَمَّا الرَّيْحَانُ مِنْ كُلِّ طِيبٍ فِي الجَنَّةِ فَيُوضَعُ عَلَى ذَقَنِهِ فَيَصِلُ رِيحُهُ إِلَى رُوحِهِ فَلَا يَزَالُ فِي رَاحَةٍ حَتَّى يَخْرُجَ نَفْسُهُ.

ثُمَّ يَأْتِيهِ رِضْوَانُ خَازِنُ الجَنَّةِ، فَيَسْقِيهِ شَرْبَةً مِنَ الجَنَّةِ لَا يَعْطَشُ فِي قَبْرِهِ وَلَا فِي القِيَامَةِ حَتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ رَيَّاناً، فَيَقُولُ: يَا مَلَكَ المَوْتِ رُدَّ رُوحِي حَتَّى يُثْنِيَ عَلَى جَسَدِي وَجَسَدِي عَلَى رُوحِي، قَالَ: فَيَقُولُ مَلَكُ المَوْتِ: لِيُثْنِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَيَقُولُ الرُّوحُ: جَزَاكَ اللهُ مِنْ جَسَدٍ خَيْرَ الجَزَاءِ، لَقَدْ كُنْتَ فِي طَاعَةِ اللهِ مُسْرِعاً وَعَنْ مَعَاصِيهِ مُبْطِئاً، فَجَزَاكَ اللهُ عَنِّي مِنْ جَسَدٍ خَيْرَ الجَزَاءِ، فَعَلَيْكَ السَّلَامُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَيَقُولُ الجَسَدُ لِلرُّوحِ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: فَيَصِيحُ مَلَكُ المَوْتِ: أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي مِنَ الدُّنْيَا مُؤْمِنَةً مَرْحُومَةً مُغْتَبِطَةً، قَالَ: فَرَقَّتْ بِهِ المَلَائِكَةُ وَفَرَّجَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدَ وَ سَهَّلَتْ لَهُ المَوَارِدَ وَ صَارَ لِحَيَوَانِ الخُلْدِ، قَالَ: ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ لَهُ صَفَّيْنِ مِنَ المَلَائِكَةِ غَيْرَ القَابِضِينَ لِرُوحِهِ فَيَقُومُونَ سِمَاطَيْنِ مَا بَيْنَ مَنْزِلِهِ إِلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَيَشْفَعُونَ لَهُ، قَالَ: فَيُعَلِّلُهُ مَلَكُ المَوْتِ وَيُمَنِّيهِ وَ يُبَشِّرُهُ عَنِ اللهِ بِالكَرَامَةِ وَالخَيْرِ كَمَا تُخَادِعُ الصَّبِيَّ أُمُّهُ تُمَرِّخُهُ بِالدُّهْنِ وَالرَّيْحَانِ، وَبِقَاءِ النَّفْسِ وَيَفْدِيهِ بِالنَّفْسِ وَالوَالِدَيْنِ، قَالَ: فَإِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ قَالَ الحَافِظَانِ اللَّذَانِ مَعَهُ: يَا مَلَكَ المَوْتِ ارْأَفْ بِصَاحِبِنَا وَارْفُقْ فَنِعْمَ الأَخُ كَانَ وَنِعْمَ الجَلِيسُ لَمْ يُمْلِ عَلَيْنَا مَا يُسْخِطُ اللهَ قَطُّ.

فَإِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ خَرَجَتْ كَنَخْلَةٍ بَيْضَاءَ وُضِعَتْ فِي مِسْكَةٍ بَيْضَاءَ وَمِنْ كُلِّ رَيْحَانٍ فِي الجَنَّةِ فَأُدْرِجَتْ إِدْرَاجاً وَ عَرَجَ بِهَا القَابِضُونَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيُفْتَحُ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَ يَقُولُ لَهَا البَوَّابُونَ: حَيَّاهَا اللهُ مِنْ جَسَدٍ كَانَتْ فِيهِ لَقَدْ كَانَ يَمُرُّ لَهُ عَلَيْنَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَنَسْمَعُ حَلَاوَةَ صَوْتِهِ بِالقُرْآنِ.

قَالَ: فَبَكَى لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَالبَوَّابُونَ لِفَقْدِهِ وَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ قَدْ كَانَ لِعَبْدِكَ هَذَا عَمَلٌ صَالِحٌ وَكُنَّا نَسْمَعُ حَلَاوَةَ صَوْتِهِ بِالذِّكْرِ لِلْقُرْآنِ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ابْعَثْ لَنَا مَكَانَهُ عَبْداً يُسْمِعُنَا مَا كَانَ يُسْمِعُنَا، وَيَصْنَعُ اللهُ مَا يَشَاءُ، فَيَصْعَدُ بِهِ إِلَى عَيْشٍ رَحْبٍ بِهِ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ وَيَشْفَعُونَ لَهُ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ، وَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: رَحْمَتِي عَلَيْهِ مِنْ رُوحٍ، وَيَتَلَقَّاهُ أَرْوَاحُ المُؤْمِنِينَ كَمَا يَتَلَقَّى الغَائِبُ غَائِبَهُ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَرُوا هَذِهِ الرُّوحَ حَتَّى تُفِيقَ فَقَدْ خَرَجَتْ مِنْ كَرْبٍ عَظِيمٍ، وَإِذَا هُوَ اسْتَرَاحَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ يُسَائِلُونَهُ وَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ فَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ بَكَوْا وَاسْتَرْجَعُوا وَيَقُولُونَ: ذَهَبَتْ بِهِ أُمُّهُ الهَاوِيَةُ فَإِنَّا للهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ: رُدُّوهَا عَلَيْهِ فَمِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَإِذَا حُمِلَ سَرِيرُهُ حَمَلَتْ نَعْشَهُ المَلَائِكَةُ وَانْدَفَعُوا بِهِ انْدِفَاعاً وَالشَّيَاطِينُ سِمَاطَيْنِ يَنْظُرُونَ مِنْ بَعِيدٍ لَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهِ سُلْطَانٌ وَلَا سَبِيلٌ، فَإِذَا بَلَغُوا بِهِ القَبْرَ تَوَثَّبَتْ إِلَيْهِ بِقَاعُ الأَرْضِ كَالرِّيَاضِ الخُضْرِ فَقَالَتْ كُلُّ بُقْعَةٍ مِنْهَا اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ فِي بَطْنِي، قَالَ: فَيُجَاءُ بِهِ حَتَّى يُوضَعَ فِي الحُفْرَةِ الَّتِي قَضَاهَا اللهُ لَهُ، فَإِذَا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ مُثِّلَ لَهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ وَزَوْجَتُهُ وَوُلْدُهُ وَإِخْوَانُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ لِزَوْجَتِهِ: مَا يُبْكِيكِ؟.

قَالَ: فَتَقُولُ: لِفَقْدِكَ تَرَكْتَنَا مُعْوِلِينَ، قَالَ: فَتَجِيءُ صُورَةٌ حَسَنَةٌ، قَالَ: فَيَقُولُ: مَا أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ أَنَا لَكَ اليَوْمَ حِصْنٌ حَصِينٌ وَ جُنَّةٌ وَ سِلَاحٌ بِأَمْرِ الله، قَالَ: فَيَقُولُ: أَمَا وَ الله لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي هَذَا المَكَانِ لَنَصَبْتُ نَفْسِي لَكَ وَ مَا غَرَّنِي مَالِي وَوُلْدِي، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا وَلِيَّ الله أَبْشِرْ بِالخَيْرِ، فَوَ الله إِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ القَوْمِ إِذَا رَجَعُوا وَ نَفْضَهُمْ أَيْدِيَهُمْ مِنَ التُّرَابِ إِذَا فَرَغُوا قَدْ رُدَّ عَلَيْهِ رُوحُهُ وَمَا عَلِمُوا. قَالَ: فَيَقُولُ لَهُ الأَرْضُ: مَرْحَباً يَا وَلِيَّ الله مَرْحَباً بِكَ، أَمَا وَاللهِ لَقَدْ كُنْتُ أُحِبُّكَ وَأَنْتَ عَلَى مَتْنِي فَأَنَا لَكَ اليَوْمَ أَشَدُّ حُبّاً إِذَا أَنْتَ فِي بَطْنِي أَمَا وَ عِزَّةِ رَبِّي لَأُحْسِنَنَّ جِوَارَكَ وَ لَأُبَرِّدَنَّ مَضْجَعَكَ وَ لَأُوَسِّعَنَّ مَدْخَلَكَ، إِنَّمَا أَنَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»[1].

[٨٩-٩٤] هذا كان حال الإنسان إذا كان من المقربين عند الموت وبعده ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ قيل: المعنى أن الملائكة تبشره بالأمن والسلام والعاقبة، وهو أكبر ما يطمح إليه الإنسان، فهم يؤمنونه من غضب الله وعذابه الذي يحل بأصحاب المشأمة، فيقولون له: أنت في سلام لأنك من أصحاب اليمين.

وقيل: يعني إن سألت عنه فهو سلام: كقولنا: أحمد إليك ربي، أي إن سألت عني فأنا أحمد الله، وكما لو سألت شخصا عن صاحبك فيقول: كما تحب في عافية، أو يقول: يدعو لك إنه بخير، أو: يسلم عليك هو في عافية. قال القرطبي: «أي لست ترى منهم إلا ما تحب من السلامة فلا تهتم لهم، فإنهم يسلمون من عذاب الله»[2]، ويبدو أن هذا المعنى هو الأقرب.

ويحتمل أن الكلام هنا عن صفة علاقتهم بالرسول (ومن خلاله كل مؤمن تالٍ للقرآن) في الدنيا قبل الموت. إنها ليست علاقة العداء والتكذيب، وإنما هم في تسليم له، وسلام تجاهه، وليسوا كأصحاب المشأمة الذين يعادونك يا رسول الله ويكذبون برسالتك. وفي روضة الكافي: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «هُمْ شِيعَتُكَ»[3]، والآية تتسع إلى هذا المعنى بدليل

(١) بحار الأنوار: ج ٨، ص٢٠٧-٢٠٩.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٧، ص٢٣٣.
(٣) الكافي: ج٨، ص٢٦٠.

هذه الرواية.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين كذبوا الرسالة والرسول، وأنكروا البعث فلم يستعدوا للقاء الآخرة، بل أسرفوا في السيئات والذنوب فضلوا.. ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، قال الإمام الكاظم عليه السلام: «إِذَا مَاتَ الكَافِرُ شَيَّعَهُ سَبْعُونَ أَلْفاً مِنَ الزَّبَانِيَةِ إِلَى قَبْرِهِ، وَإِنَّهُ لَيُنَاشِدُ حَامِلِيهِ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَانِ وَيَقُولُ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَيَقُولُ: ﴿ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فَتُجِيبُهُ الزَّبَانِيَةُ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ أَنْتَ قَائِلُهَا، وَيُنَادِيهِمْ مَلَكٌ: لَوْ رُدَّ لَعَادَ لِمَا نُهِيَ عَنْهُ، فَإِذَا أُدْخِلَ قَبْرَهُ وَفَارَقَهُ النَّاسُ أَتَاهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ فِي أَهْوَلِ صُورَةٍ فَيُقِيمَانِهِ ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَتَلَجْلَجُ لِسَانُهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الجَوَابِ فَيَضْرِبَانِهِ ضَرْبَةً مِنْ عَذَابِ اللهِ يَذْعَرُ لَهَا كُلُّ شَيْءٍ، ثُمَّ يَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا هَدَيْتَ وَلَا أَفْلَحْتَ، ثُمَّ يَفْتَحَانِ لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ وَيُنْزِلَانِ إِلَيْهِ مِنَ الحَمِيمِ مِنْ جَهَنَّمَ وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يَعْنِي فِي القَبْرِ ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ يَعْنِي فِي الآخِرَةِ»[1].

وكونه من الضالين المكذبين يبين أن ضلالته متعمدة اصطنعها بتكذيبه، وليست عقوبة أو بسبب جهله بالحق وغفلته عنه.

[٩٥-٩٦] وفي نهاية السورة يؤكد ربنا أن الحقائق التي ذكّر بها القرآن وأهمها حقيقة الجزاء الأخروي ليست خيالاً، ولم تذكر لمجرد التخويف إنما هي واقع وسوف ينكشف بعينه للإنسان عند الموت.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ وحيث لا يصل كثير من الناس إلى درجة اليقين إيماناً وعلماً فإنهم يُضَيِّعون هذا الحق، ويكفرون به، في حين يتجلى لقلوب الصادقين من المؤمنين وهم في دار الدنيا، ولذلك تكاد أرواحهم تطير من أجسادهم فرحا لذكر الجنة، وتزهق خوفا لذكر النار، والسبب أنهم ليسوا في كفر ولا شك بالآخرة، إنما يتعاملون مع ذلك الحق الغيب، كما يتعاملون مع أي حق محسوس، فهم حاضرون ببصائرهم هناك كحضورهم ببصرهم هنا.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ تنزيها له عما يصف المشركون والكافرون، كوصفه بالعجز عن البعث والجزاء، أو تبرير أخطائهم وخطيئاتهم وإلقاء المسؤولية على الله سبحانه بصورة أو بأخرى كالذين يسبون الدهر ويعيبون الزمان، وما الدهر إلا سنة الله القائمة فيه، وما

---

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص٢٢٢.

الزمان إلا وعاؤها! إنما هم المسؤولون، وقد جاء التسبيح عند ذكر الذنب كما في قوله سبحانه: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ولعل حكمة ذلك ألّا نُلقِيَ اللوم على الله سبحانه، وهكذا نسبح الله لكيلا نظن به جورا تعالى ربنا عن ذلك عُلوًّا كبيرا، فنعود إلى أنفسنا ونحرِّضها على العمل لنصبح من أصحاب اليمين بحوله وقوته. نسأل الله أن يوقظنا من سبات الشهوات وغفلة الأهواء، ويوفقنا للعمل الصالح، وينزلنا منزلة المقربين. إنه سميع الدعاء.



سورة الحديد

* مدنية.
* عدد آياتها: ٢٩.
* ترتيبها النزولي: ٩٤.
* ترتيبها في المصحف: ٥٧.
* نزلت بعد سورة الزلزلة.

فضل السورة

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ الْمُسَبِّحَاتِ كُلَّهَا قَبْلَ أَنْ يَنَامَ (يعني السور التي فاتحتها التسبيح مثل الحديد والتغابن والحشر والجمعة) لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُدْرِكَ الْقَائِمَ، وإِنْ مَاتَ كَانَ فِي جِوَارِ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله».

(الكافي: ج٢ ص٦٢٠)

***

عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ الْمُسَبِّحَاتِ وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً هِيَ أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ آيَةٍ..».

(بحار الأنوار: ج٨٩ ص٣١٢)

الإطار العام

ترتكز أغلبية آيات السورة حول محورين رئيسيين:

الأول: الإنفاق في سبيل الله، من دون تحديد نوع منه، فقد يتحقق بالإنفاق من النفس أو من المال أو من أي شيء آخر. ويحرضنا الذكر الحكيم على ذلك من خلال منهج واقعي ونافذ هو:

١- أن الله هو المالك الحق لكل شيء، وله الولاية التامة خلقا وقدرة وعلما وتدبيرا، وأنه الذي يحيي ويميت وإليه ترجع الأمور، أما نحن فلسنا سوى مستخلفين من قبله فيما ملّكنا، فلا ينبغي أن نرفض أمره بالإنفاق، إذ إنه هو المالك الحق.

٢- والإنفاق هو الشاهد الصادق على التزام الإنسان بالميثاق، ذلك الميثاق الذي أخذه الله عليه في عالم الذر.

٣- ولماذا يبخل الإنسان بالمال وهو لا يبقى له؟! فإما يرحل عنه أو ينتقل إلى غيره. بلى، قد يُستخلف فيه برهة من الزمن، ولكنه يموت عنه كل أهله ليعود إليه تعالى.

٤- ثم إن الإنفاق لا يزيد الله شيئا وهو الغني الحميد، إنما النفع والضرر يعودان على الإنسان نفسه، فهو إن أنفق نما ماله، وبنى مجتمعه، وصار إلى ثواب الله ورضوانه، أما إذا بخل فلن يحصد إلا التلف، والتخلف في الدنيا، وألوان العذاب في الآخرة.

وتعالج السورة أيضا قضايا تتصل بالإنفاق.

الثاني: العدالة الاجتماعية بوصفها هدفاً تنزلت له جميع رسالات الله، وسعى من أجله كل الأنبياء والأولياء، كما ينبغي أن يتحرك لتحقيقه كل المؤمنين الرساليين، ولا تقوم العدالة إلا

بالقائد الصالح (رسولاً أو وليًّا)، والنظام الصالح في البعد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والتربوي، وبالميزان الذي يشخص المخطئ من المصيب، وبالسلاح المنفذ للنظام.

وهناك علاقة وثيقة بين محور العدالة والإنفاق في السورة يتمثل في أن الإنفاق في سبيل الله يساهم بصورة فعالة في إقامة العدالة ونصرة الحق. أَوَليس قام الإسلام بسيف علي ومال خديجة؟.

ومن هذا المنطلق نهتدي إلى أفضلية الإنفاق والقتال قبل الفتح على الذي بعده.

إن الحركات الرسالية تنشد العدالة وإقامة الحق، والأمة مسؤولة أن تتحمل مسؤوليتها الحاسمة في دعمها والوقوف إلى صفها بالإنفاق ونصر الله ورسله وأوليائه على الظالمين.

له ملك السماوات والأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾.

هدى من الآيات:

في فاتحة سورة الحديد التي تأمرنا بالإنفاق لتحقيق العدالة التي هي هدف رسالات الله، يذكرنا القرآن أن ما في السماوات والأرض يسبح لله (فلا يجوز أن نقدس شيئا منها) فهو العزيز الحكيم المالك للسماوات والأرض (وهو غني عن إنفاقنا، ونحن المستفيدون من العطاء) وهو الأول بلا أول كان قبله، والآخر فلا يتغير بالأزمنة سبحانه، والظاهر على كل شيء بالغلبة، والباطن العليم بكل شيء.

وقد خلق السماوات والأرض في ستة أيام، شهادة على كمال قدرته، وواسع علمه، وحسن تدبيره، وأنه المهيمن على حركة الأشياء وتطورها، فهو يعلم ما يدخل في الأرض من الغيث والمواد والأشعة، وما يخرج منها من الأبخرة والنبات، وما ينزل من السماء من رحمته عبر

ملائكته، وما يعرج فيها من ملائكة وأعمال ونيات، وهو مع خلقه أنى كانوا.

وهو المالك الحق للسماوات والأرض، وإليه ترجع الأمور، فهو المقدر المدبر وإليه المصير، وآية تدبيره توالج الليل والنهار في الصيف والشتاء وعلمه بذات الصدور.

كل ذلك يحملنا على الإنفاق في سبيل الله، وهو موضوع الدرس التالي.

بينات من الآيات:

[١] إن للكائنات شعورا يسبحن عبره بحمد ربهن، كل بقدره وبلغته، إذ سواء وَعَيْنَ ذَاتَهُنَّ أو بَصُرْنَ آفاق الخلق فهن يرين تجليات الرب، وبعجز ذاتها تستدل على قدرته تعالى، وبزوالها تستدل على بقائه سبحانه، وبحدوثها تستهدي إلى أنه القيوم الذي لم يزل ولا يزال ولن يزول، وأما عن الآفاق فهي أنى رمت ببصرها ترى آثار خلقه وتدبيره تعالى، لذا فالخلق كلهم ينزهونه عن النقص والعيب.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنه تسبيح قديم قدم كل مخلوق، إذ يبدأ معه منذ اللحظة الأولى لنشأته بواسطة الله من بعد العدم، ولكن كيف تسبح الأشياء ربها؟!.

نتصور لذلك معنيين:

الأول: أن خلقة كل شيء تهدي إلى نقصه وعجزه ومحدوديته، وذلك بدوره شاهد صدق على كمال خالقه وقدرته وتعاليه عن الحد والقيد، وبالتالي شاهد صدق على أنه سبوح قدوس متعال منزه عن أي نقص وعجز وتحديد.

الثاني: أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل لكل شيء إحساس بقدره يعرف به الخالق، ولغة مخصوصة يعبر بها عن معرفته، فإذا به يسبح له.

ونحن بنظرنا وتفكُّرنا نهتدي إلى التسبيح بالمعنى الأول، ولكننا نَقْصُر عن فهم المعنى الثاني، يقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال يحدثنا عن حضارة داود عليه السلام: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، والخلق كلهم متساوون تكوينيًّا في التسبيح لله، وإنما يتفاوتون ويختلفون في النوع الآخر، وإن أحدا لا يستطيع أن ينكر وجود شعور ولغة عند كل شيء، فما أوتينا من العلم إلا قليلا، وجهلنا لا يُغَيِّر من الواقع شيئا، فنحن لا زلنا في الخطوة الأولى من طريق ذي آلاف الأميال في مسيرة العلم والمعرفة، قال ربنا

سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، ويكفينا عقلا وحكمة أن نعترف بأن ما لا نحيط به علما قد يكون موجودا فلا نعادي ما نجهل.

ولسنا بحاجة إلى تأويل ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليتصرف إلى ما يعقل، وذلك لأنه يخالف ظاهر اللغة العربية التي اعتبرت ﴿مَا﴾ لغير العاقل، وما دام الوجود كله يسبح لله فإن عدم تسبيح الإنسان يعد تخلفا عن عهده التكويني الفطري مع ربه، وشذوذا عن واقع الكائنات.

إن من مشاكل البشر أنه ينبهر بالطبيعة أو بجانب منها، فإذا به يتخذ ما فيها إلها، ويغتر بما فيها من ظاهر الزينة والقوة والإبداع، ولو تدبر فيها مليًّا لعرف أنها هي الأخرى تسبح بحمد ربها، فكيف يتخذها شريكا لبارئها، بل وتتأذى الطبيعة حينما يعبدها أحد من دون الله، ففي الأخبار أن البقر نكست رؤوسها منذ عبدها الناس عندما أضلهم السامري، ولعله لذلك جاءت خاتمة الآية الكريمة تذكيرا بعزة الله وحكمته ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إنه كذلك سواء سبحه الخلق أو لم يسبحوه، فهو بذاته عزيز لا يزيده التسبيح عزا، وحكيم تتجلى حكمته في النظام الدقيق الذي فطر عليه خلقه وحكمه به، كما تتجلى في تدبيره لشؤونه المختلفة، وليس بحاجة إلى الاعتراف من قبلنا بحكمته سبحانه، كما لا تنصرف هاتان الصفتان إلى غيره لو اعتقدنا بألوهيته، ولعل الحكمة من بيان هاتين الصفتين أن الله لا يدبر الكائنات بقوته وحسب، بل بالحكمة أيضا، وأنه يحق للكائنات أن تُسبِّحه لأنه تعالى مهيمن عليها بالقوة والحكمة فهو أهل لذلك.

[٢] وتتصل الآيات ببعضها حتى الآية السادسة تعرفنا بربنا عز وجل من خلال صفاته وأسمائه وأفعاله التي تتجلى في الخليقة والتي تهدينا إلى أنه يجب علينا تسبيحه، وإنما يشرك الإنسان بربه لجهله به تعالى، أما إذا عرف عظمته وهيمنته المطلقة على الخليقة فسوف تنسف تلك المعرفة كل الأفكار والعقد الشركية لديه، إننا نشرك ببشر أمثالنا لأنهم أعطوا شيئا من الملك والقوة، ويحجبنا ذلك عن الإله الحق، بلى؛ إنهم قد يملكون رقعة من الأرض وبعضا من النعيم، أو يكون لهم سلطان على الناس، ولكن ذلك كله محدود، لا يصيرهم آلهة، ولا يقاس بما عند الله.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما فيهما، وهو حقًّا ملك واسع مطلق وحقيقي، أما تَملُّك الناس للأشياء فهو اعتباري محدود زمنا لأنهم يموتون عنها، ومحدود كمًّا لأنه قليل جدًّا بالنسبة إلى ملك الله الذي ينضوي تحته كل الوجود، ومحدود كيفاً لأن قدرتهم على التصرف فيه محدودة، ولله الملك المطلق والقدرة اللامحدودة، والتي من مظاهرها الإحياء والإماتة ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾

كيف يشاء، ومتى أراد، لا يمنعه عن ذلك مانع أبدا، وليس لسواه هذه القدرة في الملك، والهيمنة عليه. وما دامت حياة الإنسان بيد الله فهل هو المالك أم الله؟ وكيف يملك شيئا من لا يملك حياته. أوليس الإنسان يملك ما يملك بحياته التي تمكنه من الحركة والتصرف؟.

ومع أن الحياة والموت من أبرز مظاهر الملك والهيمنة الإلهية على الخلق، إلا أن قدرته تعالى ليست محدودة في ذلك حسب، بل هي مطلقة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أما نحن فلا نستطيع أن نفعل كل شيء وكيفما نشاء فيما نملك.

[٣] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ لم يكن مثله أحد فهو أزلي، وحيث تأخر الوجود عنه فهو محدث من صنعه عز وجل، وتتجلى هذه الحقيقة مرة أخرى حيث يصير الخلق إلى العدم ويبقى وجهه تعالى، ولأنه الأول فهو الذي أحيا الخلق وأوجده، ولأنه الآخر فهو الذي يميته بقدرته وحكمته، كما أنه الظاهر بلا خفاء، فالوجود كله آيات تهدينا إليه، لأنه القاهر فوق عباده.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ظاهر بأسمائه وصفاته وتجلياته في الوجود، تدرك ذلك حواس الإنسان، ويراه قلبه وعقله، وهو باطن بذاته التي لا يعلم كنهها أحد من خلقه، ولكن ذلك لا يعني أنه غائب عن الخلق، بل إن علمه نافذ إلى أعماق كل شيء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سعة علمه كسعة قدرته، وتكفي هذه الآية تحسيسا للإنسان بشهود ربه، وردعا له عن اقتحام المعصية. وهناك صلة بين الآيتين ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بالآية ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالعزة بالقدرة المطلقة، والحكمة بالعلم المطلق، الذي هو أبرز جوانبها ومقوماتها، وربنا بعلمه يقدر ويقضي، وبقدرته يمضي ما قضاه.

وروي عن الإمام الرضا عليه السلام وهو يبين أن الكلمات تشترك بيننا وبين ربنا اشتراكا لفظيًّا لا معنويًّا، ويستعرض بعض أسماء الله التي تختلف معانيها عما يوجد عندنا من أمثالها، إلى أن قال في معنى الظاهر والباطن: «وَأَمَّا الظَّاهِرُ فَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَلَا الأَشْيَاءَ بِرُكُوبٍ فَوْقَهَا وقُعُودٍ عَلَيْهَا وتَسَنُّمٍ لِذُرَاهَا، ولَكِنْ ذَلِكَ لِقَهْرِهِ ولِغَلَبَتِهِ الأَشْيَاءَ وقُدْرَتِهِ عَلَيْهَا، كَقَوْلِ الرَّجُلِ: ظَهَرْتُ عَلَى أَعْدَائِي وأَظْهَرَنِي اللهُ عَلَى خَصْمِي؛ يُخْبِرُ عَنِ الفَلْجِ والغَلَبَةِ، فَهَكَذَا ظُهُورُ اللهِ عَلَى الأَشْيَاءِ.

ووَجْهٌ آخَرُ أَنَّهُ الظَّاهِرُ لِمَنْ أَرَادَهُ ولَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وأَنَّهُ مُدَبِّرٌ لِكُلِّ مَا بَرَأَ فَأَيُّ ظَاهِرٍ أَظْهَرُ وأَوْضَحُ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى؛ لِأَنَّكَ لَا تَعْدَمُ صَنْعَتَهُ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ، وفِيكَ مِنْ آثَارِهِ مَا يُغْنِيكَ، والظَّاهِرُ مِنَّا البَارِزُ بِنَفْسِهِ والمَعْلُومُ بِحَدِّهِ، فَقَدْ جَمَعَنَا الِاسْمُ ولَمْ يَجْمَعْنَا المَعْنَى.

وأمّا الباطِنُ فَلَيْسَ عَلَى مَعْنَى الاِسْتِبْطَانِ لِلأَشْيَاءِ بِأَنْ يَغُورَ فِيهَا ولكِنْ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى اسْتِبْطَانِهِ لِلأَشْيَاءِ عِلْماً وحِفْظاً وتَدْبِيراً، كَقَوْلِ القَائِلِ: أَبْطَنْتُهُ يَعْنِي خَبَّرْتُهُ وعَلِمْتُ مَكْتُومَ سِرِّهِ، والبَاطِنُ مِنَّا الغَائِبُ فِي الشَّيْءِ المُسْتَتِرُ وقَدْ جَمَعْنَا الاسْمَ واخْتَلَفَ المَعْنَى»[1].

وقال ابن أبي يعفور: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ وقُلْتُ: أَمّا الأَوَّلُ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ وأَمّا الآخِرُ فَبَيِّنْ لَنَا تَفْسِيرَهُ، فَقَالَ عليه السلام: إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا يَبِيدُ أَوْ يَتَغَيَّرُ أَوْ يَدْخُلُهُ التَّغَيُّرُ والزَّوَالُ أَوْ يَنْتَقِلُ مِنْ لَوْنٍ إِلَى لَوْنٍ ومِنْ هَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ ومِنْ صِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ ومِنْ زِيَادَةٍ إِلَى نُقْصَانٍ ومِنْ نُقْصَانٍ إِلَى زِيَادَةٍ إِلَّا رَبَّ العَالَمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ ولَا يَزَالُ بِحَالَةٍ وَاحِدَةٍ هُوَ الأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وهُوَ الآخِرُ عَلَى مَا لَمْ يَزَلْ، ولَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ والأَسْمَاءُ كَمَا تَخْتَلِفُ عَلَى غَيْرِهِ مِثْلُ الإِنْسَانِ الَّذِي يَكُونُ تُرَاباً مَرَّةً ومَرَّةً لَحْماً ودَماً ومَرَّةً رُفَاتاً ورَمِيماً وكَالبُسْرِ الَّذِي يَكُونُ مَرَّةً بَلَحاً ومَرَّةً بُسْراً ومَرَّةً رُطَباً ومَرَّةً تَمْراً فَتَتَبَدَّلُ عَلَيْهِ الأَسْمَاءُ والصِّفَاتُ واللهُ جَلَّ وعَزَّ بِخِلَافِ ذَلِكَ»[2].

[٤] ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فالخلق آية على عزته وقدرته، والتقدير ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ آية لعلمه وحكمته، ومرة أخرى نطرح هذا التساؤل: لماذا خلقها في ستة أيام، وهو القادر على خلقها في أقل من لحظة ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]؟ قد سبق في سورة الأعراف[3] أن ذلك قد يدل على سنة التكامل في الخليقة حيث يبارك الله فيها وينميها طورا فطورا، يوما فيوما، لحظة بلحظة، مما يجعل لعامل الزمن تأثيرا كبيرا في العالم، وبتعبير آخر: الأيام الستة هي ظرف المخلوق، ولا بد أن نعرف المخلوقات من خلال ظرفها الزمني حيث نستلهم ذلك من قوله سبحانه: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: ٨] مما يوحي بأن الأجل المسمى مساوق للحق في أنه جزء من حقيقته، والله العالم.

كما أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام أصدق دلالة وأوضح شهادة على التقدير والتدبير، وفي ذلك تفنيد لشبهة القائلين بالصدفة، فإن كان أصل الوجود صدفة فكيف يكون تدبير أمرها وتكميل مسيرتها صدفة؟! وبتعبير آخر: عملية الخلق مستمرة وهي شاهدة على الخالق سبحانه.

---

(١) الكافي: ج١، ص١٢٢.

(٢) الكافي: ج١، ص١١٥.

(٣) راجع تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وربنا حيث خلق الخلق لم يعتزله أو يتركه سدى، إنما جعله تحت تدبيره ورعايته، بلى؛ لقد أركز فيه سننا وأنظمة حاكمة، بل وقدَّر فيه كل شيء من قبل أن يبرأه، ولكن كانت له اليد العليا والبداء، لحاجة الخلق إليه، ولأن كل شيء وحتى القوانين والسنن لا يقوم إلا به تعالى، وهكذا استوى على العرش ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو رمز القدرة والملك والتدبير، خلق من أنوار أربعة[1]، يحمله ثمانية من المقربين[2]، وإليه يستوي الملائكة يتلقون أوامر الله لهم، واستواء الله عليه يعني سلطته، وأنه يهيمن على الخليقة ويدبرها، ولكن ليس تدبيراً اعتباطيًّا، بل حكيماً قائماً على أساس علمه بكل شيء ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، و﴿مَا﴾ تدل على الإطلاق، أي كل شيء يلج في الأرض من الغيث والأشعة والمواد، وكذلك كل شيء يخرج منها من النبات، وكذلك كل شيء ينزل من السماء أو يصعد إليها من ملائكة الله وأعمال العباد.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في بر أو بحر، ظاهرين أو مستورين، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧] وربنا ليس فقط عليم بظاهر خلقه، بل هو بصير أيضا بباطنهم، ينفذ علمه إلى لطائف الأمور ومغيباتها ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم ظاهر العمل، كما يبصر صاحبه، ويعلم الدوافع الحقيقية عنده، فقد يكون ظاهره الصلاح ولكن باطنه الرياء وحب الشهرة والمصلحة، ويكفي بهذه الآية أن تدفعنا إلى المزيد من العمل الصالح، والسعي نحو المزيد من الإخلاص والإنفاق، فإن مصائرنا رهينة أعمالنا، وناقد أعمالنا بصير بصير. نعم. قد نخدع الناس أو نخدع أنفسنا بمظاهرنا وحسن أعمالنا، ولكن هل نخدع الله؟! كلا..

[٥-٦] وهذه الآيات تعتبر تمهيدا للحديث عن الإنفاق، لانها تعرفنا ربنا عز وجل من خلال صفاته الحسنى، ومنها الغنى، فهو حيث يدعونا إلى الإنفاق فليس ليربح علينا بل لنربح عليه، إذ لا يزيده إنفاقنا شيئا.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فما عسى أن يزيد إنفاقنا في ملكه؟! بل إنفاقنا لا يكون إلا في جزء من ملكه استخلفنا فيه، فهو إما من الأرض، أو من السماء، والمالك الحقيقي هو الذي خلقهما، ثم إن ظاهر الأمور بأيدينا مما يوحي بأننا نملك ناصيتها، إلا أن واقعها بيد الله فإليه ترجع الأمور، وكم يدبر العبد أمرا ينقضه تدبير الله؟ وكم يُقدِّر شيئا يقيله منه أمر الله؟.

---

(١) الكافي: ج١، ص١٢٩.
(٢) قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ونهتدي من هذا المقطع إلى أن المالك الأول هو الله حين ابتدع كل شيء ابتداعا، وخلقه بعد العدم، وأنه المالك في المستقبل، وهو المالك الآن، لأنه الأحد، العالم بكل شيء، كما أنه القادر على التصرف فيه كيف ومتى شاء. إنه الذي يميت ويحيي، ولك أن تلقي ببصرك في آفاق الخليقة ابتداء من نفسك لترى آثار الحكمة والتدبير الإلهي المنطبعة في كل شيء، بل؛ قد تنكر دور الإرادة الإلهية في دقائق حياتك، زاعما أنك الذي تصنع كل شيء فيها، ولكن من الذي يحرك ملايين المجرات السابحة في الفضاء بهذا النظام الدقيق؟ ومن الذي يبدل الفصول والليل والنهار؟ إنه الله.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فإذا ولج أحدهما في الآخر أخذ منه واستطال عليه، وهذا التناقص والتزايد المستمر والمتقابل في الحركة اليومية للأرض حول نفسها وبسبب حركتها حول الشمس ينتهي إلى تبدل الفصول، فإذا بالليل يلج في النهار إلى الأقصى في منتصف الشتاء، ويلج النهار إلى الأقصى في منتصف الصيف، ويتعادلان في الربيع والخريف تقريبا.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إن علمه لا يقف عندما يظهره الإنسان دليلا على ما في قلبه، وعلامة على نيته، إنما ينفذ إلى ذات الصدور نفسها، ولعل سائلا يقول: ما هي العلاقة بين شطري الآية، أو بتعبير آخر: ما هي علاقة إيلاج الليل في النهار والعكس بعلم الله ما في الصدور؟.

والجواب: أن الاثنين يحتاجان إلى اللطف والعلم والحكمة، ثم إنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن، فتدبيره لشؤون الكون لا يصرفه عن علم أدق الأمور، إنما يهيمن على كل شيء، وذلك يسير على الله.. كما تحتمل الآية ردًّا على الذين قالوا: أن الله تفرَّغ للأمور الكبيرة كحركة الكواكب والأرض وفوَّض سائر الشؤون إلى خلقه.

آمنوا باللّه ورسوله وأنفقوا

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ (١) مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ (٢) وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

---

(١) نقتبس: نستضيء، والاقتباس أخذ النار، ويقال: قبسته ناراً واقتبسته علماً.

(٢) تربصتم: أي تربصتم بالمؤمنين الدوائر، وقيل: لم تسارعوا في إطاعة أوامر الله لأن التربص الترقّب والانتظار.

هدى من الآيات:

توجهنا هذه الآيات إلى الإيمان بالله وبالرسول، وتأمرنا بالإنفاق باعتباره من أعظم ثمرات الإيمان، ولما فيه من الأجر الكبير، وهو محك الميثاق الذي أُخِذَ من كل الناس في عالم الذر، وهو بند من بنود العهد الذي قطعه المسلم على نفسه عند بيعته للقيادة الرسالية.. ولا يحدد القرآن نوعا من الإنفاق بذاته، وإن كان الظاهر هو إنفاق المال، كما لا يدعو إلى كمية معينة من الإنفاق، لأن الأهم الكيف وليس الكم، لذلك نجد تفريقا بين الإنفاق استجابة لأمر الله ودعوة الرسول إذا كان قبل الفتح وإذا كان بعده، والتأكيد على أن الأول هو الأفضل عند الله، لأنه الأصعب، إذ يتعرض المؤمن يومئذ لكثير من الصعاب كضغط السلطة التي تعتبر الإنفاق من أجل الحق جريمة تستحق العقاب، وضغط المجتمع المثبط الذي يعتبره مغرما وسفها، أما بعد الفتح فتنتفي الكثير من الضغوط، وربما يصير الإنفاق بابا إلى الشهرة.

وتأكيدا على النوع في الإنفاق يدعونا ربنا إلى قرض حسن في سبيله، لا لحاجة منه إليه، وإنما لكي يرده علينا أضعافا مضاعفة في الدنيا، وليجعله نورا في الآخرة وثوابا وفوزا عظيما.

ثم ينقل لنا الوحي مشهدا من الآخرة، حيث المؤمنون والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم التي مدوها بالإنفاق والقرض الحسن في سبيل الله، فهم في نعيم الجنة خالدون، في حين يتخبط المنافقون الذين بخلوا أو أنفقوا لغير وجهه تعالى في ظلمات وعذاب مقيم، وهنالك لا يقبل منهم فدية في مقابل الخلاص من العذاب، ولو كان قدرها ملء الأرض ذهبا، وقد كان بإمكانهم أن يعتقوا أنفسهم من جهنم بإنفاق حسن محدود في الدنيا لوجه الله وطاعة لرسوله وأوليائه، لكنهم فتنوا أنفسهم وتربصوا وارتابوا وغرتهم الأماني وخدعهم الشيطان.

بينات من الآيات:

[٧] بعد أن عَرّفنا ربنا نفسه من خلال صفاته كالقدرة على كل شيء، والعلم بكل شيء، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن، وأنه الخالق الذي له الملك الواسع وبيده التدبير، يدعونا إلى الإيمان به تعالى، معتبرا ذلك أساسا للإيمان. أوليس الإيمان الحق هو الذي يقوم على المعرفة؟.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ ﴾ يسأل البعض: هل الخطاب موجه إلى المؤمنين فهو تحصيل حاصل لأنهم مؤمنون، أم هو موجه لغير المؤمنين فهو غير جائز لأن الأمر يلزم المؤمن فقط؟!.

والجواب:

أولاً: إن الإيمان درجات فيصح أن يكون الخطاب للمؤمنين يدعوهم إلى درجة أرفع من الإيمان، والإنفاق المأمور به في الآية هو أحد درجات الإيمان، فليس كل المؤمنين منفقين.

ثانياً: إن الأمر بالإيمان والإنفاق قائم وملزم حتى لغير المؤمن، فإن كان مسلما لما يدخل الإيمان قلبه فدعوته لذلك جائزة، ولو افترضناه كافرا فهي قائمة وملزمة أيضا، فهذا رسول الله ﷺ يدعو الكافرين والمشركين إلى التوحيد بما اشتهر عنه: «قُولُوا لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا»[1]، فلا يعني ذلك أن أمره ﷺ قبيح، ولا أن دعوته غير ملزمة، فالأمر حينما يكون عقليًا يلزم كل ذي عقل، وحينما يكون شرعيًا يلزم كل من بلغته الحجة ولو لم يذعن، والدليل إلى ذلك توعد الله المخالفين لأوامره بالعذاب، والأمر بالإيمان -ومن ثم الإنفاق- يتسم بالعقلانية، كما هو مقتضى الشريعة.

وإذا كانت المعرفة مرتكز الإيمان فإن الإيمان مرتكز الإنفاق، إذ لا قيمة لإنفاق بغير إيمان، ولغير وجه الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦-١١٧]، والإيمان ليس يوجه الإنفاق إلى أهدافه الصحيحة، ويجعله ضمن منطلقاته ودوافعه المطلوبة وحسب، بل هو الذي يعطي الإنسان الإرادة والقدرة على تجاوز حرص النفس وشحها وسائر الضغوط والحوافز المعاكسة، فالمؤمن يعطي في سبيل الله لاعتقاده بأن ذلك يؤدي إلى النماء، وإلى الجنة، وإلى رضوان الله وهو الأهم، فلا يعتبر إنفاقه خسارة، بل هو ربح في الواقع والمستقبل، ثم هب أنه لم يحصل على نماء في الدنيا فإنه سوف يجد أجرا كريما في الآخرة.

ومن الحوافز الموضوعية إلى الإنفاق بالإضافة إلى الإيمان هو المعرفة الراسخة بأننا لا ننفق من عند أنفسنا، إنما ننفق من ملك الله الذي استخلفنا فيه، فلماذا الشح ما دام الأمر بالإنفاق هو المالك؟ لذلك يؤكد القرآن قائلا: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ وقد قيل في ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ معنيان:

الأول: أن الإنسان يأتي خلفا لسلف في الملك، فيكون المعنى: أنفقوا من قبل أن يستخلف الله أحدا غيركم بإماتتكم، أو نقل مالكم إليه.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٠٢.

الثاني: إنكم لستم المالك الحقيقي بل الله، وإنما أذن لكم بالتصرف فيه، وخوّلكم صلاحية العمل فيه، كما لو كنتم خلفاءه فيه، وكلا المعنيين سواء في التحريض على الإنفاق، ولكن الأول أظهر لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أما الذي يؤمن ولا ينفق فإن كان امتنع عن الإنفاق الواجب فله العذاب، وإن كان مستحباً فإن أجره لن يكون كأجر المنفقين.

[٨] ولماذا يرفض الإنسان الإيمان بربه وهو الذي خلقه ويرزقه ويرعاه؟!.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ وهذه الدعوة ليست بدعة ولا باطلا، إنما تتفق مع الحق المودع في فطرة كل خلق منذ عهده مع ربه. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٤].

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم أعطيتم الميثاق الأول بالطاعة لله وللرسول فأنفقوا.

قال البعض: إن ميثاق عالم الذر لا يصلح للتحريض، لأننا لا نتذكر ذلك الميثاق.. فكيف يكون حجة علينا؟. قال عطاء ومجاهد والكلبي والمقاتلان: يريد حين أخرجهم من ظهر آدم، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، ورد عليهم الفخر الرازي: «وهذا ضعيف، وذلك لأنه تعالى إنما ذكر أخذ الميثاق ليكون ذلك سببا في أنه لم يبق لهم عذر في ترك الإيمان بعد ذلك، وأخذ الميثاق وقت إخراجهم من ظهر آدم غير معلوم للقوم إلا بقول الرسول (ومضى يرد على رأيهم حتى قال): فعلمنا أن تفسير الآية بهذا المعنى غير جائز»[1]، والحال أن الله لم يأخذ الميثاق ويشهد بني آدم على أنفسهم إلا لكي يستأديه في يوم من الأيام عبر رسله وأوليائه وحججه، وهو مودع في قلوبهم بصورة معرفة وإيمان فطري، والشاهد المتقدم من سورة الأعراف ظاهر وظهير لهذا المعنى. ويحتمل أن يكون معنى الإيمان هو الجانب العملي منه المتمثل في الإنفاق، فيكون المعنى: إن كنتم مؤمنين حقًّا استجيبوا لدعوة الرسول بالإنفاق. وقال البعض: إن معنى الآية: آمنوا إن كنتم ممن تكفيه هذه الشواهد.

---

(١) تفسير الرازي: ج٢٩، ص٢١٧.

[٩] ومرة أخرى نتساءل: لماذا يرفض الإنسان الإيمان، إنه ليس خسارة، بل هو ربح عظيم، لأنه يخرجه من الظلمات إلى النور، من ظلمات الظلم إلى نور العدالة، ومن ظلمات العقائد السخيفة التي تحجب العقل عن الحقائق إلى نور الحنفية السمحاء التي تثيره إلى معرفتها، ومن ظلمات العقد النفسية التي تسلبه لذة الحياة إلى نور الوعي، وكل ذلك يتم برسالة الله إلى الإنسان.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ القرآن يرسم لنا خريطة شاملة متكاملة وصحيحة لجوانب الحياة، ويحرر العقل والنفس من الأفكار الضالة والعقد. إنه يزكي النفس من الحسد والحقد وسوء الظن والشك، وهذه كلها ظلمات، وفي المقابل يزرع فيها الوئام والمحبة وحسن الظن والألفة، كما أن من أهم الظلمات التي تستهدف الرسالات الإلهية إخراج الناس منها هي الأنظمة الفاسدة التي تتسلط على رقاب الناس، وتمنع الأمة من التقدم، وعلى الناس أن يعلموا أن الإيمان الأصيل، والإنفاق الذي تدعوهم إليه القيادات والحركات الرسالية يهدف تحريرهم من تلك الظلمات إلى نور دولة الحق والعدل، وهذا لا شك يكلفهم شيئا من التضحيات، ولكن ليعلموا أنه في صالحهم ولخيرهم في الدنيا والآخرة. لأن الإيمان والإنفاق يستهدفان بناء مجتمع متحضر نفسيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا.. كل ذلك من رأفة الله ورحمته بعباده.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بلى، إن الإيمان يحملنا بعض المسؤولية، ونحتاج حتى نلتزم به أن نخالف أهواءنا، ولكنه ليس مَغْرَماً كما يتصوره البعض، فقد يطالبنا بالإنفاق ولكن ليس ليستنفع به الله سبحانه وتعالى، إنما ليعود النفع علينا نحن البشر، وذلك لأنه يزكي نفوسنا ويربينا، ويبني مجتمعاً متكاملاً قويًّا، ويُنمّي اقتصادنا، إضافة إلى كونه يسبب رضا الله وثوابه في الآخرة، وقد قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

ولنا أن نلمس حقيقة الرسالة، ورأفة الله ورحمته عن قرب، لو رجعنا إلى الوراء قليلا في الزمن لنقارن بين واقعين في تجمع واحد كان يعيش على شبه الجزيرة العربية، واقعه قبل الإسلام، وواقعه بعده، لقد كان قبله مجتمعا ضعيفا متمزقا عرضة للطامعين وعرضة للتناحر والحروب، فأصبح قويًّا مُتَّحداً ورمزاً للتحضر، وقال تعالى مشيرا إلى هذه النعمة العظيمة: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ

شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقالت فاطمة الزهراء عليها السلام تعكس محتوى هذه الآية وشبيهاتها: «ابْتَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ إِتْمَاماً لِأَمْرِهِ، وَ عَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، فَرَأَى الأُمَمَ فِرَقاً فِي أَدْيَانِهَا، عُكَّفاً عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا، مُنْكِرَةً للهِ مَعَ عِرْفَانِهَا، فَأَنَارَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ظُلَمَهَا، وَكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَهَا، وَجَلَا عَنِ الأَبْصَارِ غُمَمَهَا، وَقَامَ فِي النَّاسِ بِالهِدَايَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الغَوَايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمَايَةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ القَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، مُذْقَةَ الشَّارِبِ، وَنُهْزَةَ الطَّامِعِ، وَقَبْسَةَ العَجْلَانِ، وَمَوْطِئَ الأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتَاتُونَ الوَرَقَ، أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ، فَأَنْقَذَكُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي»[1].

[١٠] فلماذا لا يتبع البشر الآيات ويطبقونها إذا كانت تخرجهم من الظلمات إلى النور؟ هل الظلمة خير من النور؟! أم العذاب خير من رأفة الله ورحمته؟!.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كل نعمة هي أمانة بيد الإنسان، روحه وجسده وماله وكل شيء، ويأتي يوم تُسْتَرَدُّ هذه الأمانة منه لتعود إلى مالكها وهو الله، ليسأل كل واحد عن موقفه منها، ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[التكاثر: ٨]، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. ولماذا يمسك مال الله وأمانته دون أمره، أفلا يستحق بعدها الجزاء؟ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩]؟!.

وكما يختلف الإنفاق في سبيل الله عن الإنفاق لأغراض أخرى، بأن الأول مقبول مجزي عليه، والآخر مردود وربما معاقب بسببه، فإن الأول يتفاضل على بعضه أيضا، نظرا لمستوى إيمان صاحبه، وللظروف والمعطيات المحيطة به، فالذي ينفق قبل الفتح والانتصار لا شك أنه أعظم درجة وفضلا، وذلك لأسباب أهمها:

١ - سبقه إلى الحق والعمل الصالح، ولعل الكثير من اللاحقين إنما اهتدوا بسببه، فهو يصدق عليه حديث الرسول صلى الله عليه وآله: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ»[2]، كما أنه مصداق لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٩، ص٢٢٣.

(٢) الكافي: ج٥، ص٩.

٢- دوره في إقامة حكومة الله في المجتمع، وهو لا شك فضل كبير، والكثير من الإنفاق والقتال الذي يلي الفتح إنما بفضل الانتصار الذي ارتفع بسببه الحرج، وصلحت الظروف المضادة، والكثير من الناس مستعدون للإنفاق في ظل المجتمع المسلم أكثر من استعدادهم للإنفاق في ظل الحركة من أجل بناء المجتمع المسلم بالذات إذا كانوا يستضعفونها، ولعله لو لم ينبَرِ لدعم الرسالة أولئك السابقون ما كانت تقوم قائمة.

٣- لأن الإنفاق والقتال قبل الفتح أكثر صعوبةً وتحدِّيًا بالنسبة للإنسان، فقد يجر عليه الكثير من الويلات والمشاكل، إذا عرفه أعداء الرسالة كالأنظمة الفاسدة، ويكفيه فضيلة أنه يقاوم به في ظروف أكثر معاكسةً وتحدِّيًا، حيث الناس كلهم متقاعسون، والنبي ﷺ يشير إلى هذه الحقيقة إذ يقول: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ أَحْمَزُهَا»[1]. أما بعد الانتصار والفتح فقد يكون الإنفاق سبيلا إلى المجد الاجتماعي.

إن الإنفاق قبل الفتح يدل على عمق الإيمان، لأن على المنفق يومئذ أن يجتاز ثلاث عقبات: عقبة حب المال، وعقبة الضغوط السياسية، وعقبة التحديات الاجتماعية.. كذلك يكون إقدامه على القتال وإنفاقه نابعا حينها من روح إيمانية خالصة، وليس من اختلاط الدوافع والدواعي: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ ولكن لا ينبغي أن يكون هذا التفاضل سببا للتعالي عند فئة، ولا لليأس والإحساس بالضعة عند الأخرى، كما لا يعني أن اللاحقين لا حظَّ ولا فضل لهم، كلا.. ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ يعني الجنة والرضا والجزاء، ويؤكد القرآن في نهاية الآية أن التفاضل ليس لمجرد الانتماء إلى صفوف المجاهدين الرساليين قبل الفتح، ولا لعوامل ذاتية تنحصر في ذلك الجيل، كلا.. إنما التفاضل بالأعمال الصالحة التي يحيط بها علم الله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إذ لا يكفي أن يتفاخر الجيل السابق بأمجاده الغابرة، ويتوقف عن العمل اعتمادا على ذلك التفضيل، ولعل في هذه الخاتمة إشارة لطيفة إلى موقف الإسلام من صراع الأجيال، ففي الوقت الذي يعترف فيه بوجود الأجيال بل بتمايزها، لا يدعوها للصراع، بل يدفعها باتجاه الالتحام والتعاون والتسابق البنَّاء في ميدان السعي والعمل.

[١١] ويجادل البعض: ما دام لله ملك السماوات والأرض، وهو على كل شيء قدير، فلماذا يأمرنا بالإنفاق؟ ويقول ربنا عن مثل هؤلاء: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]، كل ذلك تبريرا لتخلفهم عن الحق، وسعيًا للتملص من المسؤولية، ولكن المؤمنين يدركون

(١) بحار الأنوار: ج٦٧ ص١٩١.

غنى الله، وأنه إنما فرض الإنفاق ليبتلي عباده ويستأديهم ميثاقه بالطاعة له. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، واسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، ولا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ ولَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ ولَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ، واسْتَقْرَضَكُمْ ولَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وهُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ، وإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، فَبَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ»[1].

نعم. إنه تعالى لا يحتاج إلينا، ولا لأحد من خلقه، وإن ما نملك من شيء فهو من فضله ورزقه، ودعوته لنا إلى الإنفاق في صالحنا، فبالإنفاق في سبيله نعالج مشاكلنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ونزكي أنفسنا، وفي الآخرة أجر وثواب عظيمان، فلنستمع لندائه، ولنستجب دعوته: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ إنه لا يريدنا أن ننفق كل أموالنا في سبيله، إنما يريد بعضها فالقرض هو الاقتطاع، ولعل في الكلمة إشارة إلى الصعوبة التي يواجهها الإنسان عند الإنفاق والتي تشبه القرض. أوليس يريد مخالفة هواه، وحبه للمال؟ إذن فليتحمل، وليعلم أنه في صالحه دنيا وآخرة.

وربنا لا يريد أي إنفاق، إنما الإنفاق الحسن، ولا يكون كذلك إلا إذا اشتمل على المواصفات التالية:

١ - أن يكون من المال الحلال.. روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أنه قال: «كَانَ القَوْمُ قَدْ كَسَبُوا مَكَاسِبَ سَوْءٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ فَلَمَّا أَسْلَمُوا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ لِيَتَصَدَّقُوا بِهَا فَأَبَى اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى إِلا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ أَطْيَبِ مَا كَسَبُوا»[2]، وفي رواية أخرى: أَنَّهُ سَأَلَ الصَّادِقَ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ فَقَالَ عليه السلام: «كَانَ النَّاسُ حِينَ أَسْلَمُوا عِنْدَهُمْ مَكَاسِبُ مِنَ الرِّبَا ومِنْ أَمْوَالٍ خَبِيثَةٍ فَكَانَ الرَّجُلُ يَتَعَمَّدُهَا مِنْ بَيْنِ مَالِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهَا فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ وإِنَّ الصَّدَقَةَ لا تَصْلُحُ إِلاّ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ وَلاَ يَقْبَلُ إِلاَّ الطَّيِّبَ»[4]، ولعل تأكيد الأحاديث

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٨٣.
(٢) الكافي: ج٤، ص٤٨.
(٣) وسائل الشيعة: ج٩ ص٤٦٦.
(٤) مجمع البيان: ج٩، ص٢٩٨.

والآيات على هذا الشرط لأن البعض يحاول تبرير مكاسبه الحرام، والالتفاف على الشرع بمختلف الحيل، كإنفاق بعضها في بناء المساجد والمؤسسات الدينية، والمساهمة في المشاريع الخيرية، ولكن ليعلم هؤلاء أن ذلك لا يخلصهم عن المسؤولية أمام الله، ولا يعود عليهم بالنفع.

٢- أن يكون مخلصا لوجه الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، وهذه سيرة أوليائه عليه السلام: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ⑧ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ⑨ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-١٠]، أما إذا انفق الإنسان تزلفاً إلى الطاغوت، أو طمعاً في منصب وقضاء حاجة لدى القيادة الرسالية، أو رئاء الناس ولهثا وراء الشهرة والسمعة، فهذا ليس قرضا حسنا، إنما هو سيئ يستوجب العقاب، لأنه قد يكون طريقا إلى الفساد والإفساد في المجتمع، وعلى القيادة الرسالية أن تتنبه لهذه النوعية من أصحاب الأموال، الذين يتظاهرون بدعم الحركة والدولة الإسلامية، ولكنهم في الواقع لا يريدون من وراء ذلك إلا بلوغ مصالحهم، والتغطية على أخطائهم وتلاعبهم بالاقتصاد والمجتمع، ولا ريب أن الكلام الحسن خير من هذا النوع من الإنفاق، وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٦٢ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ٢٦٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٢-٢٦٤]. قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «لَا تَزُولُ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعَةٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَ عَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَ عَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَ فِيمَا أَنْفَقَهُ، وَ عَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ»[1].

٣- أن يصيب الإنفاق موارده المشروعة، فيكون الإنسان أقرض الله بالفعل، بلى؛ ليس مطلوبا منه أن يفتش عن عقائد الناس ويحقق معهم، ولكن ينبغي له أن يعلم أين يضع ماله، وفي الخبر المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تزل قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسِ خِصَالٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»[2]، وقال الله عز وجل: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وقال الإمام الصادق عليه السلام:

(١) بحار الأنوار، ج٢٧، ص٣١١.

(٢) بحار الأنوار، ج٧٤، ص١٦٢.

«لَوْ أَنَّ النَّاسَ أَخَذُوا مَا أَمَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِهِ فَأَنفَقُوهُ فِيمَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ مَا قَبِلَهُ مِنْهُمْ، ولَوْ أَخَذُوا مَا نَهَاهُمُ اللهُ عَنْهُ فَأَنفَقُوهُ فِيمَا أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ مَا قَبِلَهُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْخُذُوهُ مِنْ حَقٍّ ويُنْفِقُوهُ فِي حَقٍّ»[1].

بالطبع الثواب يكون على النية، والإنسان مطالب أن يعمل بالظاهر، ولكنه إذا أخلص نيته وأصاب هدفه فهو أجزل ثوابا من الذي يُخلص ولا يُصيب، بالذات إذا كان ذلك بسبب الإهمال، فإن الإنفاق إذا أخطأ موارده قد يؤدي إلى حالات سلبية معاكسة اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا.

ومن أهم الموارد الإمام المعصوم ومن يخلفه في قيادة المجتمع المسلم أو التجمع الرسالي الذي يجاهد من أجل إقامة حكم الله، وتحرير البلاد والعباد من ربقة الظلم والفساد والتبعية، قال الإمام الصادق عليه السلام: **«إِنَّ اللهَ لَمْ يَسْأَلْ خَلْقَهُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ قَرْضاً مِنْ حَاجَةٍ بِهِ إِلَى ذَلِكَ، ومَا كَانَ للهِ مِنْ حَقٍّ فَإِنَّمَا هُوَ لِوَلِيِّهِ»**[2]، وفي روضة الكافي عن أبي الحسن الماضي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ (الآية) قال: **«صِلَةُ الإِمَامِ فِي دَوْلَةِ الفَسَقَةِ»**[3].

وتعلم الأمة أنها كلما دعمت الحركات الرسالية والقيادات الصالحة تقدمت نحو النصر، وساهمت في استقلال طلائعها المجاهدة، فهناك الكثير من المشاريع في طريق الجهاد والنصر تنتظر العون الذي يُصيِّرها واقعاً على الأرض، وزوجة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله خديجة بنت خويلد عليها السلام أسوة حسنة لنا. فلقد وهبت مالها للإسلام ابتغاء مرضاة الله، وجهادا في سبيله، وإذا كانت هذه المسؤولية تقع على الأمة فردا فردا، فإنها لا ريب تتركز عند الذين أنعم الله عليهم بالثروة، وهم مطالبون أمام الله والأمة والتاريخ أن يتحملوا مسؤوليتهم ويؤدوا واجبهم في الصراع الحاسم بين الباطل (ممثلا بالأنظمة الجاهلية) وبين الحق (ممثلا بالقيادات والحركات الرسالية الصادقة)، وليطمئن كل منفق أن انتصار الحق لن يكون في صالح الأمة فحسب، بل في صالحه هو شخصيًّا أيضاً، وأن المال الذي ينفق منه لن ينقص، بل سيبارك الله له فيه.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ في الدنيا. ويضرب القرآن مثلا لهذه المضاعفة إذ يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال الإمام علي عليه السلام: **«الصَّدَقَةُ تُنْمَى**

---

(١) وسائل الشيعة: ج٥، ص١١٩.
(٢) الكافي: ج١، ص٥٣٧.
(٣) الكافي: ج٨، ص٣٠٢.

عِنْدَ اللهِ تَعَالَى»[1]، ولا يقف الجزاء عند هذا الحد، إنما تعم البركة جوانب حياته، وتمتد إلى من حوله، وإلى الأجيال من بعده، قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا أَحْسَنَ عَبْدٌ الصَّدَقَةَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَحْسَنَ اللهُ الخِلَافَةَ عَلَى وُلْدِهِ مِنْ بَعْدِهِ»[2]، وكذلك يشمل الجزاء الآخرة، فيكون هناك أكثر وأفضل.

﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في مقابل شكر الإنسان لربه، وتصرفه الحسن في نعمه يشكره الله. ونحن نعلم كم تكون العطية كثيرة إذا امتدت بها يد الكريم من الناس، ولكننا لا نستوعب سعتها ونوعيتها إذا كانت من عند رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء!.

[١٢] وجزاء الله وأجره لا ينحصر في الدنيا، ففي الآخرة يكون الجزاء الأعظم والأعم. ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ لأنهم بعثوا أعمالهم الصالحة قبل أن يرحلوا إلى تلك الدار ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ التي ما برحت حتى الرمق الأخير تنفق في سبيل الله حيث تتحول صحيفة أعمالهم التي يحملونها بأيمانهم إلى نور وبشرى بالجنة، والنور هو تجلٍّ واقعي للأعمال الصالحة، والهدى الذي اتبعوه من آيات الرسالة التي تنزلت على الأنبياء، والإمامة الصالحة التي اختاروها وسلموا لها واتبعوا بصائرها، قال الإمام الباقر عليه السلام وهو يفسر الآية: «أَئِمَّةُ المُؤْمِنِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ تَسْعَى بَيْنَ يَدَي المُؤْمِنِينَ وبِأَيْمَانِهِمْ حَتَّى يُنْزِلُوهُمْ مَنَازِلَ أَهْلِ الجَنَّةِ»[3]، ولا غرابة في ذلك وربنا يصف نبيه بأنه نور وسراج منير ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]. وهذا النور موجود في الدنيا، ولكن الإنسان لا يراه بعينه، إنما يراه البصير بقلبه، وفي الآخرة يكشف الله عنه. ونهتدي من التدبر في المقطع ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ إنه ينبغي للمؤمن أن لا يكتفي بالنور الذي ينير له الطريق من الخارج، بل لا بد أن يكون بيده نور وعنده بصيرة الاستفادة من ذلك في الوقت المناسب.

ومن دقائق التعبير هنا قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دون أن يكتفي بذكر المؤمنين التي هي لغة القرآن الشاملة للجنسين، وذلك لكيلا تتصور النساء أن الإنفاق والجهاد في سبيل الله من وظائف الرجل وحده، كلا.. فهن مكلفات بقدرهن أيضا، ومن الخطأ أن تعتمد المرأة على ما يقدمه وليها أو أقرباؤها، فلكلٍّ عمله وسعيه، ونوره وجزاؤه يوم القيامة.

وحيث يتقدمون نحو الجنة ويعبرون الصراط تأتيهم البشارة من الله تحملها الملائكة.

(١) مستدرك الوسائل: ج٧ ص٢٠٢.
(٢) الكافي: ج٤، ص١٠.
(٣) الكافي: ج١، ص١٩٥، تفسير القمي: ج٢ ص٣٧٨.

وأي بشرى تلك؟ إنها عظيمة حقًّا ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ كثيرة ومختلفة، باختلاف الأعمال وقدرها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ وهذه من أفضل نعم الجنة، نعيم دائم وحياة أبدية. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ حيث الخلاص من جهنم، والوصول إلى أعظم تمنيات الإنسان ألا وهو الخلود، وكل إنسان يشعر في نفسه كم يُنغِّص الخوف من الموت والنهاية عيشه وسعادته، وقد ضمن الله الخلود للمؤمنين.

[١٣] أما المنافقون الذين لم يتبعوا الآيات البينات، ولم يسلموا للقيادة الرسالية والإمامة الصالحة، ولم يعملوا الصالحات كالجهاد والإنفاق، أو عملوا ذلك لغير الله، فهم يظلون في الظلمات والعذاب، ذلك أن هذه العوامل هي التي تخرج الإنسان من الظلمات ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وحيث لم يتمسكوا بها لم يخرجوا منها، هكذا يقول لهم المؤمنون.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي انتظرونا حتى نستضيء بنوركم ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وهذا لا يمكن، لأن الإنسان هو الذي يرسم مصيره بنفسه، و﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، فإنْ عَمِلَ الصالحات جنى النور والثواب، وإن عمل السيئات جنى الظلمة والعذاب، ثم إن الآخرة ليست محلاً ليستزيد فيها أحد عملاً، إنما الدنيا هي دار العمل، وهناك حساب ولا عمل، لذلك يأتيهم النداء أن عودوا إلى الدنيا ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ وهذه الآية لا تخص يوم القيامة، إنما تنفعنا في الدنيا أيضا، وذلك بأن نعلم أنها الفرصة الوحيدة التي يمكن فيها التغيير والرجوع عن الخطأ بالتوبة والعمل الصالح، وربنا ينقل لنا هذه الصورة من القيامة لنتصور واقع الحسرة فنسعى لاجتنابها ونحن في الدنيا، ولأن الآخرة دار الفصل فإن الله لا يدع للمنافقين فرصة للاختلاط بالمؤمنين، بلى؛ ربما استطاعوا في الدنيا أن يخفوا نواياهم وشخصياتهم الحقيقية، فتعايشوا وسط المجتمع المؤمن متطفلين، ينتفعون بظاهر الإيمان من مكتسبات الأمة، ويغتنمون الفرص ليحصلوا على مصالحهم ويحققوا أهدافهم، أما في الآخرة فلا يجدون طريقا إلى النفاق.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ من جهة المؤمنين، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي الباب ذاته فيه عذاب لكيلا يدنو منه المنافقون، وربما جعل الله في السور بابا لكي يلج منه التائبون، والمشفوع لهم بإذن الله، ومن تَطَهَّر بالنار من النفاق، فهناك من المنافقين من هو في أسفل درك وهؤلاء يخلدون في العذاب، وهناك من عندهم نِسَبٌ محدودة من النفاق يعذبون بسببها ثم يدخلون الجنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وإنما يؤكد الله هذه الحقيقة لتتبين لنا رحمته،

ولكيلا ييأس أحد من التوبة بعد التورط في الخطأ، ولو كان ذلك في مستوى النفاق.

[١٤] وبعد أن يُضرب السور بين الفريقين في الآخرة ينادي المنافقون المؤمنين، والنداء يختلف عن القول؛ بأن القول يعني المخاطبة عن قرب، أما النداء فهو المخاطبة عن بعد، أو من وراء حجاب وبصوت مرتفع يقصد به المنادي إسماع الطرف الآخر كلامه، ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ نداء استغاثة وحسرة: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، وهناك يجيبهم المؤمنون بما هو قول فصل:

أولاً: ببيان حقيقة الانتماء، بأنه ليس مجرد التشدق اللفظي، إنما يتحقق الانتماء بالعمل المتجانس، والخط المشترك، وهذا ما لم يتحقق في واقع المنافقين، لأنهم أوقعوا أنفسهم في الفتنة حين اجتنبها المؤمنون، وتربصوا حين أقدموا، وشككوا حين تيقنوا، واغتروا بالأماني حين سعوا، واستجابوا لنداء الشيطان حين استعاذوا منه، وامسكوا بخلا وأمروا الناس به حين أنفقوا.

وثانيا: ببيان مراحل التسافل والهلاك عند الإنسان، وهذه أوضح آية في القرآن من حيث ترتيبها بالتتالي، وهي:

المرحلة الأولى: الافتتان، والفتن لغويًا هو وضع المعدن كالذهب في النار، وسمي الابتلاء فتنة لأن الإنسان أثناءه يكتوي بنيران الحوادث والمتغيرات، ويواجه التحديات والضغوط الصعبة والحاسمة بعض الأحيان، والسؤال: كيف يَفْتِنُ الإنسان نفسه؟.

ونجيب: حينما يريد الإنسان أن يكون مخلصا لربه، بعيدا عن الضلالة والانحراف، يجب أن يتجنب مضلات الفتن ومظانها، فلا يدخل فيها ولا يتفاعل معها، إنما يكون كما نصح أمير المؤمنين عليه السلام: «كُنْ فِي الفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ وَلَا ضَرْعٌ فَيُحْلَبَ»[1]، فلا يسافر في البلاد التي تصرعه فيها الفتن، أو يقع فيها بيد الظالم، ولا يقرأ أو يتصفح الكتب والمجلات التي تضله، ولا يدخل في الصراعات السياسية والاجتماعية التي تضر بدينه، وقال الإمام علي عليه السلام: «لَا تَقْتَحِمُوا مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ الفِتْنَةِ، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا، وَخَلُّوا قَصْدَ السَّبِيلِ لَهَا»[2]، وهذا هو حال المؤمن. إنه يحتاط لدينه، ويمشي في الأرض كما يمشي المقاتل في حقل الألغام، أما المنافق والكافر الذي يبحث عن المغانم الدنيوية فإنه يقتحم الفتن، ويخوض فيها خوضا، لهثا وراء الدنيا، كما تبين الآية (٢٠).

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أدخلتموها في الفتنة بإرادتكم، بهدف اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر في حطامها وملذاتها، وهناك فرق بين من يتعرض للفتنة

---

(١) نهج البلاغة: حكمة ١.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٨٧.

عن غير إرادة ثم يتبع منهج الإسلام في التعامل معها أو يدخل نفسه ليقاومها، وبين من يدخل نفسه في الفتن بإرادته لا ليتحداها، إنما ليكون غرضا لها، ولتكون الدنيا والهوى غرضه من دخولها. ولعل الاغترار بالدنيا أظهر مصاديق فتن النفس، وفي الكلمة ظلال لمعنى أضللتم، تشابها مع قول الله لنبيه: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي يضلوك.

المرحلة الثانية: التربص ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بتسويف الالتزام بالحق، وانتظار التغيير في المستقبل، ذلك أن الإنسان مهما توغل في الانحراف ودخل في الفتن، فإن الله يبين له الحق ليقيم عليه الحجة ولو في لحظات، إما بيقظة الضمير أو بموعظة داعية، أو من خلال اصطدامه بمشكلة تنبهه إلى خطئه، ولكنه في الغالب لا يُلزم نفسه الحق مباشرة، إنما يُسوِّف التوبة، ويستمر في الفتنة حتى تفوته الفرصة، والإمام علي عليه السلام يحذر من هذه الحالة إذ يقول: «فَاتَّقَى عَبْدٌ رَبَّهُ نَصَحَ نَفْسَهُ وقَدَّمَ تَوْبَتَهُ وغَلَبَ شَهْوَتَهُ، فَإِنَّ أَجَلَهُ مَسْتُورٌ عَنْهُ وأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ والشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، ويُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا، فَيَا لَهَا حَسْرَةً عَلَى كُلِّ ذِي غَفْلَةٍ أَنْ يَكُونَ عُمُرُهُ عَلَيْهِ حُجَّةً، وأَنْ تُؤَدِّيَهُ أَيَّامُهُ إِلَى الشِّقْوَةِ»[1].

المرحلة الثالثة: الارتياب والشك ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ إن الله يبصِّر الإنسان بالحق، ويبين له الخطأ الذي هو عليه، فإن أقدم على التغيير اهتدى، وإلا فإن التربص يحوِّل يقينه إلى شك، والإمام علي عليه السلام يقول: «لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلًا ويَقِينَكُمْ شَكّاً، إِذَا عَلِمْتُمْ فَاعْمَلُوا وإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فَأَقْدِمُوا»[2]، والإنسان حينما يُقدم عمليًا على الالتزام بالحق تتعمق قناعته به، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وفي غير هذه الصورة يبدأ يشكك نفسه ليتخلص من وخز الضمير وملامة النفس اللوامة، فإذا نصحه إخوانه بالأوبة إلى هذه الصورة أخذته العزة بالإثم، وأنكر الحق، وقال كما قال الكافرون للذين آمنوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وهذه الصفة تنفي انتماءهم للمؤمنين لقوله تعالى بالحصر: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وادعاء المنافقين أنهم من المؤمنين ومعهم مجرد محاولة لإلصاق أنفسهم بهم والتخلص من العذاب، وإلا فهم لم يؤمنوا بالله ولا برسوله ولم يستجيبوا لدعوته المتمثلة في الآيات البينات المنزلة على رسوله صلى الله عليه وآله فبقوا في الظلمات.

المرحلة الرابعة: الاغترار بالأماني، ذلك أن الحق واضح مبين تتلاحق أمام الإنسان

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٦٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص٣٦.

آياته، وله ثقل عظيم على الواقع ومنافع لا تحصى، وينسجم مع فطرة الإنسان وسنن الله في الخليقة، والانحراف عن مثل ذلك يتطلب جهدا، ولا يكون إلا بوسائل، ومن وسائله الغرور بالأماني التي تتلاحق في وعي المنحرفين كشلال أسود لا يكاد المبتلى به يقدر على مراجعة قراراته والتدبر في عواقب أموره.

إن الشك والتردد إما يحسمه الإنسان باتجاه الحق من خلال التوبة والعمل، وإلا فإنه سيبقى على الباطل حتى يوافيه الأجل، وتضيع منه فرصة التغيير، بسبب الأماني التي ينفخ فيها الشيطان، كالتشبث بالقشور وبعض الأعمال الجانبية التي يسعى البشر لتبرير أخطائه الفادحة بها، ومن الأماني أيضا النظرة الخاطئة لغفران الله، والاعتماد على شفاعة الأولياء، ولذلك حذَّر أئمة الهدى شيعتهم من المنى، قال الإمام علي عليه السلام: «وسابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ بِالسُّورِ بِبَاطِنِ الرَّحْمَةِ وَظَاهِرِ الْعَذَابِ، فَتُنَادُونَ فَلَا يُسْمَعُ نِدَاؤُكُمْ وَتَضِجُّونَ فَلَا يُحْفَلُ بِضَجِيجِكُمْ»[1]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «تَجَنَّبُوا الْمُنَى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ بَهْجَةَ مَا خُوِّلْتُمْ، وَتَسْتَصْغِرُونَ بِهَا مَوَاهِبَ اللهِ تَعَالَى عِنْدَكُمْ، وتُعْقِبُكُمُ الْحَسَرَاتُ فِيمَا وَهَّمْتُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ»[2]، وإنما يُنال ما عند الله بالعمل والسعي، قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، والتمني يوقف مسيرة الإنسان باتجاه التغيير والعمل، لأنه يستبدل السعي بالأحلام والوهم، وربنا يستنكر على المنافقين والكافرين تمنياتهم إذ يقول: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ [النجم: ٢٣-٢٤]؟!.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي خدعتكم، والأماني هي الأحلام والظنون التي يصنعها الإنسان بخياله المنبعث من شهواته، والذي يدخل في هذا النفق قد لا يتخلص منه، بل يبقى في غروره حتى الموت، وهذا ما صار إليه المنافقون ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي نصرة المؤمنين، أو أجله الذي لا تأخير فيه، وحينها لا تنفع التوبة، فإذا جاءت المنية بطلت الأمنية.

وقبل أن يختم ربنا الآية يشير إلى دور الشيطان في خدع الإنسان الذي يتمثل في تزيين المعاصي، وتأكيد الأمنيات في النفس، وليس له سلطان على أحد، جاء في الدعاء عن الإمام السجاد عليه السلام وهو يشكو إلى الله سبحانه عدوّه المضلّ وهو الشيطان: «إِلَهِي أَشْكُو إِلَيْكَ عَدُوّاً يُضِلُّنِي وَشَيْطَاناً يَغْوِينِي، قَدْ مَلَأَ بِالوِسْوَاسِ صَدْرِي، وَأَحَاطَتْ هَوَاجِسُهُ بِقَلْبِي، يُعَاضِدُ لِي الْهَوى، وَيُزَيِّنُ لِي حُبَّ الدُّنْيَا، وَيَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ الطَّاعَةِ والزُّلْفَى»[3]. إن دور الشيطان الأساسي

(١) بحار الأنوار: ج٩٤، ص١١٦.

(٢) الكافي: ج٥، ص٨٥.

(٣) الصحيفة السجادية: مناجاة الشاكين.

هو المعاضدة والإعانة على الانحراف، وتأكيد النصوص الإسلامية على هذه الحقيقة (وذكره في هذه الآية في صيغة الاستدراك) كل ذلك يأتي لكيلا يعتبر البشر وساوس الشيطان تبريرا للانحراف والضلالة، وأنه مجبور عليها.

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الشيطان إنسيًّا كان أو جنيًّا. ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ صيغة مبالغة، تدل على أن ذلك عمله وديدنه، ولا ريب أن الإعلام المضلل الذي ينشر ثقافة الفساد كتابة وصورا وصوتا، وكذلك الأنظمة الفاسدة التي تركّز حب الدنيا واتباع الهوى في المجتمع، هما من أبرز مصاديق هذه الآية الكريمة، كما أصدقاء السوء من مصاديقها.

[١٥] وكم تكون حسرة الإنسان إذا صار في الدنيا غرضا للفتن، وفريسة للأماني وهمزات الشيطان، وعاش بينهما متربصا مرتابا حتى يجيء أجله، وتضيع الفرصة قبل أن يُخلِّص نفسه من النار، ليصير إلى بئس المصير! إنه يبخل بالمال في الدنيا، ولكنه يتمنى لو أن له ملء الأرض ذهبا وفضة يفتدي به نفسه يوم القيامة، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٧-٤٨]، نعم. هناك تتبدد ظنونهم وأمانيهم التي لا تغني من الحق شيئا. وهب أنهم كان لهم ما في الأرض ومثلهم وأرادوا فداء أنفسهم فإنه لا يقبل منهم، ويأتيهم النداء بأن الدنيا هي دار العمل ولم تعملوا.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ في مقابل الجنة التي يفوز بها المؤمنون والمؤمنات.

ومفارقة أخرى أن ولي المؤمنين هو الله والأنبياء والأولياء والصالحون الذين يتقدمون بهم إلى الجنة نورا يسعى بين أيديهم، أما المنافقون فلا يجدون وليًّا ولا نصيراً ولا مأوى إلا النار، وحيث يبحثون عن أوليائهم الذين اتبعوهم في الدنيا من الظَّلَمَة والشياطين فيأتيهم الجواب: ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ إنهم رفضوا دعوة الله ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، إذ نافقوا بدل الإيمان، واتبعوا القيادات الضالة بدل الطاعة للرسول، وحيث يقال إن النار هي مولاكم يعلمون عين اليقين أنهم إذا تولوا الظالمين إنما تولوا النار ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذا المقطع يقابل قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وأي مصير أسوأ من ظلمات القيامة، وعذاب النار، وسخط الرب؟! وهذا الأخير أشد عذابا من كل شيء إن الإنسان يصير غرضا لغضب الله، وبعيدا عنه، وفي الدعاء: «فَهَبْنِي يَا إِلَهِي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ وَرَبِّي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ، وَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلَى حَرِّ نَارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى كَرَامَتِكَ، أَمْ كَيْفَ أَسْكُنُ

فِي النَّارِ وَرَجَائِي عَفْوُكَ، فَبِعِزَّتِكَ يَا سَيِّدِي وَمَوْلَايَ أُقْسِمُ صَادِقاً لَئِنْ تَرَكْتَنِي نَاطِقاً لَأَضِجَّنَّ إِلَيْكَ بَيْنَ أَهْلِهَا ضَجِيجَ الآمِلِينَ، وَلَأَصْرُخَنَّ إِلَيْكَ صُرَاخَ الْمُسْتَصْرِخِينَ، وَلَأَبْكِيَنَّ عَلَيْكَ بُكَاءَ الْفَاقِدِينَ، وَلَأُنَادِيَنَّكَ أَيْنَ كُنْتَ يَا وَلِيَّ الْمُؤْمِنِينَ»[1].

وما دامت الفدية لا تؤخذ ذلك اليوم فلنقدمها الآن، ونكون من المتقين الذين صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، و: «صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً، تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ، أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا»[2] في حين أراد المنافقون الدنيا، وبقوا في أسرها حتى الأخير.

إن المتقين والمؤمنين استجابوا لله وللرسول إذ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢]، والمتدبر يكتشف العلاقة الوثيقة في العبارات والمعنى بين هذه الآيات وآيات هذا الدرس من سورة الحديد.

---

(١) البلد الأمين: ص١٩٠: دعاء كميل للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣ (خطبة المتقين).

وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ[1] فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا[2] إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا[3] عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا

---

(١) الأمد: الوقت الممتد أي الزمان.

(٢) نبرأها: أي نفطرها ونخلقها.

(٣) تأسوا: تحزنوا.

ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

إذا كان المنافقون يتورطون في الضلال والانحراف الذي يستمر معهم حتى النهاية، بسبب نفاقهم ونفوسهم المريضة، فإذا بهم يفتنونها، ويتربصون، ويرتابون، وتغرهم الأماني، ويتسلط عليهم الشيطان، فيصيرون إلى بئس المصير، فإن المؤمنين في خطر آخر متمثل في قسوة القلب بسبب طول الأمد حيث يفقدون جذوة الإيمان ثم ينتهي بهم شيئا فشيئا إلى تحول خطير يلخصه القرآن بكلمة (الفسوق)، أي الانحراف عن الطريق السليم، وبسبب الفسق والخروج عن إطار القيم الربانية والتعاليم القرآنية فإن الدنيا تتزين في أعينهم فيتخذونها لعبا ولهوا وتفاخرا وزينة وتكاثرا في الأموال والأولاد، بدل أن يجعلوها ميدانا للتسابق إلى الخير، ويستبدلونها بالآخرة بدل أن يجعلوها مزرعة للمستقبل، وإذا أصابت أحدهم مصيبة أكدت عنده اليأس والأسف، وإذا أوتي خيرا ونعمة تشبث بالدنيا بصورة أكبر.

ونتيجة لعاملي اليأس وتشبثه بالدنيا تجده يبخل بالإنفاق في سبيل الله، لاعتقاده بأنه لا يغير شيئا أو يضر بدنياه، ولا يكتفي بذلك بل يتسافل دركا آخر إلى الحضيض بمحاربته الإنفاق، ودعوته الآخرين للبخل، وهكذا ينتهي اليأس إلى الفسوق والتولي عن الحق، ويحدث انقلاباً خطيراً وجذريًا في حياة الإنسان، من الإيمان إلى التولي، كما حدث لأهل الكتاب، الذين بدؤوا بحركة إلهية يتزعمها الأنبياء من أولي العزم وغيرهم، وإيمان صادق مخلص، ثم انتهوا لما طال عليهم الأمد ونخر فيهم اليأس إلى حركة وزعامة فاسقة، وأهداف خبيثة كمحاربة المؤمنين، واستغلال الشعوب وظلمهم.

بينات من الآيات:

[١٦-١٧] كما الشجرة إن سقاها ورعاها صاحبها نمت وأثمرت، وإن تركها ذبلت ويبست، كذلك الإيمان إذا حافظ الإنسان على عوامله تعمّق وتجذّر ونما وأثمر، وإلا خبا ضوؤه وصار إلى النقصان، وذكر الله ورسالته هما وسيلة نمو الإيمان في النفس، إذا تساقطت عنها الحجب وخشعت، أما إذا قست وتكلّست لا تنتفع بالذكر، كما لا تنتفع الشجرة اليابسة بالماء الفرات، ولذلك يحذّر الله المؤمنين من قسوة القلب، ويعاتبهم على عدم خشوعهم لذكره وللحق، فيقول: ﴿﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ قال

ابن مسعود: «ما كان بين إسلامنا وبين هذه الآية إلا أربع سنين، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضا»[١]، وقيل: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثة عشر سنة من نزول القرآن بهذه الآية (عن ابن عباس)»[٢]، وقيل: «كانت الصحابة بمكة مجدبين فلما هاجروا وأصابوا الريق والنعمة فتغيروا عما كانوا عليه، فقست قلوبهم، والواجب أن يزدادوا الإيمان واليقين والإخلاص، في طول صحبة الكتاب (عن محمد بن كعب)»[٣]. ومع اختلاف هذه الأقوال إلا إنها تلتقي في نقطة واحدة هي أن يبدو أن الآية جاءت تعالج تحوُّلاً سلبيًّا في حياة الأمة، وهذا يُظهر عناية الله من خلال وحيه ببناء المجتمع المؤمن وتوجيه حركته نحو الحق والأهداف السامية، ولكن الله لا يبدأ العلاج من الظواهر، إنما يوجه الرسول والمؤمنين أنفسهم إلى جذور المشكلة، ألا وهي القلوب التي تغيَّر موقفها من ذكر الله ومن تطبيق الرسالة. لقد كانوا في البدء أمة مؤمنة حقًّا ببركة ذكر الله، وكانوا ملتزمين غاية الالتزام بالحق، يتسابقون إلى تطبيق الرسالة، ويسلمون لما فيها تسليما، أما الآن فقد بدأ الخشوع ينحسر عن قلوبهم، كما صاروا يتباطؤون في تطبيق رسالة ربهم، ويتخلصون عن دعوة قيادتهم إلى الإيمان والإنفاق، وهذا لا ريب إن لم يبادروا إلى علاجه سوف يخرجهم من دائرة المؤمنين. أوليس الله يقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

فلماذا إذن لا توجل قلوبهم، ولا يزدادون إيمانا، ولا ينفقون؟!. الإشكال ليس في قلة ذكر الله، ولا في قلة الآيات، ولا في عدم وجود الواعظ، فهذا الرسول يصيح فيهم: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ ﴾ ويدعوهم للإيمان، والآيات بيِّنة مستفيضة متواصلة يُنزلها الله على عبده ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ولكن الإشكال في قلوبهم المريضة.

ولنا أن نعرف كم ينبغي أن يكون القلب مريضا وقاسيا حتى لا يتأثر بالقرآن إذا تدبرنا في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، فلم لا يحرض القرآن المؤمن على الخشوع، والخشوع هو الذي يجعل الإنسان مستعدا للتسليم إلى الحق نفسيًّا، وتطبيقه عمليًّا في الواقع؟.

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٣٩٤.

(٢) مجمع البيان: ج٩، ص٣٩٤.

(٣) مجمع البيان: ج٩، ص٣٩٤.

وتأكيد القرآن على أن ما نزل حق يهدينا إلى أن قسوة القلب تورط الإنسان في الباطل، وهناك علاقة متينة بين ذكر الله وبين رسالته النازلة من عنده، لأن الله تعالى يتجلى في كتابه.

وفي الشطر الثاني من الآية يلفتنا القرآن إلى تجربة أهل الكتاب لنتعظ بتجارب الأمم الأخرى. إنهم كما الأمة الإسلامية أوتوا كتابا من عند الله، أنقذهم من الطغاة كفرعون، وأخرجهم من الظلمات إلى نور الإيمان والعلم، ولكنهم ابتلوا بقسوة القلب فماذا كانت عاقبتهم؟ ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ وكان ينبغي أن يطبقوا ما فيه حتى يصلوا إلى أهدافهم وسعادتهم، ولكنهم كانوا لا يريدون تحمل المسؤولية فراحوا يلتفون على آياته، ويتخلفون عن تطبيقها، لأنهم يريدون إيمانا بلا تكلفة وتضحية، ومجدًا بلا مشقة وسعي، فَعَلِمُوه أماني كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، وبدل أن تكون الرسالة قائدهم وإمامهم يُكيِّفون أنفسهم وفقها، أصبحوا يفرضون شهواتهم عليها، ويحرفون الكلم عن مواضعه، وربما عادت بينهم كتابا مألوفا، وجزءا من التراث، فوقفوا عند حروفه وكلماته دون العمل به.

ولأنهم فعلوا ذلك ما عاد الكتاب ينفعهم فتبدل إيمانهم به إلى الشك فيه، وارتابوا في بشائره ووعوده، والحق الذي اشتمل عليه، وحيث تعاقبت الأجيال الواحد تلو الآخر وهم ينتظرون شيئا من ذلك يتحقق دون جدوى -لأنهم اتخذوه أماني ولم يسعوا إلى تطبيقه- انتهت في نفوسهم جذوة الإيمان، بالذات وأن كل جيل يأتي يورث سلبياته الجيل الذي بعده ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ لقد ابتعدوا عن الدين كل جيل بمسافة بعده عن جيل الرُّواد الأوائل، الذين آمنوا بالكتاب حق الإيمان، وطبقوا ما فيه كما أراد الله، ولأنهم نبذوا الكتاب الذي به حياة القلوب ذهب خشوعهم، وقد جاء في الأثر عن الإمام الصادق عليه السلام: «لَمْ يَزَلْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ وُلَاةَ الْبَيْتِ وَيُقِيمُونَ لِلنَّاسِ حَجَّهُمْ وَأَمْرَ دِينِهِمْ يَتَوَارَثُونَهُ كَابِرٌ عَنْ كَابِرٍ (عظيم عن عظيم) حَتَّى كَانَ زَمَنُ عَدْنَانَ بْنِ أُدَدَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَفْسَدُوا وَأَحْدَثُوا فِي دِينِهِمْ وَأَخْرَجَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً»(1)، وإذا صحت الروايات والتفاسير التي تقول بأن الأمد طال على المؤمنين من أهل الكتاب في انتظار الرسول صلى الله عليه وآله الذي ينصرهم على أعداء الله، ويخلِّصهم من الضلال والعذاب، فإننا نهتدي إلى أن أحد أسباب قسوة القلب بعد طول الأمد هو اليأس من روح الله، والشك في وعد الله الذي لا يُخلَفَ!.

وهذه المشكلة يمكن أن تتورط فيها الكثير من الحركات الإسلامية، حيث يخشى أن تتناقص فيها تلك الحيوية والفاعلية التي كانت لديها عند انطلاقها، وقد يصاب بعضهم

(1) بحار الأنوار: ج١٥، ص١٧٠.

بالاسترخاء نتيجة الرضا ببعض المكاسب الأولية التي يحصلون عليها، فإذا بالدنيا تحلو في أعينهم فيخلدون إلى أرض الخفض والدعة، ويرفضون خشونة الجهاد وعنف المواجهة ويبدؤون مسيرة التبرير، ويرفعون شعار المعاذير ويحرفون الكلم عن مواضعه، كما حدث لقوم موسى عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فراحوا يجادلونه وتباطؤوا في تطبيق قراراته ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١]، ومرة أخرى حينما دعاهم إلى اقتحام بيت المقدس:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢].

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لماذا كان طول الأمد سببا لقسوة القلب؟.

لعل في الآية إشارة إلى قانون الدورات الحضارية الذي ذهب إليه كثير من فلاسفة التاريخ فقالوا: كما الإنسان الفرد يمر بمراحل الصبا فالشباب والكهولة ثم الشيخوخة والهرم، كذلك المجتمع الإنساني يمر بالمراحل ذاتها، فأيام شبابه تكون عندما تبعث فيه فكرة خلّاقة فتفجر طاقاته، ولكن مع مرور الزمن يُغفلون الفكرة الحضارية التي آمنوا بها بسلبياتهم وشهواتهم، ويفقدون روح التحدي والتضحية، ويصيرون إلى ما يشبه حالة الشيخوخة، وربما نستوحي هذه الفكرة من قوله سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩]. وهكذا أشارت الآية إلى هذا القانون الطبيعي لكي نتحداه، ولا ندع طول الأمد يسبب فينا قسوة القلب.

ثم إن فلاسفة التاريخ قسموا الأجيال في كل حضارة إلى ثلاثة: جيل البناة، وجيل الرعاة، والجيل الذي يليهما والذي تتوقف الحضارة عندهم عن التطور والإبداع. ولكن الفصل بين الأجيال الثلاثة ليس فصلا دائما، إذ قد تتعايش في برهة زمنية واحدة نماذج من هذه الأجيال جميعا، فتجد طبقة من الناس لا يزالون في حالة الريادة وهم الذين قد تمكنت الفكرة الحضارية من أنفسهم، في حين تجد في الوقت ذاته طبقة من الناس منافقين يبحثون عن مصالحهم ويحرّفون الكتاب بما يتلاءم وشهواتهم، وتجد آخرين ممن يعيش الحالة الوسطى بين الحالتين.

بلى؛ إن الأغلب هو تلاحق هذه الأجيال، إلا أن قدرة الإنسان على تحدي الظروف

المعاكسة، وإغراءات الدعة والرخاء تعطي الناصحين فرصة إصلاح الناس، ومقاومة عوامل الانحراف! فقد ينبعث في الجيل الثالث في المسلمين وما بعده مصلح كبير يفسر القرآن بما ينسجم وتحديات عصرهم، ويعيد إليهم نضارته وطراوته وصفاءه بعيداً عن زيف التحريفيين، وتأويل المعُذِّرين، ولعله إلى ذلك تشير الأحاديث التي تؤكد على ظهور مجدد للدين على رأس كل قرن من الهجرة النبوية الشريفة.

والآية الكريمة التي نفسرها لا تستصدر حكماً قطعيًّا واحداً على كل أهل الكتاب، إنما تفرّق فيهم بين جيل وجيل، فهناك المؤمنون حقًّا كما يؤكد القرآن ذلك في مواضع منه، مثل قوله تعالى في نهاية السورة ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وهناك المتزمتون الذين صعَّبوا الدين وتصوَّفوا، ومن بينهم من قست قلوبهم، الذين يشكلون الأكثرية الساحقة فيهم! ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ إلى هنا يكون القرآن قد حذر المؤمنين من مرض القسوة الذي قد يتورطون فيه، كما بيَّن لهم عواقبه السيئة من خلال الإشارة إلى سيرة أهل الكتاب، أما الآن فالسياق بآياته يَشْرَع في معالجة المشكلة إلى جنب بيان أسبابها.

المؤمنون الذين خاطبتهم الآية السابقة لم ينحرفوا انحرافا كليًّا كأكثر أهل الكتاب، وإنما سلبوا الخشوع، فقست قلوبهم قليلا، ودب فيهم اليأس من إصلاح أنفسهم فأخذ القرآن يعطيهم الثقة بربهم.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ ربما ابتدأ بالعلم لأن الخشية ميراث العلم، أولم يقل تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والسؤال: ما هي تلك الحقيقة الكفيلة بزرع الأمل في نفوس المؤمنين وإنقاذهم من اليأس؟.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أرأيت كيف تنبسط على الصعيد حلة خضراء بعد أن كانت الأرض هامدة كأنها مقبرة مهجورة؟ انظر إلى الحياة التي تدب فيها، وتفكر في قدرة الله، أليس الذي أحياها بقادر على أن يحيي ميت القلوب؟ فلماذا اليأس؟.

بلى؛ قد تحيط بالمؤمنين ألوان المشاكل، فتمسهم البأساء والضراء، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ويزلزلون، وربما استطال اليأس بسبب ذلك حتى على نفوس المخلصين ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ولكن ليعلموا أن انتصارهم حتمية فرضها الله كما فرض كتابه عليهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، نعم. قد يتأخر لحكمة يعلمها الله -كتصفية قلوب المؤمنين من

أدرانها، ولكي يكون النصر أكبر وأشمل وأنفع-، فلا ينبغي للمؤمن المجاهد أن يقنط وييأس لأن اليأس من العوامل الرئيسية والخطيرة التي تجمد الطاقات، وتكبل الإنسان عن السعي، لأنه معه لا يرى فائدة من التحرك، فلماذا يسعى نحو السراب؟!، والحركة الناجحة هي التي تجنب أفرادها السقوط في شراكه، وتبادر إلى علاج حالاته وظواهره كلما بدت، بإعطاء المزيد من الأمل في الله، والثقة به، والتوكل عليه.

ولهذه الآية الكريمة تأويل يتصل بحياة الأرض المعنوية التي تعني إشاعة العدل والسلام في ربوع البلاد! ومعلوم أن الله لا يحييها -حسب هذا المعنى- كما يحييها بالمعنى الأول بالمطر، بل بأيدي الصالحين من عباده، ولكن السؤال بماذا يحيي الله الأرض؟، إنه لن يبعث ملائكته الشداد الغلاظ ليقوضوا الأنظمة الفاسدة، أو يطهروا الأرض من دنسها ورجسها، إنما سيحييها وفق سننه التي فطر الوجود عليها، سيحييها بأهلها من المؤمنين المجاهدين، والقيادات الصالحة، الذين يتصدون للجهاد في سبيل إقامة حكومة الحق والعدل على ربوع المعمورة، قال الإمام الباقر عليه السلام في قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُحْيِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالقَائِمِ بَعْدَ مَوْتِهَا يَعْنِي بِمَوْتِهَا كُفْرَ أَهْلِهَا وَالكَافِرُ مَيِّتٌ»[1]. وقال الإمام الحسين عليه السلام: « مِنَّا اثْنَا عَشَرَ مَهْدِيّاً أَوَّلُهُمْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَآخِرُهُمُ التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِي وَهُوَ القَائِمُ بِالحَقِّ يُحْيِي اللهُ تَعَالَى بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَيُظْهِرُ بِهِ دِينَ الحَقِّ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾»[2].

وهذا الوعد الإلهي لا يعني أن نحيل المسافة بيننا وبينه ساحة للتقاعس والأمنيات الزائفة، فإقامة العدل ليست من مسؤوليات القائم عليه السلام وحده، إنما هي تكليف كل مسلم بنص القرآن: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] ونصوص أخرى كثيرة، وإذا كان هذا التأكيد على الإمام قد كثر وتواتر في تأويل هذه الآية، فهو من باب التأكيد على الإحياء الأعظم، وإلا فإصلاح الإنسان لنفسه ومجتمعه إحياء أيضا كائنا من كان، بل إن تحقق الوعد الإلهي بظهور القائد الذي يملأ الأرض عدلا وقسطا بعدما ملئت ظلما وجورا بإجماع المسلمين وكل المذاهب والأديان مرهون بنا بقدر ما، لأن ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ولأنه جاء في بعض النصوص أنه عليه السلام لا يظهر إلا بعد اكتمال أصحابه الذين هم بعدد أصحاب النبي يوم بدر (٣١٣) فردا والله العالم.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥١، ص٥٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٦، ص٣٨٥.

وهب أن الإمام الحجة عليه السلام ظهر بيننا فإنه سوف يقاتل بنا، ولهذا يأتي أمر الله وتأكيده على ضرورة العلم بهذه الحقيقة، لأن العلم يقود إلى العمل والسعي، أما الأمنيات فإنها تكرس السلبية عند الإنسان، وتشل طاقاته العملية، إذ لا تثير فيه سوى الخيال والظنون التي لا تغني من الحق شيئا. ولعل قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يقابل قوله: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فهو دعوة لنبذ التمنيات والظنون، والتمسك بالمعرفة والعلم، وإذا كنا نريد التأكد من هذه الحقيقة فنعرف كيف يحيي الله الأرض بعد موتها، فما علينا إلا الرجوع بنظرة موضوعية شاملة إلى آياته ورسالته. من هنا يؤكد الحق تعالى بقوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ إن العود إلى الآيات الشاهدة على تلك الحقيقة، سواء المتجلية في التاريخ، أو في القرآن كفيل بأن يعيد للمؤمنين الثقة بأنفسهم، ويُصيِّرها علما ثابتا تستوعبه عقولهم، مع كونها عظيمة وكبيرة يصعب على غير المؤمنين التسليم لها.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ حيث من أهم أهداف القرآن هو تبصير الإنسان واستثارة عقله. وتوجيه الله لنا إلى آياته فور تأكيده على أنه يحيي الأرض بعد موتها، يهدينا إلى أن الآيات هي المنهج السليم الذي ينبغي للإنسان الانطلاق منه في الإصلاح، سواء إصلاح القلب الذي يموت بالقسوة، أو إصلاح الأرض والمجتمع اللذين يفسدان بالجور والظلم، كما يهدينا إلى أن عدم خشوع قلوب المؤمنين وتعرضهم شيئا فشيئا للقسوة ناجم عن ابتعادهم عن القرآن، كما قست قلوب أهل الكتاب، وفسقوا بنبذ الكتاب وراء ظهورهم ولا سبيل لهم لعلاج هذه المشكلة المستفحلة إلا بالعودة إلى آياته، التي تخرج من الظلمات إلى النور، وقبل أن نمضي إلى تفسير الآية اللاحقة هناك ثلاث ملاحظات حول الآيتين:

الأولى: أن اليأس من التغيير قد ينطلق من زاوية محدودة في تفكير الإنسان المؤمن (فردا، وحركة، وأمة) وهي أنه يقيس المسافة بينه وبين التغيير، وينظر إليها من خلال قدراته وإرادته الذاتية، فيرى الأعداء أكثر منه عددا وعدة وخبرة، فيستنتج أنه لا يمكنه تحقيق الانتصار عليهم بإمكاناته المحدودة، الأمر الذي يزرع اليأس والهزيمة في نفسه، وربما يقوده إلى التراجع عن المسيرة والاستسلام للواقع عمليًّا، وهذا خطأ خطير يجب علاجه بالتوكل على الله، والثقة بنصره، وأنه يحيي الأرض بعد موتها، وينصر من يتحركون إلى هذا الهدف بإرادته المطلقة التي لا يعجزها شيء.

الثانية: أن الأرض بمن عليها وبما فيها تصبح ميتة في ظل حكومات الجور، فهي تميت قلوب الناس بالتضليل، ولا تبقي لأحد منهم حرمة في ماله، وعرضه ولا دمه، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ثم إنها توجه طاقات الشعوب في دمارها، وتشعل الحروب لأطماعها الرخيصة، ثم تدفع الناس ضحايا وقرابين من أجلها، ولنا أن نتصور أحد معاني الموت في ظلها بنظرة خاطفة إلى النظام الاستكباري الذي يحكم العالم اليوم، وإلى ترسانات الأسلحة المدمرة، التي تكفي لتدمير الأرض مئات المرات، وهي تزرع الآن الخوف في كل العالم، كما تمتص ثروات الناس، وتمنعهم من الانتفاع بها في سبيل تقدمهم ورفاههم!.

ثم إن مقياس الحياة وبالذات عند المؤمن ليس القيام بالوظائف المادية الضرورية كالأكل والشرب والتنفس والحركة و.. إنما مقياسها على ضوء الأهداف والقيم الإنسانية والإلهية، وما هي قيمة الإنسان إذا جُرِّد من حريته وكرامته؟! لا ريب في أن الموت أهون عليه من الحياة من دونها، ولذلك قال الإمام الحسين عليه السلام: «إِنِّي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَماً»[1]، وقال الإمام علي عليه السلام لأصحابه بصفين: «فَالْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاةُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ»[2]. وحينما يُسأل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى الحياة بعد الموت في الآية يقول: «الْعَدْلُ بَعْدَ الْجَوْرِ»[3].

الثالثة: وإلى جانب هذا التفسير السياسي الجاد للآيتين نجد هناك تطبيقات أخرى يتسع لها المعنى، من بينها أن القلوب تموت بالضلال والانحراف، ولكن ليس من الصحيح أن ييأس الإنسان من التغيير وقبول ربه التوبة، فهو واسع المغفرة، إذن فلا يقنط من رحمته، فقلبه يمكن أن تعود إليه الحياة مرة أخرى، لو تراجع عن خطئه، وبدأ مسيرة تغيير الذات بالتوبة والعمل بما يوافق رسالة الله وآياته، وقد تناقل المفسرون أن الفضيل بن يسار أحد مصاديقهما، حيث كان ضالا يقطع الطريق، وقد تواعد مع جارية، فلما أتاها من جهة الدار متسلقا سمع تاليا يتلوهما فنزل من على الجدار وهو يقول: بلى قد آن، بلى قد آن.. فتاب من ذنوبه وتحوَّل من قاطع طريق إلى مؤمن زاهد.

وكلمة أخيرة: لننظر إلى الأرض القاحلة التي لا زرع ولا ضرع فيها، كيف يجعلها الله واحة خضراء بالغيث؟! لعلنا نعرف المسافة الشاسعة بين الحياة والموت، التي تشبه المسافة بين العدم والوجود، فنزداد بهذه المعرفة ثقة بربنا العظيم وتوكلا عليه لأن هذه الظاهرة تتجلى فيها قدرته وسائر أسمائه الحسنى، ورحمته المطلقة الكفيلة بنصرنا وإيصالنا إلى أهدافنا، فلا داعي إذن لليأس والقنوط، ولنتفكر في عظمة القرآن الذي تُغيِّر آية واحدة منه حياة إنسان امتهن

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٤، ص١٩٢.

(٢) بحار الأنوار: ج٣٢، ص٤٤٢.

(٣) الكافي: ج٢، ص٢٦٧.

الجريمة، إلى حياة حافلة بالتقوى والكرامة! إنه حقًّا أهل، أن يأخذ بأيدينا إلى العلاج والسعادة والنصر، لو رجعنا إليه، وتفكرنا في آياته، وعملنا بمضامينها. سوف يحيل ذلنا عزة، وهزيمتنا نصرا، وقسوتنا خشوعا، وتخلفنا تقدما وحضارة، وبكلمة سوف يحوِّل موتنا حياة.

[١٨] ويعود القرآن بعد أن حذر المؤمنين من عاقبة النفاق يوم القيامة، ومن مصير أهل الكتاب في الدنيا ليؤكد أهمية الإنفاق ومعطياته ليتصل بما تقدم في الآيات: (٧-١٠-١١) وليكون طريقا لتطهير القلب وخشوعه كما قال ربنا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣] ولتتخذه مقياسا للإيمان، فمتى ما تصدق المؤمنون وأنفقوا دل ذلك على صدقهم، ثم فاعليتهم بعد الجمود بسبب الانصراف إلى الدنيا، والذي ينتهي إلى قسوة القلب.

وبما أن الآيتين السابقتين جاءتا لتنتشلا بعض المؤمنين من هذا الدرك الذي يتوسط المؤمنين الصادقين، ودرك المنافقين، قبل أن يتسافلوا إلى الفسوق، حيث درك المنافقين الذين بخلوا بأموالهم، ولم ينفقوا في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، حيث كان أحدهم يعاهد الله ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]، فكان من الطبيعي إذن أن يُلحق الله بتلكما الآيتين دعوة إلى الإنفاق في سبيله: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ والصدقة هي ما يُصدِّق به الإنسان ربه، فلأنه الذي أمر ووعد بالثواب ينبعث إلى الإنفاق، وسميت الصدقة صدقة لأنها تثبت صدق الإيمان بالعمل وتثبته، ولا تنحصر في إنفاق المال المستحب والواجب، إنما تشمل كل الأعمال الصالحة، وإن كان ظاهر السياق كما الكلمة يدلان على بذل المال، وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ»[١]، وقال: «إِمَاطَتُكَ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ صَدَقَةٌ، وعِيَادَتُكَ المَرِيضَ صَدَقَةٌ، واتِّبَاعُكَ الجَنَازَةَ صَدَقَةٌ، وأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ ونَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، ورَدُّكَ السَّلَامَ صَدَقَةٌ»[٢]، ومن ذلك العام يخص الله القرض بالذكر، وإذا كان للقرض الاجتماعي الذي يستهدف رفع حاجات الناس ميزة على سائر الإنفاق، فإن الإنفاق في الجهاد أرفع درجة وأسمى، حيث يبدو أن التفريق بين الإنفاق قبل الفتح وبعده في القرآن إشارة إلى هذا النوع من الإنفاق، حيث إنه قبل الفتح يستهدف إقامة حكم الله، في حين يستهدف الإنفاق بعده بناء المجتمع.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٩ ص٣٨١.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٢٤٣.

﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا[1] يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ بركة من الله، ذلك لأن التكافل الاجتماعي يدوِّر الثروة، مما يؤدي إلى بناء المجتمع اقتصاديًّا وحضاريًّا، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، أضف إلى ذلك حب الناس واحترامهم ودعاءهم في الدنيا، وفي الآخرة الثواب، فقد روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: «مَكْتُوبٌ عَلَى بَابِ الجَنَّةِ: الصَّدَقَةُ بِعَشَرَةٍ والقَرْضُ بِثَمانِيَةَ عَشَرَ»[2]. ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

[١٩] أما الباب الأوسع للدخول إلى مقام الصديقين والشهداء فهو التسليم نفسيًّا وعمليًّا لله ولرسله وأوصيائهم والقيادات الرسالية من بعدهم، وأساسا الإيمان والإنفاق يتكاملان، ويكملان شخصية الإنسان الربانية، ولا يكفي أحدهما دون الآخر، ومن هذا المنطلق يأتي التلازم الكثير في القرآن بينهما كما في الآية السابقة من هذه السورة، أو بصيغ تختلف كالإيمان والجهاد أو العمل الصالح. ولعل التعرض لموضوع الإيمان بعد التحريض على التصدق والقرض تأكيد على أنهما لا ينفكان عن بعضهما.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ إيمان تسليم مطلق للحق وعمل صالح مخلص بما في رسالته يستمر مع الإنسان حتى الموت، ولا يمكن لأحد أن يحقق ذلك إلا بالطاعة للقيادات الرسالية أنبياءً ورسلاً وأئمةً ومن يمثل خطهم في الحياة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] لأنهم حجة الله، وبابه الذي يؤتى منه، والانتماء إليهم والتسليم لقيادتهم جزء لا يتجزأ من الإيمان الحق، الذي يرفع الإنسان إلى درجة الصديقين والشهداء، وهل يُصَدِّق الإيمان إلا تولي الأولياء والتجرد عن كل قيادة سواهم؟! وهل تتم شهادة الأمة الوسط إلا بشهادة الرسول عليها؟!... لذلك عطف الله على الإيمان به، برسله قائلا: ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾ كلهم لأن مسيرتهم واحدة متكاملة، وما جاؤوا به من القيم وبينوه من العظات وجسدوه من السير الصالحة ذخر للحضارة ينبغي للبشرية وبالذات المؤمنين أن ينتفعوا به، وإن كانت الطاعة العملية تبقى للرسول فيما تناسخ من الشرائع، وإنما تتابعت الرسالات لتكميل المسيرة.

ولعل الحكمة في التأكيد على الإيمان بالرسل جميعا أنه حيث انتقد آنفا أهل الكتاب وبيّن انحرافهم كان من الممكن أن تنصرف بعض الأذهان إلى أن الطعن متوجه إلى الرسالات، فأزال السياق هذه الشبهة بالتأكيد على ضرورة الإيمان بها جميعا. وإذا ارتفع بشر إلى مستوى الإيمان

---

(١) مرّ معنى القرض الحسن لدى التدبر في الآية (١١) من هذه السورة.

(٢) الكافي: ج٤، ص٣٣.

المتقدم بيانه صار صدِّيقاً أو شهيداً وشملته إشارة القرآن: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ونقرأ في آية أخرى ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وأي تجمع أنبل من هؤلاء وأقرب إلى الله؟ والشهادة في القرآن ليست منصرفة إلى القتل بالسيف وإنما هي تنصرف لكل من وافاه أجله مؤمنا بالله ورسله متحملا لمسؤوليته الرسالية، وهي بمعنى الشهود والحضور والميزان والتأثير.

روى العياشي عن منهال القصاب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ادعُ الله أن يرزقني الشهادة فقال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ شَهِيدٌ، وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ»(١) وعن الحارث بن المغيرة قال: «كنا عند أبي جعفر عليه السلام فقال: العَارِفُ مِنْكُمْ هَذَا الأَمْرَ المُنْتَظِرُ لَهُ المُحْتَسِبُ فِيهِ الخَيْرَ كَمَنْ جَاهَدَ وَالله مَعَ قَائِمِ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله بِسَيْفِهِ، ثُمَّ قَالَ: بَلْ وَالله كَمَنْ جَاهَدَ مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله بِسَيْفِهِ، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ: بَلْ وَالله كَمَنِ اسْتُشْهِدَ مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فِي فُسْطَاطِهِ وَ فِيكُمْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ الله. قُلْتُ: أَيُّ آيَةٍ جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَالَ: قَوْلُ الله عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ: صِرْتُمْ وَ الله صَادِقِينَ شُهَدَاءَ عِنْدَ رَبِّكُمْ»(٢)، وقال الصادق عليه السلام: «فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ فِي الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ أُحِلَّ لَهُمْ جِهَادُهُمْ بِظُلْمِهِمْ إِيَّاهُمْ وَأُذِنَ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ»(٣).

إن تصديق الشهادة الحقيقية يتجلى في الإيمان بالله، والطاعة للقيادة الرسالية، لأن المهم أن يكون الإنسان في خدمة الدين ليكون صدِّيقًا أو شهيدًا ثم لا يهم أين يكون، فقد يكون دوره ضمن أجهزة الأنظمة الفاسدة ومؤسساتها لأغراض تعلمه القيادة كما فعل مؤمن آل فرعون وفعلت زوجة فرعون آسية، وقد يكون مشغولا بالقراءة والتأليف، أو سائحا في البلاد لمصلحة العمل، أو ما أشبه.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أما الأجر فيتمثل في الآخرة بالجنات، أما في الدنيا فقد يتجلى في النظام الحياتي المتكامل بما له من معطيات حضارية كريمة. وأما النور فيتمثل في الآخرة بالضياء الذي يفقده الناس في المحشر، أما في الدنيا فهو ذلك الهدى الذي يمشي عليه المؤمن في كل حقول الحياة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ في الدنيا لأنهم كذبوا

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٢٤٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٤، ص٣٨.
(٣) الكافي: ج٥، ص١٧.

بالرسالة التي تشتمل على النظم والمناهج لأبعاد الحياة السعيدة، واختاروا الأنظمة الفاسدة التي لا ينتج عنها إلا الدمار والانحطاط والعذاب، وفي الآخرة لأن الطريق الذي اختاروه يهديهم إلى النار.

[٢٠] وحيث إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، فإن الموقف الخاطئ تجاهها يسلب الإنسان خشوع القلب، ويجره إلى الفسوق، ولكن الدنيا في الوقت ذاته مزرعة الإنسان للآخرة وفرصته التي يحدد فيها مستقبله الأبدي، فلا بد أن يتخذ منها موقفا سليما، وهذا ما تعالجه بقية آيات هذا الدرس التي تُبصِّرنا بحقيقة الدنيا، ورسالة الإنسان فيها، وموقف المؤمن منها.

ما هي حقيقة الدنيا؟

لقد اختلفت البشرية في الإجابة عن هذا السؤال الحساس الذي يراودنا فردا فردا إلى مذاهب عديدة: قال المثاليون إن الدنيا لا واقع لها وما هي إلا خيال، وذهب المتصوفة إلى أن الدنيا شر محض، وأن الجسم سجن الروح، وقال الماديون: إن الدنيا وجدت بالصدفة فليس بعدها من حياة ولا مسؤولية، انطلاقا من الكفر بالغيب، وعليه فإن السعيد فيها من أطلق لنفسه العنان يتلذذ من نعيمها ما يشاء.

أما الرسالات الإلهية فهي تختلف عنهم جميعا، حيث اعتبرت الحياة الدنيا مرحلة تتوسط حياة الذر، والحياة الآخرة، وحيث كان الإنسان طاهرا ونظيفا وقد قطع على نفسه عهدا وميثاقا ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ بأن يسلِّم لربه، فإنه يجب عليه المحافظة على ذلك الطهر بالإيمان بالله والاستجابة لدعوة الرسول، لينطلق نحو الآخرة ويبلغ الجنة من عند الله والرضوان.

إن الإنسان لن يبقى في الدنيا ولن تتوقف مسيرته بها، إنما ينتقل إلى سفر طويل ينتهي به إلى مقره الأبدي، فعليه أن يكيف نفسه وفق هذه الحقيقة، فلا ينسى ذلك السفر الحتمي، فيتعامل مع الدنيا وكأنها دار البقاء، ولا يدع استعداده لتلك الرحلة الشاقة، فإذا جاءت ساعته وحل أجله وهجمت منيته، ليستمع إلى نصيحة إمامه أمير المؤمنين عليه السلام حين يخاطبه فيقول: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ وآذَنَتْ بِوَدَاعٍ، وإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ، أَلَا وإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وغَداً السِّبَاقَ والسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ والْغَايَةُ النَّارُ أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ؟ أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ؟ أَلَا وإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ ولَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ، ومَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وضَرَّهُ أَجَلُهُ»[1].

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٥١٤.

ساعات الدنيا خير من ساعات الآخرة

وبالرغم من أن ظاهر التعريف بالدنيا يُحقِّرها في نفوسنا، لكن ربنا لا يريد من هذا التعريف أن يَحُطَّ من قدرها لكي تنصرف عنها انصراف المتصوفة، فهي ذات أهمية لكل إنسان، لأنها دار تقرير المصير الأبدي، وإن ساعة من الدنيا خير من ساعات في الآخرة، لأنه يربح بساعة دنيوية آلاف الساعات، وربما اشترى بها الخلود في الجنة كالحر بن يزيد الرياحي، الذي لم يكن بين توبته وشهادته إلا لحظات، وإنما أراد الله أن يبين لنا طبيعة الدنيا وطبيعة الإنسان حينما يحبها ويتخذها هدفا، دون مرضاة الله. وهذا يتضح من نهاية الآية، وعلاقتها بالتي تليها حيث الدعوة إلى التسابق نحو الخيرات، فهو تارة يتخذها هدفا فلا قيمة لها، إنما هي متاع الغرور، وتارة أخرى يتخذها وسيلة وميدانا للتسابق إلى مغفرة الله والجنة، فَيُسَخِّر كل ما يملك من نعيمها لهذه الغاية، فهي عند ذلك ذات قيمة عظيمة.

إن الله يؤكد للمؤمنين -بالذات الفريق الذين ضعف إيمانهم نفسيًّا، فما عادوا يخشعون لذكر الله وآياته بالكيفية اللازمة، وعمليًّا، فما عادوا يسلِّمون لأوامر القيادة بالإنفاق مثلا، فصاروا على شفا جرف هار من القسوة والنفاق بسبب اليأس من الانتصار لتأخره، وبسبب الانصراف إلى الدنيا بدل الآخرة- يؤكد لهم أنها ليست سوى ميدانٍ للعب، واللهو، والزينة، والتفاخر، والتكاثر، وبالرغم من أن هذه الحقيقة ليست غائبة عن أذهان المؤمنين عموما إلا أنها لم تتحول من الفكرة إلى وعي يهيمن على النفس، وبتعبير آخر لم تتحول العبرة إلى موعظة عملية، وآنئذ ما الفرق بين الذي يجهل وجود لغم في طريقه فينفجر فيه، وبين الآخر الذي يحتمل ذلك أو يدري به لكنه لا يحتاط؟! كلاهما يتناثران أشلاء في الهواء، لأن العلم بلا إقدام يساوي الجهل، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلا شك إذن أن المؤمن الذي يلعب ويلهو في الدنيا، ويتخذها زينة وتفاخرا وتكاثرا في المال والأولاد، ويبخل بالإنفاق في سبيل الله حرصا وتشبثا بها، كمثل الذي يكفر بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب، وإلا لجعل الآخرة هدفه، وبذل ما يستطيع من أجلها رغبة في رضوان ربه وثوابه، وخوفا من غضبه وعقابه، بل أصبح يتسابق -إذن- نحو الخيرات، لأنها الزاد والثمن فيها، وربما لذلك أمرنا القرآن بالعلم قائلا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هنا ثلاثة تأكيدات: أحدها الدعوة المؤكدة إلى العلم، والثاني أداة التوكيد أن، والثالث الحصر ﴿أَنَّمَا﴾، وحيث تتوالى هذه التأكيدات على حقيقة ما فهي مهمة ومهم أن يعلمها الإنسان، فما هي تلك الحقيقة؟.

إن الحياة الدنيا لمن أرادها؛ ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ واللعب هو العمل الباطل وبلا هدف

معقول، قال تعالى يحدث عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٤-٥٥]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، أي لا يعلمون الهدف الذي تنطوي عليه الحياة الدنيا، فتصبح بمجملها باطلا ولعبا ولهوا، كما أن تفريغ الدين من مضمونه ومن قيمه وأهدافه عند البعض يجعلهم يتخذونه لهوا ولعبا، كما قال ربنا سبحانه عنهم: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وإنما نسمي مجموعة ممارسات لعبا لأنها غير هادفة (حتى بمقاييس أهل الدنيا) كذلك الدنيا لمن يمارسها لا لهدف أبعد منها تصبح لعبا، فإذا سألته لماذا تعمل؟ قال: لآكل، وإذا أعدت عليه السؤال ذاته وقلت: لماذا تأكل؟ قال: لكي أتقوى على العمل، وإذا سألته ثالثاً: لماذا أساسا تعيش؟ قال هكذا جئت لأعيش ولا أعرف لماذا؟.

أو لم تسمع شاعرهم قال:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أو أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقي؟ لست أدري[1]

وحينما يغرق في ممارسته اللعب يتحول إلى اللهو، حيث النسيان التام والغفلة عن الهدف. بلى؛ جاء الإنسان من عالم الذر إلى الدنيا بوصفها محطة يتزود منها، ثم يواصل سفره إلى الآخرة، ولكنه حيث جاءها رأى الناس يلعبون، ورأى أدوات اللعب فشاركهم، فبالغ في لعبه، فنسي أنه على سفر وغفل عن مهمته.

وكل شيء يدعونا إلى الغفلة، وينسينا أهدافنا فهو لهو، قال الإمام علي عليه السلام: «فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا»[2]. واستخدام القرآن لكلمة اللهو يأتي بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر ١ - ٢]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

(١) ديوان الجداول للشاعر ايليا ابو ماضي، قصيدة الطلاسم: ص١٣٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٣، ص٤٧٤.

[المنافقون: ٩]، وقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]، وأكثر ما يتورط أحد في اللهو بسبب نسيان الموت والآخرة، ولذلك يأتي في نهاية الآية تذكير بها عند قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾، وانطلاقا من هذا التعريف فإن الغناء، والرقص، ومجالس البطّالين وجمع المال، وما أشبه من مصاديق للهو.

وإذا لَمّا الإنسان نسي السفر، ونسي الاستعداد له، فإذا بك تراه يغرق في حب الدنيا، وينصرف إلى أهداف جانبية فيها (تسمى بالزينة)، طبيعتها الفساد والزوال حتى بمقاييس الدنيا الزائلة. أرأيت الذين يصرفون الألوف من أموالهم على أمور كمالية أو ديكورية؟.

والزينة هي الأمور الثانوية التي يكمل بها الشيء، ومنها الحلي والعطر والورد لأنها تكمل جمال المرأة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] وقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

والإسلام لا يعارض الزينة، بل ويستنكر تحريمها، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، كما أنه دعا إليها، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الأعراف: ٣١]. بل، حرم الإسلام الإسراف فيها، فقال في خاتمة الآية: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، كما حرم الباطل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

إن المطلوب هو حفظ التوازن المعقول بين الأمور الكمالية والأخرى الأساسية، وأن يجعل الإنسان الأمور الثانوية تكمل بالفعل الجانب الضروري من حياته، لا أن تكون بديلا عنه، أو على حسابه، ومشكلة البشرية اليوم أنها توجهت إلى الكماليات على حساب أهدافها الأساسية، ليس في مجال الالتزام بالدين وحسب، بل في مجال الحضارة، وهذا جزء من الموقف الخاطئ من الحياة الدنيا، ولا ريب أن سببه نسيان الآخرة أو الكفر بها، لأن مثل هذا الإنسان يجري وراء أهوائه ناسياً ليس فقط أهدافه السامية (في الآخرة) بل ومصالحه الحقيقية (في الدنيا)، كما قال ربنا سبحانه عن مثله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

أما الذي يعتقد بالدنيا وحدها فسعيه سوف يكون من أجل إشباع الشهوات، وجمع الزينة، وستزيده زينتها انغماسا فيها وبعدا عن الحق. ومن مظاهر الاهتمام الزائد بالزينة التوجه إلى القشور، على حساب اللباب. في حين أن المؤمن بالآخرة يحس بالمسؤولية فلا يسترسل في اتباع شهواته، ولا يندفع في الزينة التي تخالف بمصالحه الحقيقية.

﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ والتفاخر هو الآخر مما يتلهى به الإنسان ويستعيض به عن أهدافه الحقيقية، وإذا كان اللعب واللهو والزينة تحكي الجانب الفردي من الاغترار بالدنيا، فإن التفاخر هو الجانب الاجتماعي للحالة ذاتها، ويأتي التفاخر نتيجة مباشرة للافتتان بالزينة إذ يرى الشخص نفسه كاملا وأفضل من غيره من خلالها، فيركبه الخيلاء والفخر.

ثم تتحول هذه الحالة النفسية الاجتماعية إلى فعل خارجي يمارسه المختال الفخور ليثبت عظمته على غيره من خلال التكاثر والتسابق المادي، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [الكهف: ٣٢-٣٦]. انظر هكذا يتحول حب الدنيا وزينتها إلى حالة نفسيه داخلية (الغرور والظلم) فاجتماعية (التباهي والتفاخر) ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ الممتلكات من العملات والعقارات، والمشاريع وما أشبه، ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ الأبناء والأنصار، وقد يتحول هذا التسابق صراعا بين الناس في أغلب الأحيان، ويركّز فيهم حب الدنيا ضمن أطر سياسية واجتماعية واقتصادية، وأظهر صورة صراع القوى الاستكبارية وتسابقها في نهب ثروات العالم، واستغلالهم في صالحها، والسيطرة عليهم بضمهم إلى نفوذها.

تعالوا نُمعن النظر في هذه الحياة الدنيا التي استحوذت على أفئدتنا (هذا اللعب واللهو، هذه الزينة، وهذا التفاخر والتكاثر) ما هي عاقبتها؟ بل ما هي حقيقتها بل هل لها - أساسا - حقيقة أم أنها أضغاث أحلام تراود النائمين فإذا ماتوا انتبهوا، وعرفوا أنها لم تكن سوى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، أو حفنة رماد في كف الإعصار؟.

ولكن أنى لنا أن نفكر في الدنيا ولا زلنا في أسر سحرها الجذاب؟! لا تكاد لحظة تمر علينا إلا ونحن في دوامة أُمنية نسعى إليها، أو فتنة نعيش في لهيبها، أو صراع نحترق في أتونه، وحتى في النوم تلاحقنا كوابيس النهار في صورة أحلام مزعجة! إذن كيف الخلاص من أغلال هذه الشهوات لنفكر بحرية وموضوعية في واقعنا؟.

إن للقرآن الحكيم مناهج شتى تساعد على التفكر السليم، وما يشير إليه السياق هنا من أبرزها: أن ننظر إلى الطبيعة ودوراتها السريعة، ونتساءل: أليست هذه هي الدنيا؟! أوَليست حياة النبات في دورتها السريعة شبيهة بحياة الإنسان في دورة أبطأ قليلا ولكن بالنسق ذاته، يقول عنها ربنا في آية كريمة: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦]؟!.

ويقول ربنا في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ مطر نزل على الأرض، فسقاها، واختلط بما فيها من بذور فصارت نباتا ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي أدخل إلى نفس الفلاح العجب والاغترار به، كما تدخل زينة الدنيا في نفوس الكافرين بالآخرة، ولا شك أن هذه الحالة سوف تجعله يعتقد ببقائه، ويلهو عن نهايته حيث يصير حطاما، والنبات هو المزروعات الصغيرة التي لا تبقى كالقمح والذرة، وتُسمَّى نباتا في أطوارها الأولى حيث تشق التربة.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ويترعرع، ويثمر حينما يبلغ أقصى القوة، ولكنه لا يبقى طويلا حتى تبدأ مسيرته إلى النهاية ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ أول الأمر. والملاحظ أن العطف جاء بالفاء وهي أقرب الحروف عطفا، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ إذا أكل دورته الحياتية، إذ تتيبس وتتكسر أوراقه وأعواده، وهذه بالضبط مسيرة الحياة عند الإنسان في الدنيا، يبدأ طفلا كالنبات، ثم ينشط ويهيج عند المراهقة والشباب، ولكنك تراه يتنكس في الخلق شيئا فشيئا، ويفقد قوته وزينته ليصير كهلا فشيخا عجوزا قد وهن وخارت قواه، ولا يطول به الأمد حتى تراه جثة هامدة محمولة على الأكتاف إلى قبر ضيق يستحيل فيه هيكلا، فأوصالا، فحطاما، فترابا تذروه الرياح، فلماذا يتشبث الإنسان بالحطام والمتاع الزائل إذن وهو مقبل على الآخرة؟.

ما هي أهداف الإنسان في الدنيا؟

وحينما يطمئن الإنسان إلى حقيقة الدنيا فسيعلم أن حطامها ليس بالذي يُشبع طموحاته ويحقق تطلعاته، إنه يريد السعادة ولا تتم له فيها، ويريد الخلود وهيهات ذلك؟، فلا بد أن يبحث له عن هدف سام يجده أهلا للسعي له، وهذا لا يمكن حتى يضيف إلى علمه بحقيقة الدنيا علما بحقيقة الآخرة، ومن هذا المنطلق يعطف الله على قوله: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فكل إنسان يحس بفطرته، أن طموحاته أكبر من الدنيا وما فيها، ولكنه إذا غفل عن الآخرة فسيبقى مُصرًّا على التشبث بالدنيا، طمعا في تحقيق ما

يقدر عليه منها مهما كان متواضعا، ولذلك نجد القرآن يُرسي قاعدة الإيمان بالآخرة في النفس ليحقق التوازن المطلوب في نفس البشر لكيلا ينساق وراء التكاثر في جمع حطامها، ظنًّا منه أنه يحقق تطلعاته بذلك. كلا.. أنت مخلوق لما هو أكبر منه وأبقى، فما الذي يعطيك هذا التفاخر والتكاثر؟ هب أنك بلغت ما بلغ سليمان ذلك النبي الكريم الذي سُخِّرت له الريح، واستخدم الجن وعُلِّم منطق الطير، ولكن أتعلم أين سليمان اليوم؟ وأين ملكه الكبير؟ وأين عزته الشامخة؟ أفلا نعتبر بمصير الملوك الذين حققوا عند الناس طموحاتهم فإذا بهم يُنقلون من قصورهم إلى قبورهم تأكل أبدانهم الديدان قبل أن تصبح رميما ثم ترابا تذروه الرياح؟.

أما المؤمن بالآخرة فإن نفسه قانعة بما لديها، راضية بما آتاها الله، وتائقة إلى ما عنده. هل سمعت نبأ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كيف خرج من أمواله جميعا لله مرة وقاسم الله أمواله مرات؟ أم هل عرفت زهد الإمام علي عليه السلام؟ وهكذا المؤمن يستبدل الدنيا بالآخرة، ولن يمتنع عن الإنفاق في سبيل الله.

وعلى أساس الإيمان بأن الآخرة هي دار الجزاء والخلود -فإما عذاب شديد، أو مغفرة ورضوان من الله حسب ما يقدم الإنسان في الدنيا ليوم الحساب- فإنه لا ريب سيعرف أهمية الحياة الدنيا، ودورها الحاسم في مستقبله الأبدي، وحينها لن يدع الهزال والمزاح واللعب يأخذ من وقته شيئا، لأن الغاية عظيمة، والخطر كبير، والفرصة قصيرة، بل سوف يخشع قلبه لذكر الله خوفا من عذابه، وطمعا في مغفرته ورضوانه.

وأعظم هدف يسعى إليه هو الخلاص من النار، لأن صراط الجنة يمر من فوقها. أوليس طريق الجنة محفوفا بالمكاره التي ينبغي للإنسان تحملها والصبر عليها، وبالشهوات التي ينبغي أن يتحداها ويجتنبها، فإن لم يتحمل ولم يصبر، أو لم يتحدَّ ويتجنب فسوف يقع في الجحيم وقودا لنيرانها ويُعذَّب فيها بقدر فشله. وهذه الغاية من أعظم طموحات المتقين ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وأعظم بها من غاية فاز والله من أصابها ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والهدف الآخر هو الدخول إلى الجنة، وذلك لا يمكن من دون مغفرة الله ورضوانه، إذ لا يدخل أحد الجنة بعمله -بل بفضل الله- حتى الأنبياء، وذلك لا يتحقق إلا بالإنابة إلى الله والاعتراف له بالخطأ، والسعي الدائب للإصلاح. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ هذه هي الأهداف الحقيقية التي يجب على كل إنسان السعي من أجلها، وبها تصبح الدنيا آخرة، والحياة فيها ذات معنى، وكل ساعة فيها أعظم من ساعات الآخرة. أما من دونها فتصبح

لعبا ولهوا، وتتحول إلى أداة للغرور ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ المتاع هو الزاد، والغرور الانخداع، قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، وشبَّه الدنيا بزاد الغرور، لأنها لا تشبع عند المنخدع بها حاجة حقيقية، إلا غروره الكاذب الباطل، الذي ينتهي عند الموت، فلا تبقى عنده ذرة من غرور.

وإذا نظرنا إلى حديث القران عن الدنيا، وإلى السياق الذي تقع ضمنه في كل مرة، فإننا سوف نلاحظ ورود ذكرها في مواضع كثيرة وعلاجا لمشاكل مختلفة مما يثير فينا التساؤل: لماذا؟ وقد يتكرر النَّصُّ الواحد في موارد متعددة، وسياقات مختلفة، ويجيب عن ذلك الحديث المروي عن الرسول ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[1] فمهما وجدت انحرافا أو خطأ في حياة الإنسان (فردا وجماعة) فإنك تجده متصلا بحب الدنيا، والاغترار بها.

[٢١] وإذا تحول نظر الإنسان وقلبه إلى تلك الأهداف السامية، فهو لا ريب سيتحول موقفه من الدنيا وسلوكه فيها، فالأهداف عظيمة والفرصة قصيرة، إذن لا بد من ترك اللعب واللهو إلى الجد والاجتهاد، وترك الزينة إلى ما ينفع، والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد إلى التسابق في الخير والصالحات الباقيات.

إن تلك الأهداف كفيلة بأن تجعله في ذروة الفاعلية، وتحيل المجتمع إلى بركان متفجر من الحيوية والاجتهاد وروادا في فضيلة التسليم للقيادة الرسالية، والاستجابة لدعوتها.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وانبعثوا انبعاثة نحو الجنة العريضة، بدل الدنيا، وقاوموا جاذبية المادة طلبا لرضوان الله ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ وهذا هو الأجر وهو -في الوقت ذاته- النور الذي وعد به الله تعالى الصديقين والشهداء في الآية (١٩).

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فلا يظنن أحد أنه يمن على ربه بالإيمان، أو أنه يحصل عليه بجهده، أو يدخل الجنة بسعيه، إنما بفضل الله ومنه يحظى الإنسان بالإيمان، ويدخل الجنة، بلى؛ إن إرادة الإنسان وسعيه ضروريان، كما قال ربنا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، ولكن التوفيق إلى ذلك جزء من فضله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وما دمنا في مقام رب عظيم، ذي فضل عظيم، ومغفرة عظيمة ورضوان، فمن السفه أن نرضى لأنفسنا بالأدنى، ونشتغل بالتوافه تاركين وراءنا ذلك الفضل العظيم.

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٤٠.

ويأتي الأمر الإلهي بالتسابق الذي يستهدف (المغفرة والرضوان)، وهو أعلى مراحل السعي الإيجابي وحالاته، في مقابل التكاثر في الأموال والأولاد، الذي يستهدف جمع أكبر قدر من حطام الدنيا، ويمثل أسفل دركات العلاقة والانشداد بها، بالرغم من اعتقاد الإنسان بأنه يبلغ الكمال عندها. ويصل التسابق إلى أقصاه حينما ينبذ المؤمنون الغرور بالعمل والأماني، وينطلقون من الإحساس بالتقصير، لأن الإحساس بالكمال يوقفهم عن السعي والاستزادة، ولذلك قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾، إن هذا الإحساس بالتقصير هو من صفات المتقين حسب ما يقول الإمام علي عليه السلام عنهم: «لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ القَلِيلَ وَلَا يَسْتَكْثِرُونَ الكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ وَاجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ وَاغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ»[1]، وهذه الصفة هي التي تصنع الإبداع والفاعلية في الفرد والمجتمع، وتجعله يتقدم إلى الإمام أبدا.

ما هو الموقف السليم من متغيرات الدنيا؟.

[٢٢-٢٣] وحيث يعيش المؤمنون في الدنيا، ويسابقون إلى فضل الله، فلا بد أن يستوعبوا طبيعتها المتغيرة لكيلا تترك آثارها السلبية فيهم، ففيها الغنى والفقر، والشفاء والمرض، والقوة والضعف، والنصر والهزيمة، والزيادة والنقص، ولا بد أن يستقيموا على كل حال، فالذي يتغير مع الظروف والمتغيرات لا يصل إلى أهدافه وطموحاته، لأنه تضله النعمة بطرا، والمصيبة يأسا، أو يعطي ويسابق حيث تسود هذه الحالة المجتمع ويلقى التشجيع إليها، ولكنه يتوقف حيث توقف الآخرون، أو ثبطوه، فكيف يحصل الإنسان على الثبات؟.

أولاً: بالمعرفة العميقة بطبيعة الدنيا على ضوء الآية الكريمة ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ والرغبة في فضل الله، مما يُزهِّد الإنسان فيها، فلا يفرح حين تُقبل عليه، ولا يحزن حين تُدبر عنه، لأنها ليست بذات شأن عظيم عنده.

قال الإمام علي عليه السلام: «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: زَاهِدٌ وَصَابِرٌ وَرَاغِبٌ، فَأَمَّا الزَّاهِدُ فَقَدْ خَرَجَتِ الأَحْزَانُ وَالأَفْرَاحُ مِنْ قَلْبِهِ فَلَا يَفْرَحُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا يَأْسَى عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَاتَهُ، فَهُوَ مُسْتَرِيحٌ»[2]، وقال عليه السلام: «الزُّهْدُ كُلُّهُ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ مِنَ القُرْآنِ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ لِكَيْلَا

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣ (خطبة المتقين).

(٢) الكافي: ج٢، ص٤٥٥.

تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى المَاضِي وَلَمْ يَفْرَحْ بِالآتِي فَقَدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطَرَفَيْهِ»[١]. ونقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنه رأى جابر بن عبد الله رضي الله عنه وقد تنفس الصعداء (التنفس الطويل من هم أو تعب) فقال عليه السلام: «يَا جَابِرُ عَلَامَ تَنَفُّسُكَ؟ أَعَلَى الدُّنْيَا؟ فَقَالَ جَابِرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ: يَا جَابِرُ مَلَاذُ الدُّنْيَا سَبْعَةٌ: المَأْكُولُ وَ المَشْرُوبُ وَ المَلْبُوسُ وَ المَنْكُوحُ وَ المَرْكُوبُ وَ المَشْمُومُ وَ المَسْمُوعُ، فَأَلَذُّ المَأْكُولَاتِ العَسَلُ وَ هُوَ بَصْقٌ مِنْ ذُبَابَةٍ، وَ أَحْلَى المَشْرُوبَاتِ المَاءُ وَ كَفَى بِإِبَاحَتِهِ وَ سِبَاحَتِهِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، وَ أَعْلَى المَلْبُوسَاتِ الدِّيبَاجُ وَ هُوَ مِنْ لُعَابِ دُودَةٍ، وَ أَعْلَى المَنْكُوحَاتِ النِّسَاءُ وَ هُوَ مَبَالٌ فِي مَبَالٍ وَ مِثَالٌ لِمِثَالٍ، وَ إِنَّمَا يُرَادُ أَحْسَنُ مَا فِي المَرْأَةِ لِأَقْبَحِ مَا فِيهَا، وَ أَعْلَى المَرْكُوبَاتِ الخَيْلُ وَ هُوَ قَوَاتِلُ، وَ أَجَلُّ المَشْمُومَاتِ المِسْكُ وَ هُوَ دَمٌ مِنْ سُرَّةِ دَابَّةٍ، وَ أَجَلُّ المَسْمُوعَاتِ الغِنَاءُ وَ التَّرَنُّمُ وَ هُوَ إِثْمٌ، فَمَا هَذِهِ صِفَتُهُ لَمْ يَتَنَفَّسْ عَلَيْهِ عَاقِلٌ؟ قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: فَوَ اللهِ مَا خَطَرَتِ الدُّنْيَا بَعْدَهَا عَلَى قَلْبِي»[٢].

ثانياً: بالرضا والتسليم بالقضاء الذي يأذن به الله فيقع، وهو أرفع درجة من الزهد، بل أرفع درجات الإيمان لقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام وقد سئل عن الزهد: «الزُّهْدُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ أَعْلَى دَرَجَةِ الزُّهْدِ أَدْنَى دَرَجَةِ الوَرَعِ وأَعْلَى دَرَجَةِ الوَرَعِ أَدْنَى دَرَجَةِ اليَقِينِ وأَعْلَى دَرَجَةِ اليَقِينِ أَدْنَى دَرَجَةِ الرِّضَا»[٣]. ولا يسمو الإنسان إليه إلا إذا آمن بأن كل ما يحدث في الوجود هو بتقدير مسبق من الله (القدر)، فذلك بدل أن يؤثر فيه سلبا باتجاه الانحراف يؤكد فيه الانتماء إلى مسيرة الحق، والتوحيد المخلص لله بدل الشرك، ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]، لأنهم يعتقدون بهذه الحقيقة: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ مصيبة خارجية من حولكم، قال صاحب المجمع: مثل قحط المطر وقلة النبات، ونقص الثمرات ﴿ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ مباشرة «من الأمراض والثكل بالأولاد»[٤] أو ما أشبه ﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ فهي مكتوبة على الإنسان في قدر الله قبل الخلق الأول لنفسه، وتحولها إلى الواقع إنما هو تصويب للقدر بإنفاذ القضاء، ومن الصعب على الإنسان أن يستوعب هذه الحقيقة انطلاقا من النظر إلى نفسه وقدراته المحدودة، ولكنه إذا فكر فيها من خلال إرادة الله وعلمه فالأمر هيّن عنده تعالى ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وكيف لا يكون كذلك ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾؟

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٦ ص١٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١١.
(٣) الكافي: ج٢، ص٦٢، تفسير القمي: ج٢ ص٢٥٩.
(٤) مجمع البيان: ج٩، ص٣٦٢.

ولهذه الآية الكريمة علاقة وثيقة بالدعوة إلى التسابق، وهي أن المتغيرات السلبية في حياة الإنسان (المصيبة) قد تصيبه بالإحباط النفسي الذي يفقده الفاعلية اللازمة للتسابق، ولا شك أن الإيمان بالقضاء والقدر مانع عن الإحباط في الضراء كما هو حاجز عن الاغترار في السراء ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ لأن اليأس (التثبط والهزيمة الداخلية) بسبب التغير السلبي يسلبنا الفاعلية والتحرك. ولماذا نسعى ونسابق إلى هدف لا نصل إليه؟، هذا هو الإحساس والتساؤل الذي يرتسم عند المصيبة، ولكن لماذا اليأس، فالمصيبة إما بإرادة إلهية لا سبيل فيها إلا الاعتراف بها والتسليم لإرادة ربنا وحكمته، وإما تكون بسببنا فنحن إذن قادرون على مقاومتها وتغييرها بتغيير ما في أنفسنا. ولا داعي لليأس، فقد نجاهد العدو فنفشل وننهزم لأننا متفرقون، منهزمون نفسيًّا، ولكننا نستطيع الانتصار عليه إذا اعترفنا بعوامل الهزيمة عندنا فتجنبناها، واكتشفنا أسباب الانتصار عند العدو فأخذنا بها.

وكذلك النعمة يجب ألَّا تدفعنا إلى الغرور والفخر، فنعتمد عليها بدل الاعتماد على الله، وهي لا تبقى، أو تنسى العوامل التي تسببت فيها فتزول ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ لأن الفرح (الغرور والإحساس بالكمال) يدعونا إلى التوقف، كاليأس ولكن بصورة أخرى، حيث لا نجد دافعا إلى السعي والاستزادة، وقد بلغنا القمة عند أنفسنا، بل قد يدعونا إلى الشرك وذلك للشعور بالاستغناء عن الله تعالى. ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ كائنا من كان، لأنهما صفتان سلبيتان منبوذتان عنده تعالى، لا يبررهما حسب ولا نسب ولا منصب ولا فضل مادي أو معنوي. ونستلهم من الآية:

أولاً: أن الفرح (و الإعجاب بما نملك) يسبب التكبر على الناس والفخر.

ثانياً: أن علاجه يتم بالإيمان بالقضاء والقدر، وأن ما نملك لم نحصل عليه من عند أنفسنا بل بفضل الله سبحانه، فلا داعي للتعالي على الناس به أو الفخر والغرور.

ثالثاً: أن من يعيش التكبر والفخر يخسر ما آتاه الله، لأن الله لا يحب كل مختال فخور، وإذا كانت النعمة من الله فإن زوالها سيكون بيده.

[٢٤] ويضرب الله مثلا على المختالين الذين يفخرون، ويبين لنا انعكاس فرحهم بالنعم على نفوسهم وسلوكهم بالنسبة للإنفاق، بعد بيان انعكاسه في النفس والمجتمع ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ وإنما يبخلون لأسباب أهمها أمران:

الأول: لأنهم يريدون التفاخر والتكاثر، فهم يزعمون أن الإنفاق يقلل ما يملكون،

وجاء في الحديث «مَا فَتَحَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ عَلَيْهِ مِنَ الحِرْصِ مِثْلَيْهِ»[1].

الثاني: لأنهم يشعرون بالاستغناء عن كل أحد، وهذا يتضخم في نفوسهم حتى يشعرون بعدم الحاجة إلى ثواب الله، فإذا بهم لا يستجيبون لدعوته بالإنفاق، ولا يدعمون مسيرة الحق ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ الذي لا يحتاج إلى أحد، وإنما أمر بالإنفاق لصالح الناس ولابتلائهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ فهو يواصل فضله على عباده.

ولكن لماذا يأمرون الناس بالبخل؟.

١- لكي يبرروا بخلهم بخلق تيار من البخلاء في المجتمع حتى لا يُرى بخلهم شذوذا.

٢- حفاظا على الحالة الطبقية التي تُمهِّد لهم الاستبداد والاستغلال والفخر والخيلاء، أما إذا ردمت الهوة بين الطبقتين الأغنياء والفقراء فعلى من يختالون ويفتخرون، ومن يستغلون ويستبدون؟!. والرأسمالية الموجودة الآن هي أحد إفرازات الفلسفات والأفكار الإغريقية القديمة العفنة، والتي تُقسِّم الناس إلى طبقات حتمية، وذاتها موجودة الآن في الفلسفات البرهماتية في الهند.

٣- كما أن المنافقين يتخذون تثبيط الناس عن الإنفاق، ودعوتهم إلى البخل سبيلا للصد عن سبيل الله، ومحاربة الرسول ورسالته الداعيان إلى العدالة والوقوف ضد الطبقية المقيتة، واستغلال الناس و.. . مما يتعارض مع مصالحهم. قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]، وهذه الآية تشير إلى الهدف الأخير للأمر بالبخل، ولعل الآية من سورة الحديد إشارة إلى دور المنافقين في محاربة الرسالة، والدعوة إلى التولي عن الرسول والحق. وفي الأخبار روايات كثيرة في ذم البخل والبخلاء إليك بعضها:

- قال رسول الله ﷺ: «البَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ»[2].

- قال الإمام علي عليه السلام: «البُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ العُيُوبِ، وهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ»[3].

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٢٥٤.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٧، ص١٣.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٢٩.

- قال عليه السلام: «النَّظَرُ إِلَى البَخِيْلِ يُقَسِّي القَلْبَ»[١].

- قال الإمام الصادق عليه السلام: «حَسْبُ البَخِيلِ مِنْ بُخْلِهِ سُوءُ الظَّنِّ بِرَبِّهِ، مَنْ أَيْقَنَ بِالخَلَفِ جَادَ بِالعَطِيَّةِ»[٢].

- عن الإمام الرضا عليه السلام: «وإِيَّاكُمْ والبُخْلَ فَإِنَّهَا عَاهَةٌ لَا تَكُونُ فِي حُرٍّ وَلَا مُؤْمِنٍ، إِنَّهَا خِلَافُ الإِيمَانِ»[٣].

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٥٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٤٧.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٣٤٦.

ليقوم الناس بالقسط

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ(١) وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا(٢) عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً(٣) ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾.

هدى من الآيات:

إقامة العدالة وفق القيم الإلهية أحد أهم وأبرز الأهداف التي تنزلت من أجلها رسالات الله، وسعى إليها الأنبياء والرسل، كما ينبغي أن يسعى إليها كل مؤمن بل كل إنسان، ولا يجوز

(١) بأس: عذاب بالقتل أو القصاص ونحوهما.
(٢) قفّينا: أتبعنا.
(٣)ورهبانية: مشتقة من الرهبة، بمعنى ما يظهر من العبادة على الجوارح من آثار رهبة القلب.

أن ينتظر رسولا يبعثه الله ليتحملها حين يتبع الرسول ﷺ، فإذا لم يحدث ذلك اعتزل الحياة العامة، وبالغ في الترهب انتظارا للمنقذ، كما فعل الكثير من أهل الكتاب، فإن ذلك يصير بهم إلى الظلم والتخلف في الدنيا، والعذاب والغضب الإلهيين في الآخرة.. وإذا حمل راية العدالة شخص أو جماعة فإن على سائر الناس أن ينصروه إن وثقوا منه ومن أهدافه، ولا يدعوه وحده في مواجهة الظالمين، فذلك هو المحك الذي يُثَبِّت شخصية الأمة الحقيقية، كما أنه الطريق إلى كفلين من رحمة الله: هدى ورحمة في الدنيا، وجنة ومغفرة في الآخرة.

بينات من الآيات:

[٢٥] ما هي السمات الأساسية للحركة الصادقة والصالحة؟ وما هو هدفها وما هو المنهج الإلهي الكفيل بالوصول إليه؟ ومن هو المسؤول عن تطبيقه؟ عن هذه الأسئلة الحساسة تتحدث آية الحديد التي تنتهي إليها بصائر هذه السورة التي سميت باسمها.

إن أهم السمات في الحركة الصادقة والتي تُعَدُّ بيّنات على سلامتها هي الآتية:

الأولى: الانبعاث باسم الله رب العالمين، أما الانطلاقة الضالة التي تبدأ من ثقافة الشرك والجحود فإنها آية واضحة على خطأ الحركات التي ترتكز عليها، والرسل وحدهم انطلقوا باسم الله وبأمره الذي تلقوه عبر الوحي بعد اختيارهم من قبله تعالى، وحيث ختم الله عهد هذا النوع من الحركات بنبيه محمد ﷺ فإن الحركة الصادقة هي التي تكون امتدادا لهم عليهم السلام وبزعامة الأوصياء عليهم السلام والربانيين والعلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه والأولياء والقادة الرساليين.

الثانية: المنهج الرباني الأصيل، والمتمثل في الرسالات التي أكملها وختمها ربنا بالقرآن الذي حفظه من التحريف، وجعله مهيمنا على الكتب، فإنه المنهج الأصيل والوحيد الذي يجب اتباعه، واتباع هداه وبصائره، أما المناهج القائمة على الجهالة والإفراط واتباع الأهواء فهي لا تصلح وسيلة مناسبة للنجاح، لأنها إن أخرجت الناس من ظلمات فلكي تدخلهم في مثلها، أو أنقذتهم من عبودية فإلى عبودية مثلها أو أسوأ منها.

الثالثة: الأهداف السامية، والتي يلخصها القرآن في العدل (قيام الناس بالقسط)، وهذا المفهوم واسع يشمل ردم الهوة بين الطبقات الاجتماعية ولايتجسس عليه، إذ هو الالتزام الحق والإنصاف من قبل الإنسان في كل أبعاد حياته وعلاقاته، في علاقته بربه وقيادته، وفي علاقته بنفسه ومجتمعه، وفي علاقته بالخليقة والطبيعة من حوله. وإنما يعرف مدى قيامه بالقسط من

خلال الميزان (الفطرة، والعقل، والكتاب، والقيادة الرسالية).

والحركة الرسالية هي التي تسعى إلى ذلك بالكلمة الصادقة أو بالقوة الضاربة وكل ذلك بالعدل. التي يجب على الناس تبنّيها، وإعانتها، والانتهاء إلى صفوفها، لأنها تجاهد للحق ومن أجل سعادتهم، ولأنها المحك في نصرتهم لله ولمسيرة الأنبياء والمرسلين.

والآية تشير إلى هذه السمات إذ تقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ دليلا إلى الله، وتعريفا للناس به تعالى، فهم يتحملون مسؤولية محددة هي تبليغ رسالة الخالق إلى المخلوقين، وهدايتهم إلى معرفته، والإيمان به، والعمل برسالته، قال النبي ﷺ: «وَ بَعَثَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ لِتَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ وَ يَكُونَ رُسُلُهُ إِلَيْهِمْ شُهَدَاءَ عَلَيْهِمْ وَابْتَعَثَ فِيهِمُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وَلِيَعْقِلَ الْعِبَادُ عَنْ رَبِّهِمْ مَا جَهِلُوهُ فَيَعْرِفُوهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ بَعْدَ مَا أَنْكَرُوا، وَ يُوَحِّدُوهُ بِالإِلَهِيَّةِ بَعْدَ مَا عَنَدُوا»[1]، وقال الإمام علي عليه السلام: «بَعَثَ اللهُ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ لِئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ»[2]، فهم الواسطة بين الخالق والمخلوق، وحبل الله الممدود من السماء إلى الأرض، ولكن كيف نعرف صدقهم وصدق دعوتهم من بين القادة المنحرفين والدعوات الضالة؟.

القران يجيب عن هذا السؤال إذ يقول: ﴿بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ لهذه الكلمة معنيان يبدو أن كليهما تشملهما الكلمة هنا:

١ - تفاصيل الهدى، المتمثلة في الثقافة التوحيدية، والبصائر والقيم والمناهج المنبثقة منها. واشتمال رسالات الله على هذه التفاصيل دليل على أنها وحي من عند الله، إذ قد يهتدي بشر أوتي صفاء النفس إلى بعض معاني الغيب، ولكن أنى للإنسان أن يأتي بهذه المنظومة المتكاملة من البصائر الغيبية، إنْ ذلك إلا دليل اتصاله المباشر بالوحي.

٢- الحجج والآيات التي تهيمن على النفس والعقل، كالمعاجز، والخلوص من الهوى والمصلحة والتمحض للحق، وهذا يهدينا إلى أن الرسالات الإلهية قائمة قبل كل شيء على الإقناع، لأنه الذي ينمي الإيمان في النفس، ويحركه بفاعلية أكبر، وأبقى من أي عامل آخر، وربنا يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، ذلك أن الإيمان الناتج من الاستجابة للبينات والآيات هو الذي يُخشِعُ القلب والجوارح لذكر الله ويُطوِّعها للرسول ولما نزل من الحق وللميزان، وبالتالي يدفع المؤمن للقيام بالقسط، وحينها

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٨٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص٣١٥.

يتخلف أحد من المؤمنين عن الاستجابة للرسول وللوحي فإن ذلك يدل على تزلزل في قناعاته.

وحيث لا يؤتي الإيمان ثماره إلا إذا تحول إلى نظام تربوي، اجتماعي، اقتصادي، سياسي، ثقافي شامل لجوانب الحياة، يكفل للبشرية السعادة، أنزل الله شريعة متكاملة إلى جانب البينات متمثلة بالكتاب ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإذا كانت البينات تؤمّن القناعات الأولية فإن الكتاب يؤمن النظام العملي الشامل المنطلق من الإيمان، والذي يستهدف تكريسه بعمق في النفوس والواقع، والقيام بالقسط -هذا الهدف العظيم- إنما يستمد شرعيته وشرعته منه. ومع دلالة الإنزال على المعنى الظاهر من الكلمة فإنه يدل على الفرض، وكل ما نزل من الخالق إلى المخلوق فهو لازم ومفروض عليه القيام به. ومن البديهي أن معرفتنا بالبينات وأن الكتاب من الله تلزمنا العمل به وتنفيذه.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ الوسيلة التي نعرف بها مضامين الكتاب الخارجية.

والسؤال: ما هو الميزان؟ هل هو العقل؟ أم الإمام العادل؟ أم هذه المقاييس التي يزن الناس أشياءهم بها؟.

يبدو أن الميزان أساسا هو المقياس الذي نعرف به تطبيق الحكم على الواقع الخارجي، وهو لا يتم إلا بالعقل والإمام والمقياس السليم. كيف ذلك؟.

أولاً: ما جاء القرآن ليلغي دور العقل، إنما ليثير دفائنه بالاجتهاد في فهم حقائقه وأحكامه وطريقة تطبيقه، وليقوم بدوره الحساس والخطير في حياة البشرية.

ثانياً: ما جاء القرآن بديلا عن الإمام (السلطة العادلة) حيث يجب التسليم للقيادة الشرعية في حدود قيم الكتاب، فدور الإمام يكمل دور الرسالة، لذلك قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي وَأَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابُ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي أَلا وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[1]، وقد أجمعت فرق المسلمين قاطبة على هذه الرواية، مع حكم العقل بضرورتها، أما قول الخوارج: «حسبنا كتاب الله» فإنه باطل بشهادة الكتاب، وشهادة العقل، بل وشهادة التاريخ البشري حيث لم نعهد جماعة بلا سلطة تحكمهم، وحتى الخوارج أنفسهم ما عاشوا دون سلطة طول تاريخهم. وميزان الإنسان في الدنيا هو ميزانه في الآخرة حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١]. عن الإمام الرضا عليه السلام: «**وَالْمِيزَانُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ** عليه السلام

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص١٠٦.

نَصَبَهُ لِخَلْقِهِ، قلت: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] قال: لَا تَعْصُوا الإِمَامَ»[1].

ثالثاً: والعقل يعكس مقاييسه التي فُطِر عليها على مجموعة أدوات يقيس بها الأشياء. أرأيت أن العقل يعرف -عبر البصر- مدى قرب أو بعد الأشياء، ولكنه التماسا للدقة يعكس ذلك على أدوات العلم (المتر والكيلومتر)، كما يقدر العقل على معرفة مدى حرارة الجسم باللمس، ولكنه يبدع المحرار ليكون أقرب إلى الدقة، وهكذا سائر الموازين. إنها تجليات العقل على الطبيعة، ومن جهة أخرى إنها أدوات لحكم السلطة العادلة، فلولا القوانين التي تنظم العلاقة وتزن مدى تطبيق القيم على الواقع لم يستطع الإمام فرض العدل على الناس.. وهكذا كان الميزان أساسا هو العقل (الذي هداه الله لمعرفة المقاييس والمقادير)، والإمام الذي هو بمثابة العقل الظاهر، ثم الأنظمة والأدوات القياسية، لأنها تهدي الناس للحق والعدل. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وإقامة الشيء تنفيذه على أصلح وجه، ومنه إقامة الصلاة إذا مارسها بوجهها الصحيح. والعوامل الثلاثة (البيان، الكتاب، الميزان) يكمل بعضها بعضا، وهي كفيلة بأن توفر المناخ المناسب لإقامة القسط ولتحقيق هدف رسالات الله.

والقسط -حسب الرازي- والإقساط هو الإنصاف، وهو أن تعطي قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك، والعادل مُقسِط، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، والقاسط الجائر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] [2]. وحسب بعض اللغويين: قسط (بالفتح) قِسْطاً (بالكسر): عدل، وقَسْطاً (بالفتح) وقسوطا: «جار وعدل عن الحق»[3]، ثم اعتبر ذلك من الأضداد. وأنى كان فإن مفردات استخدام الكلمة تدل على أنها ليست مجرد بسط العدالة الظاهرة، بل هي إقامة العدالة الواقعية التي فيها المزيد من الإنصاف، وإيتاء الحق لأهله.

والآية تصرح بأن إقامة القسط تكون بيد الناس أنفسهم، فلم تقل: ليقوم الرسل بالقسط بين الناس، بل قالت: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، ولو أن الناس تخلوا عن مسؤوليتهم تجاه العدالة فإن القسط لا يقوم، لأن رسالات الله توفر للناس فرصة إقامة القسط، ولم يبعث الأنبياء لفرض العدالة بالإكراه على الناس. وقيام الناس بالقسط يعني العدالة، وإقامة الحق في سائر جوانب حياتهم، مع الله، ومع الرسول، ومع القيادة الشرعية، ومع الناس، بل ومع الحياة، فيتقون الله حق تقاته، ثم يختارون الإمام العدل ويسلمون له ويتبعونه، عن الإمام الرضا عليه السلام:

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٤٣. وقد مر في سورة الرحمن تفصيل حول معنى الميزان.
(٢) تفسير الرازي: ج٢٩ ص٢٤٢.
(٣) تاج العروس: ج١٠، ص٣٨٠.

«قلت (أي الراوي): ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ قال: أَقِيمُوا الإِمَامَ العَدْلَ»[1]، ويلتزمون الحق مع أنفسهم باتباع القصد من دون إفراط ولا تفريط، ومع الناس فلا يبخسون، ولا يطففون، ولا يظلمون ولا يعتدون، ولا ينقضون العهد، وهكذا يلتزمون العدل في علاقتهم مع الخليقة من حولهم، فلا يفسدون في الأرض بعد إصلاحها، ولا يهلكون الحرث والنسل، ولا.. ولا..

ولكن تبقى شريحة من الناس تخالف الحق، من أجل هذا أنزل الله الحديد وسيلة رادعة لتنفيذ القسط واقامته بين الناس، ولا ريب أن القوة ليست الوسيلة المناسبة دائما، فما يقره الإسلام شرعية القوة في الحالات الخاصة لا شريعتها. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ قال الإمام علي عليه السلام: «يَعْنِي السِّلاَحَ وَغَيْرَ ذَلِكَ»[2]، مما يحقق الغرض منه، وهو الردع وتنفيذ القسط. وهذا الشطر من الآية معطوف على ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ ولكن الله يذكر أولا الهدف من الحديد. لماذا؟

يبدو لكي يبين بصيرة هامة وهي: أن العوامل المتقدمة هي الأهم، ولا بد أن تكفي في الظروف العادية ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ (أنفسهم) بِٱلْقِسْطِ ﴾ فلا يحتاجون إلى إعمال الحديد وذلك لأن القوة التنفيذية في الإسلام تستمد قوتها الأساسية من الإيمان لا من السيف.

وهنا نتساءل: إذن لماذا أنزل الله الحديد؟.

الجواب: إنما لأولئك الجبابرة والطغاة والمعاندين الذين قست قلوبهم عن وعي البينات والكتاب، وعارضوا الميزان والقسط، لمثل أولئك شرع الله استخدام السيف، ورغّب فيه، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «الخَيْرُ كُلُّهُ فِي السَّيْفِ وتَحْتَ ظِلِّ السَّيْفِ ولَا يُقِيمُ النَّاسَ إِلَّا السَّيْفُ»[3]، وقال الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى دَاوَى هَذِهِ الأُمَّةَ بِدَوَاءَيْنِ: السَّوْطِ والسَّيْفِ لاَ هَوَادَةَ عِنْدَ الإِمَامِ فِيهِمَا»[4]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ بَعَثَ رَسُولَهُ بِالإِسْلَامِ إِلَى النَّاسِ عَشْرَ سِنِينَ فَأَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوا حَتَّى أَمَرَهُ بِالقِتَالِ فَالخَيْرُ فِي السَّيْفِ وتَحْتَ السَّيْفِ والأَمْرُ يَعُودُ كَمَا بَدَأَ»[5]، وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «السَّيْفُ فَاتِقٌ وَالدِّينُ رَاتِقٌ، فَالدِّينُ يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ والسَّيْفُ يَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾»[6].

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٣٤٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٠ ص١٣٨.
(٣) بحار الأنوار: ج٩٧ ص٩.
(٤) بحار الأنوار: ج٣٢ ص٩.
(٥) وسائل الشيعة: ج١٥، ص١٥.
(٦) غرر الحكم: حكمة ٧٦٣٤.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ على الذين لا يقومون بالقسط (حيث الحدود، والقصاص، وسائر العقوبات الشرعية)، وعلى الذين يظلمون ويحاربون العدالة (حيث الجهاد في سبيل الله) واستخدم الحديد رمزاً للقوة، باعتباره المادة الأساسية لصنع الأسلحة ووسائل القوة.

وهنا يُطرح سؤالان:

الأول: إذا كان الإسلام يؤمن بالحرية فلماذا القوة؟.

والثاني: إذا كان الله سوف يحاسب الناس يوم القيامة فلماذا السيف والجهاد في الدنيا؟.

ونجيب عن ذلك:

أولاً: الإسلام بين الحجة والقوة

أبرز أهداف الإسلام تحرير الإنسان من الأغلال ظاهرة وباطنة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، بل؛ الرسول يخرج الناس من ظلمات الجهل والتخلف والاستعباد، إلى نور العلم والتحضر والحرية، ولكن كيف؟ هل بقوة المنطق أم بمنطق القوة؟ لقد بينت آيات عديدة أنه لا إكراه في الدين، وأن الرسول ليس بجبار عليهم، قال سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال سبحانه: ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، وتطبيقا لهذه الحقيقة في الواقع منع ربنا الرسول والمسلمين من إكراه الناس على الدخول في الدين الجديد، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

إذن لماذا القوة؟.

إنما هي ضد فريقين:

الأول: الذين يصادرون حرية الناس، ويفرضون عليهم أغلالهم.

الثاني: الذين يخرجون على قوانين البلاد، ويعيثون في الأرض فسادا.

ثانياً: الإسلام والقوة والحياة

١ - أما لماذا القوة في الدنيا مادام الله يحاسب الناس في الآخرة فيجزي المحسن والمسيء؟ فلأن الابتلاء لا يتم إلا عند توافر شروطه، فلو أطبقت على الأرض حكومات الضلال وأفرغت على الناس دعاياتها السامة، دون أن تسمح لأحد بنشر الدعوة إلى الله بينهم، كيف تتم آنئذ حجة الله على سائر العباد. أوليسوا كانوا يقولون: ربنا لم تبلغنا الدعوة إليك، ولم نسمع عن رسولك شيئا؟ إذا لا بد أن يسعى المؤمنون لتوفير جو الامتحان ليهتدي من اهتدى عن بَيِّنَةٍ، ويضل من ضل عن بينة.

٢ - ثم إن الذين يعارضون استخدام القوة من قبل المؤمنين لا ينظرون إلى الجهاد إلا من زاوية المضاعفات السلبية التي تستتبعه، وبالذات من زاوية بطش الحكومات الفاسدة بالمجتمع والمجاهدين أنفسهم، في حين يجب عليهم النظر من زاوية المعطيات الإيجابية للجهاد على صعيد الدنيا حيث الحرية والاستقلال والأمن والتقدم وسائر مضامين إقامة القسط ونتائجه، وعلى صعيد الآخرة حيث رضوان الله وجنته، وهذه بعض المنافع التي جعلها الله للحديد.

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فالحديد سلاح يساهم في إقامة القسط، وهو في الوقت ذاته معدن يتدخل في كثير من الصناعات ومرافق الحياة.

وإن السعي لإقامة الحق والعدالة بين الناس يتسبب في صراع مصيري بين أنصار الحق ورسله (حزب الله) وأنصار الباطل وأئمته (حزب الشيطان) فيميزهم من بعضهم، فيحقق الهدف الأساس من حياتنا الدنيا إلا وهو الابتلاء ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ من المجاهدين الذين يسعون نحو تحقيق الغاية من الرسالات وهي إقامة القسط، بل؛ السيف وسيلة ذلك، ولكن سواعد المجاهدين هي التي تحمل السيف وتحارب به الأعداء، فلا يزعم أحد أن نصرة الله لدينه تتم بصورة غيبية دائما. ويعتبر المجاهدون هذه الغاية هي الأسمى لأن أعظم أهدافهم بلوغ رضوان الله سبحانه، الذي يعتبر الجهاد أقرب سبله. والنصرة الحقيقية للحق لا تتحقق بمجرد الانتماء إلى صفوف المؤمنين، ورفع السيف، والقتال، وحسب، كلا... فهذا المظهر المطلوب، بل المهم إلى جانب ذلك أن تكون الدوافع توحيدية نابعة من الإيمان بالله، لذلك قال ربنا: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أما الذي ينتمي للمؤمنين ويقاتل معهم بدوافع وأهداف مادية ومصلحية، أو لأن الآخرين نصروه، أو لأي شيء آخر لا يتصل بالغيب، وهو رضا الله وجناته، فلا تشمله الآية.. ومما يخلص دوافع الإنسان وأهدافه علمه بأنه لا ينصر ضعيفا ولا ذليلا، وأنه تعالى لم يَدْعُهُ للنصرة عن حاجة وعجز حتى يطلب المقابل ويفرضه عليه بعد النصر، أو يمن على ربه

سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وإنما يكتسب المجاهدون من نصرتهم له قوة وعزة.

وكلمة أخيرة: إن آية الحديد تشير إلى نظام التجمع الإسلامي الذي يتمثل في الرسول ومن ينوب عنه، وفي القوى الثلاث: التشريعية، ورمزها (الكتاب) ودورها بيان الأحكام، والقوة القضائية، ورمزها (الميزان) أما مهمتها فهي تطبيق الأنظمة على الواقع لتحديد المصاديق وبيان كيفية التنفيذ، والقوة التنفيذية، ورمزها (الحديد).

كما تشير الآية إلى شعار التجمع الإسلامي الذي يهدينا إلى وجهته وصبغته العامة والمتمثل في قوله سبحانه: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

وخاتمة الآية تهدينا إلى الدافع الغيبي لنصرة الدين، والذي يعتبر الضمانة التنفيذية للأحكام، وقوة التماسك الداخلية في التجمع الإيماني.

[٢٦] ويضرب القرآن مثلاً تاريخيًا لما بينته آية الحديد فيما يتصل بحركة الأنبياء ومن يتبعهم، وذلك من واقع نوح وإبراهيم عليهما السلام حيث كانا فاتحين لعهدين جديدين في تاريخ الرسالات الإلهية. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾، والنبوة هي القيادة المعصومة المختارة من عند الله، أما الرسالة فهي فوقها بدرجة حيث إن الرسول يحمل رسالة من ربه إلى الناس.

والنبوة والكتاب هما عهد الله، ولا يناله إلا الصالحون الصادقون، الذين يمتحنهم الله، قال عز من قائل: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وحيث تصدى أبناء نوح وإبراهيم عليهما السلام لقيادة البشرية عبر الأجيال، وحملوا مشعل الهداية ونهجها للأمم تلو الأمم، يظهر فضلهم على الناس ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ ولكن مجرد كون النبوة والكتاب في ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام لا يبرر نمو الحالة العنصرية عند أولادهم وأتباعهم ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ هم الرسل والأنبياء والأوصياء ومن آمن بهم واتبعهم، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ضالون منحرفون، لم يلتزموا بالكتاب، ولم يقتفوا آثار الأنبياء، فالمقياس في الصلاح أو الفساد ليس الانتساب ولا ادعاء المشايعة للصالحين، إنما المقياس الحق هو اتباع القيم الرسالية، والتزام السلوك الصالح، فلا صلاح القادة وحقانية القيم دليل هدى الأمم والمجتمعات، ولا ضلال الأمم والمجتمعات وانحرافها دليل فساد القادة والقيم، وإلى هذا يشير الإمام الرضا عليه السلام حيث يقول مخاطبا المأمون وبعض العلماء في مجلسه: «أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُ وَقَعَتِ الوِرَاثَةُ وَ الطَّهَارَةُ عَلَى المُصْطَفَيْنَ المُهْتَدِينَ دُونَ سَائِرِهِمْ؟ قَالُوا: وَمِنْ أَيْنَ يَا أَبَا الحَسَنِ؟ قَالَ: مِنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ فصارت وراثة النبوة و الكتاب للمهتدين دون الفاسقين.

أما علمتم أن نوحاً عليه السلام حين سأل ربه ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ وذلك أن الله عز وجل وعده أن ينجيه وأهله فقال له ربه عز وجل: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾»[1].

[٢٧] في سورة الحديد التي اتسمت بصفة الروحانية المتسامية والتي جاءت شفاءً ناجعا لمرض القسوة التي تصيب القلوب الغافلة عن ذكر الله، في هذه السورة قرأنا آية الحديد التي حددت هدف الرسالة في إقامة القسط، ولم تستبعد الحديد وسيلة لتنفيذه. إنه حقًّا توازن حكيم بين التعالي في أفق الغيب والحضور الفاعل في أحداث الحياة.

ولذلك أيضا يتناول السياق قصة الرهبنة التي زاغت بالنصارى عن الطريق القويم، كما انحرف اليهود من قبلهم حين ابتلوا بالنظرة العنصرية. وإذا عالجت الآية السابقة وبإشارة خاطفة عنصرية اليهود وغيرهم فإن هذه الآية تبيّن بوضوح خطأ الرهبانية، وتذكر كلتا الآيتين بأن الطريق القويم يتمثل في سنة الأنبياء الذين توالوا على البشرية برسالة واحدة تحددت معالمها مع الزمن، وأن الخط الواحد والمشترك الذي تهدي إليه سيرتهم جميعا هو الميزان في قياس الحق، وهو يتمثل في القرآن كما نقرأ ذلك في آيات لاحقة.

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ واحدا بعد واحد يهدي بهم الله البشرية إلى خط نوح وإبراهيم كلما فسقت وضلت عنه، فهم يتبعون النهج ذاته، ويسعون إلى الأهداف ذاتها، وبالوسائل ذاتها (البينات، والكتاب والميزان، والحديد)، وهكذا ينبغي أن تكون الأجيال اللاحقة في الأمة مسؤولة عن مسيرتها، تقتفي أثر الرواد الصالحين، سيرا إلى الحضارة والتكامل... وحيث تفصلها العصور والأجيال عن أولئك (النبي وأئمة الهدى) فإن الكتاب والإمام خير مقياس لمعرفة المنهج القويم. بلى؛ إن عودتها إلى الخط السليم، وبالذات في مجتمع ذهب بعيدا في الضلال والانحراف، سيضعها أمام تحديات صعبة، ولكنها الطريق الوحيد نحو الهدى والسعادة، والنجاة من الضلال والشقاء.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ والإنجيل لم يكن مغايرا لتلك الرسالات، إنما هو متضمن المفاهيم والقيم ذاتها، إلا أن العنصرية التي انحدر إليها بنو إسرائيل من قبل نزول الإنجيل، وما رافقها من النظرة المادية وقسوة القلب، كانت بحاجة إلى جرعات

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٢٢٠.

من الحنان والعطف والزهد والخشوع، وكانت كلمات الإنجيل تفيض بذلك لمعالجة ذلك التطرف المادي الطاغي، وهكذا زرع الله في قلوب التابعين لعيسى عليه السلام الرأفة والرحمة بل الزهد والرهبانية الطاهرة.

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ لعل الرأفة هي العطف القلبي، في حين أن الرحمة هي المظهر الخارجي لها مثل العطاء وخفض الجناح، وقال البعض: إن الرأفة هي منع ما يضر، في حين أن الرحمة هي توفير ما ينفع، ومثل هذه الكلمات إذا ذكرت مفردة منها شملت معنى الجميع، وإذا أطلقت أكثر من مفردة دلت كل واحدة على معنى خاص، وكان ذكرها يدل على التأكيد، مما يوحي بأن الله جعل المزيد من العطف والحنان في قلوب الذين اتبعوا عيسى عليه السلام. وحق لهم ذلك. أولم يكن قائدهم مثلاً أسمى للزهد والحنان والخشوع والتبتل؟.

والرأفة والرحمة من أظهر وأعظم صفات الله في تعامله مع خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهكذا تستهدف الرسالات الإلهية إنقاذ الناس من الصفات البشرية لتركز فيهم أخلاق الله ليكونوا ربانيين. ولعل عيسى عليه السلام جاء بالرأفة والرحمة علاجا للقسوة التي أصابت بني إسرائيل حيث قال ربنا عنهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وجَعْلُ الله الرأفة والرحمة في قلوب أتباع المسيح عليه السلام لا يعني أبدا أن الله يرسل نبيًّا باللطف والرحمة، ويرسل الآخر بالشدة والحديد، أو أنهم لم يفرض عليهم الجهاد بالسيف وخوض اللجج لإقامة القسط إذا كانت الظروف تستدعي ذلك، بل يعني أن الحالة الاجتماعية المتردية في القسوة والفسوق لم تكن تعالج بالسيف بل بالرحمة والرأفة، وربما الرهبانية.

ثم يبين القرآن تجربة مهمة من تجارب أتباع عيسى عليه السلام: لقد ظهرت الجبابرة والطغاة من بعد عيسى، وصارت مسيرة الأكثرية من الناس إلى الفسوق والقسوة مماشاة لملوكهم، واتباعا للتحريف والبدع، فاختلفوا على مذاهب شتى، حيث سكتت الأغلبية عن الطغاة، واتبعوا أدعياء الدين، إلا أن قليلا منهم قرر التحدي، ولكن كيف؟.

إنهم يواجهون نوعين من التحدي: التحدي السياسي، والتحدي الاجتماعي المدعوم بقشور الدين المحرف، وأمام كل ذلك يجب عليهم أن يحافظوا من جهة على مسيرتهم فلا يتابعون الطغاة أو يستسلمون للدين المحرف، ومن جهة أخرى يجب أن يحافظوا على أنفسهم

ألا يبادوا، فوقع اختيارهم على الرهبانية التي تعني توثيق العلاقة بالله، واعتزال المجتمع الضال. هذه كانت خطتهم التي يرون فيها السبيل إلى أهدافهم، وهي الالتزام بالإنجيل، واتباع عيسى، والمحافظة على أشخاصهم وحيثيات شخصيتهم أن تماث في الواقع الجديد، ويلخصها القرآن في كلمة هي رضوان الله ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ماذا تعني هذه الفقرة من الآية، فهل الرهبانية كتبها الله عليهم، فماذا تعني إذن كلمة ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وهل هم الذين استحدثوها، فماذا يعني إذا قوله: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾؟.

الذي يبدو لي: أن لفظة الرهبانية معطوفة على قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، حيث إن الله أوجد في قلوبهم عبر الإنجيل وعبر سيرة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ثلاثة أنوار:

- نور الرأفة.

- نور الرحمة.

- نور الخشية من الله والرهبانية.

ولكنهم ابتدعوا هذه الرهبانية وغيروا فيها، كما أن الزهد أساسا فضيلة دعا إليها الإسلام إلا أن طائفة من المسلمين ابتدعوها وجعلوا لها وسائل غير لائقة مما دعا أئمة المسلمين إلى التبرؤ منهم.

إذن الابتداع لم يكن في أصل الرهبانية التي تعني الخشية من الله، وإنما في فروعها من اعتزال المجتمع في الأديرة، ووضع طقوس خاصة بها، وعلى هذا التفسير يكون قوله سبحانه: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ تبيانا للابتداع حيث إن الله كتب الرهبانية عليهم بهدف ابتغاء مرضاته فما رعوها حق رعايتها فحرفوها.

وقال البعض: إن الآية تشير إلى أنهم ابتدعوا أصل الرهبانية ابتغاء رضوان الله، وأن الله لم يكتبها عليهم. وقالوا: ليس بالضرورة أن يكون الإبداع مكتوبا بحذافيره في الرسالة ليكون مشروعا، بل يكفي أن يكون موافقا وقيم الرسالة والأصول والقواعد العامة فيها، لأن المهم أن ينطلق من الكتاب، وينتهي إليه، ويلتزم به بتصديق الميزان. وهذا من مرونة الدين، وقدرته على قيادة الحياة المتطورة، وهو يؤيد الإبداع، مادام في حدود رضوان الله وشريعته، ومن هنا فإن الرهبانية جيدة إن لم تؤد إلى:

١ - التشبث بظاهر الأمور على حساب القيم.

٢- واعتزال المجتمع وتكفيره دون الشهادة عليه والسعي نحو تغيير واقعه.

٣- والتقاعس عن الواجبات الاجتماعية.

٤- وابتزاز الناس، واكتناز الذهب والفضة، والصد عن سبيل الله.

وما إلى ذلك، وهو إفراغ للرهبانية من مضامينها الحقة التي تعني الحقائق التالية:

ألف: خشية الله، والتقرب إليه بالتبتل، والزهد في حطام الدنيا.

باء: الاحتياط في الدين، والاجتهاد في العبادة، وأداء حقوق الناس، وإقامة أحكام الله على وجهها الصحيح لتحقيق أهداف الدين ومقاصد الشريعة من خلالها، وجعل رضوان الله هو الغاية دون تكريس العصبيات والأنانيات.

جيم: اعتزال الناس تمهيدا لتغييرهم، والتقية والهجرة من أجل الجهاد، دون جعلها هدفا بذاته ووسيلة لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وبلغ بهم الأمر إلى درجة استغل أدعياء العلم والدين الناس باسمها، وصدوهم عن السبيل، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

جاء في مسند أحمد بن حنبل: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من سراياه، فقال: مر رجل بغار فيه شيء من ماء، فحدَّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء، ويصيب ما حوله من البقل، ويتخلى عن الدنيا، فقال: لو أنني أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فإن إذن لي فعلت، وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبي الله إنني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى عن الدنيا، قال: فقال النبي ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ (يعني ما عليه اليهود والنصارى من التحريف)، وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَغَدْوَةٌ وَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَمَقَامُ أَحَدِكُمْ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ سِتِّينَ سَنَةً»[1].

ويعضد هذا ما جاءت به الرواية عن ابن مسعود قال: «كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ ﷺ: يَا بْنَ أُمِّ عَبْدٍ! هَلْ تَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَحْدَثَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الرَّهْبَانِيَّةَ؟ فَقُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ ﷺ: ظَهَرَتْ عَلَيْهِمُ الْجَبَابِرَةُ بَعْدَ عِيسَى عليه السلام يَعْمَلُونَ بِمَعَاصِي الله

(١) مسند أحمد: ج٥، ص٢٦٦.

فَغَضِبَ أَهْلُ الإِيمَانِ فَقَاتَلُوهُمْ فَهُزِمَ أَهْلُ الإِيمَانِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَقَالُوا: إِنْ ظَهَرْنَا هَؤُلَاءِ أَفْنَوْنَا وَ لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ أَحَدٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، فَتَعَالَوْا نَتَفَرَّقْ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللهُ النَّبِيَّ الَّذِي وَعَدَنَا بِهِ عِيسَى عليه السلام (يَعْنُونَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله)، فَتَفَرَّقُوا فِي غِيرَانِ الْجِبَالِ وَ أَحْدَثُوا رَهْبَانِيَّةً، فَمِنْهُمْ مَنْ تَمَسَّكَ بِدِينِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ الآيَةَ، ثُمَّ قَالَ: يَا بْنَ أُمِّ عَبْدٍ! أَتَدْرِي مَا رَهْبَانِيَّةُ أُمَّتِي؟. قُلْتُ: اللهُ وَ رَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ صلى الله عليه وآله: الْهِجْرَةُ وَالْجِهَادُ وَالصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ»[1].

وفي حديث آخر أنه قال: «يَا بْنَ مَسْعُودٍ! اخْتَلَفَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، نَجَا مِنْهَا اثْنَتَانِ وَهَلَكَ سَائِرُهُمْ، فِرْقَةٌ قَاتَلُوا الْمُلُوكَ عَلَى دِينِ عِيسَى فَقَتَلُوهُمْ، وَفِرْقَةٌ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ طَاقَةٌ لِمُوَازَاةِ الْمُلُوكِ، وَلَا أَنْ يُقِيمُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى دِينِ اللهِ تَعَالَى وَدِينِ عِيسَى، فَسَاحُوا فِي الْبِلَادِ وَتَرَهَّبُوا، وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله: مَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي وَاتَّبَعَنِي فَقَدْ رَعَاهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي فَأُولَئِكَ هُمُ الْهَالِكُونَ»[2].

وهذه الرواية في الواقع موافقة لما نعرفه من مقاييس الشرع، وهي تفسر الرواية التي تنقلها المذاهب الإسلامية كلها عن النبي صلى الله عليه وآله بأن الأمة سوف تفترق بعده الى (٧٣) فرقة كلها هالكة إلا واحدة، وهي التي تقاتل الطغاة. أما الذين يعتزلون الساحة، ويتفرجون على صراع الحق والباطل، أو الذين يتابعون الظالمين والتيار العام في المجتمع صحيحا كان أو مخطئا، فليسوا من الناجين، ومن هنا يتضح لنا أن الحديث الذي يشير إلى أن الفرقة الناجية من أمة محمد صلى الله عليه وآله هي التي تتبع الجماعة والأكثرية ولا تخالف الجبابرة والطغاة هو حديث موضوع على يد حكام الجور ومن أيدهم من أدعياء الدين.

ومع أن الفرق والمذاهب التي يصير إليها الناس كثيرة إلا أن القرآن يصنفها إلى خطين: خط الحق وخط الباطل ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ﴾ بعيسى عليه السلام واتبعوه قبل أن يتوفاه الله، أو حافظوا على إيمانهم بعده فكانوا ممن رعى الرهبانية حق رعايتها، ولما جاء الرسول صلى الله عليه وآله آمنوا به واتبعوه، ﴿أَجْرَهُمْ﴾ والأجر هو الجزاء في مقابل شيء، والمؤمنون من أهل الكتاب يعطيهم الله أجرهم مقابل الإيمان والعمل الصالح، وليس لمجرد انتمائهم إلى دين المسيح عليه السلام ومجتمعه وأشياعه. وينسف القرآن النظرية العرقية والعنصرية لدى الضالين من أهل الكتاب فيقول: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ضالون منحرفون يدخلون النار، لا تنفعهم عنصريتهم ولا انتماءاتهم اللفظية.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص٢٧٧.

(٢) نور الثقلين: ج٥، ص٢٥١-٢٥٢، الجامع لأحكام القران للقرطبي: ج، ص٢٦٥.

[٢٨] وإذا كانت الرهبانية القائمة اليوم بدعة زائفة عن السبيل، فما هي الوسيلة التي تقربنا إلى ربنا أكثر فأكثر لمن اشتاق إلى الزلفى إليه سبحانه، ونيل مرضاته وحبه والدرجات العلى من جناته؟

في خاتمة سورة الحديد -سورة التبتل والجهاد- يبصّرنا ربنا بالوسيلة التي يتخذها من شاء أن يتخذ إلى رضوان ربه سبيلا. ويوجه ربنا الخطاب إلى المؤمنين بالله جميعا مما يشمل الفريق الأول من أهل الكتاب، وكذلك المؤمنين في عهد النبي محمد ﷺ لا يفرق بين أحد منهم، يدعوهم إلى صدق الإيمان والتقوى بترغيب في رحمته وفضله. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وإنها لكرامة أن يخص الخالق فريقا من خلقه بحديثٍ مِنَ ذكره، وإنه لمن الشقاء أن يتلهّى المؤمنون عن هذا الحديث، فلا تخشع له قلوبهم، ولا تسعى إليه جوارحهم! من هنا يسارع المؤمنون حقًّا عندما يسمعون هذا النداء إلى القول: لبيك اللهم لبيك.

لماذا القرآن الكريم يخص المؤمنين بالنداء حينا ويخاطب الناس أحيانا، علما بأن آياته تتسع لكل تالٍ لكتاب ربه؟.

ربما لأن الإيمان شرط أساسي في الموضوع. ألا ترى كيف أن القرآن يعمم الخطاب للناس في غير ذلك، مثل القضايا العلمية التي لا يشترط الإيمان في تنفيذها كالنفاذ من أقطار السماوات والأرض، فيقول: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحج: ٥]، أو فيما يتصل بحكم يشمل الناس جميعا كالعلاقة بين الشعوب في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. أما هنا فإن العمل بالمضمون يحتاج إلى الإيمان فلا يقفز الإنسان من الكفر إلى الإيمان بالرسول، بل لا بد أن يؤمن بالله أولا ثم برسوله، كذلك لا يقفز من الكفر إلى التقوى التي هي من مراحل الإيمان المتقدمة إلا بعد الإيمان بالله والرسول.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وبعبارة: إن المسافة بين الإنسان وبين الاستجابة للوحي واتباع القيادة الرسالية مليئة بالتحديات والضغوط، ولا يقدر الإنسان على طيها إلا بزاد التقوى التي يواجه بها أشواك الطريق. ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ فهو محك الإيمان والتقوى، وما هي قيمة إيمان لا يتحول في واقع الإنسان إلى ولاء ديني، اجتماعي، سياسي عملي، للقيادة الرسالية الصالحة، ويصوغ شخصية الإنسان صياغة ربانية بعيدة عن قوالب التحزب الأعمى، والعصبية الضيقة، والقومية المحدودة، والوطنية الزائفة، و.... ؟.

ما قيمة الإيمان الذي لا يصنع مجتمعا صالحا، يعمر الأرض، وينصر الضعفاء ويقاوم الطغاة والمجرمين؟ بلى؛ إنه سوف يواجه ضغوط القيادات المنحرفة، والمجتمع من حوله، ولكن ليعلم أن ما يجده مع التقوى واتباع القيادة خير مما يفوته من حطام الدنيا.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ قيل: الكفل هو ما يشد الراكب إلى سنام الإبل، ويتكفل بإجلاسه عليها، ولكل فرد كفل، فتطور المعنى والاستخدام حتى أصبحت الكلمة تعني النصيب الكامل للشخص، والذي يتقي الله ويؤمن بالرسول ينال نصيبين وحظين، فلا يخسر الدنيا بسبب الترهب الزائد عن حده، كما هو حال بعض أهل الكتاب، ولا يخسر الآخرة بسبب الالتصاق المفرط بالدنيا، كما يستوي في ذلك الكثير من المؤمنين الذين قدم لهم الله التعريف بالدنيا والدعوة إلى الآخرة في الآيات (١٩ - ٢٤)، والكثير من الناس، فالإسلام منهاج متوازن يريد لأتباعه الدنيا والآخرة، «عَنْ أَبِي الجَارُودِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: لَقَدْ آتَى اللهُ أَهْلَ الكِتَابِ خَيْراً كَثِيراً قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ قَالَ: فَقَالَ: قَدْ آتَاكُمُ اللهُ كَمَا آتَاهُمْ ثُمَّ تَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾»[1].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نتيجة التقوى والإيمان بالرسول. قال البعض: أي يوم القيامة، وهو النور المذكور في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾[2]، ولكن ما الذي يجعل هذا النور محدودا بالآخرة؟ أوليست حاجة الإنسان إلى النور قائمة في الدنيا أيضا؟ قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٤٢]. هكذا يبدو أن النور الذي جاء في هذه الآية وفي تلك هو البصيرة في الحياة والتي تتمثل يوم القيامة نورا ساطعا.

لماذا جيء بنا إلى الحياة الدنيا؟ وما هي أهدافنا الكبرى فيها؟ وما هي سنن الله الحاكمة؟ واختلاف الناس؟ وما هو الموقف المناسب والموازين الحق؟ وكيف نعرف بها أمورنا؟ وعشرات من البصائر القرآنية التي يؤتيها ربنا الذين آمنوا واتقوا. وتجسد القيادة الرسالية هذه البصائر فيما تطرحه من مواقف أو تصدره من أوامر، لذلك فهي أيضا نور للمتقين المتمسكين بها. ومع أن مصدر النور هو الوحي إلا أننا بحاجة إلى القيادة الربانية، لأنها الأقرب إلى حقائق الوحي، فهي المرآة الصافية التي تعكس حقائقه بصدق وأمانة ووعي، وما أحوجنا إلى هذا النور ونحن نعيش في عالم كثرت فيه البدع، والمذاهب الضالة، ووسائل الإعلام والثقافة المضللة.

---

(١) الكافي: ج١ ص١٩٤.

(٢) التفسير الكبير للرازي: ج٢٩ ص٢٤٧ ، الكشاف للزمخشري: ج٤ ص٤٨٢.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «﴿نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يَعْنِي إِمَاماً تَأْتَمُّونَ بِهِ»[1]، وهكذا عن الصادق عليه السلام. وإن المهم ليس أن يتحرك الإنسان أو يمشي، إن المهم أن تكون حركته في الطريق المستقيم نحو الأهداف التي خُلِقَ من أجلها، وهو لا يصير إلى ذلك إلا بالنور، والله هو الذي يجعله في قلبه ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]، والجعل إما يكون مباشرا عبر الوحي وإما غير مباشر عبر المقاييس والموازين التي يُشخِّص بها القائد للناس.

وحينما يضيف الإنسان إلى إيمانه التقوى واتباع القائد الصالح فإن ذلك سيُطهِّر قلبه وسلوكه من الانحرافات والذنوب، فالتقوى تخلِّص نيته وتدفعه للطاعة كما تجنبه المعصية، والقيادة تنير له الدرب ليشق طريقه على بصيرة وهدى ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[٢٩] التقوى هي المقياس لا الاعتبارات العرفية والعنصرية والقومية والمادية أو غيرها لأنها ساقطة في الإسلام، وتبقى قيمة واحدة هي التقوى كما قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويؤكد القرآن هذه القيمة في مئات المواضع، كما يؤكدها هنا مرتين: مرة بتعميم الخطاب لكل المؤمنين، دون اشتراط صفات واعتبارات مادية، ومرة عندما يصرح بأن السبل مشرعة إلى فضل الله للجميع.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ في الآية وجهان، يكون المعنى على الوجه الأول: لكيلا يقنطوا من روح الله وفضله فيبرِّروا بذلك عدم إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وآله والكتاب الجديد، أو يبرروا عدم سعيهم إلى الرحمة والفضل، كلا.. فدعوة الله ووعده للجميع.

أما على الوجه الثاني: فيكون المعنى: لكيلا يظن أهل الكتاب (النصارى واليهود) أن الفضل حكر عليهم، وأن المؤمنين المسلمين لا سبيل لهم إلى فضله تعالى، كلا.. ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يبدو أن أهل الكتاب كانوا يعيشون عقدتين خطيرتين:

الأولى: أنهم العنصر الأسمى فالفضل لهم لا لغيرهم.

الثانية: أنهم لو آمنوا لا يتساوون في الفضل مع السابقين من المسلمين لأنهم عرب وهم غرباء، أو لأي سبب آخر.

وخاتمة الآية (و ربما فاتحتها أيضا) تنفي كلتا العقدتين، لأن الفضل بيد الله فإنه يؤتيه

---

(١) الكافي: ج١، ص١٩٤.

للمسلمين كما آتاه سابقا لأهل الكتاب عندما آمنوا برسلهم، ثم لأن الفضل بيد الله فإنه لا يميز بين عربي وأعجمي، وسابق ولاحق، ومواطن وأجنبي (حسب التعبير الحديث)، وقرشي وحبشي، فكل من آمن واتقى شمله الله بفضله.. وبهذا نجمع بين وجهي التفسير اللذين ذكرناهما آنفا حول الآية.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي يتسع لكل إنسان سعى له سعيه، فمن أراد منع غيره عنه، أو تصور أنه لا يتسع له فإنما يستصغر فضل ربه ويستقله، وهذا شأن النفوس المريضة بعقدة الإحساس بالحقارة والدونية، والمريضة بالعنصرية والحسد، وهذا وذاك لا يمت إلى الإيمان بصلة. والآية تشبه إلى حد بعيد قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، فربنا يدعو إلى التسابق بين المؤمنين، لا إلى التوقف بسبب اليأس، ولا إلى الصراع بسبب النظرة العنصرية. ولعل ما ورد في مورد نزول الآية يشير إلى بعض ما سبق ذكره.. في مجمع البيان: «قال سعيد بن جبير بعث رسول الله ﷺ جعفرا في سبعين راكبا إلى النجاشي يدعوه، فقدم عليه فدعاه فاستجاب له وآمن به، فلما كان عند انصرافه قال ناس ممن آمن به من أهل مملكته وهم أربعون رجلا: ائذن لنا فنأتي هذا النبي فنسلم به، فقدموا مع جعفر فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة استأذنوا رسول الله ﷺ وقالوا: يا نبي الله إن لنا أموالا ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها، فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فكانت النفقة التي واسوا بها المسلمين، فلما سمع أهل الكتاب ممن لم يؤمن به قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ فخروا على المسلمين فقالوا: يا معشر المسلمين أما من آمن منا بكتابنا وكتابكم فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا؟ فنزل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ الآية فجعل لهم أجرين وزادهم النور والمغفرة ثم قال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾، وقال الكلبي كان هؤلاء أربعة وعشرين رجلا قدموا من اليمن على رسول الله ﷺ وهو بمكة لم يكونوا يهودا ولا نصارى وكانوا على دين الأنبياء فأسلموا، فقال لهم أبو جهل: بئس القوم أنتم والوفد لقومكم، فردوا عليه ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية، فجعل الله لهم ولمؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه أجرين اثنين، فجعلوا يفتخرون على أصحاب رسول الله ﷺ ويقولون نحن أفضل منكم لنا أجران ولكم أجر واحد فنزل ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إلى آخر السورة»[1].

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٣٠٩.



* مدنية.

* عدد آياتها: ٢٢.

* ترتيبها النزولي: ١٠٦.

* ترتيبها في المصحف: ٥٨.

* نزلت بعد سورة المنافقون.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الحَدِيدِ والمُجَادَلَةِ فِي صَلَاةٍ فَرِيضَةٍ أَدْمَنَهُمَا لَمْ يُعَذِّبْهُ اللهُ حِينَ يَمُوتُ أَبَداً، ولَا يَرَى فِي نَفْسِهِ ولَا فِي أَهْلِهِ سُوءاً أَبَداً ولَا خَصَاصَةً فِي بَدَنِهِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٧)

الإطار العام

الإيمان الصادق.. يخرق الحجب النفسية

للنفس حرم تنطوي فيه وتتحصن داخله عن بصائر الوحي وضياء العبر والعظات، وما لم يخرق الإنسان بعزائم اليقين حجب النفس إلى حرمها، فإنه لن يفلح إذن أبداً..

ولكن كيف يتم ذلك، وبماذا؟.

إنما بمعرفة الرب، وأنه سميع بصير. إن وعي شهادة الله على كل شيء كفيلٌ بتنمية الوعي الديني في النفس، هنالك في تلك الأغوار التي تنضج قراراتها وتتحدد وجهتها ربما بعيداً عن وعي صاحبها، هنالك يصلح الإيمان ما تفسده وساوس الشيطان.

ولعل في سورة المجادلة نوراً نافذاً إلى ذلك البعيد الباطن، إلى ذلك الغور العميق، إلى ذلك الحرم المستور في النفس البشرية. وهذا الإطار يجمع -حسبما يبدو- بين محاور السورة التي تتراءى بادىء النظر أنها متباينة، كيف ذلك؟.

الف: في فاتحة السورة وفي بداية الجزء الثامن والعشرين من الذكر الكريم يتلو علينا الرب كلمة السمع، فالله (سمع) قول التي جادلت الرسول في قصة الظهار واشتكت إلى الله، وسمع تحاورها ومع الرسول، وأنه سميع بصير (الآية: ١).

باء: وبعد أن يسوق الذكر أحكام الظهار ويحدد كفارته يقول: ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله. مما فسر بأنه يعني تنمية روح الإيمان، لأن المفروض أنهم مؤمنون.

إذن؛ فالحكمة من الكفارة تنمية الإيمان في النفس، على أن الظهار يتم في العلاقة الزوجية التي هي من الأمور الشخصيةوالمستورة عادة، وأنه موقف خاص لا يمكن ضبطه إلا بالإيمان وبروح التقوى، كما أن كفارته كبيرة، والدافع الجنسي الذي يقف الظهار دونه متصاعد،

وضمن هذه الظروف لا ينظم العلاقة سوى الواعز النفسي الذي تصنعه معرفةالإنسان بربه وبأنه سميع بصير (الآيات: ٢-٤).

جيم: وبعد أن ينذر السياق الذين يتجاوزون حدود الله (ومنها أحكام الشريعة في الظهار) يذكرنا بيوم البعث حيث ينبيء الله الكافرين بما عملوا، ويبين أنه قد أحصى ما لم يحفظوه، وأنه شاهد على كل شيء. وكل هذه البصائر تنمي روح التقوى في النفس، ليس في أبعادها الخارجية، بل في حرمها المستور (الآيات: ٥-٦).

دال: وعبر أربع آيات بينات يعالج الذكر موضوع النجوى الذي يتصل بتنمية الوعي الإيماني في النفس، مؤكداً أن الله سبحانه حاضر عند كل نجوى، فما من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ثم ينذر الذين يتناجون بالإثم والعدوان، ويتحدون عذاب الله، ويكفرون بالنذر قائلين: لماذا لا يعذبنا الله بعد التناجي؟ حسبهم جهنم، ويرسم القرآن حدود النجوى المسموح بها عندما يتم التناجي بالبر والتقوى، وينفي أي أثر لتناجي الكفار، ويأمر المؤمنين بالتوكل على الله تعالى (الآيات: ٧-١٠).

ومن الواضح أن التقوى هي وحدها التي تضبط النجوى من الانحراف في الإثم والعدوان ومعصية الرسول، وبما أن هدف تناجي الكفار التعالي، يوصي ربنا المؤمنين بالتواضع لبعضهم بالتفسح في المجالس، وتركها إذا أمروا بها، ويبين أن الله هو الذي يرفع المؤمنين وأهل العلم درجات (بدرجات إيمانهم وعلمهم)، وأنه ليس انتخاب المجالس القريبة من القيادة أو طول المكث عندها سبب التعالي كما يحسب الكفار والمنافقون. (الآية: ١١).

ويأمر المؤمنين بإيتاء الصدقة قبل تناجي الرسول (لكي لا يتسابقوا إلى ذلك طلباً للفخر)، ثم يتوب عليهم رعاية لهم، لأنهم اشفقوا من تقديم الصدقات (الآيات: ١٢-١٣).

هاء: ويعالج السياق بعدئذ موضوع البراءة من الكفار الذي يتصل أيضاً بالوعي الإيماني، وينذر المنافقين الذين يتولونهم واقعاً، ثم يتخذون إيمانهم جنة، حيث يحلفون على الكذب أنهم مؤمنون حقاً (كل ذلك طلباً للثروةوالقوة، ولا يعلمون أنهما لا تنفعانهم شيئاً).

ويبين القرآن أن الأموال والأولاد لا تنفع في يوم القيامة، حيث يبعثهم الله ليحاسبهم، فإذا بهم يحلفون له عبثاً كمايحلفون للمؤمنين في الدنيا. (الآيات: ١٤-١٨).

واو: وما يفرق بين المؤمن والمنافق ليس تلك المظاهر (مناجاة الرسول، والتقرب المكاني منه، والتأكيد على صدق الإيمان بالحلف الكاذب)، إنما هي تلك الحقائق (التحسس بشهادة

الله، والكفارة عند الظهار،ومراعاة حدود الله وأحكامه، والتواضع لأولياء الله، والبراءة من أعداء الله)، وبها يتميز حزب الشيطان عن حزب الله، فإن حزب الشيطان هم الخاسرون، وهم الذين يتجاوزون حدود الله (ويتولون أعداء الله)،ولقد كتب الله بغلبة رسله، وأكد أن المؤمنين حقاً لا يتولون من حاد الله حتى ولو كانوا من ذوي قرباهم، لأن الله قدثبت قلوبهم على الإيمان، وأيدهم بروح منه، وأعد لهم جنات خالدين فيها، وقد رضي عنهم ورضوا عنه، واعتبرهم من حزبه، ألا إن حزب الله هم المفلحون. (الآيات: ١٩-٢٢).

وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا[1] كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)﴾.

هدى من الآيات:

في قضية عائلية كالظهار، وعند تحاور خاص بين الرسول وواحدة من المسلمات بشأن مشكلتها هذه، يُنَزِّل الله قرآنا. أي شهادة أكبر من شهادة الرب على الحوادث الواقعة، أم أي حضور فاعل للوحي في يوميات الأمة! بلى؛ إن الله يسمع تحاورهما.

(١) كبتوا: أي أذلَّهم الله وأخزاهم، والكبت: القهر والإذلال.

ولقد كانت العرب ترى أن الرجل إذا قال لزوجته: (أنت علي كظهر أمي) حرمت عليه أبدا، وكان ينطوي هذا الحكم على ظلم كبير للمرأة التي لا تعاشر آنئذ معاشرة الأزواج، ولا تُسَرَّح لتتزوج من رجل آخر.

لقد كان الظهار من العادات الجاهلية التي فتَّت الكثير من الأسر قبل بزوغ نور الإسلام، وقد تعوَّد عليها المجتمع، وبقي إيمان الكثير بها إلى ما بعد إسلامهم، وحيث أراد الله لرسالته أن تكون بديلا عن الجاهلية فقد نزل الوحي يدافع عن الأسرة باعتبارها إذا صلحت وقويت كانت أساس بناء المجتمع والحضارة، ومن هذا المنطلق حارب القرآن فكرة الظهار، واعتبرها منكرا وقولا زورا، لا يبرره شرع الله ولا الواقع، فإن قول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي لا يُصَيِّرها أمًا له، ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾، وهذا يشبه -و لكن بصورة أعظم خطرا عند الله وفي واقع المجتمع- فكرة الأدعياء التي عالجها الذكر الحكيم في سورة الأحزاب[1].

وفي الوقت الذي تُسَفِّه سورة المجادلة فكرة الظهار كما يتصورها الجاهليون من المسلمين، بأنها لون من الطلاق الدائم الذي لا تصح بعده الرجعة، تؤكد هذه السورة أن الرجعة ممكنة حفاظا على كيان الأسرة والمجتمع ورعاية لعواطف الإنسان، ولكنها تفرض كفارة على الرجعة قبلها (تحرير رقبة، أو صيام شهرين، أو إطعام ستين مسكينا)، وذلك يعني أن الإسلام يعتبر الظهار أمرا مشروعا، إنما أراد بذلك الوقوف أمام تأثر المسلمين بالجاهلية من جهة، ودفعهم من جهة أخرى إلى أخذ شرائعهم وثقافتهم من مصدرها الصحيح والأصيل، ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، وما دون ذلك فهو صنيع الجاهلية الضالة الكافرة، والذي ينبغي الاستغفار منه، لأن الإيمان والعمل به يستوجب غضب الله وعذابه، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

بينات من الآيات:

[١] نزلت الآيات في امرأة من الأنصار اسمها خولة بنت خويلد، عن ابن عباس، وقيل: خولة بنت ثعلبة، عن قتادة والمقاتلين. وزوجها أوس بن الصامت وذلك أنها كانت حسنة الجسم فرآها زوجها ساجدة في صلاتها فلما انصرفت أرادها فأبت عليه فغضب عليها، وكان امْرَأً فيه سرعةٌ وَلَمَمٌ، فقال لها: «أنت علي كظهر أمي»، ثم ندم على ما قال وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية فقال لها: «ما أظنك إلا وقد حرمت عليَّ»، فقالت: لا تقل ذلك وأت رسول الله ﷺ

(١) لقد مر تفسير ذلك في تفسير السورة فراجع.

فاسأله، فقال: إني أجدني أستحي منه أن أسأله عن هذا، قالت: فدعني أسأله، فقال: سليه، فأتت النبي ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه، فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غانية ذات مال وأهل حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء تجمعني وإياه تنعشني به؟!. فقال ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا وإنه أبو ولدي وأحب الناس إليَّ، فقال ﷺ: ما أراك إلا حرمت عليه ولم أؤمر في شأنك بشيء، فجعلت تراجع رسول الله ﷺ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ: حرمت عليه، هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وحاجتي وشدة حالي، اللهم فأنزل على لسان نبيك. وكان هذا أول ظهار في الإسلام.

فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبي الله، فقالت عائشة: اقصري حديثك ومجادلتك أ ما ترين وجه رسول الله ﷺ، وكان ﷺ إذا نزل عليه الوحي أخذه مثل السبات، فلما قضي الوحي قال: ادعي زوجك فتلا عليه رسول الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى تمام الآيات، قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى عليَّ بعضه إذ أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ فلما تلا عليه الآيات قال له: هل تستطيع أن تعتق رقبة؟ قال: إذن يذهب مالي كله والرقبة غالية وأنا قليل المال، فقال ﷺ: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ فقال: والله يا رسول الله إني إذا لم آكل في اليوم ثلاث مرات كَلَّ بصري وخشيت أن يغشى عيني، قال: فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا؟ قال: لا والله إلا أن تعينني على ذلك يا رسول الله، فقال: إني معينك بخمسة عشر صاعا وأنا داع لك بالبركة، فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعا ودعا له بالبركة فاجتمع لهما أمرهما»[1].

وحينما نتدبر آيات الدرس على ضوء هذا النص التاريخي نستوحي بصيرتين:

الأولى: أن هذه الحادثة جعلت مناسبة لنزول الوحي ليكون أبلغ أثرا، وهكذا الكثير من الأحداث التي تزامنت ونزول آيات من الذكر الحكيم.

الثانية: حضور الوحي عند قضايا الأمة ومشاكلها، فليس الوحي أفكارا مثالية، إنما كان حاضرا مع كل حدث، وشاهدا على كل قضية، مما جعله قطب رحى الأمة وأساس بناء حضارتها.

فلا غرابة أن ترتجي خولة حلاً لمعضلتها عند النبي ﷺ، بل وتحاوره إلى حد الجدال،

(١) بحار الأنوار: ج٢٢، ص ٥٨.

لأنها كأي مسلم وأية مسلمة ترى في القرآن وعند القيادة الربانية حلاً لكل مشكلة، وجوابا لكل تساؤل. ولا ريب أن هذه العلاقة الوثيقة بين الأمة وكتابها وقيادتها ولّدت حضارة الإيمان التي لا زالت في مُثُلها وقيمها كما في واقعها مثلا وأسوة للبشرية.

إن خولة ألحّت على الرسول ﷺ وراجعته في الجدال مرات ومرات، ولكنه ما كان ليستصدر حكما من عند نفسه متأثرا الحالها، وما كان يعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، مما يؤكد أنه مرسل من قبل الله، لا ينطق عن الهوى ولا عن عقل البشر. وإنه لمن صفات القيادة الرسالية انطلاقها في أحكامها ومواقفها ورؤاها من الرسالة، وليس عيبا السكوت، إنما العيب أن يحكم الإنسان على أساس الهوى والجهل، أو أن يتقول على الله، فهذا رسول الله ﷺ على عظمته يجيب المرأة: «وَلَمْ أُومَرْ فِي شَأْنِكِ بِشَيْءٍ»[1]، حتى نزل قوله تعالى في شأن الظهار.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي في شأنه وأمره، تريده يرجع إليها. ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ وتكشف مجادلتها وشكواها عن الأثر العميق للحادثة في نفسها، لأن الظهار في عرف الجاهلية يُنهي كيان الأسرة إلى الأبد. إنها حقًّا صورة من الغي والضلال تعكس مأساة الإنسان في ظل الجاهلية.

بل، إن الأمر قضّ مضجع هذه المرأة الضعيفة، وما فتئت تعاود رسول الله في أمرها، لعلها تجد بلسما في دين الله، وعند رسول الرحمة. وإن قلبها ليحدثها بأنه تعالى أسمى من أن يعطي لهذه العادات شرعية، مما يدفعها للحوار مع النبي المرة بعد الأخرى دون يأس. وكل ذلك بظاهره وباطنه وبدقائق تفاصيله لم يكن ليخفى على الله ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ إنه شاهد ناظر، لا حاجب يمنعه، ولا ستر يستر عنه. إنهما الآن واقفان في زاوية البيت يتحاوران، تقول هذه المرأة المجادلة لرسول الله -حسب بعض النصوص-: «يا رسول الله قد نسخ الله سنن الجاهلية، وإن زوجي ظاهر مني، فقال لها: ما أُوحي إليَّ في هذا شيء، فقالت: يا رسول الله أوحي إليك في كل شيء وطُوي عنك هذا؟ فقال: هو ما قلت لك»[2].

هذا رسول الرحمة، هذا مركز العطف وينبوع الحنان، هذا صاحب الخلق العظيم، ولكن الله أرحم الراحمين وأعظم عطفا وحنانا فلا يجوز أن نرى أحدا أقرب إلينا منه ولا أرحم، حتى ولو كان الشفيع الحبيب محمد بن عبد الله ﷺ على أنه السبيل إلى الله، وأقرب الوسائل إليه، وأقرب الشفعاء.

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٥٦.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٧، ص٢٧١.

إن الله سمع تحاورهما، فلماذا لا نراقبه في سرائرنا، ولماذا نخوض في أحاديثنا مع الخائضين؟ لماذا لا نجأر إليه عند الشدائد، أوليس ربنا نعم الرب لنا، فلماذا لا نصبح نعم العبيد له؟! يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعائه المعروف في يوم عرفة: «وَإِلَى غَيْرِكَ فَلَا تَكِلْنِي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي إِلَى القَرِيبِ يَقْطَعُنِي أَمْ إِلَى البَعِيدِ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إِلَى المُسْتَضْعِفِينَ لِي وَأَنْتَ رَبِّي وَمَلِيكُ أَمْرِي، أَشْكُو إِلَيْكَ غُرْبَتِي وَبُعْدَ دَارِي وَهَوَانِي عَلَى مَنْ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ﴾ يحيط بظاهر الكلام ﴿بَصِيرٌ﴾ ينفذ علمه إلى ما تنطوي عليه السرائر.

والآية تعكس صورة عن مكانة المرأة في الإسلام، وأنها مع الرجل على حد واحد في علاقتها مع قيادتها الرسالية، تجادلها في حقوقها، وتشتكي عند المشاكل لديها، وتحاورها في مختلف القضايا والمواضيع، تستمع القول وتبدي الرأي، باعتبارها مكلفا له حقوقه وعليه واجباته الشخصية، بل باعتبارها جزءا من الأمة يهمها أمر الإسلام والمسلمين، وينعكس عليها التقدم والتخلف، والنصر والانكسار، فهذا الرسول القائد لا يصد خولة عن التصدي لموضوع الظهار لأنها امرأة، إنما يستقبلها بصدره الرحب رغم إلحاحها، وهي تروم الوقوف بوجه مشكلة تهم كل مسلم ومسلمة، وتتصل بالنظام الاجتماعي للأسرة. وقد تعودت هذه المرأة على هذه الخصلة، كما تعودت سائر النساء والرجال في العهد الأول، على ممارسة حريتهم في مواجهة ما كانوا يرونه خطأ، فقد روي أن عمر بن الخطاب: «مر بها في خلافته والناس معه على حمار، فاستوقفته طويلا ووعظته، وقالت: يا عمر قد كنت تدعى عميرا، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب»[2].

[٢] ويعالج القرآن مشكلة الظهار في البدء بنسف التصورات الجاهلية بأن الزوجة تصبح أمًّا لزوجها بمجرد أن يقول لها: «أنت عليَّ كظهر أمي»، وذلك من زاويتين:

الأولى: الزاوية الواقعية، فالأمومة ليست صفة اعتبارية يمكن إعطاؤها بالكلام كما العقود. إنها ليست كالمال يكون لك فتُملِّكه غيرك هبة أو بيعا أو وراثة ليصير ماله، إنما هي صفة تكوينية طبيعية يُعبَّر بها عن علاقة شخصين أحدهما والدة والآخر مولود ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾.

الثانية: الزاوية الشرعية، فالشرع قائم على أساس الواقعيات، وإنما يحرم زواج الرجل

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢١٨.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٧، ص٢٤٩.

من أمه الحقيقية، وليس الزوجة كذلك، فهي لا تحرم على زوجها لمجرد الظهار، لذلك يُسَفِّه ربنا رأي الجاهليين بأنه غير مقبول عند العقل وأنه باطل فيقول: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ﴾ والمنكر هو خلاف المعروف الذي يعرفه العقل ﴿وَزُورًا﴾ والزور هو القول الباطل والحكم الذي لا يستند إلى حق ولا واقع، قال الله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] أي الشهادة الكاذبة.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يعفو عن المنكر ويغفر الزور لمن تاب وعمل بالإسلام بعد الجاهلية، فإنه يجب ما قبله، إذن فالظهار ليس كما يظن الجاهلون لا رجعة بعده، بل؛ ذلك في الجاهلية المقيتة التي لا تقوم إلا على الباطل، ولا تنتهي إلا إلى تكبيل الإنسان وتحطيمه، أما دين الله فهو يقوم على الحق ولا يستهدف إلا خيره ورحمته وهداه.

وإذا كانت هاتان الصفتان لله تزرع فينا الأمل والرجاء فإن نزولها يومئذ لا ريب أخذ فعله الإيجابي الواسع والعميق في نفوس الكثيرين وحياتهم الاجتماعية والأسرية، حيث وضع عنهم الإسلام إصرا وغلاً من إصر الجاهلية وأغلالها، طالما ظلوا في ربقته يشتكون الدمار والأسر، وبالذات أولئك النساء الضعيفات اللواتي تعلقن وتعقدن بالظهار، فالرجل من جهته مجاز في الزواج لا يمنعه مانع، أما هي فيكتب عليها أن تبقى لا تتزوج أحدا غيره، وتعيش في جحيم.

ولعلنا نفهم من الآية أن للظهار مفسدتين: أحدهما ما يسميه القرآن بالمنكر، والأخرى ما يسميه بالزور، فهو من الجهة العملية إثم يهدم الأسرة، وظلم للنفس وللمرأة وأولادها، ومن الجهة المعنوية يعد افتراءً على الله وزورا إذ هو تشريع بغير حجة من الله.

[٣] والآن: ما هو الظهار، وما هو الحل؟.

الظهار هو أن يقول الزوج لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي؛ يقصد بذلك الظهار، ولا يقع إلا إذا توافرت شروط أهمها من جهة المظاهر أن يكون بالغا عاقلا مختارا قاصدا، فلا يقع من مجنون، ولا صبي، ولا سكران، ولا هازل، ولا غضبان، ومن جهة الزوجة المظاهر منها الطهر من الحيض والنفاس، وأن تكون في طهر لم يواقعها فيه، وبحضور شاهدين عادلين يسمعان الصيغة [١]، هكذا جاء في الحديث المأثور عن حمران عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وَلاَ يَكُونُ ظِهَارٌ فِي يَمِينٍ وَلَا فِي إِضْرَارٍ وَلَا فِي غَضَبٍ، وَلَا يَكُونُ ظِهَارٌ إِلَّا عَلَى طُهْرٍ بِغَيْرِ جِمَاعٍ بِشَهَادَةِ شَاهِدَيْنِ مُسْلِمَيْنِ» [٢]، وروي عن زرارة عنه عليه السلام في حديث: «أَنَّهُ سَأَلَهُ كَيْفَ الظِّهَارُ فَقَالَ:

---

(١) للمزيد حول أحكام الظهار، راجع: (أحكام المعاملات) للمؤلف.
(٢) الكافي: ج٦، ص١٥٢.

يَقُولُ الرَّجُلُ لِامْرَأَتِهِ وهِيَ طَاهِرٌ مِنْ غَيْرِ جِمَاعٍ: أَنْتِ عَلَيَّ حَرَامٌ مِثْلُ ظَهْرِ أُمِّي، وهُوَ يُرِيدُ بِذَلِكَ الظِّهَارَ»[1]، وعن زرارة عنه عليه السلام قال: «لاَ طَلَاقَ إِلاَّ مَا أُرِيدَ بِهِ الطَّلَاقُ ولاَ ظِهَارَ إِلاَّ مَا أُرِيدَ بِهِ الظِّهَارُ»[2].

وهذا التشدد من قبل الإسلام بهذه الشروط يجعل الظهار الشرعي نادرا، وإن دل ذلك على شيء فإنما يؤكد حرص الإسلام على سلامة الأسرة، فهو يسعى لتأليف أفرادها وربطهم إلى بعضهم، لكي تستطيع الأسرة القيام بدورها الحضاري في البناء والتقدم، كما ويضع الإسلام حلاً تشريعيًّا وعمليًّا ناجعاً لمشكلة الظهار، فمن جهة لا يعطيه شرعية الجاهلية (الحرمة والتعليق إلى الأبد)، ولا يعده واقعا إلا إذا استكمل شروطه الشرعية الآنفة الذكر، فبإمكان المظاهر أن يعيد النظر في قراره ويعود إلى زوجته لو أراد، ثم يضع العقوبات الرادعة بما فيه الكفاية عن أن يتورط الإنسان المؤمن فيه، وإذا تورط فيه لا يعود إليه مرة أخرى ويكون موعظة لغيره.

﴿ وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ ظهارا مشروعا فإن ذلك لا يقطع كل الوشائج وإلى الأبد، وإنما يؤثر عمليًّا في العلاقة الجنسية المباشرة، وبتعبير الروايات يمنع الوطء (التماس) إلى أداء الكفارة وتذوُّق العقوبة الشرعية، حتى أن أكثر الفقهاء جوزوا ما دون الوطء كالقبلة وسائر أنواع المزاح والمداعبة، فهو أقل حتى من الطلاق لأن المرأة لا تبين من زوجها به وحده ولا تعتد. وهذا الموقف من الإسلام يُسهِّل الحل ويُهوِّن المشكلة بخلاف الحكم الجاهلي في الموضوع.

والمُظاهر على الخيار بين قطع العلاقة بالطلاق المشروع وبين العودة إلى زوجته، وللحاكم الشرعي أن يضيِّق عليه حتى يختار أحدهما لو رفعت المظاهر منها أمرها إليه بهدف منعه من التعليق. والقرآن في هذا الموضع لا يذكر الخيار الأول (الطلاق)، وإنما قال: ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يعني يعودون إلى الزواج الذي قالوه في صيغة العقد أو يعودون إلى الظهار بقصد نقضه وعلاجه، وسواءً هذا أو ذاك فإن المعنى واحد، وهو إرادة الوطء الذي حرموه على أنفسهم بالظهار. ولكن يبقى سؤال: كيف استفادوا هذا المعنى من هذه الكلمة؟.

أجاب القرطبي على الاحتمال الأول بما يلي: وتحقيق هذا القول أن العزم قول نفسي، وهذا رجل قال قولا اقتضى التحليل وهو النكاح وقال قولا اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل، ولا يصح أن يكون منه ابتداءَ عقده لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله: أنت عليَّ كظهر أمي،

(١) الكافي: ج٦، ص١٥٣.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٢ ص٣٠٨.

وإذا كان كذلك كَفّرَ وعاد إلى أهله[1].

أما الاحتمال الثاني الذي اختاره الفخر الرازي فقد مَهَّد له أولا بما حكاه عن الفَرَّاء أنه قال: لا فرق في اللغة بين أن يقال: يعودون لما قالوا، وإلى ما قالوا وفيما قالوا، قال أبو علي الفارسي: كلمة إلى واللام يتعاقبان كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود: ٣٦]، وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥].

ثم قال: قال أهل اللغة: يجوز أن يقال: عاد لما فعل، أي فعله مرة أخرى، ويجوز أن يقال عاد لما فعل، أي نقض ما فعل. وهذا الكلام معقول، لأن من فعل شيئا ثم أراد إبطاله فقد عاد إليه لأن التصرف في الشيء بالإعدام لا يمكن إلا بالعود إليه[2].

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ ولعل الذكر أعرض عن ذكر خيار الطلاق تأكيدا على ترجيح العودة، مما يدخل في سياق الحفاظ على الأسرة، ولا تجوز العودة إلى المعاشرة الجنسية إلا بعد التكفير، وهذا الشرط يذيق الإنسان جزاء اللجوء إلى عادة الظهار.

ومن حكمة الله ودقة تشريعه أنه فرض كفارة في علاج مشكلة الظهار، هي بحد ذاتها علاج لمشكلة أخرى هي الرقيق أو المسكنة، إذ أوجب حكماً أوليًا مقدماً على غيره أن يكفر المظاهر عن نفسه بتحرير رقبة مملوكة قبل أن يجامع زوجته، وهذا الأمر يوجه الشهوة الجنسية بوصفها دافعاً قويًا للإنسان نحو فعل الخيرات. ويلاحظ في الإسلام اهتمامه بعلاج مشكلة الرق في كثير من المواضع والأحكام بصورة الفرض تارة وباعتبار ذلك الخيار الأقوم تارة أخرى.

ولعل قائلا يقول: ولماذا يفرض هذه العقوبة الثقيلة جزاءً لموقف يتلخص في كلمات قليلة (هي صيغة الظهار)؟ ولكن لنعلم أن العلاقة الزوجية ليست أمراً هيّناً، إنما هي مهمة ويجب أن يحيطها الإسلام بسور لا تخرقه الأهواء والنزوات العاجلة، فهي مرتكز المجتمع، ومدرسة الأجيال الناشئة، كما وإن التجربة الحضارية للأمة تتركز فيها، فلا يجوز إذن الاعتداء على حرمتها وهدمها من أجل الشهوات والانفعالات العابرة.

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ إنه رادع عملي للوقوف ضد تهديد كيان الأسرة، والتوسل بالعادات والقيم الجاهلية، أما الرادع الأهم والذي ينميه الدين في نفوس أتباعه، ويعتمده في

(١) تفسير القرطبي: ج١٧ ص٢٨١.

(٢) تفسير الرازي: ج٢٩ ص٢٥٦.

النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فهو تقوى الله وخشيته، الذي يتأسس على الإيمان به، والإحساس النفسي برقابته الدائمة والدقيقة لأعمالنا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ يعني ليس يعلم الظاهر فقط، وإنما يعلم الباطن أيضا، كالنوايا والدوافع الخفية للإنسان، وكثيرا ما تأتي الإشارة إلى رقابة الله بعد بيان حد، أو قانون، أو نظام لمنع أي محاولة للالتفاف عليه والتملص من المسؤولية، فإن الإنسان مهما استطاع ذلك في مقابل الآخرين (المجتمع، والحاكم الشرعي) فإنه لن يجد إلى ذلك سبيلا أمام الله، لأنه أخبر به حتى من نفسه.

ومن الجدير ذكره هنا أن الكفارة تسقط لو أراد الطلاق بعد الظهار، ولعل البعض يصطنع طلاقا للتهرب من الكفارة المفروضة عليه ثم يعود، إلا أن ذلك لا يسقطها عنه في هذه الحالة، ويحذر الله أحدا أن يتوسل بذلك للاحتيال على شريعته. عن يزيد الكناسي قال: «سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ رَجُلٍ ظَاهَرَ مِنِ امْرَأَتِهِ ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً فَقَالَ: إِذَا طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً فَقَدْ بَطَلَ الظِّهَارُ وَهَدَمَ الطَّلَاقُ الظِّهَارَ، قَالَ: فَقُلْتُ: فَلَهُ أَنْ يُرَاجِعَهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، هِيَ امْرَأَتُهُ فَإِنْ رَاجَعَهَا وَجَبَ عَلَيْهِ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُظَاهِرِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا»[1].

بلى، إذا طلقها عن صدق، أو تزوجت غيره بعد العدة ثم طلقها الغير، فله الرجوع إليها من دون كفارة، حيث انتفى قصد الاحتيال. قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنْ كَانَ إِنَّمَا طَلَّقَهَا لِإِسْقَاطِ الْكَفَّارَةِ عَنْهُ ثُمَّ رَاجَعَهَا فَالْكَفَّارَةُ لَازِمَةٌ لَهُ أَبَداً إِذَا عَاوَدَ الْمُجَامَعَةَ، وَإِنْ كَانَ طَلَّقَهَا وَهُوَ لَا يَنْوِي شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ أَنْ يُرَاجِعَ وَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهِ»[2].

وقد نستلهم من الآية بصيرة أخرى: أن الله خبير بالتشريع المناسب لهذه الظاهرة، فهو حينما عالج الظهار فرض تحرير رقبة للكفارة فإن ذلك كان مناسبا لحل المشكلة، إذ إنه الخبير الذي يعلم بمدى خطر الظهار الذي يهدم كيان الأسرة ويفككها، وما يؤدي إليه من المفاسد الفردية والاجتماعية والحضارية، والمرأة الأنصارية (خولة) قد أشارت إلى جانب من تلك المفاسد إذ قالت بحضرة الرسول صلى الله عليه وآله: «وإن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا»[3]، فالأب عنده القدرة المالية لقوتهم ولكنه يفقد القدرة الكافية لتربيتهم، والأم بالعكس.

وهناك ملاحظة نجدها في الآية وهي: أن الله لم يجعل لظهار المرأة أي اعتبار، إنما جعلها مظاهر منها، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يعني الرجال، لأنها أقرب إلى الانفعال، وأسرع تأثرا بعامل

---

(١) الكافي: ج٦، ص١٦١.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٣١٩.

(٣) التفسير الكبير: ج٢٩، ص٢٤٩.

العاطفة. عن السكوني قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِذَا قَالَتِ الْمَرْأَةُ: زَوْجِي عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي فَلَا كَفَّارَةَ عَلَيْهَا»[1]، وهذه الرواية تؤكد بالإضافة إلى ظاهر الآية أن ما يترتب على الظهار (الكفارة، والامتناع عن الجماع إلا بعدها) مجرد عقوبة يقرها الشرع، وليس من باب الاعتراف بهذه العادة.

[٤] ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة يعتقها، إما لعدم وجدان ثمنها أو لعدم وجودها أساسا.. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ متصلين لا ينقطعان إلا بسبب مشروع، ولو انقطعا يوما واحدا وجب عليه تجديد الصوم كله، حتى يتبع الشهر الثاني بالأول ولو ليوم واحد، وتبقى العقوبة النفسية الجنسية قائمة بحدودها وشروطها ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾، ولو اخترق هذا الحد فإنه تجب عليه كفارة الظهار، وكفارة الخرق، فعن زرارة، وغير واحد، عن أبي بصير، عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: «إِذَا وَاقَعَ الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ قَبْلَ أَنْ يُكَفِّرَ فَعَلَيْهِ كَفَّارَةٌ أُخْرَى قَالَ لَيْسَ فِي هَذَا اخْتِلَافٌ»[2].

وتتوجه كفارة الصوم لشهرين متتابعين إلى تربية نفس المظاهر وعقابه من زاوية نفسية، لا مالية كما هو الحال في كفارة العتق، وكل ذلك ليفرض الله حرمة الأسرة على عباده، ويعرفهم قيمة شريكة حياتهم وحرمتها.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام لسبب وعذر مشروع ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ وهناك علاقة وثيقة وعميقة بين الصيام شهرين متتابعين (٦٠ يوما) وإطعام ستين مسكينا، فهناك جوع وهناك إشباع، وأهم أهداف الصوم أنه يحس الإنسان المؤمن بالمعوزين والمحتاجين والجوعى من حوله عمليًّا، فإن لم يستطع مواساتهم بجوعه مثلهم بالصيام فليواسهم بإشباعهم مثله بالإطعام، إزاء كل يوم مسكينا يطعمه على المائدة، أو يعطيه مُدًّا من الطعام يتصرف فيه.

وإذا كان ظاهر الأمر في هذه الكفارات أنها تستهدف ردع الإنسان عمليًّا عن التورط في الظهار، وتحصين الأسرة عنه، وتحسيس كل واحد بقيمتها عند الله وضرورة المحافظة عليها، فإن أسمى موعظة وغاية لها هي الإيمان بالله والرسول ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ باعتبار الإيمان الحل الجذري الأشمل لمشكلة الظهار وكل مشكلة، وإنما يتورط المؤمن فيه متأثرا بعوامل أخرى غير الإيمان، ومنطلقا من غير قيمه، كالجاهلية والذاتية والانتقام، فلا بد أن يرجع إليه بالكفارة. ولكن السؤال: كيف تقود الكفارة إلى الإيمان؟.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص٣٣٩.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٢ ص٣٢٨.

والجواب: إن الإيمان روح في القلب تنميها الممارسة العملية، وكلما اتبع المسلم رضوان الله زاده الله هدى وإيمانا، وكلما كان العمل أصعب والإخلاص أنقى كان أنمى للإيمان، وأجلى للبصيرة والهدى، ولا ريب أن عتق رقبة (بما يكلف من إنفاق كبير)، وصيام شهرين متتابعين (بما فيه من صعوبة بالغة)، وإطعام ستين مسكينا (بما فيه من إنفاق ومواساة للمحرومين) إن كل أولئك ممارسات مستصعبة تمتحن قلب المسلم بالإيمان وتزكيه وتطهره.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ المفروضة في المجتمع والعلاقات الأسرية، ولا يحق لأحد أن يتجاوزها.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سواءً أولئك الذين يكفرون بالله وبرسالته وحدوده كفراً محضاً، أو أولئك الذين يكفرون عمليًّا، فلا يلتزمون بأوامره ونواهيه، ولا يقيمون حدوده. ومع أن عذاب الآخرة هو المصداق الأكبر لهذه الآية إلا أنه يحل بالكافرين في الدنيا أيضا، ذلك أن حدود الله إنما شرعت وفرضت لصلاح المجتمع وسعادته، فهي التي توقف الظلم والفساد، وتُحصِّن المجتمع والأسرة منهما.

والحدود (سواءً العملية الرادعة، أو التشريعية كالنظم والقيم) يكمل بعضها بعضا، وترسم مسيرة المجتمع وتضعه أمام خريطة واضحة محددة، إذا تحرك على أساسها وصل إلى الإيمان والسعادة، وإلا انتهى إلى ألوان من العذاب، النفسي والاجتماعي والحضاري، لأنها هي التي تحافظ على حقوق الناس وترعاهم، وتنفذ النظام بينهم. والمجتمع الذي يسوده القانون ويحكمه النظام مجتمع عزيز، يشعر كل أفراده بكرامتهم وأمنهم وحرمتهم، وأنهم ما لم يتجاوزوا الحدود لا يمكن لأحد أن يعتدي عليهم، على العكس من ذلك المجتمع الذي تحكمه الفوضى، ويكون هوى الأمير أو الرئيس أو الملك هو القانون، فإنه لا يحس بالأمن ولا يستشعر الكرامة.

هكذا كان فرض الحدود بهدف تحكيم القيم لا الأفراد في المجتمع، حتى لا تضيع حقوق الناس.

[٥-٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يقفون خصما لله ولرسوله ويستخدمون الحديد في ذلك (أي الحرب الساخنة)، وقال البعض: إن أصل الكلمة من الحد بمعنى الفاصل، ومعناه إذن المواجهة بكل أشكالها حيث يقف المتنازعون كل على حد بإزاء خصمه، وهذا المعنى اقرب حيث إن المحادة في ضوء السياق الذي أشار إلى حدود الله أن يخالف الإنسان الحدود الإلهية فيختار لنفسه حدودا أخرى تشريعية وعملية، كالذي يأخذ بالجاهلية وعموم النظم

البشرية القديمة أو المعاصرة، بدلا عن شريعة الله، وبالذات أولئك الذين يقصدون العناد والجحود والمحاربة، فإنهم سوف يلقون جراء محادتهم الإهانة والذل المركّز الذي ينضغط في النفس حتى لتكاد تنفجر، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ممن ساروا بسيرتهم تجاه ربهم ورسلهم. وفي اللغة: كبته لوجهه أي صرعه، وأهلكه وأخزاه، وأذله، يقال: كبت الله العدو أي أهانه وأذله ورده بغيظه، ويقال: كبت فلان غيظه في جوفه أي لم يخرجه. إذن فالعز والكرامة لا يأتيان بمخالفة حدود الله، لأن ذلك لا يورث إلا الذل والهوان في الدنيا نتيجة لاتباع النظم والقوانين الفاسدة والضالة، بما فيها من معطيات سلبية، وغضب الله وحربه، وفي الآخرة نتيجة عذابه المهين الذي قد ينزله عليهم بأيدي عباده المؤمنين.

وهذه الحقيقة ليست خيالاً ولا وهماً، بل هي واقع له شواهده في التاريخ والواقع، يهدي إليه العقل وتؤيده الآيات الواضحة ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ بالغة الحجة، ظاهرة الدلالة، تنذر الإنسان ذا اللب من محادة الله، وتهديه إلى ضرورة الإيمان به وبرسوله، فمن اتعظ بها انتفع وعزّ ونجا من كبت الله، وإلا وقع في العذاب والذل ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. والملاحظ أنه قال في الآية الماضية: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا يتناسب مع العقوبة التي هي موضوعها، في حين وصف العذاب هنا بأنه مهين، لأن من يحادون الله ورسوله يطلبون بذلك العزة لأنفسهم، والذل للحق واتباعه، وليس صفة أنسب في عذابهم من الإهانة والذل.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ للجزاء على أعمالهم، وقال: ﴿جَمِيعًا﴾ لأنهم ربما تعاونوا على محادة الله والكفر، واغتروا بقوتهم وعددهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ من السيئات عبر الحساب، ومن خلال العذاب لأنه هو الآخر صورة حقيقية لما عملوا. كما أن إخباره تعالى لهم بأعمالهم يؤكده لهم شهادته على خلقه، وأنه أخبر وأبصر بالإنسان حتى من نفسه، لأنه معرض للنسيان ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وحينئذ ليس يتبين لهم صدق آيات الله، وخطأ أعمالهم ومسيرتهم في الحياة فقط، بل يصيرون من العلم على عين اليقين بأن الله شاهد على كل شيء، وأنه حين تركهم في الدنيا يفعلون ما يشاؤون من معصيته ومحادته فليس عن لغلبتهم إياه، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وإنما يذكر الله بيوم البعث وشهادته على كل شيء هنا لأن محادة الله ورسوله وعمل السيئات ينطلق في الأساس من الكفر بالآخرة والجزاء، ومن الاعتقاد بالقدرة على تبرير

السيئات، والتملص من مسؤوليتها بالأسباب المختلفة. فليس يلقى أحد هناك إلا عمله الذي أحصاه الله وشهد عليه، لا يستطيع إخفاءه عنه، ولا إنكاره، ولا يخلصه منه شفيع ولا نصير.

وفي الدرس القادم ستتعرف كيف ضرب الله مثلا بهذه الآية بالنجوى (الأحاديث التي تتم في الخفاء) فأنذر منها لأنه شاهد على كل شيء ظاهرا كان أو باطنا، صغيرا كان أو كبيرا. وما دام الإنسان معرضا للنسيان فلا ينبغي لأحد أن يأخذه الغرور بما هو فيه، وربما بدا له في الآخرة ما لم يحتسب من الذنوب، ويعلمنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في مناجاته هذا الدرس إذ يقول: «**آهِ إِنْ أَنَا قَرَأْتُ فِي الصُّحُفِ سَيِّئَةً أَنَا نَاسِيهَا وَأَنْتَ مُحْصِيهَا فَتَقُولُ: خُذُوهُ، فَيَا لَهُ مِنْ مَأْخُوذٍ لَا تُنْجِيهِ عَشِيرَتُهُ وَلَا تَنْفَعُهُ قَبِيلَتُهُ**»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤١ ص١١.

وتناجوا بالبر والتقوى

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ [١] ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا [٢] فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾

---

(١) النجوى: الحديث السر، يدور بين اثنين أو أكثر.

(٢) انشزوا: أي تفرّقوا، وقوموا عن أماكنكم ليجلس غيركم.

هدى من الآيات:

لكي يتحسس القلب شهادة الله على كل شيء فيتجنب خواطر السوء، ويتقي وساوس الشيطان، ويتحصن ضد النفاق والتآمر ضد الإسلام والقيادة الشرعية، جاءت آيات الذكر ترينا علم الله بما في السماوات وما في الأرض، وتُبصِّرنا بحضورنا عنده، فما من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، وأنه جل شأنه معنا أينما كنا، ثم تحذرنا من حسابه وجزائه يوم القيامة.

ولعل هذه الآية هي محور سورة المجادلة التي تذكر بالحضور الإلهي، وما أعظمه رادعا عن المعاصي، وباعثا نحو الطاعات؟ ولكن لا يدع السياق القضية بلا شرائع تتجلى فيها شهادة الله، إذ يرينا كيف تآمر المنافقون (الذين لم يراقبوا ربهم) فتناجوا بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول، ولم يراعوا آداب التعامل مع الرسول، ثم نهى القرآن المؤمنين من التناجي بالإثم والعدوان، وأمرهم بأن يتناجوا بالبر والتقوى، وذكَّرنا بأن النجوى من الشيطان، وهدفه من ذلك بعث الحزن في قلوب المؤمنين، الذين طمأنهم السياق بأنه ليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ثم أمرهم بالتوكل عليه. لأن هدف المنافقين من تآمرهم التعالي على المؤمنين كما يبدو فإن السياق أشار إلى سيئة من سيئات سلوكهم متمثلة في اختيار صدر المجالس والتسمر فيها، فأمر الله المؤمنين بالتفسح في المجالس، وذكَّرهم بأن العزة ليست بالمجالس القريبة من الرسول، وإنما بالإيمان والعلم.

كما أشار إلى مزاحمتهم للرسول بالنجوى معه (لإظهار أنهم الأقرب إليه) فأمر المؤمنين بدفع الصدقات قبل النجوى معه، ثم ألغى هذا الأمر بعد أن عرف المنافقين، بل علم خواء كثير من نجوى غيرهم مع الرسول، وعدم أهميتها عند أصحابها، لأنهم أشفقوا من تقديم الصدقات قبلها.

بينات من الآيات:

[٧] دليلاً لشهادة الله على كل شيء -هذه الحقيقة التي ذكرتها الآية الأخيرة من الدرس الفائت- يذكِّرنا الله بأنه حاضر، ذلك لكيلا يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أنهم يحيكون مؤامراتهم السرية بعيدا عن علمه، وبالتالي أن مكرهم فوق مكره، كلا.. فهم إن استطاعوا التناجي بالإثم والعدوان والمعصية بعيدا عن سمع القيادة والمجتمع وعلمهما، فإن الله يعلم بكل شيء، وسيؤيد المؤمنين وينصرهم رغم المؤامرات، وعدم إيمان أحد بهذه الحقيقة لا ينفيها، بل سيعلمها الجميع يقينا يوم القيامة، حينما يخبرهم الله بما عملوا.

والرسول ﷺ وكذلك كل مؤمن يعرف ربه حق المعرفة ويعقل هذه الحقيقة بعمق، وبالتالي فهو لا يخشى من نجوى الأعداء، بل يتوكل على ربه، ويطمئن إلى أنها لا تضره إلا بإذنه عز وجل، وأن الغلبة ستكون للحق رغم المؤامرات.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذا الاستفهام للتقرير، فالمعنى: أنك لا بد أن تعلم يقينا، كما يعلم الذي يرى شيئا بعينه، ولكن كيف تعلم بهذه الحقيقة علم من يرى شيئا؟ إنما بالنظر في آيات الله في الخليقة، فكل ما في السماوات والأرض يشهد على أنه سبحانه حي قيوم شاهد حاضر. أويُمكن لأحد أن يدبر هذه الكائنات بهذا النظام الحسن الدقيق من دون أن يحيط علما وقدرة بها؟

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتصريح السياق بعدد الثلاثة والخمسة، وإن كان ينبغي حمله الآن على التمثيل، إلا أنه لا ريب له حقيقة خارجية في التاريخ من واقع المنافقين، على أن الجلسات تتم عادة بالثلاثة والخمسة وأي عدد وتر لما فيه من إمكانية التصويت بسهولة. وقال بعضهم: إن في هذا التعبير بلاغة نافذة إذ لم يتكرر العدد، ونجد نظيره في القرآن، ولكن القرآن لم يحصر علم الله بهذا العدد فقال: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ خارجا عن الحد عددا وزمانا ومكانا، لأنه سبحانه قد تعالى عن الكيف والأين والعدد التي هي من صفات المخلوق.

قال الإمام علي عليه السلام: «فَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ اسْتِيلَاءَ أُمَنَائِهِ بِالْقُدْرَةِ الَّتِي رَكَّبَهَا فِيهِمْ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَ أَنَّ فِعْلَهُمْ فِعْلُهُ»[1]. وقال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «هُوَ وَاحِدٌ وَاحِدِيُّ الذَّاتِ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وبِذَاكَ وَصَفَ نَفْسَهُ، وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ بِالإِشْرَافِ والإِحَاطَةِ والقُدْرَةِ، لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ ولا فِي الأَرْضِ ولا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ ولا أَكْبَرُ بِالإِحَاطَةِ والعِلْمِ لَا بِالذَّاتِ؛ لِأَنَّ الأَمَاكِنَ مَحْدُودَةٌ تَحْوِيهَا حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ، فَإِذَا كَانَ بِالذَّاتِ لَزِمَهَا الحَوَايَةُ»[2]. وقال عليه السلام يحدث عن الله: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلَاصُ لَهُ، وكَمَالُ الإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ المَوْصُوفِ وشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، ومَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، ومَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، ومَنْ جَزَّأَهُ، فَقَدْ جَهِلَهُ، ومَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، ومَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، ومَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، ومَنْ قَالَ: فِيمَ؟ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، ومَنْ قَالَ: عَلَامَ؟ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الحَرَكَاتِ

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٣١٠.
(٢) الكافي: ج١، ص١٢٦.

والآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ»(١).

بهذه البصائر الإيمانية ينبغي أن نفهم أسماء الله، وبها نفسر كتاب الله، وبالذات قوله في هذه الآية ﴿رَابِعُهُمْ﴾، ﴿سَادِسُهُمْ﴾، ﴿مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، بعيدا عن التصورات البشرية المحدودة والفلسفات الضالة المنحرفة، والعقائد الشركية.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يعزب عنه مثقال ذرة أبدا، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. وهذه الآية تنطوي على تحذير للمنافقين والمتآمرين على الحق على مر التاريخ، كما أنها تُنمّي عند المؤمنين روح الحذر والتقوى.

[٨] ولأن الله محيط بكل شيء علما فإنه لا يدع مكائدهم تلعب دورها المشؤوم في مسيرة الأمة، وإنما يبطلها بإرادته وعلى أيدي المؤمنين، ويفضحها بوسيلة أو بأخرى، كان يلقي أمرها روح المؤمنين. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ إصرارا على مكائدهم المشؤومة، والتناجي هو الحديث على غير مسمع من الآخرين، وليست النجوى محرمة في الدين إلا إذا كانت مضامينها وآثارها لا ترضي الله عز وجل، أما إذا كانت تنطوي على الخير والصلاح فهي مباحة، بل قد تكون واجبة كما في عصر الطاغوت، باعتبارها تحفظ خطط المؤمنين، وأشخاصهم، وإمكاناتهم، بعيدة عن علمه وكيده وردّات فعله، لذلك لم ينه الله الذين آمنوا عنها بل نهاهم من جهة عنها إذا كانت ذات مضامين سيئة، وأمرهم بها إذا كانت مضامينها إيجابية، ونهى المنافقين عنها لأنهم اتخذوها وسيلة لمحاربة الحق ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ هذه إشارة إلى ثلاثة أنواع من الذنوب المحرمة وهي:

أولاً: المعاصي التي يخالف الإنسان بها الشريعة في سلوكه، كشرب الخمر، وأكل الحرام، والكذب والغش، والإدلاء بالأموال إلى الحكام الظلمة، قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] أي ذنب، وقال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٢]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، والإثم فعل ما لا يحل.

ثانياً: التجاوز على حرمات المجتمع والأمة، كالاعتداء على حقوق الناس وأموالهم وأعراضهم.

ثالثاً: شق عصا الطاعة للقيادة الرسالية التي يمثلها يومئذ الرسول الأعظم ﷺ، وهي لا تزال معصيتها رغم تبدل مصاديقها في الواقع الاجتماعي معصية للنبي، لأنها امتداده

(١) نهج البلاغة: خطبة ١.

الطبيعي في أجيال الأمة.

وهذه الأنواع الثلاثة من الذنوب تعد اعتداءً على حدود الله، وقد جعلها المنافقون محور نجواهم، وهي متتالية، إذ إن مجالس المتآمرين -أنى كانت، وأنى استهدفت- تنطلق من الإثم، من العصبية والعنصرية، من الكذب والافتراء، من تحقير القيم لحساب الذات، وإثارة الحساسيات، وكوامن الشر تنطلق من كل ذلك لتنتهي إلى العدوان واغتصاب حقوق الآخرين ومحاولة التسلط والتعالي عليهم، وفي ذلك خرق لسنن الله العادلة، ومخالفة للقيادة الشرعية.

إن هذه الجلسات المشؤومة هي رحم الشبكات الحزبية الضالة التي تخطط للسيطرة على الأمة، ولولا غياب الإحساس برقابة الله، وغياب التقوى من الله، وبالتالي الإنصاف والعدالة، لما ولدت هذه الجلسات التي لا يهدف المشاركون فيها إلا تحقيق شهواتهم الرخيصة.

وعملية التناجي هي تفاعل بين المنافقين حيث يدفع بعضهم بعضا، ويدعوه إلى الضلال والتجاوز على الحق، وتشكيل حركة سرية ترتكز على المبادئ الثلاثة التي تضمنتها النجوى.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إذ كانوا يقولون: السام عليكم، بمعنى السأم، أي إنك يا رسول الله سوف تسأم من رسالتك، أو السام بمعنى الموت عند اليهود، ومن الطبيعي أن المُسَلَّم إن كان بعيدا ولا يظن أحد فيه سوءا لا يتضح قصده في مثل هذه العبارة القريبة من السلام في ظاهرها وحروفها، إلا أن الرسول كان متنبها للمنافقين واليهود، وكان يرد عليهم بكلمة واحدة «وعليكم» أي أرد عليكم ما رميتموني به، وقد فضحهم الوحي بعد ذلك عند كل المسلمين، ولكي يعلموا هم أنفسهم أن الله بكل شيء عليم، وأنه يعلم القضايا الظاهرة كقضية المجادلة، والأخرى الباطنة كنجواهم. وهنالك تفسير آخر للتحية، وهي أنهم يحيون الرسول بـ (أنعم صباحا، وأنعم مساءً) وهي تحية أهل الجاهلية، مع أن الله أمرهم بتحية الإسلام في محضر الرسول (السلام عليكم).

وهناك تفسير ثالث أنهم لم يكونوا يحيون الرسول بصفته قائدا للأمة، وإنما بصفة شخصية كقولهم: (السلام عليك يا أبا القاسم) وهذا التفسير أنسب لمفهوم السياق، بالرغم من أن التفسير الأول قد وردت به نصوص تاريخية، فقد روي عن عائشة أنها قالت: «جَاءَ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَتْ: السَّامُ عَلَيْكُمْ وَفَعَلَ اللهُ بِكُمْ، فَقَالَ ﷺ: مَهْ يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَسْتَ تَرَى مَا يَقُولُونَ؟ فَقَالَ ﷺ: أَلَسْتِ تَرَيْنَ أَرُدُّ عَلَيْهِمْ مَا يَقُولُونَ؟ أَقُولُ: وَعَلَيْكُمْ»[1].

(١) تفسير القرطبي: ج١٧، ص٢٩٢.

وربنا لم يفضح ظاهر نفاقهم وحسب، بل فضح نواياهم وسرائرهم الخبيثة أيضا؛ حينما أخبرهم بالذي يدور في داخلهم ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي لو كان الرسول صادقا بالفعل فلماذا لا يغضب الله له؟ ويتخذون عدم حلول العذاب بهم ذريعة لإثبات سلامة خطهم، والإصرار عليه. ويبطل القرآن كون هذا دليلا على صدقهم، حتى لا يتأثر المؤمنون بدعاياتهم وأفكارهم المضللة، مؤكدا أنهم يجازون ما يكفيهم من العذاب على ذلك ولكن بعد حين ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، والآية تشير إلى أربعة ذنوب رئيسية اقترفها المنافقون وهي: تجاوز نهي الله بالعودة إلى النجوى، وممارسة النجوى بالإثم ومعصية الرسول، والتحية السيئة المخالفة للحق، والافتراء على الله بقولهم في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾.

[٩] ولا يحرم الله النجوى (وهو الحديث الخاص والمكتوم) على المؤمنين، إنما يحرم اشتمالها على الإثم والمضامين المحرمة، وإلا فهي مباحة، بل قد تكون مطلوبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ لأنها مناجاة المنافقين، وبهذا النهي يقف الإسلام ضد تنامي حركات سرية مناهضة للنظام الإسلامي. والقرآن يحرم المضامين الباطلة والسيئة للنجوى، وفي الوقت نفسه يدعو إلى التناجي بالخير والصلاح، فيما إذا أرادوا التناجي ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ والبر هو الحق والإحسان وسائر المضامين الخيرة المرضية عند الله والتي تقرّب إليه، وهو نقيض الإثم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، كما أن التقوى نقيض العدوان، وذلك أن العدوان ينبعث من انعدام الورع عن محارم الله، والخوف منه، ولا بد أن يقاومه المؤمنون من الجذور في شخصيتهم، وذلك بتركيز تقوى الله في نفوسهم، كما أن العدوان صورة للتعدي على حدود الله في العلاقة مع المجتمع، والتقوى هي الداعي الأكبر للالتزام بإحكامه وشرائعه وحدوده.

وتأتي أهمية التناجي بين المؤمنين على الصعيد الاجتماعي من كونها وسيلة فضلى إلى النقد البناء، بالنصيحة، قال الإمام العسكري عليه السلام: «مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرّاً فَقَدْ زَانَهُ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ شَانَهُ»[(١)]، وعلى الصعيد السياسي من كونها استراتيجية مهمة في مواجهة الظالمين والأنظمة الطاغوتية.

ثم يؤكد القرآن ضرورة ألّا تخرج المناجاة بين المؤمنين عن سياق التقوى، الأمر الذي يتحقق بتحسس رقابته، وتذكر البعث والجزاء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، إن الإحساس بشهادة الله وحضوره مع المتناجين هو الضمان الوحيد لنبذ وساوس الشيطان من جلسات المؤمنين الخاصة، ذلك أن أكثر الروادع التي تمنع السقوط في وادي الغيبة والتهمة والتعصب لجماعة ضد أخرى تتلاشى

(١) بحار الأنوار: ج٧١، ص١٦٦.

في جلسات الخلسة والخلوة، هنالك يحس الإنسان برفع الكلفة والتحرر من ضغط المجتمع، ولكن أليس الله ينظر إليهم ويسمع تحاورهم. أليس يحاسبهم غدا على الملأ العام. أفلا يتقونه؟.

حقًّا: إنها جميلة ورائعة حياة جماعة المؤمنين الذين إذا انتجى اثنان منهم تواصيا بالبر، ورسما خطة لتقديم الخير لغيرهما، وتناصحا بالتعاون مع الآخرين.

[١٠] ويعود السياق إلى التأكيد على حرمة النجوى السيئة، ووقوف الشيطان وراءها، وبيان أهم أهدافها الخبيثة، وضرورة التوكل على الله لمقاومتها لإبطال مفعولها السلبي في النفوس وفي واقع المجتمع ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ العدو الأول والأخطر للإنسان المؤمن، وإنما يتناجى المنافقون مع بعضهم بتلك المضامين السيئة لأنه كان يأمرهم بذلك، وكل نجوى سلبية فهي بدوافع شيطانية، كالهوى، والطمع، والمصالح المادية، وحب التفريق بين المؤمنين. ولعل الآية تدل على أن الأصل في النجوى الكراهة، لأنها مظنة الغيبة والتهمة ومركز المؤامرة ضد النظام، ولأن الشيطان يكون عند النجوى أقوى منه في أي حال آخر، ومن هنا يحسن تجنب النجوى إلا عند الحاجة.

﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إنهم يحزنون حينما يلاحظون التكتلات السرية المعادية لمبادئهم ومصالحهم، خوفا من غلبتها وحكمها في المستقبل، فإن ذلك يطفئ شعلة الإسلام في الأمة. وربنا يعالج حزن المؤمنين بإعطائهم المزيد من الثقة بإرادته ومشيئته المتصرفة في الخلق، وبدعوتهم إلى التوكل عليه، لأن الأمة التي تتوكل على ربها لا تهزمها المؤامرات ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. بلى، إن المنافقين وأعداء الأمة الإسلامية يُحيكون المؤامرات ضدها في الخفاء وبعيدا عن علم المؤمنين، ولكنها ليست غائبة عن علم الله، ولا هي أكبر من إرادته، حتى يستطيعوا الإضرار بالمؤمنين، إلا بعد أن يأذن الله بذلك. ولكن متى يأذن الله بذلك؟ إنها حين تغرق الأمة في غمرات الصراع أو السبات أو توافه الأمور، أما الأمة الموحدة الجدية الطامحة والساعية في سبيل الله فلن يترها الله أعمالها، ولن يضيع جهودها. ومادام الله يدافع عن رسالته وأوليائه وعباده فلن يسمح أن يطفأ نوره أبدا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وليس التوكل باللسان وحسب، إنما هو الثقة بالله، ونبذ أغلال اليأس والخوف والتردد عن النفس، والتسلح ببصائر الوحي في السعي والاجتهاد والتفاؤل، وتنفيذ مناهج الوحي في التحرك من الحكمة والتدبير وحسن الخلق والتعاون والإخلاص، فإن ذلك كفيل لو التزمت به الأمة الإسلامية بإفشال كل المؤامرات حتى تلك المؤامرات البعيدة عن أعينها، وحينذاك تسعى الأمة وبتوجيه من قيادتها الرشيدة لمقاومة مؤامرات شياطين الجن والإنس.

وهناك نوع من النجوى السلبية المنهي عنها في الإسلام، وهي تختص بتناجي المؤمنين مع بعضهم في المجالس، بغض النظر عن مضامينها، فقد كره الإسلام أن يتناجى اثنان بحضور ثالث، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْزُنُهُ»[1].

[١١] لكي يتحسس المؤمن أن الله رقيب عليه حاضر معه شاهد عليه يبصّره القرآن بآداب الخلوات، عندما يختلي بزوجته (عليه ألّا يُظاهر، وإذا ظاهر فعليه ألا يعاشرها بوصفها زوجة إلا بعد كفارة)، وعندما يقرر التناجي وينشط الشيطان في قلبه لكي يحرف اتجاه تناجيه إلى الفساد، وعندما يجلس مع المؤمنين كيف يجلس متواضعا مراعيا للقيم الإسلامية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ ﴾لكي تستوعب الحد الممكن من المؤمنين الحاضرين، فتعم الفائدة، ويشعر الجميع بالاحترام والتقدير المتبادل. وإن ذلك يستتبع توسيعا من قبل الله للمتفسحين تقربيا لهم منه، وإثابة على الاستجابة له ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ ﴾ أي قوموا وقوفا، أو تركا للمكان في المجلس.. ﴿فَٱنشُزُواْ ﴾ وإذا كان هذا الأدب يعم المؤمنين جميعا فإنه يكون أهم بالنسبة إلى المؤمنين أولي العلم، لأنهم أولى بالقرب من القيادة، وبتصدر المجالس من غيرهم ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ درجات بمثل درجاتهم الإيمانية والعلمية.

وهذه الآية تنفي مقاييس التفاضل المادية، كما أنها تعطي المكانة وزمام القيادة في الأمة لأصحاب الكفاءة الحقيقية (المؤمنون العلماء) وليس لأصحاب المال والأولاد، وهذا التأكيد على مكانة المؤمنين والعلماء، وأنهم أولى بالقيادة، يأتي في مقابل ظنون المنافقين وتصوراتهم الضالة عن القيادة والأفضلية، حيث اعتبروها لأولي المال والأولاد والأتباع الأكثر، وهذا ما دفعهم للتآمر على قيادة الرسول ﷺ والتخطيط للعصيان والتمرد ضدها، إذ قالوا: كيف يصبح هو القائد وليس أكثرنا مالا وولدا؟!.

وفي ختام الآية يذكرنا الله بكل ما يعمله الإنسان، لكي نزداد حذرا منه وتقوى ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ قال قتادة: «كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي مَجْلِسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإِذَا رَأَوْا مَنْ جَاءَهُمْ مُقْبِلًا ضَنُّوا بِمَجَالِسِهِمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ فَأَمَرَهُمُ اللهُ أَنْ يَفْسَحَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ.

وَقَالَ الْمُقَاتِلَانِ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الصُّفَّةِ وَفِي الْمَكَانِ ضِيقٌ وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْرِمُ أَهْلَ بَدْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَجَاءَ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ وَفِيهِمْ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَقَدْ سَبَقُوا فِي الْمَجْلِسِ فَقَامُوا حِيَالَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ

(١) مستدرك الوسائل: ج٨، ص٣٩٩.

وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ فَرَدَّ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ سَلَّمُوا عَلَى الْقَوْمِ بَعْدَ ذَلِكَ فَرَدُّوا عَلَيْهِمْ فَقَامُوا عَلَى أَرْجُلِهِمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْقَوْمِ فَلَمْ يَفْسَحُوا لَهُمْ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ بَدْرٍ: قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ، بِقَدْرِ النَّفَرِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أُقِيمَ مِنْ مَجْلِسِهِ وَعُرِفَ الْكَرَاهِيَةُ فِي وُجُوهِهِمْ وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ لِلْمُسْلِمِينَ: أَ لَسْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ صَاحِبَكُمْ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ فَوَ اللهِ مَا عَدَلَ عَلَى هَؤُلَاءِ إِنَّ قَوْماً أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ وَأَحَبُّوا الْقُرْبَ مِنْ نَبِيِّهِمْ فَأَقَامَهُمْ وَأَجْلَسَ مَنْ أَبْطَأَ عَنْهُ مَقَامَهُمْ فَنَزَلَتِ الآيَةُ»[1].

وفي كتاب الاحتجاج للطبرسي روي عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام أنه: «اتصل بأبي الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام أن رجلا من فقهاء شيعته كلّم بعض النُّصّاب فأفحمه بحجته حتى أبان عن فضيحته، فدخل على علي بن محمد عليه السلام وفي صدر مجلسه دست عظيم منصوب، وهو قاعد خارج الدست، وبحضرته خلق [كثير] من العلويين وبني هاشم، فما زال يرفعه حتى أجلسه في ذلك الدست، وأقبل عليه فاشتد ذلك على أولئك الأشراف فأما العلوية فأجلّوه عن العتاب، وأما الهاشميون فقال له شيخهم: يا بن رسول الله هكذا تُؤثر عاميًا على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين؟ فقال عليه السلام: إِيَّاكُمْ وَأَنْ تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أَتَرْضَوْنَ بِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَكَماً؟ قَالُوا: بَلَى؟ قَالَ: أَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، فَلَمْ يَرْضَ لِلْعَالِمِ الْمُؤْمِنِ إِلَّا أَنْ يُرْفَعَ عَلَى الْمُؤْمِنِ غَيْرِ الْعَالِمِ، كَمَا لَمْ يَرْضَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا أَنْ يُرْفَعَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ، أَخْبِرُونِي عَنْهُ أَقَالَ: يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ؟ أَوْ قَالَ: يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ أُوتُوا شَرَفَ النَّسَبِ دَرَجَاتٍ؟ أَوَلَيْسَ قَالَ اللهُ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ رَفْعِي لِهَذَا لِمَا رَفَعَهُ اللهُ إِنَّ كَسْرَ هَذَا لِفُلَانٍ النَّاصِبِ بِحُجَجِ اللهِ الَّتِي عَلَّمَهُ إِيَّاهَا لَأَفْضَلُ لَهُ مِنْ كُلِّ شَرَفٍ فِي النَّسَبِ»[2].

[١٢] وتعود الآيات إلى الحديث عن النجوى ولكن من زاوية أخرى، وهي النجوى مع رسول الله ﷺ، لتأمر المؤمنين بدفع صدقة قبلها مؤكدة أن ذلك خير وأطهر لهم، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾. من أجل التعالي على الناس كان فريق من المسلمين يتخذون مواقع متقدمة في المجالس، ويشغلون صدرها القريب من الرسول، وكانوا يتظاهرون أنهم أقرب إليه من غيرهم، فكانوا يتناجون معه،

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص٢٤.

(٢) الاحتجاج: ج٢، ص٤٥٥.

وعادة لم يكونوا يقولون له ما ينفع أو ما يقتضي السرية، وربما كانوا يستغلون أوقات الرسول الثمينة بتوافه الأمور، لذلك أمر الله المسلمين بإعطاء الصدقة قبل التناجي.

ولكن لماذا فرضت الصدقة بالذات؟ لعله للحِكَم التالية:

١ - لأن وقت الرسول للأمة كلها وعلى من يستغله أن يدفع ضريبة لصالح المجتمع، فإن الصدقة لا ريب سوف لا يستهلكها النبي وهي عليه حرام، إنما سيوظفها من أجل رفع الحرمان، وإصلاح شؤون المسلمين.

٢ - ولأن المتناجين مع النبي كان أكثرهم من طبقة الأغنياء، فلكيلا يشعر الفقراء بالغبن فرض الله على الأغنياء صدقة لصالحهم.

٣ - ثم إنها كانت إشارة لأولئك الذين يزاحمون النبي بالتناجي في أمور لا تجدي نفعا، أو من أجل التفاخر، بأن الأمر ليس مَرْضِيًّا ولا طبيعيًّا عند الله ولدى رسوله ﷺ، وبالفعل أدرك الكثير هذه الحقيقة، واستطاع القرآن علاج تلك الظاهرة في مواردها السلبية.

٤ - ولأن البعض اتخذ التناجي مع النبي أمام المسلمين للتفاخر عليهم والتظاهر عندهم بالشخصية الهامة المقربة، وهذا أمر سلبي جاءت الصدقة علاجا وتطهيرا للنفوس من هذه الخلفيات السيئة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ولم يغفل الله وهو الحكيم طبقة الفقراء الذين لا يطيقون دفع الصدقة، لذلك أعذرهم وسمح لهم بالتناجي مع النبي، فقال يخاطبهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي هذه الآية إشارة إلى أن المعني بتقديم الصدقة كان طبقة الأغنياء، لأنهم يستطيعون دفعها، وقد رأيناهم كيف كَفُّوا عن التناجي، فتبيَّنت للمسلمين طبيعتهم وطبيعة أحاديثهم التي يزاحمون بها النبي ﷺ والمسلمين أيضا.

وبقي الإمام علي عليه السلام مستمرا في تناجيه مع رسول الله ﷺ لأهمية ما يتباحثه معه، ولعلمه بسلامة ما يقوم به، وإن التناجي مع النبي يستحق أن يقدم له المؤمن أكثر من ذلك، ولم يكن ثريًّا، بل لم يكن يملك يومئذ إلا دينارا واحدا لهذا الشأن، قيل إنه اقترضه من أحد المسلمين، فصرفه عشرة دراهم، قدمها كلها بين يدي عشر نجوات مع رسول الله ﷺ، حتى قال عمر بن الخطاب: «كان لعلي ثلاث لو كان لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى»[1]، وقال الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ لفي

(١) تفسير روح البيان: ج٩، ص٣٠٦، المناقب: ج٢ ص٧٣.

كِتَابِ اللهِ آيَةً مَا عَمِلَ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي، آيَةَ النَّجْوَى، كَانَ لِي دِينَارٌ فَبِعْتُهُ بِعَشَرَةِ دَرَاهِمَ فَجَعَلْتُ أُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْ كُلِّ نَجْوَةٍ أُنَاجِيهَا النَّبِيَّ ﷺ دِرْهَماً، قَالَ: فَنَسَخَهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾»[1].

[١٣] وحيث تفهَّم المعنيون خلفيات الحكم الإلهي بالصدقة قبل النجوى، وبالذات أولئك الذين يكثرون من التناجي مع النبي ﷺ، والذين امتنعوا الآن عن ذلك بخلا، ولو كانت أحاديثهم التي يُسرون بها إليه ﷺ ذات أهمية لما رجَّحوا الكف عنها وهم الأغنياء خشية تقديم الصدقات، نسخ الله برحمته ومنه حكم الضريبة، مما دل على أنه وضع لعلاج ظاهرة التناجي السلبي. ووجه القرآن عتابه للذين امتنعوا عن التناجي ذلك إشفاقا من تقديم الصدقة، أو تناجوا ولم يقدموا صدقة كما أمرهم الله، أو للذين لم يطيقوا ذلك بسبب الفقر وقلة المال: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ قالوا: الإشفاق الخوف من المكروه، فيكون معناه: هل شق عليكم إعطاء الصدقة قبل التناجي مع الرسول ﷺ؟ ﴿أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ ولم يقل صدقة مما يدل على وجود فريق من المسلمين يكثرون التناجي مع النبي مما يستلزم الصدقات الكثيرة. وحيث إنه تعالى لا يعارض التناجي ذاته، لعلمه بضرورته وحقانيته من قبل المخلصين، وفي بعض موارده، رحم الذين لا يجدون، وتاب على الذين أشفقوا. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ مما يدل على تقصير لدى المعنيين بهذه الآية الكريمة. ومن مصاديق الرحمة هناك والتوبة هنا نسخ فريضة الصدقة عند النجوى، وبالتالي إرجاع المسلمين إلى واجباتهم الأولية، وأهمها الصلاة بوصفها رمزاً للجانب العبادي والروحي عند الإنسان المؤمن، والزكاة بوصفها رمزاً لتعبده الاقتصادي الاجتماعي، والطاعة لله وللرسول بوصفها رمزاً للالتزام السياسي في الحياة. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بتمام المعنى، إذ لا يقوم إلا الصحيح، وإقامة الصلاة فيما يعني انعكاسها على السلوك والالتزام بقيمها في سائر أبعاد الحياة. ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ تكافلا مع المعوزين، ودعما لاقتصاد المجتمع، وبالتالي تطهيرا للمجتمع من الآثار السلبية للعوز والحاجة، وتزكية للنفس من أعقد مشاكلها وهي الشح.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ولعل في هذه الآية بدائل للمضامين السيئة في النجوى الحرام، فبإقامة الصلاة يتطهر الإنسان من الإثم، والزكاة (العلاقة الإيجابية مع المجتمع) بديل للعدوان عليه، والطاعة بديل لمعصية الرسول، فهناك نهي عن تلك، وهنا دعوة لنقائضها، كما أن الآية تفسير عملي لمعنى البر والتقوى وتقوى الله الواردة في الآية.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فإن التزم بالأمر الإلهي أثابه وجزاه خيرا في الدنيا والآخرة، وإلا عاقبه وعذبه.

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٥٧.

أولئك حزب الله

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً[1] فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ[2] عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث عن مصدر الإيمان في واقع الإنسان، وضرورة تحسسه الدائم بشهادة

---

(١) جُنَّة: ترساً وستراً

(٢) استحوذ: استولى وتسلّط على مجامع قلوبهم.

الله سبحانه عليه، نتساءل: ما هو المقياس الحق للإيمان الصادق، وللانتماء الصحيح إلى تجمع المؤمنين؟.

يزعم الكثير أنه يتلخص في الممارسات القشرية للدين، ولأنه يصلي ويصوم ويحج يحسب أنه من أولياء الله، ومن حزبه المفلحين. وينبغي لنا أن نرجع إلى القرآن الحكيم الذي هو الفرقان والميزان في كل قضية، ونتخذ المقاييس من آياته، وإنه ليؤكد في هذا الدرس وفي الكثير من الآيات والمواضيع أن أهم وأبرز محتوى ومقياس للإيمان وللانتماء الحقيقي للمؤمنين هو التولي الصادق والعملي لحزب المؤمنين وقيادتهم الرسالية، أما أولئك الذين يَدَّعون الإيمان في الظاهر ولكنهم يحتفظون بوشائج حميمة نفسية وسياسية مع حزب الشيطان (أعداء الرسالة من الكفار والمشركين والمنافقين) فإنهم وإن حلفوا بالأيمان المغلظة، وتكلفوا إظهار صدق الإيمان والانتماء والولاء، ليسوا إلا من حزب الشيطان، وسوف يعذبهم الله، دون أن يستطيعوا التهرب من عذابه بوسيلة، ولا خداعه بيمين وحلف، لأنه الشاهد على كل شيء والعليم الخبير به، وهو يعلم بواقعهم الذي ينطوي على الولاء لأعداء الله والرسالة، وأعداء المؤمنين والقيادة الرسالية، بحثا عن العزة والشرف، فكيف يكون هؤلاء من المؤمنين الصادقين وهم يحادون الله ورسوله بهذا العمل القذر، ويتخلفون عن حدوده وأحكامه؟ أم كيف ينالون عزة وليست إلا لله ولرسوله وللمؤمنين؟ كلا.. إنهم ليسوا من المؤمنين، ولن يصيروا إلا إلى ذل بعد ذل.

بلى؛ إن هؤلاء المنافقين ذوي الشخصيات المزدوجة كانوا يبحثون عن المناصب والرفعة باعتبارهم الأكثر مالا، وأتباعا، ولما في نفوسهم من المرض، وليس لأنهم الأكفاء، فراحوا يطلبون العزة، ويسعون لهذه المطامع من خلال التعاون مع أعداء الأمة الإسلامية، وبيع أنفسهم عمالة لهم، لعلهم ينتصرون جميعا على الرسول، ويطفئون شعلة الرسالة، فتتحقق مطامعهم، وينالون أغراضهم المشؤومة، وقد غاب عن هؤلاء أن الله صاغ الوجود على أساس انتصار الحق، وكتب ذلك في سننه، وحتم تنفيذه بقوته، وأراد لنفسه ولحزبه العزة، ولأعدائه الهزيمة والذل.

وختاماً للسورة ولهذا السياق يحدد الله أهم المواصفات للمؤمنين الحقيقيين، الذين هم حزبه المفلحون، وأهمها بعد الإيمان بالله واليوم الآخر التبري من أعداء الله ورسوله ورسالته، لا يميزون في ذلك بين أحد وأحد، إنما يعدون من أجل توليهم وانتمائهم كل عدو لله ورسوله ورسالته عدوًّا لهم ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، مما يدل على تجذر الإيمان في قلوبهم، وإخلاصهم للحق، وتأييد الله لهم بروح منه، لأنهم أولياؤه بحق وصدق ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ الذين يستحقون تأييده وجناته ورضوانه، وذلك هو الفلاح.

بينات من الآيات:

[١٤] كما يكن المنافقون العداء للأمة الإسلامية، وللرسول والرسالة، ويتحركون على الصعيد الداخلي لإيجاد حركة سرية معارضة للحركة الرسالية المباركة، وتيار اجتماعي عاص لقيادتها، فإنهم على الصعيد الخارجي يعقدون ولاءهم للقوى المعادية للأمة، وبازدواجية الولاء تطمع هذه الفئة تثبيت مركزها الاجتماعي والسياسي.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ وذلك أن المنافقين يومئذ تحالفوا مع اليهود، واظهروا العمالة لهم (الولاء)، بالقلب حبًّا، وبالعمل طاعة. واليهود ليسوا إلا مصداقا للذين غضب الله عليهم، كما أن الذين تولوهم من مصاديق النفاق والمنافقين، وإلا فهذا الواقع قائم بكلا مصداقيه في عصرنا الحاضر، ولكن بصور ومصاديق مختلفة، فهناك الأحزاب والشخصيات الضالة التي توالي أعداء الأمة في الغرب والشرق.

ومن طبيعة المنافقين أنهم لا يفصحون عن ولاءاتهم الحقيقية، إنما يتظاهرون بين المسلمين ولدى القيادة بمظهر المخلص، حتى أنهم يتكلفون أكثر من غيرهم في ادعاء الإيمان والإخلاص خشية الفضيحة. ولكن ذلك لا يغير من الواقع شيئا، وماذا يبقى للذي يوالي أعداء الله من الإسلام حتى يدعيه؟ بلى؛ قد يصلي المنافقون ويصومون ويحجون وما أشبه، ولكن ذلك كله لا يسوى عند الله شيئا ما دامت العبادات مفرغة من أهم مضامينها وقيمها يعني التولي، ولذلك ينفي القرآن انتماءهم إلى المسلمين رغم المظاهر الدينية في سلوكهم.

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ لأنهم يفقدون أهم قيم الانتماء الحقيقي وشروطه وهو التولي لله وللقيادة الرسالية وللمؤمنين، وكيف تكون الأحزاب والحكومات والشخصيات الخائنة جزءا من الأمة وهي تقف حربا عليها مع الأعداء؟! أترى من يتولى حزب الشيطان (القوى الاستكبارية) الذي غضب الله عليهم، ويبيع إنسانيته وأمته وثروات شعبه لهم، يكون مسلما؟! كلا.. إنما هو مشمول بغضب الله مثلهم.

﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ ماذا تعني هذه الكلمة؟.

إن الأعداء لا يتعاملون معهم كأنداد، فإن اليهود لا يقبلون بعنصريتهم أن ينتمي أحد إليهم، وكذلك القوى الاستكبارية اليوم تتعامل مع عملائها من الحكام الظلمة على أنهم ليسوا سوى كلاب تحمي مصالحها، ثم إنهم لا يدافعون عن مبدأ أو خط سياسي واضح -كما الأعداء- إنما يدافعون عن أنفسهم ويسعون وراء مصالحهم فلا أحد يقبلهم، بلى؛ إنهم في النهاية يلحقون بالأعداء في نظر الإسلام كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ بكل ما يؤدي غرض الحلف، من قسم، وتظاهر بالإسلام تكلفا من خلال الشعارات ﴿عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ يعني ادعاء الإسلام والإيمان ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم ليسوا على شيء من الإسلام، وليسوا من المسلمين، إنما يريدون بذلك تضليل الآخرين عن أهدافهم الحقيقية لعلمهم بأن وعي الأمة بواقعهم كفيل بإسقاطهم، وإحباط مؤامراتهم، وإننا لنشاهد اليوم صورة لهذا الخط يمثلها الحكام المنافقون، والحركات المتغربة الذين يتظاهرون بشعارات إسلامية مكرا وكذبا.

[١٥-١٦] وهؤلاء جميعا وأمثالهم يتوعدهم الله بالعذاب الشديد جزاء أعمالهم السيئة. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وإعداد الله لا يعني التكلف تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً، إنما هم يقبلون على عذاب مهيَّأ ينتظرهم، وإذا استطاعوا الهرب عن لومة اللائمين في الدنيا، وردات فعل المؤمنين، فإنهم لن يفلتوا من جزاء الله على أسوأ الأعمال وأقذرها وهو النفاق والازدواجية في الشخصية والانتماء.

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إذ يتولون أعداء الأمة الإسلامية، وأعداء الله، ويتسترون بالنفاق، والحلف والأيمان المغلظة، وقد جاء في الأخبار أنهم كانوا يتجسسون لصالح اليهود، فيرفعون لهم أخبار الأمة وأسرارها الحساسة، كما هو حال المنافقين في كل عصر ومصر، وجاء في بعض الأخبار أنهم كانوا يكتبون ما في التوراة وينشرونها بين المسلمين مما يحدث عندهم بلبلة فكرية.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي تذرَّعوا بالحلف والأقسام المغلظة، واستتروا بمظاهر الإيمان، حتى لا تنكشف سرائرهم وحقيقتهم للأمة الإسلامية، وراحوا يعملون لتحقيق أهدافهم الخيانية السيئة، ويزدادون بذلك ضلالا إلى ضلالهم، ويضلون بأساليبهم الماكرة ما يستطيعون من الناس، وبالذات أولئك البسطاء الذين تخدعهم المظاهر لقلة وعيهم.

﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنفسهم وغيرهم، وهم إنما نافقوا وتستروا بالإيمان لكي يبعدوا عن أنفسهم ذل الدنيا بالفضيحة والخزي عند المؤمنين، ولكي يبلغوا ما يتصورنه عزًّا وكرامة، من المناصب والمغانم الدنيوية، ولذلك فإنهم يستحقون إضافة إلى الشدة في العذاب أن يكون مهينا ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ويبقى سؤال: ما هو سبيل الله الذي صدوا عنه؟ لا ريب أن كل خير هو سبيل الله بيد أن أقرب السبل إليه الجهاد في سبيله، وهو الأشهر استخداما في النصوص. وإنها لسمة بارزة لخط النفاق تقاعسه عن الجهاد، وصد الناس عنه بالإشاعات الباطلة أو بوسائل أخرى.

ولقد أوضح القرآن في هذه الآيات ملامح المنافقين لكي نُميِّزهم عن الصادقين، ونقضي بذلك على أعصى عقدة في المجتمع الإسلامي وأكبر خطر.

[١٧-١٨] أما عن جذر مشكلة النفاق، والتولي لأعداء الله، فإنه حطام الدنيا وزينتها مما يلهث وراءه الإنسان بطبعه وهواه، وحينما نتدبر القرآن، ونقوم بدراسة للواقع الاجتماعي والسياسي لتاريخ الأمم، فإننا نجد أن طائفة كبيرة من المنافقين، وبالذات الرؤوس فيهم، هم من أصحاب المال والقوة، ويؤكد ربنا أن شيئا من حطام الدنيا لن ينفعهم إذا حل بهم عذابه، أو عُرضوا على النار يوم القيامة، لأن ما ينفع الإنسان هنالك عمله الصالح وليس المال والأعوان.

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ ولو افتدوا بملء الأرض ذهبا، ولو اجتمع الإنس والجن لنصرتهم، ولعلنا نفهم من الآية أنهم يوظفون الأموال والأنصار من أجل أهدافهم القذرة، أو أنهم يتحصنون بهما -كما يفعل الطواغيت والظلمة- عن الفضيحة والأذى في الدنيا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ نعم، إن المنافقين قد يتنعمون في الدنيا، وينالون نصيبا من زينتها، ولكنهم في الآخرة لا نصيب لهم إلا العذاب المستمر، وقوله تعالى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ﴾ نفيا قاطعا مؤكدا مؤبدا، فيه إشارة إلى كونها تغني عنهم في الدنيا شيئا محدودا.

ثم يضع القرآن أمامنا صورة للمنافقين في الآخرة، إذ يحلفون بالله طمعا في النجاة بالمخادعة، ذلك أن الحلف والأيمان ربما تصلح جنة في الدنيا وأمام الناس، أما الله فإنه قد أحاط شهادة وعلما بكل شيء، ولو أدرك الإنسان هذه الحقيقة بعمق لترك النفاق.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] إصرارا على النفاق المتأصل فيهم، وطمعا في الخلاص من الفضيحة والعذاب. وهذه الآية تهدينا إلى حقيقة مهمة وهي أن الإنسان يبعث بخلقياته وطبائعه التي يموت عليها، بلى؛ ليس يبعث الإنسان بجسمه وحسب، بل وبكل خصائصه النفسية والسلوكية، فترى الكاذبين يومئذ بأفواه نتنة، والمتكبرين في صورة ذر يطؤهم الناس بالأقدام، والمنافقين بوجهين لازدواج شخصيتهم في الدنيا.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي شيء من شأنه يُمضي مكرهم وخداعهم عند الله، قدرة، أو مالا، أو نصيرا، أو ما أشبه، كلا.. فإن الله لا تخدعه المظاهر، ولا الإعلانات، ولا..، لأنه شهيد على سرهم وجهرهم، عليم بحقيقتهم، خبير بما عملوا وما يعملون.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ عند أنفسهم إذ ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وعند الله الذي لا تخفى عليه خافية. وحلفهم الباطل هو جزء من كذبهم. والآية تهدينا إلى نسف قاعدة النفاق ألا وهي زعم أن الإيمان هو هذه الممارسات القشرية، هذه اللحى المرسلة، والثياب القصيرة، والشعارات الفارغة، والأيمان المغلظة، والمبالغة في ادعاء الالتزام بالدين، كلا.. إن كل ذلك ليس من الإيمان في شيء ما دام في القلب مودة للكفار، وولاء لهم!

لأن الإيمان -أصل الإيمان- هو تولي الله وأوليائه، والبراءة من أعداء الله.

[١٩] ثم يبين القرآن واحدا من العوامل الخفية والمهمة التي تقف وراء شخصيتهم التافهة. إنه استسلامهم للشيطان، يسوقهم سوقا حثيثا حيث يشاء ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لأنهم ضعفوا أمام إغراءاته وتحريضاته وأساليبه، والشيطان ليس الجني وحسب، بل هو كل أحد يدعو الإنسان إلى معصية ربه، كعلماء السوء، ووسائل الإعلام المضللة، والأنظمة المنحرفة، وكذلك الأحزاب والحركات الضالة. ولا يتسلط على أحد ما دام يملك الإيمان. أوليس الإيمان حصن الاستقلال؟ أو جنة للفؤاد من الفتن والشهوات، فإذا فقد البشر ثقته بالله وتوكله عليه عند عصف الشهوات، وتواصل الضغوط، فأنى له الصمود؟ إنه يُضحي كما الريشة في بؤرة الزوبعة، فاقدا لأية إرادة أو أصالة وتفكير، يستسلم لمن يسوقه من شياطين الجن والإنس.

والإنسان لا يمكن أن يعيش فراغاً قياديًا، فهو إن لم يناصر الحق، ويوالي قيادته، وينتمي إلى تجمعه، نصر الباطل، ووالى رموزه، وانتمى إلى تياره، وقد رفض المنافقون الخط الأول، واتبعوا أهواءهم وشهواتهم، فوقعوا في أشراك الشيطان، وتمكن منهم إلى أقصى حد.

وقالوا في معنى كلمة ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ أنها من أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوي عليهم. وقال بعضهم: «أنه من الحوذ وهو ظاهر فخذ الإبل حيث تساق من خلال ذلك المحل». والمراد واضح وهو الغلبة عليهم.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ في قلوبهم وسلوكهم وواقعهم العملي. وحيث إن في ذكره تعالى كل الربح والفلاح، فإن نسيانه خسارة عظيمة للإنسان، وإن الشيطان ليبدأ في الإضلال من أصغر الأمور خطوة بعد خطوة حتى يتمكن من صاحبه، ويستخدم لذلك شتى الأساليب الماكرة، وأهمها تزيين الدنيا والذنوب لديه، وإثارة التمنيات في قلبه، وبعثه نحوها، ومزج الحق بالباطل. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ الله، يَتَوَلَّى فِيهَا رِجَالٌ رِجَالًا، فَلَوْ أَنَّ البَاطِلَ خَلَصَ لَمْ يَخْفَ عَلَى ذِي حِجًى،

وَلَوْ أَنَّ الحَقَّ خَلَصَ لَمْ يَكُنِ اخْتِلَافٌ، ولَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ ومِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَيَجِيئَانِ مَعاً فَهُنَالِكَ اسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ونَجَا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَى»[1].

ويتم استحواذه حينما ينسي الإنسان ذكر ربه وشهادته عليه، وعقابه وثوابه، وسعة رحمته، وشدة عذابه، وما أشبه، لأن ذكر الله هو الذي يعصم عن الذنب، ويدفع إلى الطاعة والتوبة، قال الإمام الصادق عليه السلام: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ صَعِدَ إِبْلِيسُ جَبَلاً بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهُ ثَوْرٌ فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ بِعَفَارِيتِهِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فَمَنْ لَهَا؟.

فَقَامَ عِفْرِيتٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَقَالَ: أَنَا لَهَا بِكَذَا وكَذَا، فَقَالَ: لَسْتَ لَهَا، ثُمَّ قَامَ آخَرُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَسْتَ لَهَا، فَقَالَ الوَسْوَاسُ الخَنَّاسُ: أَنَا لَهَا قَالَ: بِمَاذَا؟ قَالَ: أَعِدُهُمْ وأُمَنِّيهِمْ حَتَّى يُوَاقِعُوا الخَطِيئَةَ فَإِذَا وَاقَعُوا الخَطِيئَةَ أَنْسَيْتُهُمُ الاسْتِغْفَارَ، فَقَالَ: أَنْتَ لَهَا، فَوَكَّلَهُ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[2]، وإذا نسي أحد ذكر الله ليس يبقى على خطئه وضلاله وحسب، بل ويظل دون منقذ في ربقة الشيطان وأسره يهوي به دركا بعد آخر إلى أسفل سافلين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ في الدنيا لأنهم يتولونه ويطيعونه ويتوجهون حيث يريد، وفي الآخرة لأنهم سيصيرون معه في النار، وهذا تقرير من قبل الله بأنهم ليسوا من حزبه، بالرغم من انتمائهم الظاهر إليه، وكيف يكونون من حزبه وهم يفقدون أهم شروط ومضامين الانتماء الحقيقي وهو التولي لأوليائه والطاعة للإمامة الرسالية؟! وحزب الشيطان ليس تجمعا ولا تنظيما بذاته، بل هو الجبهة العريضة والممتدة عبر الزمن لقيم الباطل ورموزه وتجمعاته بشتى مصاديقها وطبائعها، والتي يناصرها في الظاهر القيادات المنحرفة، السياسية والاقتصادية، والفكرية والعسكرية، و...، وفي الخفاء تنتمي إلى إبليس الرجيم.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في الدنيا لأنهم يواجهون ذل الانحراف والهزيمة على أيدي المؤمنين (حزب الله)، وتتجسد خسارتهم العظمى في الآخرة، حيث يصيرون جميعا هم والشيطان إلى عذاب الذل والهوان خالدين فيه. وقد أكد الله خسارتهم لأنهم إنما تولوا رموز حزبهم، وانتموا إليه رغبة عن حزب الله وأوليائه، وتركوا الحق إلى الباطل، من أجل المكاسب والربح، ولن يفلحوا في بلوغ ذلك أبدا.

[٢٠-٢٢] ويؤكد القرآن الحكيم مرة أخرى خسارة حزب الشيطان، والذين ينتمون

---

(١) الكافي: ج١، ص٥٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٠، ص١٩٧.

إليه، لمعاداتهم الله بترك رسالته، ومعاداتهم رسوله بمعصيته وترك التسليم لقيادته، حيث يصيرون من أكثر الناس ذلة وصغارا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ لأن الله اختص بالعزة وخص بها رسوله والمؤمنين (حزب الله) وليسوا منهم، ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٩]، ثم إن السبيل إلى العزة الحقيقية هو تطبيق الحق، وليس اتباع الباطل والأهواء، وقد نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واتبعوا الشيطان.

ولعل الآية تهدينا إلى أن هؤلاء المنافقين يعيشون في داخلهم شعور الضعة والحقارة والذل، مما يدفعهم بناءً على ظنونهم وتصوراتهم الخاطئة إلى التولي لأعداء الله بحثا عن القوة والعزة، ويتمسك المؤمنون الصادقون بولائهم وانتمائهم لله ولحزبه وقيادته، لاعتقادهم الراسخ بأن ذلك هو السبيل إلى العزة والقوة (الفلاح).

وتظهر ذلة الكفار بصورة أجلى حينما يصب الله عليهم العذاب المهين، فلا تبقى لهم كرامة بين الناس، ولا في أنفسهم، إلا أن مشيئته تعالى بإذلالهم ليست محصورة في الآخرة، وكذلك عزته لحزبه، بل هما مفروضتان ومحتومتان في الدنيا أيضا، وتتجليان في نصره سبحانه لحزبه، وأن ذلك حق محتم، خلق الله الحياة على أساسه، وفرضه بإرادته.

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ أي فرض وأثبت، كقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]، و﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ولا مبدل لما يكتب الله، لأنه الإرادة المطلقة. وفي الآية تأكيدات أربعة: الفعل ﴿ كَتَبَ ﴾، ولام التوكيد، والنون في ﴿ لَأَغْلِبَنَّ ﴾، والضمير المنفصل ﴿ أَنَا۠ ﴾، وكل ذلك حتى يطمئن المؤمنون بنصر الله لهم رغم كل التحديات، والظروف المعاكسة، حيث يقفون بالعدد القليل، والعدة المحدودة، في مقابل حزب الشيطان بأعداده الكثيرة وإمكاناته المادية والمعنوية الهائلة، ويعلمون أنهم سيُنصرون عليه، وستكون الغلبة لصالحهم، لأنهم إن قلُّوا، وقلَّت إمكاناتهم، مؤيدون بإرادة الغيب المطلقة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ ﴾ لا يغلبه أحد، وينتصر على كل عدو، ﴿ عَزِيزٌ ﴾ لا يقبل الذلة لنفسه ولا لرسوله وأوليائه والمؤمنين (حزبه). وهذه تأكيدات ثلاثة أخرى: ﴿ إِنَّ ﴾، ﴿ قَوِيٌّ ﴾، ﴿ عَزِيزٌ ﴾، وما أحوج الحركات الرسالية التي تقف اليوم بإمكاناتها المحدودة تقاتل المستكبرين وأذيالهم من الأنظمة الفاسدة، ما أحوجها أن تتطلع إلى هذه الآية الكريمة، وتجعل منها بلسما

لكل عوامل اليأس والتردد والانسحاب، بلى؛ إنهم مدججون بمختلف الأسلحة وأحدثها (عسكريًا، وسياسيًا، وإعلاميًا، ومعلوماتيًا، واقتصاديًا)، ولكننا منصورون بعزة الله وقوته.

ومن الطبيعي أنه لا يصح الاعتماد في الصراع على أنفسنا بعيدا عن الإيمان بالغيب، لأن المعركة خطيرة، والتحديات كثيرة وصعبة، كما لا يجوز أن نعتبر الغيب بديلا عنا في إدارة الصراع، إنما يجب أن نبذل ما نستطيع من أجل الغلبة، ثم نتوكل على الله، ويبدو أن في الآية إشارة إلى ذلك، فإن الله لم يقل: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠﴾ وحسب، إنما أضاف: ﴿وَرُسُلِيٓ﴾، كما تذكر الآية التالية بحزب الله، تأكيدا على أن لنصر الله شرطين: (القيادة الرسالية + حزب الله)، ولا يعني أنه لا يستطيع نصر الحق وتنفيذ رسالته في الحياة من دون الرسول والمؤمنين، كلا ولكنه خلق الحياة على أساس الابتلاء والامتحان.

وباعتبار الآية جاءت بعد الحديث عن الذين يتولون أعداء الله نستوحي منها أن تحالف المنافقين مع جبهة الشيطان ضد حزب الله لا يمكنه أن يغير من المعادلة شيئا، فإن ذلك لن يضعف حزبه تعالى، ولن يكسب أعداءه نصرا على الحق وقال: ﴿أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾، ثم أكد بعدها قوته وعزته وحده، لكي يؤكد أن غلبة الحق ليست مرهونة في الدرجة الأولى بنصرة أحد من الناس، إنما تتحقق بإرادته سبحانه، فلو تنصل الجميع جدلا عن مسؤولياتهم، بل وتحالفوا مع أعدائه، فإنه ينتصر للحق. قال: ﴿وَرُسُلِيٓ﴾ ولم يذكر المؤمنين، مع أنهم معنيون بالآية والغلبة، ربما للدلالة على أن نصر الله للمؤمنين إنما هو لاتباعهم خط الرسل،، ولم يفرد بالقول: (ورسولي) مما يهدينا إلى أن الرسالة الإسلامية امتداد حقيقي للرسالات السابقة كلها، وأن انتصارها هو انتصار لمسيرة الحق في الحياة، والتي حمل مشعلها الأنبياء في التاريخ، ونصرة الله لا تتوقف بعد الأنبياء، إنما تستمر في تأييده للحركات الرسالية الصادقة (حزب الله) باعتبارها الامتداد الطبيعي لحركة الرسل، فنصرها نصر لمسيرتهم.

وهناك ثلاثة سبل:

الأول: القوة الغيبية المباشرة أو عبر الملائكة، كما نُصِر النبي نوح عليه السلام بإهلاك قومه، والنبي موسى عليه السلام بإغراق فرعون وجنده، وكذلك النبي صالح والنبي شعيب عليه السلام.

الثاني: الحجة البالغة التي يُسدِّد بها أولياءه، فيقتنع الناس بكلامهم ويعرفون أن رسالات ربهم هي الحق، كما أتم الحجة لنبيه الأكرم صلى الله عليه وآله فدخل الناس في دينه أفواجا.

الثالث: (وهو الذي يهمنا): نصر الحق بالمؤمنين المتوكلين عليه عز وجل، الراغبين في الشهادة المعتصمين بحبل الوحدة والقيادة والرسالية، والذين لا يعرفون إلا السعي الحثيث من

أجل إعلاء كلمة الحق، وهم حزبه بحق وصدق.

وأهم ما يميز حزب الله هو تجرد أفراده للحق تعبدا لله، وتسليما لرسوله عن قناعة ثابتة ورضا، فإنك لو فتشت في قلوبهم، وسلوكاتهم السياسية، وحتى الاجتماعية لما وجدت أثرا لتولي أعداء الله في حياتهم أبدا، لأن تحزبهم مخلص له وحده تعالى، لا يتنازلون عن هذه القيمة الأساسية، ولا يساومون عليها أحدا مهما كان قريبا منهم، لوعيهم العميق بدور التولي في تحديد شخصية الإنسان، وهويته الحقيقية، وانتماءاته، كما قال الله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إيمان قناعة وتوحيد، أو يوقنون بالحساب والجزاء ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إنك لا تجد من هذه صفتهم؛ ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فذلك شرك وكفر لا تقبله نفوسهم المؤمنة بالله، وذنب عظيم يخشون غضب الله عليهم بسببه في الآخرة، والحال أنهم يبحثون عن السعادة والفلاح فيها. وبالنظر إلى الآية من زاوية أخرى يكون المفهوم أن الذي يتولى أعداء الله أو يحبهم ليس من المؤمنين، وأن أهم العوامل التي تدفع المنافقين ومرضى النفوس إلى الإقدام على ذلك هو شكهم في الله والجزاء، وكفرهم بهما، وأنهم استبدلوا الإيمان بالله بالشرك والكفر، والدنيا بالآخرة. أما المؤمنون الصادقون (حزب الله) فهم يتولون ربهم وخلفاءه من القيادات الرسالية، ويمنعهم إيمانهم به وبالآخرة أن يتولوا من حاده.

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ لأنهم لا تعمل العواطف ولا الضغوط في شخصياتهم وسلوكاتهم ومواقفهم، إنما يبحثون عن الحق ويطبقونه، وعن القيادة الكفوءة المحقة فيوالونها، وعن التجمع الرسالي فينتمون إليه، ويسخّرون كل إمكاناتهم من أجل ذلك، لا تأخذهم في الله لومة لائم. ولا ريب أن ذلك أمر تصعب دونه التحديات التي تحتاج إلى الإرادة القوية، والتوفيق من الله، ولذلك أكد القرآن بالقول: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي أثبت الله الإيمان في نفوسهم، لما وجده فيهم من الأهلية، حيث تجردوا له وللحق من كل شيء سواهما. والإيمان الذي يكتب في القلب هو الأهم والأرسخ والأصدق من الذي يظهر في الجوارح.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ فاجتمعت فيهم ثلاث قوى: (إرادتهم + قوة الإيمان + تأييد الله)، فإذا بهم ينتصرون على التحديات، ويخرجون من أمتن الصّلات وأعمق الانتماءات تجذرا (الصلة بالآباء والأبناء والإخوان، والانتماء إلى العشيرة والوطن والقومية) إلى الانتماء الرسالي والصلة بالحق وأهله. ويبدو أن هذه الكلمة تعاكس تلك التي ذكرت في صفات المنافقين من أن الشيطان استحوذ عليهم فأنساهم ذكر الله، فهناك لا تجد ذرة من الاستقلال والعزة والإرادة، ولا تجد هنا شيئا من التراخي والضعف والذل، وليس الفاصل بينهما إلا الإيمان الحق برب العزة.

أما عن الروح التي يؤيدهم بها الله، وتُثَبِّت الإيمان فيهم، وينتصرون بها على التحديات، فإنها تعبير عن الشيء الذي يعطي الحياة الحقيقية للإنسان، وحياته في التزامه بالحق، ومن أظهر مصاديقها روح الإيمان التي تحملها إليهم وتركزها فيهم آيات الله، ويبعثها في روعهم الإيمان المكتوب في القلوب، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ومن مصاديق روح التأييد الإلهي ملائكة الله، وإليك جانبا من النصوص الواردة في تفسير تلك الكلمة:

قال الإمام الصادق عليه السلام: «هُوَ الإِيمَانُ»[1]. وقال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلاَّ وَلِقَلْبِهِ أُذُنَانِ فِي جَوْفِهِ: أُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الوَسْوَاسُ الخَنَّاسُ، وأُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا المَلَكُ فَيُؤَيِّدُ اللهُ المُؤْمِنَ بِالمَلَكِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾»[2]. وقال الإمام أبو الحسن الهادي عليه السلام: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَيَّدَ المُؤْمِنَ بِرُوحٍ مِنْهُ، تَحْضُرُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ يُحْسِنُ فِيهِ ويَتَّقِي، وتَغِيبُ عَنْهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ يُذْنِبُ فِيهِ ويَعْتَدِي، فَهِيَ مَعَهُ تَهْتَزُّ سُرُوراً عِنْدَ إِحْسَانِهِ وتَسِيخُ فِي الثَّرَى عِنْدَ إِسَاءَتِهِ، فَتَعَاهَدُوا عِبَادَ اللهِ نِعَمَهُ بِإِصْلاَحِكُمْ أَنْفُسَكُمْ تَزْدَادُوا يَقِيناً وتَرْبَحُوا نَفِيساً ثَمِيناً. رَحِمَ اللهُ امْرَأً هَمَّ بِخَيْرٍ فَعَمِلَهُ أَوْ هَمَّ بِشَرٍّ فَارْتَدَعَ عَنْهُ.

ثُمَّ قَالَ: نَحْنُ نُؤَيِّدُ الرُّوحَ بِالطَّاعَةِ للهِ والعَمَلِ لَهُ»[3].

ولقد تجلت مصاديق الإيمان الثابت والتأييد الإلهي في الصحابة المخلصين لرسول الله، إذ خرجوا من العلاقات العاطفية والاجتماعية والسياسية، وكذلك الانتماءات القبلية والعرقية و.. . لتكون علاقتهم بالحق وحده، وانتماؤهم إلى حزب الله، ومن أجل ذلك وقفوا يقاتلون آباءهم، وأبناءهم، وإخوانهم، وقبائلهم، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ولَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله نَقْتُلُ آبَاءَنَا وأَبْنَاءَنَا وإِخْوَانَنَا وأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَاناً وتَسْلِيماً ومُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ، وصَبْراً عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ، وجِدّاً فِي جِهَادِ العَدُوِّ»[4].

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لصدقهم معه، وإخلاصهم له، ونصرتهم لدينه ورسوله، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ من كل ثواب وجزاء غيره.. وهم بدورهم سلموا له ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ معرفة به، ورغبة في ثوابه، فهم لا يتذمرون مما يصيبهم ويتعرضون له في المصاعب والأذى في سبيله، لأنهم يبحثون عن رضوانه

---

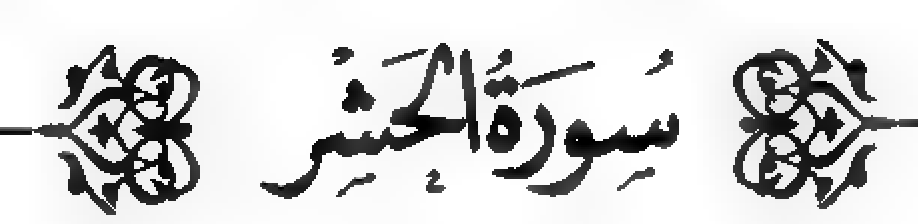
(١) الكافي: ج٢، ص١٥.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٦٧.
(٣) الكافي: ج٢، ص٢٦٨.
(٤) نهج البلاغة: خطبة: ٥٦.

أنى وجدوه، فهو تطلعهم الأعظم الذي لا يالون بالتضحيات من أجله، ويسترخصون كل شيء سواه، لأنهم باعوا أنفسهم له تعالى، وجعلوها رهن رضاه، فتحزبوا (ناصروا وتوحدوا) من أجله، تحت لواء الحق، والقيادة الرسالية، وفي تجمع المؤمنين، يحبون ما يحب ويعملون به، ويبغضون ما يبغض ويتناهون عنه، ومقياسهم في معرفة الباطل ومصاديقه (أعداء الله ورسوله) هو الحق المتمثل في الرسالة، والقيادة الإلهية المتجسدة في الرسول، والأئمة، والعلماء المخلصين من بعدهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ لأنهم متجردون له وللحق ولقيادة الصالحين، أعمق حتى من تمحض المنافقين للشيطان وللباطل ولأئمة الكفر ورموزه. والذي يبحث عن الخط الرسالي الأصيل ويريد الانتماء إليه، فإنه متجسد في الحركات الإلهية المخلصة، القائمة على مقاطعة أعداء الله وحربهم بعيدا عن العلاقات والتحالفات المشبوهة، وعلى أساس الحق لا العنصرية، والقومية، والإقليمية، وما أشبه، ولا على أساس الصنمية لأحد، فذلك كله شرك خفي. وكما أن أفراد حزب الله الحقيقيين لا يوادون من حاد الله، فإنهم من جانب آخر لا يحادون من واده وأحبه، فليس من حزبه أولئك الذين ينصبون العداء لأوليائه والمؤمنين به، ولا الذين يتخذون تجمعهم بذاته مقياسا لمعرفة الحق والباطل، لأنها قيمة جاهلية يرفضها المؤمنون من حزب الله، إنما مقياسهم الحق نفسه، والقيادة التي تلتزمه وتصيبه في آرائها ومواقفها. وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يشير إلى الصفات الآنفة الذكر يهدينا إلى أن الإنسان والتجمع لا يكون من حزب الله في شيء بالمظاهر كالشكل والاسم، إنما بالمضامين والصفات، وعليه فإن حزب الله ليس كل حركة تتبنى هذا الاسم، بل الحركة التي تجسد تلك الصفات في واقع الحياة فرديًّا وجماعيًّا، ولو أن شخصا انتمى إلى التجمع المؤمن، ولكنه لم يجسدها، فهو ليس منه أبدا رغم انتمائه الظاهري.

ومن كلمة ﴿حِزۡبُ﴾ نهتدي إلى أنهم منسجمون مع بعضهم متآلفون، تربطهم الوشائج المتينة الإنسانية والإيمانية، فإنك لا تجد في أنفسهم حِقداً ولا غِلاً ولا إضراً على بعضهم وعلى إخوانهم المؤمنين، ولا مظهراً لروح الفردية. وعلى أساس هذا التعريف الواسع لحزب الله فإنه لا يمكن أن نحصر مصاديقه في جماعة معينة، إنما هو جبهة كل المؤمنين الصادقين. وتلك القيم والصفات هي التي يتحصلون بها على السعادة.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ والفلاح هو السعادة بالنجاح في الوصول إلى الأهداف الحقيقية للإنسان، وفلاح حزب الله في الدنيا بالإيمان وثمار تطبيق الحق والالتزام به، وبالانتصار على حزب الشيطان، وفي الآخرة بجنات الله ورضوانه.



سورة الحشر

* مدنيّة.
* عدد آياتها: ٢٤.
* ترتيبها النزولي: ١٠١.
* ترتيبها في المصحف: ٥٩.
* نزلت بعد سورة البيّنة.

فضل السورة

عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الحَشْرِ لَمْ يَبْقَ جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ وَلَا عَرْشٌ وَلَا كُرْسِيٌّ وَلَا الحُجُبُ وَلَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَلَا الأَرَضُونَ السَّبْعُ وَالهَوَاءُ وَالرِّيحُ وَالطَّيْرُ وَالشَّجَرُ وَالجِبَالُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالمَلَائِكَةُ إِلَّا صَلَّوْا عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرُوا لَهُ، وَإِنْ مَاتَ فِي يَوْمِهِ أَوْ فِي لَيْلَتِهِ مَاتَ شَهِيداً».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٦)

***

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ هَذِهِ السُّورَةَ كَانَ مِنْ حِزْبِ اللهِ المُفْلِحِينَ».

(ثواب الأعمال: ص١١٧)

الإطار العام

الإيثار قمة الأخوة الإيمانية

تفتتح السورة بتسبيح الله وبيان عزته التي تجلت في دحر الكافرين، وتختتم بأسماء الله الحسنى، وفيما بينهما تبين الأخوة الإيمانية التي تشد المسلمين إلى بعضهم، بينما الكفار تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.

ففي السورة -إذن- محوران يتصلان ببعضهما اتصال الرافد بالينبوع، والدوحة بجذورها الضاربة في العمق..

ذلك أن تسبيح الله وتقديسه عن الشركاء، والذوبان في بوتقة توحيده، والاستظلال تحت راية حمده التي ترفرف بأسمائه الحسنى .. كل ذلك أساس التجمع الإيماني المتسامي عن حواجز المادة، وجذر لدوحة الصفات المثلى، كالتكافل والإيثار، وينبوع روافد الحكمة والجهاد والعزة الإلهية.

وهكذا تنساب آيات السورة في الآذان الواعية، فتطهر القلوب من أضغانها، وتزرع الحب في أرجائها.

تعالوا نستقبل زخات النور المنبعث من آياتها المباركات..

لأن الله قدوس، يسبح له ما في السماوات والأرض، فهو العزيز الحكيم. (الآية: ١).

ولأنه عزيز، فإنه قهر الذين كفروا بالرسالة وحاربوها من أهل الكتاب، وأخرجهم حتى يوم الحشر من ديارهم بالرغم من تجذرهم فيها، فلم يظنوا بأنهم خارجون منها، كما لم تظنوا ذلك.. لماذا؟ لأنهم شاقوا الله حينما كفروا برسالته،وحينما شاقوا الرسول، ومن آيات عزة الله أنه شديد العقاب بالنسبة إلى من يشاق الله. (الآيات: ٢-٤).

ويشرع السياق في بيان أصول التكافل الاجتماعي بين المسلمين عبر نقاط متواصلة:

الأولى: إن ما أفاءه الله على رسوله من دون حرب، فهو لله وللرسول وللمستضعفين من المسلمين. (الآيات: ٥-٦).

الثانية: إن الهدف من توزيع الثروة منع تراكمها بين الأغنياء فقط. (الآية: ٧).

الثالثة: الفقراء من المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله ونصروا الله ورسوله أولئك هم الصادقون،فهم يستحقون الفيء. (الآية: ٨).

الرابعة: الذين سبقوهم إلى دار الإيمان وهم الأنصار لا يجدون في أنفسهم حاجة مما أوتوا، لأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ولأن الله قد وقاهم شح أنفسهم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون. (الآية: ٩).

وهكذا تتدرج آيات السورة ابتداءً من التكافل الاجتماعي لتبلغ أسمى مراحل الأخوة الإيمانية المتمثلة في الإيثار،ويبدو أن هذه البصيرة هي محور السورة كلها.

الخامسة: لكي تبقى مسيرة الأخوة عبر الأجيال، فإن المؤمنين يستغفرون الله لمن سبقهم بالإيمان. (الآية: ١٠).

السادسة: إن المؤمنين يدعون ربهم دوماً أن ينزع من صدورهم أي غلٍّ تجاه إخوتهم المؤمنين. (الآية: ١٠).

السابعة: وكما يضرب القرآن لنا مثلاً أعلى للأخوة بين أبناء البشر في قصة الأنصار (من أهل المدينة)والمهاجرين (من غيرهم) وما كان بينهم من إيثار وحب، يسوق أمثولة من واقع المنافقين (من أهل المدينة) وكفار أهل الكتاب (من غيرهم) كيف سادت علاقاتهم الخيانة، فقد وعدوهم بأن ينصروهم إن هوجموا والله يشهد إنهم لكاذبون؛ كما يسوق أمثولة أخرى من واقع اليهودكيف أنهم يفقدون التمسك بعزة الله، فتراهم يرهبون منكم، كما أن قلوبهم شتى فيما بينهم لأنهم قوم لا يعقلون. (الآيات: ١١-١٥).

وهكذا علاقة الشيطان بمن يتبعه، يأمره بالكفر (ويمنّيه بالنصر) ولكنه يخذله، ويقول: إني أخاف الله رب العالمين، فيكون عاقبتهما النار خالدين فيها. (الآيات: ١٦-١٧).

الثامنة: ولكي تنمو في الأمة روح التقوى التي هي أصل كل خير، فإن الله يأمرنا بأن ننظر ماذا نقدم لدار مقرنا التي ننتقل إليها غداً، ويأمرنا بذكره أبداً، لأن من ينسى الله ينسيه

الله نفسه، وأن نسعى لنكون من أهل الجنة (التي سبقت الإشارة إليهم، وكيف يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)، وأن نحذر مصير أهل النار، فهما لايستويان مثلاً، أصحاب الجنة هم الفائزون. (الآيات: ١٨-٢٠).

وفي ختام السورة يتحف ربنا رسوله والمؤمنين ببيان أسمائه الحسنى عبر آيات لو أنزلت على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

وإذا تفكرنا في هذه الأسماء ووعيناها، فإن الانصهار في بوتقة التوحيد والخروج من شح الذات يكون ممكناً بإذن الله تعالى. (الآيات: ٢١-٢٤).

يسلط رسله على من يشاء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ② وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ[1] لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ[2] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ⑤ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ[3] عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ[4] وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا

---

(١) الجلاء: هو الانكشاف، وأُجلي عن البلد: أُبعد وأُخرج، وقيل: إن الجلاء في الآية: هو رفع المانع عنهم حتى يُجلَوا ويخرجوا، وفي مجمع البيان: الجلاء: الانتقال عن الديار.

(٢) لينة: النخلة، وقيل اللينة من الليونة، وهي كل ثمر ليِّـن، وقوّى ذلك الراغب في مفرداته، وجمع بين المعنيين فقال: هي النخلة اللينة الناعمة.

(٣) أوجف: سرعة السير، وأوجفتُ الخيل أسرعته. وقيل: الوجوف سرعة مع اضطراب، واستدلوا بقوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي مضطربة.

(٤) ركاب: هي الابل.

﴿... يَكُونَ دُولَةً[1] بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

هاجر النبي ﷺ إلى يثرب، ليتسنى له أن يبني في جو من الاطمئنان حركته الحضارية، ويُعِدَّ المؤمنين للدور التاريخي الهام الذي ينتظرهم. ولكنه وجد مدينته محاطة بمجاميع من الأعداء لا يقلون خطرا عليه وعلى الرسالة من طغاة قريش، وهم بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع من قبائل اليهود، وقد أهمهم الدين الجديد باعتبارهم أصحاب رسالة سابقة، واعتبروه خطرا على مصالحهم وكيانهم، وربما يدفعهم العداء مع دين الإسلام إلى الدخول في الحرب ضده.

وحيث لا تغيب هذه الحتميات عن الرسول ﷺ فقد سعى لإبرام المعاهدة الأمنية معهم لتحييدهم، وليتوجه إلى بناء الأمة الجديدة، وإعدادها لدورها الحضاري.

ولكن اليهود نقضوا العهد عداوة لله ولرسوله، وحسدا من عند أنفسهم، وكان ذلك أن أتاهم رسول الله يستلفهم دية رجلين قتلهما رجل من أصحابه، وكان بينهم كعب بن الأشرف، فلما دخل على كعب قال: مرحبا يا أبا القاسم وأهلا، وقام كأنه يصنع له الطعام، وحدَّث نفسه أن يقتل رسول الله ﷺ ويتبع أصحابه، فنزل جبرائيل فأخبره بذلك، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، «وقيل: إنهم قالوا: نعم. يا أبا القاسم! نعينك على ما أحببت، ثم خلا بعضهم ببعض، فقال (كعب بن الأشرف): إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حالته هذه، ورسول الله إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد، فقالوا: مَنْ رجل يعلو على هذا البيت يلقي عليه صخرة، ورسول الله في نفر من أصحابه فأتاه الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وقال لأصحابه: «لا تبرحوا»، فخرج راجعا إلى المدينة، ولما استبطؤوا النبي ﷺ قاموا في طلبه.. حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر بما أرادت اليهود من الغدر، وأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة بقتل كعب بن الأشرف (فقتله) وأخذ رأسه»[2].

وعزم ﷺ على قتالهم لما وجده فيهم من العداوة والغدر، بالذات وقد علم بالطابور

---

(١) دُولة: تداول القوم الشيء تداولًا، وهو حصوله في يد هذا تارةً وفي يد هذا أخرى، والأصل هو الانتقال.
(٢) مجمع البيان: ج٩، ص٣٢٦.

الخامس للمنافقين الذي يتصل بهم، فقال لمحمد بن مسلمة الأنصاري: «اذهب إلى بني النضير فأخبرهم أن الله عز وجل قد أخبرني بما هممتم به من الغدر فإما أن تخرجوا من بلدنا وإما أن تأذنوا بحرب، فقالوا: نخرج من بلادك، فبعث إليهم عبد الله بن أبي (رأس النفاق) ألّا تخرجوا وتقيموا وتنابذوا محمدا الحرب فإني أنصركم أنا وقومي وحلفائي، فإن خرجتم خرجتُ معكم وإن قاتلتم قاتلتُ معكم (و كان يطمع في غلبتهم على المؤمنين لما فيه من المصلحة المادية له ولأعوانه)، فأقاموا وأصلحوا حصونهم وتهيؤوا للقتال وبعثوا إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج فاصنع ما أنت صانع. فقام رسول الله ﷺ وكبَّر وكبَّر أصحابه وقال لأمير المؤمنين عليه السلام تقدم إلى بني النضير، فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام الراية وتقدم، وجاء رسول الله ﷺ وأحاط بحصنهم (يحاصرهم اقتصاديًا ومعاشيًا واجتماعيًا ليستسلموا، ولكيلا يتصلوا بقريش فتدعمهم)، وغدر بهم عبد الله بن أبي وكان رسول الله ﷺ إذا ظهر بمقدم بيوتهم حصنوا ما يليهم وخربوا ما يليه (حتى لا ينتفع به في شيء) وكان الرجل منهم ممن كان له بيت حسن خربه (كما تفعل الكثير من الجيوش حينما تنسحب من أي مدينة أو منطقة) وقد كان رسول الله ﷺ أمر بقطع نخلهم (حتى لا يستفيدوا منها في أكل ولا تحصّن) فجزعوا من ذلك وقالوا: يا محمد إن الله يأمرك بالفساد إن كان لك هذا فخذه وإن كان لنا فلا تقطعه، فلما كان بعد ذلك قالوا: يا محمد نخرج من بلادك وأعطنا ما لنا (مما دل على ضعفهم وتنازلهم عن موقفهم السابق)، فقال: لا، ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل، فلم يقبلوا ذلك فبقوا أياما، ثم قالوا (و قد ضعفوا وتنازلوا أكثر): نخرج ولنا ما حملت الإبل، فقال: لا، ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئا فمن وجدنا معه شيئا من ذلك قتلناه (و كان هذا الموقف الحازم والمتصلب من القيادة الرسالية يؤكد في نفوسهم الضعف وقوة المسلمين)، فخرجوا على ذلك ووقع قوم منهم إلى فدك ووادي القرى وخرج منهم قوم إلى الشام»[1].

وتحققت للرسول بذلك ثلاثة أهداف: قضاؤه على عدو خطير أولا، وقطع دابر المنافقين المعتمدين عليهم وآمالهم، وإضعاف جبهتهم ثانياً، وكسب الهيبة بين الأعداء المتبقين كقريش ثالثاً، وفي البعد الاستراتيجي طهَّر شبه الجزيرة من الوجود اليهودي.

بينات من الآيات:

[١] معرفة الله أعظم باعث للإنسان نحو عبادته والتسليم له، وخير ضمانة للاستقامة على ذلك، ومنهج معرفته تنزيهه عن الشريك، ومعرفة أسمائه الحسنى لنعرف أنه سبحانه أهل

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٥٩، بحار الأنوار: ج٢٠ ص١٦٨.

للعبادة فتسلم له نفوسنا وعقولنا وجوارحنا وقد ألهم ربنا كل شيء قدرا من نور معرفته، فإذا بكل شيء يسبح بحمده، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تسبيحاً تكوينيًا بما فيها من عجز ومحدودية، اللذين يعنيان افتقارها إلى الخالق والمدبر، وتسبيحا عمليا حيث خضع كل شيء لإرادته وسننه، واستجاب لأمره ونهيه، تسبيحا ناطقا كل بلسانه، ولو أن مخلوقا مختارا كالإنسان تمرد فلم يستجب لله، ولم يتلفظ بذكره، فإنه لا يستطيع الخروج عن تسبيحه بصورة تكوينية كما يقاوم إرادته وسننه، بل ولا يمكنه البقاء على ذلك إلى الأبد، فإذا لم يستجب بإرادته واختياره فسوف يخضع بكل وجوده في القيامة حيث يكون الدين لله.

وشذوذ الإنسان عن مسيرة الوجود من حوله إذا رفض الاستجابة لربه لا يغير من شأنه عز وجل شيئا، فهو بذاته منزه سواء سبَّحه خلقه أم لا، ذلك لأن تعاليه وسموه عن الشريك والعجز والمحدودية حقائق ذاتية وليست مكتسبة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تتجلى عزته وحكمته في الوجود، وفي مسيرة البشرية، وفي كتابه الذي تجلى فيه لخلقه، ويؤكد القرآن هاتين الصفتين في مطلع السورة وخاتمتها لما في آياتها من تجلياتها، ففيها الحديث عن هزيمة أعدائه، وعن غلبته ورسله عليهم الذي يعكس عزته، وفيها بيان لتدبيره وحكمة بعض أحكامه وتشريعاته.

[٢] ويذكّر القرآن بإحدى الحوادث التاريخية، التي تعكس بأحداثها وآثارها عزة الله وحكمته، حيث يضع أمامنا صورة واقعية لغلبته ورسله، ويفصل فيها القول مما يجلي عزته وحكمته، فبعزته كتب الهزيمة على أعدائه، والنصر لرسوله وللمؤمنين، وبحكمته أعطى هذا النصر الكبير للمسلمين من دون تضحيات.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ والحشر هو الجمع والسوق إلى جهة ما، وفي المنجد حشره عن بلاده: جلاه، والجمع أخرجه من مكان إلى آخر وفي هذه الآية والآية الثالثة إشارة إلى أنه الإخراج ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾، والإجلاء ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ والمعنى: أنه تعالى أخرج اليهود لأول جلاء لهم من شبه الجزيرة مرحلة أولى، يتبعها جلاء بعد آخر حتى لا يبقى منهم أحد، وقد حدث ذلك بالفعل لما قويت شوكة المسلمين، وأحس اليهود بالخطر، وأن جلاءهم يمتد إلى حشر القيامة دون رجعة إلى ديارهم.

وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ولم يقل: أهل الكتاب. لماذا؟، لعل ذلك لأن حرب الله عليهم، وموقف حزبه منهم لا ينطلق من عنصرية ولا حسد، باعتبارهم أهل

كتاب آخر، إنما ينطلق من موقفهم العدائي تجاه الله والقرآن والرسول، فقد تآمروا على النبي ونقضوا عهدهم مع المسلمين، وسعوا للتحالف مع كفار مكة ومشركيها ضدهما، ذلك أنه لما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا، ونكثوا، وطمعوا فيهم، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة[1]، فأهل الكتاب إذا التزموا بكتابهم، وعهودهم، فإنهم محترمون في الإسلام، أما إذا كفروا، وتآمروا، فقد خرجوا من ذمة الإسلام، ووجب قتالهم، وإجلاؤهم عن بلاد المسلمين، وهذا ما حدث بالضبط مع يهود بني النضير وغيرهم. وهذا الرأي أقرب من تفسير ﴿كَفَرُواْ﴾ بأنه عدم اعتناق الإسلام، لأن الله لا يكرههم عليه، ولا يعتبر كونهم من النصارى أو اليهود مبررا لقتالهم. أبدا، بل يفرض لهم حق العيش بأمن في ذمة الإسلام والمسلمين، ويدافع عنهم كأي مواطن مسلم، عهود وحدود مفصلة في كتب الفقه، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يتألم للمسلمة المعتدى عليها في ظله كتألمه على الأخرى الكتابية لا يفرق بينهما فيقول: «**وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا وَقَلَائِدَهَا وَرُعُثَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً**»[2].

هذا هو واقع الإسلام، والمنطلق السليم الذي ينبغي اعتباره في تحليل التاريخ، ومواقف المسلمين من أهل الكتاب، أما الأحقاد الموجهة ضدهما من الصهيونية والصليبية فهي لا تتأسس إلا على الحسد والأهواء والمصالح. بلى؛ إذا حرَّف أهل الكتاب كتابهم، وتحولوا إلى مسيرة مناقضة لقيمه الحقيقية، وإلى حرب الإسلام وقيادته واتباعه وجبت محاربتهم، لأنهم حينئذ ليسوا من رسالات الله وأنبيائه على شيء.

ونعود إلى أول الآية عند قوله: ﴿هُوَ﴾ ونتساءل لماذا يثبت الله إرادته ويؤكدها في هذا الموضع بالذات؟.

أولاً: لأن الانتصارات والمكاسب التي يحرزها المؤمنون إنما هي بإرادة الله.

ثانياً: وتأكيد القرآن على هذه الحقيقة يكون أشد ضرورة خاصة وأن هذه الآيات تبحث حادث إجلاء اليهود الذي تم من دون قتال عسكري، وما تلاه من أحكام توزيع الفيء، الذي خُصَّ به النبي صلى الله عليه وآله فريقا من الناس دون آخرين، وأثار حولها المنافقون الشبهات، فإن تذكير المسلمين بأن الإجلاء جاء نتيجة إرادة إلهية، ومن دون قتال يوحي بأن الله هو الذي

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٣٨٧.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ٢٧.

أخرج الأعداء، وأن المكاسب المادية في الفيء يتصرف فيها النبي كيف يشاء، الأمر الذي يبطل شبهات المنافقين حول تقسيم الفيء.

ثم يؤكد دور الإرادة في نصرة المسلمين وجلاء اليهود، وكيف أنها رغم الظروف والظنون المعاكسة غيَّرت المعادلة، فلم يكن المسلمون وهم يلاحظون قوة اليهود ويلاحظون قدراتهم المحدودة من جهة أخرى يظنون أن اليهود سوف يخرجون، ثم إن اليهود من جانبهم وهم المدججون بالسلاح، وأصحاب الخيرات، والمحصنون بالقلاع ما كان يخطر على بالهم أن قوة تستطيع الانتصار عليهم وإخراجهم ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾، كما أن الغرور بلغ باليهود حدًّا تصوروا أنهم يمتنعون حتى من قدرة الله وإرادته، أما المنافقون واليهود أنفسهم والذين ينظرون إلى الحياة بمقاييس مادية ظاهرة، ولا يحسبون للغيب حسابا، فقد جزموا بانتصار جبهتهم وهزيمة حزب الله، بل راح المنافقون يكاتبون بني النضير، يشجعونهم على الصمود.

ولو أننا درسنا قضية الصراع الإسلامي الصهيوني القائم اليوم بكل أبعاده لوجدناه صورة أخرى لهذه الآية الكريمة، فبعض المسلمين اليوم يزعمون أن اليهود لا يخرجون من فلسطين، الأمر الذي دفع الكثير منهم إلى الاستسلام ورفع راية التطبيع. والصهاينة الذين تدعمهم القوى الاستكبارية يجدون أنفسهم محصنين ضد أي قوة، وأنهم أقوياء، ويدفعهم هذا الغرور ليس إلى الإصرار على البقاء في فلسطين، بل يثير فيهم الأطماع التوسعية أيضا.

ولكن قوة الله فوقهم وسوف يهزمهم بجنده ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]. وسيأتي اليوم الذي يتأكد للصهاينة الغاصبين ومن يدعمهم أن قوتهم لا تغني عنهم شيئا، فإن الله يعلم نقاط ضعفهم، ولديه من الأساليب والمكر ما لا قِبَل لهم به، فقد اغتر آباؤهم وأسلافهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ فاعتمدوا على العوامل الظاهرية، وخططوا على أساسها، بما هو في نظرهم خطة محكمة، لا يمكن تحديها، ولكن غاب عنهم الكثير من الحتميات والحقائق فلم يحسبوا لها حسابا، وما عسى يبلغ البشر من العلم حتى يحيط بكل شيء؟! ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾، قال أغلب المفسرين: بأن قذف في قلوبهم الرعب، والذي يُظْهَرُ أن ما لم يحتسبوه كان شيئا آخر غير الرعب إذ لو كان الرعب لأتى التعبير (فقذف) والحال أنه قال بعدها: ﴿وَقَذَفَ﴾، ولعلهم اغفلوا في خططهم حتى بعض الجوانب الظاهرة مما يدل على أن القوى الظاهرة المستكبرة والطاغية لا تستطيع سد كل الثغرات في كيانها مما يسمح للمؤمنين دحرهم من خلالها، فمثلا حصون اليهود في أطراف المدينة المنورة كانت تقاوم بعض الحملات الطائشة التي تشنها الأعراب ضد المناطق الآهلة ولكنها لم تكن لتصمد أمام قوة رسالية يقودها قائد فَذٌّ.

ثم إنها كانت قائمة ضمن معادلات سياسية، وتحالفات عسكرية انهارت جميعا بعد استقرار الرسول في المدينة، وربما يشير إلى ذلك السياق في الآيات التالية. وهكذا حاصر المسلمون تلك القلاع أكثر من عشرين ليلة مما اضطرهم للاستسلام.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ إذن فهناك عاملان لهزيمتهم:

الأول: ظاهري مادي، وهو إتيان الله لهم من خارج حساباتهم وخططهم.

الثاني: خفي وهو الرعب، لأن السلاح مهما كان متطوراً فتّاكاً لا يجدي نفعاً إذا سُلِبَ صاحبه إرادة القتال، وتضعضع جانبه المعنوي، ولذلك يعتبر السلاح المعنوي (تقوية معنويات الجند وتضعيف العدو) من أهم عوامل النصر، ومن أجله يرصد المتحاربون الأموال والإمكانات الطائلة، ويخصصون له الوسائل والخبرات الكثيرة المؤثرة، ويسعون للإبداع فيه ما أمكنهم. وسلاح الرعب والخوف، وسلب المعنويات من أمضى وأظهر الأسلحة التي أيّد الله بها نبي الإسلام، واعتمدها المسلمون في حروبهم، وفي مواجهة النبي مع بني النضير ألقى الله الرعب في قلوب اليهود حتى استوعبها كلها، فتغيرت المعادلة من الكبرياء والغرور إلى الهزيمة النفسية، وقد عمد النبي نفسه إلى استخدام سلاح الرعب حيث أمر باغتيال كعب بن الأشرف، ولعل هدمه لبعض دورهم، وقطع نخيلهم كان في بعض جوانبه جزءا من خطة إرعابهم.

وحينما يهيمن الرعب على القلوب فإنه يفقد العدو القدرة على التخطيط السليم، لأن من أهم ما يحتاجه الإنسان لكي يكون تفكيره منطقيًا ومعقولاً الاستقرار والاطمئنان الداخلي، وقد فقد اليهود ذلك فخرجوا من التعقل إلى الانفعال، فصاروا يخططون ويعملون ضد أنفسهم من حيث لا يشعرون، حيث راحوا يهدمون بيوتهم بأيديهم حتى لا ينتفع بها المؤمنون، وقيل: حتى يصبح ركام الخرائب حائلا دون تقدم المسلمين، وقيل: ليفسح لهم المجال للمناورة في الحرب، وغاب عنهم أنهم أظهروا بذلك التصرف هزيمتهم للمسلمين مما قوّى معنويات عدوهم فصاروا متيقنين بالنصر بعد أن كانوا لا يظنون أن اليهود يخرجون، والذين أعانوا المؤمنين على تحقيق أهم أهدافهم من المواجهة معهم وهو تقويض كيانهم ووجودهم.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الحادثة التاريخية وأمثالها حَرِيَّة بالدراسة والتحليل لما فيها من المنفعة الدنيوية والأخروية للإنسان، والمؤمنون أولى من غيرهم بدراستها لأنها جزء من تاريخ حضارتهم، ولأنها تعنيهم وتهمهم أكثر من أي أحد.

﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ والاعتبار هو العبور من الظواهر إلى الحقائق، ومن

الأحداث إلى خلفياتها، والعبرة الحقيقية ليست بأن يستفيد الإنسان من دراسته لأي حدث أو قضية أفكارا علمية ونظريات وخططا وحسب، بل هي بالإضافة إلى ذلك أن تنعكس على سلوكه الشخصي في الحياة، ويهتدي بها إلى أهم العبر والمواعظ وهي الإيمان بالله عز وجل ولا يصل إلى هذه الغاية إلا أولو البصائر السليمة، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «وَلَا يَصُحُّ الاعْتِبَارُ إِلاَّ لِأَهْلِ الصَّفَا وَالبَصِيْرَةِ»[1] ثم تلا الآية.

ومن أهم العبر التي نستفيدها من هذا الحادث التاريخي هو معرفة حكمة الله وعزته، والثقة بنصره للمؤمنين رغم الظروف والعوامل المعاكسة، وما أحوجنا ونحن نقف اليوم في جبهة الصراع ضد أعداء الأمة الإسلامية، وبالذات ضد الصهاينة الغاصبين أن نتسلح بهذه البصيرة، وننتفع من دراسة تلك التجربة التاريخية.

[٣-٤] وتأتي الآية الثالثة لتضعنا أمام النتيجة التي انتهى إليها الصراع، حيث سلّط الله رسوله على اليهود، فكتب للمؤمنين النصر ولهم الجلاء عن المدينة إلى بلاد الشام وغيرها، ويلفتنا القرآن إلى سماحة الإسلام، وكيف أنه لا يدفع أبناءه إلى الصراع من منطلقات الحقد، وإنما يدفعهم إليه بدوافع إلهية وإنسانية، فمع استسلام اليهود، وتمكن المؤمنين منهم، لم تندفع القيادة الرسالية إلى الانتقام، إنما أمضت حكم الله في القضية بإجلائهم ومصادرة ممتلكاتهم -إلا ما يلزمهم للطريق- وهذا بذاته تأكيد آخر على أن موقف الإسلام من أهل الكتاب لا يتأسس على المطامع أو العنصرية أو أي شيء غير الحق، وإلا لقتلوهم، واستعبدوهم، وسبوا نساءهم.

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ على أيدي المؤمنين أو بطريقة أخرى، دون أن يقتصر الأمر في إجلائهم، أو يؤخر عذابهم إلى الآخرة ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾. ونهتدي من هذه الآية إلى أن العذاب الذي يلقاه المجرم المصر في الدنيا لا يرفع عنه عذاب الآخرة، إنما يواجه الاثنين معا.

وهل كتب الله عليهم الجلاء ونفّذ المسلمون حكمه فيهم لمجرد كونهم يهودا كما يزعم الصهاينة الحاقدون، ويوغرون صدور يهود العالم بالعداء والحقد عبر إعلامهم المضلل ومناهجهم التربوية المنحرفة ضد الإسلام والمسلمين؟! كلا.. إنما الذي حدث كان نتيجة خيانتهم العهد، ومحاربتهم الله ورسوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي وقفوا قبالتهما على شق آخر، ناصبين أنفسهم للحرب ضدهما، ضاربين بعرض الحائط كل المعاهدات. إلى هذا الحضيض بلغت العنصرية ونظرة التأليه للذات باليهود، أنهم يعطون لأنفسهم الحق في محاربة الله وأوليائه، ونقض العهد، ومتى شاءت أهواؤهم، لأنهم وهم يعتبرون أنفسهم أبناء

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٣٢٦.

الله وشعبه المختار، يرون أنفسهم فوق الحق والدين، وأن لهم الرأي والتصرف المطلق في كل أمر. وهذه صفة كل من تتضخم ذاته عنده، أوليس اليهود يزعمون أنهم النخبة، وأن كل الناس خلقوا لخدمتهم؟! ثم أليسوا هم الذين قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ ؟! بلى، ولكن هل يستطيعون مواجهة سنن الله وإرادته؟ كلا.. ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ولم يقل العذاب، لأن كلمة العقاب تنطوي على معنى العذاب والجزاء معا، وهي أصلح لهذا الموضع، وفي الآية تحذير لكل من يعادي الحق ورموزه، بغض النظر عن صفته وانتمائه ومذهبه، وهذه العبارة كانت في يومها ولا تزال تحذيرا لكل من تُسوِّل له نفسه محاربة الحق، وقد قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ثم قال: ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ﴾ دون ذكر الرسول، وذلك ليهدينا إلى أن الموقف السلبي من القيادة الرسالية يعتبره الرب موقفا ضده، وبالتالي فإننا نعرف أعداء الله من خلال مواقفهم من القيادة الرسالية.

[٥-٦] ويقدم الله هذه الحقيقة: إن الجلاء كان نتيجة مشاقة اليهود لله ولرسوله، والتأكيد على أن العقاب الشديد سوف ينال كل مشاقٍّ له سبحانه، يقدمها مدخلاً لعلاج شبهتين أثارهما اليهود والمنافقون حول النبي ﷺ ومكانته القيادية، وهما: قطع النخل، وتقسيم الفيء، ذلك لكي يُحصِّن المؤمنين ضد الإعلام المضلل، وليعلموا أن المشاقة لا تتحدد باليهود، ولا تنحصر في حمل السيف، بل إن الشك في قيادة النبي والتخلف عن طاعته هو الآخر مشاقة يستحق صاحبها العقاب الشديد كما استحق ذلك اليهود.

فقد سعت اليهود بعد أن أمر النبي بقطع النخيل لاستغلال الحدث من أجل تشكيك المؤمنين في قيادته ﷺ فقالوا: ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون[1]، وتلقفت ألسن المرجفين المنافقين هذه الشبهة تشيعها في صفوف المؤمنين، فَسَفَّه الوحي هذه الشبهة ورد شائعات المنافقين بالتأكيد على أن القرار في هذه القضية لم يكن من عند النبي ولا بهواه إنما هو أمر الله سبحانه.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ واللينة هي كل نخلة لينة لما تمت وتيبس، وقيل: هو اسم لنوع من أجود التمر في المدينة ونخلتها تسمى اللينة. فالرسول إذن يعمل بأمر الله وحكمه، وإذا ما طبق المؤمنون أوامره وأطاعوه فإنما ينفذون إرادة الله، ويُجرون أحكامه وشرائعه، فلا داعي أن يُصغُوا لتلك الشبهات والشائعات لأنها تجعل الإنسان مُشاقًّا له ولرسوله، وما دام أمر القيادة الرسالية هو أمر الله فالمسلمون ملزمون بالتسليم له، ثم إن هذا القرار لا يدور في الفراغ والعبث، إنما يرتكز على خلفيات وأهداف

(١) الدر المنثور: ج٦ ص١٨٧.

أهمها أنه الجزاء الأنسب لأعداء الله.

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ ولعلنا نفهم من هذا المقطع أن استئصال النخل كان يدخل في سياق تضييق الحصار، وإدخال الرعب إلى قلوبهم، واستئصال وجودهم من المدينة ومن حولها؛ جزاء فسقهم ومشاقتهم، فمع أن الإسلام دين الصلاح والإصلاح، وينهى عن الفساد في الأرض، ويعتبره من صفات الرجل الطاغية الذي لا يحبه الله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥] ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤] ولكن الإسلام يبيح إهلاك الزرع وحتى النسل إذا توقف نصر الحق وإجراء العدالة على ذلك، لأنه حينئذ سوف يصبح جزءا من خطة الإصلاح، وإنما يحرم إذا كان فسادا، وحينما يدرك المسلمون هذه الخلفيات والقيم الهامة فلن تؤثر فيهم الشبهات والشائعات، وسوف يسلمون لقيادتهم ودينهم عن قناعة راسخة.

أما الشبهة الثانية: فقد انطلقت من أفواه المنافقين، عندما تصرف الرسول في فيء بني النضير وصرفه للمهاجرين دون الأنصار، إلا اثنين منهم هما: سهل بن حنيف وأبو دجانة، فاتَّهم المنافقون الرسول بالانحياز إلى قومه من المهاجرين، وحاولوا بذلك إيجاد الفرقة بين الفريقين، وفصل الأنصار عن النبي ﷺ وبالتالي إضعاف قيادته وحركته، والذي يظهر أن أكثرهم كانوا من أهل المدينة الذين لم يُعطَوا حصة من الفيء، فاندفعوا بهذا العامل وبعامل النفاق المتأصل فيهم للوصول إلى أهدافهم المشؤومة هذه المرة على مطية حادث القسمة، وليس ذلك جديدا في سلوكهم؛ فهم يتربصون الدوائر بالإسلام وبالقيادة الرسالية، وينتظرون حدوث أدنى شبهة، أو ما يمكن تحويره إلى شبهة للنيل من مكانتها.

ولقد جاء القرآن ببيان الحكم الفصل في هذه القضية، وليضع تشريعا في المغانم التي ينالها المسلمون من الأعداء بأنها على نوعين:

الأول: ما يتسلطون عليه بالقتال، فيكون للرسول وللإمام من بعده الخمس من صفو المال قبل القسمة، وما بقي يُقَسَّم على مقاتلي المسلمين، ويسمى الغنيمة.

الثاني: ما يتسلطون عليه من دون قتال وهو للرسول وللإمام من بعده خاصة يتصرف فيه كيف يشاء، ويسمى الأنفال. قال الإمام الصادق عليه السلام: «الأَنْفَالُ مَا لَمْ يُوجَفْ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ أَوْ قَوْمٌ صَالَحُوا أَوْ قَوْمٌ أَعْطَوْا بِأَيْدِيهِمْ، وكُلُّ أَرْضٍ خَرِبَةٍ وبُطُونُ الأَوْدِيَةِ فَهُوَ لِرَسُولِ

اللهِ ﷺ وهُوَ لِلْإِمَامِ مِنْ بَعْدِهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»[١].

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ وَهْبٍ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام السَّرِيَّةُ يَبْعَثُهَا الإِمَامُ فَيُصِيبُونَ غَنَائِمَ كَيْفَ تُقْسَمُ؟ قَالَ: إِنْ قَاتَلُوا عَلَيْهَا مَعَ أَمِيرٍ أَمَّرَهُ الإِمَامُ عَلَيْهِمْ أُخْرِجَ مِنْهَا الْخُمُسُ للهِ وَلِلرَّسُولِ وَقُسِمَ بَيْنَهُمْ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسٍ، وإِنْ لَمْ يَكُونُوا قَاتَلُوا عَلَيْهَا الْمُشْرِكِينَ كَانَ كُلُّ مَا غَنِمُوا لِلإِمَامِ يَجْعَلُهُ حَيْثُ أَحَبَّ»[٢].

والذين ظفر به المسلمون من بني النضير كان مما سلط الله عليه الرسول بقدرته، ولم يقاتل المسلمون عليه، فهو للنبي خاصة من عند الله، وليس لأحد أن يطالب فيه بشيء، أو يعترض على قسمته، فله مطلق التصرف فيه من قبل الباري عز وجل.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أفاء: أرجع ورد، وقالوا: إنما سمي فيئا لأن الله قد جعل الخيرات للرسول، وإنما تصرَّف فيها الآخرون لمصلحة فإذا حازها الرسول فقد عادت إليه، والله العالم.

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ استعدادا وسيرا لقتالهم وحربهم، والإيجاف السير السريع والعَدْو، والمعنى: إنكم ما كررتم ولا فررتم في ساحة قتال مع العدو بأفراس ولا بإبل، تقاتلون عليها وتحملون مؤنكم وأنفسكم عنوة للحرب، حتى يكون لكم نصيب من الفيء جزاء قتالكم، إنما تحقق النصر بإرادة إلهية مباشرة، عملت في الغيب، ودفعت اليهود إلى الاستسلام، ولا يملك أحد يومئذ إنكار هذه الحقيقة الواقعية حتى يجادل، ولو كان المؤمنون قاتلوا لما حكم اليهود بالجلاء، إنما كانوا يسبون ويستعبدون جيعا. وهذا علاج موضوعي معقول للقضية.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ ينصره عليهم ويصرِّفه فيهم وفيما يملكون مطلق التصرف (تكوينيًّا وتشريعيًّا) وهذه الصلاحية تنتقل إلى الإمام الصالح من بعده، وهي حق وصلاحية له في الحكم بفرض الله عز وجل. وتسليط الله لرسله وللمؤمنين على أعدائهم يُجلي إرادته المطلقة للناس، ولو كان النصر والتمكين وليد القتال بالسيف، ولكنها تكون أظهر وأجلى حينما ينتصرون ولم يوجفوا خيلا ولا ركابا، ولم يتحملوا تبعات قتال.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ والمؤمنون مطالبون بالتفكر في هذا الجانب من تاريخهم والاعتبار به، فإن ذلك يعمِّق فيهم المعرفة بربهم، ويؤكد لهم سلامة خطهم، ويعطيهم الثقة

---

(١) الكافي: ج١، ص٥٣٩.
(٢) الكافي: ج٥، ص٤٣.

بدينهم، وبأنفسهم، وكيف تعرف الهزيمة أمة تتيقن بأنها مؤيَّدة لإرادة الله المطلقة؟ بلى؛ إن الأمة الإسلامية وكذلك الكثير من الحركات في التاريخ انهزمت وتراجعت حينما ضعف إيمانها بالغيب، وهي تخوض صراعاً قاسياً، وغير متكافئ ماديًّا مع الأعداء.

وقبل أن نمضي إلى رحاب الآية اللاحقة نورد حديثا مفصلا عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى الفيء كما يراه الإسلام، يقول فيه: «إِنَّ جَمِيعَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ للهِ عَزَّ وجَلَّ ولِرَسُولِهِ ولأَتْبَاعِهِمَا مِنَ المُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ، فَمَا كَانَ مِنَ الدُّنْيَا فِي أَيْدِي المُشْرِكِينَ والكُفَّارِ والظَّلَمَةِ والفُجَّارِ مِنْ أَهْلِ الخِلَافِ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله والمُوَلِّي عَنْ طَاعَتِهِمَا مِمَّا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ ظَلَمُوا فِيهِ المُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ وغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ فَهُوَ حَقُّهُمْ أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ ورَدَّهُ إِلَيْهِمْ.

وإِنَّمَا مَعْنَى الفَيْءِ كُلُّ مَا صَارَ إِلَى المُشْرِكِينَ ثُمَّ رَجَعَ مِمَّا كَانَ قَدْ غُلِبَ عَلَيْهِ أَوْ فِيهِ فَمَا رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فَقَدْ فَاءَ مِثْلُ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَيْ رَجَعُوا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ تَرْجِعَ، ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ أَيْ رَجَعَتْ ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿تَفِيٓءَ﴾ تَرْجِعَ فَذَلِكَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الفَيْءَ كُلُّ رَاجِعٍ إِلَى مَكَانٍ قَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَوْ فِيهِ، ويُقَالُ لِلشَّمْسِ إِذَا زَالَتْ: قَدْ فَاءَتِ الشَّمْسُ حِينَ يَفِيءُ الفَيْءُ عِنْدَ رُجُوعِ الشَّمْسِ إِلَى زَوَالِهَا، وكَذَلِكَ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ مِنَ الكُفَّارِ فَإِنَّمَا هِيَ حُقُوقُ المُؤْمِنِينَ رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ ظُلْمِ الكُفَّارِ إِيَّاهُمْ»[1].

[٧] ويبين القرآن حكم الفيء بوجه عام والخلفيات الموضوعية لتقسيمه يومئذ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ كبني النضير، والرسول مسلَّط من قبل الله على أهل القرى ﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ وعلى أموالهم.

﴿فَلِلَّهِ﴾ كل ذلك، إذ هو الخالق الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وما دونهما، وقد استخلف في ملكه نبيه وسلَّطه عليه، لعلمه بأنه لا ينطق عن الهوى، إنما يتبع الوحي والعقل، ويحكم بحكمه، حيث أدبه وعصمه وأيده حتى بلغ قمة الكمال فهو إذن أهلٌ وكفوٌ، لأن يملِّكه الله ماله من الفيء فيقول: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ منه وهم أهل بيته، قال الصادق عليه السلام: «لَنَا سَهْمُ الرَّسُولِ وسَهْمُ ذِي القُرْبَى ونَحْنُ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا بَقِيَ»[2] وإنما كان للرسول باعتباره

(١) الكافي: ج٥، ص١٥.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، ص١١٤.

الشخصي عند الله حيث القرب والمنزلة الخصيصة له عنده، وباعتباره القيادي، وهذا الاعتبار (الأخير) يبقى للأئمة، والقادة الصالحين من بعده، وللولي الفقيه في غيبة الإمام المعصوم يتصرف فيه كما يراه على ضوء النص والعقل والمصلحة، وقد ذكر المفسرون أن الآية تخص قرابة الرسول من بني هاشم، وقد استفاضت نصوص أهل البيت عليهم السلام على ذلك.

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ هل هم من ذوي القربى أم من غيرهم؟.

جاء في مجمع البيان: روى المنهال، عن عمر، عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «قُلْتُ لَهُ قَوْلُهُ: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قَالَ: هُمْ أَقْرِبَاؤُنَا ومَسَاكِينُنَا وأَبْنَاءُ سَبِيلِنَا» ثم قال (صاحب المجمع): «وقال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة، وكذلك المساكين، وأبناء السبيل، وقد روي ذلك أيضا عنهم»[1].

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ الذين لا يجدون قوت يومهم من شدة الفقر من ذوي القربى.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي انقطع به في السفر من ذوي القربى.

ولهذه القسمة ثلاثة معطيات:

١- أنها ترفع حاجة المعوزين مما يُحبّبهم في الدين وفي القيادة، وينفي أسباب الجريمة والسرقة، وبعض الخلقيات التي تدفع إليها الحاجة.

٢- كما أنها تساهم في رفع الطبقية من المجتمع بوسيلة مشروعة.

٣- وعلى صعيد التنمية الاقتصادية تحرك اقتصاد المجتمع في دائرة أوسع، وبصورة أنفع وأكثر فاعلية، فالإسلام لا يريد الحركة الاقتصادية تنحصر في طبقة معينة، في أصحاب رؤوس الأموال، وتبقى الطبقات الأخرى رهينة الفقر والاستغلال، لأن ذلك ليس نظاماً اقتصاديًا سليماً، إنما يحرص على رفع الحاجة والطبقية، وتحريك المال بوسائل مختلفة، يفرض بعضها، كالخمس والزكاة والإرث، ويحض على بعضها الآخر، كالصدقة والقرض والدين.

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي محصور تداولها بين الفئة الغنية، ومن هذه الآية الكريمة نهتدي إلى أن الإسلام لا يحرم الملكية الفردية كما في الأنظمة الاشتراكية، ولا يطلقها تماما كما في الأنظمة الرأسمالية، إنما يجعل للمحرومين نصيبا محدودا في أموال الأغنياء، ويضع حداً للملكية الفردية بألّا تتجاوز حقوق المحرومين إلى الحد الذي تحتكر الثروة، وتتسلط على

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٤٣١، وسائل الشيعة: ج٥، ص١١٣.

اقتصاد المجتمع، وتعتبر هذه الحكمة من الأصول العملية التي نستطيع أن نستنبط منها الكثير من الأحكام الفرعية مثل تحديد مجالات الملكية، وسبل مقاومة الاحتكار، ووضع ضرائب متصاعدة كل ذلك إذا رأى الفقيه الحاكم ضرورة في ذلك.

ولأن مقاومة طغيان الثروة من أعظم إنجازات الحكم الإسلامي، وأهم مقاصده وأصعب مهامه فإن السياق القرآني أوجب التسليم التام للقيادة الشرعية وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ لأنه مفوَّض بذلك من قبل الله، الأعرف بأحكامه في كل شيء، ولا فرق من حيث الإلزام بين أمر الله وأمر رسوله، والقيادة الشرعية التي تخلفه، وفي هذه الآية رد محكم على محاولات المنافقين التشكيك في قيادته ﷺ وللإمام الصادق عليه السلام في هذه المسألة حديث مفصل جاء فيه: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَدَّبَ نَبِيَّهُ فَأَحْسَنَ أَدَبَهُ فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُ الأَدَبَ قَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ثُمَّ فَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَ الدِّينِ وَالأُمَّةِ لِيَسُوسَ عِبَادَهُ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ مُسَدَّداً مُوَفَّقاً مُؤَيَّداً بِرُوحِ القُدُسِ لَا يَزِلُّ وَلَا يُخْطِئُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَسُوسُ بِهِ الخَلْقَ فَتَأَدَّبَ بِآدَابِ.. ثم قال الإمام الصادق عليه السلام بعد حديث مطوَّل حول أوامر ونواهي الرسول الأعظم:... فَوَافَقَ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَنَهْيُهُ نَهْيَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَجَبَ عَلَى العِبَادِ التَّسْلِيمُ لَهُ كَالتَّسْلِيمِ للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[1] لقوله عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ويحذر الله الذين يشكّكون في القيادة الإلهية، والذين يتخلفون عن طاعتها والتسليم لأمرها ونهيها من عذابه الشديد باعتبارهم من صف المشاقين لله ولرسوله، المستحقين لجزائهم فيقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ونهتدي من الأمر بالتقوى إلى كونها الصفة التي ترفع الإنسان إلى مستوى التسليم والطاعة للقيادة، وأن الطاعة لها امتداد للتقوى في حياة الإنسان، ودليل عليها، وليست التقوى هنا الخوف من الله وحسب إنما هي تلك القمة السامقة من الإيمان والمعرفة بالله، والوعي بالحق.

وعقاب الله الذي يتوعد به الأمة التي تشاقق قيادتها، وتخالف أوامرها ليس عذاب الآخرة وحسب إنما تلقاه في الدنيا أيضا متمثلا في التفرق، لأن الطاعة ضمانة الوحدة، لأن الطاعة للقيادة الإلهية طريق التقدم، وفي عدم طاعتها تتسلط الطغاة، ويعم الباطل، وبتعبير القرآن تنقلب الأمة على أعقابها، فتبدأ المسيرة التراجعية إلى الوراء بدل التقدم، وهذا مصير كل أمة تخالف قيادتها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

---

(١) الكافي: ج١، ص٢٦٦.

[٨] أما عن الفيء فقد قال رسول الله للأنصار: «إِنْ شِئْتُمْ دَفَعْتُ إِلَيْكُمُ (فَيْءَ) الْمُهَاجِرِينَ وَقَسَمْتُهَا فِيهِمْ وَإِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُهَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ وَتَرَكْتُهُمْ مَعَكُمْ. قَالُوا: قَدْ شِئْنَا أَنْ تَقْسِمَهَا فِيهِمْ. فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَدَفَعَهُمْ عَنِ الأَنْصَارِ وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَّا رَجُلَيْنِ وَهُمَا: سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَأَبُو دُجَانَةَ فَإِنَّهُمَا ذَكَرَا حَاجَةً»[1]، وبهذا تحمّل الرسول مسؤولية الفقراء من المهاجرين، ووضع إصرها عن الأنصار من أهل المدينة برضا منهم، فكان الفيء كما ذكر الله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين فروا من أجواء الكبت والإرهاب والكفر، والتحقوا بصفوف الحركة الرسالية والقيادة الصالحة التي استقرت آنذاك في المدينة المنورة، ولا ريب أنهم تحملوا بسبب هذا القرار ألوان الضغوط المعنوية والمادية، ولكنهم تجرعوا مضض الألم، ورضوا بكل ذلك في سبيل الوصول إلى أهدافهم السامية، التي تستحق أكبر التضحيات.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إنهم مهاجرون خرجوا من بيوتهم وأموالهم بإرادتهم، ولكن الله يلفتنا إلى حقيقة مهمة: إذ يعتبرهم مُخرَجين، وهي أن العامل الرئيسي في هجرتهم هو الظلم والفساد وأجواء الكبت التي يصنعها الطواغيت، حيث إنهم يرفضون مبادئهم، والعيش الذليل في ظل حكمهم، كما أنهم لا يسمحون لهم بممارسة شعائرهم، وتطبيق دينهم، ووجدوا أنفسهم مجبرين على الهجرة كواجب شرعي لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] ولقوله :﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] ولأنهم يعلمون أنهم مسؤولون عن تطبيق أحكام الله، والالتزام بها ما دامت في الأرض بقعة متحررة، كما يدركون أن الحرية لا يمكن المساومة عليها فهاجروا.

ثم يحدد القرآن الأهداف السليمة للمهاجر الصادق وهي ثلاثة:

الأول: البحث عن الفضل، ونتساءل: هل مفارقة الأهل والأوطان، وتجرُّع الفقر من الفضل؟ بلى؛ لأن المستقبل الكريم ليس بتوافر الوسائل المادية وحدها، وهل في الغنى والرفاه فضل إذا فقد الإنسان الحرية والكرامة، واستلبه الطغاة الأمن والسلام؟ كلا.. أما المؤمنون الصادقون الواعون فإنهم يرون الفضل في المزيد من الإيمان والعلم، والالتزام بالقيم والعيش بحرية واستقلال وكرامة في كنف القيادة والحركة الرسالية، وكل ذلك يجدونه في الهجرة.

ثم إنهم لا يقتصر نظرهم على الحياة الدنيا، بل ينفذون ببصائرهم إلى دار الآخرة، حيث المستقبل الأبدي الذي ينبغي السعي للفلاح فيه، ولو تطلب الأمر التضحية بكل ما في الدنيا

(١) بحار الأنوار: ج٢٠ ص١٦٨، تفسير القمي: ج٢ ص٣٦٠.

من الأموال والأولاد والأنفس، ولذلك يسترخص المؤمنون المهاجرون حطام الدنيا، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

الثاني: أنهم لا يتعاملون مع ربهم بمقياس الربح والخسارة، إنما يتعبدون بالتزام القيم تعبد الأحرار الواعين، فلا يشبع طموحهم المستقبل المادي حتى ولو كان هو الجنة، بل تراهم يبحثون من خلال الهجرة عن هدف أكبر وهو رضوان الله عز وجل ﴿وَرِضْوَانًا﴾ مهما كان ثمن ذلك الرضوان، من الاعتداء والتعذيب والقتل، ولو خالف هوى النفس ورضا الأسرة والمجتمع والحاكم، بل ولو وجدوا أنفسهم بسببه محاربين من كل العالم (كما هو حال الحركات الرسالية الأصيلة، والقيادات المؤمنة المخلصة، التي تحاربها كل قوى المستكبرين في العالم، سياسيًّا واجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وإعلاميًّا).

الثالث: نصرة الحق لأنها الطريق إلى رضوان الله، بالانضواء تحت راية القيادة الرسالية التي تسعى لإقامة حكم الله، وطمس معالم الباطل من على وجه الأرض وفي المجتمع والنفوس -باعتبار أنها القناة الأصح والأفضل لنصرة الحق- فإن المؤمنين لا يرون أن مصادرة ممتلكاتهم أو هجرتهم عنها تسقط عنهم الواجب، ولا يعتبرون دار الهجرة نهاية المطاف، ومحلاً مناسباً لممارسة الشعائر والعبادات الاعتيادية كالصوم والصلاة والخمس، وإنما يعتبرونها منطلقا لمسيرة جهادية مباركة.

﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لتطبيق الحق وتحكيمه، ومن طبيعة المؤمن الصادق أنه لا يفكر في حدود نفسه فإذا وجد الأمن والسلام نسي الآخرين، إنما يحمل ألم مجتمعه وأمته ويعتبره ألمه، ويجاهد من أجل خلاصهم من ربقة الجهل والفساد والظلم من منطلق شرعي وإنساني، وحيث يصل دار الهجرة لا يتفرج على الصراع الدائر بين الحق والباطل، إنما يعتبر نفسه معنيًّا بالصراع، ومسؤولاً عن الانتصار للحق.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم، والمصداق الحقيقي للمهاجر كما يراه الإسلام. أما الذي يبحث في المهجر عن حطام الدنيا، وراحة النفس، ولا ينتصر الحق فليس بصادق في دعوى الهجرة، ولا مصداقا للمهاجر. ولقد كانت قسمة الرسول في الفيء حيث جعله للمهاجرين قسمة منطقية، لأنهم فقراء من الناحية المادية، ولأنهم صودرت أموالهم ودورهم، ولأنهم كانوا صادقين. ولعل هذا الموقف النبيل من الإسلام والقيادة الرسالية في التاريخ من المهاجرين، وكذلك موقف الأنصار يهدينا إلى ضرورة اعتناء الأمة الإسلامية بأولئك الذين يهاجرون في سبيل الله، ولخيرها، بأن تتحمل قسطا من دعمهم المادي، ودعم حركتهم لتتواصل مسيرتهم، ويتفرغوا للجهاد بصورة أفضل، ويحافظوا على استقلالهم، فإنهم ومشاريعهم أولى بالدعم.

ويؤثرون على أنفسهم

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو(١) الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ(٢) نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ(٣) وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ

---

(١) تَبوَّؤوا الدار: التبوُّء الحط والنزول كما في قوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ وقوله: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

(٢) الشح: بخل في حرص، وفي الحديث: «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ في قَلْبِ مُسْلِمٍ» والشح أشد من البخل لأنه بخل عما في أيدي الناس.

(٣) وبال أمرهم: عاقبة كفرهم.

لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

يركز السياق في هذا الدرس على بحث العلاقة الداخلية في جبهة المؤمنين من جهة، وفي جبهة أعداء الله وأعدائهم من جهة ثانية، ففي البداية ينطلق من خلفيات قسمة الفيء الذي صار نصيبا للمهاجرين بحكم النبي، وبإيثار الأنصار أنفسهم، فيمتدح حب هؤلاء لبعضهم وطهارة قلوبهم، وإيثارهم على أنفسهم مما يؤكد خروجهم من زنزانة النفس، كما يسجل موقف المهاجرين الإيجابي من الأنصار، ومدى تحررهم من أي إصر أو عقدة، ويضع ذلك نموذجا ساميا للعلاقة التي ينبغي أن تحكم التجمعات والمجتمعات الإيمانية أفرادها وجماعاتها، وشعوبها وأجيالها، فإن الهيبة والانتصار، والتقدم، والفلاح يرتكز على الذوبان في بوتقة الإيمان والتسليم للقيادة الرسالية، وبتعبير القرآن: «الوقاية من شح النفس، واتباع بصائر الوحي»، بعيدا عن كل هوى ومصلحة.

ثم يضع القرآن صورة ثانية عن طبيعة العلاقة الداخلية في جبهة الباطل، ويؤكد لنا أنها قد تتراءى للمراقب الخارجي بأنها جبهة متماسكة إلا أنها تفتقر لأهم عوامل الوحدة والتماسك وهي وحدة القلوب، والسبب هو اتباعهم الباطل والأهواء والمصالح، ونبذهم الحق المتمثل في الرسالة وهدى العقل، وكل ذلك فإن الإنسان لا يجد دوافع حقيقية للتضحية والتفاني من أجله، ولهذا فإن جبهة الباطل تضعف وتتمزق بمجرد تعرضها للتحديات الحقيقية، وقد رأينا كيف استسلم بنو النضير من دون قتال، وكيف تنصل المنافقون عن نصرتهم رغم الوعود والأيمان والمغلظة بينهما، وهكذا هي العلاقة بين أهل الباطل (أفرادا وجماعات ودولا) يتناصرون مادامت ثمة مصلحة مشتركة، أما إذا انعدمت أو وجدت في مكان وموقف آخر فإنهم يميلون حيثما تميل، وهي بالضبط تشبه العلاقة بين الشيطان وبني آدم، حميمة مادامت للشيطان مصلحة فيه، أما إذا آن عذاب الله فكأنه لا يعرفه ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

بينات من الآيات:

[٩] بعد أن مكث النبي ﷺ في المدينة واستتب له الأمر تقرر في الحركة الرسالية

المباركة أن يهاجر المؤمنون من مكة إليها، وحيث تواردوا أفواجا استقبلهم الأنصار وأوسعوا لهم صدورهم ودورهم، وتقاسموا معهم الأموال وحتى الأزواج، ولكن الخط المنافق من أهل المدينة وغيرهم ما كان يرضيهم أن يحتضن الأنصار المهاجرين، فلما أجلى المسلمون اليهود وقرر الرسول القائد ﷺ أن يعطي الفيء للمهاجرين طفحت أحقادهم، واتخذوا الأمر فرصة سانحة ليلعبوا دورهم الخبيث، فمشوا في الصفوف بالشائعات ليضربوا زعامة النبي ﷺ الذي يكنون له الحقد الدفين باعتباره لم يكن من أهل المدينة، وذلك بالتشكيك في سلامة نيته، حيث اتهموه بأنه انحاز لقومه (المهاجرين) على حساب الأنصار، ومن جهة أخرى استغلوا القسمة لهدف إيجاد الاختلاف والفرقة بين المؤمنين، بالذات باعتبار أن الظاهر كان يمكن تجييره لصالح التفرقة لاختلاف المهاجرين والأنصار، وعموما تتأسس سياسات التفرقة دائما على المظاهر المادية كاللون والمذهب والقومية والطائفية، وطالما أظهر المنافقون وعلى رأسهم عدو الله بن أبي للأنصار أنهم يريدون خيرهم من وراء موقفهم، وطالما استثاروا فيهم الوطنية وشح النفس ليكسبوهم، ولكنهم رفضوا ذلك لأنهم كانوا أصحاب البصيرة النافذة، والإيمان الرفيع، والتسليم المطلق لقيادة الحق.

أما الرسول فقد جمعهم وقال: «**إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ دُوركم وَ أَمْوَالِكُمْ، وَقَسَمْتُ لَكُمْ مِنَ الغَنِيمَةِ كَمَا قَسَمتُ لَهُم** (أي أساوي بينكم)، **وَ إِنْ شِئْتُمْ كَانَ لَهُم الغَنِيمَةُ، وَلَكُمْ دِيَارُكُمْ وَ أَمْوَالُكُمْ** (أي يخرجون من أموالكم ودوركم ويصير لهم الفيء خالصا)، **فَقَالُوا: لَا، بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا وَلَا نُشَارِكُهُمْ فِي الغَنِيمَةِ**»[1] ففشل المنافقون، وهكذا تنتصر كل أمة على محاولات التفرقة حينما تتبع قائدها، وتلتزم بالقيم الحق، وتعيش فيما بينها الألفة والحق والإخاء، وقد سجل ربنا هذا الموقف الجليل كرامة للأنصار، وليكون نموذجا على ما يصنعه الإسلام بالنفوس، وليبين للبشرية جيلا بعد جيل وللأمة الإسلامية بالذات سر انتصاراتها في التاريخ وسبيلها إلى ذلك، وأن الرعيل الأول من المخلصين إنما قاد العالم يومئذ بهذه الروح الإيمانية السامية، فقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني الأجيال المؤمنة السابقة من الأنصار، وقالوا في جواب سؤال: كيف يُنسب التبؤ للإيمان؟. أن: معنى الآية: تبوؤوا الدار، وأخلصوا الإيمان، أو اتخذوا الإيمان وطنا، وتمكنوا منه، مثلهم مثله سلمان لما سألوه عن نسبه، فقال: أنا ابن الإسلام، ثم تساءلوا: كيف قال ربنا: إنهم آمنوا قبل المهاجرين، أولم يسبقوهم بالإيمان؟ فقيل: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ قبل قدوم المهاجرين، وقيل المعنى بعض الأنصار، أي أصحاب العقبة سبعون رجلاً تقدم إيمانهم على إيمان بعض المهاجرين. كما قيل: على التقدير السابق أن ﴿قَبْلِهِمْ﴾ خاصة تبؤ الدار، ومعلوم سبق الأنصار لذلك فهي

---

(١) بحار الأنوار: ج١٩، ص١٦١.

دارهم وهم الذين جعلوها داراً للإسلام.

فها هنا تقديم وتأخير. ولكن هذا يخالف الظاهر، ولا مانع من نسبة التبوّ للإيمان كما مرّ أي اتخذوه موطناً.

ويبدو لي أن المعنى أنهم تبوؤوا دار الإيمان، فيكون معنى الدار التقارن كما لو قلنا: ركبت البحر والريح الهائجة، أي مقارنا مع هيجان الريح.

وقد اشتهر في الأدب الإسلامي التعبير بدار الإسلام، ولعله مستوحى من هذه الآية. فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَالإِيمَانُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَهُوَ دَارٌ، وَكَذَٰلِكَ الإِسْلَامُ دَارٌ وَالكُفْرُ دَارٌ»[1]. فيكون المعنى أنهم -الأنصار- الأسبق إلى تكوين التجمع الإيماني المتكامل الذي يصدق أن دار -دولة- الإسلام. فعلى هذا القبلية هنا بلحاظ دار الإيمان. حيث أن بعد بيعة العقبة تشكلت نواة الدولة الإسلامية وبعد ذلك هاجر المهاجرون إليها.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ونستوحي من الآية أنه إذا انتصر المؤمنون في بلد، وكوّنوا المجتمع الإسلامي فلا يعني أن الذين في تلك البلاد من المسلمين أفضل من غيرهم، ولا يجوز أن يستأثروا بالمكاسب، أو يفرضوا وصايتهم على غيرهم، كلا.. فكل ما عند المؤمنين حتى أنفسهم ملك للإسلام ولأهله، الذين هم إخوانهم، وينبغي لهم ألّا يأخذهم غرور الانتصار، أو العجب بالنفس، بل يفعلون كما فعل الأنصار، فلقد بلغ بهم الإيمان والحب لإخوانهم أن آثروهم على أنفسهم، لأنهم انتموا للإسلام ابتغاء فضل الله ورضوانه وليس بحثا عن المكاسب المادية، ولأنهم يقدرون ظروف إخوانهم المهاجرين، حيث ضحّوا بأموالهم وبيوتهم ومستقبلهم المادي من أجل الدين، وحبًّا في الانتماء إليهم، وضم جهودهم وطاقاتهم إليهم لتقوية مجتمع الحق وجبهته.

والسؤال: كيف يجب أن تكون علاقة الأجيال المؤمنة (السابقة باللاحقة والأنصار بالمجاهدين، والمنتصرين بالحركات التي تسعى للانتصار فتهاجر إليهم)؟.

أولاً: الحب القلبي الصادق.. فلا يرون اللاحقين بهم من سائر الفصائل الرسالية غرباء أو دخلاء، ولا يريدونهم أن يكونوا مجرد تابعين لهم، ولا أن يستثير وجودهم وتنافسهم ولا حتى اختلافهم معهم أي حقد وحسد، ولا أي لون من الحساسيات السلبية، لأن رابطتهم ببعضهم أكبر من كل ذلك. إنها رابطة الإيمان والجهاد.

(١) الكافي: ج٢، ص٢٧.

وهكذا يحدد القرآن محور التواصل بين فئات المؤمنين: الأنصار الذين سبقوا غيرهم في بناء التجمع الإيماني، والمهاجرين الذين تجردوا عن مصالحهم في سبيل الله، فيبين أن الحب هو ذلك المحور.

ولا يصل الإنسان إلى هذا المستوى الرفيع من الأخلاق إلا إذا تمكن الإيمان من نفسه فتجاوز شح نفسه (الأهواء والشهوات، والمصالح) وتحرر عن أغلال الوطنية والقومية والعنصرية والطبقية والحزبية، وأصبح مثلما قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أَحَبَّ لله وأَبْغَضَ لله وأَعْطَى لله فَهُوَ مِمَّنْ كَمَلَ إِيمَانُهُ»[1] بل؛ إن الحب في الله من أوثق عرى الإيمان، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وُدُّ الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ فِي الله مِنْ أَعْظَمِ شُعَبِ الإِيمَانِ»[2].

وقد اعتبر أئمة الهدى الحب هو الدين، ويجيب الإمام الصادق عليه السلام سائلا سأله عن الحب: هل هو من الإيمان؟ فيقول: «يَا زِيَادُ وَيْحَكَ وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ، أَلا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، أَوَلَا تَرَى قَوْلَ الله لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وقَالَ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ فَقَالَ: الدِّينُ هُوَ الْحُبُّ والْحُبُّ هُوَ الدِّينُ»[3]، وعنه عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله لِأَصْحَابِهِ: أَيُّ عُرَى الإِيمَانِ أَوْثَقُ؟ فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلَاةُ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: الزَّكَاةُ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: الصِّيَامُ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَجُّ والْعُمْرَةُ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجِهَادُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: لِكُلِّ مَا قُلْتُمْ فَضْلٌ ولَيْسَ بِهِ، ولَكِنْ أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي الله والْبُغْضُ فِي الله وتَوَالِي أَوْلِيَاءِ الله والتَّبَرِّي مِنْ أَعْدَاءِ الله»[4]. وكيف لا يحب المهاجرون، والمنتصرون، والسابقون إلى الإيمان من يلحق بهم، وقد جاؤوا ليحققوا أهم أهدافهم وهو نصرة الدين؟!.

وكلمة أخيرة: إن المؤمن الصادق محكوم بمعادلة التولي والتبري، وبالتالي فإن نسبة تبريه من الأعداء هي من وجهها الآخر تولٍّ للمؤمنين: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وإننا اليوم نسعى من أجل المجتمع المسلم فلا بد أن نبدأ بأنفسنا، ونجعل تجمعنا ربانيًّا إلهيًّا، يدور على محور الحب في الله، والبغض في الله، حتى يباركه الله من فوق عرشه، ويرعاه بنصره وتأييده. وكلما ازداد صراعنا مع أعداء الله شدة وعنفا كلما ازددنا تلاحما وتماسكا

(١) الكافي: ج٢، ص١٢٤.
(٢) الكافي: ج٢، ص١٢٥.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٦، ص١٧١.
(٤) الكافي: ج٢، ص١٢٤.

وانصهارا في بوتقة التوحيد.

ثانياً: التجرد عن الحسد للاحقين.. مهما أوتوا من شيء مادي أو معنوي، فصدورهم صافية طاهرة، لا تنطوي على غل ولا حساسية تجاه إخوانهم، كما أنها واسعة لا تضيق بتقدمهم أو تقديمهم، لما هي معمورة به من الإيمان والوعي، والواحد منهم متجرد عن ذاته للقيم، وللأمة كلها، فلا يرى أن الانتصار أو الدولة أو المغانم أو المناصب حكرا له أو لفريق دون آخر، إنما هي للجميع، كما يرى أن تقدم أي فرد أو جهة هو تقدم له أيضا.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والرأي للقيادة الرسالية تقرر ما تراه مناسبا، والحق لصاحب الكفاءة، وليست لأحد الوصاية في فضل الله وما له وما للأمة، فلماذا الحسد والتقاتل على المكاسب والمراتب؟! إن المؤمنين يسعون بكل ما أوتوا لدعم إخوانهم، ورفد مسيرتهم لكي يتقدموا ويعلو شانهم ويعلو من خلالهم شان الدين والأمة، وما يؤسف له اليوم أن نرى في الأمة فريقا من مرضى القلوب الذين يجهدون بكل ما أوتوا من حول وطول ومكر من أجل تحطيم كل قيادة ناشئة تبرز في الساحة، وترى في صدورهم ألف ألف حاجة مما أوتي أولئك من الفضل والسمعة.

وقد وقف الإسلام موقفا صارما من الحسد حتى عَدَلَهُ بالشرك والكفر والنفاق. قال الإمام الصادق عليه السلام: «يَقُولُ إِبْلِيسُ لِجُنُودِهِ: أَلْقُوا بَيْنَهُمُ الحَسَدَ والبَغْيَ (يعني المؤمنين) فَإِنَّهُمَا يَعْدِلَانِ عِنْدَ اللهِ الشِّرْكَ»[1]، وقال عليه السلام محذرا: «إِيَّاكُمْ أَنْ يَحْسُدَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَإِنَّ الكُفْرَ أَصْلُهُ الحَسَدُ»[2] وقال: «إِنَّ المُؤْمِنَ يَغْبِطُ ولاَ يَحْسُدُ، والمُنَافِقُ يَحْسُدُ ولاَ يَغْبِطُ»[3]، وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ الحَسَدَ لَيَأْكُلُ الإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ»[4]، وقال الرسول صلى الله عليه وآله (يعني الحسد): «لَيْسَ بِحَالِقِ الشَّعْرِ لَكِنَّهُ حَالِقُ الدِّينِ»[5]، قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام: «يَا بْنَ عِمْرَانَ لَا تَحْسُدَنَّ النَّاسَ عَلَى مَا آتَيْتُهُمْ مِنْ فَضْلِي، ولَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى ذَلِكَ ولَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ فَإِنَّ الحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنِعَمِي صَادٌّ لِقَسْمِيَ الَّذِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي»[6]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ يؤكد لنا أن الحسّاد هم أصحاب الصدور الضيقة، والقلوب المريضة.

وأهم الحاجات التي يضمرها الحاسدون في صدورهم هو تحطيم إخوانهم، ولا ريب أنها

(١) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٢٧٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٢١٧.
(٣) بحار الأنور: ج٧٠، ص٢٥٠.
(٤) الكافي: ج٢، ص٣٠٦.
(٥) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٦٨.
(٦) الكافي: ج٢، ص٣٠٧.

سوف تتضخم فتراكم العقد في نفوسهم، وتدفعهم إلى سلوك اجتماعي خطير تجاه الآخرين، ولذلك جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «لِلْحَاسِدِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ يَتَمَلَّقُ إِذَا شَهِدَ وَيَغْتَابُ إِذْ غَابَ وَيَشْمَتُ بِالْمُصِيبَةِ»[1] ولك أن تتصور مجتمعا متحاسدا يكاد يتمزق داخليًا كيف يتسنى له أن يتقدم حضاريًا، وكيف ينتصر أمام التحديات الكبيرة.

ثالثاً: الإيثار.. وهو علامة الإيمان، والمظهر الخارجي للحب الصادق تجاه الإخوان، وقمة التماسك في جبهة الإيمان، حيث التفاني والتضحية من أجل الغير لوجه الله، والمؤمن الصادق هو الذي يقدم نفسه للخطر ليسلم الآخرون، ويؤخرها عند المكاسب ليغنموا. أوليس يبحث عن القمة السامقة من الإيمان والفرح التي تتمثل في الإيثار؟ بلى؛ وهو لا يقيم وزنا لحطام الدنيا حتى يتقاتل عليه أو ينفرد به.

والأنصار لم يكونوا أحبوا إخوانهم المهاجرين، وتطهروا من الحسد تجاههم فحسب، بل وآثروهم على أنفسهم، ووصلوا من الإيثار سنامه، حينما تنازلوا عن حظهم من القسمة رغم حاجتهم الشديدة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فهم لم يجعلوا عوزهم وحاجتهم الشديدة تبريرا لترك الإيثار، وقد اهتم أئمة أهل البيت عليهم السلام ببيان فضيلة الإيثار، والدعوة إليها، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «خِيَارُكُمْ سُمَحَاؤُكُمْ وَشِرَارُكُمْ بُخَلَاؤُكُمْ، وَمِنْ خَالِصِ الإِيمَانِ البِرُّ بِالإِخْوَانِ وَالسَّعْيُ فِي حَوَائِجِهِمْ، وَإِنَّ البَارَّ بِالإِخْوَانِ لَيُحِبُّهُ الرَّحْمَنُ وَفِي ذَلِكَ مَرْغَمَةٌ لِلشَّيْطَانِ وَتَزَحْزُحٌ عَنِ النِّيرَانِ وَدُخُولُ الجِنَانِ. يَا جَمِيلُ أَخْبِرْ بِهَذَا غُرَرَ أَصْحَابِكَ.

قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مَنْ غُرَرُ أَصْحَابِي؟ قَالَ عليه السلام: هُمُ البَارُّونَ بِالإِخْوَانِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جَمِيلُ! أَمَا إِنَّ صَاحِبَ الكَثِيرِ يَهُونُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَدْ مَدَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ صَاحِبَ القَلِيلِ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»[2].

وجاء في حديث آخر مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام فيما رواه عنه أبان بن تغلب قال: «سَأَلْتُهُ فَقُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ حَقِّ المُؤْمِنِ عَلَى المُؤْمِنِ، فَقَالَ عليه السلام: يَا أَبَانُ دَعْهُ لَا تَرِدْهُ، قُلْتُ: بَلَى جُعِلْتُ فِدَاكَ فَلَمْ أَزَلْ أُرَدِّدُ عَلَيْهِ فَقَالَ عليه السلام: يَا أَبَانُ تُقَاسِمُهُ شَطْرَ مَالِكَ. ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ فَرَأَى مَا دَخَلَنِي، فَقَالَ عليه السلام: يَا أَبَانُ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ ذَكَرَ المُؤْثِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؟. قُلْتُ: بَلَى جُعِلْتُ فِدَاكَ. فَقَالَ عليه السلام: أَمَا إِذَا أَنْتَ قَاسَمْتَهُ فَلَمْ تُؤْثِرْهُ بَعْدُ إِنَّمَا أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ، إِنَّمَا تُؤْثِرُهُ إِذَا

(١) مستدرك الوسائل: ج٢ ص٤٤٢.
(٢) الكافي: ج٤، ص٤١.

أَنْتَ أَعْطَيْتَهُ مِنَ النِّصْفِ الآخَرِ»[1].

وقد حفل تاريخ صدر الإسلام بمصاديق رائعة للإيثار، أحدها إيثار الأنصار للمجاهدين على أنفسهم، والآخر أولئك النفر من مجاريح المؤمنين في اليرموك، الذين حُمِلَ إليهم الماء فكان واحدهم يؤثر إخوانه على نفسه رغم الظمأ الذي يحس به المحتضر حتى استشهدوا عن آخرهم عُطاشى[2]، وقد روى أبو حمزة قال: **«جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَكَا إِلَيْهِ الْجُوعَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَزْوَاجِهِ فَقُلْنَ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ ﷺ: مَنْ لِهَذَا الرَّجُلِ اللَّيْلَةَ؟ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَتَى فَاطِمَةَ عليها السلام وَسَأَلَهَا: مَا عِنْدَكِ يَا بِنْتَ رَسُولِ اللهِ؟ فَقَالَتْ عليها السلام: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ، لَكِنَّا نُؤْثِرُ ضَيْفَنَا بِهِ، فَقَالَ عليه السلام: يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ نَوِّمِي الصِّبْيَةَ وَأَطْفِئِي الْمِصْبَاحَ»**[3].

هكذا ينبغي للمؤمنين وبالذات المجاهدين منهم أن يتساموا إلى هذا الخلق الرفيع في تعاملهم مع بعضهم، ولن يبلغوا ذلك حتى يتجاوزوا أصعب عقبة تربوية وعملية وحضارية، تغل الأفراد والتجمعات والأمم عن النهوض والارتفاع في آفاق التقدم والفضيلة وهي النفس، التي يعدها الإسلام (قرآنا وسنة) أعدى أعداء الإنسان، الذي إذا انتصر عليها صار إلى السعادة والفلاح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فبالقدر الذي يسعى الإنسان إلى المزيد من العلم، ينبغي أن يسعى بأضعافه إلى تزكية نفسه وكمال أخلاقه، وإنما اعتبر القرآن الوقاية من شح النفس هي الفلاح لأنه رأس كل خطيئة وانحراف في حياة البشر، فهو أساس الكفر والشرك والظلم والحسد و...، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **«الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ الْعُيُوبِ وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ»**[4]. وهل أنزل الله رسالاته وبعث رسله إلا ليخرج الإنسان من سجن شح النفس؟، وإن الشحيح لا يرى إلا ذاته، كما لا يرى المسجون إلا جدران زنزانته. ولكن ما هو السبيل إلى التحرر من هذه التهلكة؟، أنه التوكل على الله والاستعاذة من شر النفس الأمّارة بالسوء، والانفتاح على هدى القرآن وبصائر السنة، وتقبل نصائح الواعظين، والتعبير القرآني بليغ للغاية إذ يقول: ﴿يُوقَ﴾ مبني للمجهول، أي أن الله هو الذي يحرر الإنسان، وينقذه من ذلك.

ومشكلة الإنسان أنه يحسب السعادة تتمثل في اتباع الأهواء، وإشباع شح النفس، ولكنه لا يعلم أن ذلك يجعله عبدا ضعيفا لها. أليس محب الرئاسة يتبع هوى المنصب أنى اتجه،

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٧١.

(٢) راجع تفسير ابن كثير: ج٤، ص٣٦٢.

(٣) وسائل الشيعة: ج٩، ص٤٦٢.

(٤) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٧٩.

ويلخص كل كيانه فيه، حتى عواطفه وعقله وصِلاته الإنسانية يجعلها جميعا وقفا للمنصب!، كذلك المولع بالثروة يرى الدنيا من خلالها فلا يجد حرجا من مسخ شخصيته الإنسانية من أجل المال، فيولد إنسانا متكاملا، ويموت وهو لا يملك من خصائص الإنسانية شيئا.

إن التحرر من حب الرئاسة، وحب الثروة، والخروج من شح النفس، جعل المؤمنين أحرارا، منطلقين في رحاب الحياة، بلا قيود ولا أغلال.

وبما أن الإيثار قمة الفضيلة فإن بلوغها بحاجة إلى عملية تربوية متواصلة، وذلك بالاستعاذة بالله سبحانه من الحرص والبخل وشح النفس.. فقد جاء في الخبر المروي عن الإمام الباقر عليه السلام فيما رواه عنه أبو بصير قال: «قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله يَتَعَوَّذُ مِنَ الْبُخْلِ فَقَالَ نَعَمْ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَنَحْنُ نَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنَ الْبُخْلِ، اللهُ يَقُولُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾»[1].

وفي الحديث: «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِي قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»[2]، وأيضا: «لاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَداً»[3].

وروى الفضل بن أبي قرة السندي أنه قال: «قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: أَتَدْرِي مَنِ الشَّحِيحُ؟. قُلْتُ: هُوَ الْبَخِيلُ، فَقَالَ عليه السلام: الشُّحُّ أَشَدُّ مِنَ الْبُخْلِ إِنَّ الْبَخِيلَ يَبْخَلُ بِمَا فِي يَدِهِ وَالشَّحِيحَ يَشُحُّ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَعَلَى مَا فِي يَدِهِ حَتَّى لَا يَرَى فِي أَيْدِي النَّاسِ شَيْئاً إِلَّا تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ بِالْحِلِّ وَالْحَرَامِ، وَلَا يَقْنَعُ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[4].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَا مَحَقَ الإِسْلَامَ مَحْقَ الشُّحِّ شَيْءٌ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ لِهَذَا الشُّحِّ دَبِيباً كَدَبِيبِ النَّمْلِ وَشُعَباً كَشُعَبِ الشِّرْكِ»[5]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِذَا لَمْ يَكُنْ للهِ فِي عَبْدٍ حَاجَةٌ ابْتَلَاهُ بِالْبُخْلِ»[6].

وقال علي بن إبراهيم: حدثني أبي عن الفضل بن أبي قرة قال: «رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِاللهِ عليه السلام يَطُوفُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى الصَّبَاحِ وَهُوَ عليه السلام يَقُولُ: اللَّهُمَّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي، فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٣٠، تفسير العياشي: ج٢، ص٢٤٤.
(٢) مجمع البيان: ج٩، ص٣٣١.
(٣) وسائل الشيعة: ج٩، ص٤٠.
(٤) الكافي: ج٤، ص٤٥.
(٥) الكافي: ج٤، ص٤٥.
(٦) الكافي: ج٤، ص٤٤.

مَا سَمِعْتُكَ تَدْعُو بِغَيْرِ هَذَا فَقَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ شُحِّ النَّفْسِ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»[1].

[١٠] تلك كانت العلاقة النموذجية التي ينبغي أن يتحلى بها السابقون تجاه اللاحقين، وقد جعل الله الأنصار الصادقين مثلا لها، فما هي العلاقة من طرفها الآخر (اللاحقين بالسابقين)؟ يضع القرآن أمامنا قواعدها الرئيسية ونموذجها من حياة المهاجرين المخلصين.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ المهاجرون بعد الأنصار في المدينة، والمهاجرون إلى إخوانهم المتصرين في أي بلد، واللاحقون من الأجيال في الحركة الرسالية، فإنهم يحترمون أولئك، ويعون قيمة دورهم الريادي، وانعكاسه الإيجابي عليهم، ويريدون لهم الخير كما يريدونه لأنفسهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فهم لا ينسون جميل السابقين إليهم، وتلك الجهود والتضحيات التي بذلوها لصالحهم، ويقدرون بالذات سبقهم إلى الانتصار، وتأسيسهم دار الإسلام (دولته) مما يتيح لهم الهجرة إليهم، والتحرك بفاعلية أفضل وأوسع، وسبقهم إلى الإيمان الذي تأسس به إيمانهم، وعلاقتهم بهم تتأسس على نظرة الاحترام والحب والتقدير.

وللآية بصيرة هامة تبين موقف التقييم السليم من قبل الأجيال اللاحقة تجاه الأجيال السابقة، فهناك ثلاث نظريات تستتبع ثلاثة مواقف متباينة:

١- الذين اعتبروا السابقين متخلفين وسبباً لتخلف اللاحقين، ووقفوا منهم موقفاً سلبيًّا للغاية، وسمَّوهم رجعيين، ودعوا إلى بناء الواقع والمستقبل من جديد على أنقاض الماضي، ويمثل هؤلاء اليوم في المسلمين المتغربون والسلبيون الذين أصيبوا بردات فعل تجاه الواقع الذين نشؤوا فيه، ويبلغ الأمر ببعضهم أن اتهموا دين الإسلام ذاته لأنهم رأوا بعض السلبيات فيمن اعتنقه من آبائهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

٢- وهناك فريق آخر وقفوا موقف القبول المطلق وهم يرددون ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فهم يقدسون التراث إلى حد العبادة، ونجد صورة لهذا الفريق في الذائبين في السلف وأفكارهم، يرحبون بحسناتهم وسيئاتهم على السواء، ولا يقبلون أدنى انتقاد لسلوكهم وأفكارهم ومواقفهم، ويعدُّون الشخص ذا فضل وعظمة

(١) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٣٠، تفسير القمي: ج٢ ص٣٧٢.

لمجرد كونه من الأولين، الذين أدركوا الرسول والخلفاء، أو عاشوا في صدر الإسلام.

٣- أما الفريق الثالث فهم الذين يقيّمون السابقين بواقعية، ويعرضون أفكارهم ومواقفهم على موازين الشرع (القرآن والسنة والسيرة المعصومة) فما وافقها احترموه وتأسوا به، وما خالفها ضربوا به عرض الحائط، وهم الذين تشير إليهم هذه الآية الكريمة. كيف؟

إنهم -حسب الآية- يعترفون بأخطاء السابقين، ويتبعون القيم بإخلاص وشجاعة، سواءً وافقت حياة أولئك أم خالفتها، ولكن النقد والانتقاد لا يسقطهم في أعينهم، بل يظلون أصحاب الفضل عليهم، الذين يكنّون لهم الود والاحترام.

وفي الوقت الذي يعترفون بأخطاء السلف، ولا يتابعونهم فيها، يسعون بكل ما أوتوا (بالدعاء والعمل) لإصلاح أخطائهم في الواقع الخارجي، ويستغفرون لهم عند الله، وإنه سبحانه ليستجيب دعاء الأخ لأخيه، فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أَسْرَعُ الدُّعَاءِ نُجْحاً لِلْإِجَابَةِ دُعَاءُ الأَخِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، يَبْدَأُ بِالدُّعَاءِ لِأَخِيهِ فَيَقُولُ لَهُ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ: آمِينَ ولَكَ مِثْلَاهُ»[1].

والآية الكريمة من خير دعاء المؤمنين لإخوانهم سواءً السابقين أو المعاصرين والأنداد. وإن المؤمن الصادق هو الذي تتجلى له الأخوة بلحاظ الإيمان أعمق من تجليها بلحاظ النسب، فأخوه كل مؤمن وأخته كل مؤمنة، مهما اختلف اللون واللسان والحسب، ومهما اختلفت المسافة الزمنية والمكانية بينهما أو اختلفت الطبقات. وهو لا ينظر إلى نفسه فرداً، إنما بوصفه جزءاً من أمة بكاملها، بتاريخها وحاضرها ومستقبلها فيدعو لنفسه ولها على السواء، ويسعى لتحقيق أهدافه، كما يساهم في تحقيق أهداف إخوانه، ويسعى نحو تطهير نفسه من رواسب الحقد والحسد والشحناء تجاه إخوته في الدين.

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من حقد أو حسد أو أي أمر يدفع الإنسان إلى معاداة إخوانه، وهذا من أهم الطموحات التي يسعى المؤمنون نحوها متوكلين على الله، لأن الخروج من شح النفس الفردية، والتخلص من الأغلال تجاه الآخرين من الأمور الصعبة التي تحتاج إلى توفيق إلهي، وإرادة قوية، ولذا فهو عنوان بلوغ الإنسان درجة رفيعة من الإيمان، والمؤمنون يدركون ذلك ويعلمون أن بلوغهم درجة التخلص من الأغلال تجاه إخوانهم دليل رأفة الله ورحمته بهم، ولذلك يثنون عليه في دعائهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذان الاسمان لله يتجليان في سلوك المؤمنين عبر تعاملهم مع بعضهم، وهم يسألون ربهم

---

(١) بحار الأنوار: ج، ص٣٨٧.

المزيد من التوفيق للتخلق بها، وأن يرأف بهم بنزع الأغلال من قلوبهم تجاه بعضهم، ويرحمهم بالغفران.

[١١-١٢] تلك كانت صورة المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وهناك صورة معاكسة تمثل المنافقين والكافرين، وتحكي تفتت علاقاتهم، ويحدثنا السياق عن أمثولة لها من علاقة منافقي المدينة مع كفار بني النضير، فبالرغم من العهود والمواثيق التي أعطوها المنافقون لهؤلاء، ورغم التحالفات التي عقدوها مع بعضهم ضد الإسلام والرسول إلا أن ذلك لم يضف إلى تماسكهم شيئا، إنما تقطعت بهم الأسباب مع أول مواجهة تمت بين اليهود وبين المسلمين. وهذه الأمثولة جديرة بالتأمل من قبل المؤمنين بالذات وهم يخوضون الصراع مع الأعداء، فإن ذلك ينفخ فيهم روح الثقة والاطمئنان بالنصر، ولذلك يدعو الله نبيه وكل مؤمن إلى دراسة ذلك بقوله سبحانه: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ وسُمّي المنافق منافقاً اشتقاقا من: «نافقاء اليربوع»[(١)] (جحره) فإنه يُخفي نفسه فيها، كما يتخذ المنافق نفقا من التصنع والتكلف والكذب يخفي فيه شخصيته الحقيقية، ولقد كان المنافقون على مر التاريخ مزدوجي الشخصية، فهم بين المسلمين يتظاهرون بأحسن صور الإسلام، وبين الكفار يظهرون على حقيقتهم المعادية للحق ولأهله، ويتخذون ذلك مطية لنيل الغنيمة والمصلحة من الفريقين.

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هؤلاء هم إخوانهم الحقيقيون لأن شخصيتهم ومصالحهم وأهدافهم واحدة، بالرغم من تظاهرهم بالأخوة للمؤمنين، وليس إخوتهم كل أهل الكتاب ففيهم المؤمنون، إنما إخوانهم الكافرون والمشركون منهم، وجزء من مسيرة النفاق تربص أهله الدوائر بالمؤمنين بحثا عن المصلحة التي لا تتحقق بسيادة الحق وأتباعه المخلصين، لذلك ارتأى المنافقون وقد بدت علامات الحرب بين بني النضير والمسلمين أن يؤججوا الصراع طمعا في انتصار الباطل، وصعودهم داخليًا إلى سدة الحكم، أو على أقل تقدير تجنبهم المخاطر المترتبة على هزيمة المؤمنين لو حسبهم أولئك منهم، ولكنهم -وهذا ديدنهم في كل زمان ومكان- لم يضعوا البيض كله في سلة اليهود، إنما وضعوا احتمال هزيمتهم فخططوا ومكروا على أساسه بأن تبقى تحالفاتهم مخفية، حتى لو انهزم اليهود لا يفقدون كل شيء بين المسلمين المنتصرين، فراحوا يتسللون لهم فرادى وجماعات، ويكاتبونهم مؤكدين: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ أي لو قرر المسلمون إخراجكم فسنخرج، ومصيرنا وإياكم واحد على كل حال. ولعل في الآية إشارة إلى أن مصير المنافقين ووجودهم مرهون بدعم القوى الخارجية بحيث لا يبقى لهم كيان ولا مبرر وجود من دون تلك التحالفات، لذا

---

(١) مفردات غريب القرآن: ص٥٠٢.

يؤكدون لهم صدق موقفهم، ويحرضونهم بصورة أكبر ببيان استعدادهم للتمرد الدائم على قرارات القيادة الرسالية ودعوة إخوانهم لو أنهم حاولوا دفعهم إلى الوقوف ضد اليهود.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي لن يستجيبوا للدعوة المحاربة ضدهم مهما كان الداعي، وأنى كانت صورة الدعوة، وإن هذا الأمر من الثوابت التي لن تتغير، وحيث يؤكدون لليهود هذا الأمر بالذات فلأنهم يعلمون مدى طاعة المؤمنين لرسول الله ﷺ يومئذ، وأن هؤلاء ربما تتغير مواقفهم لسبب ما.

ثم إن المنافقين يخبرون بني النضير أن المسلمين قد يتخذون قرارا بالحرب ضدهم، ويؤكدون لهم استعدادهم للوقوف معهم فيها ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ضد المسلمين، ويفضح الله هذه الدسائس التي تدور في الخفاء: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ وإن كانت مؤامراتهم المشؤومة تحدث في السر بعيدا عن علم الرسول القيادة والمؤمنين ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فهم إذا حان القتال لا يوفون لهم بشيء من ذلك، وإن الذي باع المؤمنين وباع دينه من أجل أهوائه ومصالحه الدنيوية لمستعد أن يبيع أي أحد كان من أجل سلامته.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ فهم غير مستعدين للتضحية بدورهم وأموالهم، ولتحمل ألوان المشقة في سبيل حلفائهم، لأنهم قد كرّسوا إمكاناتهم من أجل راحة الدنيا، وماذا يدفعهم إلى تحمل ذلك والالتزام بعهد لهم مع فريق من الناس، وقد نقضوا عهودهم مع الله ومع رسوله وحاربوهما والمؤمنين من أجل الدنيا؟ فهم إذن كاذبون.

﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ لأنهم ليسوا في مستوى التضحية بالمادة، فكيف التضحية بالنفس، وبالأخص إذا كان ظاهر المعركة أنها تنتهي إلى انتصار الحق وأهله؟! فهم غير مستعدين لخوض معركة تذهب بفضيحتهم وخسارتهم، وقد صنعوا المستحيل من أجل أن يلعبوا على الحبلين، ولا يُصنَّفوا في جهة وجماعة ما من أجل سلامتهم، وهب أن المنافقين جازفوا ودخلوا الحرب ضد المسلمين فماذا سوف يغيرون في الواقع؟!.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ هزيمة، لهم ولأولئك، لأنهم لا يملكون مقومات الثبات في القتال، وأهمها روح التضحية والشهادة، المتوفرة عند أتباع الحق دونهم، ولأن إرادة الله أقوى من أن يثبت أمامها أحد، وحينها يخسر الكافرون أنصارهم، وسوف يخسر المنافقون مستقبلهم ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لا أحد يمنع عنهم سطوة الحق وأهله.

[١٣] وإنما ينهزم المنافقون وكذلك الكافرون عسكريًّا أمام المسلمين لأنهم يعيشون الهزيمة النفسية في داخلهم أيضا، ودليل ذلك توسلهم بالنفاق بين المسلمين لأنهم لا يملكون

الشجاعة الكافية للظهور على حقيقتهم، وكان الأولى لهم أن يخافوا الله الشاهد عليهم لو كانوا يعلمون ويؤمنون بالغيب. ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يعرفون الحقائق بعمق، وإلى حد اليقين، وإلا لكانوا يتركون النفاق والتعاون مع أعداء الحق خشية سطوة الله وعذابه في الدنيا والآخرة. وهذه الصفة متأسّسة على النظرة المادية للحياة، فهم لا يعيشون حقائق الغيب، ولذلك لا يخشون ما يتصل بها كالخالق عز وجل، وقال سبحانه: ﴿صُدُورِهِم﴾ لبيان خلوها من الإيمان بالله.

[١٤] ومن مظاهر خوفهم وهزيمتهم الداخلية أنهم لا يملكون شجاعة المواجهة المباشرة مع المؤمنين، إنما يتوسلون بألوان الدفاعات الممكنة خشية الموت.

ومن أسباب ضعفهم بالإضافة إلى روح الهزيمة هذه التفتت في الجبهة الداخلية اجتماعيًّا ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ صفا واحدا متكاتفا (المنافقين والكافرين، أو أفراد الجبهة المعادية بصورة عامة) لأنهم لا يجتمعون -بسبب الخوف، أو بسبب اختلاف المصالح والأهواء- على رأي وموقف واحد أبدا، أنى كانت الوحدة هي الصورة الظاهرة فيهم.

﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ يأمنون بحصونها على أنفسهم من الهزيمة، أو لا أقل من الموت ولو بصورة نسبية ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ والجدر جمع جدار وهو الحائط، وإنما يحاربون من ورائه لخشيتهم من الموت، وجبنهم من المواجهة، وهو يشبه جدار النفاق الذي يسترهم عن الفضيحة والجزاء، ولعل ذلك يفسر خلفيات قرار الرسول ﷺ بهدم بعض بيوت بني النضير، وقطع نخيلهم بأنهم كانوا ينتفعون بها في الحرب للتستر والتسلل والتحصن، وهب أنها توفرت الحصون والجدر وتجمعوا ظاهريًّا في صف واحد، ومن أجل غاية واحدة، فإن ذلك لا يعني أنهم متوحدون، فإنك لو فتّشت قلوبهم وقلّبت آراءهم لوجدتها متفرقة ومتناقضة، بل لوجدتهم متناحرين في كثير من الأحيان، والسبب أنهم لا يدورون على محور واحد، ولا يسعون نحو هدف واحد كما يدور المؤمنون مع الحق أينما دار، ويستهدفون إقامة الحق في الأرض. وأساسا الفرق بين الحق والمصالح: هو أن الحق واحد، والأهواء والمصالح تتناقض وتعود إلى صراعات داخلية جذرية ودائمة.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي أنهم يعادون بعضهم بعضهم عداوة شديدة، حتى أنهم يقتلون بعضهم بشدة، وهذه صفة معروفة عن اليهود، وقيل معناه: أنهم حينما يتحدثون بينهم يتظاهرون بالشدة، ويكيلون الوعيد على أعدائهم، في حين أن قلوبهم خاوية من الشجاعة، والمعنى الأول أقرب إلى السياق، لقوله سبحانه: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ متحدين، كما يتظاهرون بذلك أو يظهره إعلامهم ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متباينة، وإن الاختلاف الجذري والحقيقي هو

الذي يبدأ من القلوب المتشتتة. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي لأنهم لا يتبعون هدى العقل وإلا لتوحدوا، لأن الحقائق التي تهدي إليها العقول السليمة المجردة واحدة في كل زمان ومكان ولدى كل الناس، وقد اتبعوا الباطل الذي لا يتفق معه الناس، فتفرقوا وتشتتوا، ولو كانوا يتبعون العقل لقادهم إلى الحق الواحد.

[١٥] وهذه المسيرة التي لا تقوم على التفقه والتعقل لا ريب أنها ستقودهم إلى المصير السيئ في الدارين ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقد يكون المعنى: أن أولئك لقوا جزاءهم، ولهؤلاء أيضا عذاب أليم مثلهم، والوبال هو سوء العاقبة. وقيل في ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: إنهم عموم أعداء الحق، وقيل: هم المشركون الذين هزمهم الرسول في بدر، وقيل: هم بنو قينقاع، وهو الأقرب والأشهر بين المفسرين، وهم أول فريق من اليهود نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ وأرادوا حربه حسدا من عند أنفسهم، لما يرونه من تعاظم قوته وقد تخوفوا على مصالحهم ومواقعهم في المدينة بعد غزوة بدر. وقد نصحهم ﷺ بأن يتركوا ذلك، ولكنهم أصروا وقالوا: لسنا مثل قومك العرب الجبناء، الذين هزمتهم في بدر إنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، والله لو حاربناك لتعلم أنا نحن الناس. فاستعدوا للحرب، فأخذوا يتهرجون متحرشين بالمسلمين وكانت الشرارة التي أشعلت نار الحرب قصة اعتداء على امرأة مسلمة: «حيث إن امرأة من المسلمين ذهبت لصائغ منهم تشتري منه ذهبا، فاجتمع اليهود عليها وأصروا أن تكشف عن وجهها لهم فلم تفعل -مما يدل على اشتهار الحجاب أيام الرسول بحيث كان يستر الوجه- فبادر الصائغ بشد ثوبها الذي عليها، بحيث ينكشف بعض بدنها للحاضرين، وكان اليهود يتضاحكون كلما بدا طرف من جسدها.

وفي الأثناء التفت رجل من المسلمين للأمر فأخذته الغيرة للحق فقتل الصائغ لما فعله، ولكن اليهود الجالسين معه اجتمعوا عليه وقتلوه، فثار المسلمون جميعا، وقرر الرسول الأعظم ﷺ أن يحاربهم، فحاصر حصونهم وقراهم، وأمرهم بالجلاء فما وجدوا بُدًّا من التسليم لأمره، ورحلوا عن المدينة إلى الشام»[1].

هكذا كانت حساسية المسلمين تجاه الظلم وإلى هذا الحد، بحيث يجهِّزون الجيوش، ويجلون قوما بأجمعهم لأنهم هتكوا عرض امرأة مسلمة وحرمتها، ولا أدري أين هم الآن؟!.

[١٦] ويضرب القرآن لنا مثلا عن علاقة المنافقين بالكفار من أهل الكتاب والتي هي

---

(١) راجع البداية والنهاية: لابن كثير: ج٤، ص٥.

علاقتهم مع الآخرين في كل زمان ومكان، فهم يحرِّضون الأعداء على المسلمين بأساليبهم الماكرة ما داموا يرتجون مكسبا، ولكنهم بمجرد أن يجدوا أنفسهم أمام خطر جاد يتهددهم من قبل المؤمنين أو يشعرون بالهزيمة يتبرؤون منهم ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ وزيَّن له الأمر حتى كفر، ووجد نفسه في عذاب الله ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وكذلك المنافقون حرَّضوا بني قينقاع وبني النضير حتى تورطوا في حرب مع المسلمين، فلما انهزموا انسلخوا عنهم، وتركوهم وحدهم يلقون جزاءهم.

[١٧] وماذا تكون النهاية حينما يتبع الإنسان الشيطان، سواءً شيطان الجن أو الإنس كالمنافقين؟. بلى؛ قد يحصل على بعض المصالح المادية المحدودة، ويحقق بعض أهوائه ورغباته الدنيوية، ولكن يخسر المستقبل الأبدي ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ إلى الأبد يذوقان ألوان العذاب، وما هي قيمة بعض من حطام الدنيا إذا كانت هذه هي عاقبته؟!.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يظلمون أنفسهم وغيرهم باتباع هوى النفس، ووسواس الشيطان، وفي التاريخ صور كثيرة عن هذه العاقبة المشينة. إليك واحدة منها: جاء في الأثر: أنه جيء لعابد زاهد من بني إسرائيل بشابة جميلة أصابها الجنون كي يدعو لها فتشفى، فلما جَنَّ عليهما الليل حدثه الشيطان عن الفاحشة، وأيقظ فيه الهوى والشهوة، ووسوس له حتى واقع المرأة، وكانت هذه الخطوة الأولى. ثم عاوده على قتلها حتى لا يفتضح أمره بقولها أو بحملها فقتلها ودفنها. ولما أصبح الصباح جاء إخوتها يسألون عنها فأخبرهم بأنها خرجت إلى حيث لا يعلم، فرجعوا، إلا أن الفلاح الذي دفنت في مزرعته وقع على جسدها وهو يحرث الأرض فأخبرهم، وترافعوا معه لدى القاضي واعترف بالجريمة فحكم بالشنق. ولكن الشيطان لم يتركه إلى هنا إنما تابع مسيرته، فقد جاء له عند حبل المشنقة ووعده بخلاصه واشترط عليه السجود له، فسجد للشيطان ولكن الشيطان لم يف له وإنما تركه يشنق، وهكذا صار إلى نار جهنم، وهذه عاقبة كل من يتبع خطوات الشيطان.

له الأسماء الحسنى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾.

هدى من الآيات:

هكذا بصَّرتنا الآيات السابقة بالصفات الرفيعة التي يتحلى بها المؤمنون الصادقون، والتي هي ركيزة فلاحهم، كما حدثتنا عن العلاقة السيئة بين المنافقين وبين حلفائهم من أعداء الأمة، وفي ختام الفصل فضحت دورهم في تضليل الناس، وأنهم كالشيطان الغوي، الذي يقود أتباعه إلى النار ثم يتبرأ منهم.

وحيث إن شراك إبليس منصوبة لكل إنسان وحتى المؤمنين فلا بد من التحصن عنه بالتقوى، كما أن المنافقين الذين يمثلون دور الشيطان في الأمة الإسلامية سيعملون على تجريد

المؤمنين من صفة الإيثار، وتفريقهم، ثم جر بعضهم إلى حزبهم، لذلك يدعو الوحي في هذا الدرس إلى تقوى الله، والتفكير في مستقبل الآخرة، والإحساس بهيمنة الله عبر ذكره الدائم مما يحفظ الإنسان عن الانحراف، ويُحصِّنه ضد الشيطان.

وتشير الآيات باختصار إلى الفرق الكبير بين أهل الجنة وأصحاب النار، ثم يثني السياق على عظمة القرآن وفاعليته في التأثير باعتباره النهج الذي يربط المخلوق بربه ويذكِّره به، فهو لو أنزل على جبل لخضع وتصدع من خشية ربه، ولك أن تعلم كم ينبغي أن يكون قلب الإنسان قاسيا إذا لم يتأثر بآياته الحكيمة. ولكن هذا الكنز الإلهي العظيم لا يكتشفه الإنسان إلا إذا استثار عقله للتفكر في آياته، والتدبر في أمثاله وقصصه.

ويكتسب القرآن عظمته الكبرى من كونه كلام الخالق، والتجلي الأعظم له إلى خلقه، وهذه الحقيقة هي التي تكشف لنا العلاقة بين الكلام عن عظمة القرآن في (الآية: ٢١) والحديث عن صفات الله في (الآيات: ٢٢-٢٤)، فإن عظمة القرآن من عظمة خالقه المتجلية في أسمائه وصفاته. ولن تتحقق خشية الله لأحد إلا إذا سما إلى آفاق المعرفة به سبحانه، وذلك بالتعرف على أسمائه الحسنى التي تتجلى في كتابه وفي خلقه، ولذلك يختتم الله سورة الحشر بذكر مجموعة منها لكي يتعرف إلينا ونعرفه كما يريد.

بينات من الآيات:

[١٨] يتميز المؤمنون من غيرهم بخصال ثلاث هي:

١- تقوى الله التي تسوقهم إلى الطاعة وتحجزهم عن المعصية، وهي روح الإيمان.

٢- الإيمان بالآخرة داراً للبقاء، والسعي الجاد والمستمر من أجل إعمارها باعتبارها دار مقر الإنسان، فلا يصدهم عن الاستعداد لها والتزود إليها شخص ولا شيء.

٣- الإحساس العميق برقابة الله على أعمالهم، وهذا ما يُنمِّي فيهم روح التقوى والإتقان.

ويسعى الشيطان (إنسيًّا كان أو جنيًّا) إلى مسخ شخصيتهم بسلبهم هذه الصفات الفاضلة، وجرهم إلى الفسق بأساليبه الخفية كالوساوس، والظاهرة كالدعاية المضللة، لذلك يوجِّه الوحي نداءه إلى المؤمنين بلطفه وعظيم منته، لكي يظهر هذا النداء الرباني على ما يُلقي الشيطان من نداءاته الخبيثة في القلب، ووساوسه الداعية إلى التمرد والعصيان، وإلى نسيان الآخرة فيقول عز من قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ والتقوى درجة أرفع من

الإيمان، وفي الآية تحريض إلى كل مؤمن بأن يُنمّي إيمانه ليصل به إلى درجة التقوى لأن الإنسان بحاجة إلى درجة رفيعة من الإيمان ليواجه بها الضغوط والتحديات الشيطانية، فحتى المؤمن قد ينحرف عن الصراط المستقيم خشية الطاغوت أو الآباء أو المجتمع، ويمكن القول بأن التقوى هي: التحصن دون أسباب عذابه وسخطه، أو الحرمان من رحمته، والتعرض لعقابه، مما تتسع الكلمة للعمل بالواجب والمندوب وترك المحرم والمكروه.

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ بلى؛ إن الشيطان وهوى النفس يدعوان الإنسان إلى المزيد من التركيز في حاضر الدنيا، والاسترسال في لذات العيش من دون حدود أو قيود، وعلى المؤمنين أن يقاوموا ذلك بالتفكير في مستقبل الآخرة الذي يرتكز على سعيهم في الدنيا، وما على الإنسان الذي يريد أن يعرف مستقبله إلا مراجعة حساباته، والنظر في أعماله، وضرورة هذه المحاسبة تنطلق من أننا نستطيع التغيير والاستزادة ما دمنا نعيش فرصة الحياة الدنيا، أما بعد الموت فلا تجدينا التوبة شيئا. وما أحوج الإنسان إلى النقد الذاتي البنّاء للمستقبل، فإنه في عرصة القيامة حيث المحاسبات الحاسمة يحتاج إلى أقل من مثقال الذرة من أعمال الخير، فقد قال رسول الله ﷺ: «تَصَدَّقُوا ولَوْ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ ولَوْ بِبَعْضِ صَاعٍ ولَوْ بِقَبْضَةٍ ولَوْ بِبَعْضِ قَبْضَةٍ ولَوْ بِتَمْرَةٍ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ لَيِّنَةٍ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَاقِي اللهَ فَقَائِلٌ لَهُ: أَلَمْ أَفْعَلْ بِكَ أَلَمْ أَجْعَلْكَ سَمِيعاً بَصِيراً؟ أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ مَالًا وَوَلَداً؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: فَانْظُرْ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ، قَالَ: فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ وخَلْفَهُ وعَنْ يَمِينِهِ وعَنْ شِمَالِهِ فَلَا يَجِدُ شَيْئاً يَقِي بِهِ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

وكما يجب على الإنسان النظر إلى ما يقدمه إلى مستقبله الأخروي، فإنه مسؤول عن النظر إلى ما يقدمه لمستقبله الدنيوي أيضا (مفردا أو جماعة أو جيلا) ومن الخطأ أن يعيش لحظته الراهنة بمعزل عن المستقبل وأخطاره، لأن هذه اللحظة جزء من المستقبل، ولأنه والجيل الحاضر رقم في مسيرة الآتين شاء ذلك أم أبى.

ولكيلا يُقيّم البشر ما يقدمه للمستقبل من بُعْد الكم وحسب، يدعونا القرآن لتركيز التقوى التي تأتي من الإحساس بالرقابة الإلهية، فإن الذي يشعر بمعاينة الخالق له، وخبرته بسعيه لا شك سوف لن يكتفي بالكم بل سيجتهد بإحراز النوع المرضي عنده عز وجل، وذلك بالإخلاص في النية والإتقان في العمل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولك أن تتصور فاعلية الإنسان وسعيه (كمّاً ونوعاً) وهو يتحرك بشعور الحضور تحت رقابة رب العمل والحساب والجزاء. إنه سيجتهد حقاً لإحراز مرضاته، وبلوغ ثوابه، وتجنب غضبه.

---

(١) الكافي: ج٤، ص٤.

[١٩] وإنما يدعو الله المؤمنين إلى خشيته، والاستعداد للقائه وتقواه بتحسس رقابته على الأعمال، لأن ذلك مما يميزهم من غيرهم، فيصدق عليهم اسم المؤمنين، فلو أنهم تجردوا عن هذه الخصال الثلاث لما أصبحوا في عداد أهل الجنة وحزب الله، ومن هنا نكتشف العلاقة بين الآية السابقة وهذه، فإن ما اشتملت عليه تلك يمثل أهم مضامين الشخصية المؤمنة المتمثلة في ذكر الله، الذي يجعل الفرد من أصحاب الجنة.

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أي لم يتقوه، ولم يستعدوا للقائه في الآخرة، ولم يستشعروا رقابته على أعمالهم، إذن فنسيان الله لا ينحصر في الكفر المحض به تعالى وحسب، بل يمكن أن يكون المؤمن ناسيا له لو تورط في واحدة أو أكثر من هذه الأمور الثلاث. وتعبيره عنها بالنسيان يهدينا إلى أن الإيمان به وذكره مودع في فطرة البشر وذاكرته، ولكنه يحيد عن ذلك بسبب الغفلة أو الشهوة وغيرهما. وقد أوضح أئمة الهدى معنى هذه الآية الكريمة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يَعْنِي إِنَّمَا نَسُوا اللهَ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَمْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ»[١] وذلك جرهم إلى عواقب خطيرة هي الضلال والنار.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ نتيجة طبيعيةً لنسيانه سبحانه، فإن الذي لا يؤمن بربه، ولا يعتقد بالآخرة، لا يجد قطبًا ثابتاً يدور حوله، ولاهدفاً حقيقيًا يسعى إليه، إنما تتجاذبه التيارات المختلفة، فيتبع يوما مجتمعه، وثانيا: المحتلين الأجانب، وثالثا: التاريخ، ورابعا: شهوة الرئاسة، فيصير مثل ذرة تائهة تسير حسب ما تسير الريح، لا يعمل لمصلحته الحقيقية، ولا انطلاقا من غايات وجوده، فإذا به وقد حان يوم القيامة ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١] ولم يقدم لنفسه شيئا.

وبعبارة: إن الذي يثبت للإنسان وجوده، ويعرِّفه بمصلحته، هو إيمانه بربه، فالإيمان يمنحه الاستقلال ويعطيه الرؤية السليمة تجاه نفسه والثقة بها، وهذه من مميزات بصائر القرآن تُحرِّر البشر من سلطة الهوى، وهيمنة الشهوات، وعبودية الطغاة والمترفين الذي يُمنُّونه بالهوى، ويرهِّبونه بصده عن الشهوات، كلا.. المؤمن يتجاوز هواه ليُكرِّس وجوده ولا يستسلم لجواذب الشهوة فيثبت استقلاله، ويتحدى سلطة المستكبرين ليعي ذاته، ويعود إلى كيانه، في حين أن الثقافة الجاهلية بألوانها واتجاهاتها تفقده هذه القيم، وتحدوه إلى الذوبان في محيطه، فيضل عن سواء السبيل. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ الذين خرجوا عن حصن القيم فتخطفتهم ذئاب الهوى وسباع الطغيان.

[٢٠] بلى؛ نسيان الله يسبب الضلال، ويجعل الإنسان من أهل النار، لأن أصحاب

(١) تفسير العياشي: ج٢، ص٩٦، بحار الأنوار: ج ٩٠، ص٩٨.

الجنة هم الذين تتوفر فيهم الخصال الثلاث (تقوى الله، والاستعداد للآخرة، والإحساس برقابته)، وكما يختلف الفريقان في الدنيا في صفاتهم فإنهم يختلفون في العقبى في مصائرهم. ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ إذن فلنبحث عن صفات هذا الفريق ونسعى لتقمصها، ونبحث عن تجمعهم فننتمي إليه حتى نفوز معهم في الدنيا والآخرة.

وهكذا تتوالى آيات الذكر تُبصِّرنا بمدى تميز المؤمنين عمن سواهم لكيلا يغرنا إبليس بأنهما سواء. كلا.. لا تستوي الجنة والنار، ولا تستوي الحسنة والسيئة، ولا يستوي النور والظلام، ولا الظل ولا الحرور، كذلك لا يستوي الصالحون أصحاب الجنة والمسيئون أصحاب النار، بالرغم من أنهما في الدنيا يتعايشان في بلد واحد، وربما تحت سقف واحد، ويتراءى للمعاين أنهما سواء، بل ويحاول المسيئون تمييع الفرق بينهم وبين الصالحين، والدعاية بأنهم ما داموا في الدنيا لا يؤاخذون بسوء أفعالهم فهم في الآخرة كذلك بمنجى منها، كلا.. إنهم ليسوا سواء، ومعرفة هذه الحقيقة تساهم في بعث الإنسان إلى الصلاح.

[٢١] وإذا كان أصحاب الجنة هم الفائزين، فكيف نبلغ درجاتهم؟ إنما بالقرآن الذي لن يأتي مثله مذكِّراً للإنسان بربه، ومربِّياً له على روح الإيمان والتقوى، ذلك أنه لو نزل على الجبال لتصدعت فكيف لا يستجيب له قلب الإنسان؟!.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ والتدبر في هذه الآية يهدينا إلى عدة حقائق:

الأولى: أنه تعالى أضاف اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ إلى القرآن؟ لماذا؟ ربما لأنه أراد أن يذكِّر قارئ القرآن بأن المعنيَّ بالكلام هو كتابه الذي بين يديه، وأنه يتضمن من الآيات والحقائق ما يصدع القلب، فإذا لم يخش تاليه ربه بسببه فليعلم أن قلبه أقسى من الجبال.

وإذا كانت الإشارة متوجهة إلى القرآن كله فهي تشير بصورة خاصة إلى الآيات القرآنية ذاتها التي تقع في سياقها من سورة الحشر -بصفة أخص- وكيف لا تكون كذلك وهي تشتمل على تجلي الله للمؤمنين بأسمائه الحسنى؟!.

الثانية: جاء اسم القرآن بالذات في هذا السياق لماذا؟ ربما لأن بلوغ الخشية والنفع بالآيات يكون بتلاوتها وكونها مقروءة، وليس بمجرد اقتنائها أو التزين بها، فالجبل يخشع ويتصدع لو أنزلت عليه الآيات التي تقرأ.

الثالثة: أن الجبل لا يخشع ولا يتصدع من القرآن بحروفه وورقه، إنما يصير إلى ذلك

نتيجة المضامين العظيمة التي تشتمل عليها آياته، وأهمها وأعظمها انطواؤها على تجلي الخالق عز وجل. لذلك كان القرآن هو المنزل، وكانت الخشية من الله سبحانه. إذن فعظمة القرآن مكتسبة من ذلك التجلي، الذي ظهر بصورة أخرى للجبل فاندك وخرَّ موسى صعقا.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ ولنا أن نهتدي من هذا المثل إلى تصور مدى القسوة التي ينبغي أن يبلغها قلب الإنسان حتى لا يتأثر بالوحي خشية وتقى. لا شك أنه سيكون أشد قسوة من الحجارة، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]. هكذا يضرب الله الأمثال للناس ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيهتدون إلى عظمة كتاب ربهم، فتلين به قلوبهم. وتأكيد القرآن على إثارة العقل بالتفكير لدليل واضح إلى أنه ليس بديلا عن عقل الإنسان إنما هو مكمّل ومرشد له إلى الحق في أقوم صوره. وهذه الآية تهدينا إلى أن عظمة القرآن لا تتكشف لأحد إلا بالتفكر بآياته وأمثاله، ذلك أنه كلما تقدم بالإنسان الوعي والعلم عرف عظمته وأحس بالحاجة إليه، وأن الرسالة الإلهية جاءت لتحرك عقول البشرية، وترفع تخلفها الفكري، ذلك أن الحركة الحضارية الحقيقية تبدأ باستثارة العقل وترتكز عليه، والعقول التي لا يحركها القرآن نحو التفكر والخشية من الله وهو أعظم محرك هي أقرب إلى الموت من الحياة.

[٢٢] أسماء الله وسائل معرفته، ومعرفة الله سبيل قربه، والقرب من الله غاية كمال الإنسان، وإنما خلق الله أسماءه لكي ندعوه بها، ولولا تلك الأسماء كيف كان يتسنى لنا معرفته؟ هكذا جاء في حديث شريف عن الإمام الرضا عليه السلام يسأله ابن سنان عن معرفة الله بنفسه، ومتى خلق أسماءه؟ فيقول: «سَأَلْتُ أَبَا الحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام: هَلْ كَانَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَارِفاً بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ؟ قَالَ عليه السلام: نَعَمْ، قُلْتُ: يَرَاهَا ويَسْمَعُهَا؟ قَالَ عليه السلام: مَا كَانَ مُحْتَاجاً إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُهَا ولَا يَطْلُبُ مِنْهَا، هُوَ نَفْسُهُ ونَفْسُهُ هُوَ، قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ، ولَكِنَّهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِهَا لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرَفْ...»[1].

ولكن كيف ندعو الله بأسمائه؟ إنما يتم ذلك حينما نجعلها وسيلة إلى معرفته فلا نجمد عند حروفها، ولا ندعو بالأسماء كأسماء، بل نجعلها سبيلا إلى ذلك الرب الذي نشير إليه بـ «هو» ذلك الذي تجلت آياته في كل شيء، ولكن تعالت ذاته عن العقول. وهكذا جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام حين يجيب هشام بن الحكم حين يسأله عن أسماء الله واشتقاقها: «يَا هِشَامُ اللهُ مُشْتَقٌّ مِنْ إِلَهٍ، والإِلَهُ يَقْتَضِي مَأْلُوهاً، والِاسْمُ غَيْرُ المُسَمَّى، فَمَنْ عَبَدَ الِاسْمَ دُونَ المَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ ولَمْ يَعْبُدْ شَيْئاً، ومَنْ عَبَدَ الِاسْمَ والمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وعَبَدَ اثْنَيْنِ، ومَنْ

---

(١) الكافي: ج١، ص١١٣.

عَبَدَ المَعْنَى دُونَ الِاسْمِ فَذَاكَ التَّوْحِيدُ»[١].

ويبدو لي أن كثيرا من البشر يضلون حين يجمدون على حدود الأسماء والحروف الدالة عليه أو على حدود آيات الله دون أن ينفذوا ببصائرهم وحقائق إيمانهم إلى المعنى، ولعل أساس طائفة من أقسام الشرك هو هذا الجمود، ومن هنا جاءت آيات الذكر لتوجهنا إلى الله بإشارات فطرية ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وسيأتي إن شاء الله بعض التدبر في هذه الكلمات المضيئة. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «الغَيْبُ مَا لَمْ يَكُنْ وَالشَّهَادَةِ مَا قَدْ كَانَ»[٢].

وإحاطة الله بالغيب علما آية قدرته النافذة، أوَلم يقل ربنا سبحانه: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ.. الآية﴾ [الأنعام: ٥٩]. أوتدري كيف نستدل على أن ربنا عالم الغيب؟ لأنه تعالى قبل أن يخلق الخلائق علم كيف يخلقها بلا مثال سبق، ولا نقص لحق، فلولا علمه السابق كيف كان يخلقها بهذه الدقة والمتانة؟.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وسعت رحمته كل شيء، وتفضل على المؤمنين برحمة خاصة.

[٢٣] في كل أفق ومع كل شارقة وغاربة، وعلى كل صغيرة وكبيرة آياته، فمن هو وما هي صفاته؟ أنى ألقيت ببصرك شاهدت آثار ملكه وعظمته، وأي شيء رأيت أنبأك بقدرته وحكمته، وأي حدث شاهدت لامست تجليات عزته وجبروته، فمن هو وما هي أسماؤه؟.

سؤال يرتسم على كل شفة، وبكل مناسبة، ويأتي الجواب: إنه ﴿هُوَ﴾ ويلتقط الفكر هذه الإشارة ليجمع بها خيوط معارفه، بلى؛ هو غيب كل شاهد، وباطن كل ظاهر، هو نور كل ظلام، وخالق كل مخلوق. ﴿هُوَ﴾ وكفى بذلك تذكرة لمن كان له قلب، أوليس في القلب فطرته، وفي أغوار كل فؤاد أشعة من نور معرفته؟.

ولكن ما هي أسماؤه الحسنى؟.

﴿ٱللَّهُ﴾ فهو الإله الحق، الذي اجتمعت فيه كل صفات الألوهية، فأشرنا إليه بـ (الألف واللام) وقلنا: ﴿ٱللَّهُ﴾ ولم نقل: (إله) فهو الإله الحق الذي لا يحق لغيره ادعاء الألوهية، وهكذا تكون الأسماء التالية تفسيرا لاسم ﴿ٱللَّهُ﴾ وبالذات الجملة التالية له ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو ﴿ٱللَّهُ﴾ ولا غيره إله. ولكن ما هي مظاهر ألوهيته وتجلياتها؟.

---

(١) الكافي: ج١، ص٨٧.

(٢) بحار الأنوار: ج٤، ص٧٩.

أولاً: أنه ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ يملك ناصية القدرة في كل شيء، فلا حول لشيء ولا قوة له إلا به، ولا يقع حدث إلا في دائرة علمه وقدرته، وله مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو.. تصور نملة صغيرة في غابة واسعة تتنقل في ليلة ظلماء من موقع لآخر، يعلم الله بسرها وهدفها، وحركة الروح بين أضلعها، ووساوس الشهوة في قلبها، وانبعاث الغرائز في نفسها.. يعلم كل ذلك ويحيط بها ملكوته. إن الله يملك حركة الأشياء، ويملك ذاتها، فله ملكوت السماوات والأرض، تعالى ربنا وعظم ملكه. أنه ملك لا يزول ملكه، ولا تحده الحدود الجغرافية، ولا تقيده المعادلات الكونية. هل سمعت قصة المأمون العباسي عندما دنت منه الوفاة كيف أشرف على معسكره العريض، وتنفس الصعداء، وقال: يا من لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه؟! هكذا قهر ربنا الجبار عباده بالموت والفناء، حتى وضع الملوك على رقابهم نير العبودية فهم من سطواته مشفقون، ومن عزته خائفون.

ثانياً: للقدرة حين تكون عند البشر سكرها، وسكر القدرة أعظم من أي سكر، وحين تلعب برأس المقتدرين خمرة القدرة يفسقون عن حدود المشروع، وينسابون في الأرض انسياب الأفعى يزرعون السم والموت، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧] وقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ولكن ربنا سبحانه قدوس منزه عن الظلم والحيف، والقدوس يعني الطاهر، وسمي الدلو عند أهل الحجاز بـ (القُدَس) لأنه يتطهر به. ولعل معنى القدوس: أنه سبحانه طاهر بذاته، ومُطهِّر لغيره، كما نقول في قيوم: أن معناه القائم بذاته الذي تقوم به الأشياء.

ثالثاً: ومن تجليات اسم القدوس أنه سلام، فهو لا يعتدي على أهل مملكته، ولا يؤاخذ أهل الأرض بألوان العذاب، أما إذا التجأ إليه العبد فإنه يجد دار السلام، حيث يحيطه من فضله بسكينة في قلبه يمنحه بها سلامة من وساوس الشيطان، وسلامة من همزاته ودفعاته، وسلامة من الخوف والقلق والتردد، وسلامة من الحقد والحسد وظن السوء، ويحيطه من فضله بعافية في حياته وسلام من الأخطار، إلا حسب ما تقتضيه حكمته من ابتلائه وفتنته، ويرجّيه من فضله بعاقبة حسنى، فيها كل أمنة وسلام. وهكذا جاء في الدعاء: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وِمِنْكَ السَّلَامُ وَلَكَ السَّلَامُ وَإِلَيْكَ يَعُودُ السَّلَامُ»[1].

رابعاً: ويشتق من السلام اسم ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ حيث يؤمن من التجأ إليه من شر نفسه وشر الشيطان وشر كل ذي شر هو آخذ بناصيته. ولولا الأمان الذي وفّره رب الرحمة والقدرة لهذا

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٣٢٢.

الإنسان -ولكل الخلائق- كيف كان ينمو هذا المخلوق الضعيف عبر الأطوار المتلاحقة من حيث كان نطفة من مني يمنى، حتى خلقه في رحم أمه علقة فمضغة فعظاماً، حتى جعله خلقاً سويًّا، وإلى أن أحاطه برعاية أمه وعناية أبيه، ووفر له الحماية بالحفظة الذين ساقهم بين يديه ومن خلفه حتى قال ربنا سبحانه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] وهذا أقرب معنى لكلمة ﴿الْمُؤْمِنُ﴾، وقد استشهدوا عليه بقول النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسلم

أي قسما بالذي أعطى الأمان للطيور التي عاذت بالبيت الحرام فإذا بالحجيج يمسحون عليها بين غابات الشوك وكثبان الرمل.

وقال بعضهم: إن معنى ﴿الْمُؤْمِنُ﴾: أنه سبحانه شهد أنه لا إله إلا هو، وروي عن ابن عباس قوله: «إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار، وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبي حتى إذا لم يبق فيها من يوافق اسمه اسم نبي قال الله تعالى لباقيهم: «أنتم المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن» فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين»[1].

خامساً: ولكن هل يؤمن الناس من الشرور إلا المليك المقتدر الذي استوى على عرش القدرة تماما؟ كذلك ربنا سبحانه فهو ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ الحفيظ الرقيب، الذي لا يضيع عنده أحد. وقد قالوا في معنى ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾: إنه الأمين، وقيل: الشاهد، وقيل: هو المؤمن في المعنى، لأن أصل اللفظ المؤيمن، إلا أنه أشد مبالغة في الصفة، وقيل: هو الرقيب على الشيء، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيبا على الشيء[2]. ويبدو أن أصل معنى المهيمن المسيطر، وأن سائر المعاني مشتقة منه، فإن من سيطر كان رقيبا وشاهدا وحفيظا..

سادساً: وهيمنة الله على الخليقة بلا معارض أنه يَقْهَر ولا يُقْهَر، ويَسْأَل ولا يُسْأَل، ويُجير ولا يُجار عليه، وهو المنيع الذي لا يرام، وهو شديد المحال.. وكل هذا ينبئ عن عزته، وهي غاية الهيمنة، كما أن في الهيمنة كمال الإيمان، والإيمان قمة السلام.

سابعاً: هل تريد أن ترى تجليًا لاسم ﴿الْعَزِيزُ﴾؟ انظر إلى جبروت الخالق، وكيف أنه قهر خلقه بما ألزمهم من سننه، فهم لا يخرجون عن الحد الذي رسم لهم إلا بما شاء، فلا يملك أحد يوم ولادته ولا ساعة وفاته، ولا ما قُدِّر له من رزق، ولا ما سُيِّر عبره من قضاء.. إنه الله ﴿الْجَبَّارُ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٨، ص٤٧.
(٢) مجمع البيان: ج٩، ص٣٣٧.

و﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ اسم من الجبر، وهو القهر والسلطة، وإذا أطلق على عباد الله كان ذمًّا، لأن الحاكمية المطلقة لله، أما خلقه فخير صفاتهم الالتزام بحاكمية الله، أما إذا قهروا الناس فقد اعتدوا عليهم، ونازعوا الله سلطانه. وقيل: إن معنى الجبار الذي يجبر الكسير، ويبدو أن المعنى الأول أظهر.

ثامناً: وليست صفة الجبار كامنة عند الله، ولكنها تتجلى في تكبره حيث لا يدع أحدا يعتدي على سلطانه إلا بقدر ما تقتضيه حكمة الابتلاء، فهو ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾، ولذلك جاء في الحديث القدسي المأثور عن رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي والعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي نَارِي»[1]. وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «والكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ نَازَعَهُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ أَكَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»[2].

هذه هي أسماء الله التي لو تدبر فيها الإنسان وتفتح قلبه على نورها ازداد إيمانا بربه وعرفانا: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ فهل في خلقه أحد يمكن أن يدعي هذه الأسماء، حتى يكون شريكا له في ملكه؟ كلا.. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هل أنبئت عن إله مثل رب العزة في أسمائه الحسنى يشرك به؟ كلا.. إنما هم مخلوقون مربوبون عاجزون محدودون فأنى يذهبون؟! ترى بعضهم يعبد بقرة، والآخر يعبد طاغوتا، هو أقل شأنا من البقرة؟ والثالث يعبد صنما أصم. أفلا يعقلون؟! حقًّا! إن الذين يشركون بربهم لا يعرفون الله بأسمائه وصفاته، ولو عرفوا شيئا منها لأدركوا تفاهة من يشركون به ربهم وسفاهة عقول من يشرك.

وقد جاء في الأثر المروي عن الإمام علي عليه السلام في معنى وفضيلة (سبحان الله) أنه «سَأَلَ رَجُلٌ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَا تَفْسِيرُ سُبْحَانَ اللهِ؟ قَالَ: إِنَّ فِي هَذَا الحَائِطِ رَجُلاً كَانَ إِذَا سُئِلَ أَنْبَأَ وإِذَا سَكَتَّ ابْتَدَأَ فَدَخَلَ الرَّجُلُ فَإِذَا هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَقَالَ: يَا أَبَا الحَسَنِ مَا تَفْسِيرُ سُبْحَانَ اللهِ؟ قَالَ: هُوَ تَعْظِيمُ جَلَالِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وتَنْزِيهُهُ عَمَّا قَالَ فِيهِ كُلُّ مُشْرِكٍ فَإِذَا قَالَهُ العَبْدُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ»[3].

[٢٤] ذكَّرت الآية المتقدمة بصفات الله، ويبدو أن هذه الآية تذكر بأفعاله الحميدة، وتلك الأسماء المشتقة منها.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص٣١.

(٢) الكافي: ج٢، ص٥١٥.

(٣) مستدرك الوسائل: ج٥، ص٣٢٢.

أولاً: الخلق، ويبدو أن معناه صنع الأشياء بعد ابتداعها، ولذلك يمكن أن يسمى غير الله خالقا، وقد قال ربنا: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠].

ثانياً: ونحن إذ نصنع شيئا فإنما نغير شيئا موجودا من صورة لأخرى، في حين أن ربنا سبحانه أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدعه ابتداعا، لا من شيء كان احتذى به، ويبدو أن هذا هو معنى ﴿الْبَارِئُ﴾ حيث قال المفسرون: إن معناه المنشئ المبتدع، وبهذا صرَّح طائفة من اللغويين أيضا. وقال بعضهم: إن أصل معنى برأ شُوفي من مرض، ثم توسع ليشمل من يصنع شيئا بلا نقص أو عيب، وعلى هذا فإن ﴿الْبَارِئُ﴾ هنا الذي أتقن خلقه فلم يدع فيه ثغرة أو فطورا.

ثالثاً: وقد خلق الله الأشياء بعد أن أبدعها، وبعد أن قدَّرها تقديرا حسنا، ولعل هذا هو معنى ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ فقد قدَّر في علم الغيب العالم بما شاء ثم أبدع مادة العالم لا من شيء، ثم خلقه وصنعه بأحسن الصنع سبحانه. وقيل: إن التصوير هو التشكيل والتخطيط، وهو يتم بعد الإنشاء والصنع، فيكون المعنى أنه سبحانه أحسن صنع الأشياء، وأحسن صورها.

رابعاً: ليست أسماء الله محدودة بهذه الكلمات على عظمتها، بل ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ جميعا. أفليست الخلائق آياته؟ أوليست آياته تجليات أسمائه، فهو نور السماوات والأرض، وله المثل الأعلى؟! وإذا نظرت إلى آية من آيات قدرته وعظمته وبهائه وجلاله فاتخذها وسيلة إلى معرفة ربك، وادعه بها لأن الذي تدعوه.. ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، وجاء في الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ: «لله عَزَّ وجَلَّ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ اسْماً مَنْ دَعَا اللهَ بِهَا اسْتُجِيبَ لَهُ، ومَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[1].

إن معرفة الله بأسمائه الحسنى تُحصِّن الإنسان من الإلحاد فيها، والتنكُّب عن صراطه القويم، ذلك أن جهالة الإنسان، ووساوس الشيطان تدفعه نحو تقديس غير الله، أو اتباع الشركاء من دونه، مما يهلكه ويجعله من الخاسرين، وإنما النجاة عن ضلالة الشرك الظاهر والخفي بتسبيح الله وتقديسه، وذكر أسمائه الحسنى، فإذا عَظُم الخالق في قلب الإنسان تلاشى عنه غيره. أوليس النور نجاة من الظلام كذلك التوحيد نجاة من الشرك.

وحين نقدس -نحن البشر- ربنا العزيز فإننا ننسجم مع سنة العالم، فكل ما في السماوات والأرض يسبح له، وهكذا تخدم سنن العالم من يسبح الله ويوحده، والذي يشرك به يبقى وحده فيتخطفه الشيطان ويلقيه في سواء الجحيم.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٧، ص١٤٠.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهكذا تختم السورة بتسبيح الله كما افتتحت به، وبين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة رفعت آياتها الكريمة أهل البصائر إلى آفاق المعرفة التي تتصل فيها معرفة المجتمع وما فيه من صراع بين الكفر والإيمان بمعرفة آفاق السماوات والأرض وما فيها من أسماء الله الحسنى.

ولهذه الآيات الثلاث الأخيرة من سورة الحشر فضل كثير حسب النصوص المأثورة. أوليست تهدينا إلى أسماء الله الحسنى التي بها خلق ربنا سبحانه السماوات والأرض، وبها صلح أمر الأولين والآخرين؟ فالنبي ﷺ يُعظِّم شأن هذه الأسماء، التي لو قرأها المرء بتدبر ووعي، وجعلها وسيلة لدعاء ربه فإنها تصنع الكرامات.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الحَشْرِ وَكَّلَ اللهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وَ إِنْ مَاتَ ذَلِكَ اليَوْمَ مَاتَ شَهِيداً، وَ مَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ المَنْزِلَةِ»[1].

ويجدر بنا أن نستمع في خاتمة هذه السورة الكريمة إلى قلب نابض بالتوحيد، تنساب من ثناياه معرفة الرب، ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام الذي انعكست عليه آيات الكتاب حتى انغمست نفسه في بحار المعرفة فقال: «لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً»[2]. تعالوا نستمع إليه وهو يخطب في مسجد الكوفة فيبهر الناس من حسن صفته، فيقول: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ لِأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ مِنْ إِحْدَاثِ بَدِيعٍ لَمْ يَكُنْ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ فِي العِزِّ مُشَارَكاً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ شَبَحاً مَاثِلًا، وَلَمْ تُدْرِكْهُ الأَبْصَارُ فَيَكُونَ بَعْدَ انْتِقَالِهَا حَائِلًا، الَّذِي لَيْسَتْ فِي أَوَّلِيَّتِهِ نِهَايَةٌ وَلَا لِآخِرِيَّتِهِ حَدٌّ وَلَا غَايَةٌ، الَّذِي لَمْ يَسْبِقْهُ وَقْتٌ وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ زَمَانٌ، وَلَا يَتَعَاوَرُهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ وَلَا يُوصَفُ بِأَيْنٍ وَلَا بِمَ وَلَا مَكَانٍ، الَّذِي بَطَنَ مِنْ خَفِيَّاتِ الأُمُورِ وَظَهَرَ فِي العُقُولِ بِمَا يُرَى فِي خَلْقِهِ مِنْ عَلَامَاتِ التَّدْبِيرِ، الَّذِي سُئِلَتِ الأَنْبِيَاءُ عَنْهُ فَلَمْ تَصِفْهُ بِحَدٍّ وَلَا بِبَعْضٍ، بَلْ وَصَفَتْهُ بِفِعَالِهِ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ عُقُولُ المُتَفَكِّرِينَ جَحْدَهُ، لِأَنَّ مَنْ كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ فِطْرَتَهُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَهُوَ الصَّانِعُ لَهُنَّ فَلَا مَدْفَعَ لِقُدْرَتِهِ، الَّذِي نَأَى مِنَ الخَلْقِ فَلَا شَيْءَ كَمِثْلِهِ، الَّذِي خَلَقَ خَلْقَهُ لِعِبَادَتِهِ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ بِمَا جَعَلَ فِيهِمْ وَقَطَعَ عُذْرَهُمْ بِالحُجَجِ فَمَنْ بَيِّنَةٍ هَلَكَ، مَنْ هَلَكَ وَبِمَنِّهِ نَجَا، مَنْ نَجَا وَللهِ الفَضْلُ مُبْدِئاً وَمُعِيداً، ثُمَّ إِنَّ اللهَ وَلَهُ الحَمْدُ افْتَتَحَ الحَمْدَ لِنَفْسِهِ وَخَتَمَ أَمْرَ

(١) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٣٠٩.

(٢) غرر الحكم: حكمة ٢٠٨٦.

الدُّنْيَا وتَحَلَّ الآخِرَةِ بِالحَمْدِ لِنَفْسِهِ فَقَالَ وقَضَى بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وقِيلَ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

الحَمْدُ للهِ اللَّابِسِ الكِبْرِيَاءِ بِلَا تَجْسِيدٍ والمُرْتَدِي بِالجَلَالِ بِلَا تَمْثِيلٍ، والمُسْتَوِي عَلَى العَرْشِ بِغَيْرِ زَوَالٍ، والمُتَعَالِي عَلَى الخَلْقِ بِلَا تَبَاعُدٍ مِنْهُمْ ولَا مُلَامَسَةٍ مِنْهُ لَهُمْ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ يُنْتَهَى إِلَى حَدِّهِ ولَا لَهُ مِثْلٌ فَيُعْرَفَ بِمِثْلِهِ، ذَلَّ مَنْ تَجَبَّرَ غَيْرَهُ وصَغُرَ مَنْ تَكَبَّرَ دُونَهُ وتَوَاضَعَتِ الأَشْيَاءُ لِعَظَمَتِهِ وانْقَادَتْ لِسُلْطَانِهِ وعِزَّتِهِ، وكَلَّتْ عَنْ إِدْرَاكِهِ طُرُوفُ العُيُونِ وقَصُرَتْ دُونَ بُلُوغِ صِفَتِهِ أَوْهَامُ الخَلَائِقِ، الأَوَّلِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ولَا قَبْلَ لَهُ، والآخِرِ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ ولَا بَعْدَ لَهُ، الظَّاهِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِالقَهْرِ لَهُ، والمُشَاهِدِ لِجَمِيعِ الأَمَاكِنِ بِلَا انْتِقَالٍ إِلَيْهَا، لَا تَلْمِسُهُ لَامِسَةٌ ولَا تُحِسُّهُ حَاسَّةٌ، هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وفِي الأَرْضِ إِلَهٌ، وهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ، أَتْقَنَ مَا أَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ مِنَ الأَشْبَاحِ كُلِّهَا لَا بِمِثَالٍ سَبَقَ إِلَيْهِ ولَا لُغُوبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي خَلْقِ مَا خَلَقَ لَدَيْهِ، ابْتَدَأَ مَا أَرَادَ ابْتِدَاءَهُ وأَنْشَأَ مَا أَرَادَ إِنْشَاءَهُ عَلَى مَا أَرَادَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ والإِنْسِ لِيَعْرِفُوا بِذَلِكَ رُبُوبِيَّتَهُ وتَمَكَّنَ فِيهِمْ طَاعَتَهُ»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٢٦٥-٢٦٦.

سُورَةُ المُمْتَحِنَة

* مدنية.
* عدد آياتها: ١٣ .
* ترتيبها النزولي: ٩١.
* ترتيبها في المصحف: ٦٠.
* نزلت بعد سورة الأحزاب.

فضل السورة

عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ المُمْتَحَنَةِ فِي فَرَائِضِهِ ونَوَافِلِهِ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَانِ، ونَوَّرَ لَهُ بَصَرَهُ، ولَا يُصِيبُهُ فَقْرٌ أَبَداً، ولَا جُنُونٌ فِي بَدَنِهِ ولَا فِي وُلْدِهِ».

(ثواب الأعمال: ص١١٨)

الإطار العام

القرآن يربّي التجمع المؤمن

الصورة المثلى التي تبشر بها رسالات الله لحضارة الإنسان في المستقبل، هي صورة ذلك المجتمع المبدئي الذي يتعالى عن مؤثرات المادة السلبية، ليسمو إلى أفق القيم الربانية، آنئذ تنصهر كل القوى في بوتقة الوحي، بعيداً عن عصبية الإقليم والقوم، وحزازات الطائفة والطبقة والحزب.

ولكي تسعى البشرية نحو تحقيق هذه الصورة المثلى، فإن الوحي يصنع نموذجاً بشرياً رائعاً ممن يسميهم بحزب الله أوالأمة الشاهدة والصفوة الخالصة، لكي تكون سيرتهم قدوة لغيرهم، ولكي يكونوا كما الدرع الواقية تحيط بالأمة وتمنعهاعن التمزق والتشرذم.

أرايت كيف جعل الله الجبال أوتاداً للأرض تحميها من القواصف والعواصف والهزات والزلازل، كذلك حزب الله المنتشرون في أوساط الأمة يمنعونهم من التقاتل تحت ضغوط المصالح والأهواء، وعن الاختلاف والتمزق.

ويبدو أن سورة الممتحنة تربي في الأمة تجمع حزب الله ثم الأمثل فالأمثل ممن يتبع نهجم، ويقتدي سيرتهم. وهكذاالخطاب يتوجه في فاتحتها إلى المؤمنين، لكي يبتعدوا عن مودة الكفار والمعادين للرسول. ذلكم لأنكم قد تفرغتم للجهاد في سبيل الله، ولأنكم تبحثون عن مرضاته، ولأن الله يعلم سركم ونجواكم (الآية: ١)، ولأن هذه المودة ضلال عن الصراط السوي، فإنهم قد يتظاهرون اليوم بالمودة ولكنهم إن يأخذوكم يشبعونكم أذىً بألسنتهم وأيديهم، وأخيراً؛ لأنهم لا يزيدونكم عند الله إلا خبالاً، هنالك يتميز المؤمنون عن الكافرين (الآيات: ٢-٣).

ولمزيد من التحريض على الكفار المعادين؛ يرغب الرب المؤمنين بالتأسي بإبراهيم عليه السلام والمؤمنين في عهده الذين تبرؤوا من قومهم الكافرين، ونابذوهم العداء، وتوكلوا على

الله تعالى (الآيات: ٤-٦).

إن هذا الموقف الصلب قد يجعله الله سبحانه سبباً لانتصار المسلمين على الكفار، أو لتحييدهم لا أقل، مما يسمح للمؤمنين يومئذٍ بمودة من يشاؤون منهم، لأن الله لا ينهى عن المبرة إلى غير الأعداء من الكفار والقسط إليهم، لأن الله يحب المقسطين (الآيات: ٧-٨).

وينعطف السياق إلى الحديث عن المهاجرات، ربما لأن المعروف إلتحاق المرأة بالرجل، بينما صلة الدين أقرب من علاقة الزوجية. و هكذا كانت المرأة تترك زوجها للالتحاق بأبناء دينها، ولكن بأمر القرآن بامتحانها، فإذا عرف منهاالإيمان انفصلت عن زوجها ، ومن جهة ثانية؛ إذا آمن الرجل لم يجز له الإبقاء على زوجته الكافرة.(الآيات: ٩-١١).

وبعد بيان جملة أحكام تخص هذه المفارقة، يبين القرآن بنود بيعة النساء، وأبرزها نبذ الشرك (والذي يعني نبذكل مخالفة لحاكمية الله)، والأمانة في المال والعرض، والمحافظة على الأولاد، والتورع عن اتهام أحد (فيما يتصل ظاهراً بالأمانة في النسب)، والطاعة للقيادة.(الآية: ١٢).

وفي خاتمة السورة؛ يذكرنا الرب بضرورة الطاعة للقيادة الرشيدة، وينهى عن اتباع القيادات الضالة (الآية: ١٣).

لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ[1] يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[2] فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦)﴾.

هدى من الآيات:

لكي تتكامل نفس المؤمن، وتصفو من شوائب الشرك والشك، وتتعالى عن المؤثرات المادية، وبالتالي لكي تتهيأ للقاء الله ونيل جناته ورضوانه، فإن عليه أن يجتاز بنجاح امتحان

(١) يثقفوكم: الثقف: الحذق في الظفر بالشيء.

(٢) أسوة: الأسوة بالضم أو الكسر: القدوة، وتأسيت به وأتسيت به: اقتديت.

الولاء، وتتمحض علاقاته في الإيمان، وقد يدعوه ذلك إلى قطع وشائج الولاء عن أقرب أرحامه فيقاوم تيار عواطفه الجياشة تجاههم، ويتحمل مضاعفات العزلة عنهم وضغوط الحياة دونهم.

وذلك من أصعب ما يتعرض له الإنسان، ولكن القرآن يعالج ذلك علاجاً موضوعيًّا من شأنه تهوين الأمر في نفوس المؤمنين، ودفعهم لخوض الامتحان بنجاح، ببيان الحقائق التالية:

أولاً: أن الكفار لا يوادون المؤمنين أبدا، بل يكنون لهم الحق والعداء، وإذا كانوا يتظاهرون بالمودة أحيانا فإنها لأسباب وظروف ومصالح، فحيث لا يجدون القدرة على إظهار العداء للمؤمنين الذين قويت شوكتهم يخفون كل ذلك، أما لو يظفرون بهم فإنهم، ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ [التوبة: ١٠]، ودليل ذلك أنهم أخرجوا من قبل الرسول ﷺ والمؤمنين من مكة المكرمة، واستحلوا حرماتهم وأموالهم.

ثانياً: المهم عند المؤمن الآخرة فعليه أن يعمل في الدنيا ما ينفعه يوم القيامة، وليس تنفعه تلك الولاءات شيئا، فلماذا التشبث بها؟.

ثالثاً: أن المقاطعة التي يفرضها الله على المؤمنين ليست أمرا مستحيلا، فهناك من عمل بها وهو نبي الله إبراهيم عليه السلام والمؤمنون معه، حيث ضربوا المثل الأعلى في البراءة من قومهم المشركين ومن آلهتهم المزيفة، وفي الكفر بهم، وإظهار العداوة والبغضاء ضدهم، وما أروعها أسوة لكل مؤمن يرجو رضا ربه، ويؤمن بالحياة الأخرى.

بينات من الآيات:

[١] قالوا في شأن نزول الآية: «لقد كانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله ﷺ فصاروا إلى عيال حاطب بن أبي بلتعة، وكان قد أسلم وهاجر تاركا أهله بمكة، وسألوهم أن يكتبوا إلى حاطب يسألونه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة؟ فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك، فكتب إليهم حاطب: إن رسول الله ﷺ يريد ذلك، (وفي رواية): «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة إن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم»[1]، ودفع الكتاب إلى امرأة تسمى صفية، وقيل: «سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام، وكانت قد أتت رسول الله ﷺ بعد بدر بسنتين، فقال لها رسول الله ﷺ: «أَمُسْلِمَةً جِئْتِ؟. قالت: لا، قال ﷺ: فَمَا جَاءَ بِكِ؟، قالت: كنتم الأصل والعشيرة والموالي، وقد ذهب موالي فاحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني، قال ﷺ: فَأَيْنَ أَنْتِ مِنْ شَبَابِ مَكَّةَ؟ -وكانت مغنية

(١) بحار الأنوار: ج٢١ ص٩٢.

نائحة- قالت: ما طلب مني بعد وقعة بدر أحد -حيث فجعوا بأبطالهم وأخذهم الحزن والغم- فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة، وكان رسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، وأتاها حاطب بن أبي بلتعة فكتب معها إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير، وقيل عشرة دراهم، وكساها بردا على أن توصل الكتاب إلى أهل مكة»[1]، فوضعته في قرونها ومرت، فنزل جبرائيل على رسول الله واخبره بذلك، فبعث رسول الله أمير المؤمنين عليه السلام والزبير بن العوام في طلبها».

وقيل: «معهم عمار، وعمر بن الزبير والمقداد بن الأسود»[2]، فلحقوها، فقال لها أمير المؤمنين: أين الكتاب؟ فقالت: ما معي شيء، ففتشوها فلم يجدوا معها شيئا، فقال الزبير: ما نرى معها شيئا، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاللهِ مَا كَذَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا كَذَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى جَبْرَئِيلَ عليه السلام، وَلَا كَذَبَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام عَلَى اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَاللهِ لَتُظْهِرَنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَأُورِدَنَّ رَأْسَكِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: تَنَحَّيَا حَتَّى أُخْرِجَهُ فَأَخْرَجَتِ الْكِتَابَ مِنْ قُرُونِهَا فَأَخَذَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، وَجَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟، فَقَالَ حَاطِبٌ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَافَقْتُ وَلَا غَيَّرْتُ وَلَا بَدَّلْتُ وَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقّاً وَلَكِنْ أَهْلِي وَعِيَالِي كَتَبُوا إِلَيَّ بِحُسْنِ صَنِيعِ قُرَيْشٍ إِلَيْهِمْ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُجَازِيَ قُرَيْشاً بِحُسْنِ مُعَاشَرَتِهِم»[3].

وفي رواية أخرى، قال رسول الله ﷺ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فقال: يارسول الله! والله ما كفرت مذ أسلمت، ولا غششتك مذ نصحتك، ولا أحببتهم مذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته، وكنت عريرا (أي غريبا) وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن اتخذ عندهم يدا، وقد قلت: إن الله ينزل بهم بأسه، وإن كتابي لا يغني عنهم شيئا، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره»[4] فانزل الله عز وجل على رسول الله ﷺ [5]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ والولي هو الذي يجعله الإنسان أولى به من سائر الناس بحبه وصلته وطاعته، وإنما ينهى الله المؤمنين عن تولي الأعداء من المشركين والكفار، لأن ذلك يناقض توليه عز وجل الذي يقتضي البراءة من أعدائه حيث لا يحتمل القلب الواحد ولاءين متضادين، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ

(١) بحار الأنوار: ج٢١ ص٩٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٢١ ص٩٢.
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص٣٦١، بحار الأنوار: ج٢١، ص١١٢.
(٤) بحار الأنوار: ج٢١ ص٩٢.
(٥) تفسير القمي: ج٢ ص٣٦١.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ولم يقتصر القرآن على بيان عداوة أولئك لله، بل أثبت عداوتهم للمؤمنين، مع أن المحور هو العداوة لله، وأن كل عدو له هو عدو للمؤمنين به، وذلك ليؤكد عداوتهم العملية والمباشرة لهم، والتي تظهر في مواقفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية من المؤمنين، كإخراجهم الرسول ﷺ والمؤمنين من بلادهم والمشار إليه في الآيات: (١، ٨، ٩)، فإن العدو لله عدو للمؤمنين، ولكنه قد لا يجد سبيلاً للتعبير عملياً عن عداوته لهم، إنما يحفظها ضغائن في صدره. والمؤمن قد يُلقي بالمودة للأعداء نتيجة العواطف أو الانهزام النفسي تجاههم، وسواء هذا أو ذاك فإنه نوع من الضعف النفسي الذي ينبغي التعالي عنه. ولعل الباء في قوله: ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ جاءت بمعناها الحقيقي على أن يكون المفعول لقوله: ﴿تُلْقُونَ﴾ متروكا ليفيد الإطلاق، فلا يجوز إلقاء أي شيء بسبب المودة، فلا يجوز السلام بالمودة، ولا الكلام بالمودة، ولا التعاون بالمودة، ولا أي شيء آخر بالمودة، بل؛ قد يجوز كل ذلك للضرورة أو المصلحة، وليس بالحب والمودة، والله العالم.

ولكن لماذا كل ذلك؟ للأسباب التالية:

أولاً: الصراع المبدئي بينكم وبينهم.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ فهم لا يعترفون بالأمة الإسلامية وحقها في الوجود، لأن الاعتراف بأي مجتمع يبدأ من الاعتراف بقيمه ومبادئه وقد كفروا بها حينما كفروا بالرسالة الإلهية ولا ريب في أن هذا اللون من الكفر ينطوي على التحدي والعداء، بل هو استهزاء بمقدسات المؤمنين، فهل يصح بعدئذ للمؤمن أن يوادهم؟ كلا..

ثانياً: محاربتهم للقيادة الرسالية وللمؤمنين، عداوة لله، وترجمة عملية لصراعهم مع الحق.

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ إنهم لا يريدون إلا الباطل الذي يبرر وجودهم، ويوصلهم إلى شهواتهم، وهذا هو السبب لمحاربتهم المؤمنين، وليس ما تعكسه وسائل إعلامهم من ضلالات يبررون بها بغيهم وفسادهم، وليس بالضرورة أن يبادر الظلمة إلى اعتقال المؤمنين وطردهم من بلادهم مباشرة، إنما يصطنعون أجواء الكبت والإرهاب التي تضطرهم إلى الهجرة. وتسال: لماذا يلجأ الظلمة على مر التاريخ لإخراج المؤمنين من بلادهم؟ والجواب: لأنهم يخشون أن يستجيب المجتمع لمبادئهم الحقة، ويتبع قيادتهم، وينتمي إلى تجمعهم، وبالتالي يصيرون بديلا عن أنظمتهم الفاسدة وقيادتهم. ولا ينبغي للمؤمن الذي

يريد الله له العزة وبالذات من تعرض لأذى الكفار والظلمة كالتهجير والاعتقال أن ينسى جراحه، ويود عدوه.

ثالثاً: لأن موادتهم نقيض لأهم قيمتين عند المؤمنين وهما الجهاد في سبيل الله، وابتغاء مرضاته. بلى؛ الجهاد لإعلاء كلمة الله، وتحرير البلاد والعباد من ربقة الجبت والطاغوت هو صبغة العلاقة بين المؤمنين وأعداء الرسالة، وهو بحاجة إلى الشدة منهم، في حين أن حبهم وتوليهم يفرغ الجهاد من هذه الروح، ثم لماذا موادتهم وتوليهم، هل لنيل رضاهم فإن ذلك لا يرضي الله عز وجل؟ لأن السبيل إلى رضاه باتجاه مناقض تماما لسبيل رضا أعدائه، كما تشير الآية إلى ذلك في نهايتها.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ وينطوي هذا المقطع على بيان عميق لمعنى الهجرة في سبيل الله عز وجل في مفهوم القرآن، حيث تعني الانقطاع التام عن الأعداء، وهجرتهم ماديًّا ومعنويًّا أوليس مقياس المؤمن هو الدين، يحب عليه، ويبغض عليه، حتى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ مَنْ لَمْ يُحِبَّ عَلَى الدِّينِ ولَمْ يُبْغِضْ عَلَى الدِّينِ فَلَا دِينَ لَهُ»[1].

وحيث يريد الله أن يستخلص قلوب المؤمنين له وحده نهاهم بصورة غير مباشرة حتى عن مجرد المودة الخفية التي يلقيها إليهم بعيدا عن علم الآخرين، وذلك ببيان إحاطة علمه بها.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ وعبثا يظن بعض الناس بأن موادة الأعداء تصير به إلى مصلحة حقيقية في الدنيا أو في الآخرة، كلا..

﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ يعني النهج والطريق السليم الذي يوصل الإنسان إلى أهدافه ومصالحه، فإن ذلك في اتباع كتاب الله وتولي أوليائه، وليس في موادة أعدائه.

[٢-٤] ويبين القرآن كيف أن من يواد الأعداء أو يتولهم يضل سواء السبيل:

أولاً: لأن موادتهم لا تغير شيئا من عدائهم المبدئي للمؤمنين ولدينهم، فلربما تظاهروا بحب المؤمنين ولكنهم يكنون العداء لهم، ويستهدفون القضاء على الحق وأهله، فهم لو غلبوا المؤمنين أذاقوهم ألوان العذاب.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ والآية توحي بأن الكفار يسعون للتسلط على المؤمنين والظفر بهم، وأنهم إنما يتظاهرون بقبول المودة ما دام المؤمنون نِدًّا لهم في القوة أو أقوى منهم،

---

(١) الكافي، ج٢، ص١٢٧.

أما لو انعكست الموازين لصالحهم فلن يدَّخروا جهدا في إبداء الحقد والعداوة.

﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ يعني بألوان الأذى المادي كالقتال والتنكيل، والمعنوي كالحرب الإعلامية، وقد نزلت هذه الآيات في المدينة بعدما قويت شوكة المؤمنين، لذلك يفترض تعالى تمكن المشركين منهم افتراضا، ويعزز صدق قوله عز وجل أنهم أخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين من قبلُ من بلادهم مكة حيث كانوا أقوياء.

كما أن الأعداء لا يعترفون بأن المؤمنين أمة مميزة، بل تجدهم يسعون إلى إعادتهم إلى ربقة الكفر ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ هكذا يكشف الوحي طبيعة الأعداء، ولعلنا نستفيد من الآية أن موالاة الكفار ومودتهم تنطوي على خطر عظيم قد يقع فيه من يفعل ذلك وهو الكفر بالله سبحانه.

ثانياً: ثم إن المؤمن الحق هو الذي يعتبر الإيمان بالآخرة والتفكير فيها حجر الزاوية في سلوكه، والصراط المستقيم ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو أن يقدم الإنسان على ما ينفعه في الآخرة، وليس نفع المؤمن ولاؤه للكفار إذ تتلاشى يومئذ كل الروابط غير الإيمانية.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ وهم أقرب الناس إلى الإنسان فكيف بالآخرين؟ والسبب أنه لا تبقى صلة بين الناس لأنها مُتأسِّسة على الإيمان بالله واليوم الآخر، أما الأخرى المصلحية والعاطفية فهي محدودة وتنتهي عند حدودها.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ وهنالك يتضح الانفصال الحقيقي بين المؤمنين والكافرين، وبين الأرحام، وبين الآباء والأولاد، ويحذر الله من طرف خفي من أن المناورة لا تنفع في الالتفاف على أحكامه وحكومته، كأن يود المؤمن أحدا من الكفار أو يتولاه ثم يبرر هذا الانحراف بأنه رحم أو ما أشبه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثالثاً: إن سواء السبيل هو خط الأنبياء والذين آمنوا، وقد تبرؤوا من أعدائهم وعادوهم، وبغضوهم لوجه الله، وقد ضرب أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام والمؤمنون معه المثل الأعلى في هذا الجانب فأصبحوا خير أسوة على امتداد الزمن، فإنهم لم يقطعوا حبل المودة والولاء عن الأبعدين وحسب، بل قطعوها عن أقرب الناس إليهم وهم قومهم وأرحامهم وآباؤهم.

لقد كان إبراهيم عليه السلام يتيما يحتاج إلى الحماية الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه لم يخضع لعمه آزر طمعا في شيء من ذلك، بل مضى قدما على نهجه الحنيف، فلم يتحدَّ الكفار اعتمادا عليه ولا على قومه، بل تحدى قومه بدءا من عمه، وتحدى كل الشرك بدءا من قومه، فأصبح

أسوة المؤمنين، وهكذا تتحول حياة الأنبياء أسوة حسنة للأجيال المؤمنة من بعدهم، ويتعزز دور إبراهيم عليه السلام والذين معه بوصفهم أسوة للمخاطبين بهذه السورة حينها ندرك ظرف نزولها في المدينة حيث تحولت الأمة الناشئة إلى مجتمع مستقل، وذي قوة لا يستهان بها، فإذا قسنا ذلك الظرف بما عاشه المؤمنون في عهد إبراهيم كانت المسافة عريضة، حيث قاطع إبراهيم والمؤمنون معه تلك الفئة القليلة المستضعفة مجتمع الشرك مقاطعة جذرية شاملة، فكيف يزعم البعض من مؤمني المدينة ومن كان مثلهم أن مقاطعة الكفر غير ممكنة؟! كلا.. أولئك أسوة لنا وحجة علينا.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ لماذا عبر القرآن الحكيم بهذه الصيغة مع تأكيد على شخص إبراهيم، وكان من الممكن أن يقول تعالى: (قد كانت لكم أسوة حسنة في المؤمنين على عهد إبراهيم)؟ ربما ليؤكد على دور القائد إبراهيم عليه السلام لأنه هو الأسوة أولا وإنما المؤمنون أتباع له، وهذا تأكيد من قبل الله على الدور الريادي للإنسان الفرد في التاريخ.

وهذا هو أبو الأنبياء عليه السلام والمؤمنون معه يعلنون موقفهم الحازم والراسخ تجاه قومهم المشركين وضد قيمهم الضالة، لم تثنهم قلتهم، ولم تلجئهم الضغوط إلى الركون والخضوع لهم.

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وبذلك تحدوا الأشخاص والمبادئ معا لما ينطويان عليه من الضلال، وكم يكون الأمر صعباً والتحدي مكلفا إذا كان المتبرئون هم الأقلية الضئيلة، ذلك أن العزلة عن الآخرين مكلفة حتى ولو كان من الأكثرية للأقلية، فكيف بالعكس؟! بلى؛ إنهم أعلنوا البراءة من قومهم، وهجروهم، واشتروا ألوان المحن بقيمة تحديهم، وصبروا على الحق، وهكذا ينبغي للإنسان الحر أن يختار طريقه، بعيداً عما يجد عليه قومه ومجتمعه، وبالذات المؤمن الذي يعتبر الحق هو المقياس الأول والأخير. ولعل القول: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ لا يعني مجرد الكلام، إنما يشمل كل ما من شأنه التعبير عن موقفهم وبراءتهم ماديًا ومعنويًا، فلقد أعلنوا بكل الوسائل براءتهم منهم..

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ فلا نؤمن بنهجكم في الحياة، ولا نتخذكم مقياسا لمعرفة الحق والباطل، والكفر بالباطل هو الوجه الآخر لولاء الحق، وقد أكد الله ذلك في قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويجب ألّا يكتفي المؤمنون بمجرد الكفر الباطن، إنما ينبغي ترجمة ذلك عمليًا في واقع الحياة، كما كان إبراهيم عليه السلام والمؤمنون معه.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ هذه هي الصورة الحقيقية والسليمة التي يجب أن تكون عليها علاقة المجتمع المؤمن بأعداء الله عز وجل، متمثلة في إعلان العداء على الاستمرار، لا تقطع ذلك عاطفة ولا شهوة أو مصلحة ﴿أَبَدًا﴾.

بلى؛ إذا اهتدى المشركون والضالون إلى الإيمان بالحق، لا يبقى بعدئذ مبرر لموقف البراءة (الكفر، إظهار العداوة والبغضاء)، ذلك أن المؤمن لا يعادي أحدا لعنصرية أو قومية أو بسبب أحقاد متوارثة أو مصالح متضاربة، إنما تقوده المبادئ في كل مواقفه، وكما يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في صفته: «قَدْ أَمْكَنَ الْكِتَابَ مِنْ زِمَامِهِ فَهُوَ قَائِدُهُ وَ إِمَامُهُ، يَحُلُّ حَيْثُ حَلَّ ثَقَلُهُ، وَ يَنْزِلُ حَيْثُ كَانَ مَنْزِلُهُ»[1].

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وهذا المقطع يفسر قوله تعالى في [الآية: ٧]: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ بأن المودة بين المؤمنين والأعداء تكون إذا آمن أولئك ونبذوا الأنداد والضلال أو سلّموا القيادة المؤمنين.

ثم يستثني القرآن لقطة واحدة من حياة إبراهيم عليه السلام يعالجها ويرفع ما حولها من غموض، فيقول: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ولهذه الآية تفسيران:

الأول: أن تكون هذه اللقطة من حياة إبراهيم عليه السلام مستثناة من عموم التأسي، فلا ينبغي لمؤمن أن يأتم به فيها. قال بعضهم ذلك، ويبرر بأحد الأمرين:

١- أن الله سبحانه قد خص بذلك إبراهيم عليه السلام وأمره به لأسباب يعلمها ولمدة محدودة، كما أجاز لنبيه صلى الله عليه وآله الزواج بأكثر من أربع، حيث إن إبراهيم عليه السلام لم يقف عند حدود الوعد بل استغفر له، قال تعالى يحكي عنه: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

٢- أو لأن القرآن يشير بعض الأحيان إلى التراجعات التي تحدث في حياة الأنبياء لكيلا يتحولوا إلى آلهة في نظر المؤمنين بهم وأتباعهم، بالذات وأن هناك سابقة في الاستغفار عند النبي نوح عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ٨٧.

الثاني: التفسير الذي نختاره حيث نعتبر اللقطة مما يتأسى به في حياة إبراهيم عليه السلام ولكن الوحي استثنى لإلفات الأنظار إلى هذه اللقطة وعلاجها، بالذات وأن فهمها الخاطئ قد يجر المؤمنين إلى سلوكات خاطئة في علاقتهم مع أعداء الله، كأن تكون مبررا لموادة الأرحام منهم وموالاتهم، فإن إبراهيم عليه السلام حينما وعد عمه آزر بالاستغفار واستغفر له لم يكن قد أظهر عداوته لله، إنما كان ظاهره الشرك الموروث، أو العداء الشخصي الموجه ضد إبراهيم نفسه، أو لعل آزر كان في بيئة الحنفية كما هي أسرة إبراهيم عليه السلام ولكنه انهار أمام ضغط المجتمع، وصار إلى الشرك شيئا فشيئا حتى تمحض في الضلال عن الحق والعداء لله ولإبراهيم عليه السلام، وإلا فالاستغفار للمشركين محظور حتى على الأنبياء، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣-١١٤].

من هذه الآية يظهر أن الاستغفار له قبل أن يتبين موقفه النهائي جائز، ويتأول إلى طلب هدايته، كما كان الرسول صلى الله عليه وآله يطلبها لقومه بقوله: «**اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[1]، أما إذا تبين موقف المشرك وأنه قد أصبح من أصحاب النار بجحوده وإنكاره فإن الواجب يومئذ البراءة منه بصراحة.

كما أن الاستغفار ليس بمعنى التحتيم على الله سبحانه حيث قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ ولم يكن إبراهيم عليه السلام والذين معه أقوياء وأشداء، حتى لا تكون البراءة بالنسبة إليهم تحدياً صعباً، إنما كانوا في غاية الضعف ماديًا، ولذلك جاروا إلى الله في لحظة البراءة، وأساسا الدعاء الحقيقي إنما ينطلق من الإنسان عند الإحساس العميق بالحاجة إلى العون ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ والإنابة هي الرجوع والاستغفار، وفي هذه الكلمة إشارة إلى أن المؤمنين لا يتركون الضلال والمجتمع الفاسد إلى الفراغ، إنما إلى بديل إيجابي هو الهدى وتجمع المؤمنين، فإن إبراهيم والذين معه تبرؤوا من قومهم المشركين ليرجعوا إلى ربهم، وذلك يوحي بأن الذي يهجر مجتمعا منحرفا بحاجة إلى التطهر بالتوبة إلى ربه، والرجوع إلى صراطه المستقيم، ونهجه القويم في الحياة..

وبعد التوكل على الله والعودة إليه يجب على المؤمن أن يكمل ذلك بالتسليم المطلق لإرادته، والقبول بما يرضاه له ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

[٥] ولكن لا يعني ذلك ألّا يسأل المؤمنون ربهم السلامة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٢٩٨.

﴿كَفَرُوا﴾ أي موضع ابتلائك لهم، كناية عن أذاهم للمؤمنين، فإنهم إذا تمكن الكفار منهم عذبوهم، وأظهروا تجاههم عداوتهم للحق، كما صنع الظلمة بأصحاب الأخدود.

وتبقى نفوس الصالحين توّاقة إلى التوبة ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا الوله إلى التوبة ينطلق من شعورهم بالتقصير في جانب الله عز وجل، وعدم بلوغهم حد الإشباع في التسليم له. ومن الناحية الواقعية لا يضمن المؤمن عدم الوقوع في الأخطاء مئة بالمئة، لذلك يجعل التوبة ذريعة لتصحيحها واتقاء سلبياتها.

أما نهاية الآية فهي غاية في أدب الدعاء حيث لا يصح أن يحتم الداعي على ربه ما يريد، إنما يدع الإجابة رهن مشيئته، فإن شاء استجاب لهم بعزته، وإن شاء لم يستجب لهم بحكمته، فإنه قادر على نصرة المؤمنين ومنع الكافرين عن أذاهم بعزته، كما أنه قد يجعلهم فتنة للكافرين بحكمته. وليس من تناقض بين حكمة الله وعزته. والمؤمن الحقيقي هو الذي يسلّم مصيره لربه مهما كان قضاؤه.

[٦] وفي خاتمة الدرس يؤكد القرآن دعوته للاقتداء بإبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه، ليكشف لنا أهمية التبري من المشركين، وضرورة الأسوة في مسيرة الإنسان المؤمن.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فليس المهم أن يختار الواحد أسوة في الحياة وحسب، بل الأهم أن ينتقي أحسن الأسوات وسنامها ليقتدي بها، وإبراهيم والمؤمنون معه خير أسوة لمن أراد البراءة الحقيقية من أعداء الله، ولكن دون التأسي بهم ألوان التحديات والمصاعب التي تحتاج مقاومتها إلى الإرادة الصلبة والاستقامة، وكل ذلك يستمده المؤمن من إيمانه بربه وبالجزاء ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾ ناصراً يتوكّل عليه، ووليّاً يُنيب إليه، ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ حيث يلقاه وعنده يجد رضاه وما يرضيه من الجزاء والثواب، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ لا يحتاج إليه، ﴿الْحَمِيدُ﴾، وفي الآية إنذار مبطن لمن يتولى بأنه الذي يخسر، وليس الله سبحانه.

وكلمة أخيرة: إن صراع إبراهيم مع عمه آزر -والذي يشير إليه الوحي في بعض السور- لم يكن صراعاً شخصيًّا بين الأجيال، إنما كان صراع المبادئ، لذلك نجد أنه عليه السلام كان يودُّ بحلمه وقلبه الواسع لو يرى عمه مؤمناً، وهذه من اللقطات الحساسة في حياة الأنبياء عليهم السلام.

لا تتولوا قوما غضب الله عليهم

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا(١) عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ(٢) وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) ظاهروا: عاونوا وعاضدوا.

(٢) ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾: لا تمسكوا بنكاح الكافرات، وأصل العصمة المنع، وسُمّي النكاح عصمة لأن المنكوحة تكون في حبال الزوج وعصمته.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس ترسم الآيات الكريمة المنهج السليم للعلاقة بين المؤمنين والكفار، وإنما قدم الله التأكيد على ضرورة المقاطعة، والتأسي بخليله إبراهيم عليه السلام لأنها الأصل، وهنا ينثني السياق لعلاج الموضوع في بعض تشعباته الأخرى.

فبعد أن يؤمل المؤمنين الذين صمدوا أمام الرغبة الجامحة في تولي الكفار أو مودتهم، وصبروا على الضغوط المتواصلة من قبلهم، يؤملهم بالعاقبة الحسنى، المتمثلة في تحطيم عناد الكفار على صخرة الصمود فينهزمون، وهنالك يسمح لهم بإقامة العلاقات الاعتيادية، ثم ينهى عن أي لون من الولاء للمحاربين منهم، سواء الذين يحاربون مباشرة، أو الآخرين الذين يعينون على محاربة الحق وأهله، وَيَعُدُّ من يتولاهم ظالما. وفي الآيتين (الثامنة والتاسعة) دلالة واضحة حتى على حرمة البر والإقساط لهم. وإلى جانب هذا التفريق بين الصنفين (المحاربين والمسالمين) هناك موقف واحد من قبل الإسلام تجاههما في الحقل الاجتماعي والأسري، وبالتحديد في موضوع هجرة المؤمنات إلى الإسلام والمجتمع المؤمن، فإنه لا يعتبر ولاية الزوج عقبة في قبول هجرتهن إذا تبين منهن الصدق، بل ويحرم على المؤمنين إرجاعهن لأزواجهن الكفرة، وهذا لون من الحماية التشريعية والاجتماعية، فإنه ليست للكافر الولاية على المؤمنة، كما لا يجوز للمؤمن أن يتزوج الكافرة بالأصل أو بالردة، ويبيح الدين الزواج من الكافرات إذا آمَنَّ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

ولكن لا تضيع في هذا المجال الحقوق المالية، إنما يحفظها الإسلام حتى للكفار حيث يقرر لكل ما أنفق. للكافر الذي أسلمت زوجته، وللمؤمن الذي كفرت زوجته، وذلك شاهد عدل الله وحكمته.

بينات من الآيات:

[٧] ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ أي تتحول العلاقة بين الفريقين من العداء إلى المودة، إما بدخول أولئك الإسلام، أو بتحولهم من حالة المحاربة إلى حالة السلم، فالإسلام إذن لا يحارب الكفار بوصفهم عنصراً إنما يحاربهم لموقفهم السلبي من الحق وأهله، ونهتدي من الآية الكريمة إلى فكرتين:

الأولى: أن السلام الذي ينشده الإسلام هو السلام المدعوم بالقوة والعزة، لذلك يدعو أتباعه لمقاطعة العدو وتحديه حتى يسلموا أو يستسلموا، ذلك لأن الخضوع له ليس سبيلا

إلى الإسلام الحقيقي الدائم، وإنما المقاطعة التي تكشف عن العزة الإسلامية وسيلة لفرض الإسلام.

الثانية: أما كيف يتحول عداء الكفار إلى مودة للمؤمنين، فإن الإنسان حينما ينبهر بقوة قاهرة يشعر بالود تجاهها، حتى لقد ثبت في علم النفس الاجتماعي أن الشعوب المغلوبة تود القوى القاهرة، وتقلدها في الأفكار والسلوكات في الغالب، وحيث كانت القوة في بادئ الأمر للكافر كان يخشى أن يميل المؤمنون إليهم بالمودة ميلا، وبالذات لأن فيهم الأرحام والأقارب، أما إذا تحول ميزان القوى لصالح المسلمين بالغلبة والقوة فإن المودة ترتجى أن تكون من قبل الكفار لهم، ولعل التعبير بـ ﴿مِّنْهُم﴾ يشير إلى ذلك.

و ﴿عَسَى﴾ هنا تفيد الرجاء القريب، مما يحيي روح الأمل بالله في النفوس المؤمنة، ويلاحظ أن القرآن يعبر بـ(عسى) و(لعل) في مواضع كثيرة، دون أن يقطع ويحتم، مع أن كثيرا من الأمور هي واقعة في علم الله، وذلك يهدينا إلى أن الطبيعة ليست جامدة، وإنما تخضع لأمرين:

١ - المشيئة الإلهية.

٢ - إرادة الإنسان.

ولم يحتم ربنا نصر المؤمنين، وتحوُّل ميزان القوى لصالحهم في المستقبل حتى لا يتواكلوا، أو ينتظروا الإرادة الإلهية تغير الأمور بوحدها.

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على صنع ذلك فيستسلم المشركون لأوليائه أو يهديهم إلى الإسلام، فتعود المودة بين الفريقين ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن غريب ما قاله المفسرون في هذه الآية هو تأويلهم لها في أبي سفيان، بأنه من المعنيين بقوله تعالى: ﴿ ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾، مع أن الآيات نزلت قبل فتح مكة، قبل أن ينطق أبو سفيان بالشهادتين فكيف أصبح مصداقا للآية؟!.

[٨] ويحدد لنا القرآن الموقف المطلوب تجاه المسالمين من الكفار -الذين لا يحاربوننا ولا يؤذوننا- حيث يبيح التعامل معهم إنسانيًا على أساس البر والقسط، فيقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ لأنهم مسالمون، ويجمع المسلمين معهم إطار الإنسانية، وهذا يعني أن الإسلام دين السلام، فهو لا ينشد الحروب والعداوات بذاته، إنما دعوته للتبري والمقاتلة تكون موجهة ضد الكفار المحاربين، وقائمة على

أساس موقفهم السلبي ضد الدين وأتباعه.

والبر عموم الإحسان، ومنه التواصل، وتبادل الاحترام، ومقابلة الإحسان بمثله، أما القسط فقد قيل: هو اقتطاع بعض المال وإعطاؤه لهم قرضا أو غيره. والأظهر أنه العدالة الظاهرية والباطنة التي هي أسمى درجات العدل[1] وهذا الحكم الإلهي يبين كيف أن مجرد الكفر واعتناق المبادئ المغايرة للدين ليس وحده مبررا لاستباحة حرمة الإنسان ماله وعرضه ونفسه حيث أن الكفار لا يساوق هدر الحرمات والحقوق، وإنما هو العداء، وفي نهاية الآية يحث ربنا على الإقساط إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ويريد للمؤمنين به أن يكونوا كذلك، ولعل قوله: ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ تخصيص للقسط بالذات على وجه الترجيح له على البر. وحيث يبيح ربنا هذا اللون من العلاقة مع الكفار المسالمين فإنه لا يفرض قيدا محددا على المؤمنين، وذلك يعني أنهم (قيادة، ومجتمعا) هم الذين يُشخِّصون الموقف، وطبيعة العلاقة المطلوبة حسب متغيرات الواقع. وقد جاء في الأثر: «أن أسماء بنت أبي بكر سألت النبي ﷺ: هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال ﷺ: نَعَمْ»[2].

[٩] ويعود السياق ليؤكد الأمر بالمقاطعة وينهى عن التولي: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ بالتحالف مع الأعداء المحاربين، أو إعانتهم بأية صورة ووسيلة، فإنه محرم عليكم أن تتولوهم أو تبروهم، ومن يتولهم يشاركهم في كل ظلم يصل إلى المؤمنين من قبلهم، وينال العذاب من عند الله، ويجب على المؤمنين في الدنيا احتسابه من الجبهة المعادية، والوقوف منه كموقفهم من الظالمين أنفسهم ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وبالمقارنة بين الآيتين (الثامنة والتاسعة) نتوصل إلى التالي:

١- أن إباحة البر والقسط تجاه غير المحاربين من الكفار، وعدم تعرض الآية لذكر التولي لا يعني أنه سائغ، كلا.. إنما يعني أن حد الإباحة هو البر والقسط دون التولي.

٢- أن مجرد البر والإقساط للكفار المحاربين محرم على المؤمنين، ولكن لماذا؟.

أولاً: لأن القسط ليس ضروريًا مع المحاربين، لأن دمهم ومالهم حلال. أوليس يستحلون ذلك منا؟.

ثانياً: أن القسط هنا ليس بمعنى العدالة إنما هو فوقها، وهو في الحقوق يشبه الإيثار

(١) مر كلام مفصل حول العلاقة بين العدل والقسط في سورة الحجرات.

(٢) تفسير القرطبي: ج١٨، ص٥٩.

في الأخلاق، ولذلك كان حكمه الإباحة (لا ينهى) حتى مع المسالمين، أما العدالة فهي واجبة تجاههم (أي غير المحاربين)، ومثل هذا التعامل غير مناسب مع المحاربين، حتى ولو كانت العدالة واجبة تجاههم في بعض الجوانب.

[١٠] ويمضي بنا السياق شوطا آخر في الحديث عن ضرورة التمحض في العلاقات الإيمانية فيبين أن الصِّلات الزوجية لا ينبغي أن تكون حاجزا دون الولاء الإيماني، لأنه أسمى من كل علاقة، وهو يفصل بين المؤمنة وزوجها الكافر، كما يفصل بين المؤمن وزوجته الكافرة، بالرغم من أن أكثر الناس يزعمون أن الزوجة تابعة لزوجها في كل شيء حتى في دينها وولائها، في حين يؤكد القرآن استقلالها في القضايا المتصلة بمصيرها، فلا يحق لها أن تبقى رهينة إرادة الزوج الكافر لو اختارت الإسلام عن وعي وقناعة، ولا يجوز للمؤمنين أن يرفضوها أو يرجعوها إلى زوجها فإنها حرام عليه، إذ لا ولاية لكافر على مؤمن ولا على مؤمنة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ بهدف معرفة صدق نواياهن وخلوصها عن أي هدف مادي، كأن تكون الواحدة قد هاجرت هربا من العصمة الزوجية أو طمعا في مؤمن، وتأتي أهمية الامتحان من أن المجتمع المؤمن ينبغي أن ينتقي أفراده انتقاء، وبالذات عندما يواجه التجمع الإيماني محاولات التسلل والاختراق من قبل أعداء الدين، أما كيفية الامتحان فإن القرآن لا يحددها، بل يترك الأمر للمؤمنين أنفسهم يجتهدون على أساس معطيات الظروف، ولكن يجب ألّا يدفعهم ذلك إلى الظن السيء، أو التمنع من قبول انتماء الآخرين إلى صف المجتمع المؤمن بحجة الخوف من الاختراق مما يسبب في حالة الانطواء والانغلاق، فإن الشخصية الواقعية للناس لا يعلمها إلا الله.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ فإنهن إذا خدعن المؤمنين فلن يخدعن الله، وهكذا يجب أن يأخذن الامتحان الإلهي بعين الاعتبار، وربما ظنت الواحدة منهن أنها قادرة على اللعب على المؤمنين فهل تفلت من عدالة الله أيضا؟ كلا.. وإنما يجب على المؤمنين الاجتهاد والحكم على أساس المعطيات العلمية الممكنة.

أما عن كيفية امتحان الرسول لهن فقد جاء في مجمع البيان قال ابن عباس: «صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة على أن من أتاه من أهل مكة رده عليهم، ومن أتى أهل مكة من أصحاب رسول الله ﷺ فهو لهم ولم يردوه عليه، وكتبوا بذلك كتابا وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية مسلمة بعد الفراغ من الكتاب والنبي ﷺ بالحديبية فأقبل زوجها مسافر من بني مخزوم -وقال مقاتل هو صيفي بن الراهب- في طلبها وكان كافرا، فقال: يا محمد اردد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة

الكتاب لم تجف بعد، فنزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ من دار الكفر إلى دار الإسلام ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس: امتحانهن أن يستحلفن ما خرجن من بغض زوج ولا رغبة عن أرض إلى أرض ولا التماس دنيا ولا خرجت إلا حبًّا لله ولرسوله، فاستحلفها رسول الله ﷺ ما خرجت بغضا لزوجها ولا عشقا لرجل منا وما خرجت إلا رغبة في الإسلام، فحلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك فأعطى رسول الله ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها عليه، فتزوجها عمر بن الخطاب، فكان رسول الله يرد من جاءه من الرجال ويحبس من جاءه من النساء إذا امتُحِنَّ ويُعطي أزواجهن مهورهن.

وقال الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء ولم يجر للنساء ذكر، وإن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخواها إلى المدينة فسألا رسول الله ﷺ ردها عليهما، فقال رسول الله ﷺ: إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء، فلم يردها عليهما. قال الجبائي: وإنما لم يجر هذا الشرط في النساء لأن المرأة إذا أسلمت لم تحل لزوجها الكافر فكيف تُرَدُّ عليه وقد وقعت الفرقة بينهما»[1].

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ بعد الامتحان فحينئذ لا يجوز ردهن لأنه لا مبرر لذلك، ولأن المجتمع المؤمن ليس حكرا على أحد دون أحد ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

والسؤال: لماذا ذكر الحرمة من الطرفين مع أن نفيها من جهة يفيد نفيها من الجهة الثانية؟.

والجواب: لعل الحلية هنا بمعناها الأول وهو الانسجام الذي يعتبر هدفاً وشرطاً أساسيًّا في الزواج، ومراد الآية الكريمة تأكيد انعدامه ليس من طرف واحد بحيث يمكن علاجه والصبر عليه، بل من الطرفين معا مما لا يمكن علاجه أبدا.

وحيث تَبِينُ المؤمنة من زوجها الكافر يتحمل المؤمنون إعطاءه ما أنفق عليها، لأن المهر ليس موضوعا للوطء الأول بل للعلاقة المستمرة الدائمة، وحيث خسرها بغير إرادته يجب أن يُعوَّض، ولعل التعويض منصرف للكافر غير المحارب، أو في حال الهدنة، وهذا من صميم العدالة في الإسلام. وفي إيتاء الكفار ما أنفقوا قيمة معنوية هي ألّا تبقى لكافر يد على مؤمن أو مؤمنة.

وتعويض الزوج الكافر يتحمله بيت مال المسلمين، ولذلك جاء الخطاب موجها

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٤٥٢.

للمؤمنين عامة، وهو يحلل المرأة المؤمنة من زوجها الكافر فقط، وليس يجعلها حلاً للمؤمنين إلا إذا أعطوا لها المهر ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وكما تحرم المؤمنة على الكافر كذلك تحرم الكافرة على المؤمن، سواء بالأصالة أو بالردة لما في ذلك من آثار سلبية على حياة المؤمن وتربية الأولاد... الخ.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ والفقهاء استفادوا من هذه الآية حكما قاطعا بحرمة الزواج من الكافرة، أو الاستمرار في الزواج عند إسلام الزوج دون زوجته. وقد طلق المسلمون زوجاتهم المشركات بعد نزول الآية، وهكذا تنفصم العصمة التي كانت بينهما، لأن عصمة الإسلام من عصمة النكاح.

والسؤال: هل الآية تشمل أهل الكتاب فتكون ناسخة للآية التي نزلت في سورة المائدة، وهي قوله سبحانه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥]؟.

قال بعضهم: بلى، واستدلوا ببعض الأحاديث المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وأبرزها الحديث الموثق التالي المأثور عن ابن الجهم قال: «قَالَ لِي أَبُو الحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ يَتَزَوَّجُ نَصْرَانِيَّةً عَلَى مُسْلِمَةٍ؟ قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ ومَا قَوْلِي بَيْنَ يَدَيْكَ. قَالَ عليه السلام: لَتَقُولَنَّ فَإِنَّ ذَلِكَ يُعْلَمُ بِهِ قَوْلِي، قُلْتُ: لَا يَجُوزُ تَزْوِيجُ النَّصْرَانِيَّةِ عَلَى مُسْلِمَةٍ ولَا غَيْرِ مُسْلِمَةٍ، قَالَ عليه السلام: ولِمَ؟، قُلْتُ: لِقَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾. قَالَ عليه السلام: فَمَا تَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؟. قُلْتُ: فَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ نَسَخَتْ هَذِهِ الآيَةَ فَتَبَسَّمَ ثُمَّ سَكَتَ»[1].

وهناك روايات أخرى مشابهة، وفي كثير منها الإشارة إلى أن آية الممتحنة قد نسخت آية المائدة، مما جعل العلامة الشيخ حسن النجفي -صاحب موسوعة جواهر الكلام- يجد مأخذا عليها بقوله: «إن التحقيق: الجواز مطلقا (أي جواز نكاح أهل الكتاب بصفة مطلقة) وفاقا للحسن والصدوقين على كراهية متفاوتة في الشدة والضعف. (وأضاف): كما أومأت إلى ذلك كله النصوص التي ستسمعها لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾.. إلى آخرها التي هي من سورة المائدة المشهورة في أنها محكمة لا نسخ فيها»[2].

وساق طائفة من النصوص التي تدل على أن هذه السورة هي آخر سورة نزلت وهي

---

(١) الكافي: ج٥ ص٣٥٧.

(٢) جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام: ج٣٠، ص٣١.

محكمة لا نسخ فيها، منها حديث مأثور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المائدةُ آخِرُ القُرآنِ نُزُولاً فَأَحِلُّوا حَلَالَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا»(١).

ثم ساق طائفة كبيرة من النصوص عن أئمة أهل البيت عليهم السلام واستدل بها على أن نكاح أهل الكتاب جائز ولكنه يصبح مرغوبا عنه ومكروها في حالات معينة، مثل صحيح ابن وهب المروي في الكافي والغنية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «سَأَلْتُهُ عَنِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ يَتَزَوَّجُ اليَهُودِيَّةَ والنَّصْرَانِيَّةَ؟، فَقَالَ عليه السلام: إِذَا أَصَابَ المُسْلِمَةَ فَمَا يَصْنَعُ بِاليَهُودِيَّةِ والنَّصْرَانِيَّةِ، قُلْتُ: يَكُونُ لَهُ فِيهَا الهَوَى؟، قَالَ عليه السلام: فَإِنْ فَعَلَ فَلْيَمْنَعْهَا مِنْ شُرْبِ الخَمْرِ وأَكْلِ لَحْمِ الخِنْزِيرِ واعْلَمْ أَنَّ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ فِي تَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا غَضَاضَةً»(٢).

ويبدو من هذه الرواية تأويل سائر الروايات على الكراهية، لا الحرمة.

وكما يُلزم الإسلام المؤمنين بإيتاء الكفار ما أنفقوا على زوجاتهم اللائي آمَنَّ فإنه يعطي للمؤمنين الحق في المطالبة بما أنفقوا على زوجاتهم اللواتي يكفرن.

﴿وَسْئَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وما دام ذلك حكم الله وليس حكم أحد من البشر فهو يجب التقيُّد به تقيُّداً توقيفيًّا، فكيف وقد وضعه الله العليم الحكيم ورب العالمين، ولا ينبغي أن يدفعكم بغضكم للمشركين وعداؤكم المبدئي إلى تجاوز حقوقهم العادلة.

[١١] ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ ولهذه الآية تفسيرات ثلاثة:

الأول: إذا تركت زوجاتكم دار الإسلام إلى دار الكفر، وأعقبتم الكفار بغزوة بعد أخرى حتى هزمتموهم وغنمتم منهم الغنائم، فأعطوا الذين تركتهم زوجاتهم من الغنائم، وهذا ما ذهب إليه أغلب المفسرين.

الثاني: إذا ﴿فَاتَكُمْ﴾ أي لم يعطكم الكفار ما أنفقتم على زوجاتكم اللاتي كفرن، فخسرتم ذلك، وعاملتموهم كما عاملوكم عقابا لهم فلم تُسلِّموا ما أنفقوا على زوجاتهم اللاتي هاجرن وآمَنَّ، فليس ذلك مسقطا للمسؤولية تجاه الذين فاتت زوجاتهم، بل يجب عليكم أن تعطوهم ما أنفقوا عليهن من مال المسلمين.

---

(١) عوالي اللآلي: ج٢، ص٦.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٣، ص٤٩٧.

الثالث: إن معنى التعاقب ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أراد الذي فاتت زوجته النكاح مجدداً، وفي ذلك جاء الحديث المأثور عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام فيما رواه يونس عن أصحابه، قال: «سَأَلْتُهُ عَنْ رَجُلٍ لَحِقَتِ امْرَأَتُهُ بِالْكُفَّارِ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾، مَا مَعْنَى الْعُقُوبَةِ هَاهُنَا؟ قَالَ عليه السلام: أَنْ يُعَقِّبَ الَّذِي ذَهَبَتِ امْرَأَتُهُ عَلَى امْرَأَةٍ غَيْرِهَا يَعْنِي يَتَزَوَّجُهَا بِعَقِبٍ، فَإِذَا هُوَ تَزَوَّجَ امْرَأَةً أُخْرَى غَيْرَهَا فَإِنَّ عَلَى الإِمَامِ أَنْ يُعْطِيَهُ مَهْرَهَا مَهْرَ امْرَأَتِهِ الذَّاهِبَةِ، قُلْتُ: فَكَيْفَ صَارَ الْمُؤْمِنُونَ يَرُدُّونَ عَلَى زَوْجِهَا بِغَيْرِ فِعْلٍ مِنْهُمْ فِي ذَهَابِهَا وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَرُدُّوا عَلَى زَوْجِهَا مَا أَنْفَقَ عَلَيْهَا مِمَّا يُصِيبُ الْمُؤْمِنُونَ؟، قَالَ عليه السلام: يَرُدُّ الإِمَامُ عَلَيْهِ أَصَابُوا مِنَ الْكُفَّارِ أَوْ لَمْ يُصِيبُوا لِأَنَّ عَلَى الإِمَامِ أَنْ يُجِيرَ جَمَاعَةً مِنْ تَحْتِ يَدِهِ»[1].

وسواءً كان معنى (عاقبتم) حصلتم على الغنيمة عبر تعاقب الحرب مع الكفار، أو التقاضي من الكفار وعدم إعطائهم المهر، عقابا لهم لأنهم لم يدفعوا المهر، أو إرادة الزواج المجدَّد (زواجه الأول)، أقول: سواءً كان المعنى واحدا من الثلاثة فإن الذي فاتته زوجته إلى الكفار يحصل على مهره من بيت المال، وقد نقل المفسرون: «أن النبي دفع لستة من المسلمين مهر أزواجهن اللاتي عدن إلى الكفار»[2].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ من أن يدعي أحد بأنه أنفق على زوجته أكثر مما أنفق بالفعل لكي يستغل هذا القانون استغلالاً سلبيًّا، أو أن يستهين النظام الإسلامي بحقوق هذا الفريق فلا يؤتيهم ما أنفقوا، كما يأتي التأكيد على التقوى باعتباره المرتكز في التكافل الاجتماعي، فكلما كانت التقوى عميقة أصبح التكافل أكثر وأعمق.

[١٢] وفي سياق حديث السورة عن الولاء وعن أن الولاء المبدئي أعظم من الولاء للزوج أو الأرحام يبين السياق استقلالية المرأة في مبايعتها واختيارها للقيادة، فهي ليست كما يتصور بعض الرجال أو كما تظن بعض النساء تابعة للرجل في كل شيء، كلا.. إنما يحق لها بل يجب عليها أن تختار قيادتها بنفسها، وأن تظهر الولاء وتنشئ عقد الطاعة بينها وبين قيادتها، وهنا تشير الآية إلى أهم مفردات عقد البيعة مع القيادة الرسالية من قبل المرأة، والواجب التزامها بها.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ فلا يخضعن لسيادة غير السيادة الإلهية بالتسليم المطلق للأزواج والأقارب، إنما يجب أن يخلصن الولاء

(١) بحار الأنوار: ج١٠١، ص١٥.
(٢) راجع تفسير القرطبي: ج١٨ ص٧٠.

والطاعة للقيادة الرسالية وحدها، وهذا هو أصل الولاء، وهو التجلي الحقيقي للتوحيد في حياة الفرد، ولعل هذه البصيرة تهدينا إلى ضرورة مشاركة المرأة في الحقل السياسي انطلاقا من واجبها في إقامة حكم الله، ومناهضة قوى الشرك والضلال، وعليها أن تنتخب الولي الشرعي بمحض إرادتها وكامل حريتها.

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ من أزواجهن أو من أبناء المجتمع ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ ولعل هذين الشرطين موجهين بالخصوص للمهاجرات اللاتي تركن أزواجهن، لأنهن فقدن المنفق فقد تدعوهن الحاجة إلى السرقة، أو تضطرهن شهوة الجنس إلى الزنا، والآية بلفظها مطلقة تشمل كل امرأة مسلمة.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ معنويًا ولا ماديًا، ولعل الإجهاض من مفردات القتل المنصرفة إليها الآية الكريمة.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ وهاتان المفردتان تتصلان بموضوع الزنا اتصالاً مباشراً، فإن الزانية التي تتورط بالحمل تجد نفسها أمام خيارين: فإما تتخلص من عار الزنا بقتل حملها، وإما ترمي به أحدا بأنه اغتصبها، ولعل هذه الصفات (السرقة، والزنا، وإتيان البهتان) مما عرفت به المرأة في الجاهلية، كما أنها بصورة عامة من أبرز المفردات الخلقية والسلوكية التي يمكن أن تتورط فيها المرأة، وبالذات البهتان، فإن موقع المرأة الحساس في المجتمع المسلم يجعلها أمضى أثرا في النيل من شخصيات الآخرين وأعراضهم، كما أنها مرهفة الإحساس فقد تظن السوء في رجل نظر إليها من غير قصد.

وقد أجمع أشهر المفسرين على أن المقصود هو الحمل باعتباره يقع بين اليدين والرجلين، وبينهما ينشأ ويرتضع.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ بل يسلمن تسليما مطلقا للقيادة الرسالية، باعتبارها السلطة الشرعية والولي الأكبر في المجتمع المسلم، فلا يجوز للمرأة أن تجعل لأحد مهما كان (زوجها أو أباها أو أخاها) ولاية فوق ولاية قيادتها، أو أن تعصيها ولو في معروف واحد.

والمعروف هو عموم الواجبات والخيرات، قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «هُوَ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَمَا أَمَرَهُنَّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ»[1]، ولعلنا نستشف من قوله: ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ أن الولاية الحقيقية للقيادة واقعة في حدود ولاية الله، فلو أنها -جدلا- أمرت بغير المعروف لا يجوز اتباعها، بل يكون عصيانها هو الأولى، وهذا الأمر محتمل في غير القيادات المعصومة.

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٣٦٤.

وهذه المفردات التي يفرضها الإسلام شروطاً للبيعة مع القيادة الرسالية تظهر اهتمام الدين بالمرأة، باعتبار أن صلاح المجتمع متأسس على صلاحها. وإذا قبلت المؤمنات تلك الشروط والتزمن بها هنالك تبايعهن القيادة.

﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ واستغفار الرسول لهن الأخطاء السابقة والجانبية التي قد يتورطن فيها، وهذه الآية تعطي المعنى الحقيقي للهجرة بأنه ليس مجرد الانتقال من مجتمع إلى آخر صالح، أو الانفصال المادي عن المجتمع الضال، إنما هو التطهر من السلوكات المنحرفة التي كانت سائدة على المجتمع الضال، كالسرقة والزنا والبهتان و.. و.. التي تعرضت الآية لذكر أهمها.

[١٣] وفي ختام السورة يؤكد ربنا أمره بمقاطعة أعداء الله فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ إن محور الإنسان المؤمن هو رضا الله عز وجل، فهو لا يضع ولاءه إلا عند أهله، أما الذين يُسخطون الله بأعمالهم من الظلمة والضالين فإنه براء منهم. وقد تعددت أقوال المفسرين في بيان هوية المعنيين بـ ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فذهب أكثرهم إلى أنهم اليهود، لقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، وما ورد في تفسيرها وتأويلها من الأخبار، والذي يظهر أنهم كل من يعمل ما يستحق غضب الله، ولعلهم أناس من داخل المجتمع الإسلامي كالمنافقين والحكام الظلمة والعلماء الفسقة، وتشبيه الله لهم بالكفار يهدي إلى أنهم غير الكفار، بل هم الذين يحاولون السيطرة على مقاليد الحكم في البلاد الإسلامية بغير حق!.

سُورَةُ الصَّفِّ

* مدنيّة.

* عدد آياتها: ١٤.

* ترتيبها النزولي: ١١١.

* ترتيبها في المصحف: ٦١.

* نزلت بعد سورة التغابن.

فضل السُّورة

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الصَّفِّ وأَدْمَنَ قِرَاءَتَهَا فِي فَرَائِضِهِ ونَوَافِلِهِ صَفَّهُ اللهُ مَعَ مَلَائِكَتِهِ وأَنْبِيَائِهِ المُرْسَلِينَ إِنْ شَاءَ اللهُ».

(ثواب الأعمال: ص١١٨).

الإطار العام

استراتيجية التحرك الرسالي

ما هي صبغة التحرك الرسالي واستراتيجيته؟.

نستلهم من سورة الصف خمسة بصائر هي تحدد لنا ذلك:

أولاً: إن الحركة الرسالية ربانية الصبغة كما قال ربنا سبحانه: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، ولذلك فهي لا تخضع لأطر عنصرية أو إقليمية أو حزبية، إنما تتسامى إلى حيث المؤمنون كالجسد الواحد، يشد بعضهم بعضا.

وهذه الصبغة تتجلى في تسبيح الله تعالى في فاتحة السورة؛ فكل ما في السماوات والأرض يسبح لله وحده، فهو وحده القدوس، أما غيره فيستمد قداسته وشرعيته منه وبقدر قربه منه ومن قيم الوحي (الآية: ١).

ثانياً: انعدام المسافة بين النظرية والتطبيق، بين القول والفعل، لأن هذه هي مسافة المقت والفشل، وثغرة يتسرب منها النفاق إلى ضمير الحركة، كما يتسلل منها العدو إلى كيانها (الآيات: ٢-٣).

ثالثاً: الوحدة في الظاهر والباطن، كما البنيان المرصوص، لا ترى فيه فطوراً يذهب بصلابته، ولا خدشاً ظاهراً يجعل العدو يطمع في هدمه.(الآية: ٤).

رابعاً: التسليم للقيادة الإلهية المتمثلة في رسول الله ﷺ وأوصيائه عليهم السلام باعتبارها وسيلة إلى الله تعالى، ومحوراً لوحدة عباده المؤمنين (الآيات: ٥-٧).

خامساً: الجهاد في سبيل الله باعتباره يمثل حالة التحدي الشجاع لأعداء الرسالة.

ولعل الجهاد محور هذه السورة التي سميت لذلك بالصف، ولكن الحديث عنه يدور حول ثلاثة محاور:

ألف: أن يكون الجهاد تحت راية القيادة وبصف مرصوص، وهذا أهم المحاور الثلاث (الآيات: ٣-٧).

باء: أن الله يظهر دينه على الدين كله، مما يعطي المجاهدين الأمل، ويزودهم بروح النصر، كما يرسم لهم استراتيجيات المستقبل ألاّ يكون الجهاد ذا أهداف محدودة (الآيات: ٨-٩).

جيم: التحريض على الجهاد بما يوحي إلى ضرورة التفرغ له، حتى تتم الصفقة الرابحة بين العبد وربه (الآيات: ١٠-١٤).

يقاتلون في سبيله صفًّا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا[1] عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ[2] (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧)﴾.

هدى من الآيات:

إن الله ربنا محيط قدرة وحكمة بما في السماوات والأرض وكل ما فيهما يسبح له ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور ٤١]. فعلينا نحن البشر إن نصبغ حياتنا بصبغة الإيمان به، والتسليم له وأن نعدم المسافة بين القول والفعل (لأنها ثغرة النفاق)، وإنه لمقت (وهوان وبغض) كبير عند الله القول بلا فعل.

---

(١) مقتاً: المقت: البغض الشديد، ومقيت وممقوت: البغيض المبغوض.

(٢) مرصوص: الرص إحكام البناء، يقال رصصت البناء أي أحكمته، وأصله من الرصاص، أي جعلته كأنه بني بالرصاص لتلاؤمه وشدة اتصاله.

كيف نواجه فجوات النفاق في أنفسنا؟؛ بمثل القتال في سبيل الله. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله (وتتصف حركتهم القتالية بصبغة الإيمان فهي ليست أشرا ولا بطرا ولا طغياناً ولا عدواناً، وهو يكون) صفا (يوحد فئاتهم المختلفة تحت راية التوحيد، كما إنه يكون متينا في الباطن والظاهر؛ فإذا بالمقاتلين) كأنهم بنيان مرصوص.

(وقتالهم تحت راية التوحيد وبقيادة الأنبياء -ومن هم امتداد لهم- حيث يكون احترامهم للقيادة الربانية في القمة) وحين أذى بنو إسرائيل نبيهم وقائدهم موسى عليه السلام فإنه قال لهم لم تؤذونني وأنتم تعلمون إني رسول الله إليكم (وحينما شذوا عن مسيرة القيادة الربانية بإيذاءهم رسول الله وانحرافهم عنه) زاغوا، فأزاغ الله قلوبهم (لأنهم فسقوا عن أمر الله) والله لا يهدي القوم الفاسقين.

(ومثل النبي موسى عليه السلام، النبي عيسى عليه السلام جاء لقيادة قومه ولكنهم انحرفوا عنه واتهموه بالسحر) وكانت رسالة عيسى تصديقاً بالتوراة وتبشيراً بالقران وبالنبي محمد صلى الله عليه وآله وكانت مؤيدة بآيات بينات مثل إحياء الموتى) ولكن قومه كفروا وقالوا هذا سحر مبين.

(واليوم هذه رسالة الله التي أنزلت على النبي محمد) ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب (وهو يرفض دعوة النبي) ويدعى إلى الإسلام، والله لا يهدي القوم الظالمين (الذين يفترون على الله كذباً كالذين حرفوا دين الله الذي انزل على الأنبياء كموسى وعيسى عليهما السلام.

بينات من الآيات:

[١] كل شيء يُسبح لله تكوينيًا، ويسبِّحه بالقول. تكوينيًا لأن في كل شيء آية هادية إلى قدرته وعظمته وجلاله، فنقصه يهدينا إلى كمال خالقه، وحاجة بعضه إلى بعض تهدينا إلى صمدانيته، وأنه الذي يؤلف بين الأشياء ويزوجها ويكاملها.. وهو يسبحه بالقول ولكننا لا نعي ذلك لانعدام اللغة المشتركة بيننا وبين الطبيعة.

والتسبيح هو: البصيرة الأصيلة التي تنبثق منها سائر بصائر الوحي، وهو أعلى مراتب العرفان بالله، كما أن الجهاد أعلى درجات العمل، والقلب المسبح هو الذي يبعث صاحبه على الجهاد، ويجعله مقاتلا مصلحا في الأرض، يسعى بكل خير، لا مفسداً ولا أشراً ولا بطراً. والتذكير بتسبيح كل شيء يهدي الإنسان إلى أن عدم تسبيحه أو طاعته له عز وجل ليست معصية لأمره وحسب بل شذوذا عن سنن الطبيعة ومسيرتها.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وليس التسبيح يصنع منه إلها (كما هو الأمر بالنسبة للآلهة المزيفة التي يصنعها الناس بانبهارهم بها) بل هو بذاته إله لا يزيده تسبيح أحد

شيئا ولا ينقصه عدمه أمراً! لأنه لم يزل عزيزاً حكيماً ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تتجلى عزته وحكمته على مسرح الخلائق كلها، وفي ساحات الجهاد بالذات، ذلك أن نصره العزيز للمؤمنين به مظهر لعزته، أما حكمته فإنها تتجلى حين لا ينصر إلا من نصره واتبع نهجه.

[٢] وينهر السياق المؤمنين عن صفة من صفات النفاق ألا وهي الطلاق بين القول والعمل، وقد تساءل بعض المفسرين: كيف تخاطب المؤمنين وتنهرهم عن الازدواجية في النفاق؟ أوليسوا مؤمنين وتلك الحالة من صفات المنافقين؟!. بلى؛ بيد أن المؤمن لو لم يكن حذرا وقع في حفرة من حفر النفاق، وباستثناء الكاملين يحمل كل فرد (وحتى المؤمنين) بعض صفات النفاق، كالخلف، والكذب، وإذا ما بلغ الأمر إلى حد سيطرة هذه الصفات على مجمل حياته لحق بالمنافقين، وقبلئذ يبقى المؤمن يجاهد نفسه لتطهيرها من صفات النفاق جميعا. والتناقض بين القول والفعل، بين الشعار والواقع، هو من أسوأ ما يتورط فيه المؤمن، لأن ذلك يضعف شخصيته في المجتمع، وثقة الآخرين به، بل وثقته بنفسه أيضا، لذلك حذر الله منه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وكان هذا بعد واقعة بدر حيث عمّق النبي ﷺ حب الشهادة فيمن حوله، وبيّن مناقب الشهداء ومنازلهم في الجنة، فتمنى الشهادة بعض المسلمين - الذين لم يحسنوا إلا التمني- وقالوا: لو هيّأ الله لنا قتالا نُفرغ وسعنا فيه، ونبذل أرواحنا وأموالنا في سبيل الله، فنحصل على مراتب المجاهدين والشهداء، وسرعان ما حدثت واقعة أحد، فلم يفوا بما قالوا، إنما انهزموا وتركوا النبي في الميدان، فنزلت حينها هذه الآيات الكريمة.

ولعلنا نهتدي من الآية اللاحقة إلى أن بلوغ الإنسان درجة الاتحاد بين القول والفعل من أعلى رتب الإيمان، ومن أصعب الأعمال، وذلك يحتاج إلى سعي عظيم ومستمر. والجهاد الذي تحدثنا الآيات التالية عنه وترغّبنا فيه من أبرز مصاديق هذا السعي، وبالذات إذا كان تحت راية الوحدة.

[٣] وما أعظمها سيئة عند الله أن يقول المؤمن ما لا يفعل، بلى؛ لو صدر ذلك من المنافق فهو من طبعه، أما أن يدعي أحد الإيمان ثم يتلبس صفات النفاق فإنه يضع نفسه هدفاً لمقت الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ قال الراغب: «المقت البغض الشديد لمن تراه تعاطى القبيح»[1]، ويقابله الحب، ويبدو لي أنه البغض المقارن للاحتقار، ولا ريب أن الذين لا يحترمون كلمتهم وعهودهم ومواعيدهم و... يتخلفون ويذلون وتحتقرهم الدنيا، بل ويحتقرون أنفسهم. وهل تتخلف الأمم إلا بالعهود المنقوضة واختلاف القول عن العمل؟! ونحن ينبغي أن نبحث عن جذور تخلفنا، وأسباب انحطاطنا على ضوء هذه الآية الكريمة، والتي لا ريب نجدها في التمني البعيد عن العمل، والقول المجرد عن السعي، والعهد المنقوض، والوعد المُخْلَف،

(١) مفردات غريب القرآن: باب المقت، ص ٤٧٠.

واليمين الكاذب. وإذا أرادت الأمة الإسلامية أن تعود إلى عزها ومجدها، وتبني حضارتها، فلا بد أن تردم الفجوة بين ما تقول وما تفعل، بأن تنعكس قيمها على مجمل حياتها.

ولا شك أن مقت الله لمن يقول ما لا يفعل يزداد كلما عظم الأمر الذي ينقض فيه كلامه وعهده، وحيث إن عهد المؤمن بالتسليم للقيادة الرسالية هو أكبر المواثيق في الحياة بعد التوحيد فإنه يكون عرضة لأشد ألوان المقت الإلهي عند نقضه العهد معها. فلا غرابة إذن أن نقرأ تأويلاً لهذه الآية في غدير خم، لأنه أعظم المواثيق التي أخذها الله ورسوله ﷺ على المؤمنين إلى يوم القيامة.

والآية تعم كل مصداق للقول دون العمل به كالمواعيد، قال الإمام الصادق عليه السلام: «عِدَةُ الْمُؤْمِنِ أَخَاهُ نَذْرٌ لَا كَفَّارَةَ لَهُ، فَمَنْ أَخْلَفَ فَبِخُلْفِ الله بَدَأَ ولِمَقْتِهِ تَعَرَّضَ، وذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾»[1].

[٤] وهناك مثل أجلى للفجوة بين القول والفعل نجده في قضية القتال في سبيل الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ﴾ كل من يفي بوعده، ويقف عند كلمته، ولكن عندما تكون كلمة المؤمن في القتال من أجل الله، ثم يفي بها وفاء تاماً وكاملاً (بالقتال ضمن شروطه الشرعية) فإنه آنئذ فرداً وجماعة وأمة يكون موضع حب الله بصورة خاصة، وحب الله يعني توفيقه وكرامته لأهل حبه في الدنيا والآخرة ونصره لهم.

﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ وليس الذين يرفعون شعارات الجهاد وحسب. والقتال (الجهاد) قمة العمل الصالح حيث يعرض المؤمن نفسه لألوان المخاطر في سبيل ربه. ثم إن أحباء الله لا يقاتلون ليبلغوا مصالحهم وشهواتهم المادية، إنما يجاهدون مخلصين في إطار الحق ولتحقيق أهدافه النبيلة متمحضين لذلك، فلا ترى بينهم أدنى حقد ضد بعضهم، ولا ثغرة في جبهتهم الواحدة، إنما يقفون كما يصفهم الله: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فوحدتهم ظاهرة كالبنيان المتصل ببعضه، وهي حقيقية لأنها متينة في الواقع، فليست كأي بناء إنما كالبنيان المتماسك تماسكا متينا، وقيل: كالبنيان المبني بالرصاص. ولا تعني هذه الآية أنه لا يوجد أي اختلاف بين المؤمنين، لأن الخلاف طبيعي، ولكنه لا يتحول إلى صراع بينهم، ثم إنه يتلاشى عند ظروف التحدي فتراهم جميعا ينصهرون في بوتقة الوحدة لتصبح الجهود والطوائف والجماعات كلها أمة واحدة لا يجد الأعداء فيها ثغرة ينفذون منها. ويحث المؤمنين على التوحد صفًّا واحداً في القتال علمهم بمدى أثر عامل الوحدة واجتماع الجهود في ترجيح ميزان الصراع لمصلحة الحق. وليس من شيء يوحد الناس كما يوحدهم الوحي والإمام العامل به إذا سلّموا لهما، وهكذا يحدثنا السياق فيما يلي عن ثلاثة من أعظم أنبياء الله عليهم السلام.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٣٦٣.

[٥] إن شرط الانتصار أن يكون القتال صفًّا واحداً، وشرط الصف أن يكون القتال تحت راية القيادة الرسالية، وإنما يكون للقيادة اعتبارها العملي حينما يسلم لها المجتمع، لذلك فإن أعظم ما يمكن أن يلحق القيادة من الأذى هو عدم الطاعة لها، وهذا ما لقيه نبي الله موسى من قومه، وهم يعلمون أن نبيهم هو صاحب الولاية الشرعية من عند الله سبحانه وأن طاعته مفروضة عليهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ وهذا التناقض بين علم بني إسرائيل بضرورة التسليم للرسول، وبين موقفهم الفعلي حيث العصيان والأذى، هو صورة للازدواجية التي يمقتها الله عز وجل وقد حذر الله المسلمين منها، ولعل أوضح صورة لها تتمثل في قصة البقرة. وقد حذرهم موسى عليه السلام من عواقب هذا الانحراف لكنهم أصروا واستمروا فسلبهم الله الهدى.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وهذه نتيجة طبيعية لعصيان القيادة الرسالية، ذلك أن هدى الله يتجلى للناس عبر أوليائه والذي يحاربهم أو لا يسلم لهم لن يهديه الله أبدا. وإزاغة القلب تعكس مدى الضلال الذي وقعوا فيه، فهم في بادئ الأمر آذوه ولكن بقي في قلبهم علم بكونه رسول الله، أي أن سلوكهم العملي منحرف وهم على شيء من الهدى معنويًّا، ولكنهم حينما أصروا على الزيغ سلبهم الله تمام الهدى، وانطفأت البقية الباقية من شعلة الإيمان في قلوبهم، فصاروا كليًّا على الضلال والفسق.

[٦] ويؤكد القرآن حقيقة الخط الواحد في رسالات الأنبياء على لسان نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام، الذي أعلن لبني إسرائيل أنه يشكل امتدادا لرسالات الأنبياء، فقد سبقه موسى وسوف يلحقه محمد صلى الله عليه وآله، فهم صف واحد. وهكذا ينبغي أن تلتحم مسيرة المؤمنين بهم، ويجتمعوا تحت راية النبوة وقيادة من يحمل تلك الراية.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إذن ليس هناك أي تناقض بين الرسالات والقيادات الإلهية، إنما يكمل بعضها بعضا، فعيسى عليه السلام مصداق للقيم التي جاءت بها التوراة، ورسالته مصدقة لها، ولكن لا تعني التوراة تلك التي بين أيدي الناس اليوم فإنها محرَّفة، وقد لعبت بها أهواء اليهود الذين سرَّبوا إليها الثقافة العنصرية.

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وأحمد على صيغة أفعل فهو أحمد لله من سواه، قالوا: الأنبياء كلهم حامدون لله، ونبينا محمد أكثرهم حمدا، وقد نقلت الكلمة من صيغة (أفعل للتفضيل) إلى الاسم.

وبالرغم من أن يد التحريف امتدت إلى العهدين المقدسين عند اليهود والنصارى إلا أن

هناك إشارات لا تزال تشهد بأن عيسى عليه السلام قد بشّر بالنبي محمد.. ومنها النص التالي: «لكني أقول لكم الحق أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم (البيركلتوس)، ولكني إن ذهبت أرسله إليكم». ويقول: «إن لي أمورا كثيرة أيضا لا أقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية، ويمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم»[1].

علما بأن كلمة (البيركلتوس) تعني في اليونانية: الذي له حمد كثير مما يطابق كلمة أحمد، على أن الترجمة الحالية للإنجيل حرفوها إلى بارقليطا وترجموها بـ (المسلي)، في حين أن الأصل اليوناني الموجود غير ذلك.

وعلى أي حال فإن النصارى كذبوا به وبالإسلام مدعين التمسك بدين عيسى، كما سبقهم إلى ذلك اليهود بالعصبية لما في أيديهم من التوراة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ النبي صلى الله عليه وآله ﴿بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: «فَلَمْ تَزَلِ الأَنْبِيَاءُ تُبَشِّرُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله حَتَّى بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى المَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ فَبَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجِدُونَهُ﴾ يَعْنِي اليَهُودَ والنَّصَارَى ﴿مَكْتُوبًا﴾ يَعْنِي صِفَةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله ﴿عِندَهُمْ﴾ يَعْنِي ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ يُخْبِرُ عَنْ عِيسَى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وبَشَّرَ مُوسَى وعِيسَى بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله كَمَا بَشَّرَ الأَنْبِيَاءُ عليهم السلام بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ»[2].

[٧] والبشارة بالنبي صلى الله عليه وآله موجودة لدى أهل الكتاب لكنهم أنكروه ورفضوا التسليم لما جاء به حسدا من عند أنفسهم، فارتكبوا بذلك وزرين، وزر التكذيب بالدين والنبي الجديد، ووزر الافتراء بتمثيل الدين السابق لتبرير موقفهم من الحق ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ فهو إذن يحارب الدين باسم الدين، ويرفض الحق بالافتراء على الله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنه إنما يهدي الذي يسعى للهداية ويأخذ بأسبابها، أما الظالم الذي يفتري على الله الكذب فإنه يرفض اتباع الهدى فيضله الله.

---

(١) للتفصيل راجع تفسير الفرقان للدكتور الصادقي: ج٢٨، ص٣٠٦.

(٢) الكافي: ج٨، ص١١٧.

كونوا أنصار اللّه

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

هدى من الآيات:

مهما تكن للباطل من جولة فإن الدولة للحق، والنصر والفتح للمؤمنين المجاهدين وهم أنصار الله وجنده، ولكن هذه الحقيقة لا يمكن أن تحدث في الفراغ وبعيدا عن السنن الإلهية الحاكمة في الحياة، ومنها سنة الصراع ضد الكفر والشرك ومجاهدتها، فلا بد أن تنبري للحق فئة تقاتل في سبيل الله صفًّا، وتحت راية القيادة الرسالية، وتتاجر مع الله (تبيع نفسها وتشتري رضوانه والجنة والفتح)، كما فعل الحواريون الذين التفوا حول عيسى بن مريم عليه السلام ونصروا الحق فأصبحوا ظاهرين بإذن الله.

وحينما نتدبر آيات هذه السورة المباركة فإننا نجدها تعبق بشذا الولاية الإلهية، ففي

البداية كان الكلام عن الأذى الذي لقيه كليم الله من قومه، وربما كان ذلك الأذى متمثلا في رفضهم لأخيه ووصيه هارون عليه السلام لما استخلفه وذهب إلى مناجاة ربه، ثم عبادتهم للعجل رمز القيادة المنحرفة في المجتمع آنذاك، كما أن عيسى عليه السلام بشّر بقيادة الرسول صلى الله عليه وآله ولكن الكفار والمشركين من الناس رفضوا التسليم له، ثم إن القرآن يؤكد أن الله سوف يُتِمُّ نوره رغما على الكفار والمشركين الذين يسعون لإطفائه. ولا ريب أن القيادة الرسالية مشكاة نور الله ووحيه، والتي لا يحصل الإنسان على الكمال الإلهي إلا بالتسليم لها.

بينات من الآيات:

[٨-٩] ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ والنور لا يطفئه نفخ الإنسان عليه، فكيف إذا كان ينبعث من عند مليك السماوات والأرض. وهذا التعبير من بلاغة القرآن وبديعه في تقريب المعنى إلى ذهن المتدبر. وكلمة الأفواه يستخدمها القرآن للدلالة على الكلمات الكاذبة التي لا تنطلق من القلب ولا تملك رصيدا من الواقع، كالثقافات الجاهلية والدعايات المضللة التي تبثها أجهزة الإعلام الطاغوتية ضد الحق ورموزه وأتباعه.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في بيان مصداق النور الإلهي، فقال بعضهم: إنه الرسالة المتمثلة في القرآن وسائر كتب الله، وقال آخرون: إنه الرسول صلى الله عليه وآله، كما أوّلته بعض روايات أهل البيت عليهم السلام في الإمامة وصاحب الأمر عليه السلام، والذي يظهر لي أن الحقائق الكبرى تتواصل فيما بينها، فمثلا العقيدة بالتوحيد مبعث للعقيدة بالعدل، وهذه تبعثنا نحو الإيمان بالآخرة، وكل هذه الحقائق تتركز في الإيمان بالولاية، وهكذا يحدثنا الكتاب عن الحقائق الكبرى بلا فصل بينها ولا تمييز، مما نجد لها أكثر من مصداق، فمثلا عندما يأتي في القرآن ذكر لحبل الله أو نور الله فإننا نجد له أكثر من مصداق، فحبله كتابه، وكذلك القيادة التي تمثل امتداده في المجتمع، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، ولا يؤدي دوره العملي بتمامه من دونه، وهكذا فسّرنا قوله سبحانه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، بأنه الوحي الإلهي والقيادة التي تمثله، وهكذا أوضح الرسول صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين: «.. كِتَابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ...»[١]، وكذلك هنا لا يوجد أي تعارض بين أقوال المفسرين، فنور الله واحد ولكن له تجليات عديدة، فهو يتجلى في كتابه كما يتجلى في الرسول وفي الإمام الذي يخلفه، حسب ما مر في تفسير آية النور[٢].

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٣٣.

(٢) هنالك تجد بياناً للعلاقة بين قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ.. ﴾ [الآيات: ٣٥-٣٦].

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إذن فنوره لا يتم بطوع الناس كلهم، إنما في ظروف من التحدي والصراع بين إرادة الحق وأتباع الباطل، ينتصر فيها حزب الله رغم أعدائه، ورغم كرههم وسعيهم لإطفاء نوره بشتى الوسائل والطرق، فهو ليس محايدا في الصراع بين الحق والباطل، وإن كانت حكمته تقتضي امتحان المؤمنين وتعريضهم للفتنة بعض الأحيان.

ولكن السؤال: هل إن نوره تعالى كان يشكو النقص حتى يكتمل؟. كلا.. فلماذا قال: إنه سيتم نوره؟.

والجواب: إن للنور كمالين: الأول في ذاته، الثاني فيما يتصل بانتشاره، ونور الدين كامل في ذاته، ولكن إنما يتم كمالا بانتشاره في آفاق المعمورة، وذلك بإسقاط كل الحجب التي تمنع اتصال الناس بنور الله. ولعل من مصاديق إتمام النور أن تلتحم مسيرة العقل المزكّى بالوحي المُنزَل، فيتحول القرآن إلى برامج ومناهج عملية مفصلة تحكم الحياة وتُسَيِّر البشرية على سبيل الهدى والصواب. أفتدري كيف؟، بأن يتكامل عقل الإنسان بزيادة علمه في كافة الحقول حتى يكتشف المزيد من أسرار الدين ويقتنع الجميع بأنه مُنَزّل من عند الله، فيصبح الدين ضرورة علمية بعد أن كان ضرورة نفسية واجتماعية، وهنالك يكشف الله الغطاء عن وجه وليه الأعظم مهدي هذه الأمة الذي وعد الرسول بظهوره في آخر الزمان فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً.

إذن كتاب الله كامل، وإنما الناس بحاجة إلى الارتفاع إلى مستواه بالتدبر والتعلم حتى يتم الله نوره.

وهذه الآية والتي تليها تحلان جدلا حول مسيرة البشرية هل هي نحو التكامل أو الانحطاط، فحسب النظرية الدينية التقليدية، قال بعضهم: إنها تتجه نحو الانتكاس، واحتجوا على ذلك بأن حوادث القيامة التي تطوى بها صفحة الحياة الدنيا إنما تقع نتيجة لوصول البشرية إلى منتهى الانحراف، ونقل البعض عن النبي ما نصه: «إِنَّ خَيْرَ الْقُرُونِ قَرْنِيَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أُناسٍ هَمَجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ»[1]، ورووا عن الرسول ﷺ قوله: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ بْنُ لُكَعَ..»[2]، وانطلقوا من ذلك في تقييم مسيرة الأجيال وأنها تسير نحو الانحطاط.

وقال آخرون: بل الحياة تسير نحو التكامل، وهذا ما نستلهمه من آيات القرآن ومن

---

(١) تفسير ابن كثير: ج٣، ص٣٣١: عن الصحيحين.

(٢) كنز العمال: ج١٤، ص٢٢١، حديث: ٣٨٤٧٦.

بينها هاتان الآيتان، فإنها تنطويان على بشارة بأن الكمال ينتظر البشرية في المستقبل، وأن نور الله سوف يتم يوماً من الأيام ليشمل كل الأرض ويهيمن على الناس جميعاً. وهكذا جعل ربنا خاتم أنبيائه ﷺ أفضلهم. ولا غرابة حينئذ لو قرأنا الأخبار القائلة بأن آخر أوصيائه الاثنا عشر من ولده هو الذي ينهض بأعباء تلك النهضة العالمية نحو قمة السعادة والكمال.

قال علي بن إبراهيم القمي رحمه الله : ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ بِالقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا خَرَجَ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ حَتَّى لَا يُعْبَدَ غَيْرُ الله وهو قوله عليه السلام: «يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً»[1]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «حَتَّى لاَ يَبْقَى قَرْيَةٌ إِلاَّ وَنُودِيَ فِيهَا بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله بُكْرَةً وَعَشِيّاً»[2] بلى؛ لو قسنا مسيرة البشرية بالساعات والأيام فقد نجد بعض أمارات التراجع، وربما واجهتنا بعض الانتكاسات، ولكن المحصلة النهائية القائمة على أساس الأرقام الاستراتيجية (بالأجيال والقرون) تهدينا إلى أن المسيرة تتجه نحو الأمام، فليس من شك أن حال البشرية الآن خير مما كانت عليه قبل قرنين من الزمن لو اتخذنا مجمل القيم الدينية مقياسا، كالتقدم العلمي، والرفاه، والحرية و. . .

ونجد في الآيتين الكريمتين بيانا لمسيرة الصراع بين الأفكار والأمم، ففي المرحلة الأولى يدور الصراع بين الفلسفات الدينية والقيم البشرية، فتنتصر الفكرة الدينية على الأخرى. وها نحن نلاحظ بشائر عودة الناس إلى الدين ونبذهم للكفر بالله عز وجل، وأظهر تلك البشائر ما نجده اليوم من تراجع سريع وواسع للمد الإلحادي (و منه الشيوعية) في سائر أنحاء العالم، وسوف يستمر هذا التحول حتى يأتي اليوم الذي تعود البشرية بمعظمها إلى الله والدين. فتبدأ المرحلة الثانية والتي يدور فيها الصراع بين الدين الخالص والأديان المحرَّفة، وقد تكفَّل ربنا بإظهار دينه الحق على كل الأديان ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

وعلى خاتمة هذه المرحلة ينتصر الله بوليه الأعظم الإمام الحجة بن الحسن عليه السلام لدينه الخالص. وحيث حدثتنا الآية الثامنة عن المرحلة الأولى جاءت خاتمتها: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، واختتم الآية التاسعة بالقول: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لأن الذين يعاكسونهم إنما هم أتباع التوحيد الخالص من دنس الشرك والارتياب!.

[١٠-١٣] ولأن هذا التكامل يتحقق عبر عشرات الألوف من المواجهات الممتدة عبر قرون متطاولة فإنه لا يخص عصرا أو طائفة أو جهة، إنما هي سنة إلهية، كسنة الضياء

(١) بحار الأنوار: ج٥١، ص٤٩، تفسير القمي: ج٢، ص٣٦٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٥١، ص٦٠.

الذي ينبعث من الشمس ويهزم جيوش الظلام من كل بقعة.. فهي لا تخص زمانا أو مكانا أو تجمُّعاً.

وهكذا تكون هذه البصيرة القرآنية شعلة أمل في أفئدة المؤمنين بالله في كل مواجهة لهم مع الكفر، والطغيان، وتعطيهم روح النصر، وتزودهم بوقود الاستقامة والصبر.

وهكذا كانت هذه البصيرة -ضمن السياق القرآني- تعبئة روحية لمن يريد التجارة مع الله والتفرغ للجهاد في سبيله، بأنه آنئذ يصبح ضمن تيار حركة التاريخ في اتجاه التكامل وإتمام نور الله وإظهاره على الدين كله. بل، هذه الحقيقة تهدينا أيضاً إلى أن ذلك الأمل يتحقق على أيدي المؤمنين وبما يبذلونه من تضحيات.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ والنجاة من النار أعظم طموحات المؤمنين لعلمهم بأن الإنسان واقع في العذاب ما لم تسعَ للخلاص منها. ويحدد القرآن طريق النجاة في الالتزام بثلاثة شروط أساسية هي: الإيمان بالله، والتسليم للقيادة الإلهية، والجهاد بالمال والنفس من أجل الحق.

﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ويبدو أن الله قدم الجهاد بالمال على النفس لأن الإنسان يبدأ بالجهاد بالمال فيصعد درجات في الإيمان إلى أن يصل إلى الجهاد بالنفس، كما أن الجهاد بالمال يهيء وسائل الجهاد بالنفس. هل رأيت حربا أو مقاومة إلا ويسبقها الإعداد لها بالسلاح والعتاد والزاد والإعلام، وكلها لا تتحقق إلا بالمال.. وحيث يعتبر البعض الجهاد خسارة للأمة يؤكد القرآن أنه خير عظيم للمجتمع، وأي خير أعظم من العزة، والاستقلال، والحرية، وإقامة حكم الله، وهي كلها من ثماره ونتائجه.

﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وخير الجهاد يعم الإنسان والمجتمع المجاهد في الدارين: في دار الآخرة متمثلا في الغفران، وسكنى الجنة وهو أعظم الخير.. ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾، جاء في تفسير هذه الآية خبر مأثور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ فِي الجَنَّةِ، فِي ذَلِكَ القَصْرِ سَبْعُونَ دَاراً مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتاً مِنْ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيراً، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ سَبْعُونَ فِرَاشاً مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، عَلَى كُلِّ فِرَاشٍ امْرَأَةٌ مِنَ الحُورِ العِينِ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ مَائِدَةً، عَلَى كُلِّ مَائِدَةٍ سَبْعُونَ لَوْناً مِنَ الطَّعَامِ، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ وَصِيفاً وَوَصِيفَةً. وَقَالَ: فَيُعْطِي اللهُ المُؤْمِنَ مِنَ القُوَّةِ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص١٤٩.

وفي دار الدنيا متمثلاً في النصر والفتح والتحرر.. ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: بشِّرهم بالنصر لما في ذلك من السرور ورفع المعنويات، ويبدو لي أن البشارة هنا تنصرف أيضا إلى أشياء أخرى غير الجنة والنصر، من أبرزها لقاء الله ورضوانه. وهنا ملاحظة نستوحيها من أمر الله للرسول بتبشير المؤمنين هي أن على القائد أن يثبت روح الأمل والرجاء في صفوف أتباعه على الدوام، ليرفع من معنوياتهم، ولكيلا يفقدوا حماسهم وأملهم بسبب التحديات التي في الطريق.

وهذه الآيات الكريمة تحدد الاستراتيجيات الأساسية للجهاد، فهو على صعيد الآخرة وقبل كل شيء يجب أن يستهدف النجاة من النار وغفران الله وكذلك الجنة، وعلى صعيد الدنيا النصر والفتح، والفتح أشمل من النصر، فالنصر هو هزيمة العدو عسكريًّا وقد يكون محدودا، في حين أن الفتح هو الانتصار الشامل وفي كل الأبعاد.

وتأكيد ربنا على أن الهدف الأخروي هو الغاية العظمى للجهاد من شأنه السمو بروح المؤمنين إلى سماء القرب من الله، وعلاج أي حالة من حالات التوقف التي قد يبتلى بها المجاهدون بسبب اليأس من طول الانتصار، فإن الجهاد ليس موضوعا للانتصار على العدو وحسب بل لنيل رضوان الله، وهو واجب شرعي وفريضة كالصلاة والصيام لا يسقطها عن كاهل المجتمع أو التجمعات الرسالية مجرد أن يكون الانتصار صعبا أو بعيد المنال.

[١٤] وتأتي خاتمة السورة لتشير إلى المراحل الأساسية في الحركات الرسالية، وهي أربع مراحل:

الأولى: انبعاث القائد الرسالي في المجتمع، والذي يمثل البذرة الأولى والأساسية للحركة والتغيير.

الثانية: التفاف مجموعة من الناس حوله، وإيمانهم بفكره، وتسليمهم لقيادتهم، وهم الطلائع.

الثالثة: توسع دائرة الحركة وتيارها في المجتمع، الأمر الذي يقسمه إلى جبهتين: جبهة الحق، وجبهة الكفر، مما ينتهي به إلى الصراع.

الرابعة: انتصار الحق وأهله على جبهة الباطل كعاقبة نهائية للصراع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ جمع حواري وهم الخُلَّص الخواص من أتباعه، قيل: «سُمُّوا حواريين لأنهم كانوا قَصَّارين حيث إن الله -حسب

هذا القول الذي ذهب إليه قتادة- أمر عيسى عليه السلام فقال: إذا دخلت القرية فأت النهر الذي عليه القصارون فاسألهم النصرة، فأتاهم عيسى وقال: من أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن ننصرك، فصدقوه ونصروه»[1].

وقيل: «أصل الكلمة من الحَوَر وهو البياض، وإنما سموا كذلك لبياض قلوبهم أو نقاء قلوبهم وصفائها في الولاء لعيسى، ويبدو أن هذا أقرب وأبلغ دلالة على معناها المصطلح الذي يدل على أقرب الناس من الرسل والأوصياء، وهذا المعنى يقابل النفاق ويرادف معنى المخلص.

وقيل: إن عيسى عليه السلام بعث كل واحد من الحواريين إلى منطقة في أنحاء المعمورة لإبلاغ الرسالة، مما يعكس مدى تفانيهم في سبيل الدعوة حيث إن الواحد منهم كان يمثل أمة في دفاعه عن الحق وتحديه للباطل»[2].

﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ وهذا الشاهد من التاريخ يهدينا إلى أنه تعالى يؤيد المجاهدين في سبيله، وينصرهم على عدوه وعدوهم.

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٨، ص٩٠. ولعل القصار الذي يبذل قصارى جهده، وسموا بذلك لمبالغتهم في العبادة والطاعة لله.

(٢) تاريخ الطبري: ج٣، ص٧٣٧.

سُورَةُ الجُمُعَة

* مدنية.

* عدد آياتها: ١١.

* ترتيبها النزولي: ١٠٩.

* ترتيبها في المصحف: ٦٢.

* نزلت بعد سورة التحريم.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام: «الوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ إِذَا كَانَ لَنَا شِيعَةً أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةِ الجُمُعَةِ بِالجُمُعَةِ وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، وفِي صَلَاةِ الظُّهْرِ بِالجُمُعَةِ والمُنَافِقِينَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَكَأَنَّمَا يَعْمَلُ بِعَمَلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وكَانَ جَزَاؤُهُ وثَوَابُهُ عَلَى الله الجَنَّةَ».

(ثواب الأعمال: ص١١٨)

•••

عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَتَهَا كَانَ لَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، وَأَمْنَهُ مِمَّا يَخَافُ وَيَحْذَرُ، وَصُرِفَ عَنْهُ كُلُّ مَحْذُورٍ».

(ثواب الأعمال: ص١١٨)

الإطار العام

المؤمنون بين التربية والتعليم

تذكرنا سورة الجمعة بفضل الله الأكبر المتمثل في رسالات الله والتي سببت اصلاحاً شاملاً لحياة البشرية، وبالذات الذين تنزلت في محيطهم آيات الله. فبالرسالة طهر النبي ﷺ أتباعه من أرجاس الجاهلية وأغلالها، وعلمهم الكتاب والحكمة، ورسم خطاً إصلاحياً ممتداً عبر الزمان والمكان، ولولا الرسول ﷺ لكان البشر يعود إلى جاهليته الأولى، لأن حملة الرسالة وورثة علمها (قبل بعثة الرسول) قد خانوامسؤولياتهم.(الآيات ١-٤).

ويتعرض السياق إلى الذين لم يتحملوا مسؤولية التوراة بعد أن حملوها مشبهاً لهم بالحمار الذي يحمل أسفار العلم دون أن ينتفع بها في شيء، وفي ذلك تحذير من طرف خفي للمسلمين ألاّ يصبحوا مصداقاً آخر لهذا المثل. (الآية: ٥).

وإذ يذكر بشيء من واقع الانحراف لدى اليهود -الذين من أبرز صفاتهم التشبث بالمادة والحياة الدنيا ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]- يعطينا مقياساً دقيقاً لمعرفة الداعية للحق عن المدعي له، وهو إن من يحمل الرسالة ويؤمن حقاً بمحتواها لا يبالي بالموت دفاعاً عنها. (الآيات: ٦-٨).

ثم يؤكد أهمية صلاة الجمعة، ليركز في المؤمنين التوجه نحو القيم بدل اللهو والمادة، ولكي يثبت للأمة الناشئة تميزاً عن الأمم الأخرى وشخصية مستقلة بفرضها مناسبة دينية اجتماعية في مقابل سبت اليهود وأحدالنصارى. (الآيات: ٩-١١).

وعندما نتعمق في تدبرنا نجد علاقة وثيقة بين ابتداء السورة بالتسبيح وانتهائها بالدعوة إلى الصلاة والصبر عليها أمام إغراء التجارة واللهو، ذلك أن الصلاة هي أظهر مصاديق التسبيح في حياة المؤمن.

ويعلمهم الكتاب والحكمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ
وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾
وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ
ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا(١) ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ
وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ
ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا
لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ
قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) أسفاراً: الأسفار الكتب، واحدها سفر.

بينات من الآيات:

[١] لأن الله خلق الخلق للعبادة فقد أودع في ضميرهم الحاجة إليه، وفطرهم على الإحساس بما هو مرتكز فيهم من النقص والعجز، وألهم المعرفة به حيث لا حَدَّ ولا نقيصة ولا ضعف، لذلك فإن الخلق لا يرون لأنفسهم وجودا من دون فضله ولطفه وهباته، ولا هدفا أسمى من التقرب إليه عبر تنزيهه وتسبيحه والاستزادة من فضله بذكر أسمائه الحسنى، لذلك فالخليقة في تسبيح دائم له عز وجل.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كل بلغته وطريقته، هذه هي مسيرة الكائنات ووجهتها، وإذ يضع القرآن الإنسان أمام هذه الحقيقة الكبرى فلكي يدفعه نحو الالتحاق بها، ويبين له أن عدم خضوعه لله شذوذ خطير يضعه في مسيرة معاكسة لإرادة ربه وللخليقة جميعا، وبالتالي فإنه يواجه تحديات كبيرة تسحقه وتؤدي به إلى الدمار، فلا طريق للنجاة منها والوصول إلى الأهداف والتطلعات إلا بمسايرة الوجود بقيمه وسننه في مسيرته الصواب، من خلال الاعتراف بالعجز والنقص المرتكز فيه والمعرفة بكمال ربه المطلق، ومن ثم تسبيحه والخضوع له. ولأنه تعالى لا تدرك ذاته الأبصار ولا العقول ولا الأوهام فقد جعل أسماءه وسيلتنا إليه وذكرنا بها فقال: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قال أبو جعفر عليه السلام حول أسماء الله الحسنى: «**خَلَقَهَا وَسِيلَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ يَتَضَرَّعُونَ بِهَا إِلَيْهِ وَيَعْبُدُونَهُ، وَهِيَ ذِكْرُهُ**»[١]، وعن الرضا عليه السلام قال: «**هُوَ نَفْسُهُ وَنَفْسُهُ هُوَ، قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ، فَلَيْسَ يَحْتَاجُ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِهَا لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرَفْ**»[٢].

وإذا كنا نريد معرفته بأسمائه فلا بد أن نتيقن أنها غير ذاته سبحانه، ففي الخبر عن الصادق عليه السلام: «**فَلَوْ كَانَ الاسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى لَكَانَ كُلُّ اسْمٍ مِنْهَا إِلَهاً، وَلَكِنَّ اللهَ مَعْنًى يُدَلُّ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَكُلُّهَا غَيْرُهُ**»[٣]، ولا بد أن يتذكر الإنسان هذه الحقيقة وهو في طريق العرفان بربه حتى لا تذهب به المذاهب، فيحاول كما فعل بعض الفلاسفة والمجسمة أن يتصور ربه بوهمه أو بعقله المحدود فيضل عنه إلى خلقه، فقد «**تَاهَتْ هُنَالِكَ عُقُولُهُمْ وَاسْتَخَفَّتْ حُلُومُهُمْ فَضَرَبُوا لَهُ الْأَمْثَالَ، وَجَعَلُوا لَهُ أَنْدَاداً، وَشَبَّهُوهُ بِالْأَمْثَالِ، وَمَثَّلُوهُ أَشْبَاهاً، وَجَعَلُوهُ يَزُولُ وَيَحُولُ، فَتَاهُوا فِي بَحْرٍ عَمِيقٍ، لَا يَدْرُونَ مَا غَوْرُهُ، وَلَا يُدْرِكُونَ كَمِّيَّةَ بُعْدِهِ**»[٤]، فسبحان الله عما يصفون

---

(١) الكافي: ج١، ص١١٦.
(٢) الكافي: ج١، ص١١٣.
(٣) الكافي: ج١، ص٨٧.
(٤) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٩٦ عن الإمام الكاظم عليه السلام.

ويشركون. وأنى للإنسان أن يتصور خالقه؟!.

بلى؛ نحن نقول الملك والقدوس والعزيز والحكيم ولكن دون حد وتشبيه، فهو واسع الملك، عظيم القداسة، دائم العزة، ونافذ الحكمة. وتتجلى هذه الأسماء حينما يعود الإنسان إلى نفسه يتفكر فيها أو يرمي ببصره في الآفاق من حوله.

نعم، إن ربنا الملك الذي لا حد لملكه، وإنما يملك كل شيء ملكا، يملك شهوده وغيبه، حاضره ومستقبله، ويهيمن عليه بجميع أبعاده، ولا يملك شيء ولا شخص شيئا إلا بما يملّكه. وكل هذا آيات ملكوته وأكثر من هذا مما لا يمكن لنا أن نتصوره.

وهو قدوس بمعنى النزاهة المطلقة من كل نقص وعيب وحد، فليس شيء ولا أحد أولى منه بالتسبيح والعبادة. كما أنه القادر بالعزة على ما يشاء، والذي لا يذل أو يحتاج إلى غيره. وحيث نسبحه أو يدعونا إلى تسبيحه فليس لحاجة منه إلينا ولا إلى ذلك، لأنه سبوح وعزيز وملك وقدوس بذاته، وإنما بحكمته تفضل علينا بأن جعل تسبيحه طريقا لنا إلى رضوانه وثوابه وهو الحكيم. وهناك علاقات متينة بين الأسماء الحسنى المذكورة في الآية الكريمة بعضها مع بعض، فالملك الحق لا بد أن يكون نزيهاً وقويًّا وحكيماً، لكي يكون مهيمناً مع ملكه. والعزة لا تكون إلا بالملك، كما لا يكون الملك إلا بها، وهكذا توجب القداسة العزة. ولم يقل تعالى: عزيزا؛ وحسب بل ذكر الحكمة أيضا فهو ملك ذو قوة في حكمة، لا يدبر الحياة بالقوة وحدها إنما يهيمن عليها بالقوة ويدبرها بالحكمة.

وهنا ينبغي التأكيد على مسألة مهمة وهي أن ما تقدم من التحقيق حول أسماء الله لا يعدو كونه محاولة محدودة لتقريب معانيها ليس أكثر، وإلا فإن الإنسان لا يستطيع أن يفي بالمعنى حينما يتحدث عنها.

[٢] والأسماء الأربعة الحسنى لله تجلت عندما انبعث إلى الناس رسولا من أنفسهم فجاء ليهديهم من الضلال ويعيدهم إلى مسيرة الكائنات بعد الابتعاد عنها، وهكذا انطلقت مسيرة المجتمع الإصلاحية حيث تحوَّل من الشتات إلى الألفة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الجاهلية والتخلف إلى العلم والحضارة.

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ قال كثير من المفسرين إن: ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ هم الذين ينتسبون إلى مكة أم القرى، ويحتمل أنهم المتفرقون أمما وقبيلا، والأظهر أنهم الجاهليون، إلا أنه ينبغي القول بأن الأمي والجاهلي ليس الذي لا يقرأ ولا يكتب فإن ذلك هو المعنى الحرفي الظاهر للكلمة، فقد ينسب العالم الذي يقرأ ويكتب إلى الجاهلية والأمية لأنه لا يتفاعل

مع معارفه(١)، وعدم القراءة والكتابة مظهر واحد من مظاهر التخلف والجهل، وللجاهلية مظاهر شتى تصدق عليها جميعا كلمة الأمي التي يبدو أنها غلبت لتشمل كل أبعاد الجاهلية، ونستوحي ذلك من استخدام القرآن الحكيم لها في سياق حديثه عن أهل الكتاب وهم يقرؤون ويكتبون وفيهم دعاة العلم إذ قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، ولكن لماذا بعث الله رسوله في الأميين بالذات؟.

١- إذا أخذنا بالتفسير الأول (أنهم أهل مكة) فذلك تجلٍّ لحكمة الله حيث يبعث رسله في مركز البلاد وأكبر مدنها وأهمها وحيث بؤرة الفساد والضلال، فإن ذلك أكبر أثرا في التغيير.

٢- وعلى التفسير الأظهر (أنهم الجاهليون) نهتدي إلى أن الله يستنقذ البشرية حينما تتجه حضارتها نحو الدمار والانتهاء.

ثم إن الله حين بعث رسوله في الوسط المتدني في العلم عرفنا بأن الرسالة لم تكن تكاملاً ذاتيًّا وصلت إليه البشرية والمدنية، كلا.. إنها كالغيث الذي ينزل من السماء على أرض جرداء فيملؤها خصبا وجمالا. إنها كما أشعة الشمس تهبط على وديان الظلام فتنشر عليها الضياء والروعة. إنها تأتي من خارج إطار السياق التاريخي فتحدث فيه ثورة بديعة وتحولا عظيما لا نجد له أي تفسير إلا في الرسالة، وليس كما يدعي البعض أنها مجرَّد عامل مساعد لعوامل حضارية لدى العرب، فإن الدلائل التاريخية كلها تشير إلى وجود جاهلية (أمية) شاملة في كل الأبعاد في المحيط الذي بعث فيه الرسول ﷺ عبرت عنها فاطمة بنت محمد عليها السلام بقولها عن أبيها: «ابْتَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى إِتْمَاماً لِأَمْرِهِ، وَعَزِيمَةً عَلَى إِمْضَاءِ حُكْمِهِ، وَإِنْفَاذاً لِمَقَادِيرِ حَتْمِهِ، فَرَأَى الأُمَمَ فِرَقاً فِي أَدْيَانِهَا، عُكَّفاً عَلَى نِيرَانِهَا، عَابِدَةً لِأَوْثَانِهَا، مُنْكِرَةً للهِ مَعَ عِرْفَانِهَا، فَأَنَارَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ظُلَمَهَا، وَكَشَفَ عَنِ القُلُوبِ بُهَمَهَا، وَجَلَا عَنِ الأَبْصَارِ غُمَمَهَا، وَقَامَ فِي النَّاسِ بِالهِدَايَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ مِنَ الغَوَايَةِ، وَبَصَّرَهُمْ مِنَ العَمَايَةِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى الدِّينِ القَوِيمِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ..»(٢)، وقالت عليها السلام: «... ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مُذْقَةَ الشَّارِبِ، وَنُهْزَةَ الطَّامِعِ، وَقُبْسَةَ العَجْلَانِ، وَمَوْطِئَ الأَقْدَامِ، تَشْرَبُونَ الطَّرْقَ، وَتَقْتَاتُونَ الوَرَقَ، أَذِلَّةً خَاسِئِينَ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكُمْ...»(٣).

وهناك سؤال: لماذا سُمِّي النبي أُميًّا، وقال الله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، فما هي النعمة في

(١) قال الإمام الصادق عليه السلام: «كَانُوا يَكْتُبُونَ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَلَا بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولاً فَنَسَبَهُمْ إِلَى الأُمِّيِّينَ» بحار الأنوار: ج٩، ص٢٤٣.

(٢) بحار الأنوار: ج٢٩، ٢٢٠.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٩، ص٢٢٣ .

أن يكون النبي أميًا؟.

قال الماوردي: «الجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم فيكون أقرب إلى موافقتهم.

الثالث: لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها»[١].

بيد أن الجواب: الأفضل هو ما ذكر في حديث شريف مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام كما سيأتي.

وهناك شبهة حاول البعض أن يدسها عند قول الله عن الرسول صلى الله عليه وآله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ إذ نسبوا إلى النبي الأكرم الأمية والجهل، وأئمة الهدى من جهتهم سعوا لدفعها بصورة منطقية، فقد قيل للإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله لَمْ يَكْتُبْ وَلَا يَقْرَأ.

فَقَالَ عليه السلام: كَذَبُوا لَعَنَهُمُ اللهُ أَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَ قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فَيَكُونُ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَلَيْسَ يُحْسِنُ أَنْ يَقْرَأَ أَوْ يَكْتُبَ؟.

قَالَ -الراوي- قُلْتُ: فَلِمَ سُمِّيَ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ؟. قَالَ عليه السلام: نُسِبَ إِلَى مَكَّةَ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فَأُمُّ الْقُرَى مَكَّةُ فَقِيلَ أُمِّيٌّ لِذَلِكَ»[٢]، وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: إن تسمية العرب بالأميين كان بسبب حرمانهم من كتاب إلهي، وعلى هذا فإن نسبة الرسول إلى ذلك كان بسبب انتمائه إلى ذلك القوم جغرافيًا ونسبيًا، وليس لأنه شخصيًا لم ينزل عليه الكتاب، فقد نزل عليه أحسن الكتب فكيف يكون أميًا بهذا المفهوم؟.

والسؤال هنا: ما هو منهج الرسول في الإصلاح والسير بالإنسان نحو الحضارة والهدى؟.

١- هداية الناس إلى الله عز وجل، ببث آياته بينهم وبيانها لهم آية تلو آية، والذي من شأنه تفجير الطاقات الخيرة الكامنة داخل النفس البشرية، ومن أهمها استثارة العقل في البحث عن الطريق لأن الآيات تبين معالم الطريق وهي أساس الهدى، إلا أن هنالك حاجة إلى تتميمها بتذكرة الإنسان بها مما يقوم به الأنبياء عليهم السلام، وهكذا نهتدي إلى أن أول ما يجب على الحركات

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٨، ص٩٢.

(٢) بحار الأنوار: ج١٦، ص١٣٣.

الرسالية القيام به هو بث الثقافة الصحيحة بين الناس لكي يقتنعوا بالإصلاح ويتحسسوا ضرورته. ولعل الآية الكريمة تشير أيضا إلى ميزة الرسالات الإلهية عن الدعوات البشرية وهي كونها تبدأ من الله لتنتهي إليه ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

٢- تطهير الناس من عقد النفس وأغلالها التي تمنع انطلاقتهم نحو الهدى كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ولا يمكن لأمة مثقلة بعقد الأحقاد والأضغان، والأغلال والحسد والاستئثار، وإصر الخوف والتهيب والانطواء، لا يمكن لمثل هذه الأمة أن تنهض بمسؤولية الإصلاح والتقدم أو أن تكون أهلا لوحي الله وهداه، لذلك عمد الرسول ﷺ وهو ينشد النهضة بذلك المجتمع إلى تطهيره من أدران الشرك والتخلف والجاهلية.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن عباس: «يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان»، وقال بعضهم: «يأخذ زكاة أموالهم» وهو بعيد.

٣- وإذا ما تفاعل المجتمع مع الآيات، واهتدى بها إلى غاياتها، وتزكى بها وبتوجيهات المصلح، أصبحت لديه القابلية العقلية والنفسية لتلقي تعاليم الرسالة والتفاعل معها، ولعله لذلك تقدمت تلاوة الآيات والتزكية على التعليم.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ والكتاب هو القرآن الذي كان رسول الله ﷺ أول مفسر ومؤول لمعانيه، وما أحوجنا وبالذات مجاميعنا العلمية أن نتعلم ونُعلِّم كتاب الله الذي هو حبله وبابه إلى الهدى والفلاح. إن الرسول ﷺ طَهَّر النفوس والعقول من الأغلال والعقد، ثم راح يعلم الأمة معاني الكتاب بعد تلاوته عليهم، ويستخرج لهم منها مناهج الحياة، في السياسة والاقتصاد والاجتماع والشؤون العسكرية، حتى أصبح القرآن بديلاً حضاريًا شاملاً عن المناهج الجاهلية الضالة بقضها وقضيضها. واليوم حيث نريد العودة إلى الإسلام باعتباره الحل الأمثل للمشاكل المعقدة التي لا تستطيع البشرية القرار منها لا بد أن نعود من الباب الذي ولجه المعلم الأول للرسالة نبينا الكريم ﷺ، فنشرع بآيات الله نتلوها على الناس، ونذكرهم بربهم حتى ينصهروا جميعا في بوتقة الوحدة الربانية، ثم نعلمهم كتاب ربهم حتى يتشبعوا بقيمه المتسامية، ويتسلحوا برؤاه وبصائره، وينبعثوا من آياته في كافة تصرفاتهم ومواقفهم.

ليكن القران أهم مادة دراسية في مجاميعنا العلمية ومدارسنا وجامعاتنا ومراكز دراستنا الدينية حتى ننظر من خلاله إلى كل شيء ونصبغ بصبغته كل عمل وموقف.

وحيث يريد الرسول لمن حوله أن يقودوا الحياة عمليًا بالقرآن علمهم الحكمة أيضاً، ليحسنوا

فهمه وتطبيقه على الواقع حسب اختلاف الظروف وتقدم الحياة وتطورها، فبالحكمة تستنبط الحلول لمشاكل الحياة ومفرداتها. ولو كان الرسول ﷺ يقتصر على تعليم نص القرآن للمسلمين وحسب، دون إرشادهم لأصول الاجتهاد ومناهجه لكانوا يقعون في مشاكل لا تنتهي.

ويبدو أن الحكمة الإلهية، تستوحى من الآيات المحكمة التي يرد إليها كل آيات القران وكل الحوادث الواقعة في الحياة، ذلك لأن محكمات القرآن هي التي تذكر الإنسان بالقيم الفطرية المرتكزة في ضميره، وتثير دفائن عقله بالحقائق الكبرى التي يعرفها بذاته بعد التبصير بها.. وبكلمة: المحكمات القرآنية هي مرتكزات العقل الإنساني كالتوحيد والعدل والحرية والمسؤولية وما أشبه، وهي التي تعتبر مصدرا للتشريع الإلهي، كما يزعم المشرعون الوضعيون أنهم يعتمدونها في تشريعاتهم.

وحينما يبلغ الإنسان درجة متقدمة من الوعي بهذه المرتكزات، ويعقلها عقل دراية، ويتعمق في معرفتها، هنالك يصبح فقيها قد أوتي الحكمة، وآنئذ يستطيع أن يستنبط سائر أحكام الشريعة منها، كما يتمكن من اعتمادها في مواقفه السياسية والاجتماعية المتغيرة.

وأعرف الناس بالحكمة، وأقدرهم على استنباط الأحكام الفرعية منها، وأوعاهم لبصائرها، هو الجدير بحكم الأمة، لأنه أقرب إلى القرآن من غيره، ولأن القرآن هو الحاكم الأول في الأمة الإسلامية، وإنما يمثله أوعى الناس له وأقرب الناس إليه..

لذلك فإن الحكمة هنا تعني الولاية الإلهية والقيادة الشرعية، لأنها وعاء الحكمة، وعيبة المعارف الربانية، ومرتكز البصائر القرآنية.

من هنا جاءت النصوص المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تفسر من جهة الحكمة بالولاية، وتبين من جهة أخرى أن الحكمة هي التفقه في الدين.

قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: «طَاعَةُ الله ومَعْرِفَةُ الإمَامِ»[1]. وقال عليه السلام في تفسير الآية ذاتها: «إِنَّ الحِكْمَةَ المَعْرِفَةُ وَالتَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ فَقُهَ مِنكُمْ فَهُوَ حَكِيمٌ، وَمَا أَحَدٌ يَمُوتُ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ فَقِيهٍ»[2].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الله آتَانِي القُرْآنَ وَآتَانِي مِنَ الحِكْمَةِ مِثْلَ القُرْآنِ، وَمَا

(١) الكافي: ج١، ص١٥٨، تفسير العياشي: ج١ ص١٥١.
(٢) بحار الأنوار: ج١، ص٢١٥.

مِنْ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الحِكْمَةِ إِلَّا كَانَ خَرَاباً، أَلا تَفَقَّهُوا وَتَعَلَّمُوا وَلاَ تَمُوتُوا جُهَّالا»[1].

وفي تفسير آخر مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَالحِكْمَةُ هِيَ: الثَّبَاتُ، وَصِفَةُ الحَكِيمِ الثَّبَاتُ عِنْدَ أَوَائِلِ الأُمُورِ وَالوُقُوفُ عِنْدَ عَوَاقِبِهَا، وَهُوَ هَادِي خَلْقِ الله إِلَى الله تَعَالَى»[2].

وتكاد كلمات المفسرين في الحكمة تكون واحدة، فقد فسرها مالك بن أنس: «أنها الفقه في الدين»، وقال بعضهم: «ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور، ويحسنون التقدير، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل»، وقال آخر: «الكتاب: الوحي، والحكمة: العقل»، وقال آخر: «إن الحكمة هي العلم الذي يعمل به فيما يُجتبى أو يُجتنب من أمور الدين والدنيا»..

وهكذا تتواصل تفسيراتهم للحكمة لتوضح أنها بلوغ مستوى من علم الدين يمكّن الإنسان من معرفة متغيرات الشرائع وهو الفقه.

بلى؛ لا يمكن فقه الإسلام بعمق من دون فقه الزمن، لأن حكم الله يختلف من حادثة لأخرى وواقعة وثانية، وإنما أصبح الفقهاء مرجعا لأحكام الدين لأنهم يعرفون الدين، ويعرفون شروط الزمن ومتغيرات الحوادث، فيستنبطون أحكامها منه، ولذلك جاء في الحديث الشريف: «وأَمَّا الحَوَادِثُ الوَاقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رُوَاةِ حَدِيثِنَا»[3].

وهكذا كانت الحكمة هي العقل المزكّى بالدين، وهي لا تتأتى عادة إلا بعد الإلمام بسائر أحكام الشريعة وقيم الوحي.

ولأن القرآن آخر رسالة بعثها الرب إلى عباده، وهي التي تستمر حتى قيام الساعة برغم تطور الظروف، فإن البشرية احتاجت إلى الحكمة المرتكزة في أئمة الدين لملاحقة المتغيرات.

وهكذا دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث في العرب مَنْ يعلمهم الحكمة والكتاب، فقال هو وابنه إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، واستجاب الله لإبراهيم وبعث النبي محمداً إلى أولئك الأميين فجعلهم الله به في مستوى رفيع، حتى قال الرسول في بعضهم صلى الله عليه وآله: «عُلَمَاءُ حُكَمَاءُ كَادُوا أَنْ يَكُونُوا مِنَ الحِكْمَةِ أَنْبِيَاءَ»[4].

---

(١) نور الثقلين: ج١، ص٢٨٧.
(٢) بحار الأنوار: ج١، ص٢١٥.
(٣) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١٤٠.
(٤) الكافي: ج٢، ص٥٢.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لقد بلغوا من الضلال أبعد مدى حيث اتسموا بالتخلف في جميع شؤونهم، فمن وأد البنات إلى قتل الأولاد، وإلى التناحر والتطاحن، إلى الفقر والمسكنة، وهكذا كانت حركة الرسالة التي أنقذتهم من تلك الوهدة العميقة حركة من خارج السياق التاريخي لمجتمعهم. ولو كانت مجرد تكامل طبيعي داخلي لما استطاعت القفز بهم إلى تلك القمم السامقة وبتلك السرعة الخيالية..

[٣] من غياهب ذلك التخلف البعيد وذلك الضلال المبين تعالى ذلك الصوت الميمون يدعو العالمين إلى ولادة جديدة، إلى الانبعاث من ضمير الجاهلية، إلى حياة الحضور الفاعل، وسوف تتواصل أمواج الملتحقين بالركب من شعاب الأرض وعلى امتداد التاريخ لأنها ليست دعوة مكية للعرب، ولا دعوة قريشية لقريش، ولا دعوة سياسية لذلك العصر. إنها دعوة إلهية تتجاوز الجغرافيا والعنصر والزمن.. إنها دعوة رسول الله رب العالمين إلى الناس كافة..

وسوف تتزود المسيرة الحضارية من القيم التي جاءت بها، وتظل تأخذ بيد الإنسانية نحو الهدى والخير، كما تتزود من الخط الرسالي والقيادة الشرعية التي تشكل الامتداد الحقيقي للرسول قيادة وذكرا، وهو لا ينقطع في كل زمان وجيل، حيث لا تخلو الأرض من حجة إلهية، ولذلك يبقى الالتحاق بمدرسة النبي ﷺ مركبه مستمرا مدى الحياة. تنتشر رسالته وتتوسع أمته بين الناس.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من هم الآخرون الذين يُتوقع التحاقهم بركب الرسالة؟.

قالوا: «إنهم سائر العرب الذين آمنوا من بعد». وجاء في حديث مستفيض مأثور عن رسول الله أنهم قوم سلمان الفارسي.. الحديث يقول: عن أبي هريرة قال: «كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ..﴾ قال رجل: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَسُوْلُ الله؟ فَلَمْ يُرَاجِعْهُ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى سَأَلَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ: وَفِيْنَا سَلْمَانُ الفَارِسِيّ، قَالَ: فَوَضَعَ النَّبِيّ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ»[١]. وجاء في حديث آخر عن الرسول ﷺ: «إِنَّ فِي أَصْلَابِ أُمَّتِي رِجَالًا وَنِساءً يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾»[٢].

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٨ ص٩٣.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٨ ص٩٣، الدر المنثور: ج٦ ص٢١٥.

وقد اختتمت الآية الكريمة باسمي العزيز والحكيم، لأن لحاق الآخرين بمسيرة الأمة الإسلامية، وامتداد الرسالة فيهم عبر الزمن، مظهر لهذين الاسمين، إذ يُعز الله بهم دينه بين الأمم في سائر الأزمان، وتتجلى فيهم عزته بين الناس، كما أن من حكمته أنه لم يجعل امتداد المؤمنين برسالته في المجتمع المعاصر للرسول وحسب، إنما جعله عبر الأجيال والأزمان أيضاً ليبقى مشعل الحق يحمله اللاحقون بعد السابقين، تتوسع بهم الأمة وتستمر مسيرتها.

ومن تجليات اسم الحكمة لربنا العزيز أنه لم يخص الجيل المعاصر للرسول بفضل الإسلام بل جعل الآخرين شركاءهم في الفضل بقدر درجاتهم الإيمانية ومساعيهم الحميدة، وهو القائل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

[٤-٥] وتنتظم الآية الرابعة في هذا السياق لتلغي أي تصور محدود عرقي أو قومي للرسالة بأنها تخص أهل مكة أو العرب فقط، مؤكدة أن الهداية إلى الحق مكرمة إلهية يهبها الباري لمن يشاء من خلقه ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ أما اللغة واللون والحسب وسائر الصفات والمقاييس المادية فليست فضلا بذاتها حتى يفتخر العربي على العجمي، أو الأبيض على الأسود، أو ذو القرابة على البعيد، كلا.. وحيث يختص هذا الفضل بالله عز وجل وهو صاحب الخيرة الذي لا يُسأل عما يفعل فليس لأحد أن يدَّعي اختصاصه به من دون الناس، كما صنعت اليهود والنصارى، واختلقت لذلك ألوانا من الفلسفات الشركية التي تُصوِّر الله مغلولا أو رهن إرادات خلقه، سبحانه عما يصف المشركون.

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ في إنقاذ الناس من الجاهلية والضلال المبين إلى نعمة الطهارة والعلم والهدى وليس ما زعمه البعض في تحليله للتغير الحضاري الذي حدث في تاريخ شبه الجزيرة بأنه راجع إلى حالة من التكامل الطيعي الذي يقع عند الأمم، كلا.. بل هو فضل إلهي، وينفي قوله: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أن التاريخ ليس بالضرورة في مسيرة هابطة، كما زعم البعض اعتقادا منهم أن الجيل الأول يكون أبدا أفضل الأجيال، كلا.. إن ربنا ذو فضل عظيم، فأي جيل في أي عصر وفي أي بقعة اتجه إلى الله عمَّه الله بفضله الكبير.

وهذه الآية من جهة أخرى مدخل لانعطاف السياق نحو الحديث عن اليهود، الذين زعموا أن فضل الله (رسالته ورسله) خاص بهم، ولم يتحملوا مسؤولية الرسالة، إنما راحوا يتشبثون بالقشور، وجعلوا مجرد اختيار الله لهم لرسالته فضلا، يفتخرون به، ويتهربون باسمه من الالتزام بمسؤولياتهم.. بلى؛ إن رسالة الله فضل عظيم، ولكن أحدا لا يبلغ الفضيلة والكرامة بها إلا بالعمل وتحمل المسؤولية، أما أن يكتفي العرب بمجرد أن الرسول كان منهم، وأن الآيات تنزلت بينهم، فإنه أمر خطير ينتهي بهم إلى ما انتهى إليه اليهود من قبلهم فصاروا كما وصف الله

تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ تحتوي العلم ولكنه لا ينتفع بها شيئا، وفي هذا التشبيه دقة بالغة، فإن حمل الرسالة ليس باقتناء نصوصها في الجيب ورفوف المكتبة أو بجمعها وحملها على الرأس والكتف، كلا.. وإلا فالحمار أقدر على حمل عدد أكثر ووزن أكبر من أسفار الرسالة، إنما حمل الرسالة بتطبيقها والالتزام بها في الحياة، لأنها قيم وليست مادة. ولعل المثل موجه إلى علماء السوء الذين لم يرعوا أمانة العلم والدين، بل استغلوها في الوصول إلى المصالح الشخصية والشهوات، لأنهم أبرز مصاديق المحملين لمسؤولية الرسالة، وليس من أحد يشك في أن الانحراف الذي وصل إليه اليهود، ولا زالوا مرتكسين فيه، كان بسبب أدعياء العلم والدين. أوليسوا اليوم يحاربون الإسلام باسم التوراة؟ أوليسوا ينتهكون حرمة المسجد الأقصى باسم الدين وبفتاوى الأحبار؟. أوَليسوا يمارسون الظلم والإرهاب ضد الناس؟.

بلى؛ فليست التوراة إذن هي التي تملي عليهم ذلك، لأنها رسالة الله -رسالة الألفة والمحبة والسلام-؟ إن الله كرم الإنسان على كثير ممن خلق وفضَّله تفضيلا، ولكن بأي شيء؟ هل بضخامة جسده وقوته المادية؟ كلا.. فإن كثيرا من الأحياء أقوى منه جسدا وأكبر، ولكن إنما كرامة الآدمي بالعقل وباتباع رسالات الله، فماذا بقي لدعاة التوراة وهم يخالفون هدى العقل، ويُكذِّبون رسالة الله، سوى أن يُشبَّهوا بالحمار؟.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وحيث إنها النهج الذي يقود الإنسان إلى الصلاح وقيم الخير (الهدى) فقد ضلوا الطريق إلى ذلك، وتخبطوا في الضلال والظلم، وقد نظم الشعراء في هذا المجال أبياتاً من الشعر لعل أطرفها قول بعضهم:

إن الرواة على جهل بما حملوا — مثل الجمال عليها يحمل الودع

لا الودع ينفعه حمل الجمال له — ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لماذا اعتبر هؤلاء من الظالمين؟ يبدو أن السبب أن مثل هؤلاء -تجار الدين وأدعياء العلم- إنما يتركون تطبيق روح الآيات، ويكذبونها، ويحرفونها عن مواضعها، ليحصلوا على دراهم معدودات من المترفين والمستكبرين، فيلحقون بهم عند الله، ويعتبرون من الظالمين. ولأن الله لا يهدي الظالمين فإنهم يخرجون من إطار العلماء بالله، ولا يمكن أن يكونوا سفراء بين الله وعباده المؤمنين، ولا تكون آراؤهم حجة شرعية، لأنها تنبعث من وساوس الشيطان وليس من وحي الرحمن، ومن هنا لا يعتبر الشرع المقدس الفقيه غير العادل فقيها أبدا.

[٦-٧] ولقد تورط اليهود في التكذيب والظلم بالآيات فكانوا مصداق مثل الله فيهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، ولكنهم سعوا للاحتفاظ بعلاقة ظاهرية مع رسالة الله ليستغلوا السذج من الناس باسمها، فزعموا أن الدين حكرا عليهم، وأنهم وحدهم يمثلون الشرعية الدينية، وأن من يجرؤ على الكلام في فضائحهم إنما هو مارق يجب قتله، فهم من دون الناس شعب الله المختار، بيد أن القرآن يضعهم أمام محك وجداني ليفضح مزاعمهم، بامتحانهم من خلال أعمق الصفات تجذرا في نفوسهم ألا وهي حب الحياة والبقاء، ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

والسؤال: هل يصلح هذا التحدي محكًّا لمعرفة صدقهم أو عدمه، فهب أنهم سألوا الله الموت فهل يثبت ذلك أنهم أولياء الله؟ ونجيب أن هذا التحدي يحمل على ثلاثة معانٍ:

الأول: أن اليهود الذين باهلهم الرسول ﷺ يومئذ كانوا يموتون، لو تمنوا الموت تلك اللحظة، قال رسول الله: «لَوْ تَمَنَّوُا لَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ»[1].

الثاني: أن أولياء الله بصدق يموتون لو طلبوا منه تعالى لقاءه بالموت لثقل دعائهم في ميزانه عز وجل.

الثالث: أن التمني هنا مقياس من زاويته الوجدانية، وليس مجرد الحديث عنه، ف يحين أن اليهود أشبعوا في قلوبهم حب الدنيا وحب البقاء بحيث لم يكن يتمنى أحدهم الموت أبدا، وذلك بسبب كفرهم بالآخرة وعلّمهم أنهم لا يملكون فيها شيئا، وهذا مقياس يميِّز أولياء الله من غيرهم، فإنه مكتوب في التوراة: «أَوْلِيَاءُ الله يَتَمَنَّوْنَ المَوْتَ»[2]، وفي الخبر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي ذَرٍّ فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ مَا لَنَا نَكْرَهُ المَوْتَ فَقَالَ: لِأَنَّكُمْ عَمَرْتُمُ الدُّنْيَا وَأَخْرَبْتُمُ الآخِرَةَ فَتَكْرَهُونَ أَنْ تُنْقَلُوا مِنْ عُمْرَانٍ إِلَى خَرَابٍ»[3]، أما الأولياء الذين عمروا آخرتهم فهم يحبون الانتقال إليها، وليس اليهود كذلك.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وكيف يتمنون الموت وهو الجسر الموصل إلى لقاء الله والجزاء من عنده وقد قدموا الخطايا والذنوب. إن أعمالهم وأفكارهم تؤكد فيهم حب

---

(١) بحار الأنوار: ج٩، ص١٦٣.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٣٦٦، بحار الأنوار: ج٦، ص١٢٥

(٣) الكافي: ج٢، ص٤٥٨.

الدنيا وحب البقاء، ومن جانب آخر تُكَرِّه لهم لقاء الله والآخرة. وإذا استطاعوا أن يخدعوا الناس بأنهم أولياء لله ويخفوا حقيقتهم عنهم فإنهم لن يخدعوا الله أبداً.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ وإذا كانت هذه الصفة تصدق في سائر اليهود المنحرفين عن التوراة فإنها أصدق في أحبارهم الذين كانوا متشبثين بالحياة؛ وأية حياة، وفي مقابل أي ثمن؟. حياة الذل والتبعية والمهانة، وبثمن فقدان دينهم وعزتهم، وربما راحتهم. وأعوذ بالله عندما يصبح العالم جبانا، فإنه لا يجعل نفسه فقط تابعا ذليلا للجبارين، بل وأيضا يجعل من أتباعه مجموعة ذليلة وخاضعة لكل حاكم ظالم، ويرسم خطًّا انهزاميًّا تبريريًّا في واقع المجتمع بما يبثه من أفكار سلبية وبما يحرفه من نصوص دينية.

وهذه السنة جرت في علماء اليهود والنصارى وفي بعض علماء المسلمين الذين مازالوا متسكعين على أبواب الملوك سرًّا وعلناً، يؤيدون جرائمهم، ويكيلون لهم سيل الفتاوى الكاذبة أنى شاؤوا، ويزورون إرادة الجماهير، ويحرفون نصوص الدين. إنهم بحق قُطَّاع طريق الله[1]، كما جاء في حديث قدسي، وإن خطرهم على الإسلام أشد من خطر ألف سيف وألف بندقية، ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]. وليعلم هؤلاء أنهم مهما خدعوا الناس أو أنفسهم فإن الله عليم بهم، وسيقدمهم للحساب حسب علمه سبحانه لا حسب خداعهم أو التباسهم، وسيلقيهم في الجحيم وهم مهانون.

[٨] ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ وفي الخبر خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ كُلُّ امْرِئٍ لَاقٍ فِي فِرَارِهِ مَا مِنْهُ يَفِرُّ والأَجَلُ مَسَاقُ النَّفْسِ إِلَيْهِ والهَرَبَ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ»[2]، وقال الصادق عليه السلام: «تَعُدُّ السِّنِينَ ثُمَّ تَعُدُّ الشُّهُورَ ثُمَّ تَعُدُّ الأَيَّامَ ثُمَّ تَعُدُّ السَّاعَاتِ ثُمَّ تَعُدُّ النَّفَسَ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ»[3].

وهكذا الإنسان وكل حي لعلى موعد مع الموت، وإنما العمر مطية تحث بنا الخطا نحو ميعادنا المصيري، وإن كل لحظة تمر بنا لهي تنتقص من أجلنا بقدرها، فعلينا ألَّا نحسب تقادم الأيام طولا في أعمارنا، فنقول مثلا: فلان طويل العمر عمره سبعون عاما أو ثمانون، وإنما

---

(١) من وصية الإمام الكاظم عليه السلام لهشام: «يَا هِشَامُ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى دَاوُدَ عليه السلام قُلْ لِعِبَادِي لاَ تَجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ عَالِماً مَفْتُوناً بِالدُّنْيَا فَيَصُدَّهُمْ عَنْ ذِكْرِي وَعَنْ طَرِيقِ مَحَبَّتِي وَمُنَاجَاتِي أُولَئِكَ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ مِنْ عِبَادِي» بحار الأنوار: ج٧٥، ص٣١٣.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٣٦٦.

(٣) بحار الأنوار: ج٦، ص١٤٥.

الحقيقة أنه انتقص من عمره هذا القدر. ثم هل ينتهي بالبشر المطاف عند الموت حتى يطلق لنفسه العنان، ويسير في الحياة حيث يريد؟! إنما الموت قنطرة إلى الحساب والجزاء، والمحاسب هو الله الذي لا يخفى عليه شيء، أما الحياة الدنيا فإنها ليست حياة اللهو واللعب، إنما هي عرصة المسؤولية والالتزام أمام الله بما يأمر به وينهى عنه.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحري بالإنسان الذي يواجه تحدي الزمن والموت أن يتسلح بالإيمان والعمل، لأنهما الطريق الوحيد لانتهاز فرصة العمر، وإذا كان البشر عاجزا عن الفرار من الموت فهو لا ريب قادر على اختيار العاقبة الحسنى بالعمل الصالح، الذي هو سفينة النجاة والميزان الأوحد عند الله، لا الحسب والنسب أو الانتماء الظاهر.

[٩] وهكذا مهد الله -بالآية السابقة- للحديث عن الجمعة واعتبارها عيداً للأمة، ويؤكد استقلالها في شعائرها بالإضافة إلى استقلالها في رسالتها عن الأمم الأخرى، كالنصارى واليهود الذين لهم رسالتهم (التوراة والإنجيل) وعيدهم (السبت والأحد)[١]، ويعطي القرآن في هذه السورة صلاة الجمعة ويومها الموقع والمفهوم الحقيقي في منهج الإسلام، فالجمعة على الصعيد الخارجي رمز الاستقلال وعلى الصعيد الداخلي رمز الوحدة والائتلاف.

ومن هذه الحيثيات وأخرى غيرها تأتي الدعوة الإلهية بالسعي لصلاة الجمعة وترك كل ما سواها لهوا أو بيعا أو ما أشبه من شؤون الدنيا، وهكذا أصبح السعي إلى الجمعة لدى بعض المسلمين (مذاهب وعلماء) أمرا مفروضا بإجماع الأمة عند توافر شروطها، وجاء في كتاب من لا يحضره الفقيه مروياً: «أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ إِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ نَادَى مُنَادٍ حُرِّمَ الْبَيْعُ لِقَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾»[٢]. وقال الإمام الباقر عليه السلام يصف اهتمام الرعيل الأول من المسلمين بالجمعة: «وَاللهِ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله كَانُوا يَتَجَهَّزُونَ لِلْجُمُعَةِ يَوْمَ الْخَمِيسِ»[٣]، وعن جابر بن عبد الله قال: «أَقْبَلَتْ عِيرٌ وَنَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله الْجُمُعَةَ فَانْفَضَّ النَّاسُ إِلَيْهَا فَمَا بَقِيَ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا أَنَا فِيهِمْ فَنَزَلَتِ الآيَةُ»[٤]، وقال الحسن أبو مالك: أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر فقدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام، والنبي صلى الله عليه وآله يخطب يوم الجمعة، فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع خشية أن يسبقوا إليه، فلم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله إلا رهط، فنزلت الآية،

(١) وهناك إشارات لهذه الفكرة في الأخبار: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا تَهَيَّأَ أَحَدُكُمْ لِلْجُمُعَةِ عَشِيَّةَ الْخَمِيسِ كَمَا تَتَهَيَّأُ الْيَهُودُ عَشِيَّةَ الْجُمُعَةِ لِسَبْتِهِمْ؟» مستدرك الوسائل: ج٦، ص٤٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٢٩٩.

(٣) الكافي: ج٣، ص٤١٥.

(٤) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٥٩.

فقال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَتَابَعْتُمْ حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْكُمْ لَسَالَ بِكُمُ الْوَادِي نَاراً»[1].

إلا أن كثيراً من فقهاء الإسلام اعتبروا وجود الحكم الإسلامي والإمام العادل شرطاً لإقامة صلاة الجمعة، ولعل ذلك مرتكز على كونها من الشعائر الدينية السياسية التي ينبغي ألّا ينتفع منها الظلمة في تضليل الناس وتمكين أنفسهم، فهي من أهم وأبرز المناسبات التي يجتمع فيها المسلمون، مما يسمح للطغاة -في حال عدم وجود حكم إسلامي عادل- اتخاذها منبراً جماهيريًا لتضليل المجتمع، ونحن نقرأ في التاريخ كيف أصبحت خطبها -تحت ظلم حكومات جائرة- مركزا لحرب أولياء الله، كما فعل ذلك الحزب الأموي تجاه الإمام علي وأهل البيت، كما ترى اليوم كيف حول علماء السوء -تحت ظل الأنظمة الجائرة- خطبتي الجمعة بوقا من أبواق الطغاة إلى حد صاروا يتسلمون خطبهم من الحكومات نفسها، ويستلمون لذلك الأجر.

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن علي عليه السلام أنه قال: «لَا يَصْلُحُ الْحُكْمُ وَلَا الْحُدُودُ وَلَا الْجُمُعَةُ إِلَّا لِلإِمَامِ أَو مَنْ يُقِيمُهُ الإِمَامُ»[2]. وهكذا روى سماعة في موثقة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنِ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ عليه السلام: «أَمَّا مَعَ الإِمَامِ فَرَكْعَتَانِ وأَمَّا مَنْ يُصَلِّي وَحْدَهُ فَهِيَ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ بِمَنْزِلَةِ الظُّهْرِ، يَعْنِي إِذَا كَانَ إِمَامٌ يَخْطُبُ فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ إِمَامٌ يَخْطُبُ فَهِيَ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ وإِنْ صَلَّوْا جَمَاعَةً»[3].

وفي خبر مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «.... فَإِنْ قَالَ: فَلِمَ صَارَتْ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ، إِذَا كَانَتْ مَعَ الإِمَامِ رَكْعَتَيْنِ وَإِذَا كَانَتْ بِغَيْرِ إِمَامٍ رَكْعَتَيْنِ وَرَكْعَتَيْنِ، قِيلَ: لِعِلَلٍ شَتَّى، مِنْهَا أَنَّ النَّاسَ يَتَخَطَّوْنَ إِلَى الْجُمُعَةِ مِنْ بُعْدٍ فَأَحَبَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُمْ لِمَوْضِعِ التَّعَبِ الَّذِي صَارُوا إِلَيْهِ، وَمِنْهَا أَنَّ الإِمَامَ يَحْبِسُهُمْ لِلْخُطْبَةِ وَهُمْ مُنْتَظِرُونَ لِلصَّلَاةِ، وَمَنِ انْتَظَرَ الصَّلَاةَ فَهُوَ فِي صَلَاةٍ فِي حُكْمِ التَّمَامِ، وَمِنْهَا أَنَّ الصَّلَاةَ مَعَ الإِمَامِ أَتَمُّ وَأَكْمَلُ لِعِلْمِهِ وَفِقْهِهِ وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ، وَمِنْهَا أَنَّ الْجُمُعَةَ عِيدٌ وَصَلَاةَ الْعِيدِ رَكْعَتَانِ، وَلَمْ تُقْصَرْ لِمَكَانِ الْخُطْبَتَيْنِ، فَإِنْ قَالَ: فَلِمَ جُعِلَتِ الْخُطْبَةُ؟.

قِيلَ: لِأَنَّ الْجُمُعَةَ مَشْهَدٌ عَامٌّ فَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ الإِمَامُ سَبَباً لِمَوْعِظَتِهِمْ وَتَرْغِيبِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَتَرْهِيبِهِمْ مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَتَوْقِيفِهِمْ عَلَى مَا أَرَادَ مِنْ مَصْلَحَةِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَيُخْبِرُهُمْ بِمَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ مِنَ الآفَاتِ وَمِنَ الأَهْوَالِ الَّتِي لَهُمْ فِيهَا الْمَضَرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ، فَإِنْ قَالَ: فَلِمَ جُعِلَتْ خُطْبَتَيْنِ؟. قِيلَ: لِأَنْ يَكُونَ وَاحِدَةٌ لِلثَّنَاءِ وَالتَّمْجِيدِ وَالتَّقْدِيسِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالأُخْرَى لِلْحَوَائِجِ وَالإِعْذَارِ وَالإِنْذَارِ

(١) بحار الأنوار: ج٢٢، ص٥٩.
(٢) جواهر الكلام: ج١١ ص١٥٨.
(٣) الكافي: ج٣، ص٤٢١.

وَالدُّعَاءِ وَمَا يُرِيدُ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ مَا فِيهِ الصَّلَاحُ وَالفَسَادُ...»[1].

وهكذا نقل العلامة الشيخ حسن النجفي إجماع الطائفة على اشتراط الإمام العادل (الحاكم) حتى بلغ أربعين شهادة على هذا الإجماع[2]، منها: قول الكركي: «يشترط لوجوب الجمعة السلطان العادل وهو الإمام أو نائبه عموماً أو في الجمعة بإجماعنا»[3].

ولكن السؤال: هل هذا الإجماع يدل على أن شرط وجوب الجمعة وجود إمام عادل أنى كان أم إمام معصوم من أهل البيت عليهم السلام خصوصا؟ يبدو لي أن القضية تتصل بموضوع الولاية العامة للفقهاء العدول، فمن رأى أنهم امتداد لحكم المعصومين عليهم السلام ينوبون عنهم نيابة عامة، وأن عليهم تطبيق كل واجبات الشريعة من إقامة الحدود وفرض الجهاد والزكاة، و. و.، قال بوجوب الجمعة مع كل إمام عادل، والظاهر أن الجمعة ليست أعظم من إقامة الحدود، والدفاع عن حرمات المسلمين، فهي الأخرى من شؤون ولي الفقيه الحاكم، أما الذين لا يتصورون إقامة حكومة إسلامية في غيبة الإمام المعصوم فإنهم لا يرون الجمعة فيها أيضا لأنهم في الأغلب يشترطون إذن الإمام فيها، ويعتبرونها من شؤونه كالحدود والقصاص والجهاد.

بلى؛ أجاز أغلب الفقهاء اختيار الجمعة بالمجتهد العادل أو حتى بإمام جماعة عادل في ظروف الحرية، ومع عدم وجود حكومة إسلامية عادلة، من هنا قال المحقق الحلي في المعتبر: «السلطان العادل أو نائبه شرط وجوب الجمعة، وهو قول علمائنا. وقال أبو حنيفة: يشترط وجود إمام وإن كان جائرا. وقال الشافعي: لا يشترط. ورده بأن معتمدنا فعل النبي فإنه كان يعين لإمامة الجمعة -وكذا الخلفاء بعده- كما يعين للقضاء، وكما لا يصح للإنسان أن ينصب نفسه قاضيا من دون إذن الإمام كذا إمامة الجمعة. ثم قال: وهل للفقهاء المؤمنين -حالة الغيبة- والتمكن من الاجتماع والخطبتين صلاة الجمعة؟ أطبق علماؤنا على عدم الوجوب، واختلفوا في استحباب إقامتها فالمشهور ذلك»[4].

ويوم الجمعة يوم عيد للمسلمين وهو سيد الأيام، وليلتها ليلة عبادة وتهجد، ويندب فيها المزيد من الابتهال إلى الله، والانشغال بالمستحبات، وزيارة القبور لتذكر الموتى والترحم عليهم والاعتبار بمصيرهم، وبالذات قبور أئمة الهدى عليهم السلام ومرقد سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وتجديد العهد مع الرسول وآل بيته والإمام الحجة عليه السلام بالاستقامة على خط الرسالة.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص٧٣.

(٢) جواهر الكلام: ج١١، ص١٥٦.

(٣) جامع المقاصد: ج٢، ٣٧١، جواهر الكلام: ج١١، ص١٥٤.

(٤) المعتبر في شرح المختصر: ج٢، ص٢٧٩، جواهر الكلام: ج١١، ص١٥٣.

كما ينبغي صلة الأرحام، والتوجه إلى المساكين، والتزاور مع الإخوان، في هذا اليوم الشريف. كما ينبغي محاسبة الذات لتجديد العزم على متابعة الخطط السليمة ومقاومة الانحرافات والضلالات.

وعموما فإن يوم الجمعة ليس يوم اللعب واللهو والانشغال بالتوافه، وإنما هو فرصة المؤمنين للتفرغ للعبادة وذكر الله بخير الأعمال يومئذ حيث صلاة الجمعة المتميزة بفروضها وخطبتها ومظهرها الاجتماعي. وهذا نداء الله ودعوته للالتزام بها وإقامتها إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ فكل مؤمن إذن مكلف بالامتثال لهذا الأمر الإلهي ما لم يمنعه مانع مشروع عند الله، وحيث يدعو الله للصلاة جمعة كل أسبوع فإن هذه الفريضة تبقى مقياسا لوحدة الأمة ومصداقية إيمانها بنسبة التفاعل مع هذا التكليف الرباني الحكيم.

وإذ ينادي الوحي المؤمنين بالسعي للفضيلة وذكر الله -سعيا بالروح قبل الجسد- فلا بد لنا أن نتحرر من شتى الأصر والقيود التي تثقلنا وتشدنا إلى الأرض أولا، أنى كانت مادية أو معنوية، وهذه الفكرة تفسر لنا العلاقة بين الدعوة للسعي إلى ذكر الله وبين الأمر بترك سائر شؤون الدنيا كالبيع وقت صلاة الجمعة.

وقد أفتى كثير من فقهاء المسلمين بحرمة البيع حينها، قال المحقق في الشرائع: «إن باع -عند النداء- أثم وكان البيع صحيحاً على الأظهر». ثم قال العلامة الشيخ حسن النجفي عن هذا الحكم: «الأشهر بل هو المشهور نقلًا وتحصيلًا»[1]، بل قال بعضهم: ببطلان العقد أساسًا إذا صارت الجمعة واجبة لازمة بتوافر شروطها.

ولعل الإنسان يتحسس للوهلة الأولى الذي يقع فيها فكره على هذا الحكم الإلهي أنه يخالف مصالحه، ولكنه إذا ما درسه من أبعاده المختلفة، وارتقى درجة في الوعي بحقائق الحياة، وجده منطويًا على خير الدنيا والآخرة بالنسبة له، كما وصف القرآن: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ومن ذلك الخير وحدة المجتمع المسلم، وما يتلقاه من الوعي والهدى في شؤون الدين والدنيا حيث خطبتي الصلاة، وكذلك التوفيقات الإلهية التي يختص بها المصلون المستجيبون لدعوته.

وهذه بعض الأخبار التي تبين جانبا من فضائل الجمعة:

- قال رسول الله ﷺ: «أُفٍّ لِرَجُلٍ لَا يُفَرِّغُ نَفْسَهُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ لِأَمْرِ دِينِهِ فَيَتَعَاهَدُهُ

---

(١) جواهر الكلام: ج١١، ص٣٠٦.

ويَسْأَلَ عَنْ دِينِهِ»(١).

- وقال ﷺ: «إِنَّ لَكُمْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ حَجَّةً وَعُمْرَةً فَالحَجَّةُ الهِجْرَةُ إِلَى الجُمُعَةِ وَالعُمْرَةُ انْتِظَارُ العَصْرِ بَعْدَ الجُمُعَةِ»(٢).

- وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ نَزَلَ المَلَائِكَةُ المُقَرَّبُونَ مَعَهُمْ قَرَاطِيسُ مِنْ فِضَّةٍ وأَقْلَامٌ مِنْ ذَهَبٍ فَيَجْلِسُونَ عَلَى أَبْوَابِ المَسْجِدِ عَلَى كَرَاسِيَّ مِنْ نُورٍ فَيَكْتُبُونَ النَّاسَ عَلَى مَنَازِلِهِمُ الأَوَّلَ والثَّانِيَ حَتَّى يَخْرُجَ الإِمَامُ، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ ولَا يَهْبِطُونَ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَيَّامِ إِلَّا فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ (يَعْنِي المَلَائِكَةَ المُقَرَّبِينَ)»(٣).

- وقال الإمام الصادق عليه السلام: «مَا مِنْ قَدَمٍ سَعَتْ إِلَى الجُمُعَةِ إِلَّا حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهَا عَلَى النَّارِ»(٤).

- وقال عليه السلام: «مَنْ صَلَّى مَعَهُمْ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ كَانَ كَمَنْ صَلَّى خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ»(٥).

- وقال عليه السلام: «وإِنَّكُمْ تَتَسَابَقُونَ إِلَى الجَنَّةِ عَلَى قَدْرِ سَبْقِكُمْ إِلَى الجُمُعَةِ وإِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَتُفَتَّحُ لِصُعُودِ أَعْمَالِ العِبَادِ»(٦).

[١٠] ولأن الإسلام جاء منهجا كاملا وشاملا لأبعاد الحياة الإنسانية جعله الله متوازنا في أصوله وأحكامه بحيث لا يتضخم بسببه جانب في حياة الإنسان على حساب جانب آخر، فهو منهج الدنيا والآخرة، والدين والسياسية، والروح والجسد، وحيث تتكامل شخصية الإنسان بالوصول إلى المصالح المشروعة من جانب وبالتزام الواجبات المفروضة من جانب آخر فقد دعاه الدين إلى مصالحه جنبا إلى جنب دعوته للالتزام بواجباته، ولم يجعل فروضه بديلا عما يطمع إليه الناس من المصالح والتطلعات، ولذا نجد القرآن فور ما يأمر بالسعي إلى صلاة الجمعة يأمر بالانتشار لممارسة الحياة الطبيعية وبلوغ المآرب والأهداف، والحصول على الرزق ولقمة العيش. وإن الدعوة للصلاة يوم الجمعة وتحريم البيع حينها هي منهجية لتأسيس انتشار الإنسان المؤمن لابتغاء فضل الله على هدى القيم والإيمان.

(١) الكافي: ج١، ص٤٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٨٦، ص٢١٤.
(٣) الكافي: ج٣، ص٤١٣.
(٤) وسائل الشيعة: ج٧، ص٢٩٧
(٥) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٣٨٢.
(٦) الكافي: ج٣، ص٤١٥.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ كلٌّ إلى مقصده. وهذه الدعوة المنطوية على الأمر بالسعي لشؤون الدنيا تهدينا إلى أن الصلاة والعبادة ليست بديلا عن ممارسة الحياة الطبيعية والاجتماعية، كما فهمها بعض المتصوفة، فالدين منهج لتوجيه الإنسان وقيادة الحياة، يجد الناس فيه فرصة للعبادة ومنهجا للسعي والعمل، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام يفسر هذه الآية: «إِنِّي لَأَرْكَبُ فِي الحَاجَةِ الَّتِي كَفَانِيهَا اللهُ مَا أَرْكَبُ فِيهَا إِلَّا لِالْتِمَاسِ أَنْ يَرَانِيَ اللهُ أُضْحِي فِي طَلَبِ الحَلَالِ أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ بَيْتاً وطَيَّنَ عَلَيْهِ بَابَهُ، وقَالَ رِزْقِي يَنْزِلُ عَلَيَّ كَانَ يَكُونُ هَذَا أَمَا إِنَّهُ يَكُونُ أَحَدَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ دَعْوَةٌ.

قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: رَجُلٌ عِنْدَهُ المَرْأَةُ فَيَدْعُو عَلَيْهَا فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُ لِأَنَّ عِصْمَتَهَا فِي يَدِهِ ولَوْ شَاءَ أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَهَا، والرَّجُلُ يَكُونُ لَهُ الحَقُّ عَلَى الرَّجُلِ فَلَا يُشْهِدُ عَلَيْهِ فَيَجْحَدُهُ حَقَّهُ فَيَدْعُو عَلَيْهِ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُ لِأَنَّهُ تَرَكَ مَا أُمِرَ بِهِ، والرَّجُلُ يَكُونُ عِنْدَهُ الشَّيْءُ فَيَجْلِسُ فِي بَيْتِهِ فَلَا يَنْتَشِرُ ولَا يَطْلُبُ ولَا يَلْتَمِسُ الرِّزْقَ حَتَّى يَأْكُلَهُ فَيَدْعُو فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُ»[1]، بلى؛ إن فضل الله ورزقه يُنال بالسعي والعمل الحثيث من أجله، لذلك يقول تعالى بعد الدعوة للانتشار: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي إنكم حينئذ في موضع يُرتجى فيه الفضل والرزق أو تجدون أنفسكم أمام فضل من الله تصيبون منه رزقكم.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وأهمية الاستمرار في ذكر الله للإنسان حيث ينتشر في الأرض ويبتغي من فضل الله أنه يجنبه الانحراف والوقوع في الأخطاء بسبب نسيان الله، فإن ذاكر الله لا يسعى نحو الحرام، ولا يسلك الطرق الملتوية، ولا يغش الناس ويضرهم، فهو يُرتجى له الصلاح والفلاح.

ومن اللطائف الواردة في هذه الآية أنه تعالى قال: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ ببناء الفعل للمجهول في حين يفترض أن يقول: فإذا قضيتم الصلاة، وصلاً بخطابه الآنف للمؤمنين، إلا أن هذه الصيغة للفعل تعطي حرمة لوقت الصلاة بالذات، بحيث يكون المفهوم أن البيع وقت صلاة الجمعة المستوفية شروطها حرام لمن شهد الصلاة مع المسلمين ولمن لم يشهدها عمدا، ولو جاء التعبير للمعلوم: فإذا قضيتم الصلاة لكان الحكم منحصرا بالمصلين فقط ولا يشمل غير المصلين.

[١١] وبعد أن يرسم الوحي للمؤمنين الموقف المطلوب تجاه صلاة الجمعة -وهو السعي لذكر الله وترك البيع وقتها- ينثني السياق القرآني لنقد ظاهرة الانفضاض إلى شؤون

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٧، ص٢٨.

الدنيا وتقديمها على الصلاة، مما يشير إلى وجود ضعف في الإيمان لدى المجتمع، وانخفاض في مستوى التفاعل مع شعائر الدين وبراجه.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ خوف أن يفوتهم ذلك أو يسبقهم الآخرون إليه، وهذه الظاهرة تنطوي على هزيمة أمام جموح النفس وميلها العظيم للدنيا، مما يكشف عن ضعف الإيمان الذي يريده الإسلام مقدما وما يتصل به على كل شيء في حياة أبنائه. وقد استفاد الفقهاء والمفسرون حكماً باستحباب الوقوف أثناء خطبتي الجمعة من هذه الآية إذ وصفت الرسول قائما بعد الانفضاض. وعن أبي بصير: «أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْجُمُعَةِ كَيْفَ يَخْطُبُ الإِمَامُ؟ قَالَ عليه السلام: يَخْطُبُ قَائِماً إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾»[1].

ويعالج القرآن هذه الظاهرة السلبية التي تنم عن ترجيح التجارة واللهو على حضور الصلاة ببيان أن ما عند الله الذي يتأتى بالتزام مناهجه خير من ذلك كله. والآية نفسها فضح للاعتقاد بالتناقض بين الالتزام بالدين وبين الدنيا، والذي يقع فيه البعض عمليًّا فلا يرون إمكانية الجمع بين الاثنين فيرجحون الدنيا باعتبارها الأجر المقبوض على الآخرة المؤجلة. والحقيقة أن خير الالتزام بمناهج الله في الحياة ليس مقتصرا على الآخرة فقط، بل يشمل الدنيا أيضاً ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فالذي يريد كل الخير معنويًّا وماديًّا، وفي الدنيا والآخرة ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فإن سبيله اتباع نهجه القويم، وأي خير في تجارة لا تقوم على هدى الوحي وتقوى الله؟ إنها تزرع الطبقية المقيتة، والفقر، وتسبب الانحطاط في الاقتصاد.

وفي ترتيب كلمات الآية الكريمة ملاحظة جديرة بالالتفات، ففي البداية عندما أراد الله بيان ظاهرة الانفضاض عن الصلاة قدم التجارة -وهي الأهم- على اللهو، وذلك ليبين مدى ترجيح البعض لأمور الدنيا على شؤون الدين، فهم ليس تستخفهم التجارة وحسب بل يتأثرون بما هو أبسط وأقل شأنا منها وهو اللهو. وحيث أراد التأكيد على أن ما عنده أفضل مما ينفض له الناس قدم الأدنى على الأهم تدرجا، فما عند الله ليس خيرا من اللهو بل حتى مما هو فوقه كالتجارة.

بلى؛ إن البعض ومنهم التجار لا يلتزمون بالشعائر الدينية خشية الخسارة أو أن تفوتهم أرزاقهم، ولكن الله يؤكد لهم العكس وهو أن الصلاة وبالذات صلاة الجمعة تجلب الرزق، باعتبارها صلة الإنسان بضامن الرزق ومعطيها، بل بخير الرازقين.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٧، ص٣٣٤، تفسير القمي: ج٢ ص٣٦٧.

المحتويات